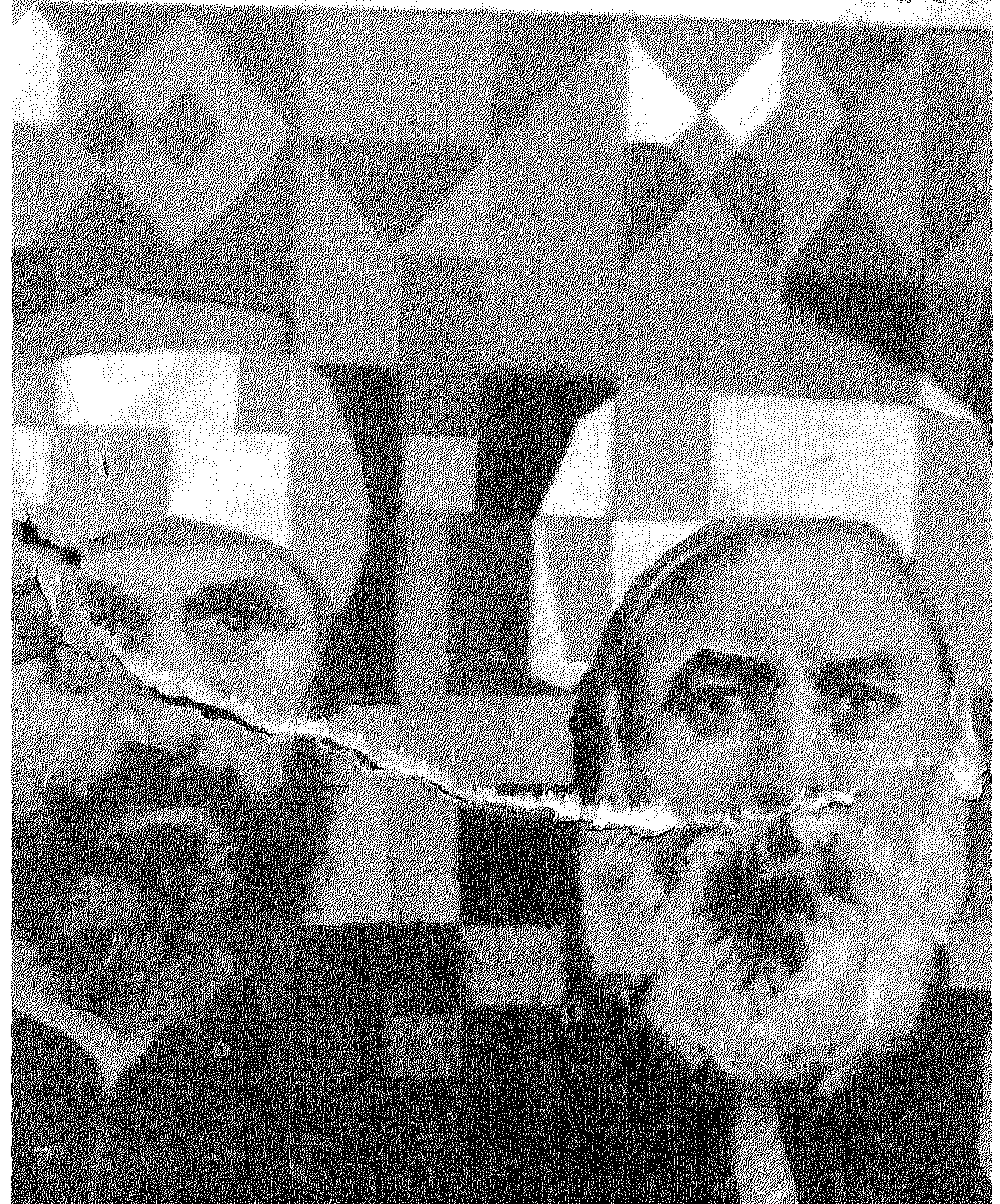

Bibliotheca Alexandrina
0136238

كتاب الهلال

الأفغاني ومحمد عبده

و.س. بلنت ● د. علي شلش

سلسلة
ثقافية
شهرية



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢١ - ربيع الثانى ١٤٠٦ - يناير ١٩٨٦

NO . 421 - january 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد [illegible] والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى [illegible] انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر موسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
ســــميحة حســــنين



تأليف

و. س. بلنت

ترجمة

د. علي شلش

دار الهلال

مقدمـــــــة

على طول التاريخ الحديث اجتذب الوطن العربى كثيرين من الاوربيين الذين ساحوا فى ربوعه ، أو غامروا بين اهله ، أو تعلقوا بتراثه .

ومن هؤلاء رجل انجليزى توسع فى السياحة فى ربوع الوطن العربى وعشق بواديه وحواضره ، وصادق الكثيرين من بسطائه وكبرائه . ونذر نفسه للدفاع عن حرية شعوبه واستقلالها ، وتبنى الدعوة الى توحيد صفوف المسلمين لمجابهة الزحف الأوربى المسيحى على بلاد الاسلام والمسلمين ، ابتداء من الهند الى الجزائر ، دون أن يشغله ذلك عن الدفاع - أيضا - عن حرية ايرلندا الكاثوليكية وحقها فى الاستقلال .

كان الرجل من أوائل أصحاب فكرة إعادة الخلافة الاسلامية الى العرب واستقلالهم عن الترك . وكان أول انجليزى ناصر الحركة الوطنية فى مصر ، وساندها منذ أواخر عهد اسماعيل حتى نشوب ثورة ١٩١٩ ، وعرف رجالها معرفة شخصية ، وكان بيته فى مصر وبيوته فى انجلترا مزارا ومرجعا ومقاما للكثير من الشخصيات التى ارتبطت بهذه الحركة مثل الأفغانى وعرابى والبارودى ومحمد عبده وعبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد . بل تكفل بنفقات الدفاع عن عرابى عند محاكمته بعد الاحتلال الانجليزى لمصر . وأصدر فى شيخوخته مجلة فى لندن للدفاع عن مصر .

كان هذا الرجل ايضا فنانا مصورا ونحاتا وشاعرا ، أشبه با[illegible]
بطوطة فى أسفاره المتعددة وحبه لتسجيل خواطره ومشاهدا[illegible]
وكان يتميز . فوق هذا كله ، بحاسة المؤرخ . وتعد كتبه من
الناحية مرجعا لاغنى عنه ، لا فى تاريخ الوطن العربى فحسب
وإنما فى تطوره السياسى و الجغرافي والعمرانى أيضا .

اسمه بالكامل : ويلفرد سكاون بلنت . وشهرته « بلنت » بكسر
الباء وفتح اللام . وقد عاش ٨٢ عاما (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) قضى
نحو نصفها فى بلاد المسلمين التى نكبت باحتلال قومه

وقد سجل بلنت فى اربعة من كتبه الضخمة قصة علاقته
بالافغانى وتلميذه محمد عبده ، وهى قصة لم تظهر تفاصيلها
بالعربية من قبل . ومع أن كتابه عن احتلال الانجليز لمصر قد
ترجم الى العربية فيبدو ان كتبه الاخرى لم يهتم بها أحد ممن
كتبوا تاريخ الافغاني وعبده ، فضلا عن انه من الصعب اليوم
ترجمتها كاملة ، لا لأنها كتب ضخمة ، ولكن لانها مليئة بأحداث
وشخصيات أخرى انجليزية وهندية وغيرها مما لايهمنا . ولكنى
وجدت من الأنسب أن أنقل مايخص الافغانى ومحمد عبده فى كتب
بلنت الاربعة ، وان أشرح مايدعو الى الشرح داخل أقواس بدلا
من الهوامش ـ قدر الامكان ـ حتى تسهل القراءة والمتابعة . أما
هذه الكتب الاربعة فهى على الترتيب :

١ ـ التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر .
٢ ـ الهند فى عهد ريبون .
٣ ـ جوردون فى الخرطوم .
٤ ـ يومياتى : جزءان .

وقد كان بلنت نفسه فى هذه الكتب اقرب الى المؤرخين العرب
القدماء ، ولاسيما عبد الرحمن الجبرتى ، فى تسجيله للتاريخ . فهو
يعتمد على اليوميات ، يسجلها أولا بأول ، ويوما بعد يوم . وهو
ايضا يدون يومياته بتلقائية وعفوية وضحتين . وليس من
المستبعد أن يكون قد تأثر بالجبرتى أو اعجب بمنهجه . فقد اشار

فى إحدى يومياته فى القاهرة قبل أن يضع كتبه هذه على الورق . وكان قد قرأ له كتابه الكبير « عجائب الآثار » مترجما الى الانجليزية . وأبدى إعجابه به .

غير ان كتب بلنت هذه تشكل فى الحقيقة مادة فى غاية الاهمية بالنسبة لتاريخ الأفغانى ومحمد عبده . وهى مادة ظلت مجهولة كل تلك السنين ، بالرغم من محاولات حافظ عوض ومحمد امين حسونة لنقل بعضها أو الاشارة اليه خلال الثلاثينات ، وبالرغم ايضا من ترجمة كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » الذى طبعته صحيفة « البلاغ » مفرقا ثم جمع فى كتاب من ترجمة عبد اللطيف حمزة ، فى حين لم يترجم أحد كتابه الآخر « جوردون فى الخرطوم » الذى يتمم زميله ويضم عددا لايستهان به من الوثائق المهمة لفترة احتلال الانجليز مصر من ١٨٨٢ الى ١٨٨ . وقد لاحظت فيما ترجم من يوميات بلنت - فى صحيفة كوكب الشرق ١٩٣٢ ومجلة الرسالة ١٩٣٩ - انه يفتقر الى الكثير من الدقة والامانة فى النقل والتعبير ، وهذا ماحاولت ان اتحاشاه قدر طاقتى وامكاناتى .

واعتقد أن كتابة تاريخ الافغانى وتلميذه محمد عبده وفهم حياتهما ونضالهما لايتمان دون الرجوع الى هذه المادة التى تناثرت فى كتب بلنت السابقة .

بهذا كله أرجو أن أكون قد وضعت امام المؤرخين والدارسين للأفغانى وعبده مادة لاغنى عنها

جمال الدين الأفغانى

المؤسس الحقيقى لحركة الاصلاح الدينى المستنيــر فى مصر

جاءت أول اشارة للأفغانى عند بلنت فى كتابه المشـ
« التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » فقد قدم له سير
مختصرة . قال :

« من الغريب ان المؤسس الحقيقى لحركة الاصلاح الدينى
المستنير بين علماء الدين فى القاهرة لم يكن عربيا ولامصريا
ولاعثمانيا ، وانما كان رجلا عبقريا بريا هو الشيخ جمال الد
الافغانى الذى شهدت آسيا الوسطى تجربته الوحيدة فى العالم قبـ
حضوره الى مصر ، ولد فى افغانستان ، وتلقى تعليمه الدينى فـ
بخارى . وفى تلك المنطقة النائية ، ودون آية صلة فيما يبدو بأ
معلم من معلمى المراكز الأكثر تمدنا فى الفكر الاسلامى قا
بتطوير الأفكار التى ترتبط الآن باسمه من خلال دراسته وتأملاته
الخاصة .

«وتكمن آصالة جمال الدين فى أنه سعى الى توجيه الثقاف
الدينية فى البلاد التى زارها نحو ضرورة إعادة النظر فى الوضـ
الاسلامى ككل . ودعا الى ضرورة اعادة النظر ايضا فى اقام
حركة عقلية خارجية تتفق مع المعرفة الحديثة بدلا من الت
بالماضى وحده . ومكنته معرفته الوثيقة بالقرآن والسنة من توضيـ
أن شريعة الاسلام اذا فسرت ونوقشت على آساس القرآن والسنـ
فهى قادرة عند ذاك على استيعاب اكثر التطورات تحررا ، وان
الشريعة لايعارضها آى تغيير صالح فى الحقيقة .

، لقد أتم دراساته سنة ١٨٧٠ م وكان فى سن الثانية والثلاثين
بعد ذاك ، فسافر الى الهند حتى وصل الى بومباى ، ثم حج الى
مكة ، ثم جاء الى القاهرة وتوجه منها الى القسطنطينية . ولم يمكث
فى زيارته الأولى للقاهرة أكثر من ٤٠ يوما ، ولكنه تعرف خلالها
الى بعض طلاب الازهر ، ووضع حجر الأساس للتعاليم التى طورها
بعد ذلك وفى القسطنطينية ظهرت فصاحته وعلمه . وعين فى
أنجمان العلم » (دار العلوم) التى كان يحاضر فيها فى كل
الموضوعات . فقد كانت معرفته شاملة . وكان يتمتع بحضور
البديهة وسرعتها ، وكذلك بذاكرة مدهشة ، حتى لقد قيل عنه انه
يستطيع ان يقرأ كتابا فى أى موضوع فيحفظه من القراءة الأولى
كما لوكان نقش على لوح عقله الى الأبد . وقد بدأ بتعليم النحو
والعلوم ثم الفلسفة والدين وكون لنفسه معجبين وأتباعا .

« ومع ذلك فمن الغريب أن روح النقد الجديدة فى الاسلام
العربى بدأت ـ كما حدث ـ على يدى رجل تعلم فى بلاد غير متقدمة
كالتى فى آسيا الوسطى وفى جامعة نائية للغاية .

« لم يكن عمله فى القسطنطينية منتظما ولكنه كان مرموقا وان لم
يدم طويلا »

وروى بلنت بعد ذلك ماحدث للأفغانى حين تألب عليه شيخ
الاسلام فى العاصمة العثمانية فنصحه البعض بالعودة الى مصر .
وقد روى ذلك بصورة قريبة جدا من الصورة المشهورة التى سبق
ان رواها الشيخ محمد عبده فى تقديمه لترجمة « الرد على
الدهريين » عام ١٨٨٦ . ومن المرجح ان بلنت قد رجع الى هذه
المقدمة كما رجع الى الأفغانى نفسه وتلميذه محمد عبده . فيما
عدا إشارته الى زيارة الأفغانى للولايات المتحدة ، وهى زيارة لم
يشر اليها هو ولا أحد من تلاميذه أو كتاب سيرته . وقد اضاف بلنت
بعد ذلك أن الأفغانى نقل لتلاميذه فى مصر « مستوعات المعرفة
المسوعة التى يحملها ، وفعل ذلك دون تحفظ » كما الهمهم » روحه
النقدية وبعض شجاعته ... » وكانت الشجاعة فى الحقيقة أمرا

يحتاج اليه فى تلك الايام أى رجل يريد ان يتكلم فقد كمم الخ
اسماعيل الأفواه فيما عدا الفلاحين وأشد الناس فقرا فى المد
أما اصحاب السلطة الدينية العليا وكبار المسئولين فقد صم
طويلا إزاء الظلم واختاوا عدم الكلام . وربما كانت معركة الافغا
فى القسطنطينية جواز مروره الى تسامح اسماعيل معه . وربما ف
اسماعيل أن الافغانى من ضعف الشأن بحيث لاينطق . ورب
ظن ـ كما فعل عالى باشا وفؤاد باشا اللذان احتضنا الأفغانى ف
تركيا ـ أنه سيحول التعاليم الجديدة الى أداة فى حربه الطويلة م
قناصل اوربا . واذا صح ذلك ـ كما يقول بلنت أيضا ـ فقد سم
لجمال الدين خلال السنوات الاخيرة من عهد اسماعيل بمواصل
محاضراته . ولم يقبض عليه الا حين تولى الحكم توفيق ورسخت
المراقبة المالية الثنائية الانجلوفرنسية . وتم ذلك بناء على أمر
ادارى ، وأرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفى على الفور .

ومع ان بلنت قد جانبه الصواب فى قوله ان الافغانى ارسل الى الاسكندرية ، والصحيح انه ارسل الى السويس ، فقد اضاف ـ الى ماسبق ـ ان الافغانى خلف وراءه فى مصر ماسماه « حزب الاصلاح الحر » الذى قاده محمد عبده ، وانه قضى بعد ذلك سنتين متجولا فى الهند حتى ذهب الى امريكا ، ولكن الافغانى لم يتجول فى الهند كما ذكر بلنت . فقد كانت تنقلاته تتم بناء على رغبة السلطات الانجليزية هناك ، فضلا عن أن ذهابه الى أمريكا أمر لم يحدث ، والأدلة كثيرة لأنه مرَّ بمصر فى طريق عودته من الهند ، وارسل من السويس تابعه ببعض الخطابات الى أصدقائه ومعارفه مثل رياض باشا وشريف باشا وعبد الله فكرى باشا . وقد حمل خطابه الى الأخير تاريخ ٨ صفر ١٣٠٠ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ . وذكر فى مسودة خطابه لرياض أنه ذاهب الى أوربا . ثم ظهر فى باريس فى اوائل يناير لأنه كتب مقالا بجريدة « أبو نضارة » فى ٨ يناير ١٨٨٣ . ومعنى ذلك انه كان من الصعب ان يسافر الى امريكا ويعود فى ذلك المدى الزمنى القصير اذا أخذنا

فى الاعتبار مشقة السفر وطول الرحلة فى ذلك الزمن ولكن . متى عرف بلنت الأفغانى ؟

لقد كان بلنت يتردد على مصر بصفة سنوية تقريبا منذ ١٨٧٥ ومع ذلك لم يلتق بالأفغانى فى سنواته الاخيرة بالقاهرة . بل لم يلقه الا فى لندن بعد إطلاق سراحه فى الهند ورحيله الى فرنسا مارا بلندن . وكان بلنت قد قرر فى مطلع ١٨٨٣ ان يسافر الى سيلان لزيارة احمد عرابى وزملائه المنفيين معه . وأن يتجه بعدها الى الهند بهدف تجديد معرفته بوضع المسلمين هناك ، وكتب عن خطته فى كتابه غير المشهور « جوردون فى الخرطوم » فقال :

« شجعنى على تنفيذ هذه الخطة ذلك الزعيم الرائد لحركة الاصلاح المحمدية السيد جمال الدين الافغانى الذى تجد سيرة له فى غير هذا المكان . وقد عرفته خلال هذا الربيع فى لندن . ومنذ ان طرد من مصر سنة ١٨٧٩ على يدى الرقابة المالية الانجلوفرنسية ساح فى بلاد كثيرة شرقا وغربا . فقد ذهب الى الهند أولا حيث تعرض لاضطهاد الشرطة السياسية . ثم الى الولايات المتحدة حيث حاول الحصول على الجنسية الامريكية ، ثم مر بلندن وذهب الى باريس فى النهاية حيث جمع حوله فريقا من الوطنيين المبعدين من مصر بعد (معركة) التل الكبير . وقد حدثته عما عزمت عليه من زيارة الهند فقال انها ستكون زيارة مفيدة »

لم يذكر بلنت كيف تعرف الى الافغانى ولا من قدمه اليه . ولكنه أقام معه علاقة صداقة استمرت الى قبيل وفاته سنة ١٨٩٧ ، وكان كثير الرجوع اليه فى المسائل السياسية التى تفجرت فى عصره . غير ان رحلته الى الهند كانت بداية تلك الصداقة التى ربطت بينه وبين الافغانى . وقد سجل ذلك فى كتاب اخر غير مشهور عندنا هو « الهند فى عهد ريبون » وكان ريبون هذا حاكما انجليزيا للهند برتبة لورد فى ذلك الوقت ، كان أيضا من أصدقاء بلنت وصاحب دعوته الى زيارة « جوهرة التاج البريطانى » . وفى هذا الكتاب

سجل بلنت تحركاته ومشاهداته باسلوب اليوميات الذى اتبعه فى كتبه الاخرى . واحتفظ للافغانى بالكثير من المداخل والاشارات التى ننقلها هنا بحسب تسلسلها الزمنى بادئين بسفر بلنت من لندن الى باريس بصحبة سكرتيره لويس صابونجى الصحفى السورى المغترب فى ... وقتها .

١٣ سبمبر ١٨٨٣

وصلنا بقطار الليل الى باريس . ونزلنا بفندق سان رومان ، وهو مكان هادىء للقاء أصدقائنا . وقد جاء صابونجى الآن مع جمال الدين . وحين رأيت الشيخ فى لندن خلال الربيع كان يرتدى لباس الشيوخ . أما الآن فهو يرتدى ملابس فصلت على الطريقة الاستانبولية وبدت ـ مع هذا ـ لائقة عليه . وقد تعلم قليلا من الكلمات الفرنسية ، ولكنه لم يتغير . ودار حديثنا عن الهند وامكان حصولى على الثقة الحقيقية للمسلمين هناك . فقال ان كونى انجليزيا من شأنه ان يصعب الأمور جدا ، لان كل صاحب منصب يخشى عليه هناك يعيش فى حالة فزع من الحكومة التى بثت جواسيسها فى كل مكان . وقد كان هو نفسه أقرب الى السجين فى بيته هناك ، وترك الهند والخوف يملأ جوانحه ...

قال ان حيدر اباد يمكن ان تكون افضل مكان لى . لأن بها لاجئين من جميع ارجاء الهند وهؤلاء لايخافون كثيرا من الحكومة البريطانية . وذكر انه سيكتب لى بعض الخطابات الخاصة لشرح وضعى ويوجهها لبعض محررى الصحف الاسلامية هناك . فحدثته عن الوضع السياسى وكيف يبدو لى من الضرورى أن ينضم المسلمون الى الهندوس فى تدعيم لسياسة ريبون .

وسألته عن اللغة التى يجب ان استخدمها فى الحديث عن السلطان (عبد الحميد) فنصحنى بألا أذكر شيئا ضد السلطان فى الهند ولا عن الخلافة العربية . لان هناك فكرة سائدة بأن الانجليز يزمعون إنشاء خلافة عربية ضعيفة فى شبه الجزيرة

يتولاها طفل ويستطيعون استخدامها فى السيطرة على الأراضى المقدسة . ولهذا يحظى اسم السلطان الآن فى الهند باحترام لامثيل له من قبل .

١٤ سبتمبر ١٨٨٣

جاء جمال الدين وصنوع وصابونجى على الافطار ، وظللنا نتحدث طول النهار . وقد جاء الشيخ معه بخطابين كتبهما للنواب عبد اللطيف في كلكتا والنواب رسول يارخان فى حيدر آباد(١) . وآرجو ان يكونا ذا نفع كبير . وقد روى لنا بعض الحوادث الطريفة عن قومه وأسرته تكذب فكرة آن الأفغان شعب سامى وتؤكد آنهم – على العكس – آريون مثل سكان شمال الهند ، ولكن اسرته نفسها عربية ، حافظت دائما على سنة اللغة العربية . ثم تحدث عن التاريخ . وقرآت عليهم قصيدتى « الريح والدوامة » التى ترجمها صابونجى للشيخ ترجمة إجمالية . فقال انه لو سمع آن فى العالم رجلا انجليزيا يتعاطف حقيقةِ مع محن الهند لما صدق . وحثنى صنوع على ترجمة القصيدة الى العربية شعرا بطريقة جيدة على يدى الرقام(٢) تلميذ محمد عبده . وقد استعرضت معه برنامجا رتبته لاعادة الحزب الوطنى فى مصر . ثم تحدثت مع الشيخ حول مشروع اعادة الازهر فى صورة جامعة حقيقية لجميع المسلمين فشرح لى آن الأزهر كان على هذه الصورة فى الماضى » .

عند هذا الحد انتهى ذكر الأفغانى فى يوميات بلنت قبل سفره الى الهند . ومضى بلنت نفسه فى تسجيل يوميات الرحلة بعد ذلك . وكان من الطبيعى آن يرد ذكر الأفغانى مرة اخرى فى الجزء الخاص بالهند . ولاسيما آن بلنت سلم رسائله الى آصدقائه

(١) نواب كلمة اوردية ماخوذة عن العربية بمعنى نائب

(٢) لم ترد عن هذا الاسم اية اشارة فى مصادر العصر وربما يكون بلنت قد سمعه او شبه خطا

وتلاميذه هناك . كما قابل عددا آخر ممن لم يذكرهم له . ففى ٢٩ نوفمبر ١٨٨٢ قابل فى حيدر آباد شابا فى الثانية والعشرين يدعى « لائق على » خلف اباه فى حكم ولاية حيدر آباد ، وذكر له ان الافغاني كان صديقا لأبيه ، ثم دعاه الى الافطار معه يوم السبت أول ديسمبر . ولما ذهب اليه بلنت قابل هناك سكرتيره السيد حسين بلجرامي وأخاه السيد على بلجرامي ، وكلاهما من ابناء الشيعة فيْ مدينة دلهى . وكان الأخير مهندسا تعلم تعليما انجليزيا جزئيا وأصبح فيما بعد عضوا بالمجلس الهندى فى لندن ، وقد ذكر لبلنت أنه لو أعيد عرابى الى مصر ومعه أحرار الأزهر وتكون هناك اساس دينى للأصلاح لكان أثر ذلك عظيما فى الهند وأضاف : « نحن ننظر الى مصر ومكة أكثر مما ننظر الى القسطنطينية ولكننا جميعا فى الهند متخلفون ولذلك لاغنى عن الاساس الدينى » وكان على بلجرامي يكره - كشيعى - السلطان عبد الحميد كما يقول بلنت ، ويرى الأفغانى - الذى عرفه أثناء نفيه فى الهند - « أقرب الى الاشتراكى والمهيج المحرض الذى لايستطيع تحقيق الاصلاح المنشود »

وفى مساء ذلك اليوم من ديسمبر زار بلنت نواب رسول يارخان الذى لم يحضر مأدبة الافطار . وقال عنه انه « عالم شاب فاضل من النوع الأزهرى الذى أعرفه جيدا فى مصر ، متحرر ، اشتراكى وتلميذ متحمس لجمال الدين ، لايعرف الانجليزية ، ولكنه ملم بالفارسية والعربية الى حد ما . وقد تحدثنا بالأخيرة . وقال إن غالبية المسلمين هنا من السنة ولكن لايوجد خلاف كبير بينهم وبين الشيعة ولاشعور سيىء . وجمهور الناس هنا جاهل تماما بما يجرى خارج حيدر آباد ولكنهم سمعوا عن الحرب المصرية (بين عرابى والانجليز) وتعاطفوا مع عرابى .. ثم أضاف بلنت الى ذلك « ولست تجد فى الهند كلها معلما مثل جمال الدين . فقد أخرج (الشاب) صورة للشيخ الافغانى من جيبه بإجلال واحترام ، ونسخة من صحيفة « أبو نضاره » كانت صورتى منشورة بها ثم

علينا أبيات الشعر المكتوبة تحتها ..

من يومياته خلال الزيارة بعد ذلك نستطيع استخلاص النتف التالية التى جاء فيها ذكر الافغانى .

ـ فى ٥ ديسمبر (١٨٨٣) قابل « شيخ علماء الشيعة سيد على وهو من أبناء شوستر وقد تحدثنا معه بالعربية . وهو أيضا صديق جمال الدين كما يقول ولكنه اشتهر بأنه « متعصب كبير » وهو عراقى قح ، وأعترف بأنى لم أعجب به !!

ـ فى ٩ ديسمبر تأكد من صحة « الحكايات التى رواها الأفغانى عن نفى (السلطة الانجليزية) لرجال الدين (المسلمين) الى جزر آندمان »

٣ ـ عندما غادر حيدر آباد سار معه رسول خان نحو ساعتين على الطريق ، وجاءه بهدايا وقال له إنه سار مع الأفغانى على هذا النحو من قبل عند مغادرته المدينة .

٤ ـ فى ٢٢ ديسمبر قابل فى مدينة كلكتا مولوى عبد اللطيف شيخ المسلمين السنيين وكان يحمل له رسالة من الافغانى . وقال له أنه سمع بأعماله من جمال الدين [١] . ولكنه يخشى ألا يتحدث معه الناس حتى لايثيروا غضب الحكومة عليهم . ويبدو أنه لم يعرف جمال الدين معرفة شخصية ..

٥ ـ فى ٢٤ ديسمبر قابل شخصا اخر فى كلكتا يدعى مولوى أ . م فذكره بجمال الدين فى استنارته وتحرره . وكان الرجل عالما « تحول الى الفكرة الكبيرة فى الاصلاح الاسلامى والوحدة الاسلامية التى دعا اليها جمال الدين ، ويوجد من هذا النوع الآن كثيرون يتوسطون الفريقين المتصارعين هناك (المتعاونون مع الانجليز والتقليديون) وقد ذكر الرجل أن جمال الدين خاب أمله فى مسلمى كلكتا الذين كانوا يخشون الاستماع اليه بسبب الحكومة » ! ثم دعا بلنت الى العشاء ومقابلة تلاميذ الأفغانى .

---

(١) هذه مجاملة فى الغالب لان بلنت لم يعرف الافغانى قبل نفيه الى الهند وقد اكدها هو نفسه بعبارته الاخيرة عن الرجل

٦ ـ فى ٢٦ ديسمبر لبى الدعوة وقابل جمعا كبيرا من تلا
الأفغانى فى كلكتا ، « تحدثوا عنه بشىء كالعبادة !!
٧ ـ فى أول يناير ١٨٨٤ كتب : « زارنى خمسة من أصدقاء
الدين ليعبروا عن إعجابهم بكتابى « مستقبل الاسلام » .
جميعا من شباب الطلاب ، متحمسون ، يكرهون انجلترا
قلوبهم ، ومن قراء « ابو نضارة » .. ولكنهم جميعا متحررو التف
من ناحية الدين ، وأفكارهم هى نفسها أفكار جمال الدين

ويجب أن نلاحظ فى هذه النتف وغيرها أن بعض المصطلح
هنا لم تكن تعنى ماتعنيه اليوم على وجه الدقة . فمصط
« التحرر » فى التفكير أو الرأى كان يقصد به مانسم
« الاستنارة » أو ـ بمعنى آخر ـ البعد عن الجمود والتزمت
ومصطلح « اشتراكى » كان يعنى وقتها شيئا قريبا من جر
التفكير والثورية فى أذهان العامة وأصحاب السلطة .

نلاحظ ايضا أن الأفغانى فى هذه الصور السريعة التى رسم
له بلنت وتلاميذه فى الهند ، يبدو ذا شخصية مغناطيسية تجذ
اليها الكثيرين حتى فى وقت محنة الشخصية . كما يبدو مختل
عليه كما هى العادة مع مثل هذه الشخصيات . فهو إما رجل ذ
سطوة وأثر فى المحيطين به ، وتتدرج هذه السطوة من مجر
الاعجاب به الى الحديث عنه بشىء أقرب الى العبادة ، وإما رجل
خطير ، وتتدرج هذه الخطورة من خشية الناس من الاستماع الي
وتجنبه حرصا على سلامتهم الى وصفه بأنه مهيج ومحرض
وثورى ، أى اشتراكى بالمعنى الذى كان يفهمه العامة وأصحاب
السلطة وقتها .

كما نلاحظ أن الأفغانى يميل الى تأكيد أصله العربى ، وهذا أمر
خاص به لانملك تكذيبه الا اذا جئنا ببراهين على عكسه . ولكنه هو
نفسه يتيح لنا البراهين على تصديقه حين يميل الى نسبة نفسه
الى آل الحسين ويتخذ فى توقيعه اسم « الحسين » ونلاحظ من
جهة أخرى أن المتعاطفين معه فى الهند وقتها ، أصدقاء

ميذ . كانوا اكثر عددا من الساخطين عليه .

كان من الطبيعى أن يتوقف بلنت فى باريس فى طريق عودته من الهند الى وطنه ، وأن يزور صديقه الأفغانى وكان ذلك فى مارس ١٨٨ . وهناك وجد صديقه القديم محمد عبده لم يره منذ بداية الصراع مع الانجليز قبل احتلالهم لمصر . ودار الحديث بين الأصدقاء الثلاثة حول رحلة الهند وأخبار المهدى فى السودان . كانت هذه الأخبار تحتل نصيب الأسد وقتها فى عناوين الصحف الأوربية . فقد نجح محمد أحمد المهدى (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) فى مطلع ذلك العام (١٨٨٤) فى تهديد مدينة الخرطوم بعد قضائه على حملتين عسكريتين أرسلتهما الحكومة المصرية للقضاء عليه . وتنبأ المراقبون للحركة فى أوربا بقرب سقوط العاصمة السودانية مالم تتخذ اجراءات رادعة . وشعر الانجليز بصفة خاصة بأن وجودهم فى مصر أصبح مهددا . وبدأوا فى اعداد حملة عسكرية أخرى عهدوا بها الى الجنرال تشارلز جوردون (١٨٣٣ ـ ١٨٨٥) لمعالجة الموقف . وكان الوطنيون المصريون ، فى داخل البلاد وفى المنافى . يتطلعون الى انتصار المهدى حتى يحرجوا موقف الانجليز من ناحية ، ويثبتوا دعائم الحكم الاسلامى من ناحية أخرى . فقد كانت رسالة المهدى الى قومه تتلخص فى تطبيق الاسلام وتطهيره من الكفار أرباب الحكم المصرى التركى الفاسد .

يطلب الأمان من الانجليز لمفاوضتهم على الصلح مع المهدى

أدخل بلنت السرور على الأفغانى فى باريس حين حدثه عن أخبار رحلته الناجحة الى الهند . وكان بلنت قد تأكد بنفسه من سطوة الافغانى ونفوذه داخل دوائر المثقفين المسلمين فى الهند ، ولكن اخبارا كثيرة جديدة زحفت على أخبار الرحلة وغطتها . فقد شرع الأفغانى فى إصدار صحيفته « العروة الوثقى » واستدعى لذلك تلميذه محمد عبده من بيروت ، ونجح الاثنان فى تقديم العدد الاول من الصحيفة فى ١٣ مارس ١٨٨٤ ، قبل نحو اسبوعين من وصول بلنت وأصبح الأفغانى مشغولا الى أبعد درجة ، لابالصحيفة فحسب ، وانما بأخبار المسلمين والحركات الاسلامية ، وكانت اخبار حركة المهدى على رأس ماشغله من أمور .

وقد شغلت أخبار المهدى بلنت ايضا منذ عودته من رحلته ومروره على الأفغانى فهو لم يكن متعاطفا مع فكرة الخلافة العربية فحسب ، ولامع الصحوة الاسلامية ضد تغلغل الانجليز فى اراضى المسلمين فحسب ، وانما كان تعاطفه مع الأخبار لسبب شخصى أيضا . فالجنرال جوردون – الذى قبل التصدى للمهدى – صديقه ، وعلى صلة به عن طريق المراسلة . وهو أيضا صديق متدين الى حد الهوس . ولكنه مغلوب على امره فى رأى بلنت ، لأنه لم يختر المهمة التى كلف بها . ولأن اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى فى مصر ، أصر على تكليفه كأنما ليتخلص منه . ولاسيما بعد أن

رفض شريف باشا رئيس الوزراء ، فى ذلك العام ، تعيينه على أساس أنه مسيحى .

حين سأل بلنت الأفغانى عن رأيه فى موقف جوردون أجابه بأنه موقف حرج وفاشل . وحين سجل بلنت زيارته لمقر جريدة « العروة الوثقى » فى ٢٧ مارس ١٨٨٤ قال :

«وجدنا جمال الدين فى غرفة صغيرة مساحتها ثمانية أقدام مربعة تقع فى الطابق الأعلى من بيت بشارع دى سيز ، حيث كان يحرر مع عبده صحيفة تدعى « العروة الوثقى » وفى ذات الوقت تقريبا دخل رهط شديد التنافر من الغرباء ملأ أفراده الغرفة . فها هى سيدة روسية ، وذاك رجل بر أمريكى ، وهذان شابان من البنجال قدما نفسيهما بأنهما متصوفان جاءا ـ كما قالا ـ لاستشارة الشيخ الكبير . وقد تحدثا ـ بلغة غريبة عن الانسانية ولكنهما بديا طيبى القلب متحمسين تماما لقضيتهما لدرجة أنهما لم يأبها لوجودنا . وكان الهدف الاساسى من زيارتهما الاستعلام عن المهدى الذى يعتقدان أنه رجل إنسانى النزعة ولكن عقليهما لم يستوعبا تجارة الرقيق ، فأحرجا الشيخ بسؤاله عن آراء المهدى حول هذا الموضوع . ووجد الشيخ صعوبة كبيرة فى إقناعهما ، ولكنه شرح لهما مدى ماغنمه الرقيق بين المسلمين مقابل الحصول على حريتهم . وقد اقتنعا بذلك وخرجا راضيين ، ولكن الشيخ المسكين جاهد كثيرا حتى يكتم الضحك . وعندما انصرف الشابان تحدثنا حديثا طيبا عن الهند وكل مافعلناه هناك مما أدخل السرور كثيرا عليه »

عاد بلنت بعد هذه الزيارة القصيرة الى لندن وقد نال من الأفغانى وعدا مهما ، هو أن يعاونه فى تحقيق الصلح مع المهدى وانسحاب جوردون ، شرط أن تبدى وزارة الخارجية البريطانية حسن نيتها . وما ان وصل بلنت الى لندن حتى بدأ فى الاتصال بمكتب جلادستون الذى ظل رئيسا للوزراء . ولم يجد عند جلادستون مانعا من الصلح . فشرع على الفور فى الكتابة الى

الأفغاني في باريس .

ولم يكن الموقف في السودان وقتها ابن لحظته . فقد كان من الواضح أن المهدى عزم على تحرير السودان من الادارة المصرية ـ الشركسية الفاسدة . ولم يكن تزامن حركته مع الحركة العرابية مجرد مصادفة . فقد كانت الحكومة المصرية تعاني من الضعف ويهمها في الاساس أن تسوى المسألة العرابية . وكان العرابيون أنفسهم عازفين عن التدخل فى السودان حتى لايضعفوا قوتهم . ولكن سقوط العرابيين واحتلال الانجليز للبلاد شجع الحكومة المصرية مرة أخرى على التدخل . ومع ذلك فشلت الحملة التى ارسلتها لمحاربة المهدى . وقتل قائدها الجنرال الانجليزى هيكس (باشا) فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ . وعند ذاك أشار الانجليز على الحكومة المصرية باخلاء السودان ، ووافق الخديو توفيق ، ولكن رئيس الوزراء شريف (باشا) رفض الفكرة ، وفضل ان يترك الحكم على ترك السودان . وقدم استقالته فى ٨ ابريل ١٨٨٤ محتجا على تدخل الانجليز فى شئون الحكم ومسئولية الوزارة امام الخديو . وذكر فى كتاب استقالته أن التخلى عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسيا وتجاريا ولما عرض الخديو الوزارة على رياض (باشا) بشرط إخلاء السودان رفضها بدوره ولم يجد الخديو أمامه سوى نوبار (باشا) رجل الازمات التى من هذا النوع . وشكل الأرمنى العجوز وزارته فى ١٠ يناير ١٨٨٤ . واستقر الرأى ـ بإيعاز من اللورد كرومر ـ على إرسال جوردون (باشا) الى السودان ، فعين حكمدارا (حاكما) عاما على السودان فى ٢٤ يناير .صدرت له التعليمات بالعمل على تسوية الموضوع واخلاء السودان . ومع أن جوردون غادر القاهرة بقطار خاص فى ٢٦ يناير فلم يصل الى الخرطوم الا فى ١٨ فبراير . هناك أباح تجارة الرقيق مرة اخرى ، وحاول استمالة الأهالى بتخفيض الضرائب الى النصف واحراق السجلات القديمة للديون . وأرسل الى المهدى رسولا يحمل منه قرارا بتعيين سلطانا

على كردفان وبعض الهدايا ، فرد المهدى الرسول مصحوبا بوفد منه يحمل رسالة الى جوردون .

فى هذه الرسالة المهمة التى نشرها احمد شفيق (باشا) فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن قال المهدى : الى جوردون

أخذت خطابك الذى تسميني فيه سلطانا على كردفان فتولانى الذهول من ذلك وداخلنى مزيد الاستغراب المتولد عن زعمك أنك تعطينى بلادا هى لى وأنا لها . واعلم وفقك الله ان رسالتى المهدوية لاتستوقفنى فى كردفان فقط . بل تقضى علىّ بأن أذهب الى الخرطوم وأحتلها ، ومنها أسير الى الأصقاع البعيدة والأنحاء الشاسعة وأما الهدية المزركشة التى بعثتها الىّ فهى اليك راجعة ، بل هى بك أولى وأليق ، فإن دعوتى تأبى إتشاح مثل هذه الملبوسات . هذا هو شرح حالتى . وأما انت فإذا رغبت الحياة فاتبعنى لتنجو بنفسك . واليك دلقا (لبس الدراويش) فالبسه واسلك مسلك الدراويش فتنال رضاى »

ولم يسلك جوردون مسلك الدراويش وظل يعانى من حصار قوات المهدى والصحف الانجليزية فى لندن تحاول دون توقف ان تجد له مخرجا .

نعود الى مراسلات بلنت والافغانى حول الموضوع . وقد نشر بلنت نصوص سبعة خطابات ضمن ملاحق كتابه « جوردون فى الخرطوم » ومنها اربعة للأفغانى وثلاثة لبلنت وقد كتبت الخطابات جميعها - باستثناء آخرها - باللغة الفرنسية كطلب الافغانى وتبودلت فى الفترة من ٢١ ابريل ١٨٨٤ الى ١٢ مايو ١٨٨٥ ، أى فى مدة تقرب من سنة كاملة ومن خطابات الافغانى الاربعة نعرف انه لايعادى جوردون ، ويعده « نصيرا للحرية ومدافعا عن الاسلام » ولكنه يرى للمهدى حقوقا يجب أن تراعى . كما نعرف أن بعض كبار أنصار المهدى كانوا تلاميذا للأفغانى على حد قوله . ولكنه يعتقد أن المهدى وأنصاره لايريدون سوى الاستيلاء على الخرطوم وأسر جوردون ، وان الحل فى رأيه يتلخص فى جلاء

الانجليز عن مصر والسودان مقابل خروج جوردون ومن معه من المسيحيين سالمين . فاذا قبلت الحكومة الانجليزية هذا الشرط أمكن ارسال لجنة صلح يكون معظمها من المسلمين ويشترك فيها الانجليز ومنهم بلنت نفسه ويكون الهدف منها ضمان أرض مصر واعادة فتح ابواب التجارة بينها وبين السودان .

ولم يختلف بلنت فى خطاباته الثلاثة على ماطرحه صديقه من أفكار وحلول . وكان هو نفسه قد كتب رسالة الى رئيس الوزراء جلادستون يعرض فيها التوسط لانقاذ جوردون وذكر ان الافغانى قد أرسل له (صباح ذلك اليوم ٢٣ ابريل) رسالة يؤكد فيها أنه سيبذل كل مافي وسعه لانقاذ حياة جوردون حرصا منه على صداقته ببلنت .

سجل بلنت فى مفكرته فى ذلك اليوم :

« إن فكرتى عن الحل هى إما ان أذهب بنفسى ، وإما ان أكلف شخصا آخر بالذهاب ، مثل جمال الدين او عبده أو الشاب عبد العال ، الى دنقله اولا ثم الى الابيض ... بحيث يتم جلاء جوردون عن التحصينات وكذلك جلاء الاوربيين والأتراك والأقباط وغيرهم ممن قد يفضلون العودة الى مصر . ثم تعقد بعد ذلك معاهدة صلح مع المهدى أو يتعهد من جانبه بتثبيت حدوده عند بربر ودنقله وحدود الحكومة المصرية عند اسوان »

وقد طلب بلنت الا يتعرض الأوربيون للبحر الاحمر ، بحيث لاتجرى أى عملية عسكرية أثناء قيامه هو بمهمة التوسط ، والا ينتقم من موته فى حاله اعتداء قوات المهدى عليه ، أو ترسل بعثة لاطلاق سراحه فى حالة اعتقاله ، فضلا عن ضرورة تسجيل هذا الاتفاق والمطالبة باطلاق سراح عرابى وعودته فى حالة نجاح بلنت فى مهمته . ومع ذلك ابدى بلنت خوفه من رفض الحكومة الانجليزية فكرة ذهابه الى جوردون ، ولاسيما ان احد أصدقائه أشار الى تأخر هذا الحل عن موعده وهو نفسه سكرتير جلادستون الذى ذكر له ان الحكومة قررت امس (٢٢ ابريل) ارسال بعثة

انقاذ الى بربر . وماهى الا ايام حتى جاء رد جلادستون فى آول مايو بأن الحكومة لن تستفيد من فكرة بلنت فى الوساطة ، لانها قررت الجلاء عن السودان ومنحه حريته ولكن بلنت عزا هذا الرد وتآخره الى وصول كرومر من مصر وتآثيره على الموقف كله ويبدو أن بلنت لم يفاجأ بموقف الحكومة ولابرد وزير الخارجية اللورد جرانفيل الذى جاءه فى ١٩ مايو برفض فكرة التدخل والوساطة . وقرر تآجيل رحلته الى باريس التى كان قد رتبها ـ فى حالة موافقة الحكومة ـ للاتفاق مع الافغانى ومن معه .

شهدت الصحف الانجليزية وكواليس الرآى العام والحكومة الكثير من الاخبار والشائعات حول استفحال خطر المهدى وقرار الحكومة بالجلاء سرا عن السودان وصعيد مصر ، مع بقاء الاسكندرية فى آيدى الانجليز وتسليم القاهرة الى السلطان العثمانى ، مقابل آن يآمر السلطان بفتح بوغازى الدردنيل والبوسفور امام الاسطول البريطانى . وكانت مهمة الاسطول ان يهاجم ثغر باطوم على بحر قزوين ثم يتقدم الى مدينة باكو لقطع اى اتصالات بين الروس وأفغانستان بسبب تصاعد الموقف هناك وتورط الانجليز . وظلت مسآلة حصار الخرطوم وخطورة موقف جوردون تتردد أيضا فى الصحف والاجتماعات العامة دون حل . وآعدت الحكومة الانجليزية سراً حملة عسكرية جديدة عهدت الى فاتح مصر وهازم العرابيين الجنرال ولسلى . ووصل ولسلى الى القاهرة فى ٢٢ سبتمبر ١٨٨٤ بهدف انقاذ جوردون وإقصاء الحكم المصرى عن السودان وترحيل جنود مصر والمدنيين ، وترك السودان للمهدى . ومع هذا كله لم يتخل بلنت عن فكرته السابقة فى الوصول الى حل سلمى بين قومه والمهدى .

وفى شهر اكتوبر سافر بلنت الى تركيا . وهناك قابل كثيرين من المصريين المنفيين فى عاصمة الخلافة بعد سقوط عرابى ، وكان من هؤلاء اسماعيل جودت الذى كان مسئول شرطة الآجانب آثناء القتال بين العرابيين والانجليز ثم خرج منفيا وانضم الى حاشية

الأمير حليم بن محمد على والمطالب بعرش مصر . وقد طلب بلنت من الأمير أن يبعث معه الى لندن اسماعيل جودت ومصطفى نجدى طبيب عرابى السابق ، للادلاء بشهادتيهما حول تطورات الموقف قبل الاحتلال .

عاد بلنت الى لندن فى شهر نوفمبر ومعه جودت ونجدى وفى لندن قابل جودت صديقه ابراهيم المويلحى الذى أبعد وقتها من باريس وظل على علاقة بالافغانى ومحمد عبده منذ أن عرفهما وصادقهما فى القاهرة قبل المنفى . وكان يشاركهما فى تحرير « العروة الوثقى » التى توقفت عن الصدور فى ١٦ اكتوبر . ويبدو انه جاء لندن بايعاز من الأفغانى للاتصال ببلنت . ويبدو أيضا ان الافغانى بدأ يعد نفسه بعد توقف الجريدة للتفرغ من أجل الصراع الاسلامى الانجليزى فى مصر والهند وافغانستان والسودان ، فقد كتب بلنت فى مفكرته بتاريخ اول يناير ١٨٨٥ أنه رتب مقابلة مع الأفغانى من خلال تلميذيه (المويلحى وجودت) اللذين شرحا له « طبيعة الخطة التى يرتبها جمال الدين (لمواجهة الانجليز) بالاشتراك مع فرنسا وروسيا والهند بحيث اذا لم يساعده السلطان (العثمانى) فى ذلك فمصيره الخلع . ولكن السلطان سيتعاون معهم . (الأفغانى ومجموعته) وهم يريدون فرص . شروط الصلح على انجلترا والا فانهم سيقومون بإشعال الثورة فى « الهند »

وفى ذلك الوقت (أو يناير ١٨٨٥) كان ولسلى يعسكر بحاميته عند كورتى ، ويقاتل جنود المهدى ، ويحاول التقدم الى الخرطوم . وكان معنى ذلك أن يشتد المهدى ورجاله فى الضغط على جوردون حتى سقط قتيلا وسقطت الخرطوم معه فى ٢٦ يناير . وتوقف ولسلى حيث كان . ولم يجد أمامه سوى إبلاغ الحكومة المصرية وحكومته بما حدث . ولم تجد الحكومتان ـ أو الحكومة الانجليزية على الأصح ـ سوى اعادته الى القاهرة فى النهاية فى أوائل مارس ١٨٨٥ ، تاركه السودان لأهله ورجاله .

لم يكتف بلنت بهذه النهاية المأسوية التى تعرض لها صاحبه

جوردون ولكنه مقتنعا بأن المشكلة الحقيقية تتمثل فى المهدى وأنصاره ، وانه من الضرورى لبريطانيا أن تتوصل الى صلح مع المهدى والا تعرضت مصالحها فى المنطقة كلها الى الخطر المؤكد ويبدو ان السياسة الانجليزية ـ كعادتها فى تلك الفترة ـ كانت تقوم على ترك الابواب والاحتمالات مفتوحة فاذا كان للرسميين موقف معين فمن الممكن لغير الرسميين ـ مثل بلنت ـ أن يعرضوا موقفهم وان يحاولوا بطريقتهم الخاصة ماداموا يعملون داخل دائرة الحرص على مصلحة بلادهم . ومع ان بلنت اشتغل من قبل بالدبلوماسية وعرف خباياها فلم يتعظ مما رآه أو عرفه . واقبل بحسن نيته وطموحه الرومانتيكى على الاستمرار فى الاجتهاد والتشاور مع الافغانى وتلاميذه وفى أواخر شهر فبراير ١٨٨٥ ـ قبل ان ينسحب ولسلى من حدود السودان ـ قام بلنت بزيارة الى باريس ، حيث عاد الى مفكرته ليسجل أحداث الزيارة وتطوراتها أولا بأول :

٢٥ فبراير ١٨٨٥

نزلنا بفندق واجرام . جاءنا صنوع فى الليلة الماضية وتبادلنا الشجون . وفى هذا الصباح جلست الى جمال الدين مدة ساعتين . وأعتقد ان معالجة مسألة المهدى تبدو الآن أصعب مما ظننت ، أو أصعب مما كانت عليه فى العام الماضى ، لأن الاستيلاء على الخرطوم غير الموقف كثيرا . فهم مزهوون كثيرا بقتل خمسة جنرالات انجليز ، وهو أمر لم يسمع به أحد من قبل فى أى حرب كما يقولون . وهؤلاء الخمسة هم : هيكس وبيكر وستيوارت وإيرل ، وأخيرا جوردون . ولهذا ستكون شروط المهدى باهظة . ومع ذلك يقول جمال الدين بوضوح أن الصلح ممكن إذا رغب الانجليز ، بحيث يتركون السودان أولا ، ويسلمون سواكن الى السلطان ثانيا ، ويستخدمون دبلوماسيتهم لاخراج الايطاليين من مصوع

(١) ثالثا ، ويرتبون مع السلطان من أجل إقامة حكومة إسلامية فى مصر رابعا . ويرى أن اعادة عرابى (الى مصر) من شأنها ان تسهل الأمور كثيرا ، ولكن اى حكومة ذات شعبية فى مصر تستطيع التصالح مع محمد احمد (المهدى) آما فيما يتعلق بطريقة التنفيذ فيقول جمال الدين أنه ضرورى أن تخطو الحكومة الانجليزية الخطوة الاولى . فالمهدى لايستطيع فى الظروف الراهنة آن يبعث مبعوثا الى انجلترا ، ولا أن يعينه (جمال الدين) « وكيلا » لهذا الغرض . فالمبعوث يجب ان تبعثه انجلترا وكل مايستطيع (جمال الدين) آن يفعله هو تمهيد الطريق لهذا المبعوث حتى يحقق غايته . وهو يوصى بآن يكون المبعوث شخصا جديرا بالثقة . وسالته عن إنجيل جوردون (٢) الذى قلقت عليه للغاية السيدة ألنات وطلبت منى السعى لاعادته ، ولكن جمال الدين لايعد بتعليق آمال على استعادته قبل إقرار الصلح . ومع ذلك رجوته أن يسعى للحصول على الانجيل فإذا نجح يكون ذلك برهانا ساطعا لحكومتنا على قوة نفوذه .

« وقد نشرت التايمز أمس موضوعا عن جمال الدين أعتقد آنه صحيح ، ولكن جمال الدين غاضب على حذف كل ماقاله ضد اسماعيل باشا وتعيين الأمير حسن فى السودان (٣) »

---

(١) فى ٥ فبراير ١٨٨٥ انتهزت ايطاليا فشل ولسلى وانتصار المهدى فطوقت مدينة مصوع برضاء انجلترا مقابل تاييد ايطاليا لسياسة الانجليز فى مصر . وكانت المدينة تضم حامية مصرية

(٢) نسخة الانجيل التى كان يحتفظ بها جوردون حتى مصرعه .

(١) فى ١٢ فبراير ١٨٨٥ عين الخديو توفيق ابنه الامير حسن واليا من قبله على السودان . وتلكأ الانجليز فى الموافقة على سفره بسبب اشتراطه اصطحاب قوة معه من ثلاثة آلاف رجل فلما تخلى عن شرطه سمحوا له بالسفر فى ٢ مارس وقبل ان يصل الى دنقله وردت برقية من لندن برجوعه اما المقال الذى ذكره بلنت عن الافغانى فى «التايمز» فلم نجد له اثرا فى عدد ذلك اليوم »

دعوت جمال الدين وصنوع الى الأفطار وقرأت عليهما رسالتى
السلطان فوافقا عليها بحرارة . وآكد لى جمال الدين بخصوص
انستان أن حكاية النزاع بين روسيا والأمير (آمير افغانستان)
عدو كلها آن تكون هراء ، وآن النزاع إذا نشب فسيكون ضدنا
ضد الانجليز) ، وآن الامير سيتيح لروسيا المرور لغزو الهند ،
كن الطرفين ليسا مستعدين لهذا الآن .
وقد نشرت الصحف تلغرافا مفاده آن النظام (فى الهند) قد
رض قوات للذهاب الى السودان ، ولكنه (جمال الدين) ضحك
د سماعه هذا ايضا . وقال إنهم دائما يعرضون قوات لأنهم
رفون آن عرضهم مآله الرفض . وحين انصرف صنوع ابلغنى
جمال) على انفراد آنه فكر فى مقترحاتى بشآن المفاوضات مع
مهدى ، وآنه واثق من إمكان تحقيقها ولكنه لايستطيع آن يفعل
يئا حيالها مالم تظهر الحكومة الانجليزية حسن نيتها بتعيين آى
خص آخر يوثق فيه لتمثيلها وعندئذ يقوم هو بتقديم البعثة ، التى
جب ان تكون مصحوبة برجل مسلم ، الى شخص ذى حيثية كبيرة
ى مصر يتيح له مركزه آن يتحدث عن الشروط . آما هو نفسه
الافغانى) فليس له مثل هذا المركز ، ولايستطيع سوى آن يدل
لآخرين على الطريق ، ثم يقوم هؤلاء بتقديم المقدمات اللازمة
السبيل المآمونة للوكيل الانجليزى . ومع ذلك يجب ان يتم الترتيب
وضوح ـ مقدما ـ لعملية تعهد الانجليز بحماية الأشخاص الذين
سيتم تحقيق المفاوضات عن طريق وكالتهم . فيجب آلا يسمح
تعرضهم للمشاكل على يدى الخديو .
وكان من رأيه آلا يعقد الصلح فحسب ، وانما ان توقع معاهدة
تجارية ، وربما اتفاقية حول تجارة الرقيق آيضا ـ بحيث تقضى
لأخيرة بضمان عدم تعرض الأحباش لغارات الرقيق نظرا لعدم

مشروعية هذه الغارات . ومع ذلك لم يوافق (الأفغانى) .
الدخول فى اتصالات مع أى مسئول انجليزى حول الموضوع حـ
أقتنع (بلنت) .أولا بأن نواياهم جادة ، وأن الحماية مضـ
لوكلاء المهدى . وأنا مقتنع بهذا الرأى حول الموضوع ، وكـ
لأنى وجدت جمال الدين حذرا فى وعوده . فهو لايعتقد أن
الحكمة السعى وراء إنجيل جوردون الآن .

٤ ابريل

تناولت العشاء فى فندق واجرام مع جمال الدين . وقرأت علـ
كل ماكتبته الى داوننج ستريت (مقر مجلس الوزراء) ووافقـ
على الخط الذى اتخذته ، ولكنه يصر على أن الحكومة الانجليز
يجب ان تكتب رسالة الى المهدى لكى يحملها اليه ابراهـ
(المويلحى) . ومع ذلك فهو سيفكر فى الموضوع ويتخذ قرا
بعد يوم أو يومين ، أنه ليس ثمة عجلة الآن ، مادام المهد
يستطيع أن ينتظر أكثر مما يستطيع مستر جلادستون .

٧ ابريل

تناول جمال الدين وصنوع الافطار معى .

١٣ ابريل

جاءنى جمال الدين مبكرا وقرأت عليه رسالة مزعجة جديـ
تلقيتها ليلة أمس من داوننج ستريت . ولكنه يصر على أن تكـ
الحكومة رسالة الى المهدى إذا كانت تريد التفاهم معه . ويقول
سيأتى الى انجلترا اذا دعت الضرورة ليرتب الموضوع بشرط

إن له ألا يقبض عليه هناك . فقلت له إن لاخطر عليه من
س ، ولكن تجربته فى الهند جعلته متشككا فى الحكومة
ليزية . ويقول إنه لايوجد سبب مهما كان لتأخير عودة عرابى
مصر إذا آتاحت الفرصة الصلح مع توفيق . وتوفيق نفسه
يف جدا ولايثق أحد فى آنه سيشكل خطورة بعد الآن . أما
بى فسوف يستعيد كل نفوذه الضائع بسرعة .
(عند هذا الحد عاد بلنت الى لندن وكتب فى اليوم التالى :)

ابريل

ذهبت لزيارة يتون (إسم تدليل للورد كونيمارا زعيم المعارضة
حافظة فى البرلمان) وهو يتنبأ بعدم نشوب حرب الآن مع
سيا . وقد ذكر لى جمال الدين هذا الرآى نفسه آمس وآنا
دقه ، لأن روسيا الآن فى وضع من يشاحن آخر أصم أذنيه
يقدر على الاعتذار .
وعند هذا الحد آيضا تنتهى المرحلة الأولى من علاقة بلنت
شكلة جوردون والمهدى . فهو قد بدآ ـ كما رآينا ـ بالتحمس
خليص جوردون من ورطته ، ثم انتهى ـ بعد مصرع جوردون ـ
ى التحمس للصلح مع المهدى . ولم تكن بدايته أو نهايته تحمل
ابعا رسميا . فقد كان فى الحالتين رجلا مجتهدا حسن النية
حاول آن يجنب بلاده المشاكل آولا وآن يصنع نوعا من التقارب آو
تفاهم بين قومه والمنطقة العربية والاسلامية .
من الواضح ان المبادرة في الحالتين كانت من جانب بلنت وآن
ود فعل الافغانى كانت مشجعة لهذه المبادرة . ومن الواضح
يضا أن الافغانى ظل من البداية الى النهاية متمسكا برأيه حتى
لم به بلنت . وكان رآيه ـ كما رآينا ـ آن تحترم انجلترا إرارة
لمهدى ، وآن يجلو الانجليز عن مصر والسودان معا ، وآن يعود

عرابى من منفاه وآن يكلل هذا كله بمعاهدة صلح مع المهدى
حدود مصر من جهة وتضمن استمرار التجارة بين البلدين ؛
مسألة فى غاية الحيوية بالنسبة للبلدين . ومع ذلك فيبدو آن ؛
الأفغانى السابقة مع الانجليز علمته آن يلزم الحرص والحذر
يحدد مايريد بالضبط ولكن آهم مافى الموضوع أنه وافق
الذهاب الى لندن مقر السياسة التى قاومها وحاربها واكتوى بنا
فى مصر والهند قبل آن يأتى الى أوربا . ومع ذلك فمن الواضح
آخذ الأمر بمأخذ السياسة آيضا . فالمفاوض يجلس الى ما
المفاوضات آمام عدوه . وهذه هى السياسة .

راوغه الانجليز حول الجلاء عن مصر وتاسيس حكومة اسلامية بها

ظل بلنت مشغولا بمسألة المهدي دون أن يفقد الأمل في تسوية وضع الانجليز في السودان ومصر معا . وظل أيضا على الاتصال بصديقه الأفغاني بعد انقضاء الجولة الأولى من مشاوراتهما بمصرع جوردون وسقوط الخرطوم ثم سقوط جلادستون ووزارته في النهاية . ونجح في إغراء صديقه بالمجيء الى لندن بعد ان ضمن له عدم المساس بحريته . ولكن موافقة السلطات البريطانية على مجيئه كانت تتساوى مع موافقته هو نفسه على المجيء . فلم يسيء للانجليز في عصره أحد مثلما أساء هو اليهم ، ولم يسيء له أحد في عصره مثلما أساء اليه الانجليز . ومع ذلك رضي الطرفان أن يتفاهما . وكان رضاه من منطلق السياسة بالطبع ، التي أصبح مشغولا بمشروعاتها وخططها أكثر من أي وقت مضى . وربما فكر الانجليز في الاستفادة منه في محنتهم مع المهدي دون أن يفيدوه ، وهذا ماتؤكده وقائع التفاهم كما سنرى . وربما فكر هو في تحويل الانجليز الى قوة حليفة للمسلمين ، وهذا ماتؤكده ـ مرة أخرى ـ وقائع تفاهمه مع اثنين من كبار مخططي السياسة البريطانية في الشرق : اللورد راندولف تشرشل والسير دراموند وولف . وكان تشرشل (١٨٤٩ ـ ١٨٩٥) من زعماء حزب المحافظين والبرلمان ووزيرا لشئون الهند في الوزارة الجديدة التي شكلها اللورد سالسبوري بعد سقوط جلادستون . وكان وولف مسئولا بوزارة

الخارجية ومبعوثا لها فى المهمات الخاصة ، ثم سفيرا فى النهاية .
وقبل أن تبدأ هذه الجولة الخطيرة من التفاهم والمشاورات كان المهدى نفسه قد مات فجأة فى ٢٢ يونيو ١٨٨٥ ولم يكن خبر وفاته قد تأكد بعد عند الانجليز ولا عند الأفغانى ولكن الذى تأكد أن الأفغانى قرر المجىء الى لندن . وهنا نترك المجال لمفكرة بلنت وقد انتقل من بيته الريفى الى بيته فى لندن :

٢٢ يوليو ١٨٨٥

عدت الى لندن . سيأتى الشيخ جمال الدين الى جيمس ستريت (بيت بلنت فى لندن) نزلت على الفور الى مكتب الهند حيث أسعدنى الحظ فوجدت راندولف عائدا لتوه من البرلمان ... ووعدنى بأن يأتى لمقابلة جمال الدين فى بيتى فى العاشرة والنصف من صباح الغد . وشرحت له بالضبط وضع الأفغانى مع تاريخ اعماله فى مصر والهند . وقلت له : إنه فى القائمة السوداء عند الجميع هنا ، وعدو لانجلترا ، ولكن لو لم تكن هذه حاله لما كان فيه نفع لنا .

٢٣ يوليو

وصل جمال الدين ليلا . وجاء راندولف الى جيمس ستريت فى العاشرة والنصف تماما . لقد استرد عافيته وروحه المعتادة . وقبل ان اقدم اليه الافغانى قرأت عليه الخطاب الخاص . بمعركتى الانتخابية (١) ... ثم ارسلنا فى طلب جمال الدين . واستقبله راندولف بأدب جم ، وأجلسه الى جواره على الاريكة ثم شرعا يتحدثان بالفرنسية ، ولكن سرعان ماأدركت أن محصول راندولف

---

(١) كان بلنت قد رشح نفسه للبرلمان ولم ينجح

منها قليل . فكان على أن أقوم بدور المترجم وبدأ راندولف بسؤال عن وفاة المهدى وعما إذا كان الخبر صحيحا . فقال جمال الدين إنه لايظن ذلك صحيحا ، وحتى إذا صح فلن يحدث فرقا كبيرا ، لأن السودانيين سيختارون خليفة له . وسأله راندولف عمن يكون الخليفة فأجاب جمال الدين : لن يكون عثمان دقنه وانما سيكون أحد رفاق المهدى أى رجل دين . أما عثمان دقنه فسيكون قائد الجيش لاالخليفة . وسينتهى كل شىء بسلام كما حدث عند وفاة النبى ﷺ حين تم اختيار أكثر الناس تدينا . وسأله راندولف بعدئذ عن افغانستان ووضع أميرها . وكان رد جمال الدين باختصار هو : إن عبد الرحمن (الامير) قائد ممتاز ولكنه ليس سياسيا عظيما ، بالرغم من أنه ليس أيضا رجلا أحمق . فأغلبية الافغان تقف فى صفه ، ولكن من السهل أن تنشب الثورات ضده إن الأفغان قوم بسطاء جاهلون بالسياسة ، ولكنهم علي استعداد للقتال دائما . وقد يدبر الروس ثورة من خلال اسحق خان أو نفر آخر من أبناء شير على والبيت الحاكم . وليس ثمة ماهو أسهل من ذلك . ولكن الروس لاينوون قتال الأفغان هذه السنة وإنما قد يتحالفون مع بعض هؤلاء الأمراء ويثيرون القلاقل . وقد يقدمون أنفسهم فى صورة حلفاء ضد الانجليز ، ويعدون باستقلال إقليمى كشمير وبيشاور إذا ثارت الهند . وسوف يصدقون الأفغان عندذاك .

راندولف : هل يكرهنا الأفغان أكثر مما يكرهون الروس ؟

جمال الدين : لم يلحق الروس أى ضرر بالأفغان . أما الانجليز فقد شنوا عليهم ثلاثة حروب .

راندولف : ولكن ألا ترى أن الروس أضروا الاسلام أكثر منا ؟

جمال الدين : لقد إلتهم الروس بعض المناطق مثل القرم وأرض الشراكسة وأخرى بين التركمان ، ولكن انجلترا دمرت الامبراطورية العظيمة فى دلهى ، وغزت مصر والسودان .

راندولف : إن أبناء المهاراتا (الهندوس فى وسط الهند وغربها) هم الذين دمروا امبراطورية المغول .

جمال الدين : لقد جاء المهاراتا وذهبوا . ثم غزا نادر شاه (امبراطور الفرس) الهند ولكنه كان مسلما . أما أنتم فقد بقيتم ودمرتم الامبراطورية . وهناك ثلاثة أسباب جعلت المسلمين فى الهند يضمرون لكم الكراهية أكثر مما يضمرونها للروس . وأول هذه الأسباب أنكم دمرتم امبراطورية دلهى ، وثانيها أنكم لم تدفعوا رواتب للأئمة والمؤذنين وخدم المساجد فى حين حرص الروس على ذلك . وأنتم ألغيتم ملكية الأوقاف ولاتصلحون المبانى المقدسة .

راندولف : نحن نقوم بإصلاح بعض المساجد .

جمال الدين : إنما تفعلون هذا لأنها قطع فنية لاتفعلونه من أجل الدين . أما السبب الثالث فهو أنكم تحرمون المسلمين فى الجيش من الرتب الكبيرة ، ولكن الروس لايحرمونهم .

راندولف : يوجد مسلمون كثيرون فى أعلى الوظائف فى ولايات الأهالى فى الهند .

جمال الدين : ولايات الأهالى ليست هى الهند البريطانية . ومالا يصل الى المعدة لاتهضمه . (وهنا ضحكنا)

راندولف : إذن ترى أن انجلترا تمثل خطرا على المسلمين أكبر من خطر روسيا .

جمال الدين : لارأى هذا . وماكان حديثى الا عن الماضى . فانجلترا من هذه الناحية أضرت بنا أكثر من روسيا ولكن الآن روسيا أكثر خطرا . فإذا بقى الروس ، لاأقول فى بنجده أو طلفقار أو ميروشك ، وانما أقول فى مرو ، لمدة خمس سنوات فلن تقوم قائمة لافغانستان ولاإيران ولاالا ناضول ولا الهند ، لأنها ستلتهم كل هذه البلاد . وقد أعلنوا أنهم سيجلون عن بنجده ، ولكن هذا عمل لاقيمة له لأنهم سيبقون فى مرو .

راندولف : هذا صحيح . ولكن بماذا تنصحنا ؟

جمال الدين : لابد أن تقيموا تحالفاً مع بلاد الاسلام ، مع افغانستان وايران والترك والمصريين والعرب يجب أن تقصوا

لروس عن مرو وتعيدوهم الى بحر قزوين . وإذا شئتم أن تكونوا أصدقاء للمسلمين فعليكم أن تتركوا مصر ، لأنه لاخطر على مصر من الأمم الأجنبية . إن قبرص فى أيديكم ، وكذلك عدن ، فماذا تخافون ؟ حتى المهدى لاخوف منه عليكم ، لأنه إذا أقيمت حكومة إسلامية فى مصر فلن يشكل المهدى خطرا عندئذ . ومن ثمة عليكم أن تتحالفوا مع المسلمين . وعندذاك ، يصدقون أنكم أصدقاء .

راندولف : هل من الممكن أن نرسل قواتا أو ضباطا الى أفغانستان لمساعدة الأفغان على الروس ؟

جمال الدين : إذا أرسلتم قوات الى قندهار مثلا ، حتى بموافقة الأمير ، فسيكون من حق أى مسلم أن يلوذ بقمة جبل ويشعل ثورة ضدكم ، ويقول أنكم جئتم بادعاء الصداقة كى تستولوا على أرضه . وعندئذ سيصدقه الجميع . ومع ذلك يمكنكم ارسال ضباط ، بعض الضباط ، وهؤلاء لايستطيعون الاستيلاء على شىء ، ولكنهم سيكونون فى خدمة الأمير . ولكن تذكر أن الروس إذا أقاموا خمس سنوات فى مرو فسيكون ذلك بعد فوات الاوان ، لأنكم ستهاجمونهم عندذاك ، لاعن طريق أفغانستان ، وإنما عن طريق الجانب الآخر ، وعندذاك أيضا سيقوم العلماء (رجال الدين) بالدعوة الى الجهاد كى ينضم الناس الى صفوفكم ضد الروس .

لقد دامت (هذه) المحادثة نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم انصرف راندولف . لم يقل الكثير لجمال الدين ، ولكنه عبر لى ، وأنا أودعه الى الباب ، عن سعادته البالغة بصراحة الشيخ وصواب آرائه . ووعدنى بإرسال وولف لمقابلته ...

ومن الواضح فى هذا الحديث الذى لم يشغل تشرشل اكثر من دور المستفسر فيه أن الأفغانى كان ملما بأحوال السياسة وتقلباتها فى عصره . كما كان أميل الى القضايا الكلية لاالجزئية . فهو لايشغل نفسه بموت المهدى أو عدم موته ، وانما ينظر الى المهدى كظاهرة قابلة للامتداد ، ويميل الى فلسفة الظواهر التى يتحدث

عنها ، ويحاول أن يستفز الانجليز كى يتحالفوا مع المسلمين بدلا
من محاربتهم والاستيلاء على أوطانهم ، يدرك تماما أهمية الرأى
الذى يحدثه فيلح ـ صراحة وضمنا ـ على ضرورة إنهاء العداء بين
الانجليز والمسلمين وإقامة التعاون وبينهم والا تعرض الطرفان
لطمع القوى الأخرى وعلى رأسها روسيا . بل إنه يطرح فى ذلك
الوقت المبكر فكر الحكومة الاسلامية فى مصر وكرادع لخطر
المهدى ، لأن الحكومة الاسلامية التى بدأ المهدى فى إقامتها فى
الجنوب ستكون حزاما واقيا للحكومة الاسلامية فى الشمال .
يعود بلنت بعد أسبوع الى الأفغانى فيسجل فى مفكرته ماتلا
ذلك من تطورات :

٢٩ يوليو

... ذهبت الى كرابيت (بيته الريفى) مع نبى الله (مثقف هندى
مسلم) الذى سيعود الى الهند فى القريب كى يصدر صحيفة
هناك . وقد أصبح مثل الباقين جميعا الذين أفسدتهم الحياة
الانجليزية . وقد بذلت أنا وجمال الدين كل مافى وسعنا لاغرائه
بالتخلص من هذه الفكرة بالذهاب الى الحج والكف عن ارتداء
الملابس الأوربية . ولكنه لم يستجب . فالهنود الذين عاشوا فى
انجلترا يبهرون بحياتنا وأساليبنا ويجدون من الصعب عليهم أن
يعودوا الى وطنهم . وهم عامة يقعون فى غرام إمرأة إنجليزية
ويهجرون أساليب قومهم . ولقد حدثته بحدة ولكن ذلك لم يفد
بشىء . وقال جمال الدين : "ليس أسهل على الانسان من أن
يصنع معروفا لنفسه أما اذا شاء أن يصنع معروفا لبلده فلابد أن
ينكر ذاته "فقال نبى الله : «لاأريد أن أكون شهيدا . فأنا أرجو أن
أحتفظ بملابسى الانجليزية وأقدر على ركوب الخيل ولعب التنس
والتردد على الأندية عند عودتى» فقلت له : "قد ترتدى أفضل
ماعندك من ملابس انجليزية وتذهب الى الكنيسة اذا شئت يوم
الأحد ، ولكن الانجليز فى الهند لن يستقبلوك ، وتخسر كل نفوذك

ضد مواطنيك"

٣ يوليو

جاء وولف الى جيمس ستريت كما اتفقنا فى العاشرة والنصف . وقبل أن يرى جمال الدين تحدثت معه حول المسألة العامة فى مصر والسودان وتركيا . وقال لى أنهم (رجال الحكومة) يفضلون بالنسبة لمصر أن يحتفظوا بتوفيق (الخديو) فى الوقت الحاضر ، وأن اللورد سالسبورى (رئيس الوزراء الجديد بعد جلادستون) لم يقتنع بالموافقة بعد على عودة عرابى ، أما النقاط الأساسية التى ناقشها وولف مع جمال الدين فكانت تتصل بمدى إمكان اعتراف المهدى بخلافة السلطان (العثمانى) وقد أعلن جمال الدين أن هذا مستحيل بالنسبة للمهدى أو خلفائه ، ولكن ربما يقتنع كل من الطرفين بقبول الآخر ، مثلما فعل السلطان العثمانى وسلطان مراكش ، فى حالة جلاء الانجليز عن مصر واقامة حكومة اسلامية بها . ومن ثمة فلا خطر من السودانيين . فحركة المهدى دينية ولن يسمح له العلماء (رجال الدين) فى القاهرة بغزو مصر .

وتلا ذلك مناقشة مطولة حول الجلاء (عن مصر) فأعلن وولف أن بسمارك (مستشار ألمانيا) أعلن كتابة لوزارة الخارجية (الانجليزية) أنه يوافق على دخول الفرنسيين مصر اذا تركناها . ولن يسمح الفرنسيون للقوات التركية بالدخول . ولابد اذن من احتلالها على نحو ما . وبذلك يحتلها الفرنسيون . ولكن السيد (جمال الدين) رفض هذه الفكرة نظرا لأنه يعرف من فيرى (رئيس وزراء فرنسا) وسواه فى فرنسا أنه لن يحدث شىء من هذا القبيل . ومع ذلك فقد وافق الاثنان فى النهاية (وولف والسيد) على أنه من الممكن التوصل الى اتفاق مع السلطان إذا وافقت انجلترا على تحديد موعد للجلاء . ثم طرحت بعد ذلك مسألة تجارة الرقيق فى السودان . فقال جمال الدين أنه سيمنع اختطاف الأحباش وبيعهم . فهو قادر على ترتيب الأمور والعلاقات التجارية مع

انجلترا ومصر . وليس من الصعب اقناع السلطان بترتيبات مـ
فيما يتعلق بمصر ـ وقد اقترحت سفر جمال الدين ا
القسطنطينية اذا دعت الضرورة الى ذلك وليس من الصعب أيـ
ان يقترح السلطان (على الانجليز) اعادة عرابى . ومع ذلك أوضح
وولف أنه لايمكن اقرار أى شيء بشكل نهائى الا بعد الانتخابات
وأن مهمته الحالية هى الاستطلاع والاعداد لسياسة تتخذ . أمـ
الانتخابات فستقرر امكان تحقيق هذه السياسة . وقد دامت
محادثتهما ساعة ونصف الساعة .

٤ أغسطس

... حدثنى دراموند وولف مرة أخرى عن فر جمال الدين الى القسطنطينية . وقال : انه (الأفغانى) متشدد فى آرائه أكثر من اللازم فيما يتعلق بعدم تسليم المهدى بخلافة السلطان . ومع ذلك سوف يرسل فى طلبه اذا احتاج إليه ، وسيتصل بى عن طريق راندولف الذى يتعامل معه بشفرة خاصة . وهذه سمة جديدة فى دبلوماسيتنا .

٥ أغسطس

... بعث دراموند وولف تلغرافا من بورتسموث (الميناء المطل على القناة الانجليزية) طالبا رؤية جمال الدين مرة أخرى .

٦ أغسطس

نزلت الى لندن مبكرا مع جمال الدين وأجرينا حديثا مطولا مع دراموند وولف . وهو (وولف) يؤيد تماما فكرة الحلف التركمانى الايرانى الأفغانى ، ولكنه يقول أنه لن يستطيع التحدث عنها الى السلطان الا إذا مسها الحديث لأن ذلك من اختصاص السفير (الانجليزى) ولكنه سيحدثه عن مصر . وقد أبدى (وولف) لهفة كبيرة على معرفة كيفية التوصل الى اتفاق بين السلطان والمهدى فهل يقبل المهدى الاعتراف بالخلافة ؟ قال جمال الدين ان الوقت لم يحن بعد لضرورة اقرار هذه النقطة ، أو حتى اثارتها . فما يهـ

السلطان حقيقة هو تحديد مدة الاحتلال الانجليزى . فقال وولف أن هذا أمر ممكن ، وانه سيقترح أن يتعاون السلطان (مع الانجليز) فى اقامة نظام مستقر للأمور اعداداً لجلاء الانجليز . وعلق جمال الدين على هذا بأن كل شيء يمكن ترتيبه بشكل مرض ، ولايهم ما اذا كانت القوات التى ستشكل الحامية البديلة تركية أو انجليزية .

وأعقب ذلك جانب كبير من الحديث عن مدى ضرورة سفر جمال الدين الى القسطنطينية وقت وجود وولف بها . وكانت النقطة الأساسية تتعلق بمدى ادراك السلطان لهذا التحرك على وجهه الصحيح . فقال جمال الدين ان السلطان لايعرف عنه الا أنه عدو للسياسة الانجليزية . واذا لم يشرح وولف الوضع لجلالته فسوف يتصور أن جمال الدين جاء الى القسطنطينية كي يحبط مهمة وولف . ومع ذلك قال وولف أن من الصعب عليه حماية جمال الدين أو الظهور بأنه على صلة به . وهنا أثيرت أيضا مسألة التمويل ولكنى عرضت تزويد السيد بأى مبلغ من المال يحتاجه حتى لاتثار أى أسئلة غير مريحة . وشرح وولف أنه لن يحيط اللورد سالسبورى بأى شيء حول السيد أو ترتيباته معى . وقال : ان سبب ارسالى هو أننى مستعد لتحمل مسئوليات من هذا النوع قد يرفضها غيرى . وسوف تكون لى مع راندولف شفرة خاصة . واذا أردت السيد أو كان عندى شيء آخر أريد إبلاغه لك فسيكون ذلك عن طريقه (راندولف) ومع ذلك أوضح وولف مرة اخرى أنه يتوقع امكان انجاز أى شيء بشكل نهائي قبل نهاية الانتخابات . فالفرنسيون يعارضون بشدة ارسال قوات تركية الى مصر . وبسمارك لن يبدى أى تأييد حازم الا بعد الانتخابات .

تحدثنا أيضا عن اعادة عرابى وقال جمال الدين انه من السهل جدا اقناع السلطان بالفكرة واقتراحها . اذ تكفى لتحقيق ذلك كلمتان منه وكررت هذا القول لوولف ،بعد مغادرته بيتى ، فى نادى كارلتون . ولكنه قال : "ليس من المفيد على الاطلاق الآن أن نثير مسألة عرابى ، ولكن من الممكن أثارتها بعد الانتخابات "فاللورد

سالسبورى يحتاج الى المشاورة فى هذا وغيره من الأمور
٧ أغسطس

... كان دراموند أيضا موجودا بالنادى ، فتحدثنا مرة أخرى عن زيارة جمال الدين الى القسطنطينية وكانت آخر كلماته هى أنه سيكتب الى راندولف أو يبرق له ثم يتولى الآخر نقل الأمر إلى
١٣ أغسطس

... عند عودتى الى البيت وجدت رسالة مهمة من تشرشل وتضم برقية محلولة الشفرة من وولف يطلب فيها أن يلحق به السيد (جمال الدين) فى القسطنطينية . وقد تألق السيد هنا تألقا شديدا خلال الأيام العشرة الماضية . وقدم لنا أثمن معلومات عن ماضى بلاده والبلاد الأخرى . فهو يقول ان نادر شاه ابن لأحد التجار فى مدينة قلعات . وقد ثار ضد الحكم الأفغانى وطرد الأفغان من ايران ، ثم غزا أفغانستان والهند العليا . وكان هو الذى وهب الخيول العربية للتركمان ، ومنها جاءت السلالة التى يملكونها حاليا .

كان ينزل عندنا ابن خالى آرثر تشاندلر ، وهو عالم دينى فى أوكسفورد أصبح منذ ذلك الوقت قسا من قسس المستعمرات . فرتبت له أن يتناقش مع جمال الدين حول أسس الدين . وسارت المناقشة بلغة فرنسية باردة ولكن بروح متحمسة من جانب السيد الذى فاز فى الجدل بلا منازع
١٤ أغسطس

نزلت الى لندن مع السيد . وذهبت على الفور الى مكتب الهند (وزارة شئون الهند) حيث وجدت راندولف فى أشد حالات الاكتئاب والارهاق بعد الجلسة التى كان موعدها اليوم . ومع ذلك فسيذهب الى اسكتلندا غدا . وقد أبلغته بأن السيد على استعداد لبدء رحلته فورا ولكنه يصر على أن يلمح وولف للسلطان مباشرة أو بطريق غير

مباشر الى أنه (الأفغانى) لم يعد عدوا للانجليز ، ويرجو ألايبدأ وولف مفاوضاته قبل وصوله وألا يحاول معالجة المسألة المصرية منفصلة عن مسألة الحلف الاسلامي . وقد ادرك راندولف ببديهته الحاضرة المعتادة هذه النقاط فى الحال . فكتب الى وولف برقية بما معناه : "جمال الدين يسافر الى القسطنطينية يوم الأحد . ولكنه يقول أن السلطان لايعرف عنه سوى أنه عدو الانجليز . فمن اللازم التلميح الى أنه أصبح صديقا لنا . وهو يرجو الا تفتح المسألة المصرية مع السلطان منفصلة عن المسألة الأكبر ، وهى الحلف الاسلامى . ويعتقد أنه سيخدمك في المسألة الأخيرة خدمة جليلة"

وقد قابلت ابراهيم (المويلحى) أيضا . وكنت أرجو أن أراه قبل ذلك لأنه يؤيدنى ضد السيد تأييدا كبيرا ، فضلا عن أنه أجرأ منه . وأرى أن يسافر الاثنان فى الحال دون انتظار رد من وولف . فلا أحد يستطيع التنبؤ بما قد يحدث من تغيير فى الرأى . ان الكرة الآن عند اقدامنا ويجب أن نلعبها بشجاعة . ولكنى أخشى أن يفزع وولف من البرقية التى أصر السيد على ارسالها . ولو كان الأمر بيدى لوجب أن يسافر بلا شروط ، لأن وولف لايستطيع أن يرفض حمايته عند وصوله . ولكن ، سنرى .

١٥ اغسطس

وصلت برقية من بيث (مدينة صغيرة فى النمسا) تفيد بأن وولف أجل سفره حتى يوم الثلاثاء . وهذا سيتيح لجمال الدين وقتا للحاق به هناك وسيسافران معا بالقطار ، أما ابراهيم (المويلحى) فيسافر الى فارنا (مدينة فى بلغاريا) وهناك ينتظر الأوامر الأخرى .

جئت الى لندن لهذا الغرض . وقد تأجل البرلمان أمس . ولندن خالية . أفزعنى أن أجد خطابا فى جيمس ستريت من مور - سكرتير راندولف - يتضمن تلغرافا من وولف - كما توقعت بالضبط . وفيه يقول انه غير رأيه فيما يتعلق بجمال الدين ، وان من

الأفضل الا يسافر (جمال الدين) حتى يبعث بتلغراف آخر مز
القسطنطينية . وذهبت أولا الى مور فى مكتب الهند ، وتباحثت مْ
فى الأمر ووافقنى على أن عدم سفر السيد خسارة ، وأنه يحسز
بنا أن نرد بتلغراف نقول فيه ان الوقت قد فات على ايقافه عز
السفر . ولكنه لن يفعل أى شىء بدون أمر وولف . ولذا ذهبت الى
كونوت بلاس (حيث بيت تشرشل) وقابلت راندولف .

كان مريضا يعانى من احتقان خفيف فى الرئتين ولكنه يقول ان
حالته أفضل اليوم . وبحثنا الموضوع بكامله . ولكنى لم أستطع
حثه على أن يدعنى أرسل السيد ، ولذا توقف الموضوع كله .
والجانب المتعب فى الأمر هو أن فائدة جمال الدين العظمى لنا
كانت قد بدأت بالفعل . ولكن لافائدة الآن لقد حجزت تذكرتين
للسيد وابراهيم وسلمتهما ١٠٠ جنيه لنفقات الرحلة . بكل هذا
ذهب بلا فائدة .

ظللت أعتقد أن تغيير وولف لرأيه فى هذه المناسبة أحبط نجاح
مهمته ، وأن فشل تلك المهمة كان يرجع الى أنه بدأها بالطرق
المعتادة فى الدبلوماسية الانجليزية ، بدون ذلك التأييد المعنوى
الذى كان من الممكن أن يتيحه له السيد جمال الدين عن طريق
الجمعيات السرية فى القسطنطينية وغيرها

وهكذا انتهت هذه الجولة من المشاورات بين الأفغانى والانجليز
نهاية مفيدة لهم . فقد حصلوا منه على بعض المعلومات والنصائح
المهمة ..وأبدى لهم استعداده للتعاون معهم على أساس شروط
معينة أهمها الجلاء عن مصر والسودان ومصالحة السلطان
العثمانى ومحالفة المسلمين . وقد أبدى هذا كله بعزة وكرامة .

فكر في إعادة الخلافة الى العرب
ثم وضعه السلطان فى قفص من ذهب

ظل بلنت يأمل أن تسير الأمور فى مجراها الذى رتبه لها حتى آخر لحظة . وظل الأمل يراوده فى أن يبعث وولف فى آخر لحظة ببرقية يستدعى بها الأفغانى . وبقى الأفغانى ضيفا على بلنت ومرة أخرى نتابع ماجاء فى مفكرة بلنت بعد سفر وولف وحده :

٢٧ اغسطس

وصلتنى مذكرة من مور (سكرتير تشرشل) يطلب فيها أن أذهب لمقابلته . وكان راندولف قد أبلغه أن يقرأ علىّ فقرة من خطاب لوولف (أرسله وهو فى طريقه الى العاصمة العثمانية) وكانت الحقيقة أنه فى وضع دقيق فيما يتعلق بمهمته لدرجة أنه من المخاطرة أن يظهر بأنه على معرفة بجمال الدين - وقال ان جمال الدين يعارض خلافة السلطان على السودان ، وانه إذا اعترف بأنه صديقه فقد يظن السلطان عند ذلك أن لديه مخططا ما على أساس مالديه من ادعاءات روحية . ومن ثمة فهو (وولف) لايريد أن يخاطر بذكر اسم الأفغانى . وهذا كله كلام فارغ فمسألة خلافة السلطان لاتحتاج الى ان تثار مطلقا . وجمال الدين ليس معروفا بأنه يعارضها . فقد كانت صحيفته - على العكس من ذلك - عالية الصوت فى تأييد حقوق السلطان . ومع ذلك فقد رفض السيد السفر الى القسطنطينية بدون اعتراف ما من جانب وولف ، لأنه

يقول ان نفوذه سيقضى عليه فى كل مكان اذا أغلق السلطان بابه فى وجهه . ولكنى سأقابل راندولف غدا .

٢٨ أغسطس

ذهبت الى راندولف فى الواحدة والنصف فى مكتب الهند . يبدو مرهقا ومريضا ، لايزال مضطرا الى البقاء فى المدينة . ولكنه يتحدث عن ذهابه الى اسكتلندا فى الأسبوع القادم . وأنا أحس بالاقتناع بأنه لن يعيش سنتين أخريين أو أنه سيضطر الى اعتزال الحياة العامة . وقد تباحثنا حول مسألة جمال الدين . ولكن مادام جمال الدين يرفض الذهاب الى القسطنطينية بدون تأييد من وولف ، ومادام وولف يرفض الالتزام بجمال الدين فقد اتفقنا على أن يظل الوضع كما هو عليه ...

٤ سبتمبر

تلقى ابراهيم بك (المويلحى) من اسماعيل جودت رسالة أخرى ضاغطا عليه كى يذهب لمقابلة السلطان . وتقرر أن يسافر . وقد سمع السلطان أن جمال الدين قابل أحد الوزراء (الانجليز) فأرسل الى ابراهيم بالحضور لمعرفة الحكاية . وهو يريد جمال الدين أيضا ، ولكن السيد يقول أنه سينتظر حتى يرسل اليه أما بالنسبة لابراهيم فلا خطر عليه . وسوف أطلب منه الاتصال بوولف وأقوم بابلاغ راندولف بذلك .

٦ سبتمبر

سافر ابراهيم فى الليلة الماضية الى القسطنطينية وسيبقى جمال الدين فى لندن .

٢٠ سبتمبر

نشبت ثورة فى اقليم روميليا (التركى) بتدبير من روسيا ردا على بعثة وولف ، أو بالأحرى تضامنا مع ماستفضى عنه الانتخابات

هنا . وكان جمال الدين يقول دائما انهم سيتحركون قبل شهرين من الانتخابات . (الانجليزية) وها قد حدث ...
٢٣ سبتمبر

وصلت رسالة من ابراهيم يروى فيها ماحدث له . يقيم الآن مع جودت . وقد ذهب الى القصر ، وتقرر أن يقابل السلطان بعد عيد الأضحى . الجميع غاضبون منه لأنه لم يأت قبل ذلك . وسوف يرسل السلطان مبعوثا الى جمال الدين للتشاور .
٢٤ سبتمبر

تباحثت حول مسألة الروميليا كلها مع جمال الدين . واتفقنا على أن النمسا ، لاروسيا ، هى التى شجعت الحركة الحالية . وقلت للسيد أنه من غير المفيد ضمان تركيا الأوربية تحت حكم السلطان ، وان اللورد سالسبورى لن يخاطر بضمانها . أما هو (الأفغانى) فلا يوافق على هذا الرأى ، ولكنه يرى أنى محق على أى حال . توجد مذكرة لجوردون كتبها سنة ١٨٨٠ ويوصى فيها بتجزئة الامبراطورية العثمانية ، وبحيث تذهب مصر الى انجلترا ، وسوريا (الشام) الى فرنسا ، وأرمينيا الى روسيا ، وتركيا الأوربية الى الدول المسيحية المستقلة . ويعتقد جمال الدين أن وولف له يد فى الحركة الروميلية . ولكنى لاأرى ذلك .
٢٨ سبتمبر

حضر منيف باشا (مبعوث السلطان) الى لندن وقابل السيد ويريد أن يقابل تشرشل . كتبت حول هذا الموضوع .
٦ اكتوبر

كان فريد بك (أحد زعماء حركة الدستور العثمانية) قد كتب الىّ يطلب مقابلتى فجاء اليوم على الغداء . وكان معنا جمال الدين . وبسبب وجوده لم يتناول فريد بك سوى العموميات . ولكننا انتقلنا

بعد الغداء الى الطابق العلوى ، فلم يكشفْ عن الموضوع الحقيقى الذى جاء من آجله الا بعد كثير من اللف والدوران .

(وخلاصته سوء حال الامبراطورية وتداعيها وضرورة عمل شيء ، أى القيام ـ كما يقول ـ بإعادة النظام الدستورى الذى وضعه مدحت (باشا) وسلب السلطان سلطاته المطلقة ، والا فالثورة على الأبواب . ولكنهم يخشون روسيا وتدخلها العسكرى . ويرى أن بسمارك يعارض فكرة الحكومة الدستورية ، ولكن ربما أيدها سالسبورى . وهو يريد معرفة ماإذا كانت الحكومة الانجليزية ستسمح بالتدخل الروسى أو تغيير السلطان . فقد يرمى السلطان نفسه فى أحضان الروس . وعندئذ هل تقف انجلترا مكتوفة اليدين ؟ وطلب من بلنت أن يتحسس الرأى (الحكومى) فى سرية وكتمان لأن التجسس أصبح من الخطورة بحيث يسرى على الولد من أبيه والأخ من اخيه (فى تركيا) وطمأنه بلنت بعرض الموضوع على تشرشل ، ولاسيما ان بعثة وولف لم تصل الى نتيجة . وأوضح فريد لبلنت أن السفير التركى فى بريطانيا (موسورس باشا) لايعلم شيئا عن الموضوع فضلا عن أنه خائن فى نظره)

ورجانى (فريد بك) ألا أتحدث عن الموضوع الى جمال الدين لأنه غير حكيم ، فضلا عن أنه فقير ، قد تغريه الضرورة ذات يوم . وقد رتبت مع مور مقابلة راندولف غدا .

٧ اكتوبر

فى الثانية عشرة قابلت راندولف بمكتب الهند . ولما وجدت أمور وولف راكدة أطلعته على ماسمعته دون أن أذكر المصدر بالطبع ، ولكنى اكتفيت بأنه شخص عالى المكانة لايتصل بجمال الدين بأى شكل من الأشكال ، أو بأى من أصدقائى الآخرين (روى بلنت الموضوع وسمع رأى تشرشل) ... ثم روى لى شيئا عن التقدم الذى أحرزه وولف . فقد انتهى الى ضرورة أخذ الحزب العربى فى القسطنطينية فى الاعتبار . وهو (وولف) مندهش من أن ابراهيم لم

صل به حتى الآن . فقلت لعله ممنوع بأمر السلطان . وقد وصلنى
وم خطاب من ابراهيم يقول فيه أنه كان قد أرسل للسلطان تقريرا
ملا عن أعماله فى انجلترا وعنى وعن الآخرين . ولكن السلطان
بى كل مايتعلق بوولف وانجلترا وكل شيء عدا روميليا .

اكتوبر

تحدثت حديثا مطولا مع جمال الدين عن التوقعات المتعلقة
القسطنطينية والخلافة ، وهو يؤيد المهدى او خليفة المهدى الذى
سيحل محل السلطان ، أو الشريف عون أو امام صنعاء - فأحد
ؤلاء سيأخذ الآن - فى رأيه - بزمام الأمور . ولكن القسطنطينية
لابد أن تظل مقر الخلافة ، مثلها مثل الجزيرة العربية او أفريقيا ،
ى كونهما مجرد أماكن للنفى . وقال لى ضمن أشياء أخرى أنه هو
نفسه الذى اقترح على الشريف حسين أن يطالب بالخلافة ولكن
الحسين رد بأن ذلك أمر مستحيل بدون تأييد مسلح ، وان العرب
ن يتحدوا مطلقا الا تحت راية الدين .

ان جمال الدين متحمس جدا الآن للذهاب الى الشرق مرة
أخرى . ولكنه يقول انه لن يذهب الى القسطنطينية مالم يبعث اليه
السلطان . وقد اتفقنا فى حالة عدم فوزى فى الانتخابات عن دائرة
كامبرول أن نذهب معا الى امام صنعاء فى اليمن وأن يثير مسألة
الخلافة على النحو الذى كان فى نيتى منذ أربع سنوات . وسألته
عما اذا كان يعتقد أن السلطان قد اغتال الحسين فقال : كلا ، ولكن
ربما فعلها أحد الباشوات (الولاة) ...

١٢ اكتوبر

عدت الى لندن . أعلن أن بعثة دراموند وولف قد نجحت . وتقرر
أن يرسل السلطان ممثلا عنه الى مصر بصحبة وولف . أتوقع أن
يكون ابراهيم بك قد خدم فى تحقيق هذا المشروع .

٢١ اكتوبر

في المساء عقدنا اجتماعا كبيرا بقاعة أوكلى (فى لندن) لاع...
الوفد الهندى . وجئنا بجمال الدين ليلقى خطابا بالعربية لم يف...
أحد فى القاعة ، ولكنهم صفقوا طويلا له .

٢ نوفمبر

كتب راندولف لى قائلا ان اللورد سالسبورى لن يبدى لى ع...
وجه اليقين أى رد مشجع حول عرابى ...

ظهر جمال الدين هذا الصباح مرة أخرى . وكان قد تغيب بشـ...
غامض نحو يومين أو ثلاثة عن جيمس ستريت . فقد ترك البيت ...
أعقاب مشادة صاخبة وقعت في غرفته يوم الخميس بين اثنين م...
أصدقائه الشرقيين ، وهبى بك (أخ غير شقيق لابراهيم المويلحى...
وعبد الرسول (رجل من كشمير عمل بالصحافة فى لندن) . ويبد...
أنهما تشادا حول السياسة أو الدين وانتهى الأمر بأن ضرب كل...
منهما الآخر على رأسه بالمظلة . وكان على أن أطلب منهما مغادر...
البيت فتبعهما السيد .

ان الانسان لابد أن يضع حدودا على أى حال . وقد اقترحت...
الآن على السيد أن ينتقل الى مكان اخر . فقد أقام عندى ثلاثة...
أشهر وهى مدة الضيافة العربية كاملة .

ملاحظـــة :

"كانت هذه آخر مرة رأيت فيها السيد الطيب فى ذلك العام
فقد غضب من معاملتى لصديقيه ، وغضب أكثر لخيبة أمله فيما...
يتصل ببعثة دراموند وولف . وغادر انجلترا بعد بضعة أيام غاضبا...
على كل ماهو انجليزى ، نافضا نعليه من غبار الانجليز . ثم ذهب...
الى موسكو حيث انضم الى كاتكوف زعيم الوحدة السلافية...
المعروف فى حملة ضد الامبراطورية البريطانية . ومن روسيا ذهب...
الى ايران وافغانستان لذات الهدف . وبعد كثير من التحريض...
وكثير من العنت من جانب حكومات هذه البلدان جميعا حمل رحاله...

ي النهاية وذهب الى القسطنطينية ، حيث وجدته بعد سنوات ﻟﻮال مستقرا فى ملحقات قصر يلدز ، نصف مسجون ونصف ﻣﺪعوم من السلطان . وقد مات هناك بالسرطان ، وان كان بعضهم يظن انه مات بالسم عام ١٩٠٢ (الصواب ١٨٩٧) ولم يعتن به كما سمعت سوى خادم مسيحى .

لقد كان جمال الدين رجلا عبقريا اكتسبت تعاليمه نفوذا من الصعب التقليل منه على حركة الاصلاح المحمدى خلال السنوات الثلاثين الماضية . واشعر بأنى قد شرفت باقامته ثلاثة اشهر تحت سقف بيتى فى انجلترا ، ولكنه كان رجلا برى الطباع ، اسيويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ليس من السهل ترويضه على الأساليب الأوربية . وسوف اروى عن زيارتى التالية له فى القسطنطينية فى مكانها . »

(عند هذا الحد انتهى ذكر الأفغانى فى كتاب « جوردون فى الخرطوم » لبلنت ، ولم يبق سوى رسائلهما المتبادلة فى ملحقات الكتاب ، وقد اشرنا اليها من قبل ، ولكن قبل ان ننتقل الى الزيارة التى اشار اليها بلنت نجد من المهم ان نعلق على تلك الجولة الأخيرة التى مرت بها علاقة بلنت بالأفغانى . ومن الواضح ـ كما رأينا ـ أن الأفغانى كان يسعى إلى تحرير الهند ومصر والسودان وأفغانستان من الانجليز مقابل التحالف معهم على أساس الصداقة . وكان يسعى فى الوقت نفسه إلى إعادة عرابى من منفاه وتأسيس خلافة عربية فى أراضى العرب داخل الامبراطورية العثمانية . ولكن هذا السعى كله لم يواجه عند الانجليز ترحيبا عمليا . بل أنهم نالوا من الأفغانى أقصى مايستطيعون من معلومات وأفكار واقتراحات ثم تركوه . وقد اكتشف هو نفسه هذا الغدر فى النهاية فقطع الهدنة التى وضعها مؤقتا فى صراعه مع الانجليز وعاد إلى سابق نضاله ضدهم . وليس من الصواب أن نتهمه هنا بالتعاون مع الانجليز . فقد كان واضحا محتفظا بكبريائه فى تعامله معهم . ولكن اشتغاله بالسياسة فى ذلك الوقت كان ينقصه التعاون

الحقيقى مع الأطراف المعنية مثل حكومات البلاد التى ذكرناها
وهى حكومات كانت تعاديه فى السر والعلن . ولم يكن لديه أ
تفويض من أى حكومة للتشاور أو التباحث باسمها ، وهذا ماأدر
الانجليز واستفادوا منه .

ومع ذلك فمن الواضح أيضا أن زيارة الأفغانى للندن قد أصاب
بخيبة الأمل ، لا فى الانجليز وحدهم وانما فى صديقه بلنت أيضا
وقد انقطع الاتصال بينهما عقب ذلك نحو ثمانى سنوات . و
الأفغانى إلى لندن مرة أخرى عام ١٨٩١ ولكنه لم يسع إلى رؤ
صديقه . ولكن بلنت سعى إلى رؤيته فى ابريل ١٨٩٣ حين زا
عاصمة الخلافة التى رحل إليها الأفغانى من لندن بتأثير إغراءا
السلطان .

كتب بلنت فى مفكرته بالجزء الأول من يومياته أنه زار الآستانة
فى ابريل ١٨٩٣ وعلم من ابراهيم المويلحى أن أحوال الأفغانى
على مايرام و « أن السلطان عرض عليه جميع الرتب والنياشين
ولكنه رفضها بحكمة . وفى اليوم التالى رده كبير التشريفات عن
الحفل المقام فى القصر بمناسبة العيد ، ولكن جمال الدين لم يأبه
به وشق طريقه حتى اجتذب انتباه السلطان . وعند ذاك طلبه
السلطان وسمح له بالوقوف قريبا منه خلف كرسى العرش بل جعله
أقرب إليه من كبير الخصيان . وهكذا فإن جمال الدين هو الشخص
الذى يلتمس عنده المعروف ، وسأزوره غدا . (٢٦ ابريل) غير
أننى نسيت حكاية المظلة فى الغرفة الخلفية فى جيمس ستريت .
ياله من غبى دراموند وولف حين غير رأيه فى فينا ، ولم يصحب
السيد معه إلى القسطنطينية سنة ١٨٨٥ على النحو الذى رتبت
ضرورة سفره معه ! كان سينجح فى معاهدته وفيما فشل فيه »

وقد كتب بلنت هذه الفقرة فى يوم ٢٤ ابريل . ولكنه لم يزر
الأفغانى إلا فى ٢٦ ابريل . وكان قد وضع فى خطته أن يقابل
السلطان ، ووجد فى الأفغانى عونا على تحقيق رغبته

. نعود إلى مفكرة بلنت :

٢٦ ابريل ١٨٩٣

فى الثالثة (بعد الظهر) ذهبت مع جوديث (ابنته) إلى نيشا نطاش فى المسافرخانه ، وهو المقر الرسمى لكبار الزوار المتصلين بيلدز (القصر السلطانى) حيث يعيش جمال الدين . وقد استقبلنا الأفغاني العجوز بذراعين مفتوحتين ، وقبلنى على وجنتى داخل غرفة مليئة بأتراك محترمين ، وجعل جوديث تجلس فى المقعد الرسمى ذى المسندين . وقدم لنا شايا وقهوة ، واحتفى بنا ساعة ونصف الساعة . وكانت آن (زوجة بلنت) قد كتبت له اعتذارا قصيرا بالعربية قرأه على الحاضرين مرتين أو ثلاثا مبديا إعجابه الشديد بأسلوبها وسلامة لغتها . ثم دار بيننا حديث طويل فى السياسة ، بعضه بالعربية وبعضه الآخر بالفرنسية التى يتحدثها جمال الدين بطلاقة . وكان ابراهيم المويلحى حاضرا ، ولكن الآخرين لم يفهموننا (فقليل من الأتراك من يعرف العربية) وسألنى جمال الدين عن رأيى فى كثير من الشخصيات فى مصر مثل الخديو (توفيق) ورياض (رئيس الوزراء) ومختار (ممثل السلطان) وتجران (وكيل الخارجية الأرمنى) وشرحت له الموقف فى انجلترا أيضا . وكان هو قد زارها لبضعة أشهر فى العام الماضى وخرج بأفكار غير صحيحة ـ ومنها أن الجلاء عن مصر كان سيتحقق لولا انقلاب الخديو (على الانجليز) ولم يفهم أن حزب الأحرار الانجليزى قد خضع منذ مدة طويلة لروزبرى . ولم نتحدث عن الأحوال هنا (فى تركيا) فيما عدا أن السلطان سيؤيد عباس (الخديو) بلاشك مادام يعارضنا فى مصر ، وان عبدالحميد (السلطان) لن يطالب بأى تدخل فى الحكم هناك .

كانت الزيارة مرضية فى مجموعها . ويبدو أن فرصتى للقاء السلطان بقصر يلدز كبيرة ، ولكنى أبلغت جمال الدين بأنى لاأستطيع التأخر عن يوم الاثنين" .

ولم يستطع بلنت أن يقابل السلطان على أى حال . اذا طلب جمال الدين مهلة اسبوع حتى يحصل من القصر على موعد

للمقابلة ، ولكن بلنت أصر على السفر . فلما فشلت المساعى لاتمام المقابلة وعد الأفغاني صديقه بإعادة ترتيبها خلال الصيف . ومع ذلك رحل بلنت عن الأستانة غير نادم على المقابلة ولا راغب فيها .

غير أن ذكر الأفغاني لم يرد كثيرا بعد ذلك . بل لم يرد أكثر من مرتين عابرتين ضمن أشياء أخرى كان بلنت حريصا على تدوينها في مفكرته . أما المرة الأولى ففى ٧ ديسمبر ١٨٩٥ وكان بلنت فى القاهرة فسجل بعض أخبار الأستانة التى وصلته عن طريق ابراهيم ابن عبدالله بن ثنيان بن سعود النجدى . ومن هذه الأخبار أن "جمال الدين لم يعد يتردد على القصر" ، وأما المرة الأخرى ففى ١٦ ديسمبر ١٨٩٥ حين قابل بلنت الخديو عباس (حلمى) الذى حدثه عن رحلته الى الاستانة خلال صيف ذلك العام وكيف أنه "رتب ذات مرة أن يقابل الشيخ جمال الدين على انفراد فإذا بجاسوس (للسلطان) يتتبعه عن قرب لدرجة أنه (أى الخديو) استدار نحوه وضربه ، وأرسل الى القصر رسالة بأنه سيطلق النار على أى شخص يضايقه مرة أخرى"

ومع ذلك كله يستوقف المتتبع لعلاقة بلنت والأفغانى أن الأول لم يذكر شيئا فى حينه عن وفاة صاحبه فى مارس ١٨٩٧ ، مع أنه كان يذكر الكثير عن أناس أقل شأنا فى الغرب والشرق . وليس من الممكن أن نرد ذلك الى أنه لم يعرف خبر وفاته . فقد عرف الخبر فى القاهرة عقب وفاة الأفغانى بأيام . وكان بلنت على صلة مستمرة بمحمد عبده ، ودائم التسجيل لمحادثاتهما شبه اليومية أثناء وجوده بالقاهرة ، ولكن محادثاتهما لم تتطرق الى موت الأفغانى ولا الى مصرع شاه ايران الذى سبقه بأشهر خمسة ويبدو أن فى الأمر سرا ، فلا بلنت كتب يرثى صديقه ولا محمد عبده كتب يرثى أستاذه . ورحل الصديق والتلميذ بعد ذلك دون أن يكشف عن شيء من هذا السر .

غير أنه حدث عام ١٩٠٩ أن كان المستشرق الانجليزى ادوارد براون يستعد لانهاء كتابه الضخم "الثورة الايرانية" فأرسل الى

بلنت يستكتبه معلوماته ورأيه عن الافغانى . ورد بلنت برسالة مسهبة رجع فى معلوماتها الى يومياته . ونقتطف هنا منها مالم يرد فى تلك اليوميات التى نقلناها من قبل . فقد ذكر بلنت لقاءهم الأول فى لندن فى ربيع ١٨٨٣ ثم انتقل الى ماتلا ذلك من لقاءات ، وكيف كتب له الأفغانى رسائل توصية لأصدقائه فى الهند .

يقول بلنت :

"أثبتت الخطابات التى أعطانى اياها الشيخ انها على جانب كبير من الفائدة بالنسبة لى فقد وجدته علما فى كل مكان من الهند . وفى كلكتا كان ثمة عدد من الطلاب المسلمين الشباب كرسوا أنفسهم تماما لمبادىء الجامعة الاسلامية فى الاصلاح الحر ، وكذلك كانت الحال فى المدن الكبيرة الأخرى فى الهند الشمالية .

"لقد كان خصما للحكم الانجليزى بجماع قلبه ، ولكن دون أى تحيز متعصب فى الوقت نفسه . وكان فى مقدوره أن يرحب بشروط عادلة من الاتفاق مع انجلترا ويعتقد أن هذا الاتفاق أمر ممكن . وقد ثبت لى هذا فيما بعد عند عودتى الى أوربا سنة ١٨٨٤ ".

وينتقل بلنت الى الحديث عن صدى رحلته الى الهند عند الأفغانى ورأيه فى مشكلة جوردون فيقول : "سره نجاح رحلتى الهندية ، وحثنى على بذل جهود أخرى فى سبيل الاسلام . وكانت مهمة الجنرال جوردون فى الخرطوم قد أدت الى اثارة كبيرة فى انجلترا والقاهرة على السواء . وسعيت اليه طلبا للنصح والعون حول امكان ارسال وفد للصلح الى المهدى الذى كان على اتصال به تقريبا ، وكذلك حول امكان تدخله للتأثير على انسحاب جوردون ، فأبدى ترحيبه للمعاونة فى هذا المشروع فى حالة أن يطمئن الى حسن نوايا وزارة خارجيتنا . وعند وصولى الى لندن قمت بالاتصال بجلادستون فى هذا الشأن . وأعتقد أن جلادستون كان يرحب بأن يستفيد بمعونته . بل ان الأمر مضى الى أبعد من ذلك حين عرض على مجلس الوزراء . ولكن قضية الصلح لم تكن

فى مخططات وزارة الخارجية فانتهى الأمر برفض العرض .

ويفسر بلنت تطورات الأحداث بعد ذلك فيقول :

"وفى السنة التالية ، ١٨٨٥ ، كان جلادستون قد ترك الوزارة وأصبح اللورد راندولف تشرشل - الذى كنت على علاقة ودية به . وزيرا لشئون الهند ، فأقنعت جمال الدين بالمجىء الى لندن لمقابلته بغرض مناقشة شروط التوصل الى حلف بين انجلترا والبلاد الاسلامية . ونزل عندى ضيفا لمدة تزيد على ثلاثة أشهر ، بعضها فى كرابيت (ريف انجلترا)وبعضها الآخر فى لندن ، حيث أتيح لى أن أعرفه معرفة ودية وثيقة . وقدمته الى العديد من أصدقائى السياسيين ، ولاسيما تشرشل ودراموند وولف . واحتفظ فى بيتى بملاحظات شيقة حول محادثاته معهما فى بيتى . وقد تم ترتيب أن يسافر مع وولف الى القسطنطينية ، فى مهمته الخاصة لدى السلطان ، بقصد أن يمارس نفوذه على بطانة عبدالحميد الداعية الى الجامعة الاسلامية ، حتى يمكن التوصل الى تسوية تتضمن الجلاء عن مصر والتحالف بين انجلترا وتركيا وايران وأفغانستان ضد روسيا . وفى آخر لحظة للآسف تحلل وولف من التزامه بأخذ السيد معه . وانا أعزو (جزئيا على الاقل) لهذا التغيير فى الرأى المصاعب التى واجهتها بعثة وولف وفشلها فى النهاية .وقد شعر السيد بالاساءة الشديدة نتيجة التخلى عنه ، لأن تذكرته الى القسطنطينية كان قد تم حجزها . ومكث بعد ذلك بضعة أسابيع فى لندن بلاعمل ثم غادرها فى النهاية الى موسكو غاضبا مستاء حيث تعرف بكاتكوف وألقى بنفسه داخل المعسكر المضاد الذى يناصر التحالف بين روسيا وتركيا ضد انجلترا"

ثم ينتقل بلنت الى المرحلة الأخيرة فى علاقتهما بعد انقطاع ثمانى سنوات حيث رآه فى عاصمة الخلافة ، فيقول :

وجدته مستقرا فى القسطنطينية مقربا من السلطان عبدالحميد ، سجينا من سجنائه فى المسافر خانه فى نيشان طاش

(الضاحية) خارج سور حديقة قصر يلدز"

ويروى كيف سمع عنه قبل آيام ، آثناء رحلته هناك ، أنه اقتحم الاحتفال بعيد الأضحى الذى آقيم فى القصر بعد آن رده آحد موظفى البلاط . ويضيف :

"ولكنه بما عرفَ عنه دائما من استقلال آصر على آن من حقه كعالم (رجل دين) وسيد (من نسل النبى) آن يتساوى بأى واحد فى الحفل . ثم شق طريقه متقدما وسط الحاضرين حتى لفت انتباه السلطان فدعاه الآخير اليه وجعله يقف خلف كرسى العرش ، وأقرب اليه حتى من كبير الأغوات . وهذا فى رآيى مايميزه أشد التمييز ، لأنه كان لديه نفور ديموقراطى من المظاهر الرسمية . ومع ذلك وبالرغم من مكانته العالية ، وضع سنة ١٨٩٣ تحت المراقبة الشديدة التى فرضها عبد الحميد على جميع ضيوفه"

ويزوى زيارته له فى مقره ومعه ابنته :

"كان البيت الذى يقيم به أنيقا فخما . وكان يجلس محوطا بأصدقائه من رجال الطبقة المتعلمة . ونهض لاستقبالنا بحفاوة بالغة . وقبلنى على الوجنتين . وأجلس ابنتى على المقعد الرسمى ذى المسندين . وقدم لنا شايا وقهوة . وراح يسامرنا بحديث طلى بخليط من العربية والفرنسية اعتاد استعماله معنا . تحدث بحرية شديدة حول جميع الأمور . وكان ضيوفه الآخرون لايعرفون غير التركية فيما آظن . وفى اليوم التالى رد لنا الزيارة فى الفندق الذى نزلنا به فى (ضاحية) بيرا . وكان متحمسا جدا لأن أقابل السلطان . وأنا آلوم نفسى على آنى لم أحظ بالفرصة ... وفى زيارتى التالية له حدثنى كثيرا حول وضعه فى ذلك العالم الغريب ، عالم يلدز ، حيث عاش نصف ضيف نصف سجين . وكان سعيدا فى هذا العالم عند ذاك لأن المكانة التى تبوأها اكسبته نفوذا ولم تكمم فمه ، فقد كان دائما حر الحديث"

وأخيرا يروى بلنت ماتلا ذلك من أيام الأفغانى مماسمعه فيقول إنه مر بأيام عصيبة بسبب دسائس الشيخ أبوالهدى (الصيادى

منجم السلطان) الذى كان يغار منه ، حتى أن السلطان سحب منه كل الحظوة التى كانت له . ويضيف : "وليس عندى شك كثير فى أنه كان على علم باغتيال الشاه (أعنى أن كلماته العنيفة قد أدت الى وقوع الاغتيال على يدى واحد من مريديه الايرانيين) لأن جمال الدين كان ثوريا لايعرف المساومة" كما يضيف عن موته : "أميل الى تصديق قصة مرضه الخطير على أنه نتيجة السم . فقد كان له أعداء كثيرون . وكان قد أصبح عبئا على عبدالحميد . وكانت أيامه الأخيرة محزنة على أى حال وطبقا لما رواه لى الشيخ محمد عبده فى حينه فإن سقوطه من الحظوة عند عبدالحميد ترتب عليه ابتعاد أصدقائه القدامى عنه وتجنبهم له . ووجد نفسه شيئا فشيئا وقد اعتزله زملاؤه فى المسافر خانه . ومات بين ذراعى خادم واحد مخلص ، وكان هذا الخادم مسيحيا"

فى هذه الاضافة على أى حال يبدى بلنت اعجابه بصديقه وتأثره به . بل يرثيه وكأنما يعوض اهماله لرثائه وقت موته . لخص فى رسالته الاضافية هذه علاقته بالأفغانى تلخيصا لايغنى عن يومياته بما فيه من تفاصيل بالطبع ، ولكنه يوضح كثيرا من النقاط التى سبق أن دونها مفكرته وسجلها فى كتبه .

محمد عبده

الكيان الاسلامى يحتاج الـــى الاصلاح الدينى

عرف بلنت محمد عبده طوال مايقرب من ربع قرن . وربطت بينهما صداقة روحية تركت آثرا فى كلٍ منهما ، وظلت موصولة حتى وفاة محمد عبده سنة ١٩٠٥ . وكان لها أثر آكبر على بلنت نفسه ، اعترف به فى أكثر من مناسبة ، لاسيما فى تقديمه لكتابه المشهور فى العربية "التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر" فلولا محمد عبده وتوجيهاته ما ظهر ذلك الكتاب على النحو الذى ظهر به فى طبعته الثانية المزيدة والمنقحة .

يقول بلنت فى مقدمته لهذه الطبعة التى ظهرت سنة ١٩٠٧ اى بعد نحو سنتين من وفاة صديقه انه راجع الطبعة الأولى (ظهرت سنة ١٨٩٥) مع محمد عبده سنة ١٩٠٤ وكانا يلتقيان كل يوم لهذا الغرض فيتناقشان فى التاريخ القريب واحداثه (١) . ويضيف بلنت عن صديقه .

"وحول هذا الموضوع كثيرا ماتحدث الىّ مبديا اسفه على عدم وجود فراغ عنده يمكنه من إكمال تاريخه (لهذه الآحداث) وحين حدثته عن مذكراتى حثنى بقوة على نشرها ، اذا لم يكن بالانجليزية فبالعربية ـ عن طريقه ـ على الاقل . وتعهد بمراجعتها مغى

---

(١) روى محمد رشيد رضا فى «تاريخ الاستاذ الامام» (ج ١ ص ٩ ـ ١٠) ان بلنت شجع عبده على تدوين سيرته وتجاربه .

مطابقة مايتصل منها بما يعلمه على الحقيقة . وقد كنا صديقين شخصيين وحليفين سياسيين منذ يوم زيارتى الاولى لمصر قريبا . وكان من السهل ـ وحديقته تطل على حديقتى ـ أن نعمل معا ونقارن ذكرياتنا عما عرفناه من بشر واشياء . وبهذه الطريقة تخذ تاريخى لحقبة لاتنسى ـ بالنسبة لنا ـ شكله النهائى . استطعت (يالى من محظوظ !) أن أتمه وأن أحصل منه (عبده) على موافقته وتصريحه بالطبع قبل ان يموت .

وفى هذه المقدمة الرثائية لمحمد عبده وصفه بلنت بأنه "الفيلسوف والوطنى الكبير" الذى مات فى ذكرى ضرب الاسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) وقال "إن وفاة المفتى ضربة قاسية لى ولمصر ايضا . وقد ادت الى تاجيل خطتنا لنشر الكتاب بالعربية الى اجل غير مسمى"

أهم من هذا كله أن قارىء الكتاب الذى اشتهر به بلنت يشعر شعورا قويا بعد الفراغ من قراءته بأن لمحمد عبده يدا بارزة فى تسجيل حوادث تلك الفترة الخطيرة فى تاريخ مصر التى دامت نحو سنتين (١٨٨١ ـ ١٨٨٣) وشهدت الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى .

يصور بلنت فى كتابه "التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر" أول لقاء له بمحمد عبده على النحو التالى

"أجد ورقة بين أوراقى تشير الى تاريخ ٢٨ يناير ١٨٨١ . ففى ذلك اليوم صحبنى لأول مرة عالم (أزهرى)[٢] متحمس الى البيت الصغير الذى يقيم به محمد عبده فى حى الأزهر . وأعد ذلك اليوم ـ بصفة خاصة ـ علامة مميزة (فى حياتى) لانه شهد مولد صداقة استمرت الآن (١٩٠٤) نحو ربع قرن لواحد من خيرة

---

(٢) هو الشيخ محمد خليل ، وكان قد قدمة لبلنت موظف انجليزى لتعليمه اللغة العربية سنة ١٨٨١ . ثم مات بالكوليرا بعد عامين .

الرجال وآكثرهم حكمة وطرافة ويجب آلا يظن احد ان استخدامي
هذه الكلمات فى وصفه يعنى آنها تشكل حكما مجاملا او مبالغا
فانى ابني حكمى على معرفة شخصيته التى اكتسبتها فى ظروف
شتى وفى مناسبات شديدة الصعوبة والقسوة ، كعلم دينى أولا ثم
كزعيم لحركة اصلاح اجتماعى ومثقف على رأس ثورة سياسية ، ثم
كسجين فى ايدى اعدائه ، ومنفى في اراض اجنبية عدة . وبعدها
عرفته حين وضع طوال سنوات تحت مراقبة الشرطة فى القاهرة
عندما انتهت مدة نفيه ، ثم حين أسس لنفسه فى بلدد نفوذا بفضل
رجاحة عقله وشخصيته المعنوية واستانف محاضراته فى الازهر ،
وعين قاضيا فى محكمة الاستئناف . وآخيرا حين عين مفتيا للديار
المصرية فى هذه الايام . وهو اعلى منصب قضائى ودينى فى
مصر (الصواب ان منصب المفتى يلى منصب شيخ الآزهر)

"لقد كان الشيخ محمد عبده ، حين رآيته أول مرة عام ١٨٨١ ،
رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين ، متوسط الطول ، اسمر ، نشيطا
فى مشيته ، تعكس عيناه النفاذتان حدة ذكاء . وكان صريحا
بطبعه ، ودودا ، يوحى بالثقة الفورية ، يبدو فى ملبسه شرقيا
خالصا ، يرتدى عمامة بيضاء وجبة غامقة اللون كالتى يرتديها
شيوخ الآزهر . ولايعرف ـ حتى ذلك الوقت ـ اى لغة اوربية ، او
لايعرف فى الحقيقة سوى لغته . وبمساعدة محمد خليل الذى كان
يعرف قليلا من الفرنسية ويعاوننى فى عربيتى غير الكافية ناقشت
معه (محمد عبده) معظم المسائل التى سبق ان ناقشتها مع
تلميذه (خليل) ومن الاثنين اكتسبت قبل مغادرتى القاهرة
(١٨٨١) معرفة واسعة باراء مدرسة الفكر الاسلامى الحر التى
يتبعانها ومخاوفهما من الحاضر واما لهما فى المستقبل . وقد
سجلت هذا كله بعد ذلك فى كتاب نشرته فى اواخر تلك السنة
بعنوان "مستقبل الاسلام" وآكد الشيخ محمد عبده على نقطة ان
مايحتاجه الكيان السياسى الاسلامى ليس مجرد الاصلاحات وانما
الاصلاح الدينى الصحيح . وفيما يعلو بمسالة الخلافة اتفق رايه

ذلك الوقت مع رأى معظم المسلمين المستنيرين فى ضرورة
دة اقامتها على اساس روحى اكبر . وشرح لى كيف أن
ممارسة الشرعية لسلطة الخلافة تتيح حافزا للتقدم الثقافى . وان
يلين ممن حملوا لقب "الخليفة" على مدى قرون هم الذين
ستحقون القيادة الروحية للمؤمنين . فبيت آل عثمان لم يعن بالدين
وال مائتى سنة ولم يعد يطالب بأى ولاء خارج حق السيف . وقد
انوا ولايزالون أقوى امراء المسلمين واقدرهم على خدمة الصالح
عام ، ولكن ما لم يتحمسوا لآخذ وضعهم بجدية فسوف يسعى
ناس شرعا الى امير مؤمنين جديد . ولاشك أن الأمر يتطلب
ساسا سياسيا جديدا على وجه الاستعجال من آجل الحاجات
لروحية للمسلمين . وفى هذا كله كانت ثمة نغمة معتدلة فى تعبيره
عن آرائه المقنعة للغاية بما تحمله من حكمة عملية"

فى ذلك العام (١٨٨١) وجد بلنت نفسه فى خضم الحركة الوطنية المصرية . فقد تفاقمت آوضاع مصر الاقتصادية فى آواخر عهد الخديو اسماعيل . ولم يستطع الخديو توفيق ان يصلح ماآفسده آبوه بإسرافه واستبداده ، حين خلفه فى حكم البلاد سنة ١٨٧٩ . وآصبح من الواضح للمراقب الخارجى مثل بلنت أن يتنبأ بنشوب ثورة فى البلاد ، آو سقوطها فريسة للسيطرة الأجنبية والاحتلال . وقد توالت النبوءتان واحدة بعد الأخرى . ولكن الثورة نفسها تدرجت من حركة تطالب بالاصلاح الى مقاومة عسكرية للتهديد والاحتلال الانجليزيين . ولما تصاعدت الاحداث مع بداية ذلك العام برزت الى السطح أسماء كثيرين من الضباط والمثقفين . وكان على رأس هؤلاء آحمد عرابى والبارودى وعبد الله النديم ومحمد عبده . وقد سعى بلنت الى لقاء عرابى الذى تجمعت فى يديه كثير من خيوط الحركة الوطنية فى ذلك الوقت . وتم ذلك ـ لأول مرة ـ فى ١٢ ديسمبر ١٨٨١ .

وقد استمع بلنت الى عرابى طويلا فى هذا اللقاء . وخرج من عنده متأثرا بحواره معه حول استقلال مصر الادارى عن الدولة

العلية (العثمانية) مع الاعتراف بالسلطان خليفة للمسلمين . وتا
الحزب الوطنى للخديو مع الالحاح على حكم الشورى وحر
التعبير . والسعى نحو تخليص مصر من ديونها وسيطرة الأجا
مع مساواة الأجنبى والوطنى فى الحقوق والواجبات . وسيا
الحزب العلمانية تجاه أصحاب الاديان الاخرى غير الاسلام
ذكر بلنت أنه ذهب بعد لقاء عرابى الى صديقه محمد عبد
واقترح عليه تسجيل الآراء التى سمعها من عرابى واعدادها
صورة برنامج أوبيان لعرضه على الحكومة الانجليزية . ثم عر
الفكرة على القنصل الانجليزى ادوارد ماليت فوافق عليها.

يقول بلنت :

« وبناء على ذلك قمت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وآخرين م
الزعماء المدنيين باعداد بيان أمليناه على صابونجى (سكرت
بلنت) وضمناه موجزا لافكار الحزب الوطنى ثم أخذ محمد عبد
الى محمود باشا سامى الذى عين وزيرا للحربية مرة اخرى وحص
منه على موافقته على البيان . كما عرض على عرابى ووافق عليه »

أطلق على هذا البيان إسم « برنامج الحزب الوطنى » وقا
صابونجى بترجمته الى الانجليزية ومنح بلنت الترجمة ثم أرسل
الى جلادستون رئيس الوزراء . وارسل نسخة منه الى تشينر
رئيس تحرير صحيفة « التايمز » الذى نشرد فى حينه . ولكن دور
محمد عبده هنا لايتجاوز الاشتراك فى الصياغة وربما اقتراح بعض
الأفكار . ولايمكن ان ينسب البيان له كما فعل الدكتور محمد عمارة
فى الجزء الأول من « الاعمال الكاملة لمحمد عبده » وقد كان البيان
يؤكد على ضرورة وجود دستور للحكم فى مصر . حتى تستتب
أمورها وتستقيم نهضتها . وعبر محمد عبده عن رايه وزملائه من
المعتدلين فى الدستور فقال لبلنت .

"لقد انتظرنا السنين من اجل ان تتحقق حريتنا وهذا كفيل
بأن نتتظر بضعة اسهر اخرى"

.. ومنذ البداية مال بلنت الى آراء محمد عبده . وكان يسجلها أولا بأول . ويوحي للقارىء بأنه لايختلف معها كثيرا ان لم يكن يؤيدها . بل انه اقتنع تماما فى ذلك العام بقضية الاصلاح الفورى لأمور الاقتصاد المتدهور والديون الأجنبية وسيطرة انجلترا وفرنسا على مالية البلاد والحكم الاستبدادى . وأصبح يدافع عن عرابى وزملائه من أنصار الحزب الوطنى . وحاول أكثر من مرة أن يتدخل فى بعض الأزمات التى نشبت بين الوطنيين والمراقبين الماليين الانجليزى والفرنسى . وكان محمد عبده مصدره الأساسى فيما يتعلق بالجانب الوطنى ومرجعه فيما يتعلق بفهم الأحداث وتطوراتها .

حدثت أول أزمة بين الأعيان الوطنيين ، أعضاء مجلس شورى القوانين ، وبين المراقبين الانجليزى والفرنسى للمالية المصرية . وكان سبب الأزمة مطالبة اعضاء المجلس بإخضاع نصف الميزانية السنوية للبرلمان وترك التصرف فى النصف الباقى للمراقبة المالية . ومن الواضح أن هذه المطالبة جاءت تعبيرا عن الرغبة الطاغية فى الشعور بالاستقلال وحرية الارادة . ولكن المراقبين الأوربيين لم يرضيا عن تقلص سلطاتهما ، وحاولا أن يوسطا بلنت الذى كان على علاقة بالمراقب الانجليزى كولفين . وحاول بلنت بدوره أن يخفف حدة التوتر بين الجانبين فلجأ الى صديقه محمد عبده يطلب مشورته .

وكتب بلنت عن ذلك :

"بعد التشاور مع الشيخ محمد عبده ، الذى كان كعادته فى صف التروى والتراضى ، رتب لى الالتقاء فى بيته بوفد منهم لمناقشة القضية معهم حتى أبين لهم العواقب المحتملة لمقاومتهم - أعنى التدخل المسلح"

ولكن هذا اللقاء لم يفض الى نتيجة مثمرة ، وان كان بلنت نفسه تفهم موقف الأعيان وأيدهم فيه . وكان القنصل الانجليزى ادوارد ماليت قد أفهم بلنت أن الميزانية المصرية مسألة دولية لا حق لرئيس الوزراء المصرى (محمد شريف فى ذلك الوقت ولا للبرلمان

فى المساس بها دون الحصول على موافقة حكومتى الدولتين اللتين وكلت اليهما مهمة مراقبة المالية والخزانة المصرية ،وهما انجلترا وفرنسا . ويضيف بلنت عن لقائه السابق :

"على هذا الأساس (استقلال الميزانية) وبمساعدة صابونجى ومحمد عبده ناقشت القضية معهم بشكل شامل . واقتنعت بأن تنازلهم أمر غير ممكن ولكنهم وافقوا بالفعل على تعديل المواد الثلاث أو الأربع التى اعترض عليها المراقبان أساسا مثل منح المجلس سلطات "المؤتمر" وقاموا بإدخال التعديلات التى اقترحتها فى اللائحة المنشورة بعد ذلك . ولكنهم تمسكوا برأيهم فيما يتعلق بمادة الميزانية وجوهرها بالرغم من تأييد الشيخ محمد عبده لى"

وهكذا عاد بلنت من مهمته الصعبة هذه بخفى حنين . فقد كان التيار الثورى فى الحركة الوطنية أكثر حسما وعنادا من التيار المعتدل الذى مثله محمد عبده وبعض الأزهريين الآخرين .

فى ٣١ يناير ١٨٨١ ، أى بعد أيام من محاولة بلنت التوسط هذه ، ذهب لمقابلة كولفين المراقب الانجليزى . وكان كولفين ـ كما ذكر بلنت ـ من طراز الموظفين الانجليز الذين تربوا فى الهند ونشأوا على كراهية الشرقيين . ويسجل بلنت فى ذلك اليوم :

"كنت فى مرحلة مبكرة من مراحل القضية قد صحبت الشيخ محمد عبده لمقابلته ، ظنا منى أن أحقق بعض التفاهم بين الطرفين . وحاولت أن أفعل ذلك مع الضباط . ولكن سلوك كولفين أثار الشيخ . وكان الضباط يخجلون من الذهاب معى إليه فقد كان فى بعض الأحيان يتكلم بطريقة فجة ووقحة"

لقد كان كولفين ـ كما يرى بلنت ـ مقتنعا بأن انجلترا لن تغادر مصر أو تتخلى عن مكانها فيها . وكان من رأيه تحطيم الحزب الوطنى بأى ثمن . ولم يكن يدارى هذه الآراء حتى أن بلنت حذر أصدقاءه المصريين منه . بل انه أبدى ندمه على تحديه حين قال له : "اتحداك أن تحقق تدخل الانجليز فى مصر أو سيطرتهم عليها" فقد ندم بلنت على ذلك التحدى لرجل أحمق متهور . وقال :

"انى نادم على ذلك لأنى أعتقد أن التحدى أضاف دافعا شخصيا وسياسيا الى تصرفه التالى" ويقصد بذلك التصرف ايعاز كولفين لحكومته ودفعها الى احتلال مصر .

ولم يبق بلنت طويلا فى مصر فى ذلك العام على أى حال . فقد عاد الى انجلترا فى أواخر شتاء ١٨٨١ وراح يتابع قضية مصر من هناك . وأرسل سكرتيره صابونجى ليتابع الأمر على الطبيعة فى القاهرة والاسكندرية . وقابل فى لندن الجنرال ولسلى قائد حملة الاحتلال فى ١٥ يناير ١٨٨٢ وعرف منه بعض الخطوات القادمة . وأرسل الى محمد عبده خطابا يحذره وغيره من أفراد المعسكر الوطنى من احتمال هجوم الانجليز على مصر فى حالة التدخل المسلح من ناحية الاسماعيلية . وفى ١٩ يناير كتب اليه صابونجى من القاهرة قائلا ان "محمد عبده قرر جمع كل الوثائق التى بحوزته مع غيرها مما يتعلق بالمسائل المصرية للسفر بها الى انجلترا وعرضها على المستر جلادستون والبرلمان الانجليزى"

فى ١٤ مايو ١٨٨٢ ، أى قبل ضرب الاسكندرية بنحو شهرين ، تلقى بلنت تلغرافاً بالفرنسية من محمد عبده ، ولكنه عد صيغة التلغراف محيرة ، وهذا نصها :

"لايوجد خلاف بين سلطان باشا والبرلمان . الذئب (يقصد الخديو المعزول اسماعيل) الذى زعمت اشتراكه فى المؤامرة الشركسية فى خطابى لصابونجى هو فى الحقيقة شريك فى الجريمة هناك خلاف أساسى متباين بين أعضاء البرلمان . الأمن العام لايهدده خطر ."

هذه هى جميع الفقرات التى جاءت فى متن كتاب بلنت عن الثورة العربية والاحتلال الانجليزى فيما يتعلق بمحمد عبده . ومنها نتبين أن محمد عبده كان مساهما بدور بارز فى الحركة العرابية ومقربا من قادتها ولاسيما عرابى والبارودى . ومع ذلك كان يميل فى آرائه الى الاعتدال والتراضى والتروى كما أشار بلنت بحق . وكان فى الوقت نفسه المصور الأساسى لبلنت فيما يتعلق

بالمعسكر الوطنى الذى صعد عرابى الى قمته بعد استقالة وزارة شريف باشا في فبراير ١٨٨٢ ، وتولى البارودى الوزارة . بل كان أيضا مصححا لكثير من المعلومات التى استقاها بلنت أو كتبها عن تلك الفترة العصيبة التى سبقت احتلال الانجليز لمصر وشهدت هزيمة الحركة الوطنية بعدها .

ومن أهم التصحيحات التى قام بها محمد عبده فى كتاب بلفت ماذكره حول تفكير عرابى ورجال الجيش فى التخلص من الخديو اسماعيل قبل عزله . فقد قال :

"أما بالنسبة لما يقوله عرابى حول اقتراحه فى ذلك الوقت بخلع اسماعيل فلا شك أنه كان ثمة حديث يدور سرا حول هذا الموضوع . وكان الشيخ جمال الدين (الأفغانى) يؤيده . وقد اقترح علىّ ضرورة أن أغتال اسماعيل ذات يوم عند مرور عربته على كوبرى قصر النيل . ووافقت على ذلك بحرارة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحديث بيننا . فقد كان ينقصنا شخص قادر على المبادرة فى الموضوع . ولو كنا نعرف عرابى فى ذلك الوقت لنظمنا معه الأمر ، ولكان ذلك أفضل شيء لأنه كان سيمنع تدخل أوربا . ومع ذلك لم يكن من الممكن أن نؤسس جمهورية بسبب ماكان سائدا وقتذاك فى أوساط الشعب من جهل سياسى"

من أهم التصحيحات أيضا ما أثبته بلنت ـ نقلا عن محمد عبده ـ حول مؤامرة الضباط الشراكسة ودور الخديوى اسماعيل فيها . وكان بلنت قد علم من ابراهيم المويلحى أن اسماعيل دبر هذه المؤامرة من منفاه فى نابولى ، زمن العرابيين ، عن طريق أعوانه فى مصر وعلى رأسهم راتب باشا عدو الوطنيين وكان هدف المؤامرة اغتيال عرابى وزملائه ثم استقدام الخديو اسماعيل والمناداة به خديويا على مصر . وقد ذكر محمد عبده لبلنت فى رسالة له فى ٢٥ ابريل ١٨٨٢ أن المتآمرين قبض عليهم وتم سجنهم كما ذكر له فى رسائل أخرى الكثير من الوقائع المتعلقة بما سمى « حوادث الشغب » فى الاسكندرية عند نزول الانجليز

والمذبحة التى دارت هناك فضلا عن ملاحظاته حول أحداث المقاومة الوطنية للانجليز حتى سقوط مدينة التل الكبير وهزيمة الجيش والقبض على عرابى . وكان مما ذكره أن الخديو توفيق أمر خصيانه بالذهاب الى السجن الذى أودع فيه عرابى وزملاؤه ، وإهانة زعماء الثورة بالسب والبصق فى وجوههم . بل ان بلنت أورد فى كتابيه عن الاحتلال الانجليزى لمصر ومشكلة جوردون فى الخرطوم الكثير من النصوص لبيانات أو خطابات تلقاها من محمد عبده أثناء الثورة العرابية وفترة نفيه بعد ذلك .

وهذه كلها مؤشرات الى الدور الذى لعبه محمد عبده خلال تلك الفترة التى تلت نفى أستاذه الأفغانى فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ حتى نفيه هو فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ ، وكذلك تشير الى الدور الآخر الذى لعبه فى تدوين أحداث تلك الفترة على يدى صديقه بلنت . فلولا محمد عبده ماخرجت مدونة بلنت على تلك الصورة التى خرجت بها ، ولاسيما فى كتابه عن الاحتلال الانجليزى لمصر مما سجله هو نفسه فى مقدمته الرثائية السابقة .

فى المنفى من الشام الى أوربا
بيـــن الصحافـــة والسياســة

إحتل الانجليز مصر فى ١١ يوليو ١٨٨٢ . وفشلت مقاومة عرابى وقواته بعد نجاح الانجليز فى التسلل الى صفوفه بالرشوة والاغراء . وانتهى كل شىء - بعد نحو ستة أشهر - بنفى قادة الثورة ومثقفيها ، ومنهم محمد عبده الذى حكم عليه فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ بالنفى ثلاث سنوات . وقد رحل الى بيروت مع عشرات من الوطنيين المنفيين . ومن هناك ظل على صلة ببلنت عن طريق المراسلة . وقد نشر بلنت فى ملاحق كتابه " جوردون فى الخرطوم " ترجمة لرسالة تلقاها منه بالعربية فى ٥ آغسطس ١٨٨٣ حول أحداث الاسكندرية وطنطا آثناء نزول الانجليز . وكانت الرسالة تتضمن إسمين لشخصين حضرا تلك الأحداث وآبديا رغبتهما - فى المنفى - لمحمد عبده فى الادلاء بمعلوماتهما ضد الخديو توفيق وأعوانه . وكان بلنت نفسه يجمع فى ذلك الوقت شهادات ومعلومات حول الاحتلال الانجليزى ودور الخديو فيه للاستفادة بها فى تأليب الرأى العام الانجليزى على حكومته وسياستها .

غير آن محمد عبده لم يبق طويلا فى بيروت . فقد آستدعاه آستاذه الأفغانى فى يناير ١٨٨٤ الى باريس لاصدار « العروة الوثقى » ومن باريس سهل اتصاله بصديقه بلنت ، وكان بلنت قد عاد فى ذلك الوقت من رحلة إلى الهند زار خلالها عرابى وزملائه

المنفيين في جزيرة سيلان . وفى طريقه إلى لندن توقف قليلا فى باريس وكتب عن ذلك فى كتابه « جوردون فى الخرطوم » فقال

« وفى باريس قضينا بضع ساعات فى صحبة أصدقائنا اللاجنين : الشيخ عبده والسيد جمال الدين وجيمس (يعقوب) صنوع . أما الأول فلم أكن قد رأيته منذ الحرب (فى مصر) لأنه قضى السنة الأولى من منفاه فى دمشق (الصواب فى بيروت) حيث احتفى به أبناء عبد القادر (الأمير الجزائرى المنفى) وعاش حياة ضنك ، ولكن فى أمان ، مع عدد كبير من الوطنيين المصريين المنفيين . وجدناه قد تأورب إلى حد ما بعد شهرين من الاقامة فى باريس . فقد أهمل حلق رأسه وارتدى طربوش بدل العمامة مما قلل من مهابته كشيخ ، مع أنه كان لايزال يرتدى عباءة محترمة من الفراء . وهو يتكلم الآن بصراحة ضد السلطان والأتراك . ويشكو من الاستبداد فى سوريا (الشام) ولايرى أن الشريف عون (أمير مكة) سيكون الخليفة القادم . ويقول إن المهدى هو المقدمة للخليفة العربى ، وسرعان ما سيصبح الخليفة .

« ورويت له ولجمال الدين كل مافعلته فى الهند ، وأطلعتهما على فكرتى فى الذهاب الى القسطنطينية . ولكنهما حذرانى من عدم جدواها ، وقالا انتى إذا حاولت الذهاب فهما لايتوقعان منه خيرا ، فالسلطة كلها هناك فى يد عثمان باشا (رئيس الوزراء أو الصدر الأعظم) الذى لايهمه إلا أن يملأ كيسه بالمال . أما سوريا (الشام) فتموج بأفكار الحرية برغم طغيان الجواسيس والشرطة . ولايمكن عمل شيء فى القسطنطينية . ثم تحدثنا عن المهدى الذى أصبح الآن الموضوع الرئيسى لاهتمام المسلمين وكذلك عن جوردون الذى ذهب الى الخرطوم . ووافق جمال الدين على الخطاب الذى كتبته لجوردون . وقال إنه مقضى عليه مادام يتخذ الجانب الخاطيء .

وينقل بلنت بعد ذلك ماجاء فى يومياته حول زيارته لمقر صحيفة « العروة الوثقى » مما نقلناه عن الحديث عن علاقته بالأفغانى . وقد تمت هذه الزيارة فى ٢٧ مارس ١٨٨٣ وغادر بعدها

باريس عائدا إلى لندن . وفى ٨ أبريل ، أى بعد أقل من أسبوعين سجل فى يومياته أنه كتب خطابا لمحمد عبده أوضح فيه آراءه حول الهند ومسلميها . وفى هذا الخطاب المطول المؤرخ فى ٧ ابريل أشار بلنت الى أنه كتب ردا على خطاب تلقاه من محمد عبده اعتذر فيه من عدم تمكنه من الحضور الى لندن ومعنى ذلك أن بلنت ـ فيما يبدو ـ قد دعا عبده الى الحضور وقت مروره بباريس للتشاور مع المسئولين الانجليز حول قضية مصر بعد الاحتلال .

استهل بلنت خطابه بقوله :

« إلى صديقى العزيز النبيل العالم محمد عبده ، شهيد الحرية ، أدام الله علمه . أسعدنى كثيرا خطابك ، الذى فرغت حرمنا الآن من ترجمته لى كاملا ، فيما عدا ماذكرته من أنك لاتستطيع الحضور الى انجلترا بعد . ولكنى أرسل لك مع هذا ما تحتاجه فى رحلتك من مال راجيا أن تفيدنى بوصوله . وقد كتبت منذ اربعة أيام الى السيد صنوع ورويت له شيئا عن حالة الرأى هنا ثم كتبت بعدها رسالة ستنشر فى صحيفة « التايمز » غدا أو يوم الأربعاء واقترحت فيها حلاً للمصاعب والعقبات الراهنة فى مصر . وأرجو أن يتفق ذلك مع رأيك ، لأنى اقترح فيها أن تعرض المسألة المصرية على مؤتمر أوربى ، وأن ينسحب الجيش الأنجليزى من البلاد ، وأن توضع مصر تحت الحماية المشتركة من جانب الدول الكبرى ، وبذلك تحكم نفسها وفق إرادتها . وأقترح أيضا أن يعقد الصلح مع المهدى ، وأن يستدعى الجنرال جوردون من الخرطوم . ولم أنس أن أوصى بألغاء مراسيم النفى للوطنيين المصريين . أما فيما يتعلق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف أرائى حولها لانها منشورة بالكتاب الذى ألفته منذ ثلاث سنوات وأقمته على توجيهاتك وأرائك المفيدة » (١)

---

(١) يقصد كتابه « مستقبل الاسلام » الذى ظهر سنة ١٨٨١

ثم سجل بلنت فى خطابه آراءه وأفكاره حول مسلمى الهند بناء على مارأه وسمعه خلال زيارته . وتتلخص هذه الآراء فى أنه يحبذ أن يخطط المسلمون فى الهند من أجل التربية السياسية دون انعزال عن بقية الهنود ، وأن يؤسسوا جامعة للنهوض بالتعليم حتى يعززوا وحدتهم ، وأن يقبلوا على تعلم اللغة الانجليزية حتى يزدادوا اهتماما بالشئون العامة .

ويبدو أن محمد عبده كان قد طلب فى خطابه السابق معاونة بلنت فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » التى لم يكن قد مضى على صدورها شهر واحد . فقد قال بلنت فى رسالته هذه :

« أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدنى أن أبذل كل مابوسعى لمعاونتكم ولكنى أنصحكم بكل قواى أن تلتزموا الاعتدال فى لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانجليزية ـ لابمعنى أن أى شىء تقولونه حول تصرفاتها فى مصر يمكن أن يتجاوز غضبى ونفاد صبرى ـ وإنما لأنى أرى فى صداقة انجلترا خير أمل للمسلمين . وصدقنى أنه بالرغم من سلوك انجلترا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فمازال بين الانجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق »

ومع ذلك لم يعمل الأفغانى ولا محمد عبده بنصيحة صديقهما فى التزام الاعتدال فى الحديث عن الحكومة الانجليزية . فقد استمرت « العروة الوثقى » فى كشف خبايا السياسة الانجليزية ، ولا سيما فى مصر ، حتى أمرت الحكومة المصرية بمنعها من دخول مصر . كما أمرت حكومة الهند بمنعها أيضا من الدخول هناك .

ومع ذلك أيضا رد محمد عبده على هذا الخطاب بخطاب من باريس مؤرخ فى ١١ ابريل ١٨٨٤ ، أى بعد أربعة ايام فقط من تاريخ كتابة الأول . ويبدو أن البريد فى ذلك الوقت كان اسرع بكثير مما هو عليه الآن فى عصر الطائرات وقد شكر عبده صديقه على نصائحه وقال إن الأفغانى سيكتب إلى أصدقائه فى الهند بما أشار به بلنت . ثم قال :

« أما بعد ، فقد اغتبطنا للنصيحة التى تكرمت بها علينا ووعدل بمساعدة صحيفتنا « العروة الوثقى » وقد كان هذا أملنا فيك . وما من شك فى أن الله عز وجل قد خلقك لفعل الخير ومساعدة قضية الحق والدفاع عن المظلومين . وهذا هو الوجه الحقيقى لصحيفتنا ، فضلا عن خدمة تلك الأفكار التى تشقى من أجلها ، أعنى الحفاظ على استقلال الأمم الشرقية ونصح الحكومة الانجليزية حتى تتخلى عن مسلكها الذى يشقى عقول المسلمين ، وتسرع بمد يد الصداقة إليهم ، وبذلك تضمن وقوفهم فى صفها »

وفى ١٥ ابريل سجل بلنت فى يومياته أن محمد عبده وصنوع كتبا اليه وأبديا إعجابهما بمقاله الذى نشره فى صحيفة « التايمز » فى ١٠ ابريل . وفيه اقترح على حكومة بلاده تسوية جديدة للمسألة المصرية تقوم على أساس الجلاء وإعادة المنفيين والصلح مع المهدى .

ويبدو فى تلك الأثناء أن محمد عبده غير رأيه وقرر القيام برحلته الى لندن بعد أن أرسل اليه بلنت نفقات السفر . ولكنه اخر رحلته نحو ثلاثة أشهر . وكانت هذه أول زيارة يقوم بها إلى لندن . ولكنها لم تكن زيارة نزهة بمقدار ماكانت زيارة عمل ، شاهد خلالها الكثير من المعالم وقابل الكثير أيضا من الشخصيات وبدأت يوميات بلنت فى ترديد اسمه وتحركاته من خلال مضيفه الذى استضافه فى بيته بلندن ، وهو نفسه البيت رقم ١٠ شارع جيمس ، أو « جيمس ستريت » كما كان يختصره بلنت ، حيث استضاف الأفغانى بعد ذلك . يروى يوميات بلنت تفاصيل هذه الزيارة فى كتابه « جوردون فى الخرطوم » يقول

٢١ يوليو ١٨٨٤

وصل محمد عبده الآن من باريس . تغيرت آراؤه منذ رأيناه آخر مرة . فالشعور السائد عنده الآن هو كراهية انجلترا التى اتحدت مع كراهية الشراكسة ، إنها الحكاية القديمة تعيد نفسها . فعندما

تضغط أوربا وتهدد يقوم المصريون بتوحيد صفوفهم تماما مثلما فعلوا عند صدور المذكرة الثنائية (التى وجهتها انجلترا وفرنسا لمصر سنة ١٨٨١ وساندتا فيها الخديو ضد الوطنيين) والانذار (الذى وجهه قائد الأسطول الانجليزى إلى عرابى سنة ١٨٨٢ قبيل الاحتلال) ومع ذلك فهو (عبده) لم يتخل عن عرابى ، مع أنه يرى أن دوره قد انتهى فى مصر كشخصية سياسية . وهذا صحيح فى الغالب .

٢٢ يوليو

ذهبت مع محمد عبده الى مجلس العموم . لم نجد لابوشير (عضو المجلس وصديق بلنت) ولكننا وجدنا چورچ هوارد (عضو آخر صديق لبلنت) الذى صحبنا فى جولة داخل المبنى . وكنت قد طلبت من عبده أن يرتدى جبته الزرقاء وعمامته البيضاء مما أشاع فى بهو المجلس جوا لطيفا ، وتقدم نحونا مباشرة تشيسون (عضو آخر) فدعانا إلى عشاء يقام بالمجلس فى الأسبوع القادم للهنود وسواهم من الشرقيين . وأصر المصور على التقاط صورة للشيخ ، وقمت بتقديمه لعدد من النواب . واستمعنا إلى نائب أيرلندى ، أظنه سكستون ، راح يندد بأخطاء أيرلندا . ومن الشرفة المطلة على النهر (التيمز) أرينا عبده قارب الشرطة الذى يروح ويجىء على الماء لمنع محاولات تفجير الديناميت (لحساب الوطنيين الأيرلنديين) وهو مشهد أضيف الى معلوماته . ثم وجهنا نظرة نحو المستر برايت (نائب آخر) الذى انخرط على مقعده فى حديث مع ناثانيل روتشيلد (النائب اليهودى الوحيد وعميد أسرته وطائفته فى لندن)

وفى أقصى القاعة لمحت بارنل (النائب الأيرلندى المعارض) يتمشى جيئة وذهابا وحيدا مكتئبا ، فطلبت من جورج هوارد أن يقدمنا اليه . وكان الرجل جذابا وعطوفا فى الحقيقة ، معنا على الأقل بصفتنا رفاقا على طريق التمرد . وقد طلب من عبده أن يزوره

وأن يزوده بالمعلومات (عن مصر والسودان) وقال : « عندنا واحد من زملائنا فى مصر الآن وهو المستر أوكيلى (نائب أيرلندى معارض آخر كان يراسل صحيفة الديلى نيوز وقتها فى دنقله) ولكننا نخشى أن تطول غيبته » فقلت له آن عبده وجمال الدين هما اللذان كتبا له الخطابات التى مكنته من الذهاب الى المهدى . وعندئذ بدت على وجهه علامات الدهشة من معرفتى لهذا الموضوع . غير أن اكتئاب بارنل وتحفظه ليسا من طبعه فعيناه تتألقان وشفتاه تكتسيان بابتسامة من وقت الى آخر مما يكشف عن طبيعته الحقيقية . ولا شك أنه رجل فاضل ، وأنا متأكد من أننى أستطيع التفاهم والتعاون معه جيدا . وعندما حان وقت انصرافه تغير مزاجه ، وأصبح متحمسا ، وألقى علينا كلمة قصيرة قائلا أنه تشرف بمعرفة الوطنى المصرى ، وأكد أنه سعد كثيرا بمعرفتى . ووعدنى بأن يكتب لى ويحدد يوما لرؤية الشيخ .

٢٣ يوليو

جاء على الافطار ميرزا باقر ، وهو صوفى ايرانى (يعيش منفيا فى لندن) وصحبنا أنا وعبده بعد ذلك الى بيت السير ويلفرد لوصن (عضو البرلمان) ولكن الزيارة لم تحقق النجاح الذى كنت أرجوه . فقد وجه لوصن اسئلته الى عبده بطريقة جافة أكثر من اللازم مما أفزعه بعض الشىء ، فلم يستطع أن يعبر عما فى نفسه بوضوح على أى حال فيما عدا النقطة الخاصة بوجوب انسحاب القوات الانجليزية كخطوة أولى لاعادة تحقيق السلام فى مصر ، وحين ذهبنا بعد ذلك الى لابوشير (نائب آخر) دار الحديث فى مجمله على هذا النحو . وحاول لابوشير أن يقنع عبده بأن المستر جلادستون (رئيس الوزراء يريد إجلاء القوات (الانجليزية) عن مصر ، وأن خير طريقة للجلاء هى أن يمتنع المصريون عن دفع أى ضرائب طوال وجود هذه القوات . ولكن عبده اعترض على ذلك ومعه حق الى حد ما ، قائلا إن المستر جلادستون لم يكف عن

الحديث حول الجلاء فى الوقت الذى ظل يرسل فيه قوات أكبر ويملأ البلاد بالموظفين الانجليز . وشكا من أن الامتناع عن دفع الضرائب سيفسر بأنه مبرر للسيطرة .وعبثا حاول لابوشير اقناعه بأن هذا غير صحيح . ولم يستطع لوصن ولا لابوشير أن يوحيا لعبده بأى إحساس ينم عن إخلاصهما . ويرجع ذلك الى انهما لايجيدان الحديث مع الشرقيين ، فطريقتهما الجافة تبدو كأنها عداء .

وقد تناولت طعام العشاء فى البيت مع عبده وباقر اللذين انخرطا فى مناقشة طويلة حول سماح تقاليد السنة بالحديث على الطعام ، وهى نقطة توصلا الى حلها بشكل ودى ، وكذلك حول القرآن وهل كان فى الأصل كتابا كاملا أم تجميعا لأيات شفوية وأبدى عبده تمسكه بالرأى الأخير ، وأنا أوافقه على هذا تماما ، ولكن ميرزا العجوز أصر على أنه كتاب معجزة ، نزل كاملا غير مجزأ . وهذا أمر غريب اذا علمنا أنه (ميرزا) يتميز بالتحرر الشديد فيما يتعلق بمعظم الأمور .

٢٤ يوليو

ذهبنا الى تشرشل (العضو البارز فى البرلمان فى ذلك العام قبل توليه وزارة شئون الهند) ودار بيننا وبينه حديث مرض الى حد كبير إذا قورن بحديثنا آمس مع لوصن ولابوشير . وكان أسلوب تشرشل موفقا تماما حتى أن عبده خرج فى غاية السرور وقال : « إن هذا الشاب أحكم من الآخرين ـ لوصن ولابوشير ـ وأرق قلبا » ونظرا لأننى سأسجل هذا الحديث كله وأعده للنشر فى صحيفة « بال مال » فلن أكرره هنا . وقد وعد تشرشل بذكر عبده عند تشمبرلين (عضو البرلمان ووزير التجارة) وتوسيطه فى ترتيب لقاء لعبده مع جلادستون . وأنا واثق من إمكان التوصل الى تسوية إذا تم هذا اللقاء .

٢٨ يوليو

دار حديث بيني وبين عبده . ذكر لى أسماء الأشخاص الثلاثة الذين اشتراهم سلطان باشا وخانوا الجيش فى (معركة) التل الكبير ، وهم : على يوسف التركى الذى كان يقود كتيبة وسط ثلاث ، وانسحب ليسمح لولسلى بالتقدم ، وعبد الرحمن حسن المصرى الذى كان يقود طلائع الخيالة وأهمل إنذار القوات حول تقدم الانجليز . وراغب ناشد العقيد الشركسى الذى كان يحتل موقعا متقدما . فهؤلاء هم الخونة الوحيدون . أما (عبد الله) النديم فقد فر الى السودان (الصواب أنه فر إلى الريف المصرى واختفى فيه) وأما على فهمى (زميل عرابى) فقد هزم فى (موقعة) القصاصين لأن محمود سامى (البارودى) عجز عن الوصول اليه فى موعده . ويضيف عبده أنه إذا أعيد تشكيل حكومة وطنية فيجب تعيين على فهمى وزيرا للحربية ، ويعقوب سامى وزيرا للداخلية ، وعرابى رئيسا للبرلمان وعبد العال (حلمى) قائدا للجيش .

عينت ميرزا باقر سكرتيرا لى لقاء جنيه واحد فى الأسبوع .

ذهبت الى تشرشل ووجدته طريح الفراش ... وكان قد شغل نفسه بعبده . وسوف يصحبه غدا لمقابلة هارتنجتون (وزير شئون الهند)[1]

٢٩ يوليو

ذهبت مع عبده وباقر الى فندق كارلتون حيث قابلنا تشرشل وسلمتهما له ، فصحبهما لمقابلة هارتنجتون . وعادا فى غاية السرور فقد أبدى لهما هارتنجتون قدرا كبيرا من التهذيب والذكاء . ويعتقد عبده أنه ترك فى نفسه انطباعا طيبا .

---

(١) عندما عاد محمد عبده إلى باريس نشر ملخصا لهذه المقابلة فى « العروة الوثقى » ولكنه ذكر ـ خطأ ـ أنه وزير الحربية .

٢ أغسطس

سجلت حوارا مع عبده للنشر فى صحيفة « بال مال جازيت » Pall Mall Gazette

٤ أغسطس

« يوم حافل مشهود » . عرضت قضيتى فى مجلس العموم بعد ظهر اليوم . وقد ذهبت الى هناك بصحبة عبده ، وذهبت آن مع ليدى ونتورث . وفى الصباح أصدرت وزارة الخارجية كتابا أزرق حول القضية ، ويستفاد منه أن شريف باشا (رئيس الوزراء فى مصر قبيل الاحتلال) قد وجه عددا من الاتهامات . ومن حسن الحظ أننى أستطيع ردها جميعا . أما الحكومة (الانجليزية) فلم يكن لديها أى كلمة تقولها فى الحقيقة . وأيا كان ماوصلت اليه المناقشة (البرلمانية) فقد حققت لنا فى مجموعها نصرا ، بالرغم من أنها تترك كل شىء على ماهو عليه ...

٦ أغسطس

وصلنى خطاب من برودلى (المحامى الذى سبق أن وكله بلنت للدفاع عن عرابى) يقترح فيه أن أقابل ـ بشكل عارض ـ إسماعيل باشا (الخديو) فى بيت إسكوت (رئيس تحرير مجلة « فورتنايتلى » fortnightiy وسوف أذهب الى هناك ، مع أننى واثق من أن اسماعيل لن يثير إعجابى ، ولكن حان الوقت لكى أعرفه . أن برودلى يعد بتحقيق الكثير للقضية الوطنية فى حالة عودته (الخديو) الى مصر ، وقد ذهب عبده لزيارته فى الأسبوع الماضى ولكنهما لم يتحدثا فى السياسة .

عند هذا الحد من يوميات بلنت ينتهى ذكر محمد عبده فى أول زيارة له الى العاصمة التى كانت سياستها سببا رئيسيا لنفيه . وحين قابل بلنت الخديو اسماعيل بعد ظهر ٨ أغسطس ذكر فى

تسجيله لتلك المقابلة التى لم يرض عنها أنه تحدث مع الخديوى قليلاً عن محمد عبده ، ولكنه لم يذكر أى تفاصيل . بل أنه لم يذكر بعد ذلك تاريخ انتهاء زيارة ضيفه وصديقه . أنها استمرت حتى صباح ٨ أغسطس على الأكثر ، لأن الأرجح أنه كان سيصحب محمد عبده معه الى تلك المقابلة العرضية مع الخديوى اسماعيل .

ومع ذلك فمن الواضح أن هذه الزيارة الأولى لمحمد عبده التى دامت نحو أسبوعين قد افادته هو شخصيا على الأقل من نواحى كثيرة . فقد اطلع بنفسه على رأى بعض المسئولين عن تخطيط السياسة الانجليزية إزاء مصر والسودان والمسلمين فى الهند والدولة العلية . كما أطلع هؤلاء على ماكان يدور فى أذهان الوطنيين المصريين وقتها من افكار حول قضية مصر والسودان . وكان حديثه الى صحيفة « بال مال جازيت » من الوضوح والحسم بحيث ساهم فى بلورة الفكرة التى نقلها الى الانجليز . كما كان حديثه هو نفسه مع المركيز (الدوق فيما بعد) هارتنجتون الذى نشر خلاصته فى صحيفة « العروة الوثقى » بعد عودته من الوضوح والحسم أيضا بحيث لم يؤد ـ مع سابقه ـ الى تناقض فى الرأى أو الموقف . أما مقابلته لجلادستون فلم تتم ولاندرى ماالسبب . فلم يشر اليها بلنت بعد ذلك .

قال محمد عبده فى حديثه الى الصحيفة الانجليزية (الذى نشره بلنت فى ملاحق كتابه) إن تعاطف الانجليز مع المصريين أشبه بتعاطف الذئب مع الحمل قبل التهامه ، وأن الشىء الوحيد الذى علمته الحكومة الانجليزية للمصريين هو أن يتحدوا حول الرغبة فى إجلاء الانجليز ، وإن أكبر خطأ ارتكبه الخديو توفيق هو السماح لهم بدخول البلاد وانضمامه الى اعداء دينه وقت الحرب ، وبذلك فمن المستحيل أن يكن له الوطنيون أى أحترام . وأضاف : « نحن لانبغى خونة بوجوه مصرية وقلوب انجليزية » ونفى أن يكون للفرنسيين خطر على مصر إذا تركها الانجليز . وقال عن المهدى فى السودان إن خطره الوحيد على مصر يتمثل فى وجود

نجليز ، وإن الناس ترى فيه منقذا من العدوان المسيحى سيهرعون للانضمام الى صفوفه إذا جاء اليهم ، وقال أيضا : إن جلترا إذا أرادت إصلاح ما ألحقته بنا من ضرر فلابد ـ كما قلت ان تقدم لنا أول برهان على إخلاصها عن طريق إجلاء قواتها عن مصر . ثم تتفق مع الدول الأوربية الكبرى وجلالة السلطان حول إختيار حاكم جديد لنا ولست مؤهلا لتحديد من يكون هذا الحاكم . ولكن ايا ما كان الذى سيختار فلابد ألا يكون شخصا مكروها عند الشعب وأن يوافق عليه السلطان . ويجب أن يعين لمدة محددة ، لتكن سبعا أو عشرا من السنين ، ثم يسمح للشعب فى نهاية المدة أن ينتخب حكامه بنفسه . فإذا أثبت أنه رجل أمين فقد يحتفظ عندئذ بمنصبه ... ويجب أن يكون الحاكم مسلما ومصريا بالميلاد إذا أمكن »

وأختتم عبده حديثه بأنه لايعارض عودة عرابى الى مصر ، وأن مكانه فى حالة عودته ـ هو البرلمان الذى يجب أن يتمم سلطة حاكم مصر ويوجهها . فهو رجل أمين ولكنه قليل العناية بالتفاصيل مما يقلل أهليته كإدارى وكقائد للجيش . وأخيرا أعاد ما سبق أن قاله حول ضرورة جلاء الانجليز .

فى ١٣ سبتمبر شرع بلنت فى رحلة جديدة الى القسطنطينية (الاسم الأوربى للأستانة أو اسطنبول اليوم) عاصمة الامبراطورية العثمانية . ومر بلنت كعادته بباريس التى وصلها فى وقت متأخر من مساء اليوم نفسه . وكان الهدف من رحلته هذه هو نفسه الهدف القديم الذى حدث الأفغانى وعبده عنه منذ أشهر عند عودته من رحلة الهند ، وهو أن يحاول حث السلطان (عبد الحميد) على المبادرة بالاصلاح . إذ يجب أن يفعل ذلك الآن وإلا فقد زمام المسلمين الى الابد ، ولكنه ـ كما يضيف ـ لايتوقع النجاح فى مهمته . فكل شيء هناك من الفساد ـ على حد قوله بحيث لايقيم بناء متماسكا .

وفى باريس قابل بلنت أصدقاءه « اللاجئين » مرة أخرى ففى

١٤ سبتمبر يكتب : «جاء عبده وصنوع على العشاء ـ كلاهما فاقد الامل فيما يتعلق بأمور مصر وفى اليوم التالى يكتب : تناولت العشاء مع عبده وجمال الدين ، وجلسنا فى مقهى على الشارع حتى وقت متأخر» وباستثناء هاتين الاشارتين الى محمد عبده لايعود بلنت الى ذكره بعد ذلك فى متن الكتاب . ولكنه يضم الى الملاحق العديدة للكتاب نصوص الرسائل التى تبادلها مع عبده فى تلك الفترة وحديثه الى صحيفة « بال مال جازيت » ، وتعليقه على تصريح لأحد ضباط الجيش الانجليزى حول أحداث الشغب السابقة .

بهذا تنتهى مرحلة أخرى من مراحل علاقة بلنت بمحمد عبده . وهى مرحلة بدأت بنفى عبده وانتهت بسفر بلنت الى تركيا ، أى من أواخر ١٨٨٢ الى أواخر ١٨٨٤ ، بما يعادل نحو سنتين ، ولا تبدأ المرحلة التالية إلا بعد عودة محمد عبده الى مصر سنة ١٨٨٩ ، أو بمعنى أدق لايظهر اسم عبده فى يوميات بلنت إلا عام ١٨٩٠ ، أى بعد نحو عام من عودته الى مصر وستة أعوام منذ ظهور اسمه آخر مرة عام ١٨٨٤ ، على الرغم من أن بلنت نفسه بدأ فى تسجيل الجزء الأول من يومياته ، التى ظهرت بعنوان « يومياتى » سنة ١٨٨٨ ، وليس هناك سبب للاعتقاد بأن العلاقة بين الرجلين قد انقطعت بخصام أو ما أشبه خلال تلك المدة فلاتوجد إشارة الى ذلك فى كتاباتهما ، فضلا عن أن بلنت لم ينشر شيئا فى الفترة الواقعة بين تاريخ صدور كتابه « جوردون فى الخرطوم » وتاريخ صدور الجزء الأول من يومياته ، أى بين عامى ١٩١١ ـ ١٩٢١ ، ولكن من الواضح أن محمد عبده كان فى حاجة الى الابتعاد عن بلنت فور عودته الى مصر ، لأن بلنت كان على رأس الانجليز المغضوب عليهم فى مصر إن لم يكن فى انجلترا ايضا وقد أشار هو قبل قليل الى قضيته التى أثيرت فى البرلمان الانجليزى ، وملخصها أنه منع من دخول مصر بعد أحداث ١٨٨٢ ومناصرته لقضية الوطنية وظل ذلك المنع سارى المفعول نحو ثلاثة سنوات ،

وكان من الطبيعى ـ والحال هذه ـ أن يبتعد هو نفسه عن صديقه محمد عبده حتى لايصيبه بالضرر مرة أخرى . ومن ناحية أخرى ظل محمد عبده ـ بعد عودته ـ يعيش في الظل ، مغضوبا عليه تقريبا من الخديو والانجليز ، متنقلا فى القضاء بين بنها والزقازيق حتى نقل الى القاهرة عام ١٨٩٠ ، أى فى العام نفسه الذى شهد ظهور اسمه من جديد في يوميات صديقه الانجليزى المعادى لسياسة الانجليز فى مصر وفى غيرها .

رشحه بلنت وزيـــرا للأوقاف
وعينه الخديو مفتيا للديار

نال محمد عبده مكانا بارزا في يوميات بلنت بجزئيها ، إبتداء من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٥ التى توفى فى صيفها . وشكلت تلك الفترة التى تقرب من ١٥ سنة المرحلة الأخيرة فى علاقتهما ، وهى مرحلة اتسمت بميلهما المتبادل إلى الاعتدال فى الرأى والمواقف بشكل عام ربما بسبب السن فقد تخطى الاثنان الأربعين وقتذاك ، وربما بسبب الاحباط فقد عجز الاثنان عن تحقيق آهدافهما الكبيرة مثل استقلال مصر ووحدة المسلمين وعودة الخلافة الى العرب ، وربما بسبب الوضع المعادى لهما بعد احتلال مصر ، وربما ـ أخيرا ـ بسبب هذا كله مجتمعا .

ونبدأ بالجزء الأول من اليوميات ، فتطالعنا الاشارة الى محمد عبده ابتداء من يناير ١٨٩٠ . وكان بلنت قد جاء الى مصر ـ للمرة الثانية ـ بعد السماح له بدخولها عام ١٨٨٦ . واستقر فى بيته الذى يتوسط بستانا كبيرا للفواكه بضاحية عين شمس شمال شرقى القاهرة ، وهو بيت درج على تسميته مع البستان باسم « الشيخ عبيد » نسبة الى شيخ بهذا الاسم مدفون وسط الحديقة . ولكن بلنت منذ زيارته السابقة على هذه عام ١٨٨٩ كان قد قرر فى نفسه شيئا جديدا . فلم يحاول من قريب أو بعيد أن يتصل بسلطات

الاحتلال ، وعلى رأسها السير إيفلين بارنج القنصل العام والمقيم البريطاني وأعلى سلطة فى ذلك الوقت قبل أن يصبح « اللورد كرومر » وقد حدث قبل مجيء بلنت الى مصر هذه المرة أن قابل فى روما اللورد دوفرين السفير الانجليزى فى الاستانة سابقا ، ونائب الملكة فى الهند ، فأكد له أن بارنج لم يعد غاضبا منه وأن من المناسب أن يزوره . وأحس بلنت بشيء من التشجيع ، وانتعشت بداخله أحلامه القديمة ، وفكر في المساهمة فى العمل على اعادة الحكم غير الاستبدادى الى مصر ، ولاسيما بعد أن سمع عن كرومر أنه أصبح معتدلاً ، يصغي للرأى الآخر بإخلاص ، ويعامل زواره الانجليز حتى من كان منهم متطرفا ـ بأدب جم بعيدا عن المكر والدهاء الدبلوماسيين . نعود الى يوميات بلنت . وندع المجال لكلماته وطريقته العفوية فى تسجيل الحوادث وتصوير الشخصيات :

١٢ يناير ١٨٩٠

ذهبت أمس لمقابلة السير إيفلين بارنج بناء على موعد . ولم أكن قد زرته منذ لقائنا سنة ١٨٨٣ . ولكن الزيارة تحققت على النحو التالى : عندما كان الأمير وإجرام (الفرنسى) هنا قبل اسبوعين ـ وكان قد جاء بعدنا الى مصر فى نهاية العام الماضى ـ أبلغنى رسالة شفوية من بارنج بأنه يسره أن أذهب لرؤيته . ولم أكن فى ذلك الوقت واثقا تماما من كيفية الاستجابة للدعوة ، فأجلت اتخاذ أى خطوة ، ولكن حدث أن زارنى يوم الأحد الماضى محمد المويلحى (الأديب مؤلف « حديث عيسى بن هشام ») فروى لى أخبار حركة سير الأمور من الناحية السياسية . وأكد لى أن الناس أصبحوا أكثر توافقا مع الأوضاع وأن رياض (رئيس الوزراء) سمح لهم بقسط أكبر من الحرية الشخصية ، وأن توفيق اعتزل العمل السياسى تماما . وقد سمح بعودة جميع المنفيين تقريبا ، وعين محمد عبده قاضيا فى بنها . ونصحنى (المويلحى) بأننى

والحال هذه ، يجب أن أستجيب لمبادرة بارنج حرصا على مصلحة عرابى . وقال إن هذه الاستجابة تزيد فرص نفوذى ، لأن الناس كانوا يخشون وقتها التردد علىّ ، خوفا من سخط بارنج . ولم يكن من رأى المويلحى أن رياض يعادينى فى حين رأى العداء من جانب الخديو بلاشك . ومع ذلك كان الخديو سريع التأثر ، فإذا رأى أن بارنج لايعادينى فسوف يعتقد أن من الأضمن له أن يحذو حذوه ، وقد رأيت أن هذه نصيحة سديدة ، وبناء عليها كتبت مذكرة الى بارنج أفيده بأننى تلقيت رسالته الشفوية من واجرام وأطلب منه تحديد موعد لرؤيته . فرد على بأدب جم وهكذا تم ترتيب زيارتى .

وجدت بارنج فى مكتبه فى الساعة الثانية ، ومكثت معه نحو نصف ساعة ... ذكرت له أننى سمعت أن محمد عبده قد عاد وتسلم وظيفته فأثنى كثيرا على الشيخ ، وقال أن كل المنفيين تقريبا قد عادوا . »

تكررت زيارات بلنت لكرومر بعد ذلك . وشيئا فشيئا قوى حبل المودة بينهما ، وازداد سماع كرومر لرأى خصمه القديم ، حتى عاد بلنت الى انجلترا فى الصيف . ولما جاء الى مصر مرة أخرى فى خريف ذلك العام وصل ماانقطع من زياراته لكرومر الذى لم يكن يقبل على الأهالى . فكان هؤلاء يأتون بمشكلاتهم الى بلنت فيرفعها الى كرومر حتى تجد حلا ، وفى إحدى زياراته حدثه عن بعض أفكاره بعد أن فشل فى إقناعه بإعادة عرابى من منفاه .

قال بلنت :

« ولما فشلت فى هذا بشأن عرابى ركزت سعيى وقتها على محاولة جذب اهتمامه نحو الأعضاء الآخرين للحزب الوطنى السابق . وكنت فى ذلك الوقت أحظى كثيرا بزيارات صديقى القديم الشيخ محمد عبده الذى أصبح جارى فى الاقامة بحكم عمله كقاضى لمدينة بنها عاصمة منطقتنا . وبناء على اقتراح منه قدمت لبارنج خطة تقضى بالاستعانة بهؤلاء الوطنيين القدامى فى

مجالسه ، وتشكيل حكومة من الفلاحين المصريين مكان الباشوات الشراكسة الذين كانوا يشكلون حتى ذلك الوقت الطبقة الوحيدة من المسلمين المسموح لها بتولى الوزارة فى ظل النظام العائد منذ (موقعة) التل الكبير .

ثم يعود بلنت الى يومياته فيبدأ بالحديث عن عصابات اللصوص فى القاهرة وضعف الأمن :

١٤ مارس ١٨٩١

« وصلت الى نتيجة فيما بعد مؤداها أن التسامح الذى استمتعت به العصابات طويلا كان يرجع الى التغاضى الضمنى من جانب رياض مع عدم الكفاءة والارتباك من جانب بيكر (باشا مدير الشرطة الانجليزية) الذى أعفى من منصبه (عقب ازدياد حوادث السرقات الليلية) وقد استغللت ذلك فى رسم عبرة لبارنج ، فكتبت له رسالة أجملت فيها الحجج الى تدعم رأيى حول ضرورة تأليف حكومة من الفلاحين (الاهالى من غير الأتراك أو الشراكسة أو الشوام) ، وأرسلت له قائمة بأسماء رجال حزب الفلاح (ذوى الأصول الفلاحية . فلم يكن هناك حزب بهذا الاسم) الذين يمكنهم تأليف وزارة إصلاح . وقد أعددت القائمة بالتشاور مع الشيخ محمد عبده ومحمد المويلحى . وهذه هى الأسماء :

حسن باشا الشريعى من المنيا

بليغ بك

أمين بك فكرى

سعد أفندى زغلول

أحمد أفندى محمود

ابراهيم أفندى الوكيل

أحمد بك حشمت

يوسف بك شوقى

الشيخ محمد عبده

ومما يجب ملاحظته آن هذه القائمة تضم اسم سعد زغلول الذى

عينه كرومر بعد ١٥ سنة وزيرا للمعارف العمومية ، كما تضم اسم الشيخ محمد عبده الذى عين بعد ذلك مفتيا للديار المصرية ، والذى قال عنه كرومر إنه الأمل الرئيسى للاصلاح الاسلامى فى مصر ، ومع ذلك أضاع كرومر فرصته الحقيقية حين تجاهل توصيتى بحسن الشريعى الذى كان ثقله السياسى أكبر من ثقل أى من هؤلاء ، وقد مات قبل أن يقنع بارنج نفسه بقبول وزارة من الفلاحين . ومع ذلك فقد أجاب بارنج : « لا أعتقد أن هناك أدنى فرصة لأن يشكل الخديو وزارة من الفلاحين »

٢٠ يناير ١٨٩٢

زارنى الدكتور عبد الرزاق بك .. الذى كان أحد الأصدقاء الشخصيين لعرابى وأحد كبار مستشاريه ، فهو يعرف أوربا جيدا ويتحدث الانجليزية والفرنسية ، مما كان نادرا فى ذلك الوقت . وبناء على نصيحته ونصيحة الشيخ محمد عبده الذى كون رأيا مؤيدا للخديو الشاب عباس بعد اعتلائه العرش محل أبيه (توفى فى يناير من ذلك العام) قررت أن الوقت قد حان أمامى لعقد صلح رسمى مع الحكومة المصرية . وقد كان من الصعب على أن أفعل هذا فى حياة توفيق ، لأننى اشتركت فى الثورة على نحو بارز أكثر من اللازم ونددت بتوفيق علنا بعدها الى درجة تجعل من المستحيل علىّ ان اتخذ اى خطوة نحو الصلح أو أن أقدم احتراماتى اليه بالمثول الى القصر ، ولكن أصدقائى رأوا عند ذاك وجوب السعى فى طلب [illegible] خلفه . وبناء على ذلك طلبت من بارنج أن يقدمنى الى عباس بطريقة رسمية على نحو ماجرت عليه العادة مع سواى من الانجليز الذين يزورون مصر . (قام بارنج بالمهمة وتم التعارف فى قصر عابدين فى أول فبراير ١٨٩٢)

٢٤ فبراير ١٨٩٣

جاء الشيخ محمد عبده على الغداء ومكث معنا طوال فترة

العصر . ولم أكن قد رأيته منذ الانقلاب (تعبير تقديرى عن سياسة كرومر المتسلطة) وكنت متشوقا لسماع رأيه . وهو يؤيد رياض بوضوح ويقول إنه رجل يعتمد عليه بعكس تيجران (باشا الأرمنى وكيل وزارة الخارجية) أو بطرس (غالى باشا) فتيجران وأرتين (نوبار باشا رئيس الوزراء الأرمنى) والمسيحيون عموما يبذلون كل مافى وسعهم للقضاء على التربية الاسلامية . اما رياض فهو مستبد ولكنه شريف . ثم أبدى رأيه فى مختلف رجال الانجليز العاملين بمصر . ويقول إن أفضلهم سكوت وجارستين وكوربيت ، وإن النفوذ الانجليزى لم يتحطم فى السنوات الأخيرة إلا باستقدام كثيرين من الانجليز القليلى الشأن . وضحك كثيرا عند ذكر والاس ومدرسة الزراعة التى أنشأها ـ كان الأساتذة فيها يستقون معلوماتهم عن الزراعة من الفلاحين ـ وكذلك عند ذكر ويلكوكس وإصلاحاته فى اللغة العربية . وهو سعيد جدا لأننى سأقابل الخديو ويريدنى أن أركز على إفهامه ضرورة التعاون مع رياض ، والاستعانة بشباب المسلمين ، لا بالأرمن ولا بالشوام ، ومراعاة الدستور . وقال : « نحن لايهمنا أن يبقى الانجليز عاما أو عامين أو خمسة أعوام ماداموا لن يبقوا الى الأبد . ووجودهم حاليا خير للبلد حتى يختمر حزب الفلاح . ولكن إذا لاح خطر السيطرة علينا فنحن على أتم استعداد للمخاطرة بقبول بعض استبداد الأتراك أفضل من قبول المخاطرة الأخرى الأكبر أما إذا جلوتم عن البلاد غدا فثق أننا سنسعد جميعا » وأغلب الظن أن عبده هو أكثر المصريين حبا للانجليز .

٢ ابريل

ذهبت الى القاهرة (من عين شمس) حيث صحبت سلطان يوهور (المسلم الذى جاء من الملايو فى جنوب شرق آسيا لزيارة مصر فى طريقه الى تركيا) إلى الشيخ البكرى (نقيب الأشراف) وقمت بدور المترجم له ... وراح يروى عن حبه الجلوس على الأرض

وتناول الطعام بأصابعه كلما ضمه البيت مع زوجته وأمه وأراد آز يعرف ماإذا كان أحد فى القاهرة يفعل ذلك ، ولكن القاهرة تنتشر فيها المقاعد والأرائك الأوربية . وقد وعدناه بأن نريه ذلك أيضا . ومن المفروض أن يذهب لزيارة محمد عبده .

وذهبت بعد ذلك بمفردى فى صحبة محمد عبده لزيارة مختار باشا (مندوب السلطان العثمانى فى القاهرة) وتحدثنا طويلا عن الموقف السياسى ...

١٢ ابريل

تناولت الغداء مع تيجران . واعتقد أنه متحمس فى وطنيته مع أنه أرمنى ... ويرى أن محمد عبده خير من يتولى إصلاح الأزهر وطلب منى إرساله إليه .

٣١ ديسمبر

تناول محمد عبده الغداء معنا يوم الجمعة . وهو راض تماما عن الطريقة التى تجرى عليها الأمور هنا . ويقول إن رياض يتعاون مع الخديو جيدا ، ويوافق على عمل المجلس التشريعى . أما بالنسبة للقسطنطينية فيقول إن السلطان مجنون ولاجدوى من التعاون معه . ولما تحدثنا عن جامعة الأزهر (المقصود الجامع الأزهر) قال إنه لايوجد سوى شيخ واحد يصلح شيخا للأزهر على أساس مستنير ، وهو حسن الناوى (المقصود حسونة النواوى)

١٥ ابريل ١٨٩٤

قضى محمد عبده اليوم معنا . ويقول إن الحزب الوطنى أصابه اليأس نتيجة استقالة رياض ، ومازال أكثر يأسا بسبب عودة نوبار الى الحكم ، لأن نوبار يعنى عهد جامعى المال والمضاربين وحكم مصر بالأوربيين والشوام والغرباء من كل أرض .

٢٠ ابريل

آخر يوم لنا فى « الشيخ عبيد » أصابنى الحزن لتركى له هذا العام أكثر من أى عام مضى ، وقد استقر رأيى - إلى حدما - على أن تكون هذه آخر زيارة لى لانجلترا . فبيتى الحقيقى فى مصر وهذا مايزداد فى نفسى مع الأيام ...

(يروى بعد ذلك عن فشل الحركة الوطنية فى سنتى ١٨٩٢ - ١٨٩٤ لغياب الزعامة القوية وصغر سن الخديو عباس وعدم خبرته ، وإصرار اللورد كرومر على المضى فى السياسة الاستعمارية، فضلا عن مصالح المال فى لندن وباريس ثم يقول :)

لقد كان التاريخ يكرر نفسه مئات المرات ، تاريخ التلاعب الانجليزى بولايات الأهالى فى الهند ، وكان المشهد فى نظرى محزنا ، فهى فترة خاوية ، اتخذت خلالها - برغم احتفاظى بالاهتمام العميق بما كان يجرى - موقع المتفرج كلية . دون آن أفقد صلتى بالسياسة المحلية اليومية خلال زيارتى الشتوية للشيخ عبيد . وكان مصدرى الأساسى فى هذه الصلة هو الشيخ محمد عبده الذى أسكنته بيتا ريفيا على قطعة من آرضى تبعد عن بيتى نحو نصف ميل . وكان له فضل علىّ كمؤرخ وكاتب يوميات يتمثل فى كونه صديقا حميما لمصطفى فهمى (باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وحمو سعد زغلول) الذى لم يكن يخفى عليه شيئا ، ولا كان عبده يخفى عنى شيئا .

٣٠ نوفمبر

تناول الشيخ محمد عبده الغداء معنا . ويقول لى إن آفكار الخديو لم تتغير عما كانت عليه فى السنة الماضية ، ولايزال حانقا على كرومر والاحتلال ، وإن السلطان منعه من إتمام زيارته لانجلترا فى الصيف الماضى ، عدا أشياء كثيرة أخرى . ولكن الخديو عطوف جدا عليه (عبده) الآن ، استقبله مقابلة خاصة دامت ٣٥ دقيقة ، حقق خلالها رغبته الطويلة فى منحة قدرها ٢٠٠٠ جنيه سنويا لجامعة الازهر . وقد تقرر تشكيل لجنة للاشراف على إنفاق المبلغ . غير أننا تحدثنا عن الأحداث

القديمة . وروى لى مرة أخرى تاريخ اغتيال اسماعيل صديق المفتش (وزير مالية الخديو اسماعيل) على يد اسحق بك فوق ظهر باخرة الخديو ، فقد خنقه اسحق بيديه . ويقول إن هذا قد تم فى النهر بلا شك ، أمام قصر الجزيرة ، فور اعتقال الخديو لاسماعيل صديق . كما روى لنا قصة مغامرة على باشا شريف مع الرقيق . فقد اعتقل قومنا (الانجليز) فى الفترة الأخيرة على باشا شريف بتهمة الاتجار فى الرقيق ، مع أنه ربما كان أكبر الشخصيات الحالية فى مصر سنا وأكثرها احتراما ، فضلا عن أنه رئيس المجلس التشريعى . ومع ذلك فقد تصرف (هذا) الباشا بغباء شديد مثل « الأطفال » على حد تعبير عبده . وحقيقة الأمر أنه بدأ يعانى من تهريف الشيخوخة ومع ذلك تعلق على نحو غبى بامرأة راح ينفق عليها وقته وماله ، واشترى لها العبيد . كما روى لنا (عبده) عن مشروعات نوبار الحالية لجمع المال وهو فى الحكم ، وكذلك عن فضائح أخرى وقعت خلال الصيف .

٢٨ نوفمبر ١٨٩٥

... نزلت اليوم إلى القاهرة وقابلت اللورد كرومر فقال لى أنه أرسل الى كتشنر (الجنراك اللورد حاكم السودان) خطابى الذى كتبته[١] وسوف يبلغنى بالرد عند وصوله . ثم حدثنى عن أشياء أخرى وعن إمكان تعيين محمد عبده رئيسا للأوقاف[٢] . وقد أيدته فى هذا كل التأييد بلاشك .

١٦ ديسمبر

نزلت الى القاهرة لمقابلة الخديو (عباس الثانى) ... سألنى عن الأحوال فى الجزيرة العربية ، وقال لى إنه استقبل ابراهيم بن

---

(١) كان بعض أهالى دنقلة قد شكوا لبلنت من رفض الانجليز عودتهم الى ديارهم . وطلبوا تصريحا بذلك فكتب بلنت الى كرومر معززا مطلبهم .

(٢) ربما قصد « وزيرا »

ثنيان (ابن سعود النجدى الذى كان لاجئا فى الأستانة ثم فر الى مصر) ولكن الشيخ محمد عبده حذره من آن يكون جاسوسا للشيخ آبى الهدى (الصيادى مستشار السلطان ومنجمه) فقلت له آننى لا آعتقد هذا ولكن لا مانع من الحرص .

١٦ يناير ١٨٩٦

جاء محمد عبده وم . آرمينيان (أرمنى مصرى موظف فى الحكومة) وتحدثت مع عبده حول موضوع الجلاء بشكل شامل . وهويقول أنه برغم صلته الوثيقة بالخديو فليس من المفيد آن يوثق فيه فيما يتصل بالسلطة ـ ويجب أن تستقل عنه الوزارة على قدر الامكان ، وأن تستند الى دستور . ويعتقد آن هذا أمر اساسى ، ومن الممكن إيجاد رجال أكفاء يستطيعون كوزراء آن يصدوا تغلغل الخديو ، من خارج نطاق الموجودين حاليا فى الوزارة الذين هم مجرد دمى . وليس من المفروض عزل الوزراء مادام مجلس النواب يؤيدهم . وإذا استطعنا الحصول على تأييد الفرنسيين لهذه الخطة فإن الجلاء أمر فى غاية البساطة .

١٤ مارس

زارنى محمد عبده اليوم ، ويقول لى إن هناك احتمالا الآن بالسماح بعودة عرابى ، إلى قبرص آولا ثم الى مصر . وقد حدثه عن ذلك مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وقال له إن كرومر لايمانع إذا وافق الخديو . وإذا صح هذا فلابد من تدبير الأمور .

٢٤ مارس

زارنى الشيخ محمد عبده وروى لى عما يجرى فى القصر . فهو يقابل الخديو الآن مرتين فى الأسبوع ويؤم الناس للصلاة يوم الجمعة فى مسجد (قصر) القبة ، ويحذف اسم السلطان (العثمانى) من الدعاء . وقد كان مع الخديو قبل قليل ، وفى آثناء

ذلك جاءت رسالة من اللورد كرومر يشكو فيها من إعلان الخديو في حديث خاص عن رفضه فكرة حملة دنقلة . ولكن الخديو غضب جدا من الرسالة ، وبعدها استقبل اللورد كرومر فكرر عليه شكواه . ورد الخديو بأنه سبق أن اتفق مع جنابه حول هذه النقطة ، فاعترض اللورد كرومر وقال إن الموافقة تمت على هذا وإن من اللازم إضفاء الجدية والقبول عليها ، ورجا الخديو أن يتحدث الى الجنود بهذا المعنى . وقد فعل الخديو ذلك . وجاءه اللورد كرومر أيضا برسالة من اللورد سالسبورى (رئيس الوزراء) يعتذر فيها عن وقوع « خطأ شكلى » من جانب الحكومة الانجليزية حين أمرت بتقدم الجيش نحو دنقلة قبل إبلاغ سموه . وشرح اللورد سالسبورى أن زحف الجيش قد تقرر بهدف « إرضاء الرأى (العام) المصرى » وقد روى الخديو هذا كله لمحمد عبده ، ولا أشك في صحته .

١٧ ابريل

في صباح الغد نغادر مصر الى انجلترا وقد جاءنا محمد عبده أمس ومعه شاب تركى من أنصار الحزب الحر فى القسطنطينية . وكان حتى وقت قريب موظفا فى البنك العثمانى . ولايبدو على أمل فيما يتعلق بما يجرى على ضفتى البوسفور ...

روى لى محمد عبده تفاصيل حول الغارة التى شنت على الزنوج في مصر . فقد أمسكت الشرطة أكثر من ٨٠٠ زنجى من أجل كتشنر وسلكتهم فى الجيش . وفى بعض المديريات كان أى شخص أسود يتم إمساكه مهما كانت سنه ثم يرسل الى القاهرة ، حيث يتم التحفظ على الصالحين للجندية ويطلق الباقون ليهيموا في الشوارع . ومع ذلك تتحدث حكومتنا (الانجليزية) عن القضاء على تجارةالرقيق كهدف من أهداف هذه الحرب فى السودان ، ولاشك أن المائتى زنجى الذين أخذهم رودس (سيسيل المستكشف الانجليزى) الى جنوب أفريقيا قد تم شراؤهم من حكومة زنجبار التى جمعتهم من هنا . وفى الغارة الأخيرة كان

الزنوج ذوو المراكز المحترمة يتعرضون للامساك ، ومنهم ابن بواب الخديو وخادم الشيخ العباسى شيخ الأزهر وكاتب فى المحاكم الأهلية بالقاهرة يتقاضى سبعة جنيهات فى الشهر . وقد تم تخليص هؤلاء ولكن كثيرين جدا غيرهم آرسلوا (الى الحرب)

بين نزوات الخديو عباس واستبداد اللورد كورمر

٩ نوفمبر ١٨٩٦

زارنى الشيخ محمد عبده اليوم وتحدثنا طويلا عن الخديو وعبده غير راض عن بعض تصرفات سموه . ولاسيما فيما يتعلق بنزاع حول ارض له مع حسن موسى العقاد (سيخ تجار القاهرة زمن الثورة العرابية واحد الذين حوكموا ونفوا) وهو يصف سلوك الخديو في ذلك بأنه صبيانى . وهذا صحيح ويقول ان زواجه (الخديو) كان من تدبير أمه من أوله لآخره . فعندما عاد عباس من أوربا لأول مرة كان يريد أن يبقى أعزبا بعيدا عن النساء ولكنه اختار فى النهاية زوجته الحالية . وقد خاب أمله من جديد هذا العام حين ولدت له بنتا ثانية بدلا من ولد .

٢٩ نوفمبر

تحدثت طويلا مع محمد عبده قبل أيام . كان قد قرأ مقالى عن آرمينيا الذى نشرته مجلة « القرن التاسع عشر » Nineteenth Century ووافقنى على كل ماذكرته ضد عبد الحميد

(السلطان) وهو يراه رجلا مجنونا يجب خلعه . وروى لى حكاية طريفة عن اضطهاده فى الأزهر من جانب شيوخ العلماء التقليديين فى عصر اسماعيل ، ولاسيما عليش . ويقول ان تلاميذه بلغوا ذات مرة ٤٠٠٠ طالب كانوا يحضرون محاضراته ، ولكن المعارضة المحافظة كانت أقوى منه . ومع ذلك فالقاهرة على قدر كبير من حرية التفكير والتعبير حتى فى تلك الأيام . ولم تسوء الحال هنا من قبل قدر ماهى سيئة الآن فى القسطنطينية ولكن جميع الأفكار البالية فى الحرية والانسانية فى طريقها للاختفاء السريع من العالم . ونحن نجد نفسينا ، عبده وأنا ، وحيدين تقريبا فى آرائنا .

٢٢، ديسمبر

جاءنا محمد عبده أمس . وروى لى الأخبار . فقد حدث لغط كبير بسبب تصديق محكمة الاستئناف الأهلية على براءة الشيخ على يوسف . وكان على يوسف قد قدم للمحاكمة بسبب نشره تلغرافا فى صحيفته « المؤيد » يتصل بالأحداث العسكرية أثناء حملة دنقلة ، وقيل إنه تلقاه من موظف تلغراف يدعى كيرلس . وكان الدليل ضد على يوسف واهيا للغاية ، أما الدليل ضد كيرلس فكان مجرد ظن . فقد شوهد الأخير ذات مرة وهو يقوم بنسخ تلغراف ، بغية إرساله الى احدى الصحف فى الغالب ، ولكنه ليس التلغراف المعنى هنا . أما على يوسف فلم يثبت ضده أى دليل على الاطلاق . ومع ذلك يبدو أن كرومر قد أصر على المضى فى معركة ضد الصحافة ، فلما وصلت القضية أمام محكمة الاستئناف طالب القاضى الانجليزى كاميرون زميليه الوطنيين بأن يدينا المتهم ، وإلا عرضا محكمة الاستئناف الأهلية لاجراءات « إصلاح » قوية تتخذ ضدها . كما اتهمهما بالتواطؤ مع الخديو ، وعندما رفضا بإباء إدانة المتهم رفض كاميرون الجلوس معهما فى جلسة الحكم

بالبراءة . وقد أعلن كرومر الآن أنه سيضيف الى هيئة المحكمة عددا من المستشارين الانجليز حتى يقضى على الأغلبية فى أعضاء هيئات المحاكم من الأهالى . ويؤكد لى عبده أن الحقيقة تبرىء الخديو من أن يكون له اى دخل فى الموضوع ، وان القضاة ماكانوا يستطيعون الحكم بشىء اخر فى وجود الأدلة التى أمامهم ...

ويضيف عبده أن اللورد كرومر خاضع لتأثير بعض الشوام ، ومن أهمهم محرر جريدة « المقطم » وشخص يدعى شكور . وقد أصبح للصراع والنزاع بين كرومر والخديو طابع شخصى جدا .
(كان محرر « المقطم » هو فارس نمر (باشا) الذى تعاون مع الانجليز منذ هجرته من بيروت مع زميله يعقوب صروف محرر « المقتطف » سنة ١٨٨٤ . فلما صدرت « المقطم » سنة ١٨٨٨ حافظت على صلتها بالانجليز حتى توقفها مع زميلتها فى أواخر ١٩٥٢ بعد ثورة يوليو أما شكور الذى ذكره بلنت فهو ملحم شكور (بك) أحد المهاجرين الشوام ومن أقطاب الماسونية فى مصر وأعوان كرومر)

١٧ ابريل ١٨٩٧

جاءنى عبده بأخبار عن نشوب الحرب بين اليونان وتركيا . واتفق رأينا على أنه من الأفضل أن تتطور الأمور الى الحرب .

٢٦ نوفمبر

جاء الشيخ محمد عبده لزيارتى . وروى لى مايدور من أخبار السياسة والقصر . وأخرها حول شاب قدم للمحاكمة بتهمة العيب

فى ذات الخديو والتعريض به فى شعره . ويؤكد لى عبده أن المحركين الحقيقيين لهذا الموضوع هم محرم باشا شاهين والشيخ البكرى بالاشتراك مع الشيخ أبى الهدى (الصيادى) فى القسطنطنية . وقد دبروه بهدف ارضاء السلطان . ومع ذلك ورط كرومر نفسه فيه . ولكى يحصل على حكم بالادانة فى القضية ، أو بمعنى الاصح لكى يستر بعض الأشخاص المتورطين فيها من أنصار السياسة الانجليزية قام بتعيين كوربت الانجليزى فى مكان النائب العام المصرى فى المحاكم الاهلية . ومازال الخديو على خصام مع السلطان ، وقد نظمت القصيدة (التى عابت فى الخديو) لارضاء جلالته ، ولكن من سوء الحظ أن خطأ وقع فى طباعتها حين هجا الشاعر الخديو بأنه « تركى » . وبذلك تساوى يلدز (قصر السلطان) فى الاهانة تقريبا .

(كان الشاعر الشاب الذى هجا الخديو هو مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦ ـ١٩٢٠) وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

أما البيت الذى ذكر بلنت أنه اساء إلى يلدز فهو :

فلما تسوليتم طغيتم وهكذا

إذا أصبح التركى وهو عميد

وقد حكم على المنفلوطى بالسجن سنة وغرامة قدرها ٢٠ جنيها ثم عدل الحكم عند استئنافه الى ستة أشهر مع الغرامة ، بالرغم من أن القصيدة (٢٥ بيتا) نشرت فيما يشبه المنشور دون توقيع)

٢٥ فبراير ١٨٩٨

تردد أن كرومر سينقل الى وزارة الخارجية . فالمحافظون يريدون الآن رجلا قويا حتى يحفظون سياستهم القائمة على العنف ، وكرومر يناسبهم . ولست أهتم كثيرا بالطريقة التى تجرى

بها الأمور لأن زمان الرشد قد ولى . ولن يحدث أى غير حتى تتهاوى الامبراطورية . وسيتربع كرومر على صمام الأمان الامبراطورى كما يتربع سواه . وقد جرى بينى وبين محمد عبده حديث طويل اليوم حول هذا وغيره من الأمور .

٩ مارس

غادرت مصر إلى انجلترا . وقد جاء محمد عبده لتوديعى . كنت أعانى ألما بالغا حتى أننى شعرت بأنى أكاد أموت . وفى مثل هذه الظروف منذ عامين كنت لأعلن إسلامى بين يديه ، ولكنى لن أفعل ذلك اليوم ، مع أننى تأثرت كثيرا لفراقه كما لو كنت ألقى آخر كلمات على صديق عزيز ، ولكنى أشعر الآن أن هذا كله وهم . فالمسلمون الذين يؤمنون اليوم لايزيدون على الوحوش المفترسة مثل رجال سيوه ، والباقون فقدوا إيمانهم . ومع ذلك لاتغرينى المسيحية كثيرا . ولست أرغب فى الحياة مرة أخرى ، وإنما أرغب فى فناء القبر .

(لم تتحقق رغبة بلنت على أى حال ، فقد عاش ٢٤ عاما بعد ذلك . ولكن هذه الفقرة الحزينة المؤثرة تردنا الى توضيح نقطتين : الأولى أن بلنت تربى تربية كاثوليكية ولكنه عاش على عداء مع الكنيسة ، والأخرى أن عداءه للكنيسة ومصادقته للمسلمين قرباه من فهم تعاليم الاسلام . وكانت صداقته لمحمد عبده توشك أن تدخله فى زمرة المسلمين . ولكن وقع له فى صحراء الغربية حادث خطير رده عن سبيله الى الاسلام . فمنذ أحداث الحركة المهدية فى السودان سنة ١٨٨٢ بدأ بلنت يتعلق بهؤلاء المجاهدين الزاهدين المسلمين . ثم اشتد تعلقه حين سمع الكثير عن حركة معاصرة لتلك هى الحركة السنوسية فى صحراء مصر الغربية وليبيا ، فصمم على الاتصال بشيوخها ومعرفة تعاليمهم ، ظنا منه ـ كما يقول ـ بأن السنوسية « أفضل المسلمين فى العالم » وفى ٥ فبراير ١٨٩٧ قام برحلة الى مركزهم فى واحة سيوة بصحبة ثلاثة

من البدو وخادم وأحد أبناء قبيلة أولاد على وستة جمال وفرس ومع أنه كان معتل الصحة وقتها فقد أقبل على الرحلة بحماس شديد ونشاط عجيبين ، برغم طولها ومشقتها . ولكن قافلته هذه سرعان ماضلت الطريق بعد خروجها من الفيوم حتى أخذ يدعو ـ كما يقول « جميع الدعوات التى عرفتها لشيوخى المسلمين والمسيحيين » وبعد خداع طويل من الطريق والسراب وقعت الواقعة ، وانتهى به الأمر إلى كمين من ٢٠٠ شخص تعرض خلاله للضرب والابتزاز والاهانة ، وسرق ماله وسلاحه ، على أيدى هؤلاء البدو من اتباع السنوسية ، أو أشباه أتباعهم ، لأنه لم يتحقق من ذلك . ولكن ماوراه يؤكد أنهم ظنوه جاسوسا للسلطان ، وكان الأخير يحارب السنوسية ، ولولا أن أنقذه معاون سيوه لمات فى أيديهم ثم عاد الى داره محطما مريضا بعد ٤٠ يوما . وتركت هذه الحادثة أثرا فى روحه وبدنه لم تمحه السنون بعد ذلك ، ولكنها لم تفقده عطفه على أصدقائه المسلمين ولاتقربه طوال وجوده فى مصر من المشايخ والأولياء على طريقة حاشية بيته وخدمه ، وقد غادر بلنت مصر محملا بآلام هذا الحادث ، ولم يعد الا بعد ما يقرب من سنتين)

٥ ديسمبر ١٨٩٩

وصلت الى الشيخ عبيد بعد غياب يقرب من سنتين ... وقد استقبلتنى آن فى القاهرة واتجهنا الى البيت فى العال ، وأسعدنا الحظ بأن نستقل عربة قطار وجدنا فيها الشيخ محمد عبده . ومن دون جميع الشرقيين ، وربما أقول من دون جميع الرجال ، فإن محمد عبده ، أعز اصدقائى ، بعد أن سجن بسبب آرائه الحرة ونفته العودة الخديوية الانجليزية سنة ١٨٨٢ ، قد أصبح بالتدريج معروفا بما هو أهله ، فهو أقدر وأشرف رجل فى مصر ـ وقد عينوه مفتيا للديار ، وهى أعلى سلطة دينية فى المملكة الشريرة . لقد أعطيته فدانا من الأرض منذ سنتين بنى لنفسه عليه دارا ريفية

وأصبح بذلك أقرب جار لنا . وحين ودع كلانا الآخر عند آخر
مغادرة لى لم أكن أظن كثيرا أننا سنلتقى مرة أخرى .

أول يناير ١٩٠٠

... جاء مفتينا محمد عبده خلال فترة العصر . وقرأت عليه خطاب هربرت سبنسر (الفيلسوف الانجليزى وعالم التربية المعروف) الذى شاقه كثيرا ، ثم شرحت له قصيدتى (كانت بعنوان « تخليص الشيطان ») وهو يعد سبنسر على رأس الفلاسفة الأحياء ، وقد ترجم له الى العربية كتابه عن التربية كما شرحت لشقيقه حمودة آرائى حول حقوق الحيوان ، وكان الموضوع جديدا عليه تماما . فقال بعد تأمل فيه إنه يتفق كل الاتفاق مع ماجاء به القرآن وتعاليم الاسلام من احترام للحيوان ، بل للجماد . ولذلك فمن غير المسموح به أن يتعمد أحد تشويه حتى الحجارة . والحق أن المسيحية هى المسئولة بالفعل عن الموقف الوحشى الذى يتخذه الانسان الحديث تجاه الحيوان . ولايوجد دين آخر يستحق أن يسمى بالدين من شأنه أن يتسامح مع هذا الموقف ، ولكن اطباعنا المسيحيين أقروا المبدأ الأخرق الذى يقول إن الحيوان والطير ماخلقا إلا لاستعمال الانسان ومتعته ، وإنه ليس مكلفا بأى واجب نحوهما ... ورأيى الشخصى هو أن الطيور والحيوانات المفترسة التى لاتؤذى الانسان لها الحق فى أن تعيش فى سلام . ولكن الطيور والحيوانات التى نعمل على تربيتها بإضفاء حمايتنا عليها لابد أن تدفع جزية معينة ، تماما كما فى حالة حيواناتنا الأليفة ، بالرغم من أن القانون الأسمى يقضى بترك الجميع فى سلام . وقد تناقشنا فى الليل ، على العشاء ، حول هذه الأمور..

١٠ يناير

كان محمد عبده فى زيارتنا اليوم . وهو يؤكد كل التأكيد ماروى

عن كتشنر من حكايات حول معاملته لرأس المهدى كما كتبتها فى الصيف الماضى بصحيفة « الديلى نيوز » ، ولاسيما مايتعلق برفض كرومر لها وكراهيته لكتشنر . وقد اتفقنا فى النهاية على أن العناية الالهية قد غضبت على هذه الأهوال المقرفة ، وأن امبراطورية انجلترا سيكون مصيرها مصير كل ماسبقها من امبراطوريات .

٢٨ يناير (الأحد)

جرى بينى وبين محمد عبده حديث طويل حول موضوع البشرية ومعاملة القوى للضعيف . وقد وجدته متشائما مثلى . فقد طالع التوراة مؤخرا ووجد أن فظائع المسيحية ترجع على نحو واسع الى صلتها باليهودية . أما بالنسبة لمعاملة الحيوانات العجماوات فقد روى لى عددا من الأحاديث النبوية التى تحض على الرأفة ، ولاشك أن القضاء المتعمد على هذه الحيوانات مخالف لعواطف المسلمين والقضاء المتعمد أيضا غريب على المسيحية . وعبده لايعتقد أن مستقبل البشرية زاهر . وأخشى أن يكون إيمانه بالاسلام ضعيفا ، بالرغم من أنه مفتى الديار ، مثل ضعف إيمانى بالكنيسة الكاثوليكية .

٢٩ يناير

... دارت بينى وبين محمد عبده أحاديث عدة أخرى . ويقول إن عددا كبيرا من كبار الموظفين الانجليز هنا يجمعون المال بطرق غير مشروعة . وهو لايؤيد كثيرا تدويل مصر ، ويتفق معى فى ذلك ، لأن التدويل لايعنى أكثر من إحلال عصبة من الذئاب محل ذئب واحد . وهو يشعر بالمرارة إزاء كرومر ، الذى يميل اليه برغم ذلك ، لانه لم يؤسس شيئا يعول عليه من الحكم الأهلى حين ينتهى الاحتلال ـ أى شيئا يمكن التعويل عليه فى العمل على الأسس الحرة والشريفة . فقد نشر حالة عزل عامة للعنصر الوطنى

والمستنير فى البلاد ، والذين رقاهم فى المناصب هم أولئك الذين كان لديهم أدنى حد من الاحترام لأنفسهم وكانوا بالتأكيد ممن يسهل التأثير عليهم .

١٥ فبراير

... كان محمد عبده فى زيارتى فى فترة مابعد الظهر . وروى لى القصة الحقيقية للأزمة العسكرية فى الخرطوم . فقد كان كتشنر مكروها منذ فترة طويلة من جانب الضباط المصريين الذين عاملهم طول الوقت معاملة سيئة ، وسمح للضباط الانجليز بالتعجرف عليهم وإهمال شكاواهم وكان يجبر القوات المصرية على القيام بالاعمال الشاقة ، دون أى شكر أو ثناء ، فى حين شمل القوات السودانية بالعطف والتدليل . فلما ساءت الأحوال فى رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) انزعج كتشنر وحاول منع أى أخبار عن الهزائم الانجليزية من الوصول الى السودان ، ولكنه لم يستطع ايقاف تسربها ثم خشى أن تحدث حركة عصيان فأمر بنزع الذخيرة بحجة أنها قديمة ولابد من تجديدها ، ولكن الكتائب السودانية رفضت تسليم الذخيرة القديمة حتى تسلم الجديدة ، وعندئذ ارتاب فى الضباط المصريين وعزا اليهم تشجيع الرفض واعتقل بعضهم وفى خضم هذا كله استدعى كتشنر للذهاب الى جنوب افريقيا وعهد الى وينجت باصلاح الوضع وكان محبوبا أكثر من كتشنر ، بالرغم من أن الوضع لم تتم تسويته بعد .

ويقول لى عبده ان الفكرة الآن هى دعوة القوات التركية للحلول محل حاميتنا الانجليزية فى حالة إثارة الدول الأوربية للمسألة المصرية . وهذا أقل ضررا من قدوم قوات فرنسية أو ايطالية ، مما سيكون معناه تدويل مصر . ومحمد عبده يعرف أن الموضوع نوقش بين الوزراء ومع اللورد كرومر وأنا أميل الى الأمل فى أن ينتهى الموضوع حقيقة على هذا النحو لأنه يبدو أنه لاتوجد فرصة

إمام أى جلاء فى مصلحة حكومة اهلية مصرية وعبده له رأى حسن فى كرومر كشخص . ولكنه يقول إن هناك عددا من الأمور المريبة التى قام بها مرؤوسوه .

٩ نوفمبر

زارنى محمد عبده اليوم . وكان قد قابل الخديو الذى عاد من انجلترا فى غاية السرور من المعاملة المهذبة التى احاطته بها الملكة (فيكتوريا) وأمير ويلز والحكومة ، ولكن حدث ماسبق أن تنبأت به له . فلم يجر أى حديث حول أمور مصر السياسية ، بالرغم من الحديث الذى جرى حول الأمور السياسية فى القسطنطينية . وقد أرسل (الخديو) شكره لى مع عبده ، وقال انه كان ينوى الذهاب الى كرابيت (بيت بلنت الريفى) بناء على دعوتى مالم يكن اعتلال صحته قد عاقه عن ذلك . وقد اثنى عليه محمد عبده لمقدرته على الظهور بالمظهر اللائق حين يريد كما فعل فى انجلترا ، ولكنه ذكر أنه (الخديو) التزم جانب الحذر الشديد بعد ذلك . فقد روى كل ماحدث له هناك لمحرر « المقطم » الذى بادر بنشره .

(عند هذا الحد ينتهى ذكر محمد عبده فى الجزء الأول من يوميات صديقه بلنت . كما ينتهى الجزء نفسه بعد قليل بانتهاء القرن التاسع عشر . ومن الواضح فيما مر بنا من يوميات أن العلاقة بين الصديقين قد توطدت كثيرا خلال تلك الفترة ، بعد عودة عبده من منفاه ، وأن علاقة عبده بالخديو وكرومر وغيرهما من أولى الأمر قد توطدت بدورها وأهلته لتولى منصب الافتاء الذى شغله حتى وفاته . وكان بلنت خلال تلك الفترة دائم الرجوع الى صديقه فى كل مايتعلق بتسجيل الأحداث وتطوراتها . وقد شهدت أشهر الصيف من ذلك العام الأول فى هذا القرن بعض الأحداث التى لم يشهدها بلنت بسبب تغيبه فى لندن ، ومنها ماسماه هو

بقضية صيد الثعالب . وملخصها أن بعض الضباط الانجليز قاموا
بمطاردة الثعالب واصطيادها فى المنطقة المحيطة ببيته فى عين
شمس فتعرض لهم خفراؤه الخصوصيون واشتبكوا معهم . وكانت
النتيجة اعتقال هؤلاء الخفراء . ولما علم بلنت بالحادث احتج على
لدى حكومة بلاده التى نصحته بترك الأمر للقانون . ومن أحداث
ذلك الصيف أيضا سفر صديقه عبده الى سويسرا لعقد قران
احدى الأميرات المصريات . ولكن أهم حدث فى الحقيقة كان عودة
عرابى وزملائه من المنفى بعد مايقرب من ٢٠ عاما . وكان من
الطبيعى أن تشغل هذه الأحداث الصديقين عند لقائهما فى القاهرة
بعد عودة بلنت .

لقد بدأ القرن العشرون وقد تجاوز الصديقان سن الستين وهدم الدهر كثيرا من آمالهما ، ولكن بقى لهما ذلك الحنين المشترك الى الماضى والذكريات الكثيرة الحافلة !

٢٤ أكتوبر ١٩٠١

قضيت اليوم فى « الشيخ عبيد » وجاءنى محمد عبده فأمضينا معا فترة الصباح . يقول لى انه أثار على نفسه غضب الخديو بسبب قيامه بعقد قران احدى أميرات الأسرة الخديوية فى سويسرا خلال هذا الصيف . وكان الخديو قد أذن بهذا الزواج ولكنه اعتزم التنصل منه . ثم ناقشنا قضية صيد الثعالب . وهو يؤكد لى أنها لا تتضمن مجرد خرق القانون فحسب وانما تتضمن أيضا العدوان على الشرعية من جانب السلطات الانجليزية . ثم تحدثنا عن عودة عرابى . ولكن محمد عبده يلومه على اتصاله بالصحف والتصريح لها بأن كل ماقام به الانجليز فى مصر خير ، دون أن ينتظر حتى يتأكد من الوضع الحقيقي للأمور . وقد أوقعه ذلك فى مشكلة مع المسئولين المصريين الذين قابلوا تصريحه

بالتجاهل ، بالرغم من أن عامة الناس مازالت متعلقة به ، فالأولاد يتبعونه فى الشوارع صائحين : « الله ينصرك يا عرابى » وحين يذهب الى المسجد للصلاة يأتى اليه الفقراء ويقبلون يديه . وعبده غير راض عن هذا ، ولم يذهب لزيارته ، ولكنى اعتقد أننى حثثته على الاستفادة من شعبية الرجل ، ووعدنى بمقابلته عند مجيئه الى بيتى . وأنا ممن يؤيدون الرأى القائل بإمكان الاستفادة من عرابى على نحو مثمر فى قضية حرية مصر ، وان كانت شعبيته عند العامة تثير دائما الغيرة فى نفوس الأغنياء .

٢٦ أكتوبر

جاء عرابى اليوم على الغداء بصحبة على فهمى وصديقهما الطبيب . ومازال عرابى متمتعا بصحته وعافيته ، تبدو لحيته البيضاء لائقة عليه تماما . وقد وجدته بسيطا ، ودودا ، شديد الشكر لجميلى . ويبدو أن برقية تهنئتى التى تسلمها فى ٢٣ مايو كانت أول خبر يتلقاه (فى سيلان) عن اطلاق سراحه والعفو عنه اللذين لم يبلغا اليه رسميا قبل السادس والعشرين . وقد تبادلت معه حديثا طويلا حول الموقف الذى يجب عليه اتخاذه ازاء الشئون السياسية ، وسرنى انى وجدته يحمل آراء محددة . ولكنى اعتقد أنه واثق أكثر من اللازم فى النوايا الانجليزية الحسنة بعد أن لم يلق فى منفاه سوى المعاملة الكريمة . وله الحق فى أن يكون شاكرا للجميل . وفيما عدا ذلك فرأيه لا يختلف كثيرا عن رأيي أو رأى عبده . وقد نصحته بأن يقنع بما صرح به على الملأ (فى الصحف) وأن يقابل الخديو اذا وافق الأخير على استقباله ، وكذلك اللورد كرومر . انه يتمتع بقسط كبير من العزة والصراحة والصدق بحيث يفيده حضوره الشخصى كثيرا .. ثم جاء محمد عبده فتعانقا وراحا يتحدثان حتى أزف موعد الغداء ، بل استمرا

يتحدثان على الطعام وبعده لمدة ساعة أو أكثر ، وهما يتذاكران التجارب الماضية ويتناقشان حول رجال العصر . وكان اللقاء ناجحا للغاية ، أثر فى كل منا من نواح عدة فى الحقيقة .

(غادر بلنت مصر بعد ذلك فى ٣٠ ديسمبر ثم عاد مرة أخرى بعد نحو عام ، وعاد ذكر محمد عبده)

٤ ديسمبر ١٩٠٢

وصلنا الى الاسكندرية عند الفجر ... ووصلنا الى البيت قبل مغيب الشمس بساعة كاملة ، ووجدنا فى انتظارنا على محطة القاهرة حمودة عبده (شقيق محمد عبده) الذى نال رتبة البكوية وقتذاك . أما أخوه المفتى فقد سافر الى أسوان ، قبيل وصولنا لحضور افتتاح خزان النيل الكبير .

١٩ ديسمبر

جاء مفتى الديار وجلسنا نتحدث هذا الصباح لمدة ساعتين وكان قد ارسل لى كتاب « فتح العرب لمصر » من تأليف بتلر الذى تلقاه هدية . ورحت أشرح له محتويات الكتاب لأنه لا يقرأ الانجليزية ومن رأيه أن نظرية بتلر عن المقوقس وانطباقه على سايروس الملخى بطريرك الاسكندرية عاطلة من الصحة . ويقول إن المؤكد أن المقوقس كان قبطيا وحاكما على مدينة ممفيس ، وأنه وسواد القبط أيدوا الفتح العربى الذى خلصهم من طغيان الرومان . فاذا لم يكن هذا صحيحا فكيف استطاع الأقباط الحصول على تلك الشروط المجزية من عمرو (بن العاص) والتمتع بالحرية والحكم الذاتى اللذين تمتعوا بهما طوال قرون عدة بعد ذلك ؟ ولم يتعرض الأقباط للاضطهاد إلا مع الحروب الصليبية ، ولا سيما حملة القديس لويس (الملك لويس التاسع

الفرنسى) على مصر ، حين أعلنوا تأييدهم للغزاة . ثم تحدثنا أيضا عن الشئون المعاصرة في القسطنطينية . والخديو الآن على خصام مع السلطان بعد أن استقبله الأخير هذا الصيف استقبالا فاترا . فقد رفض عبد الحميد أن يستقبله على الاطلاق مالم يعد بعدم ذكر مسألة (جزيرة) ثاسوس . وهذه هى مسألة ثاسوس : لقد أساء الخديو تصريف الأمور فى هذه الجزيرة التى يملكها بالرغم من أنها ليست قطعة من مصر . وبلغ من سوء تصريفه أنه فرض على أهل الجزيرة الضرائب والرسوم الجمركية على الاستيراد حتى شكوه الى السلطان الذى اتخذ الشكوى ذريعة لارسال قواته الى هناك فى صورة حامية . وكان الخديو يطالب باجلاء الحامية ، ولكنه لم يتمكن من عرض دعواه فى القصر .

وعباس واقع الآن تحت تأثير سيدة مجرية أصبحت عشيقته . وكانت بصحبته عند وقوع حادثة سيارته منذ اسابيع . فقد ضل طريقه وهو عائد ليلا من الدار البيضاء وغاصت عجلات السيارة فى الرمال . ورفض الخفراء مساعدته فحكم عليهم بالاشغال الشاقة لمدة أسبوع ، ووصل الخبر الى الوكالة البريطانية (المعتمد البريطانى) حيث تسبب فى نزاع نشب هناك ضده . كما تحدثنا عن مدحت باشا (والى سوريا السابق وأحد زعماء تركيا الذين سجنهم السلطان) ووفاة السلطان عبد العزيز . ويؤكد عبده الرواية التى ذكرها لى الدكتور ديكسون (طبيب السلطان) عام ١٨٨٤ ومؤداها أن الوفاة كانت انتحارا مؤكدا ولم تكن طبيعية . ويروى لى أيضا كيف تم تجويع مدحت حتى الموت فى سجنه بمدينة الطائف . فقد قدموا له خبزا جافا بلغ من جفافه أن الرجل العجوز كسر أسنانه وهو يحاول تناوله ، ولم يسمحوا له بأى راحة من أى نوع ، لقضاء حاجته ، فى زنزانته ، حتى أسلم الروح من سوء المعاملة ، ثم جزوا رأسه وأرسلوه الى القسطنطينية . أما عبد الحميد فقد قال عنه عبده انه أكبر « مجرم » على قيد الحياة ،

وهذه كلمة شديدة ليس من اللائق أن يستخدمها مفت للديار فى وصف خليفته .

٢٢ ديسمبر

(روى بلنت أن صحيفة عربية فى القاهرة نشرت قصة مختلقة عنه ، وكيف أنه أيرلندى المولد يكره انجلترا بالوراثة ، لم يكن على ثراء ولكنه تزوج ابنة لورد انجليزى كبير بشرط أن ينتقم لأبيها الذى أغتيل وهو يتنقل فى أنحاء الدولة العلية ، وترك أربعة ملايين جنيه ففرضت ابنته ذلك الشرط على خطابها ، حتى تقدم لها بلنت ووافقت عليه . ومنذ ذلك اليوم تزوجا وكرس هو حياته من أجل القضاء على الامبراطورية العثمانية عن طريق اثارة العرب لاعلان الخلافة العربية واستعادتها من الترك .

الخديــو يكيد له
واللورد يرضى عنه

لم تكتف الصحيفة ـ التى لم يذكر بلنت اسمها ـ بهذه القصة المختلقة عن حياته ، وانما زادت عليها أنه تسبب فى حالة الفتور القائمة وقتها بين السلطان والخديو عن طريق الدسائس ، وأنه تسبب أيضا فى الحرب الدائرة وقتذاك بين ابن رشيد (النجدى) ومبارك شيخ الكويت . وذكرت الصحيفة أن بلنت زود الأخير بالسلاح والعتاد . ويبدو أن القصة كلها من تدبير السلطات الانجليزية التى كان يهمها الايقاع بين الوطنيين وبلنت
ومع ذلك لم يشر بلنت الى أنه سيقوم بتكذيب القصة ، ولكنه أشار الى أنه تحدث عنها مع صديقه الوفى محمد عبده :

« ناقشت الموضوع مع محمد عبده الذى اقترح على أن أجعل هذه القصة فرصة لنشر القصة الكاملة ـ بالعربية ـ لاتصالى بشئون مصر سنتى ١٨٨١ ـ٨٢ . »

(ومن هذا الاقتراح ـ كما يقول بلنت بين قوسين ـ نما العمل الذى شغله طوال شتاء ذلك العام (١٩٠٢) بالاشتراك مع المفتى ، ونشر فى طبعته الأولى بعد خمس سنوات تحت عنوان « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى فى مصر »)

أول يناير ١٩٠٣

احتفلنا بالسنة الجديدة التى وافق مطلعها اليوم الثانى من شهر

شعبان ، بتناول الغداء مع المفتى ، وتحدثنا عن أيام الماضى السياسية سنة ١٨٨٢ .

(فى ٢٢ يناير روى بلنت أن ادوارد براون الأستاذ بجامعة كيمبردج والمستشرق المعروف زاره فى بيته ومعه رسالة توصية من ألفرد ليال صديق بلنت وأحد كبار المسئولين الانجليز فى الهند . وقد أبدى بلنت اعجابه ببراون ووصفه بالذكاء كمستشرق يجيد الفارسية والتركية والعربية . وقال أنه يتردد على محاضرات محمد عبده عن القرآن فى الأزهر . وفى ٣٠ يناير كتب بلنت أن محمود سامى البارودى زاره بصحبة محمد عبده ولم يكن قد رآه منذ زيارته للمنفيين فى سيلان قبل ١٩ سنة . وكان قد كف بصره تقريبا لا يكتشف طريقه بغير أن يقوده أحد من يده . وفى ٨ فبراير كتب أن حمودة عبده روى له آنه دعى مؤخرا الى حفل راقص عند الخديو فرأى هناك نساء عاريات ، فاشمأزت نفسه من ترك رجالهن لهن هكذا ، فقد كن عاريات الصدور حتى الخصر . ولما سأل عن حقيقتهن قيل له انهن زوجات المسئولين الانجليز ، ومن هؤلاء قاضى محكمة الاستئناف الذى ترافع آمامه حمودة كثيرا وقد رأى القاضى نفسه والخديو آيضا يراقصان النساء ، فشعر بالخجل واضطر الى الانصراف بعد أن شاهد الخديو يشرب الخمر التى كانت تدار على الحاضرين . وقال ان الخديو اذن لحريمه بالتفرج على مايدور من وراء الستائر . وعلق بلنت على هذا كله بقوله : « ياصديقى العزيز لعلك لا تدرى أن هذه طريقتنا فى تحضير الشرق . انتظر عشرين سنة آخرى تر كل قضاة مصر ، ومنهم أخوك المفتى ، يراقصون النساء العاريات أكثر من ذلك . ومن يدرى . ربما يذهبون الى هذه الحفلات ورؤوسهم عارية »

١٦ يناير

أمضى محمد عبده ساعة معنا روى لنا خلالها تاريخ سنة ١٨٨٢ ... وبعدها سألت المفتى عن السببُ الحقيقى لمذبحة ١١

يونيو فى الاسكندرية فقال : « انه الخديو وعمر لطفى (محافظ المدينة) بدون أدنى شك » ولما سألته عن الكيفية التى عرف بها هذا السبب قال :

« ذهبت الى الاسكندرية فى اليوم التالى للمذبحة . وهناك اتيح لى الاطلاع على البرقية التى بعث بها الخديو الى عمر لطفى . وكان نصها . « عرابى ضمن الأمان للأوربيين ، ولك أن تختار بين خدمتى وخدمته »

وقد كان عبده مهيأ لمثل هذه المعرفة . فقبل اسبوعين من وقوع المذبحة نشرت صحيفة تدعى « المحروسة » ، كان يحررها أحد الشوام المسيحيين ، مقالة تضمنت اشارة الى أن اليونانيين فى الاسكندرية يتسلحون بالاسلحة . وحذرت المقالة المسلمين بأنهم اذا فكروا فى قتل المسيحيين فإن المسيحيين أيضا ينوون قتلهم . وبسبب ذلك اضطر عبده ، بصفته مديرا رسميا للمطبوعات ، الى ايقاف صحيفة « المحروسة » على أساس أنها تشكل خطرا على الأمن العام .

لقد تم تدبير حوادث الشغب على الوجه التالى :

قام الخديو باستدعاء أمبرويزى سينادينو الذى كان على علاقة حميمة به ، وكلفه بتقديم المال لتسليح اليونانيين فى الاسكندرية . وقام عمر لطفى من جانبه باصدار التعليمات لحكمدار الشرطة الذى تولى تحريض المشاغبين والاشتراك مع رجاله فى حوادث القتل . أما الجيش النظامى فلم يتم استدعاؤه للتدخل الا بعد استفحال القتل . وقد تم الاستدعاء شفويا فى البداية . ولما استفحل الأمر ، وساء الموقف ، صدرت التعليمات بالتدخل كتابة فى النهاية .

ولا يوجد أدنى شك فى أن حوادث الشغب كانت مدبرة . وقد سألت عبده عما اذا كان الانجليز فى ظنه قد علموا بها قبل وقوعها فقال إن أحدا منهم لم يعلم بذلك ، حتى ماليت (القنصل) نفسه . وقد كان الأخير (فى رأيه) رجلا شهما ، حاول بكل مافى وسعه أن يهدىء الأمور ويحفظ النظام القائم . ولكن من المؤكد أن القنصل

الانجليزى قد عرف الحقيقة فى اليوم التالى ، فور العثور على جثث المسيحيين الذين تخفوا فى ثياب المسلمين ، ولم تظهر آثار طعنات حراب بنادق الشرطة الا على بعض الجثث . وهذا هو السبب فى ايقاف التحقيق وعدم المضى فيه . ومع ذلك كان عمر لطفى المدبر الرئيسى للحوادث .

لقد حذر عبده عرابى ، ونصحه بالتخلص من عمر لطفى قبل فترة طويلة على أساس أنه شخص لا يمكن الوثوق به وأنه قد يقوم بعمل شائن فى الاسكندرية ، ولكن عرابى لم يسمع للنصيحة . فقد كان عرابى ساذجا جدا وعنيدا جدا ، يصدق كل من يصفه بأنه رجل عظيم ويثق به . وقد اعترض عبده ذات مرة على موقفه من الخديو ، وقال له ان عليه اما أن يحافظ على الود معه ، وأن يضعه دائما تحت تأثيره ، واما أن يقطع رأسه . ولكن عرابى لم يفعل هذه ولا تلك . بل انه فقد صوابه تماما فى الاسكندرية . وقد سافر عبده الى هناك اثناء قصف المدينة فوجد كل شىء فى حالة متوحشة من الفوضى ، ووجد عرابى عاجزا عن توجيه أو اقرار مايجب عمله ، كما وجد جميع الجنود والمدنيين ، سواء بسواء ، فى حالة من الفزع فقدوا معها صوابهم . وقد كان من الواجب وقتها أن يقبض على الخديو ، وأن يرسل الى القاهرة آسيرا . ولكنه بدلا من ذلك سمح له بالفرار الى الاسطول الانجليزى .

وقد سألت عبده عما اذا كان يعتقد أن الجراكسة الذين اعتقلهم عرابى قد عذبوا فى السجن فأجاب : « كلا ، ولكنهم عوملوا معاملة خشنة »

(هذه اليومية ـ ١٦ يناير ـ أوردها بلنت فى ملاحق الطبعة الثانية من كتابه المشهور « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » ولم ترد فى سياق يومياته العادية التى ظهرت بعد ذلك . وقد عقب على ايرادها بأنه راجع موضوعها فى ٩ مارس ١٩٠٥ مع الشيخ محمد عبده ، وحقق معه الموضوع مرة أخرى حتى استوفاه . وأضاف بلنت أن اصرار محمد عبده على اتهام الخديو

وعمر لطفى بتدبير الشغب فى الاسكندرية قبل قصفها هو الذى دفعه ـ أى بلنت ـ الى الاقتناع بها ، وأن الشيخ مسئول عن كل كلمة كتبها هو ـ بلنت ـ عن الموضوع .

ومن الملاحظ على هذه اليومية ، عدا تورط الخديو وعمر لطفي ، أن بلنت يفرق دائما بين المسيحيين والأقباط . فالمسيحيون فى كتاباته هم الاوربيون أو رعايا الدول الاوربية بما فى ذلك الشوام . أما الاقباط فكانوا وقتها متحدين مع المسلمين فى مصر لدرجة أن بلنت كان يكتفى بذكرهم ضمن المسلمين ، ويعنى بالمسلمين المصريين . ومن الملاحظ أيضا أن كل ماورد فى هذه اليومية من تعبير عما حدث فى مذبحة الاسكندرية يرجع اولا وأخيرا الى محمد عبده ، بما فى ذلك أحكامه على عرابى .

وبعد هذه اليومية نستطيع أن نمضى مع السياق المتصل الذى قطعناه ، وأن نصل تسلسل اليوميات بعد ذلك حتى آخر عام ١٩٠٢) .

٢٥ فبراير

نزلت الى القاهرة لأول مرة هذا الشتاء لمقابلة الخديو ... (وبعد أن حدثه الخديو حول عدد من الأمور :) استطرد فشكا من جحود محمد عبده لاستمراره فى مصادقة رجل يدعى رشيد (المقصود محمد رشيد رضا تلميذ عبده ومحرر مجلة « المنار » الذى هاجم الخديو فى احدى مقالاته) كان قد أخطأ فى حقه . وقد دافعت عن المفتى حول هذه النقطة وهدأت من غضب الخديو .

٢٦ فبراير

تغديت عند المفتى حيث وجدت هناك الأستاذ براون أيضا . ومن المدهش أن براون يتحدث الآن العربية بطلاقة مع أنه لم

يعرفها الا كباحث دون أن يتحدث بها من قبل حين جاء الى هنا م
شهرين . وكان يحضر دروس المفتى فى الأزهر ، ويقول لى ان
دروس مثيرة للاعجاب وجريئة جدا ، وأنه (المفتى) حاض
البديهة فى الرد على الاعتراضات التى يوجهها اليه المفسر
التقليديون للقرآن . ثم تحدثت الى المفتى حول شكوى الخديو م
وسوف يكتب الى سموه ويشرح له الخطأ . فالصلح بينهما فى غا
الضرورة بالنسبة للمصالح العامة . وهما قادران بالتعاون في
بينهما على احداث تأثير كبير ، والخلاف بينهما يحيد كلاً منه
ويفقده نفوذه .

٦ مارس

حضر محمد عبده ومعه الشيخ رشيد الذى تسبب فى غضب الخديو ، ويبدو رجلا محترما . وكان بصحبتهما حافظ ابراهيم ، وهو شاعر فلاح ، تناقشنا معه حول المعلقات . وقد اتفق الثلاثة على أن افضل الشعر العربى ليس شعر الجاهلية ، وانما شعر القرن الثانى للهجرة . وهذا مخالف تماما لأفكارنا الانجليزية ، ولكن مقياس الجودة عند الآذان العربية مختلف عن مقياس الجودة عندنا . فما يعجب المثقفين هنا فى الشعر هو الوزن وليس معنى الشعر . وهم لا يهتمون كثيرا بمظاهر السذاجة والبساطة عند شعراء ماقبل الاسلام ويعدونها من قبيل العيوب ليس غير ، ولا يستطيعون ادراك أية قيمة على الاطلاق فى ملحمة أبى زيد (الهلالى) وقد ادركت أن هؤلاء الرجال الثلاثة لم يرضوا عنى بسبب اعجابى بها .

(عاد بلنت الى انجلترا بعد ذلك ووصل الى لندن فى ٦ ابريل ، أى بعد شهر على التحديد من آخر لقاء له مع محمد عبده فى مصر . وقد حدث أن سافر عبده نفسه فى صيف ذلك العام الى انجلترا . ففى أغسطس ١٩٠٣ وصل محمد عبده الى لندن فى

ثانى زيارة له بقصد مقابلة الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر .
وكتب بلنت :)

٦ أغسطس

نيوبيلدنجز (بيت بلنت الريفى الآخر) وصل محمد عبده أمس من مصر مع شقيقه حمودة ، وأوصلتهما اليوم الى كرابيت (بيته الريفى الآخر حيث يحتفظ بخيوله) ومنه الى نيوبيلدنجز ... وجلس محمد عبده معى فى مقصورة العربة التى جرتها خيولى العربية الأربعة ، ودار بيننا حديث طويل حول الشئون المصرية .

٩ أغسطس

الأحد . أمضيت وقتا لطيفا مع المفتى خلال الأيام القليلة الماضية . وجرى بيننا اليوم ونحن نتمشى فى غابة نيوبيلدنجز حديث طويل عن الدين . سألته بوجه خاص عن عقيدته فى الملائكة والأرواح . ومع أنه لا ينكر وجودها فقد قال : « لم يحدث أن رآها أحد ، وليس من الممكن معرفة أى شىء عنها . أما الله فمن المستحيل أيضا أن يعرف عنه أحد شيئا . وسألته عن الحياة الآخرة فقال انه يؤمن بها وأنها تضم دارين : دار للسعادة وأخرى للشقاء . ولكنه لا يعرف على أى نحو سيكون ذلك . وهو لا يؤمن بالعقاب الأبدى . ثم تحدثنا أيضا عن حوادث ١٨٨٢ . وتصفح الأوراق التى تتصل بمحاكمة عرابى وحثنى بشدة على نشر تاريخ لتلك الفترة . ومع ذلك فالصعوبة التى تواجهنى هى أن أهم مستنداتى وخطاباتى كتبها أشخاص مازالوا على قيد الحياة . وقد يعترضون على نشرها فى حين أنه بدونها سيكون من المستحيل تعرية دسائسنا الانجليزية بطريقة لا يمكن دحضها . ولا يوجد فى هذه الرسائل شىء شخصى ، فكلها مستندات تاريخية صرفة ،

ولابد أن ترى النور يوما ما ، ويجب أن يكون ذلك اليوم قريبا . ثم ناقشنا في النهاية الحالة الحاضرة للعدالة في مصر التي طلب مني محرر صحيفة « المانشستر جارديان » أن أطلعه على معلومات عنها . وأعتقد انني سأقدر الآن على تلبية طلبه بمساعدة المفتي .

١٠ أغسطس

ذهبت مع عبده الى (مدينة) برايتون (المطلة على القنال الانجليزي جنوب لندن والواقعة في مقاطعة سكس التي يعيش بها بلنت) لمقابلة هربرت سبنسر الذي جاء عبده الى انجلترا خصيصا لزيارته ، وهو يعده فيلسوفا عظيما ، ترجم الى العربية كتابه عن التربية . وكان سبنسر قد أرسل عربته وسكرتيره المستر تراوتون لاستقبالنا على محطة برايتون . ووجدنا الرجل العجوز (٨٣ سنة وقتذاك) في فراشه بغرفة مكتبه الخلفية في برسيفال تيراس (بيته) حيث كان طريح فراشه منذ شهر ابريل . ولم تؤثر النوبة التي اصابته وقتها في حالته العقلية . فقد وجدناه واضح الأفكار قوي الصوت ، ولكنه كان نحيفا للغاية ، يده مجرد هيكل عظمي . استقبلنا لفترة قصيرة قبل الغداء . ثم استأنفنا حديثنا معه في الثالثة (بعد الظهر) وحاول في البداية أن يتحدث بالفرنسية ولكن بتعمد شديد وبحث عن الالفاظ ، ولكن سرعان ما انتقل الحديث الى الانجليزية التي رحت أترجمها لعبده . وقد أخذ سبنسر يشكو من اختفاء « الحق » من ساحة السياسة الحديثة في أوربا ، واستنكر حرب الترنسفال (جنوب افريقيا) وعدها اعتداء صارخا على الانسانية وقال : « سيأتي على العالم عهد من القوة ، وستنشب مرة أخرى حرب عامة من أجل السيادة تستخدم فيها كل ألوان الوحشية »

وفي زيارة فترة العصر انتقل الحديث الى الفلسفة وسأل المفتي : هل صحيح أن الفكر في الشرق يتطور على ذات الأسس

التى يتطور عليها الفكر فى أوربا ؟ ورد محمد عبده بأن ماتعلمه الشرق من الغرب شره أكثر من خيره ، ولكن مازال أفضل الفكر وأكثره استنارة واحدا عند الاثنين (الشرق والغرب) وقال سبنسر : اذا تعمقنا الأمور فانى أزعم أن مفهوم القوة الأساسية فى العالم ، أو ماتسمونه الله ونسميه الاله ، ليس شديد الاختلاف . وكان رد المفتى على ذلك يحمل تميزاً عده سبنسر جديدا . فقد قال عبده ان الله موجود لا شخص . وسر سبنسر لهذا ، ولكنه قال ان هذا التمييز مازال صعبا على الادراك ، ثم أضاف : « من الواضح على أى حال ، أنكم لا أدريون من نوع اللاأدرية فى أوربا [1] ولم يكن أمامنا متسع من الوقت للمضى فى هذه السلسلة من الأفكار ، لأن سبنسر لم يكن مسموحا له بالكلام فى كل مرة أكثر من بضع دقائق . ولكنى رحت استجوب المفتى حول هذه النقطة ونحن فى طريقنا بعد ذلك الى المحطة .

قلت : هل تعتقد أن الله له وعى ، وأنه يعرف أنى موجود وأنك موجود ؟ أوليست هذه المعرفة دليلا على أنه شخص ؟

قال : نعم . هو يعرف .

قلت : اذا كان يعرف فهل يعرف انك صالح وأنى طالح ؟ ووافق عبده على ذلك .

قلت : وهل هو يرضى عنك وعنى ؟

قال : قد يرضى وقد لا يرضى .

قلت : يرضى اليوم لأن أعمالك صالحة ولا يرضى غدا لأن أعمالك أصبحت طالحة ؟ أليس هذا التغير من الرضا الى عدم الرضا أمرا يميز الشخص ؟ كيف اذن لا يكون شخصا ؟

قال : إن الله عليم بكل شىء فى كل زمان . ولا يوجد عنده اليوم

---

(١) اللاأدرية : مذهب فلسفى اوربى يقوم على معرفة الله عن طريق الحواس ولايعتد بما يخرج عن نطاقها .

والغد . ومن ثمة لا يوجد عنده تغير وتبدل . ووعيه بكل شيء أزلى غير متغير . وهذا ما أسميه الموجود لا الشخصى

قلت : والمادة ؟ أليست المادة أزلية أيضا أم هى من خلق الله ؟ وهل اذا كان قد خلقها أفلا يعنى هذا أنها تتغير ؟

قال : المادة أيضا أزلية كما أن الله أزلى .

وهنا يتضح أساس تفكير عبده وقد اتفقنا على أن أفكارنا واحدة من هذه الناحية ... ثم ذهبنا الى لندن حيث لحق بنا على العشاء فى تشابلْ ستريت (بيت بلنت) الأستاذ براون وكوكرل . ومن المقرر أن يسافر عبده غدا الى (مدينة) أوكسفورد ، ويوم الاربعاء الى (مدينة) كيمبردج . وقد كان الجو بديعا طوال فترة زيارتهما (عبده وأخوه) واقامتهما فى نيوبيلدنجز .

(لقد روى محمد رشيد رضا خبر زيارة استاذه محمد عبده لسبنسر [1] الذى مات بعد خمسة أشهر ، وذكر أن عبده ترجم لسبنسر كتابه « التربية » أثناء تعلمه الفرنسية لأجل التمرن على الترجمة ، وأنه عرض ماترجمه على قاسم أمين الذى استحسن الترجمة [2] وكان قاسم يجيد الفرنسية بحكم تعليمه وثقافته .

غير أن الحوار الذى أجراه بلنت مع عبده حول الألوهية يبدو فى الحقيقة مقتضبا وغير واضح . ويبدو أيضا أن سبب ذلك يرجع الى أن بلنت كتبه من ذاكرته ـ فى الغالب ـ وأجمله . ومع ذلك لم ير بلنت صديقه بعد مغادرته لندن الى أوكسفورد وكيمبردج . وانتظر حتى عاد الى مصر فى ١٢ نوفمبر . وجاءه عبده ليلة وصوله الى القاهرة فاتصل بينهما حبل الحديث عن رحلة عبده الى انجلترا ، وهى رحلة لم تستغرق طويلا على أى حال)

---

(١) راجع : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ط ١ ، ص ص ٨٦٦ ـ ٦٥٩

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣٤

١٢ نوفمبر

في ذلك المساء نفسه جاءتنا الشيخ محمد عبده ، وروى لنا القصة الكاملة لمغامراته بعد أن غادر نيوبيلدنجز . ففي أوكسفورد وجد عددا من المخطوطات العربية التى لا يعرفها أحد فى الأزهر الا بالاسم . ومن بينها مراسلات بين فيلسوف عربي يدعى El Sebain (أو السباين ، والاسم مجهول فى الحقيقة على الأقل كما كتبه بلنت) وفردريك الأكبر (ملك بروسيا فى القرن الثامن عشر ، وربما يكون المقصود فردريك آخر فهناك ثلاثة ملوك أوربيين بهذا الاسم) وينوى عبده تكليف من ينسخ عددا من هذه المخطوطات بتمويل من وزارة الأوقاف . وقد ذهب من انجلترا الى سويسرا ، ومنها الى الجزائر وتونس . ورسم صورة محزنة للأحوال فى شمال أفريقيا الفرنسى اذا قورنت بما سماه معاناة أهالى مصر تحت سيطرة الانجليز ، وهى صورة أشبه بمقارنة الظلام بالنور . ففى الجزائر يوجه الحكم كله من أجل مصالح المستعمرين الأوربيين على حساب الأهالى . وهؤلاء محرومون تقريبا من أى حماية شرعية ولا يتمتعون بأى حرية على الاطلاق . فلا توجد هناك حرية صحافة ولا حرية رأى ، والتجسس أسوأ مما فى القسطنطنية ، والأحوال فى الجزائر ليست أفضل من الأحوال فى تونس . وقد اقترح عليه البعض فى تونس أن يطلب مقابلة الباى ، ولكن قنصل النمسا العام أبلغه أنه لابد أن يطلب اذنا أولا من المقيم الفرنسى الذى سيبعث رجلا فرنسيا لحضور المقابلة . وقال له المسلمون فى تونس : « إن صحفكم في مصر تشكو من تعاسة حظها في ظل الانجليز ، ولكننا لا نطلب من الله الا أن يهبنا خمس سنوات من نظامكم على سبيل الراحة من جحيم النظام عندنا »

ذكر لى المفتى هذه التفصيلات لأننى قرأت فى صحيفة

« الفيجارو » (الفرنسية) أنه عبر لها عن رضاه التام عن أحوال اخوانه المسلمين فى ظل الحكم الفرنسى . ولكن مارواه لنا يتفق مع كل ماسمعته من جهات أخرى عن تونس ، وما أذكره عن الجزائر فى زيارتى لها سنة ١٨٧٣ .

(يستطرد بلنت بعد ذلك مباشرة الى المقارنة بين الاحتلال الانجليزى والاحتلال الفرنسى فى تعاملهما مع الاهالى . ويجد أن الانجليز فى مصر لم يحولوا البلاد الى مستعمرة من الناحية العملية ، وأن الادارة الانجليزية فى مصر مدنية تقريبا تخضع للنقد فى صحف انجلترا وبرلمانها على العكس تماما مما يحدث فى شمال أفريقيا تحت الاحتلال الفرنسى . ثم يعود الى محمد عبده :)

وأخيرا روى لنا المفتى آخر تصرفات الخديو . فهو الآن قد انصرف كلية الى جمع المال والمضاربات واتفق مع كاسل صديق الملك (الانجليزى) على اقراضه نصف مليون استرلينى لاستثمارها بدون فائدة فى مشروعات مختلفة ، وهو يخطط لمشروع مبان فى الجيزة يجرى التفاوض على استبدال أرض له مع وزارة الأوقاف بحيث يستفيد الخديو من عملية الاستبدال كلها . ومع ذلك فعبده يعترض - بصفته المفتى - على هذه العمليات ولن يسمح بأى احتيال على المال العام . وقد قابل الخديو مؤخرا ، وتظاهر الأخير امامه بالود ، ولكن محمد عبده يعرف أنه يدبر الدسائس لخلعه من منصب المفتى . والخديو لن يتسامح مع أى شخص لا يعمل له حسابا .

٢٣ نوفمبر

أرسلت أمس الطبعة الفرنسية من كتابنا « رحلة الى نجد » (ألفه مع زوجته) الى محمد عبده حتى يجد مايسليه فى شهر رمضان ، ثم جاءنى هو نفسه بعدها . ولما تطرق الحديث الى

مدحت باشا (والى سوريا السابق) الذى قدمت قصته من قبل ، قال لى انه لم يعجب به على الاطلاق بالرغم من عطفه على قضية الدستور فى القسطنطينية التى تولى مدحت بطولتها . وأضاف أنه كان رجلا مندفعا لا يعرف الحذر ، ولا سيما مع كؤوسه ، لأنه اعتاد الشراب ، وكان هذا سر سقوطه . وعندما كان واليا فى دمشق حضر ذات يوم مأدبة عشاء بمدينة طرابلس (اللبنانية) وألقى خطابا وصف فيه نفسه بأنه محطم ملكين ، مشيرا بذلك الى السلطان عبد العزيز والسلطان مراد . ونقل الخبر الى السلطان فكان سببا فى تحقير مدحت . أما من ناحية كونه مصلحا فقد كان ضحلا ومتأوربا بأسوأ معنى . ومع ذلك كان سقوطه سوء حظ حقيقيا وكانت نهايته مأساة حقيقية .

وقد قابل محمد عبده الخديو مرة أخرى وروى له الأخير القصة الكاملة لإخلافه موعده معنا فى كرابيت (بيت بلنت الريفى الآخر) فى الصيف . وكان السبب هو نفسه ماتوقعته . فحين اقترحت الزيارة فى البداية لم يقم أى اعتراض من جانب الانجليز الذين أوكل اليهم رعاية الخديو اثناء اقامته فى انجلترا ، ولكن حدث فى صباح الأحد ذاته الذى استعد فيه لبدء التحرك نحو كرابيت أن جاءه كاسل الذى كان مضيفه باسم الملك فى لندن فحدثه عن زيارتى ، وقال انها تسىء الى الملك وستفسر عند البلاط بمعنى أنه لم يرض عن استقبال الملك له . وقال له كاسل بالحرف الواحد : « لست أقول انه يجب ألا تذهب ، ولكنك اذا فعلت فسوف يفسر ذهابك بهذا المعنى » وقد بعث الخديو بهذا التفسير كرسالة الىّ عن طريق المفتى ، ولكن بغير غرض النشر . وهو يرجونى أن أذهب لمقابلته كالمعتاد ، ولكنى لن أفعل . وقد أبلغت عبده بأن ينقل اليه أنه مادام الملك قد أمره بألّا يرانى ، ومادام هو قد اطاع فأنا ، بصفتى من رعايا الملك ، مازلت أكثر امتثالا للطاعة

٢ ديسمبر

جاء المفتى اليوم وروى قصة مايدور فى الدوائر العليا فى مسألة الاصلاح القضائى . وقد قابل أمس كرومر الذى طلبه لمناقشة المشروعات المختلفة . وسأله كرومر عن رأيه فى خطة ترشيح القضاة ، فقال المفتى إن قيمة هذه الخطة تتوقف على ما اذا كان القضاة ستعينهم الحكومة أم محكمة الاستئناف . فاذا كانت الأخيرة فسوف يتم اختيار رجال أكفاء واذا كانت الأولى فسوف تنقلب الحال . ثم استدعى ماكلورث فلما حضر تلقى فى وجود المفتى محاضرة من كرومر عن ضرورة استشارة أرقى رأى عند الأهالى ، ولا سيما رأى المفتى . وهو (المفتى) راض الآن لأنهم سيتخذون مشروعا معقولا . كما شكا من السلطة الاضافية التى وضعت فى أيدى الشرطة بحالتها الفاسدة الراهنة . ويقول إن الخديو غاضب منه جدا بسبب اصراره على أن يسدد (الخديو) مبلغ العشرين الف جنيه كاملا لقاء صفقته مع الأوقاف ، وانه يبذل كل مابوسعه لاقصائه عن منصب المفتى . ومع ذلك فعبده راسخ فى مركزه الآن بحيث لا يقيم أهمية كبيرة على مايحوكه الخديو ضده ، ويبدو حقيقة كما لو كان نفوذه قد اصبح فى النهاية على ماكان يجب أن يكون عليه من البداية ، أى أن يكون أعلى شخص فى مصر . وروحه المعنوية مرتفعة جدا . وقد هنأته على قرب تعيينه رئيسا للوزراء . فكرومر يسند المفتى الآن . والخديو فى غاية الغباء لأنه يسمح للشرور الحقيقية بالمرور دون اعتراض ، ولا يتدخل الا فى التوافه .

١١ ديسمبر

حديث أكثر طرافة مع عبده . مازال الخديو غاضبا جدا عليه حول مبلغ العشرين الف جنيه ثمن قطعة الارض التابعة للأوقاف ، وهو يحاول الانتقام من المفتى باثارة معركة جديدة على أسس دينية تتصل ببنك الادخار المقترح انشاؤه . وقد أساءت فكرة هذا

البنك (صندوق التوفير) للمسلمين التقليديين ، لأنه يسمح للمودعين بالحصول على فائدة على أموالهم ، الامر الذى تحرمه شريعتهم. أما عبده فقد أصدر ، بصفته مفتيا ، فتوى حول الموضوع . وأوصى فيها بتغيير صيغة المرسوم بانشاء البنك ، ولكن الخديو اتخذ ضده خطا دينيا متشددا وأدان المشروع بأكمله ، مع أنه يودع أمواله بغير تدقيق نظير فائدة فى كل مكان ولا يخفى ذلك . غير أن كرومر يؤيد عبده . ولهذا فلا خطر فعليا عليه من المكيدة . وفى هذا كله وكثير غيره يتصرف الخديو بطريقة غير معقولة فيسمح للشرور الحقيقية بالمرور بغير احتجاج ولا يتدخل الا فى التوافه .

٢٥ ديسمبر

جاء المفتى بعد الظهر بصحبة (أحمد) المنشاوى باشا ، وهو نفسه الذى لعب دورا مشرفا وقت ضرب الاسكندرية فأنقذ حياة كثيرين من المسيحيين فى طنطا ، بالقرب من قريته . وقد منحته الحكومة الانجليزية وساما بعد الحرب تقديرا لانسانيته ، ولكن كرومر اضطهده منذ ذلك الحين بدعوى أنه من أنصار الخديو . وهو رجل ثرى جدا ، تبرع مؤخرا بمبلغ ١٤ الف جنيه للمفتى لانفاقه على مختلف الاغراض الاسلامية . ومازال قلقا من ناحية الخديو الذى قام بالضغط على عدد من شيوخ الأزهر حتى يكتبوا اليه ملتمسا بعزل المفتى على أساس عدم التقى ، تماما مثلما فعل محمد على مع الشيخ السادات زمن الجبرتى (المؤرخ الذى طالع بلنت كتابه وأنهاه قبل يومين) ويقول لى (عبده) انه برغم كل مامر به فى حياته لم يفقد الا صديقين ، وأنه جعل مبدأه دائما العفو والمغفرة .

١٧ يناير (الأحد) ١٩٠٤

عاد المفتى من الاسكندرية حيث ذهب لمقابلة الخديو الذ
استقبله ـ كعادته ـ بالابتسامات والنكات ، مع أنه كان يبذل د
مابوسعه للوصول الى موافقة كرومر على عزله . وقد حمل له الخد
ضغنا جديدا بسبب اصداره فتاوى لبعض المسلمين من الترنسف
(جنوب افريقيا) ردا على ثلاثة أسئلة وجهوها اليه :

١ ـ هل يجوز أن يأكل المسلم فى بلد أجنبى (غير مسلم
لحما غير مذبوح على الطريقة الشرعية ؟

٢ ـ هل يجوز أن يرتدى المسلم القبعة فى بلد أجنبى

٣ ـ هل يجوز للشافعى أن يصلى خلف الحنفى بد
تسمية ؟ (١)

وعلى هذه الاسئلة الثلاثة جميعا أجاب محمد عبده بالايجاب
ولكن الخديو الذى يأكل هو نفسه ويرتدى قبعة ولا يصلى حـ
يسافر الى أوربا أوعز بأن يعد هذا القرار مروقا من الدين . وه
ذلك فكرومر يؤيد عبده ، وهو وضع غريب

٢٢ يناير

كان المفتى عندنا اليوم على غداء يوم الجمعة المعتاد ف
الحديقة تحت « تعريشة » الخيزران . انه يعانى قلقا جديدا بسبب
وفاة أحد شيوخ الأزهر التى ستؤدى الى أزمة أخرى مع الخدي
فيما يتعلق بمن يخلفه . ومن حسن الحظ أن سموه ، أو « فتانا »
كما يسميه المفتى ، سيشرع فى رحلة باتجاه حدود طرابلس
(ليبيا) تريح منه الجميع قليلا . ويرجو المفتى أن يكون هو نفسه
فى الخرطوم عند ذاك . وقد وعدنى بأن يبحث هناك حقيقة الشعو

---

(١) راجع النصر العربى للفتوى عند رشيد رضا تاريخ الأستاذ الامام
المصدر نفسه . ص ٦٧٦

فى السودان تجاه النظام الجديد (بعد اعادة فتح السودان على أيدى الانجليز واحتلالهم له)

تحدثنا طويلا فى حديث مشوق حول أيام المماليك فى مصر وحول أحوال اليهود فى الجزيرة العربية قبل ظهور محمد (ﷺ) وغير ذلك من أمور تاريخ الشرق التى يعلمها جيدا . ولست أعرف صحبة سارة ، أو صحبة تتحسن ، مثل صحبته ، وهى كل مانملك هنا لأننا لا نرى أحدا من الأوربيين . فنحن فى حالة عزلة الآن مع المسئولين الانجليز ، ولكن هذا لا يهم . وطالما أن مصر لم تضم للتاج البريطانى فسوف أمضى فى معارضتى .

تحدث (عبده) أيضا حول ميول الخديو التجارية التى يمارسها دون اعتبار لوضعه السياسى . فهو يستأجر ويؤجر « المعديات » على الترع . ويحاول احتكار الصيد فى مختلف الأماكن على حساب الفقراء . وقد لامه كرومر على ذلك . وقال له آنه يجب أن يختار بين كونه خديويا وكونه تاجرا ، وكرومر على حق فى هذا . ولكن جميع أفراد أسرة محمد على كانوا تجار مهرة . أما عباس ـ كما يقول عبده ـ فلا يهمه شىء سوى جمع المال .

٤ فبراير

يقول محمد عبده إن جورست (السير إلدون جورست المراقب المالى والمندوب السامى فيما بعد) كان يساعد الخديو فى الفترة الأخيرة فى مضاربته المالية ، وان هناك آقاويل بأنه سيترك الخدمة فى مصر .

النهاية : خسارة عامة للعالم الاسلامي

يستمر بلنت فى تسجيل يومياته على هذا النحو العفوى وتستمر علاقته بمحمد عبده فى توهجها ونضجها يقول بلنت

١٤ فبراير ١٩٠٤

تغدى المفتى معنا . وتحدثنا عن تاريخ مصر . وقال ان النظام المملوكي الشركسى فى آخر مراحله كان فاسد الأساس منحل الأخلاق . ولكن هذه لم تكن حال المماليك الأوائل الذين كانوا - أساسا - من العبيد الذين جاء بهم صلاح الدين (الأيوبى) الى مصر . أما المماليك الاواخر فلم يتفوق عليهم أحد فى جرائمهم بما فى ذلك العثمانيون والفرنسيون أيضا . فقد كان يحلو لهم أن يختبروا مضاء سيوفهم فى محلات السلاح على المارة فيقطعون رؤوسهم أو يشطرونهم نصفين عند الخصر .

كان محمد عبده ، وهو يروى هذه الحكايات ، يجلس على الأريكة وقد استقرت عمامته على رأسه ، وبدأ كتركى رهيب يؤشر أثناء حديثه بسيف وهمى . كما روى حكمة سديدة للسيد جمال الدين يقول فيها : « العدالة توجد حيث تلتقى القوى المتكافئة » ومعناها أن الاستبداد لا يتوقف الا اذا وقفت قوة المقاومة عند المحكوم فى وجه قوة الحاكم . وهذه اشارة الى سلبية المصريين فى ظل الباطل .

وثمة فضيحة جديدة في القاهرة . فقد دعا الخديو محظيته المجرية الى حفل راقص بالقصر مما أشعر زوجات القناصل بالاساءة ففكرن في اثارة القضية على الملأ ، ولكن كرومر هدأ خواطرهن .

٢٩ فبراير

صحبت كوكريل (صديقه الذي جاء من انجلترا لزيارته في مصر) في زيارة للمفتي الذي وجدناه في الفراش مصابا بالانفلونزا ، ولكنه حدثنا بحكمته المعتادة . ولما تطرق الحديث الى الاقتراح الذي قدمه (الشيخ) على يوسف (محرر صحيفة « المؤيد » الموالية للخديو) للجمعية الوطنية (البرلمان) وطالب فيه بانشاء حكومة برلمانية في مصر اعترضت على كلمة « انشاء » على أساس أن مصر عرفت الحكومة البرلمانية قبل ٢٢ سنة ، ولكن عبده قال ان احياء الفكرة هنا اليوم مكيدة ، وأنه عارضها ـ دون جدوى ـ لأنها طرحت على التصويت ونالت أغلبية . وأعتقد أنه (عبده) كان على خطأ في هذا ، لأن البرلمان ـ سواء جاء بالمكيدة او بغيرها ـ هو خير فرصة في مصر للتخلص من فرض الرأي الذي يمارسه الانجليز . وقد أعلن كرومر أن هذا الاقتراح ليس من اختصاص الجمعية (الوطنية) ويقول عبده إن جورست (خليفة كرومر) يعاون الخديو بالتأكيد في مضارباته التجارية . وقد نشبت بينه وبين كرومر معركة حول هذا الموضوع . وليس من المتوقع أن يحتفظ (جورست) بوظيفته هنا كمستشار مالي .

(لم يحتفظ جورست طويلا بوظيفته هذه على أي حال ، فقد سافر الى أوربا قبل شهر تقريبا بحجة اقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على الغاء « صندوق الدين » الذي أنشأته انجلترا وفرنسا في مصر لمراقبة المالية المصرية في أواخر عهد اسماعيل . ولكن الحكومة الفرنسية وافقت بعد بضعة أشهر

(١٩٠٤) على اطلاق يد انجلترا فى مصر مقابل اطلاق يد فرنسا فى المغرب . أما السبب المباشر لمغادرة جورست مصر فكان خلافه الشديد مع كرومر . وقد روى بلنت فى يومية ١٠ مارس ١٩٠٤ قصة هذا الخلاف أو ماسماه « المعركة » . وملخص القصة أن سيدة انجليزية صديقة لملك بريطانيا زارت مصر فى شتاء ١٩٠٣ فلم يعجبها طريقة الاستقبال الفاتر الذى لاقته من زوجة كرومر ، فى حين استقبلها جورست بالترحاب . وقيل أنها بدأت منذ تلك اللحظة فى تدبير مكيدة لكرومر بالاشتراك مع جورست وتشجيع من الملك الذى شكت اليه السيدة . ومن هنا نبتت فكرة خلع كرومر واحلال جورست محله . ثم تعقدت الأمور فى غير مصلحة كرومر حين احتد على الخديو وخيره ـ كما روى محمد عبده لبلنت ـ بين أن يكون خديو أو تاجرا . وأسرها الخديو فى نفسه حتى زار انجلترا فى صيف ١٩٠٣ وطلب عزل كرومر . ولكن المسئولين الانجليز فضلوا أن يعزلوه بطريقتهم الخاصة ، أى على مهل بعد أن تنضج الثمرة . فلما استمر الخلاف بين كرومر والخديو خير كرومر نفسه حكومته بين عزل الخديو أو قبول استقالته هو شخصيا . وكان جورست عند ذاك قد قوى مركزه بعد عودته الى انجلترا واصبح وكيلا للخارجية مع وعد بتعيينه سفيرا . وتخلصت الحكومة الانجليزية من ابن كرومر ـ الذى اشيع أنه سيخلف أباه ـ بتعيينه فى طهران وهكذا ضيق على كرومر حتى يتصرف تبعا للموقف . ومع ازدياد خلافه مع الخديو انتهى الى تقديم استقالته ـ ظنا منه فيما يبدو أن الاستقالة ستسوى ـ فقبلت الاستقالة على الفور ، وكان ذلك فى صيف ١٩٠٧ ، وعين جورست محله على الفور . ثم يكمل بلنت القصة .)

١٠ مارس

زرت المفتى فى المساء ورويت له القصة الكاملة لمعركة

جورست وكرومر : فأنا لا أخفى عليه شيئا ، وكذلك هو . ولذا نعرف كل شيء فيما بيننا . وقد علق على ما رويته بأنه يتفق مع كل ماسمعه ولاحظه هو نفسه خلال العام الماضى . فقد حاول الخديو أثناء وجوده فى لندن أن يفتح فى وزارة الخارجية موضوع تقاعد كرومر ولكنه لم يجد ترحيبا . وخلال هذا الشتاء حدث كرومر عبده عن نفاد صبره مع جورست . وهكذا كان عبده على أتم استعداد لما رويته له . فهو يعرف كل شيء عن الدسائس المالية التى شجع جورست الخديو عليها ، ومنها على سبيل المثال سماحه للخديو بشراء أرض مريوط الشاسعة من الحكومة بمبلغ زهيد جدا . كما ساعده بطرق أخرى على جمع المال على حساب الحكومة تقريبا .

وقد طرب (المفتى) كثيرا عندما سمع دور السيدة (الانجليزية) فى المكيدة . وقد سمع به من خلال صديق تصادف أن كان على ظهر الباخرة التى أقلت الخديو فى الصيف الماضى الى القسطنطينية . فقد راح سموه يزهو أمام زملائه المسافرين بأن شخصية انجليزية كبيرة قد وعدت بالتخلص من الشيخ محمد عبده لأجل خاطره . وقد ناقش عبده هذه الواقعة مع صديقه مصطفى باشا فهمى (رئيس الوزراء)

(كان بلنت قد رتب القيام برحلة الى الشام بعد أيام واقترح على صديقه محمد عبده مصاحبته ولكن الأخير اعتذر من عدم الذهاب قبل أيام من بدء الرحلة)

١٥ مارس

زارنا المفتى اليوم . وتحدث عن ذهابه معنا الى دمشق ، ولكنه رأى من الخير ألا يفعل ، وقال : « اذا سافرنا أنا وأنت الى دمشق فسوف يغضب السلطان ، وسيظن أننا جئناها لاعلان الخلافة العربية .

(وسافر بلنت مع زوجته ثم عادا فى ٣١ مارس)

٣ ابريل

عيد الفصح . تعشيت مع المفتى وناقشنا الشئون الاسلامية وروى لى حكاية مسلية عن حادثة وقعت له اثناء منفاه فى دمشق (يقصد بيروت) فقد كان بلندن فى ذلك الوقت (١٨٨٣) قس (انجليزى) يدعى اسحق تيلور اعتنق فكرة اقامة اتحاد بين الكنيسة الانجليزية - بعد اصلاحها - والسلطة الدينية الاسلامية على أساس عقيدتهما المشتركة فى التوحيد . وقد شجعه على ذلك ميرزا باقر الايرانى (سكرتير بلنت سابقا) الذى حمل الفكرة الى سوريا وروج لها الى حد ما ، وحصل على عطف محمد عبده عليها وكتب عبده رسالة الى تيلر وقعها بامضائه مع اتنين من كبار علماء دمشق . وسر تيلور بالطبع . ونشر الرسالة فى الحال بصفتها تعبر عن الرأى العام لعلماء المسلمين فى دمشق ، ورتب عليها أن الاتحاد بين المسيحيين والمسلمين على وشك التحقق . وبلغ ذلك مسامع السلطان . ومع أن الرسالة المنشورة لم تحمل أى اسم لأحد من كتابها فقد تلقى السفير التركى فى لندن تلغرافا على الفور ، وأمر بالبحث عن أسماء الموقعين الخمسة . وقام تيلور دون ادراك للخطر باطلاع السفير على الاسماء فصدر أمر بنفى الخمسة جميعا من سوريا . ومع ذلك احتج عبده قبل مغادرته دمشق . واتيحت له فرصة مناقشة ماحدث مع السلطان ، ففهم أن سر انزعاج السلطان يرجع الى ظنه أن انجلترا اذا تحولت الى الاسلام فلابد أن يدخل العاهل الانجليزى الاسلام بناء على هذا ، وبذلك يصبح أقوى شخصية فى ديار الاسلام ، وتنتقل الخلافة على نحو طبيعى الى الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا فى ذلك الوقت) برغم أنف التعصب العثمانى للخلافة ذاتها .

١٠ . ابريل

غادرنا الشيخ عبيد الى انجلترا . وقد ودعت محمد عبده آمس . كان قد كتب رسالة الى تولستوى (الآديب والمصلح الروسى) ترجمتها آن الى الانجليزية . (نشرها بلنت فى ملاحق هذا الجزء الآخير من اليوميات) وصلت آخبار الاتفاق الانجليزى الفرنسى (المسمى "الاتفاق الودى") على مراكش (المغرب) ومصر . وكنت اتوقعه منذ زمن طويل . آما بالنسبة لمصر فالشروط آكثر اجحافا ، لآنها لم تمس الحالة السياسية . ولكنه سيكون يوما تعيسا على مراكش . وآما هنا فسوف يندفع الناس الى التخمين . وقد روى لى عبده تفاصيل مساحة الآلف فدان التى منحت امتيازا لكاسل (صديق ملك بريطانيا وشريك الخديو ومقرضه المال)

(فى ٧ يونيو تآكد بلنت وهو فى لندن من آخبار خلافة جورست لكرومر ، وكتب فى يومياته آنه آرسل الى محمد عبده خطابا حول الموضوع وضمنه آخبارا عن احتمال تغيير النظام فى مصر بعد تولى جورست . وفى ١١ نوفمبر عاد بلنت الى مصر ، ووصل داره فى ٢٨ نوفمبر وكتب :)

٢٨ نوفمبر

روى لى عبده خلاصة لكل ماحدث خلال الصيف . وكانت الحادثة الرئيسية هى مغامرة الشيخ على يوسف التى تورط فيها الخديو . فالخديو ، منذ زيارته الأولى للندن وتعرفه الى مليكنا ، قد مال الى حياة اللهو مع النساء السيئات السمعة ، وآحاط نفسه برفاق السوء . ودخل فى هؤلاء الشيخ على يوسف الذى كانت علاقته بالبلاط آدبية فى الأصل ، ولكنه اصبح سميرا وانضم الى بطانة السوء . ومع آنه لم يعد شابا فقد تصابى فى صحبة الخديو . وكان الآخير يجل من النساء ابنة الشيخ السادات التى منعها آبوها من الزواج بدافع الارتزاق من وراثها ، مع آنها الآن فى السابعة والعشرين وكان مركزه كشيخ (نقيب) لآشراف المسلمين يتيح له

فرض هدايا غالية على طالبى يدها الذين لا يلبث آن يرفضهم بعد ذلك . ولكن الفتاة ثارت على تآخر الاذن لها بالزواج . وعن طريق الشيخ البكرى الذى تزوج شقيقتها الكبرى تعرف اليها الخديو ، ثم رشحها زوجة لعلى يوسف . فتقدم الأخير طالبا يدها بمساندة عباس ، ولكن الموضوع انتهى باللعبة القديمة التى تبدآ بالهدايا وتنتهى بتآجيل الزواج . وسئم على يوسف الموقف فدبر مع البكرى أن تهرب الفتاة معه ، وهروب الفتيات الآن آمر لم يسمع به آحد فى الاسلام ، فضلا عن آنه يحمل طابع السرقة ، مثله مثل سرقة ابنة الرجال دون دفع المهر المعتاد .

وقد شاع آمر الفضيحة التى تسبب فيها على يوسف ، واتسع نطاقها فى كل مكان . ولم يخفف منها آن اللورد كرومر قرر فى النهاية وضع حد للنزاع فنصح الفتاة بالعودة الى آبويها . ويقول محمد عبده ان وضع الخديو فى القسطنطينية وضع من استخدمه السلطان للتجسس لحسابه على مايجرى فى مصر . ولذلك فقد شعبيته .

١٠ يناير ١٩٠٥

جلست آمس لمدة ساعة فى الحديقة مع المفتى . وكان بصحبته رجل يدعى محمد بك طلعت حرب ، فى غاية الذكاء يقوم بكتابة تاريخ العرب ابتداء من محمد (ﷺ) الى اليوم ... حاول الخديو فى الفترة الأخيرة آن يحسن علاقته بمحمد عبده .

٢١ يناير

ذهب محمد عبده الى السودان للنظر فى مختلف الأمور المتعلقة بمصالح المسلمين .

١٩ فبراير

عاد محمد عبده من الخرطوم سعيدا بما رآه هناك . ويقول ان الحكم يدار بطريقة أفضل مما فى مصر ، وإن الناس راضون ، ولاسيما فيما يتعلق بمسألة تجارة الرقيق ، وان التعليم معقول فى الكلية (كلية جوردون) ، وان قانون العقوبات السودانى أبسط وأفضل من نظيره المصرى . ويرى أن حكم ونجت (الجنرال السير ريجنالد ونجت حاكم السودان) يتميز بالاعتدال . وهناك مشاعر طيبة بين الانجليز والسودانيين .

(كان بلنت قد مرض بالحمى فى ديسمبر ١٩٠٤ ، واشتدت عليه فترة طويلة . ولم يجد مفرا فى النهاية من العودة الى انجلترا)

١٧ مارس

غادرت الشيخ عبيد فى الصباح . ويبدو لى أن هذه المغادرة ستكون الى الأبد . إن المكان عزيز على نفسى جدا بشمسه الساطعة دائما وحيواناته المفترسة وطيوره . ياويلى ! من سيرعى هذا كله حين أذهب ؟ لقد جاء عبده لتوديعى . بمحطة القاهرة . وظللنا نتحدث حتى آخر دقيقة ، وكل منا يودع صاحبه وداعا حزينا [وحين افترقنا لم يخطر لى على الاطلاق أنى سأراه مرة أخرى . ولكنى لم أمت ، وانما مات هو خلال السنة]

(لقد جاء بلنت الى لندن للعلاج من الحمى وآلامها المبرحة . ومات صديقه وهو يكاد يكون غائبا عن وعيه بسبب الحمى المتجددة . بل انه انقطع عن تسجيل يومياته حتى ٢٨ يوليو ، أى بعد أيام من وفاة صاحبه فى الاسكندرية بعد مرض لم يمهله طويلا . وحين وصل خبر الوفاة الى صاحبه بلنت نهض الى يومياته وكتب :)

٢٨ يوليو

ان الخطب العظيم الذى يعلو على سواه هو أن محمد عبده مات ! انها خسارة شخصية فظيعة بالنسبة لى ، وخسارة عامة لا يمكن حصرها البتة بالنسية للعالم الاسلامى . ولا نستطيع أن نغالب الخوف من أن يكون فى الأمر شيء . فالوفاة كانت مفاجئة للغاية ، والمفتى كان له أعداء سياسيون كثيرون .

(لبث بلنت ، بعد ذلك ، يسأل كل من لاقاه فى انجلترا من المصريين عن سر وفاة صديقه ، وماذا كان قد أهمل علاجه أو دس له السم . وحين انتهى ذلك العام كتب ينعى صديقه ويشكو الزمن مرة أخرى :)

٣١ ديسمبر ١٩٠٥

حين انظر الى العام الماضى أراه يتجسد لى عاما فظيعا . ولكنه جاءنى بكثير من ألوان التعزية . فخلال الاسابيع الستة الأخيرة قابلت فى لندن عددا من الاصدقاء أكبر من عدد الذين قابلتهم فى السنوات الست الماضية . لقد توقفت عن ازعاج نفسى بالشئون العامة . ولن أعود مرة أخرى الى مصر ، بعد أن مات المفتى ، بل لا أظن أننى سأعبر القنال (الانجليزى)

(ثم ابدى بلنت رغبته فى قضاء ماتبقى من عمره ـ بعد شفائه ـ فى انجلترا بين زوجته واصدقائه وابنته الوحيدة وحفيديه . ولم يعد الى مصر بعدها ولم يعبر القنال الانجليزى أيضا . ولكنه ظل على اتصال بأحوال مصر من خلال زعماء الحركة الوطنية وأنصارها الذين كانوا يترددون على لندن ، ويزورنه فى بيته ، مثل مصطفى كامل ومحمد فريد وطلاب الجامعات الانجليزية الوطنيين مثل عبد السلام جمعة وأحمد عبد الغفار ، وسواهما ممن كانوا يدرسون فى

لندن وأوكسفورد . ومالبث آن باع بيته وحديقته فى مصر (الشيخ عبيد) وعاش حياة هادئة حتى توفى عن ٨٢ عاما سنة ١٩٢٢)

★ ★ ★

ونستطيع ـ بعد هذا كله ـ آن نستخلص من كتابات بلنت ويومياته صورة لما كان عليه محمد عبده فى شبابه وكهولته وشيخوخته . فهو فى مرحلة الثورة العرابية مثقف وطنى مستنير حريص على الاصلاح والدستور والحكم النيابى . وهو فى مرحلة المنفى بالشام وأوربا مجاهد وطنى بالكلمة والموقف معاد للاحتلال الانجليزى والاستبداد المحلى . وهو فى مرحلة العودة رجل واقعى معتدل الفكر والرأى لم يفقد حماسه للحكم النيابى بالرغم من فكرته عن « المستبد العادل » التى كانت تحوم فى ذهنه وكتاباته من حين لآخر .

ويلى ذلك بعد شخصى للصورة التى كان عليها ، ويتمثل هذا البعد فى وفائه الواضح لأصدقائه وقدرته على مغفرة آخطائهن ، فهو وفى لمصطفى رياض رئيس الوزراء حتى مع استبداده ، يلتمس له الاعذار ويدافع عنه ، بالرغم من نقده له آحيانا . ولكن هذه المرحلة فى حياته ربما آبرزت بعدا آخر شخصيا فى صورته ويتمثل فى ميله الى اتقاء الشرور وتجنب العواصف واحتماله دسائس الخديو .

ومن الواضح أن هذه الكتابات واليوميات قد آلقت الكثير من الآضواء على هذه الجوانب الموضوعية والشخصية فى صورة محمد عبده ، كما آلقت آضواء كثيرة آيضا على عصره ورجاله ، مثل عرابى وعباس وكرومر واسماعيل صديق ومدحت باشا التركى زعيم حركة الدستوريين وطلعت حرب وحافظ ابراهيم ومحمد رشيد رضا وعلى يوسف ، وغيرهم من الاسماء فى ذلك العصر . وفيها بعد هذا كله آضواء على تاريخنا الحديث وتاريخ محمد عبده نفسه الذى لم يكتب حتى الآن بشكل علمى موثق .

ملاحـــق

(الملاحق التالية تشكل بعض المراسلات التى جرت بين بلنت والافغانى ومحمد عبده ، وقد نقلناها عن كتاب « جوردون فى الخرطوم » لبلنت)

من محمد عبده الى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للنص العربى)

(القاهرة) فى ٢٥ ابريل ١٨٨٢

... أما ما يتعلق بترقية الضباط التى تضخمها الصحف الأوربية كثيرا فاسمحوا لى أن أجلو الحقائق .

أولا ـ لم تتم الترقيات بارادة عرابى ورضاه ، ولا جاءت على سبيل الرشوة لكسب عواطف الضباط نحو عرابى ، وانما تمت بمقتضى القانون العسكرى الجديد الذى يقضى بإحالة الضباط الى التقاعد لقاء معاش عند بلوغهم سنا معينة أو فى حالة مرضهم أو انعدام كفاءتهم أو عجزهم . وقد بدأ تطبيق هذا القانون العسكرى فى عهد شريف باشا . وبناء عليه ضمت قائمة الاستيداع ٥٥٨ ضابطا . وتم إرسال ٩٦ ضابطا منذ عام إلى حدود الحبشة وزيلع وغيرها فى حين تم نقل ١٠٠ ضابط من الخدمة الى الوظائف المدنية . وبذا بلغ عدد المحالين الى التقاعد ٧٥٤ ضابطا . وهكذا كان من الطبيعى اجراء الترقيات لشغل الوظائف الشاغرة . ومازالت هناك خمسون وظيفة شاغرة مخصصة لطلاب المدرسة الحربية .

ولم يفرض السلطان رتبة الباشا على عرابى ، وانما فرضها عليه الخديو الذى أصر على أن يكون جميع وزرائه من الحائزين على الرتبة .

أريد الآن أن أزيل من الأذهان الفكرة الخاطئة التى تزعم أن عرابى ، أو الحزب العسكرى ، أو الحزب الوطنى ، أدوات فى أيدى

الاتراك . فان كل مصرى ، عالما أو فلاحا ، حرفيا أو تاجرا ، جنديا أو مدنيا ، سياسيا أو غير سياسى ، انما يكره الأتراك ويمقت ذكراهم غير العطرة . ولا يوجد مصرى يخطر له أن ينزل بأرضه تركى دون أن يشعر بنبض يدفعه نحو سيفه ليخرج به الدخيل .

إن الأتراك مستبدون ، خلفوا بمصر كوارث مازالت تدمى قلوبنا . ونحن لا نستطيع أن نتمنى عودتهم أو نتمنى أن تكون لنا بهم صلة . وما استقر الأتراك بمصر الا عن طريق الفرمانات . ولابد من ايقافهم عند هذا الحد فلا يتخطوه . ولكن اذا علمنا أنهم يحاولون تخطى حدودهم فلن نواجههم بالرفض التام . وقد مر بنا شيء من ذلك وأدى الى أن نستعد له . وسوف نستغل أى محاولة من هذا النوع فى الحصول على استقلالنا التام . وان سياسيينا الأذكياء ليرقبون الآن كل حركة تقوم بها السياسة التركية فى هذا البلد حتى لا تتجاوز حدودها . ولا أنكر أن فى مصر أتراكا وشراكسة يناصرون قضية الباب العالى ، ولكنهم قلة قليلة لا تقاس بأولئك الذين يحبون بلادهم .

وأما مايتعلق بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى فهى لا تشكل فى الحقيقة خطرا جسيما . فالخديو السابق اسماعيل ـ اكبر عدو شهدته مصر يغار من سعادتها ـ لم يكف منذ وقت طويل عن تدبير المؤامرة للاطاحة بحكومتنا الحالية ، معتقدا أنه يستطيع بعمله هذا العودة الى مصر . ولكن الله القادر على كل شيء بدد آماله أدراج الرياح فكل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر . ومع ذلك أرسل الفرعون ، لتحقيق أمله ، واحدا من اتباعه ، هو راتب باشا الذى أبعد عن البلاد ثم نجح فى دخولها بوسائل خسيسة فى عهد حكومة شريف باشا ، وانضم الى أخيه محمود أفندى طلعت البكباشى ، ثم ضم الى خدمته بعد ذلك يوسف بك نجاتى ومحمود بك فؤاد ابن اخت خسرو باشا وعثمان باشا رفقى (كلهم شراكسة) وعمل هؤلاء على تجنيد الناس لخطتهم التى استهدفت القضاء على وزرائنا الحاليين ، وقتل كبار

الضباط ابتداء من عرابى باشا . ونجحت جهودكم فى ضم نحو اربعين من صغار الضباط قاموا بالقسم على تحالفهم . ولكنهم أجلوا تنفيذ الخطة مبدئيا انتظاراً لمسوغ . ثم وجدوا هذا المسوغ ممثلا فى سخط تسعة من الضباط الشراكسة عارضوا صدور الأمر اليهم بالخدمة فى السودان . واصبح حزب راتب باشا مدركا لما كان يدور بينهم فاستغل الموقف كى يوحى للشراكسة التسعة بأن يرفضوا الذهاب الا بشرط الترقية .

وقد كان لدى الوزارة ، منذ فترة طويلة ، شك فى سوء التدبير الدائر . فمنذ فترة فى بداية عودة راتب الى البلاد طلب محمود سامى ـ رئيس الوزراء الحالى ووزير الحربية وقتها ـ من شريف باشا ـ فى حضور الخديو ـ أن يبعد راتب . وكان السبب فى ذلك انه شك فى أمر راتب وتخليه عن الخديو السابق فى نابولى على هذا النحو المفاجىء . ولكن شريف رفض الطلب مع أن محمود سامى حذره بأنه سيكون مسئولا عما يمكن أن يقع يوما ما من جراء بقاء راتب . وسر ذلك الرفض أن راتب صهر شريف ، وربما كان ـ كما يعتقد الناس ـ شريكه فى التخطيط لعودة اسماعيل .

لقد حدث على أى حال أن دعا حزب راتب أحد الضباط الشراكسة ، ويدعى راشد افندى انور ، الى الانضمام اليهم فرفض الضابط أن يكون له شأن بخطتهم ، ثم تركهم وجاء على الفور الى عرابى وافضى اليه بالخطة . ومن ثمة صدر الأمر بالقبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة امام محكمة عسكرية .

ولم تؤد الحادثة الى اثارة كبيرة بين الناس . فالجميع يعرفون أن حياة عرابى ، وحياة الآخرين ، معرضة للأخطار كل يوم . وليس من الممكن لأى مخلوق ، مهما بلغ شأنه ، أن يجد التأييد من الجميع . ولكننا سنضحك لو قيل على الملأ أن انجلترا على وشك الفوضى لأن مجنونا ، عسكريا أو مدنيا ، حاول اطلاق الرصاص على مليكتكم .

إن مجموع الشراكسة فى الجيش كله ٨١ شخصا . ولا يمكن

لعاقل أن يتصور أن عددا صغيرا كهذا قادر على قلب الحكومة .

أما مسألة تجارة الرقيق فان الوزارة الراهنة تبذل جهدها للقضاء على الرق المحلى . وليس فى الدين الاسلامى مايتعارض مع هذا على الاطلاق . بل ان المسلمين طبقا للسنة المحمدية محرم عليهم أن يتملكوا العبيد الا اذا وقعوا اسرى حرب مع الكفار . وهؤلاء فى الحقيقة اما ان يكونوا اسرى او سجناء حرب مشروعة ، أو يمتون للكفار الذين يعادون أمراء المسلمين ولا تحميهم عهود ولا مواثيق . ولكن لا يباح للمسلم أن يسترق غيره . وهكذا فان الدين الاسلامى لا يعارض القضاء على الرق كما هو كائن فى العصر الحديث فحسب ، وانما يدين استمراره اصلا . واما اولئك السادة العلماء في انجلترا وغيرها ممن يؤمنون بغير هذا الرأى فيجب أن يأتوا الينا وان يعلمونا ، نحن شيوخ الأزهر ، اصول ديننا ، وسيكون هذا مشهدا يأخذ الألباب فعند ذاك سيخرس العالم الاسلامى كله عندما يعرف أن مسيحيا تولى عنه تدريس اصول الدين الاسلامى وتفسير القرآن لعلماء اكبر جامعة اسلامية فى العالم واساتذتها وفقهائها .

وبعد أيام قلائل سوف يصدر شيخ الاسلام فتوى تثبت أن القضاء على الرق مطابق لروح القرآن والتقاليد الاسلامية والسنة المحمدية ..

وستحاول الحكومة المصرية أن تزيل كل عقبة فى الطريق . ولن يهدأ لها بال الا بعد زوال الرق من الأراضى المصرية .

محمد عبده

---

(١) جاءت هذه الرسالة في الجزء الأول من الأعمال الكاملة لمحمد عبده التي حققها الدكتور محمد عمارة (المؤسسة المصرية الحديثة ، بيروت ١٩٧٢) ولكنها جاءت بصورة غير دقيقة . راجع ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

من محمد عبده الى الليدى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

بيروت فى ١٣ رمضان ١٣٠٠ (ذكر بلنت أنه تسلم الخطاب فى ٥ آغسطس ١٨٨٣) الى السيدة آن بلنت ، متعنا الله بمحياها ، الخ .

أما بعد ، فمن بين أولئك الذين لديهم معلومات عن الشغب فى الاسكندرية يوجد مصطفى عبد الرحيم الذى حضر الشغب ومنع تفاقمه بالجنود النظاميين التابعين لسليمان سامى (عليه رحمة الله) وهو مستعد للادلاء بشهادته اذا طلب منه ذلك . وقد آبلغنى بهذا الليلة .

وأما أولئك الذين لديهم معلومات كاملة عن مسلك الخديو توفيق ومساعيه ، هو وأعوانه ، لتكدير الهدوء والسكينة فى مصر ، واثارة المسلمين على المسيحيين والمسيحيين على المسلمين ، فيوجد منهم هنا احمد بك المنشاوى ، آحد أعيان مصر . وهو رجل ثرى ذو عزم واستقامة لا مزيد عليها . وكان قد قام بحماية المسيحيين اثناء حوادث الشغب فى طنطا وكذلك فى المذابح الأخرى التى جرت فى مديرية الغربية فى عهد مديرها ابراهيم باشا أدهم صنيعة الخديو الذى عين عقب ضرب الاسكندرية . والرجل (المنشاوى) على استعداد للادلاء بالشهادة ضد الخديو وعملائه امام اى قضاء أو أى محكمة ـ حتى فى مصر ـ ولا يخشى فى ذلك أى شىء ولا يهدده أى خطر . وقد كان فى نيته أن يكتب باختياره خطابا الى المستر بلنت ليعبر له عن استعداده ورغبته الحارة فى وضع مايعرفه من أمور امام الانجليز وكل ذى ميل الى العدالة والمساواة . وهو مقيم معنا الآن فى بيروت . واذا شئتم استدعاءه فلن يتأخر .

أرجو ابلاغ تحياتى الى المستر بلنت ونقل جزيل الشكر اليه على همته واعماله الجليلة باسمى وباسم كل مصرى ـ وكل انجليزى ايضا . كما ارجو ابلاغ تحيتى الى السيد صابونجى شملك الله برعايته .

محمد عبده

من بلنت الى محمد عبده
عن الاصل الانجليزى

لندن فى ابريل ١٨٨٤

الى صديقى العزيز النبيل العالم محمد عبده ، شهيد الحرية ، أدام الله علمه .

أسعدنى كثيرا خطابك ، الذى فرغت حرمنا الآن من ترجمته لى كاملا ، فيما عدا ماذكرته من أنك لا تستطيع الحضور بعد الى انجلترا ، ولكنى أرسل لك مع هذا ماتحتاجه فى رحلتك من مال راجيا أن تفيدنى بوصوله . وقد كتبت منذ أربعة أيام الى السيد صنوع ورويت له شيئا عن حالة الرأى هنا . ثم كتبت بعدها رسالة ستنشر فى صحيفة « التايمز » غدا أو يوم الأربعاء . واقترحت فيها حلا للمصاعب والعقبات الراهنة فى مصر . وأرجو أن يتفق ذلك مع رأيك ، لأنى اقترح فيها أن تعرض المسألة المصرية على مؤتمر أوربى ، وأن ينسحب الجيش الانجليزى من البلاد ، وأن توضع مصر تحت الحماية المشتركة من جانب الدول الكبرى ، وبذلك تحكم نفسها وفق ارادتها .

وأقترح أيضا أن يعقد الصلح مع المهدى ، وأن يستدعى الجنرال جوردون من الخرطوم ـ ولم أنس أن أوصى بالغاء مراسيم النفى للوطنيين المصريين . أما فيما يتعلق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف آرائى حولها لأنها نشرت بالكتاب الذى ألفته منذ ثلاث سنوات وأقمته على توجيهاتك وآرائك المفيدة التى نقلها الى صديقنا العزيز محمد خليل [1] (سلمه الله) وأما فيما

---

(١) تلميذ محمد عبده فى مصر الذى كان اول من علم بلنت العربية وقد عرفه ـ قبل ان يعرف محمد عبده ـ عن طريق احد موظفى الحكومة المصرية من الانجليز .. وروى عنه بعد ذلك انه مات بالكوليرا سنة ١٨٨٣.

يتعلق بمسلمى الهند فهذه هى آرائى التى أرجو أن تنقلها ال
الأمير النبيل السيد جمال الدين (الذى أبعث اليه أيضا بتحيات
حتى يطلع عليها وينقلها الى النواب رسول يار خان وعلماء حيدر
أباد الذين أحطتهم علما بأفكارى ، حين تحدثت بصراحة الى جميع
مسلمى الهند الذين قابلتهم ، وعلى ذلك فها هى آرائى المتعلقة
بالهند .

بناء على المبادىء التى أعتنقها فى شئون السياسة فانى أرجو
أن تتأسس الحرية والحكم الذاتى فى كل مكان ، فى الهند وغيرها
من أقطار العالم الواقعة الآن فى ظل التبعية . وليست حقيقة أننى
ولدت انجليزيا تجعلنى متعصبا لا أرجو تحقيق مزية أخرى للهنود
ولست أتردد فى الموافقة على أى خطة حكيمة من شأنها أن تسرع
بتحقيق حريتهم . وقد اقنعتنى رحلتى الى الهند ، فى الوقت
نفسه ، بأن شعب ذلك البلد ليس متحدا بعد على نحو يمكنه من
تكوين أمة مستقلة لا تحميها قوة خارجية ما . ولو كان جميع الهنود
على مذهب واحد ولغة واحدة وجنس واحد كما هى الحال فى
مصر ، لقلت لهم مثلما قلت لكم : باسم الله تقدموا ولا تخشوا
شيئا . ولكن حالهم ليست هكذا . فإنى أرى أنهم قد يحررون
أنفسهم من السيطرة الانجليزية التى يمقتونها ، ولكنهم ليسوا على
استعداد بعد أن يحلوا محل السيطرة شيئا ينفعهم . وأرى أن
عليهم التعلم والتأهل للحكم الذاتى ، والا ضاع جهدهم أدراج
الرياح . ولهذا السبب قلت لهم ، وأقولها مرة أخرى ، أن اصبروا
بضع سنوات ، وخططوا لتربيتكم السياسية فى ظل حكومة تسمح
لكم بامتياز التربية هذا . وبعدها ستأتى اللحظة التى تقدرون فيها
على الاتحاد وتكوين الأمة .

إنى أقول هذا للمسلمين بخاصة ، لأنهم ليسوا الا واحداً الى
خمسة من سكان الهند . وهم الآن أقل من الهندوس والبرسيس فى
التعليم . ومن ثمة يمكن أن تسوء حالهم فى ظل الحكم الوطنى اكثر

ما تسوء فى ظل الحكم الانجليزى . وعندما اقترحت عليهم تأسيس جامعة كنت أرجو أولا أن أتيح لهم مركزاً للوحدة من شأنه أن يضيف الى قوتهم ، لأن القوة فى الاتحاد ـ وكنت أرجو ثانيا أن أعدهم للعب الدور الكامل فى احياء بلدهم . ولكنهم اليوم بابتعادهم عن الشئون العامة والبقاء على جعلهم بالانجليزية ، التى هى اللغة الرسمية ، انما يضعون أنفسهم فى وضع أدنى وأضعف ازاء أجناس الهند وأديانها الأخرى . ولذلك أرجو أن يقوم السيد العالم (الأفغانى) بتشجيع جماعة حيدر أباد ـ حين يكتب اليهم ـ على التقدم فى طريق هذا العمل الجليل وعدم ادخار الجهد فى الاتجاه الذى أوضحته .

أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدنى أن أبذل كل مابوسعى لمعاونتكم . ولكنى أنصحكم بكل قواى أن تلزموا الاعتدال فى لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانجليزية ـ لا بمعنى أن أى شىء تقولونه حول تصرفاتها فى مصر يمكن أن يتجاوز غضبى ونفاد صبرى ـ وانما لأنى أرى فى صداقة انجلترا خير أمل للاسلام . وصدقنى أنه بالرغم من سلوك انجلترا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فمازال بين الانجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق أكثر مما نجد بين بقية الأوربيين أجمعين . فليس من الممكن أن تثق فى أن يعاملك الفرنسيون أو الروس أو النمسويون أو الايطاليون باخلاص كأصدقاء ـ ولأن الانجليز أقوى فى البحر من جميع الآخرين فلابد من التعويل عليهم دائما ، وضمان صداقتهم قدر الامكان . وهذا أمر لم يتحقق بعد . ويؤسفنى أن أرى فى يوم من الأيام شرخا لا يلتئم بين حزب الاصلاح فى الاسلام وبين الشعب الانجليزى ، ففكروا فى هذا الأمر مليا . وقد كانت انجلترا صديق الاسلام طوال قرون ، وانى لأجد بين الانجليز الآن جد كثيرين ممن يأسفون على تغير هذه السياسة ويدينون أى تغير فيها .

وها أنت ترى أننى تحدثت بصراحة وسجلت كل مافى قلبى .

صديقك فى السراء والضراء

ويلفرد سكاون بلنت

من محمد عبده الى بلنت

(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

باريس فى ١١ ابريل ١٨٨٤

الى صاحب السعادة صديقى العزيز ، صديق المسلمين ومعين العرب ، والمدافع عن الأمة المصرية ، الخ .

بعد التحيات اليك والى المهذبة الفاضلة الليدى آن بلنت - وصلتنا رسالتك بالأمس ، ولما قرأناها وجدناها مفعمة بالحكمة والنصائح النافعة للمسلمين ، وأكدت ثقتنا فيك كصديق لهم .

يقدم لك التحية السيد جمال الدين . وسوف يكتب ، على وجه اليقين ، الى أهل الهند فى حيدر أباد وغيرها ، وينصحهم بالتزام الهدوء ، ويسكن ألبابهم على نحو ما اقترحت ، ويبسط لهم الفكرة التى صغتها بوضوح فى رسالتك ، ويضع أمامهم التفاصيل بأفضل اسلوب وابسطه .

وأما بعد ، فقد اغتبطنا للنصيحة التى تكرمت بها علينا ووعدك بمساعدة صحيفتنا (العروة الوثقى) وقد كان هذا املنا فيك . ومامن شك فى أن الله عز وجل قد خلقك لفعل الخير ومساعدة قضية الحق والدفاع عن المظلومين . وهذا هو الوجه الحقيقى لصحيفتنا ، فضلا عن خدمة تلك الأفكار التى تشقى من أجلها ، أعنى الحفاظ على استقلال الأمم الشرقية ونصح الحكومة الانجليزية حتى تتخلى عن مسلكها الذى يشقى عقول المسلمين ، وتسرع بمد يد الصداقة اليهم ، وبذلك تضمن وقوفهم فى صفها . ونحن فى الحقيقة لا نحب تلك الدول الكبرى الأخرى التى أشرت اليها فى رسالتك ، ولا نحن نسير فى ركاب سياسة أى منها .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

صديقك المخلص

محمد عبده

من جمال الدين الى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

باريس فى ١٢ مايو ١٨٨٥

بعد التحيات ، الخ .

أعرفك بأني لست وحدى الشاكر لجهودك المرموقة التى أجبرت الحكومة (الانجليزية) على اجلاء قواتها عن السودان . بل أؤكد لك أن جميع المسلمين ، ولا سيما العرب ، سيشكرونك على صنيعك هذا أبد الدهر ، وسينقشون اسمك على لوحات مرصعة بالأحجار الكريمة وألقاب المجد والشرف لقاء حماسك وشجاعتك .

غير ان ثمة شيئا واحدا مازال عليك أن تصنعه ، وهو أن تقول للحكومة : كيف تتركون هذا البلد (السودان) هكذا دون معاهدة مع المهدى ، وعلى من ستقع تبعة صد هجمات المهدى ؟ كيف يمكن للحكومة أيضا أن تدع طرق التجارة مغلقة ؟ أم هى تريد القضاء على التجارة ؟ أليس من الواجب على الحكومة حين تقرر الجلاء عن السودان أن ترسل رجلا مسلما موثوقا فيه الى المهدى حتى يتباحث معه فى أمر التوصل الى صلح يحمى مصر من هجماته ويغلق أبواب النزاع ويعيد فتح ابواب التجارة .

أعتقد أن هذه المسألة لو عرضت على البرلمان لاجتمع الرأى بالموافقة عليها .

وأرى أيضا أن هذا أمر ميسور ، حتى بغض النظر عما تقوم به . فحين ينتهى حساب المسألة لن يحتاج منكم الا إكمالها . ولكن لا يمكن الوصول الى خاتمة نهائية للموقف كله بدون معاهدة صلح مع المهدى .

هذا مارأيت من الضرورى أن أنقله اليك .

مع تحياتى اليك والى حرمك

صديقك

جمال الدين الحسينى الأفغانى

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب : ٧٦٤٧ ـ ١٩٨٥
الترقيم الدولى :ISBN٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٢٠٣ ـX

روايات الهـــلال تقدم

الريــــح

الرواية الفائزة بجائزة نوبل هذا العام

تأليف : كلود سيمون

ترجمة : الدكتورة زينب عبدالعزيز

تصدر ١٥ يناير ١٩٨٦

كتاب الهلال القادم

رحلاتى حــول العالم

بقلم : الدكتورة نوال السعداوى

يصدر ٥ فبراير سنة ١٩٨٦

الهلال

مع الباعة

تقرأ فيه :

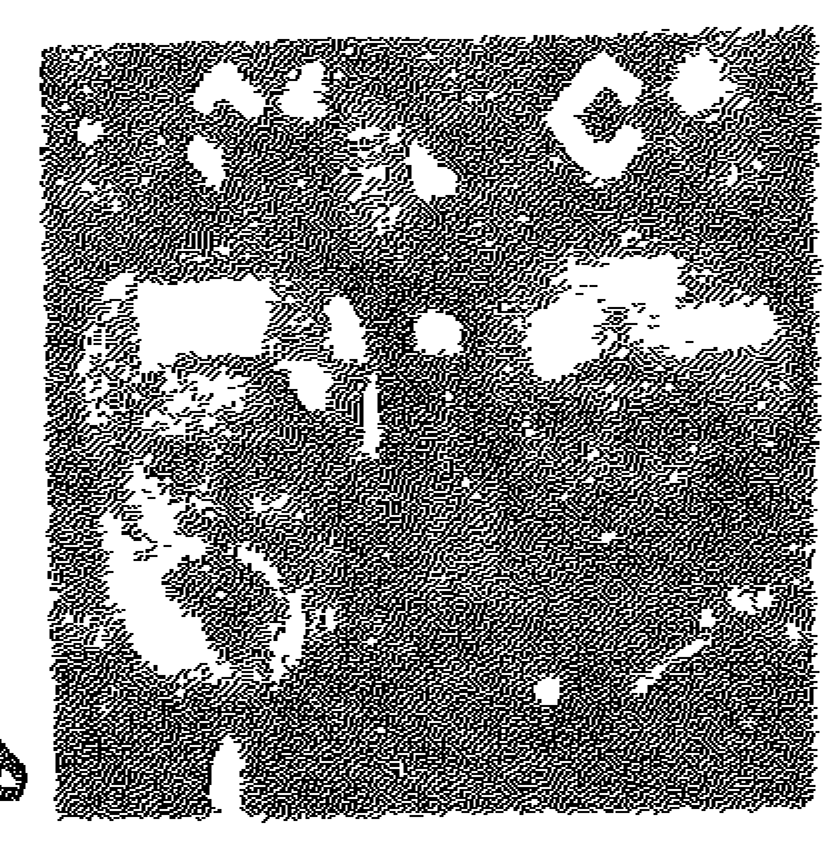
- رحلة العائلة المقدسة إلى مصر : البابا شنودة الثالث .
- مظاهر الاستمرارية فى الفن المصرى عبر التاريخ : د . صبرى منصور .
- ندوة الهلال الشعرية : يشارك فيها سبعة شعراء .
- هل مات الشعر فى مصر ؟ : د . سيد ابراهيم
- الزيدية وظلها على التاريخ والجغرافيا : فهمى هويدى
- د . جمال حمدان العاشق العظيم لمصر · محمد أمين العالم
- الدولة العثمانية دولة مفترى عليها · فتحى رضوان
- كتاب جديد قديم . «ما هنالك» .
  كيف تتداعى وتنهار الدول : مصطفى نبيل
- سياسات عملية السلام العربى الاسرائيلى : تحسين بشير
- مهرجان السينما الحائر بين الفوضى والاستقرار : مصطفى درويش
- أدباء تصرعهم المخدرات · د . محمد رجب البيومى
- العقاد . بين الكفر والايمان : محمد سيد الكيلانى
- محنة الاقتصاد والاقتصاديين فى مصر : د . حازم الببلاوى .
- مع القصة والشعر والأبواب الثابتة

رئيس مجلس الادارة : مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير : مصطفى نبيل

الثمن ٥٠ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤



هــذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب جوانب ووقائع هامة فى حياة كل من جمال الدين الأفغانى والاستاذ محمد عبده ، وهى جوانب لم تظهر تفاصيلها بالعربية من قبل .

سجلها الكاتب الانجليزى ويلفرد بلنت فى أربعة من مؤلفاته الضخمة ، ومع أن كتابه عن إحتلال الانجليز لمصر قد ترجم الى اللغة العربية ونال إهتماما كبيراً ، إلا أن كتبه الأخرى لم تلق العناية الكافية ، ولعل ذلك لأنها مليئة بأحداث وشخصيات أخرى انجليزية وهندية ..

وهذا الجزء من تاريخ الأفغانى وعبده بالغ الأهمية ، لايمكن كتابة تاريخهما وفهم حياتهما ونضالهما دون الرجوع الى هذه المادة التى تناثرت فى كتب بلنت .

وبلنت كان من أوائل البريطانيين الذي ناصروا الحركة الوطنية في مصر والشرق ، وعرف رجالها معرفة شخصية ، وكان بيته مزاراً لكثير من الشخصيات التى ارتبطت بهذه الحركة ، فعلاوة على الأفغانى وعبده ، كان يتردد عليه الزعيم أحمد عرابى والبارودى وعبدالله النديم وغيرهم .

وهو فى هذا الجزء أقرب الى المؤرخين العرب القدماء فى تسجيله للتاريخ . فهو يعتمد على اليوميات يسجلها أولاً بأول .

كتاب الهلال

رحلاتى حول العالم

الدكتورة نوال السعداوى



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٢ - جمادي الأولى ١٤٠٦ - فبراير ١٩٨٦

No· 422 — FEBRUARY 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

رحلاتى حول العالم

●

بقلم :
الدكتورة نوال السعداوى

●

دار الهلال

الاهــــداء

الى كل من سافر وعرف الغربة بعيدا عن الوطن

والى كل من عــــاش الغـــربة فى الوطــــن

أول رحلة خارج الوطن

منذ الطفولة كان الوطن فى عينى هو الحب . صدر أمى الدافىء ورائحة اللبن . يد أبى فى الليل البارد تغطينى . صوت جدتى فى ليالى الصيف تحكى قصة الغولة وجنية السحر . رائحة الخبز والتين الشوكى . والزلعة على راس ابنة عمتى فاطمة ممتلئة حتى الحافة بماء النيل . وأمواج البحر فى الاسكندرية . وهدير الطلبة فى الشوارع يهتفون : يسقط الملك .

وفى شبابى أصبح الوطن هو الثورة . والثورة هى الحب . ولان الحب كان محرما فقد أصبحت الثورة محرمة ايضا تقودنى الى السجن لا الى الحرية .

وكان حلم حياتى هو الطيران والفرار من السجن . وفى طفولتى كان هنـــاك حلم يتكرر . ان ابى مات واصبحت أخرج بدون اذن . وفى شبابى حلم آخر مشابه . ان زوجى مات واصبحت كاملة الاهلية .

كان أبى أكبر حب فى حياتى . ومع ذلك كنت أحسد الاطفال اليتامى بغير آباء . وأول ثورة فى حياتى كانت ضد أبى . أراد أن يزوجنى رجلا لا أحبه . وكنت بخيال مزاهقة اعيش أحلام اليقظة . وأحب فى الخيال بطلا يمتطى السلاح ويضرب الاعداء ويحرر الوطن .. ثم يضمنى بين ذراعيه ويقبلنى وافقد الوعى .. وانسى

ابى وامى واخوتى وجدتى كل آلامى .
لكنه ضمني وقبلنى فلم افقد الوعى ، ولم أنس شيئا حتى حكايات جدتى عن الغولة والجان والعفاريت لم انسها واكتشفت أول حقيقة فى حياتى . أن الحب الاول وهم والبطولة خيال ، والوطن لم يتحرر .
فى منتصف الليل نهضت من السرير بحذر . كان صوت الشخير عاليا والفم مفتوح ، وفوق الشفة العليا شارب أسود كثيف . تسللت على اطراف أصابعى وفتحت الباب وخرجت . كنت أمشى بخطوات سريعة تشبه الجرى . ولم يكن لى الا هدف واحد . أن تلتف من حولى ذراعى أمى . لكنى توقفت فجأة . تذكرت ان امى ماتت . وانها لم تعانقنى فى حياتى مرة واحدة . وابى أيضا مات دون أن يعانقنى أبدا . لا أنا ، ولا اى احد من اخوتى واخواتى .
كنت اغيب عاما دراسيا كاملا فى المدرسة الداخلية ثم أعود فلا يعانقنى أحد أو يقبلنى . لم تكن القبلات فى بيتنا تعنى الحب . كان الحب مجرد احساس عميق مدفون فى الاعماق . لا كلمات ولا عناق ولا قبلات . حب صامت فاقد النطق والحركة الا فى الخيال .
وكانت مأساة حياتى . فالحقيقة دائما أقل من الخيال . وأصبحت حياتى سعيا متصلا لتحقيق الخيال والحلم ، ماذا كان حلم حياتى ؟
كنت ارانى فوق جواد أبيض يطير فى الجو ، وفى يدى سيف اضرب به الاعداء واحرر الوطن . لقد ولدت فى بلد يحكمها الاجانب . وتشهق جدتى حين أحكى لها الحلم :
هذه ليست احلام البنات .

ـ وماذا تحلم البنات ياجدتي ؟
ـ يحلمن بالعريس وفستان الزفاف .

لكني لم أحلم أبدا بالعريس أو فستان الزفاف . رغم ان جدتي اشترت لي فستان الزفاف قبل مجيء العريس بعشرة أعوام . وفي كل عيد يشتري أبي لي فستانا جديدا ويشتري لاخي مسدسا وطائرة صغيرة لها زمبلك يلفه عدة مرات فاذا بالطائرة تتحرك .

وفي الصندوق الاصفر من الكرتون رايت هديتي . فستان حريري أبيض له كرانيش على الصدر ودانتيلا على الامام وصحت بغضب : أريد طائرة ومسدس مثل اخي .

وقالت امي : ستكونين جميلة في الفستان الجديد .
وهتفت : لا أحب الفساتين .
وصاحت جدتي : هذه البنت كان لابد أن تكون ذكرا .

رغم جدتي كنت أتطلع نحو السماء بعيني طفلة في العاشرة . هل سياتي يوم أركب فيه طائرة ؟ هل يمكن ان اطير في الجو كعصفور بعيدا عن هذا السجن الذي ولدت فيه ؟

في الحلم كنت اطير بغير طائرة . يرتفع جسمي في الجو ، واحلق فوق أسطح البيوت وقمم الاشجار والبحار ثم فجأة يهوى جسدى الى الارض ويغوص في جوف البحر .

وتقول جدتي : الطيران في الحلم نجاح وسوف تتزوجين من أمير او ابن ملك .
وأصيح في وجهها : انا اكره الملك واكره الزواج .
وتشوح بيدها في غضب : مجنونة مثل أمك .

وكانت أمي تكره الملك فاروق ، لكن جدتي لم تكره الا الانجليز وتغني مع الراديو :

ملك البلاد يا زين يافاروق يانور العين .

***

لازلت اسمع صوت حذائي الاسود الجديد يدب على أرض المطار كأنه بالامس . مر عشرون عاما منذ وقعت عيناى لاول مرة على طائرة فوق الارض . رايتها اضخم مما تصورت ، وكنت اراها في الجو صغيرة ، بحجم طائرة اخي ذات الزمبلك .

وقفت في الصف ومن امامي وخلفي أعداد من النساء والرجال الاجانب . في أيديهم حقائب جلدية ثمينة ، وعلى سواعدهم معاطف صوفية . رءوسهم مرفوعة وظهورهم عضلاتها مشدودة ، وقامتهم طويلة .

رفعت راسي وشددت عضلات ظهري . قامتي طويلة مثل قامة الرجال منهم . ونساؤهم أقل مني قامة . بشرتهم بيضاء كالطباشير وعيونهم كالدوائر الصفراء والافواه كالخطوط بلا شفاه ، تتحرك بسرعة وهم يتكلمون كالاوتار المشدودة أو الكرابيج .

في مرآة دورة المياه رأيتني أرتدي بالطو مطر أسود اشتريته من « عمر افندي » بعد أن حصلت على تأشيرة الخروج من مكتب الجوازات في ميدان التحرير . وفي يدي حقيبة جديدة سوداء لها يد طويلة اعلقها على كتفي . في جرابها الخارجي تطل اطراف جواز السفر الاخضر ، والتذكرة الطويلة الحمراء ، وبطاقة التطعيم الصفراء المربعة . ومن النافذة الزجاجية العريضة ألمح الطائرات راقدة على أرض المطار كالطيور القانصة الضخمة أو

حيوانات خرافية من الزواحف .

أزيز الاقلاع والهبوط يدوى فى أذنى ويسري فى جسدى كالقشعريرة . مزيج من الرهبة والفرح والاقدام والخوف والحزن الغامض . يذكرنى بليلة الزفاف الاولى وليلة موت أمى .

عيناى فى المرآة تلمعان بضوء شديد السواد . وبشرتى سمراء متوردة بالحماس . لازلت فى ريعان الشباب . وباب الطائرة امامى مفتوح على العالم الواسع . والشرطي القابع على بوابة المطار استوقفنى وسألنى عن أوراقى . ناولته الورقة الصفراء عليها خاتم النسر ، رمز الدولة . لماذا النسر ؟ ذلك الطائر المفترس العنيف والثورة كانت بيضاء بلا عنف كما قالوا . لكنى أدركت بعد عشرين عاما من الرحلات فى العالم أن أختام الدولة وشعارات الثورات تنسخ بالمقلوب . فاذا ما كانت الدولة دموية حفرت على خاتمها حمامة السلام ، واذا كان الزعيم قاتلا حصل على جائزة نوبل .

فحص الشرطى الورقة الصفراء بعينين بوليسيتين . تأكد أن خاتم النسر حقيقي وليس مزيفا . وأن الدولة توافق على انتقال جسمى خارج حدود الوطن .

مادخل الدولة فى حركة جسمى ؟

حرك الشرطى عينيه من الورقة الصفراء الى وجهى . ينقل عينيه ببطء من وجهى الى صورتى الملصقة بالصمغ على قطعة من الكرتون . وجهى لا يشبه الصورة . البريق فى عينى لا يراه فى الصورة ، فهو بريق الكراهية المؤقت يشع من عينى الآن وأنا أنظر اليه .

لا يعرف أن بينى وبين رجال البوليس عداء ثلاثة آلاف عام . منذ سيطر الاله آمون وانهارت حضارة

ازيس وظهر الى الوجود شيء اسمه العبودية .

حملق فى وجهى بعينين ضيقتين وهز شاربه الكثيف فوق شفته العليا . ذكرنى بصوت الشخير ينبعث من تحت الشارب الاسود الضخم . شوارب الرجال أيضا مثل أختام الدول تعلن عكس ماتبطن .

وسمعته يقول : هذه هى موافقة الدولة ولكن أين موافقة الزوج ؟

حملقت فى وجهه بدهشة . ربما تقتضى الدكتاتورية أن تمتلك الدولة جسمى ، لكن الزوج ؟ هل هو أيضا يمتلك حركة جسمى ؟

وماهو الحد الفاصل فوق كيانى بين ملكية الدوله وملكية الزوج ؟

غامت عينى سحابة لكنى تذكرت فجأة أننى غير متزوجة ، وانقشعت الغمة ولمعت عيناى بالبريق وهتفت بصوت رن فى صالة المطار كرنين الفضة : أنا كاملة الاهلية ، ولا أحد يمتلكنى اللهم الا الدولة .

وزمجر الشرطى بصوت غليظ كالشخير : أنا أسألك عن موافقة الزوج !

وقلت : وأنا أقول لك أننى حسب القانون يمكننى السفر بدون موافقة الزوج لاننى امرأة حرة بغير زوج .

وصاح بغضب : هل معك ما يثبت أنك غير متزوجة ؟

وبحركة سريعة اخرجت من حقيبتى ورقة طويلة تشبه شهادة ميلادى ، أو شهادة النجاح والتخرج النهائى . رفعت الورقة البيضاء فوق رأسى كالراية أو كطوق النجاة . وحركة أخرى سريعة وضعتها فى يده تحت عينيه .

قرب الورقة من عدسته البوليسية وفحصها بدقة .
راجع أختامها وتوقيمات المأذون والشهود ثم زمجر
لماذا لم تقولى منذ البداية أنك مطلقة « نطقها بفتح اللام » ؟

وقلت بغضب : أنا لست مطلقة « بفتح اللام » ولكنى مطلقة « بكسر اللام » !

رغم مرور عشرين عاما على تلك الرحلة الاولى خارج الوطن ، لا زال صوتى يرن فى رأسى وأنا اضغط على الشدة تحت اللام المكسورة ، والشرطى جالس أمامى من وراء القفص الحديدى يطل على بعينين ضيقتين شبه مختنقتين كعينى حيوان محبوس . ولازلت أذكر حركة يده حين رفعها الى فوق وضرب بالختم الاسود كالمطرقة الحديدية على جواز سفرى وتركنى أمر .

لم أصدق أول الامر أنه تركنى أمر ، وحركت قدمى ببطء الى الامام متصورة أنه سيمنعنى . لكنه لم يمنعنى فخطوت الخطوة الثانية بحذر أقل . ولم يمنعنى . وغمرنى الفرح كالدهشة فقفزت خارج حدود الوطن كأنما أولد من بطن أمى للمرة الثانية . وصفقت بيدى كالطفلة . وحركت قدمى فوق الارض كأنما سأحلق فى الجو . وجهى ناحية السماء وظهرى تجاه الوطـن ، تأهبت للانطلاق والطيران . لكن شرطيا آخر استوقفنى وفحص أوراقى . ثم تركنى أمر مع المسافرين . وعلى سلم الطائرة استدرت خلفى . ظننت أن أحـد رجال الشرطة يتبعنى . وأنه فى اللحظة الاخيرة سيمنعنى . وتم اغلاق الابواب وانسحاب السلم .

وتحركت الطائرة وأنا شاخصة الى أبوابها كأنمـا ستفتح فجأة ليدخل شرطى يتجه نحوى .

لكن الابواب ظلت مغلقة . ومن خـــلال النافــذة الزجاجية المستديرة رأيت شرفة المودعين ، والايادى المرفوعة تلوح فى الهواء . ليس من بينها يد واحــدة تلوح لى . والوجوه كثيرة ، ليس من بينها وجه واحد أعرفه .

ودارت رأسي مع الطائرة وهى تستدير بعيداً عــن مبنى المطار . غامت عينى تحت ضباب مفاجىء . مــن خلال الغمامة لاح لى وجه طفلتى . يدها الصغيرة تلوح لى وعيناها العسليتان فيهما دموع . اقتربت منهـــا لاقبلها ، والتفت أصابع يدها الخمسة حول أصابعى بقوة .

الالم عند نهاية الضلوع ، تحت القلب مبــاشرة . عميق وثقيل كقطعة الرصاص . قطعـــة منى لا تزال هناك . فى تلك الشقة الصغيرة . بشرتها من لون بشرتى واصابع يدها تشبه أصابعى . تحبو على يديها وقدميها وتتطلع بعينيها الواسعتين نحو غرفة نومى فلا تجدنى . شددت جسمى كأنما سأنهض واعود . امومة مفاجئة على شكل حنين جارف يجهض فرحتى بالسفر . أحاول ان انهض . لكنى مربوطة فى مقعدى بحزام سميك . والوطن يلوح لى من بعيد على شكل وجه طفولى مستدير . وعينان عسليتان مليئتان بالدموع . وأصـــابع خمسة دقيقة ما أن تلامس أصبعى حتى تلتف حوله . كالوتد تربطنى بالوطن . كالجذر الممدود فى الارض ، وأصبح كالشجرة الام وأنا لم أعش طفولتى بعد . أمـــومتى وطفولتى يعيشان داخل كيـــانى فى تناقض متوازن . وحنينى لابنتى كحنينى للوطن متناقض . رغبـــة فى الالتصاق لا تساويها الا رغبة فى الفرار .

اول رحلة خارج الوطن منذ عشرين عاما تبدو لي وكأنها بالامس . والرعشة على أطراف اصابعى وأنا اتحسس حزام المقعد . وهدير الطائرة فى أذنى وهى تهم بالاقلاع ، ثم انفصالى المفاجيء عن الارض ، والارتفاع فى الجو ، وخفقات قلبى تتصاعد وتتصاعد . الطائرة تهتز كأنها ستسقط ، والضربات تحت ضلوعى تتوقف ، الى جوارى رجل يقرأ فى جريدة أجنبية كأنه جالس فى بيته . له أنف طويل مقوس وبشرة بيضاء محمـــرة . يرتدى ربطة عنق ضخمة متعددة الالوان ، وأصـــابعه حول الجريدة طويلة بيضاء أظافرها مشـــذبة بعناية فائقة .

الرمال الصفراء تتسع وتتسع من خلال النـــافذة الزجاجية المستديرة والبيوت تبتعد وتصغر حجمها ، نهر النيل كالشريط الرفيع الابيض ، الشاطئان شريطان لونهما أسود . ثم الصحراء كبحر من الرمال الممتدة فى الافق .

لاول مرة أرى الوطن من مسافة بعيدة . اصبح الوطن صغيرا . مجرد خط ملتوى كالثعبان الرفيع فى مساحة صفراء . كل شيء فى حياتى أصبح صغيرا . أفراحى وأحزانى . أمومتى وطفولتى . آمالى وأحلامى . كل شيء أصبح صغيرا . حتى عبد الناصر بصوته المدوى كل يوم ، وصفوف رجال الدولة الراجفين امـــامه ، أصبحوا جميعا مجرد سطر صغير فى ذيل الصفحة فى الجريدة الاجنبية تحوطها اصابع الرجل الغريب .
كنت أظن أن وطنى هو كل العالم ، بمثـــل ما كنت اظن وأنا طفلة أن شارعنا هو كل الوطن . وكلما كنت أكبر كان الشارع يصغر . وحين امتد كيانى خـــارج

الوطن انكمش حجم الارض وملأنى احساس جديد بأننى اكبر مما كنت .

***

جناح الطائرة من خلال النافذة الزجاجية ثابت الحجم . ثابت الجسد . لا يتحرك . معلق فى الفضاء فوق أمواج من السحب البيضاء الثابتة . لا شىء فى الكون يتحرك ، لا السحب ولا الطائرة . ولا حتى « الشاى » فى الفنجان الموضوع على منضدة بيضاء بلاستيك معلقة فى ظهر المقعد امامى .

حملقت فى الثبات ساعة ووراء الساعة ، ثم اكتشفت ان السفر بالقطار كان اكثر متعة . فالحركة كنت أراها من نافذة القطار . أعمدة السوارى والاشجار تجرى الى الوراء بسرعة لا تلاحقها العين ، تملأنى بحركة الحياة وانطلاق نحو الهدف بأقصى سرعة . والدم يجرى فى عروقى بالسرعة نفسها . واحساس طاغ بالسعادة . منذ طفولتى كان للسفر فرحة كالعيد . أرتدى له ملابس جديدة ، وحذاء جديدا . ولا أنام من الفرح . وأصحو قبل آذان الفجر أو صياح الديوك . السفر كان فى سيارة أو قطار ، وداخل حدود الوطن . من القاهرة الى قريتنا كفر طحلة ، أو الى منوف ، أو الاسكندرية أو الجيزة أو حيث تشاء وزارة المعارف أن تنقل أبى .

واتسابق أنا واخوتى للجلوس بجوار النافذة . أخى كان يكبرنى بعام واحد وكنت أسبقه الى النافذة . لكن أخى الاصغر كان يبكى ويتشبث بالنافذة فاترك له المقعد. اخواتى البنات كن أصغر منى ، تجلس أصغرهن على ركبتى امى .

لم اكن أعرف عن الطائرة الا الازيز من بعيد أسمعه فى

السماء ، وجسم صغير يلمع فى الافق بحجم اليمامة ، له حركة بطيئة فى الكون كحركة السحاب .
لم يكن خيالي قادرا على تصور حجمها الحقيقى او سرعتها ، ولم أتصور انه يمكن للبشر بأحجامهم العادية أن يكونوا داخلها ، يطلون علينا من فوق السحاب كالآلهة ولم يكن لخيالى أن يمتد راسيا فأتصور انني سأكون فى السماء داخل طائرة أطل على الكون من ارتفاع شاهق .
كان خيالي يمتد بشكل افقى مع حركة السيارة او القطار فوق القضبان وحركة قدمى ، وامتداد النيل باستواء الارض . وحينما ارفع راسى عموديا نحو السماء تنزعج العيون من حولى . خاصة عينى جدتى . منذ ولدت وهى ترمق بقلق راسى المرفوع فوق عنقى . أكان من المفروض أن أولد بغير رأس ؟ واذا حركت عنقى الى أعلى ازداد قلقها وصاحت : لا ترفعى رأسك هكذا ! الا ترين كيف تسير البنات المؤدبات ؟
وكانت البنت المؤدبة تسير ورأسها مطرق الى الارض وظلت جدتى تقول أننى غير مؤدبة حتى ماتت . لكنها كانت جدتى آمنة والدة أمى . أما جدتى مبروكة والدة أبى فكانت تضع الزلعة فوق راسى وتقول : لاتحنى عنقك هكذا ، انظرى كيف تسير بنات الكفر مرفوعات الرأس . لكنها كانت تظن أن رأس البنت لم يرتفع عموديا فوق العنق بهذا الشكل الا لتحمل فوقه الزلعة .
ومع كل ذلك كنت أحب جدتى مبروكة أكثر من جدتى آمنة ، وافضل السفر الى بيتها الترابى ذي الشرفة الخشبية اشرب من الزير ، واستحم بماء الزلعة من النيل . لكن أمى كانت تفضل السفر الى بيت أبيها فى القاهرة . وأبى كان مثلي يحب فضاء

اجازة الصيف فى بيت امه فى الكفر . ويدور النقاش بينهما اول كل أجازة صيف . لم يكن نقاشا حادا ابدا ، ولا ينتهى بفوز أحدهما على الآخر . نوع من التعادل بين القوتين الكبيرتين فى البيت . وتحزم أمي الحقائب وتسافر الى اهلها مرة ، والى أهل أبي مرة .. هكذا على التوالى .

قبل السفر بايام أخـــرج كل ملابسى من الدولاب وارصها فى الحقيبة الكبيرة . وتأتى امي وتفرغ الحقيبة فى الدولاب وهي تصيح : لن تأخذى معك كل ملابسك ثم ان موعد السفر لم يأت بعد .

وتقف على الكرسى الخشبى العالي ، وتشـــب على اطراف اصابعها لتضع الحقيبة فوق الدولاب . ومن موقعى فوق الارض وعيناى الى أعلى أرى ساقيهـــا السمينتين البيضاوين بغير شعر يمتدان تحت ثوبهـا الحريرى الى فخذين اشد سمنة وأشد بياضـــا ثم يلتصقان فى النهاية فى خط واحد عميق داكن اللون .

ويراودنى خاطر غريب ،هو أننى هبطت الى العالم من هذا الخط الداكن . ثم يتبع ذلك على الفور خاطر آخر أكثر غرابة ، هو أن أبى أيضا له علاقة ما بهذا الخط الداكن . والى هنا تتوقف خواطرى تماما كأنما وصلت نهاية العالم . وأعود ادراجى الى مكاني فوق الارض ثم اصعد على الكرسى الخشبى العالى وأمد ذراعى فوق الدولاب لكن يدى لا تصل ابدا الى الحقيبة.

كل ليلة ومنـــذ أن تبدأ الاجازة الصيفية وأنا احلم بأن يدى امتدت وطالت وامسكت بالحقيبـــة . وأن ملابسى كلها انتقلت من الدولاب الى الحقيبة . وأن أمى توقظني فى الفجر لارتدى الملابس الجديدة . وأبى يحكم

اغلاق النوافذ والابواب . والسيارة الاجـــرة تنتظر أمام الباب . صوت الموتور يرن فى اذنى عجيبا ورائحة البنزين تسرى فى أنفى نفاذة منعشة . وعنـــد محطة القطار يبدو كل شيء مدهشا . رصيف المحطـــة العالى والقضبان الممتدة الى مالا نهاية فى الخندق العميـــق ، وأصوات الاجراس وصفارات القطار والدخان الكثيف يندفع من الفوهة السوداء والناس تجرى وفى أيديهم الحقائب وبائع السميط ينادى بصوت حاد مرتفع . وسلم القطار العالى . امسك القبض الحديدى واضـــع قدمى على السلم ويخيل الى أن القطار سيتحرك وقدمى الثانية لا تزال على الارض . لكن القطار لا يتحـــرك وأجري الى مقعدى وانظر من النافذة ، وتظل المحطة ثابتة . واظن ان القطار لن يتحرك أبدا . وفجأة احس براسى يهتز بعنف الى الوراء ثم الى الامام ، وتبـــدأ البيوت في الحركة الى الوراء ، ومن بعدها أعمـــدة السواري التي تبدأ فى الجري الي الخلف واحدة وراء الاخرى .

واطل براسى من النافذة وانا اشهق بالفـــرح . الهواء القوي يطير شعري فى الفضاء ، وفمى مفتوح عن آخره أبتلع الهواء والدخان ، ولا احس الا بيد أبى تشدنى الى الخلف وصوته يدوى فى اذنى مختلطـــا بصوت عجلات القطار : ادخلى راسك !

***

تراجعت براسي الى الوراء بعيدا عن النافذة . لكني داخل الطائرة ولست داخل قطار ، والنافذة صغيرة مستديرة مغلقة زجاج مزدوج ، والسماء زرقاء ثابتة ، والسحب بيضاء ثابتة ، لا أشجار ولا اعمـــدة سواري

تتحرك . ولا استطيع ان أطل برأسي من النافذة .
وجسدى عاجز عن ادراك الحركة . كأنني داخل علبة
حديدية معلقة في الكون الى الابد ، وحزام المقعد يلتف
حول جسدي وينتهي الى قفل معدني . ملمسه فوق
صدري كالسماعة الطبية تتدلى من الخرطوم المطاطى حول
عنقي ، ورائحة اليود والدم في معطفي الابيض ، ولهاث
المرضى في اذنى كالطنين . طابور طويل يمتد حتى
الزقاق المترب أمام باب المستشفى تعلوه لافتة نحاسية
صدئة نقشت عليها حروف سوداء : « مستشفى
الامراض الصدرية بالجيزة » ، والى جوارى المنضدة
الخشبية كالحة والفانوس الكهربى لرؤية صور الاشعة ،
ثم نافذة صغيرة مفتوحة على بركة صغيرة تقذف الهواء
محملا بالغاز ورائحة عفونة كالمجارى .

حملقت في الكون الواسع من خلال الزجاج المزدوج ،
ونظرت ناحية الارض . أبحث بعيناى عن موقع
مستشفى الدرن من الارض أو موقع الارض من
المستشفى .

من بين السحب البيضاء كزبد القطن رأيت سردابا
طويلا يهبط الى الارض . الارض سوداء تماما . لكن
عينى التقطتا نقطة فوق الارض اكثر سوادا . وقلت
لنفسي : لابد انه المستشفى . لكنى أدركت بسرعة انه
ليس المستشفى ، والارض أيضا ليست أرضا وانما
هو شيء له حركة ماء . ولابد أنه البحر .

من خلفى رجل عجوز يسعل . سعاله من النوع
الجاف بسبب الدخان وليس الدرن . اذناى تدربتا

على تشخيص المرض من نوع السعال .

كل يوم من الساعة التاسعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر أسمع سعال الطابور الطويل . أضع السماعة المعدنية بين الضلوع البارزة وأسمع صفارة الهواء ثم شخشخة الدم والصديد . أسلط على الصدر الاشعة وانا اقول للمريض : أكتم نفسك . وبدلا من أن يكتم نفسه ، يسعل في وجهي ويملأني بالرذاذ . أتراجع الى الوراء بسرعة وأدس في اليد المعروقة زجاجة الدواء قائلة : قرص واحد بعد كل وجبة طعام ثلاث مرات في اليوم .

يردد الصوت الخافت مع اللهاث : بعد كل وجبة طعام ؟

واقول : نعم بعد كل وجبة طعام ، ثلاثة أقراص في اليوم الواحد بعد الوجبات الثلاثة !

ويأتي السؤال على شكل شهقات : الوجبات الثلاثة ؟

وأردد : نعم وجبات الطعام الثلاثة !

ذلك اليوم كانت آخر الطابور امرأة في يدها طفل وعلى كتفها طفل استدارت وهي تزمجر : وهل كنت أمرض بالسل اذا كانت هناك وجبات ثلاثة ؟

كل يوم وانا أحملق من النافذة على البركة الآسنة ارفع عيني الى المساحة الصغيرة من السماء بين الجدران واخاطب الله : من هو المسئول عن هذه التعاسة فوق الارض ؟ انت ام رئيس الدولة ؟

وتسري في جسدي قشعريرة الخوف ، وقد ألقيت المسئولية على رئيس الدولة وليس على الله ، وكنت لا ازال أومن بالعدالة الالهية .

ذلك اليوم دق جرس التليفون فجأة . وانتفضت

في مقعدي . تصورت أن مكتب الامن بالوزارة التقط بجهاز ما شكوكي العميقة في عدالة الدولة .

وجاءني صوت يقول بلهجة متعالية : صـــدر قرار وزارى بسفرك ضمن وفد الاطباء الى الجزائر .

***

وفي كل رحلة خارج الوطن كنت أظن أنني لن أعود . لكنى في كل مرة كنت أعود . حنين لابنتي يشدني الى الوطن . وحنين الى الارض . رائحة الارض والتراب والهواء . الوجوه والملامح المألوفة . اللغة واللهجـــة تشتاق اليها أذني ، والشوق له ألم حاد في الاذن ، وفي القلب تحت الضلوع ، وفي حركة الدم في العروق كاشتياق المدمن لوجع السم .

***

أحملق من خلال الزجاج على أرض الوطن . لا أرى الا السماء والسحاب وفي القاع البعيد الساحل الداكن كالخط الاسود يفصل البحر عن الارض . هل نحلـــق فوق الاسكندرية ؟ أحملق في القاع البعيد . لاشيء يتغير تحت عيني . لا زال وجه موظف الامن امامي . رأسه أصلع أملس كراس السلحفاة . عيناه عدستان بيضاوان بغير جفون ولا رموش . يرمقني من قمـــة رأسي الى أطراف قدمي . كياني ينقلب الى برغوث مثبت بالصمغ تحت عدسة الميكروسكوب . جهاز يشبه جهاز الاشعة ورسمت على وجهي ملامح قديسة تفيض بالحب والخوف يكشف عن أعماقي . أخفيت الكراهية في طيات أمعائي فلا شيء يهدد الامن الا الكراهية أو الحب بغير خوف .

لاول مرة أقف للفحص أمام موظف الامن لاستخراج ذلك الدفتر الصغير المستطيل المسمى « جواز السفر »

لاول مرة في حياتي أستخرج جواز سفرى . وحين أستقر « الباسبور » في حقيبة يدى سرت في الشارع مرفوعة الرأس في زهو . كأننى بهذا الدفتر صعدت من طبقة الى طبقة . لكن سرعان ماتبدد الزهو حين ابتلعني المبنى الضخم المسمى « مجمع التحرير » ، وسقط جسمي في خندق مزدحم بالاجسام تلهث .. وتنز بالعرق .. وأخذت الهث أنا الاخرى ، واجرى من مكتب الى مكتب ، وفي يدى أوراق الصقت عليها دمغات صفراء وخضراء ، وتوقيعات بالحبر الاحمر والاسود والازرق . واستقر بي الامر في النهاية داخل مكتب الامن ، وموظف يشبه الموظف الآخر . براس اصلع وصوت ناعم . رمقنى من راسي الى قدمي وحملق في صورة وجهي ثم سألنى : لماذا تسافرين الى الجزائر ؟

قلت : لحضور المؤتمر الطبي العربي .

وتساءل كأنما بدهشة : انت طبيبة ؟

وقلت : نعم .

حملق في وجهي وقال : مارأيك في الثورة ؟

وتساءلت : أي ثورة ؟

لكنني تداركت السؤال وقلت : نعم .

قال : نعم ؟

وبدأت أفكر .

وزمجر الرجل بغضب : فيم تفكرين ؟

قلت : في الاجابة .

وقال بدهشة : وهل السؤال يحتاج الى تفكير ؟

وبدا لي التفكير لحظتها كالعورة وانتهت المقابلة بسرعة وانقضى شهر وأنا أنتظر حصولى على تأشيرة الخروج . لكن التأشيرة لم ترد .

وجاء يوم الثلاثاء وكان موعد السفر الاربعاء ، اي بعد يوم واحد . وذهبت الى موظف الامن وسألت :
ـ لماذا تأخرت التأشيرة ؟
ورد : انها تتأخر دائما .
وقلت : ألا سبيل الى استعجالها ، فالمفروض انني سأسافر غدا .
قال : لا سبيل الى استعجال أي شيء .

وعدت الى بيتي . جدران الشقة تطبق على صدري . مددت يدي نحو قرص التليفون . رنين الجرس يدوي في أذني . لا أحد في العالم ، وأنا وحدي تماما . سرت الى النافذة لاطل على الناس في الشارع . رائحة كطفح المجاري تملأ الجو . الهواء محمل بغبار وصهد . الناس تتحرك في الطريق كأشباح ميتة في عالم آخر . عربة بوليس تجري ومن خلفها سيارة تطلق صفارة حادة . احساس جارف بالغربة يسري في جسدي .
وفجأة توقف أتوبيس أحمر ، وهبطت منه ابنتي ، ترتدي مريلة زرقاء لها كولة بيضاء وفي يدها حقيبة المدرسة . رفعت رأسها نحو النافذة ورأتني . ابتسمت ولمعت عيناها العسليتان بالفرح . جريت الى الباب . وانتظرت حتى خرجت من باب المصعد فحملتها بين ذراعي . دفنت رأسها في صدري . رائحة الطفولة في شعرها توقظ امومتي وتبدد الغربة .
أعددت لها الطعام وجلست أرقبها وهي تأكل بشهية تقلص وجودي في الحياة الى ذلك الصحن تمتد اليه يدها الصغيرة ثم ترتفع الى فمها ، وحركة فكيها الصغيرتين وهي تمضغ الطعام بلذة .

وفى الليل نمت وذراعى حولها . كأنما احتضن العالم كله . ولا شىء فى العالم يمنحنى هذه النشوة . لا رجل ولا عمل ولا سفر ، وترددت لحظة . هل ركوب الطائرة اكثر متعة ؟ وكيف يبدو العالم تحت عينى ، وانا فوق السحاب ؟ والارض هل سأراها كروية ؟ وهل سأطل على القارات الخمس فى آن واحد ؟ والتضاريس والجبال والانهر والبحار هل سأراها بشكلها على الخريطة ؟

خيالى تلك الليلة ظل راكدا ، وصورة قاتمة واحدة سيطرت على عقلى : ان الطائرة سقطت فى البحر وانا داخلها . وتحولت خيبة الامل فى السفر الى فرحة النجاة من الموت . ونمت نوما عميقا .

وفى الصباح فتحت عينى وقد تبددت تماما كل رغبتى فى السفر . وذهبت الى المستشفى كأى يوم . لكن جرس التليفون رن الى جوارى وجاءنى الصوت المتعالى يقول : لقد وصلت تأشيرة الامن .

ووضعت السماعة الى مكانها ، وادركت أن تصاريح الامن لا تحل بالانسان حين يرغبها ، فاذا ما كف تماما عن رغبتها حلت به فجأة من حيث لا يدرى كالقضاء والقدر .

افقت على صوت ينبعث من سقف الطائرة يقول اننا نحلق فوق ليبيا . جسدى يسترخى فى المقعد وخدر لذيذ يسرى فى كيانى . اصبحت خارج حدود الوطن . تحت ضلوعى خفقات تتصاعد السرعة . والدماء الدافئة تمشى فى عروقى . شحنة من الحماس ، وحواس جديدة تستيقظ وتتفتح للحياة والحب ... أسندت

راسي الى مسند المقعد وأغمضت عيني ثم فتحتهما .
لحن موسيقى في أذني ، وعينان زرقاوان تتطلعان نحوى
وتبتسمان . كانت تجلس فى المقعد المجاور لى
وتحتضن بين ذراعيها دمية كبيرة من البلاستيك .
تهدهدها كأنها طفل حي .

سألتني : عندك أطفال ؟

قلت : نعم .

قالت بأسى : حرمت من الاطفال .

قلت : الحياة فيها اشياء اخرى غير الاطفال .

تساءلت : مثل ماذا ؟

قلت : العمل ، السفر ، الحب ...

تساءلت : هل أحببت ؟

وفاجأني السؤال . لم يسألني احد من قبل هذا
السؤال . لكن سؤالها يبدو لى عاديا . وبى رغبة
لافتح قلبى لهذه المرأة فهى لا تعرفنى ، وسوف نفترق ،
ولن نلتقى بعد اليوم .

وقلت : اتريدين الصدق ؟

قالت : نعم .

قلت : توهمت الحب لكننى لم أحب بعد .

وضحكت والقت بشعرها الاصفر الغزير الى الوراء .
رايت بين اسنان فكها العلوى سنة ذهبية . اظافرها
طويلة مدببة مطلية باللون الاحمر . امسكت خصلة من
شعرها بين اصابعها ولعقت بطرف لسانها شفتها العليا
وقالت : لا يوجد شيء أسمه الحب .

سألتها : من اى بلد ؟

قالت : انا ايطالية ، واشتغل فى بنى غازى .

قلت : وماذا تشتغلين ؟

قالت وهي تشعل سيجارة : راقصة .. ثم أردفت بصوت خافت : ومومس أيضا .

انتفض جسدي مبتعدا عنها بحركة شبه غريزية . لاول مرة في حياتي أرى امراة مومسا . قرات عنهن في الروايات وشاهدتهن في أفلام السينما . رمقتها بطرف عين أدرس ملامحها وذراعيها وساقيها . كل شيء فيها عادي لا يثير الانتباه . كنت اظن أن المراة المومس لابد وأن تثير الانتباه بشيء غير عادي . تأملت أصابع يدها الخمسة بدهشة . كأنما كنت أتوقع أن يكون لها ستة أصابع أو سبعة . أفقت على هزة عنيفة كأنما تسقط الطائرة في البحر ، ومعدتي تسقط معها الي تحت . امسكت المقعد بكلتا يدي وهتفت : ماذا يحدث ؟ وقالت المراة الايطالية : نهبط في بني غازي .

اضاءت رقعة مستطيلة من الضوء فوق راسي عليها حروف بالانجليزية : اربطوا حزام المقعد . أطفئوا السجائر . صوت أنثوي يعلن في الميكروفون ان الطائرة تهبط ولم أسمع بقية الكلمات . الميكروفون ياكل نصف الحروف والازيز العالي يبتلع النصف الآخر ، وجدران أذني تنطبق وتنفلق تحت ضغط مفاجيء ، ولم أعد أسمع الا صفيرا حادا . ثم انفتحت أذني فجأة بصوت اشبه بالفرقعة الخفيفة وزال الضغط تماما وسمعت صوتا كهدير الشلال ثم ارتج جسمي مع ارتطام عجلات الطائرة بالارض .

ولابد أن وجهي كان شاحبا لان قلبي كان يدق بسرعة وحلقي جف تماما .

***

على ارض مطار بني غازي رايتها من خلال الزجاج

تسير بين الصفوف ، تحمل على ذراعها الابيض النحيل دميتها البلاستيك كأم تحمل ابنتها الوحيدة ، وبيدها الاخرى أمسكت حقيبة جلدية صفراء .

عاصفة من الرمال هبت وطيرت شعرها الاصفر ، ورأيتها تغطى ركبتيها البيضاوين بطرف ردائها ، وهواء بنى غازى يعاندها ويرفع عنهما الرداء ، ووجوه سمراء تتفرسها ، وعيون جائعة تلتهمها .

ورأيتها تتوقف ثم تستدير نحو نافذتى ، ولوحت لى من بعيد بمنديلها الابيض الصغير ، فلوحت لها بيدى ، وخوف غامض يسرى فى كيانى .

***

حين هبطنا فى الجزائر كانت الشمس لا تزال فى السماء . شمس الاصيل الدافئة تلمع فوق الشجر والجبل العالى الاخضر . لاول مرة فى حياتى اري جبلا عاليا أخضر صاعدا نحو قرص الشمس . فى مصر لم أعرف الا الارض المستوية ، وجبل المقطم لم يكن جبلا . والخضرة فى مصر لم يكن لها هذا اللون الاخضر القوى الداكن .

سمعت من خلفى صوتا يقول : حمدا لله على السلامة استدرت بسرعة . رايت الوجه الطويل الاسمر والشارب الدقيق المنمق فوق الشفة العليا . اسمه الدكتور « جميل ياسر » وكان استاذا لى بالكلية .

تساءل : أنت وحدك ؟

قلت : نعم .

قال : تعالى معنا ، سناخذ تاكسيا الى الفندق . كانت معه زوجته . امراة ضخمة سمينة تترجرج على كعبين رفيعين . السائق الجزائرى يتكلم بالفرنسية .

الساعة حول معصمي تشير الى الثامنة والنصف ، ولا تزال الشمس في السماء . وقال الدكتور جميل ياسر : الم تغيري ساعتك ؟ الساعة الآن الخامسة والنصف .

مددت يدي وادرت مسمار الساعة الى الوراء ثلاث دورات كاملة .

رغم رحلاتي المتعددة في بلاد العالم خلال العشرين عاما الماضية ورغم انني حركت عقارب الساعة الى الوراء أو الى الامام حسب موقع البلد التي أسافر اليها ، الا انني لازلت اذكر هذه المرة الاولى التي غيرت فيها الزمن بيدي .

أحسست رعشة خفيفة فوق اصابعي وانا أحرك مسمار الساعة ، وعيناي تتابعان ـ العقربين وهما يتقهقران الى الوراء ثلاث ساعات كاملة .

كنت اظن أن حركة عقربي الساعة مقدسة لا يمكن ليد أن تلمسها أو تغيرها . هذان العقربان كانا يحكمان يقظتي ومنامي . مواعيد عملي ولهوي . يحكمان أيام عمري . يحكمان علي بالشباب أو بالشيخوخة . هذان العقربان لم اكن استطيع ان اقدمهما أو أؤخرهما دقيقة واحدة ، ولا يستطيع أحد غيري حتى الصائغ الذي صاغهما ودقهما بمطرقته وصنع منهما عقربين . هذان العقربان المقدسان استطعت الآن أن احركهما الى الوراء ثلاث دورات كاملة .

وتحولت الدهشة الى فرحة . كأنما اختلست من الآلهة ثلاث ساعات واضفتها الى عمري .. او كأنما درت حول الكرة الارضية ثلاث دورات وانا في مكاني .

وحين سرت على أرض الجزائر والشمس لا تزال

فى السماء قلت لنفسى : الناس فى مصر غربت عنهم الشمس وانا لا تزال الشمس فى عينى ؟! أهى الشمس نفسها أم شمس أخرى ؟

ملمس الشمس فوق وجهى فى أول زيارة لا تزال فى ذاكرتى . واللهجة الجزائرية بدت لى كاللغة الجديدة والملامح الجزائرية حادة قوية شامخة كالجبل . والسلام الجمهورى حين سمعته يعزف لاول مرة أدركت أننى فوق أرض الجزائر . أرض المليون شهيد . حرب التحرير والفدائيين . سجون التعذيب وجميلة بوحريد الجنود الفرنسيون وفظائع الاستعمار . « فرانز فانون » وكتابه « المعذبون فوق الارض » بن بيلا بوجهه المستدير وقامته الطويلة تقارب قامة عبد الناصر .

افتتح بن بيلا المؤتمر الطبى . قاعة ابن خلدون مليئة بالاطباء العرب ، والحديث بينهم يدور حول الثورة الجزائرية والعمل الفدائى والتحرر من الاستعمار . لكن سرعان ما انقسموا الى لجان متخصصة وبدأوا الحديث عن أمراض القلب والمعدة والطحال .

وفى المساء كانت حفلات الموسيقى والغناء والرقص الجزائرى . أنغام البيانو والكمان تمتزج بدقات الدف والعود . كلمات فرنسية تمتزج بكلمات عربية . عيون فيها ثورة وغضب ، وعيون فيها استكانة وشبع . نساء رشيقات نصف عاريات . ونساء محجبات تحت خمار سميك وعباءة واسعة بيضاء .

فى حى القصبة العربى طغت دقات الدف والعود على أنغام البيانو والكمان . وطغت الكلمات العربية على الفرنسية . وبدأت الازقة الرطبة والبيوت القديمة

المتآكلة وعيون النساء من تحت الحجاب الابيض ووجوه الاطفال الذابلة .

تقدمت نحوي امرأة تخفي وجهها وجسمها تحت عباءة بيضاء واسعة . على ذراعها طفل ، وذراعها الثانية ممدودة نحوى ، باسطة كفها تشحذ : أعطني قرشا . قالتها بالفرنسية . لاول مرة في حياتي أسمع شخصا يشحذ بلغة أجنبية . كنت أظن أن الشحاذين لا يعرفون الا العربية .

قبل منتصف الليل عدت الى غرفتي بالفندق ، ورأيت الورقة الصغيرة ، وكلمات بخط دقيق منمسق يشبه الشارب الدقيق المنمق ، الحرف بجوار الحرف كالشعرة بجوار الشعرة في دقة شديدة أشبه بالحذر :
« أدعوك الى العشاء معي غدا . »
جميل على

أكاد لا أعرف الاسم . أيكون هو الدكتور جميل ياسر؟ حضرت بعض محاضراته في مدرج علي ابراهيم في كلية طب قصر العيني . والقي بحثا في المؤتمر بالامس عن طريقة جديدة لاستئصال ورم المخ . متوسط القامة يميل الى الامتلاء خاصة عند البطن والفخذين . له نظرة حادة حين ينصت باهتمام . شعره أسود بلون الصبغة الفاحمة السوداء ، تجاعيد العمر واضحة حول العينين والفم . أسنانه صغيرة صفراء من كثرة التدخين . وحين يمشي يتكيء بجسمه على ساقه اليمنى كأن بقدمه اليسرى عرج خفيف . لم يكلمني وأنا طالبة ولم أكلمه .

وقابلته بعد التخرج مرات قليلة في اجتماعات عابرة . ولم نتكلم أيضا . لم أكن أظن أنه يعرفني . وفي قاعات

المؤتمر كنت أراه يمشي والى جواره زوجته . يسبقها بخطوة .

في الصباح دق جرس التليفون في غرفتي وقال : انا جميل ؟

ـ جميل من ؟

ـ الدكتور جميل ياسر .

ـ ولكنك في الورقة كتبت جميل على ؟

ـ اسمي الثلاثي جميل على ياسر .

ـ ولماذا لم تكتب جميل ياسر .

ـ خشيت أن تقع الورقة في يد أحد غيرك .

ـ أتعنى أن جميل على هو اسمك التنكرى .؟

ـ تقريبا .

ـ ولماذا تتنكر ؟

ـ التقاليد تطاردنا أينما سافرنا .

ـ وهل انت ضد التقاليد ؟

ـ حين اسافر نعم .

ـ هل ستأتى معك زوجتك ؟

وصمت لحظة ثم قال : لا . انها تفضل البقاء بالفندق .

وأردف : هل أمر عليك في السادسة والنصف ؟

قلت : لا

ـ أترفضين دعوتي ؟

ـ لا ، ولكنى أرفض دعوة « جميل على » .

ـ لماذا ؟

ـ لانى لا أعرفه .

وتساءل : ودعوة جميل ياسر ؟ هل تقبلينها ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟
ـ لانى أعرفه .

***

سافرت الى الجزائر مرات أخرى بعد هذه الرحلة الاولى عام ١٩٦٣ . لكن صورة الجزائر ظلت فى ذاكرتى كما رأيتها أول مرة . كوجه انسان يشدنا لاول وهلة وتظل الصورة الاولى محفورة فى الذاكرة رغم تفسير الملامح .

الجبل الاخضر يحتضن البحر الازرق . الارتفاع الشاهق ينحدر بحدة وبلا تدرج ، والصخور حمراء . وعينا الفدائى الجزائرى « شهيب » نفاذتان ثاقبتان كعينى الفهد . لونهما أزرق كالسماء . لكنه اذا نظر ناحية الجبل تحولت الزرقة فى عينيه الى خضرة داكنة كالغابة . فاذا ماحرك رأسه ناحية البحر أصبحت الخضرة فى المقلتين زرقاء عميقة الاغوار كمياه البحر .

شعرت بالقرب منه وهو صامت . أحب فى الرجل صمته . فالصمت أصدق . وملمس يده فى يدى مألوفا لكن اذا مانطق وسمعت تلك اللهجة الجزائرية الفرنسية نصف العربية رأيته رجلا غريبا .

وضحك فاردا ذراعيه عن آخرهما محتضنا البحر والجبل والسماء والشمس . وحاول أن يحتضننى فابتعدت . صوت أمى لا زال فى أذنى منذ الطفولة : لا تثقى فى أى رجل غريب .

الغرباء لم نرهم فى بلادنا الا مسلحين بالبنادق وبنادقهم ناحية صدورنا . وعقلى منذ الطفولة ربط بين البنادق والرجال الغرباء وكونى أنثى . كرهت الكلمة منذ الطفولة . وأصبحت أنوثتى عقلانية .

لازلت أحدق في عيني « شهيب » رغم مرور عشرين عاما . رائحة البحر في أنفي والسيارات المحروقة في سفح الجبل ، والتراب أحمر بلون الدم وهو صامت ينظر بعينيه النفاذتين الى قمة الجبل .

وتذكرت الحوار :

ـ فى عينيك شيء لم أجده فى عيون الرجال .

ـ ماذا ؟

ـ هذا البريق النفاذ الحاد يشق الجبل والبحر .

ـ الثورة ؟

ـ ربما . ولكنها ثورة مختلفة . عندنا أيضا ثورة .

ـ ثورتكم بيضاء وثورتنا حمراء . سال دم مليون شهيد قبل أن نحصل على الاستقلال .

ـ عندنا شهداء ماتوا فى حرب القنال ضد الانجليز .

تذكرت « المنيسى » زميلى فى كلية الطب . كان يجلس الى جوارى عام ١٩٥١ فى أول سنة بالمشرحة . اختفى ذات يوم ولم أره أبدا . ولم يبق منه الا حروف اسمه محفورة على لوحة من الرخام فى مدخل الكلية ضمن أسماء الشهداء ، وحروف اسمى على ورقة بخط يده فى درج مكتبى .

ـ اذا كانت ثورتنا بيضاء فأين يذهب دم المنيسى ؟

ـ من هو المنيسى ؟

ـ حبى الاول . كان ثائرا وكان جذابا .

ـ الثورة تجعل الملامح جذابة .

ـ كل من أحببت فى حياتى كان ثائرا . وكل امرأة جذبتنى كانت ثائرة . وكل طفلة أو طفل جذبنى رأيت الثورة فى العينين واضحة . وأنا أحب نفسى حين أثور واكره نفسى حين استسلم .

ـ وأنا أحب المرأة الثائرة حين تستسلم .

ـ وأنا أحب الرجل المستسلم حين يثور .

***

هل تؤثر طبيعة الارض على الملامح ؟ فى مصر الوادى السهل المنبسط يجعل الملامح هادئة والعيون وادعة شبه مستسلمة ؟ وهنا فى الجزائر الجبل الصعب الشاهق يجعل الملامح حادة عنيفة شبه صخرية ؟

فى زيارتى الاولى للجزائر جذبتنى الملامح الجبلية . خفق قلبى وأنا أصعد الجبل لاول مرة . ورأيت فى العينين النفاذتين حريق المعارك المتفحمة فى بطن الجبل . ورايت البحر فى عنفوانه . والجبل فى شموخه . وأصبحت الثورة هى الحب . لكنى كنت لا أزال أسيرة الوهم أن الثورة تمنح ، والمرأة تؤخذ .

ووقفت مترددة . كالمشدودة بين قوتين متعادلتين . تجاوزت حدود الوطن لكنى لازلت حبيسة سجن بغير جدران ، وسلاسل تحوطنى غير مرئية .

كان بن بيلا لازال فى الحكم . وعبد الناصر أيضا لازال قبل هزيمة ١٩٦٧ . وكنت أمد رأسى بين الصفوف لاسمع صوت بن بيلا وهو يلقى خطابه فى أول أيام المؤتمر . كلماته العربية تختلط بالفرنسية . يقول بدل مدرسة « أكول » وبدل موعد « راندفو » . خليط عجيب من الكلمات الفرنسية المعربة ترن فى أذنى كلغة مستحدثة غريبة ، ومنفرة .

واشار « شهيب » الى السيارات المحترقة فى سفح الجبل .

ـ هذه بقايا معركة التحرير وقد طردنا فرنسا الى الابد .

— ونحن أيضا طردنا الانجليز من قبلكم !
— هل نتمشى معا الليلة ؟
— لا .
— هل أنت متزوجة ؟
— لا .
— لماذا تعترضين اذن ؟
— هل الزواج هو الذى يمكن أن يمنعنى ؟!
— بالعكس الزواج يحرر المرأة .
— والاستعمار يحرر بلادنا ؟
— هل الزواج كالاستعمار ؟
— كلاهما وجهان لعملة واحدة .

وفى الزيارة التالية للجزائر رأيت « شهيب » سائرا فى الطريق . استداز وراتى . ملامحه لم تعد جذابة . هل فقد ثورته ؟ صافحته وسرت فى طريقى مسرعة . الشمس تقترب من المغيب .

شوارع الجزائر بعد الغروب تخلو من النساء ، وتصبح غابة من الرجال . يسيرون جماعات على شاطىء البحر . أنوفهم حادة وعيونهم نفاذة ثاقبة . وأنفاسهم كزفير البحر أول الليل يصعد ويهبط .

وقلت لصديقتى الجزائرية فتيحة : لماذا لا تتمشى النساء الجزائريات على البحر ؟

وقالت فتيحة : لازلنا مجتمعا رجوليا .

— ولكن النساء اشتركن فى حرب التحرير .
— نعم . لكن بعد تحرير الوطن لم نحرر أنفسنا .
— أيهما يسبق ؟ تحرير النفس أم تحرير الوطن ؟
— النفس طبعا . فاقد الشىء لا يعطيه .

فتيحة احدى عضوات الاتحاد النسائى الجزائرى .

لم تتزوج بعد . كانت مشغولة بالثورة ولم تجد الوقت للزواج ، واذا وجدت الوقت لم تجد الرجل . وقالت لى : « الرجل الجزائرى اذا تحرر تزوج فرنسية ، واذا تزوج جزائرية لم يعد متحررا ، وهو يشتهى المرأة الحرة لكنه لا يتزوج الا الجارية .

●●●

من الجزائر ركبت الطائرة الى باريس . لم يعد لركوب الطائرة السحر الاول .

أحملق من خلال الزجاج المزدوج لارى مضيق جبل طارق ، شريط البحر بين قارة افريقيا وقارة أوروبا .

كلمة « أوروبا » تملأ رأسى بالخيالات . أول مرة سمعت الكلمة من أبى . كنت لا أزال طفلة ، وسمعته يقول أن الطالب المتفوق يسافر فى بعثة لاوروبا . وتصورت أن أبى تفوق على جميع رجال العالم ولا أحد يفوقه فى شىء . ثم اكتشفت بعد أن كبرت قليلا أن الملك فاروق أكثر شهرة من أبى . وسألت جدتى لماذا لم يصبح أبى ملكا . ثم كبرت أكثر . وكلما كنت أكبر كان حجم أبى يتناقص . حتى علمت أن هناك رجالا سافروا فى بعثات الى أوروبا وهو لم يسافر . ثم عاش أبى ومات فى الواحد والستين من عمره دون أن يرى أوروبا ودون أن يركب الطائرة .

أصبحنا نحلق فوق أسبانيا . أحملق من خلال الزجاج كأنما سأرى الاندلس ، والسندس الاخضر ، وحلبة مصارعة الثيران .

أدقق النظر الى الارض فى القاع السحيق تحت جناح الطائرة . الارض تبدو حمراء تحت وهج الشمس البيوت دقيقة بحجم رءوس الدبابيس .

الى جوارى رجل يقرأ فى جريدة . التقطت كلمــــة الصباح « بالفرنسية » .

تعلمت اللغة الفرنسية فى المدرسة الابتدائية والثانوية لم اتكلم الفرنسية منذ أكثر من عشر سنوات .

ابتسم الرجل وسألنى بالفرنسية عن بلدى . وقلت: « ايجيبت » . ورن صوتى فى أذنى غريبا ، وكلمـة « ايجيبت » بدت وكأنها ليست « مصر » .

وردد الرجل بدهشة : ايجيبت ؟! وكأنما «ايجيبت» هذي في آخر الدنيا . وبدت ملامح الرجل غريبة ، وبشرته حمراء وله أنف طويل مدبب وشفتان رفيعتان مشدودتان ويداه كبيرتان فوقهما نقط سـوداء . واجتاحني احساس جارف بالغربة وسمعت الرجل يقول أول مرة تذهبين الى باريس ؟

وقلت وانا أبتلع لعابي الجاف : نعم .

وتمنيت لحظتها لو عادت بي الطائرة الى بيتي ، ولاحت لى عينى ابنتي فيهما دموع .

فوق النافذة نقط ماء كالمطر . السحاب تغير لونه . أصبح كثيفا له لون داكن مخيف . من بين شـــقوق السحب تبدو الارض أشد غرابة . أشد بعدا . صوت الطائرة يهدر في أذنى . الرجل الي جواري ترك الجريده وأغمض عينيه . مضيفة الطائرة تضحك مع أحـــد الركاب . امرأة جالسة فى مقعدها تقرأ في مجلة الي جوارها طفل يلعب بمكعبات صغيرة ملونة . كل شيء داخل الطائرة يبعث على الطمأنينة .

مرت المضيفات بأباريق الشاى والقهوة . نكهة القهوة فى أنفى قوية . حواسى الطبيعية تعود ، ويعود معها الادراك المفاجيء بأننى فى الطريق الى باريس .

باريس ؟! الكلمة ترن فى اذنى ساحرة . من كل الرجال فى أسرتى لم يسافر احد الى باريس . قرأت فى طفولتى عن رجال مصريين سافروا الى باريس . لا أتذكر منهم الآن الا سعد زغلول وطه حسين . فى خيالى عن باريس نساء شقراوات جميلات يرقصن على ضفاف نهر السين . عيونهن زرقاء وسيقانهن وردية ناعمة وألحان الموسيقى تملأ الكون .

الطائرة تهتز وتتأرجح كأنما ستسقط بين امواج السحب . الصوت يعلن أننا نهبط فى مطار باريس ورقعة الضوء كشفت عن عبارة : اربطوا الاحزمة . أذناى تنغلقان وتنفتحان ، والازيز يشتد كالصفير الحاد . ثم الارتجاجة العنيفة الاخيرة وتلامس العجلات مع الارض .

***

المطار ضخم متعدد الممرات . أحاول تتبع العلامات فوق اللافتات لأصل الى باب الخروج . الارض نظيفة لامعة تبرق . الناس وجوههم نضرة متوردة . اجسامهم ممشوقة سريعة الحركة . كعوب النساء الرفيعة العالية ترن فوق الارض بدقات سريعة . كعوب الرجال أيضا تدب دباتها القوية النشيطة . الاجسام الرشيقة تتدافع أمامى فى تناسق وسرعة كموجات نهر رشيق .

الشوارع فسيحة والاشجار خضرتها قوية . البيوت أنيقة شرفاتها تطل منها الزهور . لم ار فى اى شرفة ملابس منشورة على حبل غسيل .

هبطت الدرجات لاركب « المترو » . الزحام شديد، والخطوات سريعة لكن لا أحد يرتطم بأحد . على المقعد

المواجه لي في القطار فتاة وفتى يتعانقان . يستغرقان في قبلة طويلة والقطار مزدحم ولا أحد ينظر اليهما . احاول أن أبعد عيني عنهما . ثلاثة شباب وفتاة يعلقون على أكتافهم آلات موسيقية ويعزفون . أبواب القطار تنفتح وحدها في كل محطة ويهبط ناس ويصعد ناس ثم تنغلق الابواب وحدها . توقف القطار في محطـــة الشانزلزيه فاندفعت بسرعة خارج القطار . صــــعدت السلالم الى الشارع . رأيت أمامي قوس النصر الضخم والشارع الفسيح على جانبيه المحلات ذات النــــوافذ الزجاجية الكبيرة . عيناى تتحركان بلا توقف . الوجوه من حولي مشرقة والخطوات مرحة . الملابس أنيقــة متعددة الاشكال والالوان . سراويل ضيقة كالقفاز . أثواب قصيرة تكشف عن سيقان ناعمة ملونة . شاب وشابة يسيران متعانقين .

الحرية تتجسد أمامي . حيث لاعيون ، ولا آذان ، ولا أنوف تندس أو تتشمم . وسرت الى عدوى الحرية شددت عضلات ظهري ورفعت رأسي وسرت بخطـوات منطلقة احرك ذراعي في الهواء . اشتريت تفاحة حمراء ضخمة ووضعتها بين أسناني ، واندفعت مع مجموعة من الشباب نحو مركب للنزهة في نهر السين .

هبطت نحو النهر أجري كما كنت أفعل وأنا طفلة . ثم توقفت لحظة التقط أنفاسي . أدركت أنني لم أعـد طفلة وضفاف نهر السين على الجانبين تحوطها الابنية ذات القباب العجيبة والتماثيل الحجرية منتصبة فوق الجدران كآلهة العصور القديمة قبل ظهـور الالهـــة السماوية . الابنية ضخمة ممتدة في الافق ، بـــرج ايفيل عملاق حديدى يبعث في الجسد قشعريرة . هواء

بارد يلفح وجهي . قلبي ثقيل وصدري يمتلىء بالرهبة هذه المدينة اكبر مني . تمتد أكثر مما يمتد بصري . والاسماء فوق الجدران الشاهقة لا اعرفها . عدم المعرفة يسلب المتعة والجمال .

وفي متحف اللوفر كدت أحوطه بذراعي . ملامحه المألوفة وراسه الضخم . كتفاه العريضتان الصلبتان . أصابعي تتحسس جسده البرونزي اللامع . وتعود الى انفي رائحة الصحراء والهرم . السـياح الاجـانب يرمقونه بعيون زرق مستطلعة . وكلمة « اسفنكس » ترتطم باذني غريبة . اسمه عندي « أبو الهول » ، رقدته في صحراء الجيزة أكثر جمالا من رقدته هنا في متحف اللوفر . عيناه تلتقطان عيني من بين كل العيون الغريبة يستشعر الغربة مثلي ويحن الى العودة . اقتربت منه أكثر ، وحوطته بذراعي كأنما سأحمله فـوق صدري واعود .

قضيت اليوم أتجول في متحف اللوفر . أمـر بين التماثيل واللوحات المتعددة ثم أعود الى حيث يرقـد أبو الهول . بالقرب منه أشعر بالالفة ، واوشـك أن أحدثه .

في احدى القاعات رأيت الناس يتجمعون حولها وهي منتصبة بقوامها الممشوق الرشيق . « فينوس » آلهة الجمال كما يسمونها . لها ذراع واحدة . أحملـق في وجهها لاعرف سر جمالها . ملامحها عادية . الى جوارها تنتصب الآلهة « أثينا » آلهة الحكمة . عيون النـاس منصرفة عنها مع أنها اكثر رشاقة من فينـوس وأكثر جمالا . هل الحكمة في المرأة غير مطلوبة وبالتالي غير جذابة ؟

وعند لوحة الجوكندا أو الموناليزا توقفت قليلا . كانت هى اللوحة الوحيدة التى وضعت داخل اطار زجاجى . وانعكس الضوء على الزجاج ورايت صورتى داخل الاطار ولم ار الجوكندا . حركت راسي ناحية اليمين واليسار لاراها دون جدوى . صفوف الناس تقف أمام الجوكندا فى خشوع . كل ينتظر دوره ليراها عن قرب . لكن ما أن يقترب حتى ينعكس الضوء على الزجاج فيرى وجهه ولا يرى وجه الموناليزا مع ذلك يستدير تاركا مكانه لمن وراءه وهو يهتف : عظيمة ! معجزة !

استدرت مبتعدة عن الجوكندا . كلما ابتعدت اراها اكثر . تشبه العذراء مريم بدون المسيح ، راسها مائل قليلا في خضوع الانثى ، وابتسامتها فيها حياء القديسة . فى اناملها امومة . ليوناردو دافنشي كان طفلا محروما من الشرعية . ولدته أمه بغير أب ، كما فعلت العذراء مريم . ولم يستطع ليوناردو دافنشى أن يتكلم فى المهد ويصبح نبيا . لكنه صنع معجزة أخرى . أمسك الريشة ورسم أمه كاترينا ، واعطاها اسم الجوكندا .. جعل ملامحها مقدسة كأم النبى . الناس يحجون اليها من جميع بلاد العالم ، ويقفون أمام صورتها فى خشوع . أناملها فيها نبض الحياة وفى عينيها حركة غريبة تتبعنى اينما ذهبت . تنظر لى كما انظر اليها . وتبتسم لى كما أبتسم لها . مددت يدى كأنما لامسك يدها . أصابعها تشبه أصابع أمى . مستديرة ومملوءة بالامومة ، والفضيلة معا . خالية من الاثم . فى كل حياتى لم أتصور أن أمى عرفت الخطيئة وأنها انجبتني بقدرة الله الروحية . حتى بعد

أن كبرت وعرفت أن أمي ليست هي العذراء مريم ، وبعد أن درست التشريح والطب ، ظلت أمي في نظري الام العذراء لم يمسسها رجل ، ولا حتى أبي .

مرت ساعة أخرى وأنا لا أزال أحملق في وجه أمي . أدرك بعقلي أنها ماتت ودفنت في مقابر الغفير قرب جبل المقطم وأن الوجه الذى أمامى هو وجه الموناليزا لكن الفاصل بين الماضي والحاضر تلاشي ، وشريط حياتي منذ الطفولة يتتابع أمام عيني الصورة وراء الصورة . كنت وأنا طفلة أحب أبي أكثر من أمي . يغيب نصف النهار خارج البيت ، ولا يؤنبني مثل أمي حين أخرج بدون اذن . ويدفع لي مصاريف المدرسة . لكني بعد أن كبرت أصبحت أحب أمي أكثر من أبي . لا تنام حتى أعود وتقدم لي العشاء وتجلس معي حتى آكل . وفي الليل أحس بها تنهض على أطراف أصابعها وتغطيني .

هل بدأت الفضيلة في العالم بحب الام قبل معرفة الاب ؟ خطوط ليوناردو دافنشي لا تعرف الا حب الام ، وتحول الحب في الانامل الى عبادة . وبالعبادة تحولت في القلب الى لذة . لكن الاب المجهول حرم الام وجعل العبادة لنفسه .

حملقت في وجوه الناس الواقفة في خشوع أمام الجوكندا . ماذا يبهرهم في خطوط دافنشي ؟ ومـاذا يتحرك في أعماقهم ؟ أهي اللـذة في أعماق القلب للمحرمات ؟ أم هي الكراهية الخفية للمقدسات ؟

أستكشف بطرف عيني أعماق الناس . لا أحد ينظر لي . راحوا جميعا في غيبوبة الفن أو هكذا بدا لي ، حتى ذلك القسيس الواقف في خشوع بملابسه المقدسة،

يملأ عينيه بسحر الجوكندا ، وجاذبيتها الآثمة .

***

سرت على شاطىء السين أعرض وجهي الساخن للهواء البارد المنعش . الشمس مشرقة والاكشاك الخشبية تعرض اللوحات ، والكتب القديمة . تذكرني بسور الازبكية . الحياة متألقة تحت الضوء المبهر . الشارع مزدحم بالناس . خطواتهم نشطة مرحة . الفاكهة مرصوصة بعناية فوق الرفوف . والزهور الوانها متعددة . الناس يجلسون في المقاهي وأمامهم صواني تلمع وفناجين وأكواب تبرق تحت الشمس .

ألمح قباب كنيسة نوتردام . النقوش العتيقة والتماثيل منتصبة تحت الضوء . أمام الباب الضخم رجل يبيع النباتات العطرية الجافة داخل أكياس من القماش . قال بالفرنسية :

ثمن الكيس عشرة فرنكات ، وتعيش الرائحة لمدة عام . الى جواره رجل يبيع البالونات الملونة . السياح من مختلف البلاد يملأون المكان . بعضهم افترش الارض وجلس يأكل ويشرب البيرة من علب مثلجة . شاب وشابة يرقدان على دكة خشبية ويتعانقان تحت الشمس .

البهو الواسع داخل الكنيسة رطب مظلم . أضواء الشموع تشيع في الجو رهبة سماوية غامضة لها رائحة كالدخان أو الشمع المحروق . الناس يسيرون بخشوع نحو الهيكل . صورة العذراء مريم تحتضن المسيح . الناس يتأملونها كأنها الجوكندا . الصليب يتدلى من الجسد المقدس . امرأة عجوز راكعة على دكة خشبية ترسم على صدرها علامة الصليب . امرأة اخرى راكعة في الطرف الآخر من الدكة . امرأة ثالثة تقترب من

الصليب وتلمسه بيدها ثم تمسح وجهها بيديها . يداها معروقتان وحركتها تشبه حركة جدتي مبروكة ، والبهو المقدس المعتم له رائحة رطبة تشبه رائحة سيدنا الحسين في طنطا . كنت لا أزال طفلة وارتبطت في ذهني الرطوبة والعتمة بالامكنة المقدسة ، والايادي المعروقة ، والوجوه المليئة بالتجاعيد . والجلاليب السود . والعيون الذابلة المتغضنة تعوم في الحزن . والاغلبية نساء فقيرات . لماذا يخاف النساء والفقراء عقاب الآلهة أكثر من غيرهم ؟

رفعت رأسي نحو الهيكل . رجل وامرأة راكعان على ركبتيهما أمام الاله المقدس . الرجل خاشع والمرأة خاشعة . لكن خشوع المرأة أشد . رأسها مطرق وعيناها الاثنتان مغلقتان . لكن الرجل يغمض عينا ويفتح عينا ، ويرمقني وانا واقفة بطرف عين .

ضوء الشموع يملأ البهو بالاشباح ، رائحة غريبة كرائحة الموت ، وظلال الاجساد تصنع فوق الارض هياكل سوداء — رجل عجوز له لحية طويلة بيضاء يتمتم وفي يده الكتاب . عيناه صغيرتان غائرتان من تحت النظارة البيضاء . جفنه مسدلة تنفتح وتنغلق بحركة سريعة منتظمة كحركة جفون عمي الشيخ عبد الحميد . كان الاخ الاصغر غير الشقيق لجدتي مبروكة . من بين ثلاثة عشر أخ غير شقيق من زوجات أبيها الاربعة . وكان يجلس في صحن الدار وفي حجرة القرآن يتمتم بصوت خافت ، وجفونه مسدلة تنفتح وتنغلق بحركة سريعة كحركة رأسه ، وحبات السبحة الصفراء بين يديه لاتكف وطرقعة شباشب زوجاته الثلاثة ، وأصواتهن الحادة يتشاجرن حتى غروب الشمس ، ثم ترقد كل واحدة

منهن في غرفتها ، ويدخل هو الى غرفة زوجته الاولى ليلة السبت ، ثم يستريح ليلة الاحد ، ويدخل الى غرفة زوجته الثانية ليلة الاثنين . أما زوجته الثالثة وهي الصغرى فتحظى بليلتي الثلاثاء والاربعاء ، ثم يستريح ليلة الخميس .

وتهمس زوجته الاولى في أذنى قائلة : عمك سيذهب الى جهنم ، لا يوزع بالعدل ليالى الاسبوع .

ولم اكن افهم ماذا تعنى . كنت لا ازال طفلة ، ولا اعرف الا أن في الاسبوع سبع ليال ، وعمى الشيخ يعطى زوجاته اربع ليالى ، ويستريح ليلتين ، فأين هى الليلة السابعة ؟

وسألته ذات يوم وهو جالس فى صحن الدار يقرأ القرآن ، وقال لى : ليلة الجمعة أعطيها لله فهى ليلة مباركة .

فى غرفتى الصغيرة بشارع سان جرمان تمددت على السرير . اغمضت عينى ثم فتحتهما . خيل الى اننى ولدت فى هذه الغرفة ، وفيها اموت ولم أعرف مكانا غيرها . حركت رأسى ورأيت حقيبة السفر فوق المنضدة ، يتدلى من مقبضها ورقة صغيرة نصفها أحمر ونصفها أبيض كتب عليها بالفرنسية باريس . أتذكر بدهشة أننى فى باريس . وتبدو لى هذه الحقيقة غريبة شبه مستحيلة . الغرفة لا تختلف كثيرا عن اى غرفة أخرى . دولاب وسرير ونافذة مغلقة . وتعود عيناى تتلمسان الحقيبة بورقتها النصف حمراء لاتأكد اننى جئت الى باريس .

ارتديت ملابسى وخرجت الى الشارع . امتلأ صدرى بهواء رطب منعش واشعة الشمس سقطت على وجهى .

ومن حولي الضوء الساطع ، والوجوه المرحة ، ومياه نهر السين تهتز تحت الشمس كملايين الاسماك الفضية على المقاعد الخشبية شباب وشابات يتعانقون . وفي حديقة اللوكسمبورج أطفال يمرحون ويلعبون . وشعرت بالجوع فجأة . فاشتريت رغيفا طويلا دسست فيه شرائح الجبن والمورتاديلا . وجلست على مقعد خشبي تحت الشجر أمضغ الطعام ببطء ، وأرقب الشمس وهي تغرب .

مهرجان من الالوان والاضواء والناس سائرون على الاقدام ، أو جالسون على المقاهي يشربون ويأكلون ويتحدثون . أوراق الشجر تلمع وتهتز . السماء تبرق بالانوار . مياه نهر السين تتراقص تحت اللمبات الملونة . نسمة الهواء باردة منعشة خالية من التراب . الوجوه نضرة تبدو عليها الراحة . المقاهي والمطاعم أنيقة تسبح في الضوء . اعمدة الابنية ضخمة تزينها التماثيل . قباب الكنائس والقصور . الحدائق ومساحات الخضرة . الشوارع نظيفة لامعة . الملابس انيقة متعددة الالوان والاشكال . النساء تمشي ببساطة وحرية وتلقائية . لا أحد ينظر الى أحد . ولا رجل يعاكس امرأة . الاتوبيس يقف في المحطة والناس تهبط وتصعد في صفوف منتظمة . لا أحد يدفع أحدا من الخلف . لايجرى احد وراء الاتوبيس . ولا يصعد أحد فوق ظهر الاتوبيس او يركب على السلم . وليس هناك رجل يلتصق بامرأة من الخلف . وليس هناك كمساري ، ينضغط بين اجساد الناس ويدق على صندوقه الخشبي المعلق على كتفه مناديا : تذاكر ! تذاكر !

كنت ارقبه قبل أن يصل الي وهو يشق الطريق بين

الركاب ، فاذا ما أصبح بينه وبيني مسافة ذراع هبطت بسرعة من الاتوبيس . ولم تكن ذراعه تطولني . مسرة واحدة هبط ورائي بسرعة ، وجعلني أدفع التذكرة . ولم يكن ثمن التذكرة حينئذ الا عشرة مليمات لكنها كانت تبدو لي وانا طفلة كأنها عشرة جنيهات .

***

أمامي فنجان القهوة باللبن ، وأنا جالسة على الرصيف في ذلك المقهى المواجه لحديقة اللوكسمبورج . العالم كله يمر أمام عيني كالنهر المتدفق . وجوه من جميع أنحاء العالم ، وجميع اللغات واللهجات .

أمدد ساقي في ارتخاء وأرشف القهوة ببطء ولذة . منذ الزيارة الاولى لباريس وأنا أحب الجلوس في المقاهي على الرصيف . وفي الزيارات الاخرى ظل مقعدي الصغير في المقهى هو مكاني المفضل . والحي اللاتيني هو اجمل الاحياء . وغرفتي في ذلك الفندق الصغير الانيق في بوليفار سان جرمان . والمكتبات والمسارح ودور السينما الصغيرة ، حيث أجلس في المقعد الدافيء المريح وامدد ساقي واتابع المشاهد لأي مؤلف في العالم ، من شكسبير وابسن وبرناردشو وتشيكوف الى مونيسير وسارتر وجان جينيه .

لازلت أجلس في المقهى . الساعة الثالثة وأمامي ساعتان حتى أذهب الى المطار لاغادر باريس . الشمس ناعمة كالقطيفة . دقات الكعوب فوق الارض مرحة نشطة .

ضحكة تنطلق من حين الى حين ثم تذوب في الهواء . شاب يجلس الى جواري يقرأ في كتاب ويرشف البيرة . رجل عجوز داخل معطف صوفي يحملق في الشارع ويمص

القهوة من فنجان ملون . امرأتان تسيران متعانقتين تضحكان بصوت عال وتقفزان لحظة في الهواء ثم تواصلان السير . أوراق الشجر تهتز مع الهواء وتلمع تحت أشعة الشمس . ومن خلال سور الحديقة أرى أحواض الزهور متعددة الالوان والاشكال .

الساعة الثالثة والربع ولا ازال امامى الوقت . طلبت كوبا كبيرا من البيرة وشرائح رقيقة من البطاطس المحمرة رائحة البيرة وملمسها المثلج فى جوفى يملأنى بالانتعاش. اترك جسمي يسترخى أكثر فى المقعد ، واغمض عينى . اشعة الشمس احسها دافئة فوق جفنى . أفتح عينى فجاة باندهاش . اين انا ؟ وادرك اننى جالسة فى المقعد على رصيف المقهى . جالسة وحدى وامامى كوب ضخم من البيرة ، والناس تمر ، والرجال يمرون ، ولا أحد يقذفنى بكلمة أو يرمقنى بنظرة .

لم أستمتع بجلسة فى مقاهى الوطن .. فالمقاهى فى بلادنا للرجال . يجلسون على المقاعد ، ويرمقون النساء السائرات ، من الامام ومن الخلف . من الراس حتى الصدر ، ثم تدور عيونهم لتفحص السيقان من الخلف والردفين .

وفى يوم جلست فى المقهى المواجه لوزارة المالية فى ميدان لاظوغلى . كانت لى بعض الاوراق فى الوزارة وتأخر الموظف المسئول وقررت انتظاره فى المقهى . طلبت كوبا من الشاى وجلست . لكن عيون الرجال ظلت ترمقنى ، من داخل المقهى وخارجها . ثم اقترب منى رجل وجلس الى المنضدة المجاورة لى وهمس ببضع كلمات لم اسمعها . وسألته بدهشة : ماذا تريد ؟

ولم أكن أعرف حينئذ أن مثل هذا السؤال يعد فى

نظر الرجالَ قبولا لفتح الحوار أو على الاقلّ عدم الرقض .
فاذا به ينتقل بسرعة الى المقعد المجاور لى ويقول بصوت
لزج : تشرب ايه ياجميل ؟ ولم أستطع التخلص منه الا
حين رفعت صوتى الغاضب عاليا ، وبدأ الرجال الجالسون
فى المقهى يضحكون ويقهقهون ، ووجدتنى أترك كوب الشاى
دون أن أكمله وخرجت مسرعة من المقهى والعيون تلاحقنى
ومعها النكات والقفشات النابية .

ولم يكن فى امكانى التنزه على شاطىء النيـــل دون
أن يتبعنى رجل يهمس بصوت قبيح كالفحيح ، أو يرفع
يده ويلمس ذراعى أو صدرى حين يكون الطريق خاليـا
من المارة .

ولم أعد أجلس فى المقاهى ، أو أتنزه على الشاطىء .
وادركت أن المرأة ليس لها مكان للنزهة فى بلادنا الا اذا
سار الى جوارها زوج أو أخ أو أى رجل آخر .

ان وجود الرجل الآخر الى جوارها يعنى على الفور
أنها ليست وحيدة ، وأن هناك رجل يملـــكها . وليس
للرجال الاخرين أن يعتدوا على امرأة مملوكة لرجل آخر .

أما المرأة الوحيدة فهى غير مملوكة لاحد ، وبالتــالى
تصبح فى نظر الرجال ملكية عامة وليست ملكية خاصة ،
والاعتداء عليها غير ممنوع ، سواء بالنظر أو اللمس .

اختفت الشمس وراء سحابة رمادية ، وهب هواء بارد
لازال أمامى ساعة ، ويمكننى السير حتى محطة المترو .
معى حقيبة صغيرة أجرها خلفى على عجلتين . لا احمـل
معى ملابس كثيرة فى السفر . اغسل ملابسى بيدى ،
واعلقها فى الحمام على الشماعات ، وفى الصباح أجدها
جافة .

ظهرت الشمس مرة أخرى ، وامتلأ الســكون بالدفء

وتلاشى اللون الرمادى . سرت بحذاء سـور حديقـة اللوكسمبرج ، ولم أهبط الى محطة المترو ، لازلت راغبة في السير وقد أسير حتى ميدان « البورت مايو » وآخذ الاتوبيس من هناك للمطار . السير فى شوارع باريس له متعة . لكن هل يكفى الوقت ؟ ونظرت فى ساعتى ، وجدتها متوقفة .

وسألت فتاة من المارة : « كم الساعة الآن ؟ كانت تسير بخطوات مسرعة ، وتعلق على كتفها حقيبة جـلدية تطل منها بعض الكتب والكشاكيل . طويلة نحيلة ، ترتدي حذاء كاوتش وبنطلون أسود ، وسترة صوفية بيضاء . توقفت عن السير ونظرت فى ساعتها بسرعة ثم قالت : الساعة الرابعة الا ربع . وقلت : أشكرك .

رفعت وجهها نحوى ورأيت الزرقة اللامعة فى عينيها . شاهدتها تبتسم وتنظر الى ثم سمعتها تقول قبـــل أن تمضى فى طريقها بسرعة : « فوزت بيل مدام » « أنت جميلة ياسيدتى » .

قبل أن تدرك أذناى كلماتها كانت هى قد اختفـت واستدرت ورائى ، فلم أر الا ظهرها وهى تسير بسرعة ونشاط . ظهر مستقيم داخل السترة الصوفية البيضاء وجسم ممشوق وخطوات خفيفة سريعة فوق الارض .

وظل صدى صوتها فى أذنى : أنت جميلة ياسيدتى . وفى الاتوبيس الى المطار ظل الصوت ، وعـــادت الى صورتها ، الزرقة اللامعة فى عينيها وهى تبتســـم . ظهرها المستقيم وخطواتها السريعة النشطة . صـــوتها والحروف كما نطقتها الحرف وراء الحرف « أنت جميلة يا سيدتى » ، وحركة شفتيها السريعة النشطة كحـركة قدميها فوق الارض .

وفي الطائرة جلست وربطت حزام المقعد . طغى صوت الطائرة على صوتها ، فلم أعد أسمعه . لكن بعد الاقلاع فككت الحزام من حولى وسرت فى الممر حتى مؤخرة الطائرة . ووقفت أطل على باريس من النافذة الخلفية . الانوار كعناقيد اللؤلؤ فوق مربعات حمراء . ومن فوق الانوار زرقة لامعة . ونظرت الى وجهى فى المرآة المعلقة فوق الحوض ، كأنما وجه جديد يطل على . الملامح تشبه ملامحى القديمة لكنها أصبحت كالملامح الجديدة . البشرة تتألق بلون أكثر حمرة . العينان أكثر اتساعا و « النني » الاسود أشد بريقا . وهمست للمرآة : انت جميلة ياسيدتى .

وسمعت صوتى بأذنى : انت جميلة ياسيدتى . لاول مرة أقولها لنفسى بصوت عال . كنت أهمس بها بلا صوت حتى لا يسمعنى أحد . فلم يكن هناك أحد فى الوطن يرى أننى جميلة الا انا . ولم اعرف لماذا ؟ لكن مقاييس الجمال لم تكن تنطبق على . وفى أعماقى كانت لى مقاييس أخرى . وبينى وبين نفسى ادرك أن هذه المقاييس تنطبق على . ادراك فطرى نابع من أعماقى وليس له دليل فى العالم الخارجى . ومع ذلك فهو ادراك كامل يشبه اليقين ، أو هو اليقين ذاته .

الا ان اليقين يشوبه الشك . فلا أحد من حولى يقول لى . ومنذ الطفولة لم أسمع أحدا يقول لى أنت جميلة . لا أبى ولا أمى . وجدتى آمنة كانت تمصمص شفتيها فى حسرة وتقول أننى ورثت بشرة أبى السمراء . وجدتى مبروكة ترمق أسنانى الامامية البارزة وتمط بوزها قائلة « ورثت الضب عن أمك » . وفى المدرسة حين تغضب

مني البنات يقلن لى اننى طويلة ونحيفة مثـل عمـود السـوارى .

ولم تكن أمى تعتبر قامتى الطويلة عيبا ، لكنها كانت ترى أختي الاصفر اجمل مني لانها ورثت بشرتها البيضاء وشعرها الناعم .

لم يكن شعري خشنا ، لكنه لم يكن ناعما أيضا ، وكانت فيه تموجات طبيعية ، لكن خالتى كانت تراه خشنا ، وتأخذنى معها الى الحلاق ليكوى شعرى بالمكواه الحديدية بعد أن يحميها على النار . واشم فى انفي رائحة احتراق الشعر ، واختنق بالشسياط والدخان . واشد راسي من بين يدى الحلاق فتلسع المكواه اذني ، او طرف انفي .

وحين يدب الخلاف بين خالتى وعمتى تتهمنى خالتى بان شعرى اكرت وبشرتى سوداء مثل جدود ابى . اما عمتى فكانت تقول أن « الضب » جـــاءني من جدود أمى .

واشترت لى خالتي علبة بودرة بيضاء أخفى بها بشرتى السمراء . وعمتى كانت تنصحنى بالا أفتح فمى وانا اضحك . اما القامة الطويلة فلم يكن لها من علاج الا ان اسير بظهر محنى .

وشددت عضلات ظهرى وعنقى حتى ارتطمت راسى بسقف الطائرة المنخفض . وغسلت وجهى بماء الكولونيا لافتح مسام البشرة واطهرها من آثار المساحيق .

وفى كل مرة ارفع راسى نحو المرآة فى الطائرة ارى وجهى اجمل . وفى كل رحلة خارج الوطـن كنت اندهش .

وجهي دائما يبدو أجمل في مرايا الطائرات عنه في المرايا في بيتي أو أي مرايا أخرى في الوطن . ولم اعرف ، هل كانت ملامحي تتغير بمجرد اختراق الحدود ، أم أن أنواع المرايا في الطائرات كان أجود ؟

***

بعد باريس حملتني الطائرة الى لندن . ثم ركبت القطار الى بانجور في مقاطعة ويلز . ومن هناك ركبت الباخرة الى دبلن عاصمة ايرلندة .

واصبحت أنتقل من بلد الى بلد بسهولة أكثر . وكلما اتجهت نحو الشمال وهنت الشمس وتكاثفت السحب واشتدت برودة الهواء ثم هطلت الامطار كالسيل . والسحب بعد المطر تتباعد قليلا ، وتظهر الشمس مرة أخرى ، لكنها ليست كالشمس في مصر .

وكنت أظن أن الشمس لا تشرق الا في مصر . لكن السفر في البلاد جعلني أرى شموسا مختلفة عن الشمس عندنا . فالشمس كنت اراها ساطعة دائما في الصيف والشتاء ، وفي الربيع والخريف . ضوؤها لا يكاد يتغير طول العام . ضوء ساطع قوي يجعل الاشياء تحت عيني مسطحة أو ذات سطح واحد . كالارض المستوية بلا ارتفاع وبلا عمق . مساحات أفقية ممدودة كالصحراء الساطعة . وشدة السطوع تجعل الاشياء بيضاء أو سوداء وتختفي الالوان الاخرى والظلال .

لكن الارض هنا لها ارتفاعات وانخفاضات . استدارات غريبة . منحنيات عميقة . والجبال تلقي الظلال المتعددة على الارض والانهر والتلال الخضراء . والمطر ينهمر من السماء كقطع صغيرة من الثلج الابيض الشفاف يعكس

الاضواء كمثلثات من البللور الدقيقة أو شظايا المرايا متعددة الزوايا . وأشعة الشمس سريعة التغير ، وألوان السماء تتبدل في اللحظة الواحدة مابين الرمادي والارجواني مرورا بألوان الطيف السبعة . والغابات كثيفة الخضرة ، واللون الاخضر له كثافة ترى بالعين كطبقات متراكمة متعددة الالوان داخل اللون الاخضر الواحد . والهواء أيضا سريع التغير مابين برودة الشتاء القارص ودفء الربيع الناعم في اللحظة الواحدة . وحركة السحب واتجاه الريح ورائحة الهواء ولون السماء والارض كلها في تغير دائم ، والدنيا تبدو متعددة الأبعاد وكأنها ليست دنيا واحدة .

عيناى تدوران حولى ، أو ربما أدور حول نفسى ، ولا اعرف هل أنا أدور أم الدنيا هى التى تدور .

عيناى لم تتعودا بعد على كل هذه الابعاد المتعددة للشيء الواحد . كنت أرى الشيء واضحا ، والدنيا مكشوفة امامى فى خط مستقيم أرى بدايتها ونهايتها فى آن واحد .

وعلى احدى تلال ويلز الخضراء رأيت فوق العشب رجلا عجوزا راقدا يرتدى سترة صوفية قديمة وفى الاكمام ثقوب . وسمعت الشباب يقولون انه السير برتراند راسل . واتسعت عيناى بدهشة . كنت أرى المشهورين فى بلادنا يرتدون ملابس ذات قماش جديد يلمع تحت الضوء الساطع . ليس فى أكمامهم ثقوب ولا يرقدون على الارض .

وفى احد شوارع بانجور رأيت امرأة داخل سيارة ترتدى حلة خضراء والى جوارها رجل . وسمعت أحد المارة يقول : انها الملكة اليزابيث . ورايت بعض المارة يقفون وينظرون نحوها . لا تصفيق ولا هتاف . ثم واصلوا السير . ومرت سيارة الملكة بهدوء ، ومن خلفها سيارة اخرى . وانتهى الموكب دون أن يتغير شيء في الدنيا .

لا صفارات ولا سيارات بوليس تزأر لتخلى الشوارع من الناس . لا موتسيكلات تجرى وتعوى كالضبابر المجنونة وتمنع المرور . لا طوابير العساكر الممدودة بطول الشارع ووجوههم للجدار رافعين بنادقهم . لا حشود بشرية تعبأ فى العربات اللورى لتفرغ فوق الأرصفة حناجر تدوى بالتصفيق والهتاف .

حركت راسى من حولى باندهاش . مر الموكب دون أن يتغير شيء فى الدنيا . اهى دنيا غير الدنيا ؟ أم أن دنيانا هى التى غير الدنيا ؟

واكتشفت أن الدنيا فى بلاد العالم يمكن أن تختلف عن دنيانا . وطبائع الناس ايضا تختلف . لكن هذا الاكتشاف لم يساعدنى على رؤية الاوطان الاخرى وسكانها لاول مرة فحسب ، ولكنى رأيت وطنى والناس فى الوطن لاول مرة ايضا .

وبدأت أدرك أن السفر خارج الوطن ضرورى ، ليس فقط لاعرف البلاد الاخرى واهلها ، وانما لاعرف من انا ومن نحن ؟ فان معرفة النفس لا تتحقق الا فى ضوء معرفة الآخرين .

واصبحت كلما أسافر ثم أعود الى الوطن ترتطم عيناى أول ما ترتطم بتلك الصورة الضخمة فوق الجدران . وعلى أقواس النصر فى الميادين ، وفوق أعمدة النور فى الشوارع . داخل اطارها المذهب . تحوطها الاعلام ولمبات كهربية . تطارد الانسان منا أينما ذهب . تطل عليه من فوق مكتبه . ومن فوق مائدة الاكل فى أى مطعم . ومن فوق فنجان القهوة فى أى مقهى . ومن فوق سريره وهو نائم الى جوار زوجته : صورة حاكم مصر .

النصف الآخر من الأرض

ورثت عن أبي كراهيته لحاكم مصر والانجليز . ولم اكن أنجذب الا لرجل مثل أبي . وفي كلية الطب كان اول حب لرجل قرر أن يطرد الانجليز من مصر . لكنه لم يطرد الانجليز ، وطاردته الحكومة حتى مات في السجن .

واصبح للسجن في ذهني علاقة بالحب . وكلما اسمع عن رجل مسجون أو دخل السجن يوما احس الخفقات تحت ضلوعي .

حين عدت من السفر وجدت التراب فوق مكتبي . ومن فوق الجدار صورة الحاكم الضخمة داخل اطار ذهبي . واصبح قلبي ثقيل . ولا ادخل مكتبي الا واشعر بالغربة .

وفي ربيع عام ١٩٦٤ التقينا . انا وهو وحدنا . وسألته من اين جاء ، قال من السجن . وضحكنا ، وملأنا صدورنا بهواء المقطم وذرات الغبار . وتزوجنا دون أن اشتري ملابس جديدة واشترينا ثوبا جديدا لطفلتي ارتدته في يوم العيد ، وعدنا الى البيت نحمل كعكة كبيرة .

وفي سكون الليل وضعت رأسي على صدره وانهيت غربتي . لكن الصفارات في الشارع ظلت تنطلق من عربات البوليس ، ورجال بالهراوات يطاردون التلاميذ . وعساكر واقفون على كل شبر من الشارع كالاعمدة

الخشبية . ظهورهم للناس ووجوههم للحائط .

كنا نسير فى الشارع متعانقين ، والعيون ترمقنا بكراهية . علامات الحب بين الناس مكروهة . ولا ينامون الا فى بحر من الشك . وفى ليلة مقمرة اوقفنا السيارة بجوار النيل ،وجلسنا نرقب ضوء القمر وذراعه تحوطنى وفجأة رأينا الرجل البوليسى يقتحم السيارة . وقلنا له اننا زوجان . ولم يصدقنا . علامات الحب بين الزوجين غير معروفة . ولابد أن يعيش الزوجان فى بحر من الكراهية . ولم يطمئن الرجل البوليسى حتى راى قسيمة الزواج بتوقيع المأذون ، والشهود .

***

كان صامتا ، ثلاثة عشر عاما فى السجن . بشرته ملوحة بشمس الواحات فى الصحراء الغربية . وجهه نحيل وعيناه مرفوعتان بكبرياء طبيعى ، سوداوان واسعتان ، تتسعان لحزن العالم ، واصرار التحدى ، وعدم اليأس . الرجال من حوله يثرثرون وهو صامت . يتناثر رذاذ لعابهم فى الجو مع كلماتهم الثورية . يلوحون بقبضة اليد فى الهواء ويضربون بها على المنصة وهو صامت . يرمقونه بطرف عين فى وجل . صمته يؤلمهم كوخز الابر . وجوده على ظهر الدنيا يضايقهم ، يكشف عن زيفهم .

حاولوا ازالته من الوجود . لكنه نوع من البشر يظل موجودا رغم كل شيء ، كالظواهر الطبيعية .

وانا أحب الطبيعة وظواهرها . بينى وبين المصنوع عداء . نشأت بين الخضرة ، والزرع يكبر تحت الشمس ، والماء يتدفق فى النهر ، وأتطلع نحو الطيور فى السماء وأتمنى أن ينمو لى جناحان طبيعيان .

الجناحان أمام عيني . مصنوعان من الفولاذ وليسا طبيعيين . وأنا أحلق في السماء . قلبي ثقيل . لم يعد للسفر البهجة القديمة . تركت في الوطن ابنتي وزوجي واخذت معي ابني الذي لم يولد بعد .

من تحت حزام المقعد أحس حركته ، يدق بيده الصغيرة جدار بطني . ألف الغطاء الصوفي من حولي لادفئه .

من تحتي الصحراء الشاسعة الصفراء يتوسطها نهر النيل ، والشاطئان الرفيعان كالشريطين السوداوين بامتداد الفرعين ، وبينهما الارض على شكل مثلث أسود .

أسندت رأسي الى ظهر المقعد واغمضت عيني . الوجهان يطلان من وراء الزجاج . يلوحان لي من الشرفة البعيدة ثم يذوبان في الجو كأنما اختطفتهما يد خرافية غير مرئية . السحب كثيفة وأنا بين السماء والارض ، داخل صندوق حديدي مغلق ، ينطلق نحو عالم مجهول .

اطرافي باردة مثلجة . كمن القت بنفسها في مياه المحيط دون أن تعرف السباحة .

مرت مضيفة الطائرة بالشاي والقهوة . نكهة الشاي انعشت صدري ، والسخونة بدأت تسري في اطرافي ، وخيالي بدأ يصحو كالمارد النائم ، وامريكا الشمالية تبدو لي مغامرة جديدة ، كالارض البكر وكأنما لم يكتشفها انسان من قبلي ، ولا حتى كريستوف كولومباس .

***

الساعة في يدي تشير الى العاشرة صباحا . الشمس تلمع في الافق ومن تحتها بساط أبيض متعرج من

السحب . اشبه بالتلال الصغيرة من القطن المندوف الابيض .
اجتازت الطائرة الساحل واصبحنا فوق البحر . اغمضت عينى ونمت . بالامس نمت نوما متقطعا كنت اصحو فجاة وانظر فى الساعة وقد تصورت ان الطائرة اقلعت بدونى . زوجى الى جوارى نائم . اتأمل ملامحه وهو مغمض العينين . انفاسه هادئة بلا شخير ، وبلا شارب اسود فوق الشفة العليا . يفتح عينيه ويبتسم : لازال الوقت مبكرا .
واقول : اخشى أن تفوتنى الطائرة .
ويحوطنى بذراعيه هامسا : واذا فاتتك لن يحدث شىء . هناك طائرات أخرى .
لكنى اتصور انه لو فاتتنى هذه الطائرة فلن تكون هناك طائرات أخرى .
فى الغرفة المجاورة ابنتى . فتحت عينيها وابتسمت ثم نامت مرة أخرى .
حملقت فى السماء والسحب . عيناى شاردتان وخلايا عقلى عاجزة عن ادراك الحقيقة . الطائرة تجتاز الارض وراء الارض والبحر وراء البحر وانا لا أحس شيئا . الارض تدور ولا أحس دورانها . أو أننى أدور حول الارض ، والارض لا تحس بى .
منذ ولدت وانا أحاول أن تكون حركتى فوق الارض محسوسة . لا يمكن أن أعيش وأموت ولا يدرى بى أحد لكنى اكتشفت أن ملايين مثلى يتحركون فوق الارض والارض لا تبالى . والسماء أيضا لا تبالى .
جناح الطائرة من خلال الزجاج فولاذى ضخم . يشق السحاب كسكين ، فى نهايته لمبة حمراء تومض كنجم

يظهر ويختفي ثم يظهر . كياني داخل الطائرة هزيل . خطأ صغير فى ذلك الجناح قادر على اهـــلاكى . كيف اكتشفت الطائرة ؟ لاح لى وجه أبي يحكى قصة رجل عربى أراد أن يقلد الطيور ، فصنع لنفسه جناحين مسن الريش ، واستطاع أن يطير ، لكنه سرعان ما سقط على الارض . واكتشف أنه نسى أن يصنع لنفســه ذيلا من الريش .

حسدت الطيور وأنا طفلة ، لانها تحلق فى السماء ، اما انا فما أن أقفز فى الجو حتي تشدنى الارض .

مياه المحيط لا تزال تحت السحب . الساعة فى يدى تشير الى الثامنة . الشمس غربت منذ أكثر من ســاعة فى الوطن ولابد أن الدنيا أصبحت ليلا .

لكنى أرى قرص الشمس فى وسط السماء . الصوت يعلن أننا سنهبط فى مطار نيويورك بعد دقائق وأن الساعة الواحدة بعد الظهر .

التفت اصابعى حول مسمار الساعة لاحرك العقارب الى الوراء سبع ساعات . هل درت حـــــول الارض واصبحت الآن فوق النصف الاخر من الكرة الارضية ؟!

***

فى كل رحلة جديدة يشتعل خيالى ، وتتأجج رغبة الاكتشاف ، ولكن حين أطأ بقدمى على الارض الجديدة تنطفىء الجذوة وتتبدد النشوة . هل كنت أتوقع أرضا غير الارض ؟ أو ناسا غير الناس ؟

قدماى تدبان على الارض ، واختبر بكعب حـــذائى صلابتها . ملمسها تحت قدمى كالنصــف الاول مـــن الكرة الارضية . والهواء ساخن رطب يشبه هواء مصر فى الصيف .

عيناي تدوران حولى ، تفتشان بين وجوه الناس عن وجه غريب لونه احمر وعلى راسه الريش . أكنت ابحث عن الهنود الحمر ؟!

مطار نيويورك ضخم يشبه مطار باريس واكثر ضخامة زحام وناس من مختلف الاشكال والالوان . بيض وسود وسمر ومن ذوى الملامح اليابانية والصينية . امـــــرأة سوداء سمينة الردفين ترتدى قبعة عليها ريشة حمراء ، وحذاء احمر لامع تطرقع على الارض بخطوات بطيئة . الى جوارها فتاة بيضاء طويلة نحيفة بلا ردفين داخـل بنطلون ضيق اخضر وحذاء كاوتش تجرى وشعرها الاصفر يتطاير . رجل أبيض جالس على مقعد يشرب من علبة كوكاكولا حمراء شعره أصفر منكوش يرتدى قميصـــا رسمت عليه قطط زرقاء وصفراء . ياقة القميص مثبتة بزراير صغيرة من الامام . وجلان قصيران سمينـــان ملامحهما يابانية يجريان وكل منهما يمسك فى يده حقيبة جلدية سوداء . طفلة سوداء تجرى وترفع ذراعها الى اعلى وفى يدها كوب كرتون ملىء بالايس كريم . رجل صينى يهرش فى رأسه وسرواله واسع طـويل يلامس الارض . جريت مع الناس الى باب طائرة الهيلوكبتر . دارت محركات الطائرة بسرعة وارتفعت فى الجو دون أن يغلق الباب . عمارات نيويورك الشاهقة تلامس السحاب وبينها عدد من البحيرات والانهر . الطائرة تســـير بين قمم العمارات وفى كل اهتزازة امسك فى المقعد امامى . الركاب الآخرون جالسون فى مقاعدهم يقرءون الصحف وكأنهم فى الاتوبيس .

هبطت الهليوكبتر بعد دقائق وسمعت صوت فرامل عجلاتها ثم توقفت فجاة واندفع الناس من الباب .

اندفعت معهم ، واتجهت نحو طائرة متجهة الي الجنوب . اربع ساعات من التحليق ثم سمعت صوت المضيفة يعلن اننا سنهبط في « رالي » . الهواء راكد ساخن ، واشد سخونة من هواء القاهرة في اغسطس . والرطوبة مرتفعة . العرق أحسه تحت ملابسي وشعري التصق براسي . كفاي مبللان والحقيبة تنزلق من يدي . اسرعت الى أقرب تاكسي وقلت له : الى المدينة الجامعية . السائق أبيض البشرة ، يتكلم الانجليزية بطريقة غريبة لا افهمها . ينطق نصف الكلمات فقط ، ويبتلع النصف الثاني . لا يفتح فمه وهو يتكلم ، وكأن الحروف تخرج من أنفه .

وسألني : من اي بلد أنت ؟

وقلت : من مصر .

وصاح بدهشة : أوهوه !

ثم سألني : وماذا تعملين ؟

قلت : طبيبة .

صاح بدهشة : اوهوه ! هل في مصر اطباء ؟

وقلت : طبعا مثل الاطباء عندكم .

وقال : الاطباء عندنا اغنياء جدا . لابد أنك غنية .

ورأيته يرمقني بنظرات فاحصة في المرآة أمامه . عيناه زرقاوان ضيقتان وعلى رأسه قبعة صغيرة من القماش وله أنف طويل مدبب مخيف ، وخيل الي أنه سيأخذني الى مكان بعيد ويستولى على مامعى . لم يكن معى الا حقيبة واحدة ، وثلاثون دولار . وقلت : انا طبيبة ولكنى فقيرة .

وصاح بدهشة : كم تكسبين في العام ؟

ولم أكن حسبت من قبل دخلى في العام . كنت قد

أغلقت عيادتى من سنوات ، واتقاضى من الحكومة فى ذلك الوقت أربعين جنيها فى الشهر .

وقلت : أقل من خمسمائة جنيه مصرى فى السنة .

وصاح بدهشة : أوه ! هذا قليل جدا . هنـا يكسب الطبيب ثلاثين الف دولار فى السنة على الاقل .

ورددت بدهشة : ثلاثين الفا ؟!

وقال : على الاقل . بعضهم يصل الى ضعف هـذا واكثر .

وسألته : وانت ؟ كم هو دخلك فى الشهر ؟

ومصمص شفتيه : انا ؟ مهما اشتغلت ليل نهار لا اصل الى خمسة آلاف أو ستة آلاف .

وقلت بدهشة : أوهوه ! انت غنى جدا .

وقال : ستة آلاف فى السنة لا شيء ، وأنا من الفقراء هنا .

وقلت : فقراء ؟ هل فى أمريكا فقراء ؟

وضحك واهتزت القبعة فوق راسه . واصبع طويل ابيض يكسوه شعر كثيف أصفر أشار الى السـوت والشوارع وقال : هذه المدينة كلها يملكها اربعة أشخاص ، من أصحاب الملايين . وفى البيوت الفقيرة نعيش نحن ، وعندى اربعة أولاد وزوجة .

قلت : وزوجتك الا تعمل ؟

وقال : ماذا تعمل ؟ ومن يرعى الاولاد ؟ وعندى ولد مريض بالدرن الرئوى . انه يرقد فى مصحة جراقلى ، فى الطرف الآخر من « رالى » .

وتذكرت مستشفى الصدر وطابور المرضى . شددت الزجاج الى تحت لافتح نافذة السيارة . لا هواء وصدرى مختنق ببخار الماء . الى جوارى حقيبة ملابسى ، تتدلى

ورقة نصفها أخضر ، عليها حروف بالانجليزية ، «رالى».
ماهي « رالى » ، وهل أنا فى أمريكا ؟ وما الذى يمكن أن أصفه من غرائب الدنيا حين أعود الى اهـلي فى الوطن ؟

***

غرفتى بالمدينة الجامعية شديدة الحرارة . والوقت يمر ببطء . اهبط الى الدور السفلي حيث التلفزيون . جونسون يتكلم عن السلام وعن فيتنام . طالبة امريكية جالسة الى جوارى تبصق على الشاشة وتصيح : كاذب! تختفى صورة جونسون فجأة قبل أن يكمل كلامه وتظهر امرأة نصف عارية ترقص وتغمز بعينها وتشرب من زجاجة كازوزة اسمها « غمزة عين » . تتراقص وتمط شفتيها وتقبل فوهة الزجاجة ثم تغنى « اشربوا غمزة عين » وتختفى المرأة ويعود جونسون الى الظهور يكمل حديثه عن السلام . مدت الطالبة قدميها فى وجـه جونسون وهتفت : تتحدث عن السلام ثم ترسل جنودك بالاسلحة الى فيتنام !

ونظرت الى وقالت : من أى بلد ؟

قلت : من مصر .

هتفت بدهشة : أوهوه !

اسمها مارى وترتدى شورتا أبيض قصير ، وحذاء كاوتش ازرق . طويلة ونحيفة وشعرها أصفر طويل ينسدل على كتفيها . عيناها خضراوان فيهما بريق . وفى نهاية الاسبوع أخذتنى الى أسرتها فى « شابل هيل » على بعد خمسين ميلا من « والى » . قادت سيارتها الطويلة الضخمة بين الشوارع الملتوية داخل غابة كثيفة الخضرة ، عالية الاشجار . البيوت متناثرة فى الخضرة . توقفنا

امام بيت صغير ابيض تحوطه حديقة واسعة . أمها تزرع الزهور ، وأبوها فوق سقالة يدهن النوافذ بالطلاء . ارتدت « المايوه » وقالت هيا بنا الى حمام السباحة فى النادى . قادت السيارة وهى ترتدى المايوه .

فى دورة المياه فى النادى بابان . كتب على احدهما للبيض ، وكتب على الآخر : للملونين . وتوقفت أمام المرآة أدقق النظر فى لون بشرتى ، ولم اعرف ايهما ادخل . ثم دخلت من باب الملونين .

عادت مارى الى دون أن تسبح وقالت بغضب : تصورى ! حمام السباحة مغلق للتطهير لان اثنان من الزنوج نزلا فيه بالامس . هذه الولاية عنصرية ! وبصقت على الارض .

وفى الليل دعتنى هى وصديقها ديفيد للرقص . القاعة صغيرة مزدحمة بالشباب ، والدخان ورائحة البيرة والموسيقى الراقصة . الرءوس كلها شعرها طويل والاجسام داخل السراويل الضيقة نخيفة طويلةوالحركات منطلقة حرة ولا أكاد افرق بين الولد والبنت .

دعانى ديفيد الرقص لكنى فضلت الجلوس وشرب البيرة . ورقص ديفيد مع مارى ، وعيناى تتابعان حركاتهما الراقصة . سرت الى عدوى الرقص مع سريان البيرة فى عروقى ، ووجدتنى أحرك ذراعى ورأسى وأنا جالسة ، ثم نهضت رقصت مع ديفيد ومارى ، وشباب آخرين انضموا الينا ، وبدانا نغنى معا ونضرب الارض بأقدامنا بقوة ايقاع اللحن .

منذ الطفولة وانا أحب الرقص بحركات قوية . ترمقنى العيون بنظرات استنكار . عضلات البنت لابد أن تكون ضعيفة ، وحركاتها فى الرقص رقيقة وديعة . لكن رقص

البنات لم يكن يحركنى . حركات بطيئة ، وعضـلان مرتخية ، ورجرجة الشحم فوق البطن والردفين . وذلك اللحن البطيء الملىء بالنواح والبكاء .

تركت حلبة الرقص وجلست شاردة . احساس مفاجيء بالحزن . واقبلت نحوى مارى وجلست الى جوارى ، وتساءلت بدهشة : ماذا حدث ؟

وقلت : الشباب عندنا وخاصة البنات ليست عندهن هذه الحرية .

وزمت شفتيها ثم قالت : ونحن ايضا ليس عندنا حرية ، فانا احب ديفيد لكن أبى وأمى لا يحبانه لانه اسود .

وقلت : وماذا ستفعلين ؟

قالت : سنتزوج ونسافر الى بلد آخر . اريد لاطفالى أن يعيشوا فى مجتمع اكثر حرية .

***

المسئولة عن الادارة فى الجامعة امرأة عجوز . عيناها زرقاوان غائرتان تحت نظارة بيضاء ، لها سلسلة ذهبية تعلقها فى أذنيها ، نظراتها من تحت العدستين البيضاوين فاحصة ، حادة . أحسها فوق وجهى كاللسعات . تدقق النظر الى لون بشرتى السمراء كأنما تقيس درجـة السمرة ، ودرجة ارتفاع الانف . والصدر والبطن .

وقلت لها : لون بشرتى ومقـاييس جسمى مسـالة شخصية .

وفغرت فاها واهتزت النظارة وسقطت فوق انفها ، فأمسكتها بيديها ، وصاحت بدهشة :

ماذا قلت ؟

وتركتها تنظر الى بملء عينيها ، ثم وضعت الاستمارة

تحت نظارتها وقلت : انظرى ، هذه هى خانة الاسم ، واسم الاب ، والجد ، والعنوان ، والجنسية ، وتاريخ الميلاد ، والحالة الاجتماعية ، والديانة ، ولون البشرة والعينان ، والطول ، والشـــهادات العلميـة السابقة ، وشهادة حسن السير والسلوك ، وعدم وجود ســوابق او جرائم سياسية او دخول السجن فى اى مرحلة مــن العمر ، وعدد الجوائز التى تم الحصول عليها ، والخلو من العاهات .

كانت الاستمارة كاملة البيانات ، وأمام كل خانة كتبت المعلومات المطلوبة بدقة وعناية . مثلا أمام خانة الطــول دونت ١٧١٫٥ سنتيمتر بعد أن وقفت أمام الحائط . ووضعت علامة بالقلم عند قمة راسى ، ثم قست المسافة بين هذه العلامة والارض وهى طول قامتى بالضبط . وامام خانة السوابق والجرائم ، كتبت لا شىء ، ولم اكن دخلت السجن بعد . وأمام الديانة كتبت مثل ديانة ابى . وامام لون العينين كتبت « سوداوان » ثم أضفت كلمة « لامعتان » من أجل الدقة . ومن أجل الدقة أيضا كتبت امام الخلو من العاهات : توجد حسنة سوداء فى مؤخرة العنق .

ومع كل ذلك ظلت المسئولة عن ادارة الجامعة تنقــل عينيها من راسى الى قدمى ثم قالت بصوت أخنف : ولكنك لم تدونى فى الاستمارة انك حامل .

وبحثت بعينى عن خانة خاصة بالحمل فلم أجد ، وقلت لها : ولكن لا يوجد بالاستمارة ... وقاطعتنى قائلة : وهل يمكن لجامعة محترمة أن تخصص فى اســتماراتها خانة لمثل هذه الاشياء ؟ وقلت بغضب:مثل هذه الاشياء؟

ماذا تعنين بمثل الاشياء ؟ هل الحمل عيبا ؟ ثم اننى حامل بطريقة شرعية !

واخرجت من حقيبتى بسرعة قسيمة الزواج ، بتوقيع المأذون والشهود . واتسعت عيناها الفائرتان الزرقاوان بذهول وهى تحملق فى الحروف العربية التى بدت لها كاللغة الهيروغليفية أو الصينية ، وتوقيع المأذون على شكل شخبطة بالقلم .

وتساءلت بدهشة : اى لغة هذى ؟

وقلت : اللغة العربية .

وصاحت بريبة : أنت مصرية أم عربية ؟

وقلت : اصبح المصريون عربا منذ الفتح العربى لمصر عام ٦٤٠ م على يد عمرو بن العاص !

***

وجدتنى وحقيبتى داخل الاتوبيس الضخم المتجه شمالا . تراجعت بيوت « رالى » وشوارعها الى الوراء ، واصبحت ولاية نورث كارولينا وجامعاتها خلف ظهرى . فتحت زجاج النافذة وملأت صدرى بالهواء المنعش القادم من ولايات الشمال . واحسست كالسجين الذى يطلق سراحه ، أو المختنق الذى يخرج من بطن الارض الى سطح الدنيا .

ليلة الامس قررت السفر الى نيويورك . هل يمكن ان آتى الى أمريكا ، فلا ارى منها الا تلك الولاية العنصرية فى الجنوب ؟ .

لكنى فى الصباح سمعت من أحد الطلبة العرب أن مؤتمرا هاما سيعقد فى جامعة الينوى ، ووجدتنى داخل الاتوبيس المتجه الى شيكاجو .

***

وقفت وسط سبعمائة طالب وطالبة ننشد بصوت واحد باللغة العربية :

نحن الشباب لنا الغد
ومجده المخلد
شعارنا على الزمن
عاش الوطن عاش الوطن
بعنا له يوم المحن
ارواحنا بلا ثمن .

على المنصة الرئيسية كان يجلس ممثلو البلاد العربية ، وحاكم ولاية الينوى ، وعميد الجامعه ، وممثلو الاتحادات الطلابية الامريكية والعربية . وكان رئيس منظمة الطلبة العرب طالب مصرى اسمه أسامة الباز ، وعدد الطلبة العرب فى الولايات المتحدة حينئذ كان سبعة آلاف طالب وطالبة . وكان الدكتور فايز الصايغ احد المحاضرين فى المؤتمر ، هو فلسطينى درس فى أمريكا الفلسفة ، وتولى دائرة الابحاث الفلسطينية فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٥ . ثم عين أستاذا لشئون الشرق الاوسط بالجامعة الامريكية فى بيروت فى عام ١٩٥٨ . وكلفته منظمة التحرير الفلسطينية بتأسيس مركز للأبحاث الفلسطينية فى بيروت . قرأت بعض مؤلفاته عن الاستعمار الصهيونى فى فلسطين ، والحياد وعدم الانحياز ، وفلسفة الاشتراكية عند جمال عبد الناصر وضباب البورقيبة . طرد أكثر من مرة من الجامعات الامريكية ، الصهيونيون كانوا يحاربونه ويحاولون اقناع المسئولين بطرده بحجة أنه يستغل منبر التدريس للقضية الفلسطينية .

وفى احدى القاعات كان الدكتور عزت طنوس يشرح لبعض الطلبة العرب مشكلة تحويل مجرى نهر الاردن . هو طبيب فلسطيني تخصص فى طب الاطفال عام ١٩٢٠ بعد الاحتلال الصهيوني الفلسطيني سافر الى لندن وأنشأ المركز العربى فى لندن . وغادر لندن عام ١٩٤٠ الى القدس ، وعين أمينا لبيت المال فى الحركة الوطنية الفلسطينية بالقدس وفى عام ١٩٦٥ أصبح مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى نيويورك .

ومن الشخصيات العربية الاخرى فى المؤتمر سعادات حسن ، والدكتور محمد المهدى الذى تحدث عن دور البترول فى القضية العربية ، والدكتور برهان حماد وتكلم عن الخليج العربى ، والدكتور رشاد مراد وكان رئيسا للوفد الدائم للجامعة العربية لدى الامم المتحدة فى نيويورك .

ومن الرجال الامريكيين المهتمين بقضايا البلاد العربية، « هارولد ماينور » ، المشرف على جمعية أصدقاء الشرق الاوسط فى أمريكا .

وقد عمل قنصلا لامريكا فى القدس ثلاثين عاما . وفى عام ١٩٥٣ أصبح سفيرا لامريكا فى بيروت . لكنه استقال من منصبه وتفرغ لقضايا العرب فى الجامعات الامريكية .

وكان « هارولد ماينور » هو أول أمريكى اسمعه يتكلم ضد الصهيونية وضد سياسة جونسون . ورنت كلماته فى أذنى غريبة . فلم تكن أذناى قد تعودتا بعد مثل هذه العبارات المعارضة لاعلى سلطة فى الدولة . ولم اكن سمعت فى بلادنا رجلا يخطب بصوت عال ضد الحكم القائم .

ومددت ساقى فى استرخاء وانا جالسة فى مقعدى ، واحساس بالحرية يسرى دافئا فى كيانى كحركة الدم .
هل يمكن أن يكون فى بلادنا شيء اسمه المعارضة ؟!

وصعد على المنصة شاب امريكى طويل نحيل اسمه « جاك شرير » . ممثل اتحاد الطلبة الامريكيين . أمسك الميكروفون وأعلن بلغة غربية فصحى أن اتحاد طلاب أمريكا أصدر قرارا يؤيد عودة الفلسطينيين الى وطنهم وتعويضهم عن الخسارات التى لحقت بهم . وهاجم « جاك شرير » سياسة جونسون فى الشرق الاوسط وفى فيتنام ، ووصفها بأنها سياسة فاسدة .

وهبط من فوق المنصة وعيناى تتبعانه حتى جلس فى مقعده . تصورت ان رجال البوليس سوف يحوطونه ويقودونه الى السجن .

وكان أحد الطلبة الامريكيين يجلس الى جوارى ، وسمعنى وانا أقول : لم يأخذه أحد الى السجن .

وقال : لا يذهب الى السجن هنا الا من يمثل خطرا على النظام ، وهذه الخطب والمؤتمرات لا تمثل اى خطورة .

وقلت : عندكم مساجين سياسيين ؟

وقال : كثيرون ، وفى ابريل الماضى مات فى السجن « البيزو كاموز » المناضل البورت ريكى وقد قضى فى السجن ثلاثين عاما .

وتبدد الاسترخاء الطارىء ، وعادت عضلات جسمى مشدودة . وغادرت قاعة الخطب الى قاعة أخرى علقت على جدرانها لوحات الفنانين الفلسطينيين عيسى عبد المجيد ، واسماعيل شموط . مأساة الشعب الفلسطيني تتجسد فى الخطوط . أم تقف فى العراء أمام خيمة

سوداء تضم الى صدرها طفلا وليدا . شيخ عجوز يتكور فوق الارض وطفل وحيد يتأمل الطريق الخاوى بعينين خائفتين . شاب يحمل السلاح وعيونه نحـــو الوطن المسلوب .

انتهت ايام المؤتمر الستة باعلان القرارات وانتخاب الاعضاء السبعة الجدد لمجلس ادارة منظمة الطلبة العرب ورئيسها الجديد .

وخلف أسامة الباز في رئاسة المنظمة طالب مصري آخر اسمه سعد الدين ابراهيم ، وفى نهاية المؤتمـــر وزعت علينا ورقة مطبوعة عليها القرارات وضعتها فى حقيبتى .

وبينما انا أخرج من الباب رأيت صفوفا من الرجال العجائز الامريكيين يدخلون الى القاعة ذاتها ، يرتدون ملابس عسكرية تشبه ملابس الجنود فى القرن التاسع عشر وعلى رءوسهم قبعات سوداء محلاة بريش النعـام الابيض وعلمت انهم فى طريقهم لحضور المؤتمر رقم ١٠٩ للمحاربين القدامى فى ولاية الينوى .

وفى مقعدى داخل الاتوبيس المتجه نحو الســـاحل الشرقى لامريكا فتحت حقيبتى وبدأت أقرأ الورقة التى وزعت علينا : أصدر المؤتمر الرابع عشر لمنظمــة الطلبــة العرب فى أمريكا عدة قرارات خاصة بمختلف القضـــايا العربية أوصى فيها بدعم منظمة تحرير فلسطين ماليـــا وأدبيا ومساعدتها على بناء جيش التحرير الفلسطينى ... ومساندة مقررات مؤتمرات القمة العربية وتأييد اتفاقية جدة ووضع خطة موحدة لاستخدام البترول العربى فى خدمة القضايا العربية . واعلن المؤتمر تأييده للنضـــال الثورى المسلح لتحرير الجنوب المحتل والمطالبة بتـكوين

جبهة موحدة من القوى التقدمية العربية لمواجهة المخططات الاستعمارية وتحرير الخليج العربى وعمان ولتنمية هذه المنطقة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا عن طريق صندوق التنمية العربى . ومطالبة حكومة الكويت بمنع تسلل غير العرب الى هذه المنطقة . ووجه المؤتمر نداء الى الحكومات والحركات التقدمية العربية لمؤازرة جبهة تحرير عربستان ، وتأييد حكومة السودان للوصول الى حل لمشكلة الجنوب يصون وحدة السودان ويحبط المؤامرة الانفصالية الاستعمارية ضده ، كما أوصى المؤتمر بزيادة النشاط الاعلامى للطلبة العرب فى أمريكا وكندا وخاصة فى مواجهة تطورات السياسة الامريكية نحو الشرق الاوسط .

لا زلت أحتفظ بهذه الورقة فى مكتبى رغم مرور عشرين عاما على صدور هذه القرارات ، لكنها تبدو وكأنها صدرت بالامس .

***

فى نيويورك قابلت عميد جامعة كولومبيا . كان اسمه الدكتور « تراسل » . قدمت له الاستمارة المملوءة بالبيانات . وأضفت من عندى خانة جديدة خاصة بالحمل ، ودونت أمامها : حامل فى الشهر الرابع .

وابتسم الدكتور تراسل وقال : هذه كلها أمور شخصية والجامعة لا تطلب هذه البيانات .

وقلت : ولكن جامعة نورث كارولينا ...

وقال الدكتور تراسل : لا تظنى أن كل الجامعات فى مريكا بهذه العقلية المتخلفة »

***

عشت فى « مانهاتن » فى قلب نيويورك . مسكانى

المفضل دائما هو في قلب الاشياء . احس بنبض الحياة في تدفقها . واذا كانت « مانهاتن » هي قلب امريكا النابض فان « رالي » كانت القدم ، أو قاع القدم . وذكراها عندي كالحلم البغيض . كالقرية المشوهة المتوارثة من مري العصور الوسطي رغم الابنية الحديثة ؛ والشوارع المرصوفة شبه المهجورة وردهات الجامعة ذات الكآبة .

لكن هنا في « مانهاتن » كل شيء يتحرك بحيوية . والناس خطواتهم سريعة . وفي حي جرينتش فيلدج يجلس الناس علي المقاهي فوق الارصفة كأنها باريس . يأكلون ويشربون ، ويتحدثون . والشباب يجلسون على العشب في ميدان واشنطن قرب جامعة نيويورك . مجموعة من الشباب تعزف على الجيتار وتغني وترقص . والناس يلتفون حولها ويغنون .

وتحت الاشجار على الدكك الخشبية جلس بعض العجائز ومن حولهم أطفال يلعبون .

في الطرف الآخر من الميدان حلقة من الشباب يلتفون حول شاب وقف على شيء عال واخذ يخطب . انه « كي مارتن » . كان يلوح بيديه في الهواء غاضبا قائلا : « مالكوم أكس » قتلوه في قلب أمريكا كما قتلوا لومومبا في افريقيا ! لماذا لا نكف أيدينا عن آسيا وافريقيا ؟ الا فلنوقف هذا الخداع ؟ الا فلنوقف هذه الاسلحة المتنكرة داخل علب الطعام والمعونات الامريكية !

واقترب مني شاب صغير ، ناولني مجلة سوداء كتب عليها بخط أبيض عريض : البارتزان ، مجلة جمعية الشباب ضد الحرب والفاشستست . وعلى صفحات المجلة صور لجنود صرعى في فيتنام ، أشلاء ممزقة تختلط فيها اجساد الامريكيين بالفيتناميين .

وفى جامعة كولومبيا تعرفت على زميلة لى اسمها ماريون ، كانت عضوا في جماعة تنظم المظاهرات ضد الحرب في فيتنام . طويلة نحيفة وشعرها رمادى قصير . عيناها زرقاوان واسعتان لامعتان . وما أن تنتهى المحاضرات حتى تدور على الزملاء والزميلات توزع عليهم المنشورات والصور ضد حرب فيتنام .

وفى عطلة نهاية الاسبوع نذهب معا الى السينما ، أو المسرح ، أو نلعب التنس فى النادى . وفى المظاهرات نرفع اللافتات معا ونهتف مع الشباب : أوقفوا الحرب في فيتنام .

فى احدى المظاهرات رأيت ثلاثة من رجال البوليس يحوطون شابا أسود طويلا . ورأيت ماريون تندفع نحوهم وتحاول انتزاع الشاب منهم وهى تضربهم بقدمها بالشلوت وتجمع الشباب حول رجال البوليس يضربونهم بالاقدام . وانطلقت الصفارات من كل مكان وهجمت علينا السيارات المسلحة ووجدت يد ماريون فى يدى ونحن نجرى لنهرب داخل أحد البيوت ، وصوت الصفارات يدوى مع صوت الهتافات : يسقط جونسون !

ومن وراء الجدار حيث اختبأنا كان قلبى يدق بعنف وصدرى يعلو ويهبط فى أنفاس لاهثة متقطعة ، وتعود الى ذاكرتى صورتى منذ خمسة عشر عاما ، وصدرى يلهث وقلبى يدق ، وأنا مختبئة وراء الجدار وطلقات الرصاص تدوى مع هتافات الطلبة : يسقط الملك !

***

وفى يوم آخر اخذتنى ماريون الى اجتماع كبير تحدث فيه الدكتور « ستوتن ليند » وهو استاذ امريكى بجامعة « بيل » سحبوا منه جواز سفره لانه ذهب الى

فيتنام في رحلة لتقصي الحقائق ، وعاد ينظم المظاهرات ضد الحرب في فيتنام ، قدمتني له ماريون قائلة : هي زميلة معي في جامعة كولومبيا وطبيبة مصرية . واذكر ان ستوتن ليند قال لي يومها أن مشكلة فلسطين لا تقل خطورة عن مشكلة فيتنام لكن القوى الصهيونية في أمريكا تمتلك البنوك واجهزة الاعلام ، وقلت له : ولماذا لا تذهب في رحلة لتقصي الحقائق بالشرق الاوسط كما ذهبت الى فيتنام . وضحك قائلا : حين أسترد من الحكومة جواز سفري .

***

طرف الخطاب يطل من وراء الزجاج داخل صندوق البريد . اجمل منظر في أمريكا . اجمل من تمثال الحرية في عرض المحيط ، واعظم من الافينيو الخامس تطل عليه ناطحات السحاب ، ومنتزه روكفلر الشهير في قلب نيويورك حيث النافورات ذات الالوان والزهور والناس من كل العالم ، والموسيقى والرقصات العجيبة فوق قباقيب التزحلق .

طرف الخطاب تلمحه عيناي داخل الصندوق ، وطابع البريد عليه صورة الهرم وكلمة مصر ، وفوق المظروف اسمي بحروف كبيرة مستديرة ، وحركة الاصابع النحيلة حول القلم ، في غرفة مكتبنا المشتركة في الشقة الصغيرة في أول شارع الهرم .

في رسالة طويلة قال أنه اشترى لمبة مكتب جديدة ، وقرأ بعض كتب لم يقرأها من قبل وأن ابنتنا بصحة جيدة ، وتذهب الى المدرسة كل صباح ، وقبل أن تنام يحكى لها قصة جميلة .

اضع الرسالة تحت وسادتي ، وأفتح عيني بالليل

واعيد قراءتها . وفى الصباح اضعها فى الحقيبة مع أوراقى وكتبى . واثناء ساعة الغداء أمضغ الطعـــام ببطء واقرأ الرسالة .

وفى الليل تحت ضوء اللمبة أجلس فى سريرى تحت الاغطية واقرأها . وعلى الجدار فوق مكتبى تتدلى نتيجة عام ١٩٦٦ بالايام والشهور . واشطب بالقلم قبل ان انام على اليوم الذى انتهى ، واعد الايام الباقية .

ثم أطفىء النور واضع رأسى على الوســادة . واحس النبض تحت اذنى كأنه قلبى . وحركة ناعمة تضـــرب جدران بطنى كأذرع دقيقة من القطيفة . ترى متى يرى النور ؟

***

على باب الكلية تقدم نحوى احد الطلبـــة العـــرب اسمه « سعدون » ، كان يوزع بيانا مطبوعا . وقال لى : ستكون المظاهرة يوم الخميس القادم ولابد ان تشتركى .

البيان بتوقيع الدكتور محمد مهدى ، الامين العـام للجمعية العاملة لاصلاح العلاقات العربية الامريكية وجاء البيان هكذا بالحرف الواحد :

بمناسبة يوم وعد بلفور المشئوم قــررت الجمعيــة العاملة لاصلاح العلاقات العربية ــ الامريكية القيـــام بمظاهرة سلمية يوم الخميس ٤ــ١١ــ١٩٦٥ من الساعة العاشرة صباحا الى الواحدة بعد الظهر .

يجتمع المتظاهرون فى العاشرة صباحــا امام بنــاية الامم المتحدة . وبعدئذ تتحرك « مسيرة السلام » حيث يحمل المتظاهرون اللافتات التى تدعو الى الســلام فى الشرق الاوسط عن طريق اعادة اليهود الى أوطـــانهم

الاولى أو فتح أبواب الهجرة لادخال مليون يهـــودي اسرائيلى الى أمريكا الشمالية .

والغاية من هذه المظاهرة فى يوم وعد بلفور هى القول بأن ذلك الوعد المشئوم أدى الى المآسي فى الشـرق الاوسط ونحن نريد ازالة المآسي واحلال السـلام الى تلك الربوع والى البلاد المقدسة .

وستدفع الجمعية مبلغ دولارين في الساعة لكل من يشترك فى المظاهرة ، وهو مبلغ ضئيل ، الغـــاية من تقديمه التعويض عن جزء من الوقت الذى تصرفونه .

لاول مرة فى حياتي أسمع عن مظاهرة مدفوعة الاجر.

فى المظاهرات فى بلادنا كنت أسمع طلقات الرصاص وأجساد الطلبة تسقط . والدم يسيل فى الشارع . وفوهات البنادق تطل من سيارات البوليس . وتلاميذ تختطفهم العربات المصفحة وتبتلعهم السجون .

وقلت لنفسى : كم دولار تساوى ثلاثة لترات من الدم يسال على الطريق ؟

وكم دولار يمكن أن تدفع من أجل تلميذ يصـبح شهيدا ؟ وكم يمكن ان يكون ثمن حياتى اذا انطلقـت رصاصة فى جزء من الثانية ؟

وجاء يوم الخميس ولم أذهب . لا أحد يمـكن أن يدفع ثمن جزء من الثانية يساوى حياتى . وحيـاتى كلها أدفعها بطلقة رصاص واحدة نظير كرامتى وكرامة الوطن .

***

فى مستشفى « سلون » المجاور لجامعة كولومبيـا ذهبت لمقابلة الدكتور « تود » فحصنى بدقة ثم قال : اتوقع أن تكون الولادة خلال اسبوع واحد . كنـا فى

وأوائل ديسمبر ، والثلوج البيضاء بدأت تلمـــع فوق النوافذ والشوارع وابتسم قائلا : انت محظوظة فموعد الولادة يجيء مع أجازة الكريسماس والعام الجديد .

واتفقت ماريون معى على أن نذهب معا لشراء ملابس للطفل القادم من شارع برودواى . وصاحت الزميلات الامريكيات فى الجامعة : نحن لا نشترى ملابس الطفل الا بعد أن يولد . ودهشت لماذا . وعرفت أن بعض الخرافات لا تزال تعيش فى أمريكا . شراء ملابس الطفل قبل ولادته فال سيىء قد يعرضه للموت قبل ان يولد أو اثناء الولادة . لكنى رايت أمى تشترى ملابس الطفل قبل أن يولد ، وقد ولدت تسعة أولاد وبنات دون أن يموت أحدهم .

وجدتى أيضا لم تكن تؤمن بهذه الخرافة .

وقالت لى ماريون : هؤلاء النساء الامريكيات لازلن متخلفات .

وسألتها : وأنت ؟ السب أمريكية ياماريون ؟

قالت : نعم ، ولكنى حررت نفسى من الخزعبــلات وأولها كراهية البشرة السوداء .

وقلت : وثانيها ؟

قالت : تبيض الوجه بالمساحيق .

بسيطة وطبيعية تتدفق الحيوية تنتبه للمحــاضرات العلمية بمثل ماتتحمس للمظاهرات السياسية . بشرتها صافية بلا مساحيق وشعرها حر تتركه للهواء والمطر ونجرى معا فى الشارع كالاطفال .

لم أشعر معها بالغربة ، وكأنما ولدنا فى بلد واحد ، وعشنا طفولة واحدة . الزميلات الامريكيات الاخريات تفصلنى عنهن مسافة كبيرة . وأشعر بينهن بالغربة .

لا يعرفن شيئا عن العالم خارج امريكا . لا فلسطين ولا فيتنام ولا أى بلد آخر فى آسيا او افريقيا . وجوهن مدهونة بالمساحيق ، فوق الجفون ، وعلى الرموش ، والخدود ، ولون فضى غريب يلمع فوق الشفاه ، وفوق الاظافر المدببة الطويلة . كالدمى البيض الملونة . كالجوارى فى عهد هارون الرشيد رغم لكنتهن الامريكية ، وبشرتهن البيضاء وقامتهن الطويلة النحيلة، أسيرات المفهوم العبودى لمعنى الانوثة والجمال . يكشفن عن الشق بين النهدين ويرقصن داخل سراويل ضيقة وعيونهن على الرجل . ينشدن الزواج رغم كل شيء . واذا تزوجن تبخرت طموحاتهن الاخرى ، وانقطعن عن الدراسة أو العمل ، وتفرغن لشئون البيت والاطفال . الى أن يكبر الاطفال ، فتعود اليهن طموحاتهن القديمة ويصبحن تلميذات من جديد وهن فى الخمسين أو الستين من العمر ، وفى ساعة الغداء يجلسن معا ويثرثرن فى أمور الازواج والاولاد .

***

هذه الليلة اذكرها رغم مرور السنين . كانت السبت ٩ ديسمبر ١٩٦٥ . وقد دعتنى ماريون فى الصباح الى متحف جوجنهايم ، ودعوتها فى المساء لرؤية مسرحية مشهد من الجسر لآرثر ميللر .

سرنا على الاقدام حتى تقاطع شارع ٨٨ مع الافينيو الخامس حيث متحف جوجنهايم . وهو متحف حديث افتتح عام ١٩٥٩ . صممه المهندس فرانك رايت على النمط الهندسى العضوى . ربما هو نمط جديد فى المعمار . ولابد انه دراسة للمكان فى علاقته بالانسان . وكيف يمكن استخدام المساحة لتبدو للانسان اكثر

اتساعا ، واكثر راحة للعين .

الادوار تمتد أمام عيني في خطوط دائرية . كل شيء دائرى . الجدران ، والسلالم ، والطوابق . والدائرة تبدو للعين أكثر امتدادا ، كأنما بلا بداية أو نهاية . وهي توحي أيضا بالحركة ، كالشيء الحي ، والمكان يتحول الى مايشبه الجسم العضوى ، يشع نوعا غامضا من الدفء والراحة .

وصعدنا من طابق الى طابق . ثلاثة آلاف اوحة تصور الفن التشكيلي الحديث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وأسماء متعددة في عالم الفن الحديث من بول سيزان الى بابلو بيكاسو ومارك شاجال وموندريال ثم جاكسون بولوك وكينزو أوكادا واخيرا جان دوبوفيه وسيرج بولياكوف وغيرهم .

لوحة ضخمة تتصدر البهو الفسيح . لوحة بيضاء تماما . ليس بها الا خط واحد متعرج بالقلم الفحم الاسود . وفي الركن بقعة على شكل دائرة سوداء غير منتظمة داخلها نقطتان حمراوان . تشبه خطوطي وانا طفلة في كراسة الرسم . كانت ترمقها المدرسة بعينين ضيقتين ثم تمط شفتيها وتعطيني صفرا .

رجل أمريكي الى جوارى ، شعره طويل ينسدل فوق كتفيه ، ولحيته طويلة غزيرة ، يحملق في اللوحة ولا يتركها . ترى ماذا يرى في ذلك الخط المتعرج الاسود ، وتلك البقعة شبه العشوائية ؟ هل يرى فيها تلقائية الفن الشجاع بكسر القوالب المألوفة ؟ أم يرى العبث واللاعقل في نظام الكون ؟

أحملق في الخط المتعرج الشبيه بخطي . كانت خطوطي فوق الورقة وانا طفلة تهزني ، لكنها لم تكن

تبهر احدا غيري ، وكان مصيرها دائما صندوق القمامة لكن هذا الخط يحتل المساحة الكبيرة في هذا المتحف الضخم والعيون ترمقه بانبهار .

اهو الفن العظيم أم أن أى شيء داخل اى متحف يبدو مبهرا ؟ وهذه الحركة التلقائية فوق الورقة أهي قمة الثقة بالنفس أم ذروة الفشـــل في ادراك العـــالم الخارجي ؟

وظللت أحملق في اللوحة . يبدو لي الغموض واضحا والخط تماما كخطي وأكاد أرى نفسي ثم لا يلبث أن يغرق كل شيء في اللون الاسود فلا أعرف شيئا ، ولا حتى من أنا .. وأين أكون ؟

دوار في رأسي وألم في العمود الفقـري وأنا لاأزال واقفة أمام اللوحة . أهي حالة من الارهاق أدخـل فيها بعد مجهود اليوم الطويل أم أن الفن التشـكيلي يدخل مرحلة جديدة ؟ وما هذه المرحلة ؟ رفض الكون القديم والوجود ؟ اكتشاف جديد للذات والوعى ؟ علاقة جديدة للوعى بالوجود ؟ أنا أفكر اذن أنا موجود كما قال ديكارت ؟ أم أنا موجود اذن أنا أفكر كما حاول ماركس أن يقول ؟

لكن لماذا يطرح السؤال بهذا الشكل . ولماذا لا نسأل سؤالا آخر ، فنقول مثلا : لماذا لا يكون الوعى والوجود شيئا واحدا وليس شيئين منفصلين يسـبق احدهمـا الآخر ؟

لماذا لا أقول : أنا موجود وأفكر في آن واحد . اذن أنا وجود فكري . أو أنا جسم مفكر ؟

منذ الطفولة أدركت أنني أفكر بجسمي . ثم كبرت أكثر وبدأت أتساءل . اذا كان الفكر هو الجسم فلماذا

يمتد فكري خارج حدود جسمي وخارج حـدود الزمان والمكان ؟ يمتد في الماضي آلاف السنوات ، ويعبر البحار والسماوات والمحيطات لآلاف الملايين من الكيلومترات؟!

عيناي شاخصتان نحو الدائرة فوق اللوحة . بقعة اللون سوداء بلون الارض وكروية ولها حركة خفية رغم السكون كحركة الارض . والكون يبدو ضخما بلا نهاية وعقلي يتسع للمساحة لكنه يبحث عن النهاية . أين ينتهي الكون وأين يبدأ ؟ وكيف بدأت الحيـاة البشرية ومتى تنتهي ؟ لا أذكر متى ولدت ولا اتصـور انني سأموت .

الامتداد اللانهائي للزمان والمكان يبدو كالمستحيل امام عقلي . فكيف يمكن الا تكون هناك نهاية لاى شيء ؟ الخط المستقيم له بداية ونهاية ، لكن الدائرة ليس لها نقطة تبدأ بها ، ولا تنتهي أيضا عند نقطة .. وأى نقطة فوق الدائرة يمكن أن تكون هي البداية أو النهـاية ، لا فرق . واذا أصبحت البداية هي النهاية فلا وجود لكليهما ، فلماذا لا أتعامل مع الكون ، على أنه دائرى الشكل بلا بداية وبلا نهاية ؟

واذا كان الشكل دائريا فلماذا لا يكون المعنى أيضا دائريا ؟ بلا نقطة بداية أو نهاية . ويظل السـؤال بلا جواب واحد محدد ، ويصبح للحقيقة الواحدة أبعـاد متعددة . واذا تعددت الحقيقة فليس هناك حقيقـة واحدة . واذا تعدد الكون فليس هناك كون واحد .

لكل انسان حقيقة ؟ ولكل انسان الكون الذي يراه ؟ وما يراه جاكسون بولوك ليس هو الكـون الذى رآه بول سيزان ؟ والكون في عيني بول سيزان لم يكن هو الكون الذى رآه أساتذة الرسم فى المدرسة العليـا

للفنون الجميلة فى باريس . كانوا يتصورون أن الكون واحد . وكان الفن لا يزال محدودا بالتصور القديم للكون الواحد كما ورد فى الكتاب المقدس . والصراع بين المقدس والحقيقى كان واضحا فى خطوط بول سيزان ونجح كل التلاميذ في امتحان القبول الا هو . لم يدخل مدرسة ، ولم يقتل المدرسون فى فنه الصراع . أعطوه صفرا فى الامتحان ، ونجت خطوطه من الموت فى سجون الاكاديمية . وخلف كونا جديدا .ولم يعد الفن من بعده مقلدا للطبيعة . أصبح ذا طبيعة جديدة .

وعلى احدى اللوحات نقشت حروف جاكسون بولوك: اللوحة صراع .

وافقت على صوت ماريون يقول : أتفهمين شيئا من هذه الخطوط ؟

وقلت : لا أظن ، ولكنى أحاول .

ومرت لحظة صمت ثم سألتها : وما هى مادة الصراع ؟ .

وقالت ماريون : أى صراع ؟

قلت : مادة الفن الحديث ، انها فلسفة جديدة ، وليست خامات أو أدوات حديثة

قالت : وماهى الفلسفة الجديدة فى هذه الخطوط العشوائية بلا شكل وبلا معنى ، أنا لا أفهم شيئا من هذا العبث ! . وسكتنا لحظة نتأمل الخطوط .

ثم قالت ماريون : على أى حال الفن يحس ولا يفهم

وتساءلت : وهل هناك فاصل بين الاحساس والفهم ؟

وقالت : ماذا تعنين ؟

قلت : الاحساس هو الفهم ، وانا احس اذن انا افهم .
وضحكت : وانا افهم اذن انا احس .
وسألتها : وماذا تحسين ؟
قالت : بالجوع .
وضحكنا ، وخرجنا من متحف جوجنهايم الى مطعم صغير حيث اكلنا اللحم المشوى . وبعد الغداء ذهبنا الى المسرح فى شارع برودواى حيث كانت تعرض مسرحية مشهد من الجسر لارثر ميللر .
كان المسرح مزدحما ، ولم نحصل الا مقاعد خلفية . كنت أمد راسى الى الامام لاسمع صوت الممثلين ، لكنى لم التقط الا انصاف الجمل ، ولكنة امريكية سريعة ، ونكات يضحك عليها الجمهور ولا اسمعها . وحين رأيت ماريون تشارك الجمهور الضحك ، سألتها : أسمعت النكتة ؟
وقالت : لا ، ولكن الضحك يعدى . وضحكنا .
وخرجنا من المسرحية قبل نهايتها .
سرنا نتمشى فى الافينو الخامس ، أكبر شوارع نيويورك . برودة الجو منعشة . نوافذ المحلات الضخمة تتألق تحت الاضواء والشموع . الاستعداد لاعياد الكريسماس والعام الجديد . من وراء الزجاج نافورات ملونة ، وتماثيل تتحرك وترقص تحت الاضواء ، ومعروضات جديدة تدور مع دوران النوافذ المتحركة . معاطف فرو ، قبعات ، مجوهرات . اجهزة الكترونية من كل نوع وصنف . وزحام من الناس من جميع بلاد العالم .
أمام احدى النوافذ الزجاجية الضخمة رأينا جمعا

كبيرا من الناس يتزاحمون ويتنافسون على الرؤية الاطفال يصعدون على اكتاف آبائهم وامهاتهم ليروا ما هناك .

وقلت ماريون : ربما هو حاوي وراء الزجاج !

وبدانا نشق الطريق ، ورأينا تحت الضوء الملون جهازا كبيرا كالفرن الكهربي ، داخله بيض كبير كبيض البط . تتحرك البيضة وحدها ثم تنكسر فجأة ويخرج منها كتكوتا حيا يجري على أرجل رفيعة .

الاطفال يضحكون ويصفقون بأيديهم ، والشباب والشابات يتعانقون ويتراقصون . والعجائز يحملقون بدهشة ورجل يهمس في أذن زوجته : هذا زمن عجيب وكل شيء يصنع الآلات حتى الكتاكيت !

وقالت ماريون : بعد قليل سنصنع الاطفال في الانابيب ، وتتحرر النساء من الحمل والولادة .

وضحك الجميع .

في الطريق الى البيت احسست بدوار خفيف . كانت ماريون تقود سيارتها ، ورأتني صامتة فقالت : أتشعرين بتعب ؟

وقلت : لا .

وقالت : كان يوما مرهقا لكن بديعا .

عند باب بيتي تمنت لي ليلة طيبة ثم انطلقت بسيارتها الى بيتها .

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف حين خلعت ملابسي لارتدى قميص النوم . وفجاة احسست بالالام هل هي آلام الولادة ؟!

كنت وحدي تماما . وتلفت حولي في حيرة ثم جلست على طرف السرير . هدات الالام فترة ثم عادت

بسرعة .. وادركت انها الولادة . التليفون علي المنضدة الى جوار السرير . هل أطلب ماريون ؟ لكننا قضينا يوما طويلا مرهقا ، وهي بحاجة الى النوم ، ونحن فى منتصف الليل ولا يمكن أن أطلب أحدا في مثل تلك الساعة وان كانت أمي .

مستشفى « سلون » على بعد عشر دقائق من بيتى سيرا على الاقدام . ارتديت المعطف الصوفى السميك ودسست ملابس الطفل الجديدة في الحقيبة وخرجت الى الشارع .

كان الهواء باردا كالصقيع ، والظلمة حالكة والشارع خال من البشر . سرت بخطوات سريعة ثم بدأت اجرى اطراف مثلجة ، ترتجف بالبرد والخوف معا . شبح طويل أسود يتبعني ، وكعب حذائه يدب على الارض وتوقفت لحظة ثم استدرت خلفي . لم يكن هناك أحد . ثم ادركت انه ليس الا ظلى فوق الارض ، وقدماى تدبان علي الاسفلت القدم وراء القدم . ثم توقف الدبيب لحظة . الم حاد فى العمود الفقرى أوقفنى عن السير ، وجسمى يتراخى وينثنى نحو الارض . هل أجلس على الرصيف ؟ واذا جلست فهل يمكن أن يولد الطفل في الطريق ؟

أنوار المستشفى تلوح لى من بعيد ، أبعد مما هى ، وقد لا أصلها أبدا .

وشددت عضلات ظهرى بقوة وقلت لنفسي : ساكمل الطريق ولن أتوقف الا بعد أن أدخل المستشفى . ولا أدرى كيف عادت قدماى تدبان فوق الارض وكيف قطعت المسافة الباقية بتلك الخطوات المتعاقبة المنتظمة القوية لكن ارادة عجيبة من نوع غريب كالعضو الجديد ينبت

فى الجسد فجأة أو كالجسد الجديد يحل بالجسد القديم ، وساقان جديدتان تحملان جسمى بسرعة وخفة والى جوارى ارى ظل جسمى يصاحبنى بالحركة ذاتها ، النشيطة يبدد السكون الوحش ويؤنسنى فى الظلمة كالرفيق .

وما ان وصلت المستشفى حتى اختفت هذه الطاقة الطارئة أو الجسد الجديد لا أدرى كيف اختفى . لكنى احسست بجسدي القديم يظهر فجأة ثم يتهاوى ويسقط على أقرب مقعد ، ولم أتحرك بعد ذلك الا فوق نقالة ، دفعتها الممرضة امامها بكلتا يديها حتى غرفة الولادة ، وملأتنى رائحة اليود والاثير واللون الابيض للجدران وملابس الممرضات بالراحة العميقة كالبهجة .

ورأيت وجه الدكتور « تود » أمامى . كان يبتسم ويقول لى أننى سأضع طفلا جميلا . وحاول أن يضع قناع التخدير فوق وجهى . لكنى رفضت وصممت على أن ألد طفلى وأنا فى كامل الوعى . كنت أعرف أنهم يأخذون المولود بعد الوضع مباشرة ، ويضعونه فى الغرفة الزجاجية حيث عشرات المواليد الآخرين .

واستولى على شعور مفزع . أن طفلى اختلط بالآخرين .

لكن الآلام اشتدت ، وخيل الى أننى سأموت من شدة الالم ، فاذا بى أطلب التخدير .

وقبل أن يضع الدكتور « ترد » القناع فوق وجهى .

قلت له : أعطنى مخدرا خفيفا حيث يمكنك أن تنبهنى حين يولد الطفل لاراه قبل أن يأخذوه الى غرفة المواليد .

وابتسم الدكتور تود قائلا : أعدك بذلك ، لكن هذا يتوقف عليك ايضا وقدرتك على الافاقة السريعة من المخدر .

وملأت انفي وفمي رائحة الاثير ، وسرت في جسدي برودة غريبة انتقلت بسرعة من راسي الى صدري ثم الى ساقي وقدمي . واحسست كأنما اسقط في بئر مظلم عميق بلا هواء ، وافتح فمي لاستغيث دون جدوى لقد تحولت الى جسد ميت لا يتحرك ، وثقل غريب كثقل الكرة الارضية فوق جفني .

ورأيت امي امامي فجأة . كانت ترتدي الثوب الاصفر الحريري والايشارب الشفاف الابيض حول عنقها . عيناها العسليتان في عيني وانا ممدودة فوق السرير ، وبركة الدم من تحتي . وقلت بدهشة : كيف عرفت وكيف جئت من البلد البعيد .

كنت اخفي عنها كل آلامي ، حتى آلام الولادة . وكل شيء مؤلم كنت افعله وحدي ، بدون امي ، وبدون ابي . اما الفرح فلم أكن احسه وحدي ، ولابد ان تكون معي امي او ابي . وكنت افاجئهما دائما بأفراحي ، ولكن آلامي كانت تحسها امي قبلي ، ومهما ابتعدت ، واختفيت ، تعرف مكاني وتأتي . وكنت وحدي بالبيت تلك الليلة في ربيع عام ١٩٥٦ حين فاجأتني الآلام . لم أعرف أنها الولادة . نزفت دما غزيرا . كان راس ابنتي كبيرا لا يريد أن يهبط ، وعضلاتي صلبة لا تلين . وكان يمكن أن انزف الدم حتى اموت . ثم دق جرس الباب فجأة . ورأيت امي . لم اعرف كيف عرفت وكيف جاءت ومن فتح لها الباب ، وكل ما اذكره انني كنت وحدي بالبيت ، وامي في بيت آخر بعيد ،

ولا احد غيرى يعرف أنني انزف ، بل أنا نفسي لم اكن اعرف .

وتلاشى الثقل من فوق جفني ، وفتحت عيني بذهول ورأيت وجه أمي غريبا . ولاول مرة أراها ترتدى نظارة بيضاء ، وعيناها زرقاوان وليستا عسليتين . وقلت لنفسي : ربما تغير وجهها لانها ماتت منذ سنين . لكني سمعت صوت رجل يرن في أذني بلغة ليست عربية أنظرى ! انه صبي جميل !

وانقشع الضباب ورأيت الضـــوء قويا أبيض ، والجدران بيضاء ومعطف الدكتور أبيض ناصع البياض، وعيناه زرقاوان شديدتا الزرقة تلمعان مـــن تحت النظارة البيضاء بابتسامة واسعة أسنانه لامعة وصوته يرن في أذني كرنين الفضة المجلوة :

انظرى ! انه صبي جميل !

حملقت في الوجه الصغير بدهشة . بشرته حمراء بلون دمي . والشعر الاسود الغزير ، والانف الدقيق والعينين مغلقتين والفم مفتوح يلهث . ثم مالبث أن اغلق فمه وفتح عينيه . وثبتت عيناى على المقلتين السوداوين اللامعتين ، وانحفرت الصورة في ذهني أصبحت جزءا مني . وسمعت صوت الدكتور « تود » يقول ضاحكا : هل حفظت ملامحه ؟

وحملته الممرضة بين ذراعيها وهو يبكي ويرفس بذراعيه وساقيه ثم وضعته على منضدة بيضاء ولفت حول معصمه الصغير اسورة من النايلون الابيض تحمل رقم ٩٥٧٨ ، وممرضة أخرى امسكت يدى ، ولفت حول معصمي اسورة من النايلون الابيض تحمل الرقم نفسه .

واغمضت عيني ونمت وليس في ذاكرتي الا المقلتين السوداوين ، ورقم ٩٥٧٨ فوق المعصم .

***

فتحت عيني في الصباح ، ورايت صينية الى جوارى ، عليها ابريق الشاى ، وبيضة مسلوقة ، وزبدة وخبز « توست » . أكلت بشهية ، ثم هبطت من السرير وسرت في الممر الطويل حتى وصلت الى الغرفة الزجاجية والصقت وجهي بالزجاج وعيناى تبحثان عن المقلتين السوداوين بين المواليد المتشابهة والتقطتهما من بين العيون . دقات قلبي تتصاعد ، ويدى ترتفع لألوح له من وراء الزجاج . لكنه كان راقدا في سريره الصغير الابيض ، شاخصا الى السقف واصبعه في فمه .

وأقبلت الممرضة نحوى تجرى وتقول بدهشة : وضعت طفلك الساعة الواحدة صباحا ، والساعة الآن الثامنة صباحا . لم يمض على الولادة الا سبع ساعات وتسيرين هكذا في الممر ؟ ... وقلت لها : الحركة بعد الولادة مفيدة . ثم ان طفلى جائع ولابد أن أرضعه الآن .

وعدت الى سريرى ، وبعد لحظات رأيتها مقبلة نحوى تجر سريرا زجاجيا صغيرا داخله طفلى . وامتدت ذراعاى لتحوطه ووضعته فوق صدرى ورأيت الفم الصغير يلهث ، وحين دسست الحلمة السوداء بين الشفتين الصغيرتين قبض عليها بفكيه وأخذ يرضع اللبن بشهية واصابعه الخمسة الرقيقة تلتف بقوة حول اصبعى ، واحساس جارف بالامومة يسرى فى كيانى دافئا كتدفق الدم فى الشرايين .

***

طلبت الخروج من المستشفى بعد ثلاثة أيام . لا ارى طفلي الا في أوقات الرضاعة ، وينام في غرفة بعيدة عني . واريد أن أضمه بين ذراعي ، وتضمني أنا وهو غرفة واحدة . ثم ان رائحة المستشفى فقدت بهجتها ولم يعد بقائي يعني الا مزيدا من النفقات .

قدمت لهم شيكا بالمبلغ ، وقدموا لي شهادة ميلاد ابني . ووجدت انهم أعطوه لقب أبي . ودهشت . هل يسمي الطفل هنا باسم الام ؟ وتساءلت رئيسة الممرضات بدهشة وكان اسمها مسز سيلفرمان : الا تحملين اسم زوجك ؟

وقلت : لا . انا أحمل اسم أبي .

وتصورت مسز سيلفرمان أنني أم غير متزوجة ، لان الام المتزوجة تحمل اسم زوجها بالقانون الامريكي ، ولا تحتفظ باسم ابيها الا الام غير المتزوجة ، والطفل في هذه الحالة يحمل اسم الام ، وينظر اليه كطفل شرعي تماما .

وقلت : أنا متزوجة ولكني أحمل اسم أبي ، وهذا هو القانون في مصر .

وشهقت مسز سيلفرمان بدهشة : هذا عجيب ! الا تحمل المرأة عندكم اسم زوجها .

وقلت : لا .

ورددت مسز سيلفرمان : هذا عجيب ! ثم فكرت لحظة وقالت : الزوجة المصرية أكثر حظا من المرأة الامريكية ، فهي تحمل اسما واحدا طول حياتها ، اما المرأة هنا فهي تغير اسمها ، بعد الزواج . وقد تغير اسمها أكثر من مرة اذا تزوجت أكثر من مرة .

وحكت لي قصتها الغريبة مع اسمائها الثلاثة . كان

اسمها قبل الزواج مس سيلفرمان . وتزوجت من رجل اسمه براون فأصبح اسمها السيدة براون وحصلت على شهادة التمريض بهذا الاسم . ثم طلقت من براون بعد عامين وتزوجت مورجان . وبعد الزواج حصلت على درجة الماجستير في التمريض باسم السيدة مورجان . ثم انفصلت عن زوجها مورجان بعد ثلاث أعوام وأصبح اسمها السيدة سلفرمان وهو اسم أبيها . وحصلت على الدكتوراه في التمريض العام الماضي باسم مسز سيلفرمان .

وقالت في ختام قصتها بأسى : وهكذا فأنا أحمل ثلاث شهادات من الجامعة وعلى كل شهادة اسم مختلف

وقلت لنفسي : أي امتهان لشخصية المرأة !

لكن ذلك كان في نهاية عام ١٩٦٥ ، ولم تكن حركات تحرير المرأة قد سمع بها أحد في أمريكا بعد . ولم يخطر ببالي حينئذ أنه لن تمر سنوات قليلة حتى تخرج النساء الامريكيات الى الشوارع في مظاهرات ضد سيادة الرجل ، وضد القوانين التي تجعل المرأة أقل من الرجل ، ومنها القانون الذي يفرض على الزوجة أن تحمل اسم زوجها . وامتدت الثورة النسائية أيضا لتشمل القاء مساحيق الوجه في صناديق القمامة ، ومشدات الصدر وغيرها من أدوات الزينة . رموز القهر الجنسي للمرأة .

***

عدت الى الكلية بعد أربعة أيام . وانتشر الخبر في الجامعة . وبدأ الاساتذة والزملاء والزميلات يفدون الى بيتي للتهنئة ، وكل يحمل هدية للطفل . احدى الهدايا كانت عربة صغيرة لها كبوت أحمر جميل . وفي

الايام الدافئة حين تسطع الشمس أخرج الى المتنزه على شاطىء نهر هدسون ، أدفع بالعربة أمامى ، ومن تحت الكبوت الاحمر يطل وجهه الصغير ، تتوسطه المقلتان السوداوان اللامعتان . تتسعان بالدهشة لاي صوت وحركة . وتنفرج الشفتان الصغيرتان عن ابتسامة سعيدة . وقد يضحك بصوت عال كزقزقة عصفور . وتتوقف النساء وهن سائرات ليحملقن فى العينين السوداوين ذات البريق ، وتنطلق الاصوات هاتفة : كيوت ! كم هو طفل جميل !

وتتسع عيناه بالدهشة . وعيناى أيضا تتسعان . النساء فى بلادنا لا يتوقفن فى الطريق ، ولا يظهرن اعجابهن بالطفل مهما كان جميلا . بل تهتف الواحدة منهن قائلة : كم هو طفل قبيح ! وتبتسم الام فى سعادة وقد اطمأنت الى أن العين لم تحسده .

كان طفلا وديعا هادئا . ينام طول النهار والليل . ولا يصحو الا للرضاعة . وكنت أتركه بعد رضعة الصباح نائما واذهب الى الكلية . المسافة بين البيت والكلية سبع دقائق سيرا على الاقدام بالخطوة السريعة . واعود الى البيت جريا كل ثلاث ساعات لارضعه .

وفى أيام الاجازات تساعدنى ماريون فى تنظيف البيت وغسل ملابس الطفل وشراء لوازم البيت . وفى نهاية كل أسبوع تلتقط له صورة ملونة . ارسلها بالبريد الى زوجى وابنتى .

وأصبح رفيقى . يؤنسنى بالنهار بضحكاته المسرحة كالشهقات المتقطعة ، وحركة يديه وهو يهز السكرات الملونة المثبتة امام مقعده . واصابعه الصغيرة حين تلامس اصبعى تلتف حوله بقوة لا تريد أن تتركه .

وفى ظلمة الليل الموحش بالغربة ، وصفير الرياح من المحيط ، وهدير المطر فوق زجاج ناطحات السحب ، وصرير الاعمدة السوداء الضخمة فوق الكبارى الحديدية . فى ظلمة الليل فى قلب تلك المدينة الامريكية الضخمة على بعد آلاف الاميال عن الاهل والوطن ، افتح عينى فى الظلام وانا راقدة تحت الغطاء ، اطرافى باردة بالغربة ، وقلبى ثقيل بالوحدة والوحشة .

وأرفع رأسى من فوق الوسادة فأراه نائما فى سريره الصغير ، بشرته من لون بشرتى . وملامحه تشبه ملامحى . وأنفاسه ساخنة لها رائحة الاهل والوطن .

احوطه بذراعى ، وأغمض عينى ، لاحس الدفء يسرى فى أطرافى ، والريح تكف عن الصفير ، والليل لا يعود غريبا ولا موحشا ، وانام حتى أصحو على صوته فى الصباح . عصفور يفرد ، يحرك ذراعيه وقدميه فى الهواء . يحاول أن يرفع رأسه ويطل على من بين أعمدة السرير الملونة .

كان ينمو بسرعة ، ويأكل بشهية . وطعام الاطفال داخل علب زجاجية صغيرة . مطهى جاهز ولذيذ الطعم . على الرفوف فى المحلات والاسواق تطل العلب بألوانها وأشكالها المتعددة . فواكه ، وخضر ولحوم وأسماك وبيض وبقول من كل نوع . على علبة التفاح ترسم تفاحة حمراء ، وعلى علبة السمك سمكة ملونة فى يد طفل يلعب . وعلى علبة الارز باللبن وعاء أبيض مملوء بالمهلبية .

كم من الوقت كانت تقف أمى أمام الموقد تقلب اللبن مع مسحوق الارز لتصنع المهلبية ؟ وكم من الوقت كنت انفقه لاصنع لابنتى طعامها وهى طفلة ؟ لكنى هنا امد

يدي واسحب من علب طعام الاطفال ما اشاء .

وتآلفت مع حياتي الجديدة . اصبحت احب الكلية والمحاضرات . وصداقات جديدة تربطني بالزميلات والزملاء . والاساتذة يندهشون حين يرون انني اقدم البحوث في موعدها . واحصل في الامتحانات على اعلى الدرجات . وانني لم اتغيب طوال العام الا اربعة ايام .

احد الابحاث التي قدمتها كانت عن مستشفى « هارلم » ، وهارلم هو حي الزنوج في نيويورك . زرت المستشفى عدة مرات مع ماريون . قاعة انتظار المرضى تذكرني بقاعات الانتظار في مستشفى القصر العيني . والطابور يشبه الطابور الذي كان يقف امامي كل صباح . الوجوه الشاحبة الذابلة . عيون ضامرة حزينة . ينتظرون اللحظة التي تناديهم فيها الممرضة ليمثلوا بين يدي الطبيب أو الطبيبة . بعضهم ينزف . بعضهم في شبه غيبوبة أو اغماءة . مكدسون في القاعة منذ ساعات طويلة .

وتساءلت : لماذا ينتظرون كل هذه الساعات ؟

قالت ماريون : نقص في عدد الاطباء ، والطبيب الواحد يكشف على مائة مريض في اليوم .

في مفكرتي ، عام ١٩٥٦ ، حين كنت طبيبة امتياز بالقصر العيني كنت أدون عدد المرضى الذين أفحصهم في العيادة الخارجية في اليوم الواحد . بلغ الرقم في أحد الايام مائة وثلاثة وعشرين مريضا . وحين انتقلت للعمل بوزارة الصحة لم تعد هناك وسيلة لمعرفة عدد الطابور الممتد بامتداد البصر .

عنابر المرضى في مستشفى هارلم تشبه عنابر القصر العيني . لكن الطرقات في القصر العيني كانت خالية ، وهنا ارى المرضى يرقدون على أسرة اضافية في الطرقات

والممرات الضيقة في المستشفى . والرائحة هي الرائحة التى كنت اشمها وانا امر على المرضى . عفونة الدم والصديد والجروح المتقيحة . ودورات المياه تفوح منها رائحة نتنة كالمجارى الطافحة وصراصير حمراء وسوداء ، كبيرة وصغيرة ، تجرى حول البالوعات .

وضعت ماريون على أنفها منديلها الابيض وهى تقول : يلقون الفائض من علب الطعام فى مياه المحيط وهؤلاء الناس يمرضون من الجوع .

وسألتها : ولماذا يحدث هذا ؟ أمريكا بلد غنية ؟

قالت ماريون : نعم ، وعندنا مشكلة السمنة ، وهى مشكلة ثراء ، ٢٥ ٪ من الامريكيين مصابون بتضخم الجسم من الزيادة فى الاكل . لكن الاقتصاد الراسمالى يقتضى وجود الفقراء . انهم هم الذين يشترون من السوق ، واذا وزع عليهم الفائض لم يذهبوا للشراء ، وتنخفض بذلك القوة الشرائية ، وتتكدس البضائع ، ويخسر أصحاب المصانع والشركات .

كنت أعرف أشياء جديدة كل يوم . واختار لأبحاثى الموضوعات الشائكة الصعبة . علاقة الاقتصاد بالطب والصحة والمرض . أسباب الفقر فى أمريكا . أحوال الزنوج فى هارلم وأصحاب الملايين فى مانهاتن . نسبة مرض الدرن فى حى بروكلين . علاقة العدالة الاجتماعية بالصحة .

موضوعات أبحاث جديدة ، وعلاقات جديدة بين السياسة والطب ، وبين الفرد والمجتمع ، وبين الجسد والنفس والعقل .

ولم تكن هناك محظورات فى البحث . أختار ما أشاء من الموضوعات . وليس هناك مكتب أمن فى الجامعة

ولا حرس من رجال البوليس .
والاساتذة لا يعلمون فحسب ، ولكنهم يتعلمون أيضا .
والمحـــاضرة لا تلقي والطلبة يســـتمعون ويدونون فى الكشاكيل ، ولكن الحوار يدور بين الاساتذة والطلبة والطالبات . حوار مفتوح ، ومناقشـــات . والاستاذ يعترف بأخطائه ، ويعرف كل طالب وطالبة معرفة وثيقة ونوع غريب من الانسانية وروح الزمالة تشيع فى الجامعة كلها .

***

اصبح للهواء في الصباح برودة منعشة تملأني حماسا ونشاطا وانا ذاهبة الى الكلية . احرك قدمى فوق الارض اللامعة بخطوات سهلة خفيفة . فأنني ولدت هنا وسأموت هنا ولم اعرف مكانا آخر . صوت العجلات المسرعة فوق الكوبرى الحديدى أصبحت مألوفة . والبخار يتصـــاعد من ثقوب الارض . واصطكاك الكعوب القوية النشـــطة باسفلت الشارع ، والقطارات تجري تحـــت الارض . وطائرات الهيلوكوبتر تمرق كالطيور بين ناطحات السحاب ورائحة مياه المحيط ، وقراءة صحف الصباح ، وهدير المظاهرات والهتافات .
أمطار الليل غسلت الارض والهواء والبيوت ، وكـل شيء يلمع تحت الشمس .
وعينا ماريون الزرقاوان تلمعان وهي تستقبلني على الباب : اليوم مظاهرة !
منذ الطفولة وانا أحب المظاهرات . عشق خفى لكل مظاهر التمرد على النظام . لهفة وانتظار غامض لوقوع خلل فى الكون ، اي خلل ، وان كان سقوط نجم مـــن السماء او ارتجاج الارض بصوت الرعد والبرق .

اصوات الطلبة فى المظاهرات كهدير الشلال ، وفوق جسدي تسرى قشعريرة كاللذة الغامضة . هل يمكن حقا أن يسقط النظام ؟

ماريون توزع علينا منشورات طويلة صفراء . صورة لطفلة فى فيتنام احترق وجهها بالنابالم . وصورة اخرى لجندي أمريكي يرقد على الارض بذراع واحدة والـدم يسيل من رأسه ، وجندي فيتنامى يحاول أن يحمله .

الشوارع امتلأت بالشباب والرجال والنساء . أمهات يدفعن بعربات الاطفال أمامهن ويحملن اللافتات ويهتفن : نريد السلام لا الحرية . مظاهرة من النساء والرجـال العجائز يحملون لافتة كبيرة كتب عليها : أعيدوا ابناءنا من فيتنام !

ميدان كولومبس الفسيح يرتج تحت أصوات الهتاف . شمس مارس تتألق فى السماء مع بشائر الربيع الاولى . الحماس يسرى فى كيانى كالدم الساخن . أصـوات الهتاف ترن فى أذنى مألوفة كهتافات الطلبة فى الوطن . والوجوه تشبه وجوه الناس من أهلى . بيضاء وسوداء وسمراء كلها متشابهة ، متلاصقة فى جسد بشرى واحد وأنا جزء من هذا الجسد . أنفاسهم من أنفاسى ، وحرارتهم من حرارتى ، والذوبان النهائى لآخر قطرة من قطرات الغربة أو الوحشة فى دمى .

***

فى اليوم الاخير من العام الدراسى وزعوا علينـا الشهادات فى حفل كبير . الدكتور « تراسل » يقف بملامح الاب وسط الاساتذة . يقدم لى شهادة التفوق مكتوبة على الورق المصقول . وشهادة أخرى غير مكتوبة على الورق ، ترن فى الجو بصوته الهادىء ، وتنحفـر

الكلمات في ذهني . تصبح جزءا مني ، وتظل حيـة كخلايا المخ .

في قاع مكتبي رقدت الشهادات المكتوبة على الورق عشرين عاما . أصبح الورق باليا والحروف بليت وأكلها الزمن والعتة . لكن الشهادات غير المكتوبة ظلت حيـة في خلايا المخ ، تعيش معي ، وتموت معي . ولازلت اذكر عبارة قالتها لي مدرسة الطبيعة في المدرسة الابتدائيـة عام ١٩٤٢ . اذكر الحروف ، حرفا حرفا ، وحـركة الشفتين وهي تنطق الكلمات ، وحركة « النني » في العينين ، وصوتها يلامس أذني ، ثم يسري في القنوات العميقة داخل الرأس ، ويمشي في الخلايا دافئا متدفقا كشحنة من الدم الجديد .

عينا ماريون الزرقاوان فيهما دموع . تلوح لي بيدها من وراء الزجاج ، ثم تذوب في الجو . عيناي تتسعان بالدهشة ، وزجاج النافذة تكسوه عتامة وقطـرات ماء دقيقة كرذاذ المطر . تسقط قطرة على ظهر يدي ساخنة . وأدرك أنها دموع ، وأن قلبي ثقيل .

لكن الصوت ينبعث فجأة من سقف الطائرة معلنـا الاقلاع خلال دقائق الى « القاهرة » . ترن كلمـة « القاهرة » فجأة ، وتحدث من حول راسي انتفاضـة في الهواء ، كالمس الكهربي . ويلوح لي الوجهان تحت الضوء ، في بيتنا الصغير أول شارع الهرم ، والشجرة الخضراء تطل من السور أمام البيت ، وعم أحمد البواب جالس على الدكة ، وكشك الصحف على ناصية الشارع ، وبائع الفول يدس المغرفة الطويلة داخل الفوهة يتصاعد منها البخار ، وبائع الروبابيكيا يدفع بالعربة امامه وراسه الى أعلى مناديا بصوت حاد : بيكيا !

يزحف الحنين على جسدى كقشعريرة برد . انتفاضة تشملنى من راسى لقدمى ، كرجفـــة بدايات الحمى ، وعيناى تدوران من حولى تفتشان عن الملامح الاليفة ، واذناى تتشممان اللهجة والصوت ، وحنين جـــارف كالمرض الكامن ينفجر فجاة ، فاذا بى أشتاق لكل شىء وأى شىء حتى ذرات الغبار السابحة فى الهواء تحت شعاع الشمس ، ورائحة المجارى تحملها نسمة الربيع فى اول الصباح .

***

عيناى تسبقان العجلات السريعـــة فوق الارض . وخفقات قلبى تطغى على كل الاصوات . أخترق الزجاج بأنفى لاطل على الرءوس الكثيرة فى شرفة المطار . وجوه كثيرة غريبة وعيناى تقفزان من وجه الى وجه ، تبحثان عن العلامات المميزة . الوجه النحيل والعينان السوداوان العميقتان . الوجه الصغير المستدير تتوسطه العينان العسليتان .

ورايتهما فجأة . كأنما تكثفت ذرات الهواء وتجمعت لتجسدهما أمام عينى . زوجى يرتدى قميصا أبيض ويلوح لى بحركته الهادئة الواثقة . أبنتى تقفز الى جواره وتتقدم نحوى غير عابئة بحزام الشرطة . الرجل الشرطى يدفعها الى الوراء .

ارفع يدى فى الهواء كأنما لامسكها ، لكن المســـافة لا تزال بعيدة . وعلى اللوح الخشبى أمام موظف الجمرك تبعثرت ملابسى ، وملابس الطفل . واصـــابع الموظف تعبث بأوراقى وكتبى . ولم يكن معى شىء . لعب أطفال وطائرة زرقاء لابنتى تحوطها أجنحة رقيقة بيضاء .

شد الموظف الطائرة من علبتها الكرتون المربوطة بشريط ملون ، وهزها بقوة ليتأكد أن ليس داخلهـــا شيء ، فانزلقت من يده ، وسقطت على الارض ، وتنـــاثرت الاجنحة الرقيقة كالفراشة البيضاء فوق الاسفلت .

وفى العناق أغرق الفرح الاحزان الصغيرة . وخرجت من المطار والاذرع تحوطنى . زوجى وابنتى واخـــوتى والاصدقاء . وبين ذراعى أحمل ابنى . عضو جديد فى الاسرة الصغيرة .

الأغوار وحافة النهر

في يونيو ١٩٦٦ عدت الى الوطن ، وفي يونيو ١٩٦٧ وقعت الهزيمة . عام واحد مضى كأنه عشرة أعـــوام ، والهزيمة في الهواء اتنفسها قبل أن تقع .

الاعلام وأقواس النصر ترتفع فوق كل شبر من الارض الاناشيد الوطنية في الميكروفونات والاذاعات ليل نهار . لكن خلايا جسمي وعقلي تحس الهزيمة في انحنـاءات أقواس النصر لاى نسمة تهب ، ونبرات الاصوات تصيبها البحة كالنشيج في نهاية كل نشيد . وزوايا العيـون تحت الجفون المسدلة فوق المنصات . وفتحات الانف تتشمم من تحت الكراسي والموائد .

ثم جاء ذلك اليوم الخامس من يونيو . ورأيت العصافير والطيور ترفرف مذعورة في السماء ثم تختفي هاربة كأنه يوم شتاء والبرق والرعد ينذر بالمطر .

كنا في عز الصيف ولا برق ولا رعد ولا مطر . لكن السماء تغيرت فجأة ، ودوى الطائرات الخاطف اشد سرعة من الضوء . وانفجارات بعيدة مكتومة . ثم عادت السماء كما كانت بعد بضع دقائق .

كنا في أول الصباح ولم أعرف ماذا حدث . وذهبت كعادتي كل يوم الى مستشفى الدرن . ولاول مرة لا ارى طابور المرضي واقفا ممدودا بامتداد البصر . كـــانوا جالسين في فناء المستشفى وبينهم راديو صغير . يقربون

آذانهم من الراديو ثم يهللون ويصفقون . واستقبلتنى المرضة وهى تهتف بالحماس : اسقطنا حتى الآن أربع عشرة طائرة للعدو !

لم اكن أصدق الاذاعات ولا الصحف ولا البيسانات الرسمية ، لكنى صدقتها ، كنت مرهقة ، اتنفس كل يوم انفاس مرضى الدرن دون العازل الواقى ، وفى المثلث تحت الضلوع الم يلازمنى كل صباح كالغثيان يبدد حاستى السادسة ، ويضعف حواسي الاخرى الخمس ، فلا أشم رائحة المجارى فى البركة أمام المستشفى ، ولا أسمع الانين ينبعث من الطوابير ، وجلدى أيضا يفقد حاسة اللمس ، وعدسة العين تكسوها غشاوة ، وخلايا المخ تصيبها عتامة .

وصدقتها على الفور ، وتلاشي الالم المزمن تحت الضلوع وانقشع الغثيان ومعه العتامة . وهتفت بالفرح : انه اذن النصر وليس الهزيمة ! ووجهت لنفسى اللوم والتأنيب على أحاسيسى السوداوية والعجز عن التنبؤ الا بالفشل لكنها لم تكن الا نصف دقيقة استعدت فيها حواسى . ورأيت الطابور الطويل يعود بالوجوه الشاحبة ، والرءوس المنكسة ، والعيون المنكسرة . وتجمدت الابتسامة على وجه المرضة وانسحب منه الدم وبدأنا نعرف أن طائراتنا كلها ضربت على الارض وهى نائمة . وقالت المرضة كالمعتذرة : لم اكذب عليك يادكتورة ، ولكنى صدقت الراديو .

وبدأت الهزيمة تتجسد على شكل الحقيقة . والحقيقة تتجسد على شكل وجه طويل شاحب ، وانف طويل شاحب . وعينان شاحبتان واسعتان تتسعان لكل هزائم العالم .

واصبح الوطن كالمأتم . نصحو على صوت يتلو الآيات وننام على التلاوة نفسها الرتيبة . والميت لم يدفن بعد ولازال يمشي على الارض . يطل علينا كل يوم بعينين مقتولتين . والقاتل عيناه تلمعان بالنصر . يحمل سلاحا لازال يقطر دما ، ويدوس على أرض الوطن فى الضفة الغربية والجولان وسيناء . وجبهة القتال أصبحت ثلاث جبهات وأكثر .

***

الطائرة تحملني الى جبهة القتال فى الاردن . فى حقيبتى ادوات الطب وليست أدوات الحرب . لكن فى رأسي قرار . أن أتدرب على اطلاق الرصاص والقتل . العالم من حولى اما قاتل أو مقتول ، ولن أكون أبدا المقتول . تدربت على السلاح فى عام ١٩٥٦ ، بعد العدوان الثلاثي ، « الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى » على بور سعيد . كنت طبيبة فى الريف فى قريتى طحلة ، وتحولت الوحدة الطبية الى معسكر للتدريب على السلاح والتمريض . الرجال يحملون السلاح ويقتلون والنساء يضمدن الجروح . تقسيم العمل على اساس الجنس فى الحرب والسلم . وقلت : سأحمل السلاح وأقتل ولن اضمد الجروح !

وتدربت على اطلاق النار ، واصابة الهدف . اثبت البندقية على كتفى وأركز عينى على نقطة الوسط ثم اضغط على الزناد . ويندهش المدرب العسكرى كيف لامرأة ان تصيب الهدف من أول مرة . واصبح يطلق على اسم « الكابتن » بلغة المذكر كنوع من المكافأة على الامتياز في الرماية . لكنى رفضت اسم الرجل ، وتمسكت باسمي . وصاح بدهشة : هذا تكريم لك حين

نعطيك اسم الرجل . وناديته باسم المرأة فغضب ،وقلت بدهشة : هذا تكريم لك حين نعطيك اسم المرأة .

ورأيته يرفع بندقيته ويصوبها نحو رأسي . ورفعت بندقيتي وصوبتها نحو رأسه .

وتراجع على الفور وأدركت منذ تلك اللحظة ان الرجل لا يفهم الا السلاح والسلاح لا يهزمه الا السلاح . واصبح يحترم اسمي ولم يعد يناديني باسم الرجل . وبقى معنا شهرا ثم سافر . واقامت له الوحدة الطبية حفل وداع صغير . والقيت كلمة قصيرة ، شكرته فيها لانه بذل جهودا في تدريب الناس على القتال . ورد بكلمة شكر في نهاية الحفل وقال : من السهل أن نتعلم كيف نطلق النار ونقتل ، لكن من الصعب أن نتعلم كيف نحترم المرأة .

أكره ملمس السلاح في يدى ، واكره منظر الدم . لكن كراهيتي للاغتصاب أشد . اغتصاب حق المرأة أو اغتصاب أرض الوطن .

كلاهما اغتصاب . وكلاهما وجهان لعملة واحدة . العبودية أو القهر بالقوة المسلحة .

في مطار عمان رأيت عددا من الشباب الفدائيين . ركبت معهم السيارة الجيب الى مركز القيادة . شوارع عمان واسعة نظيفة . والجبال من كل ناحية . وعيون الفدائيين فيها بريق خاطف ، يعكس لون الجبل ، يذكرني بالملامح الجبلية في الجزائر . وصوت لازال في أذني : الثورة تجعل الملامح جذابة .

العيون في الوطن كانت شاحبة مليئة بالهزيمة . والهزيمة تجعل الملامح خالية من الجمال . حركة الجسم تصبح بطيئة ، ونظرة العين جانبية ، لا تواجهك

من الامام . لا ترتفع وتثبت فى عينك . والذراعـــان يتهدلان الى جوار الجسم فى مشـية متعرجة . وعضلات البطن مرتخية . وخلايا العقل مرتخية . منذ الطفـولة وانا أكره منظر الوجوه المهزومة . وجه خالتى نعـمات بعد أن طلقها زوجها ، وخالى يحيى حين فشــل فى الدراسة . ووجه عبد الناصر بعد الهزيمة . كالاســد الجريح مكسور العينين . والاسد المكسور قبيح الشكل ، وأجمل منه الاسد المقتول .

فى مركز القيادة فى عمان التقيت بالقيادات . رجال كلهم ، و « النني » داخل عيونهم يتحــرك فى كل الاتجاهات بلا توقف . يتكلمون أيضا بلا توقف ولا يسمعون الا انفسهم . احدهم يرتدى زى الصاعقة ومن حول وسطه حزام عريض مزركش يتدلى منه السلاح . اصابعه ناعمة واظافره شفافة نظيفـة لم تعرف ملمس التراب . بشرته بيضاء لم تلوحها شمس الصيف ولا حرارة الارض . صوته له رنين معدنى ، دوى فى الاذن كأصوات الآلهة الخفية ويتحول الصوت دون أن يحرك شفتيه الى اوامر عليا .

أشعر بالاختناق حين تقودنى الظروف التعيسة الى الجلوس وسط الآلهة فى مركز قيادة ، أو مكتب رئاسة او وزارة أو حيثما تكون القيادة . فالقيادة فى بلادنا سلطة ، والسلطة امتيازات . وقد تركت مصر مهبط السلطة مركزية ذات السيادة وامتيازات فى الدنيــا والآخرة ، وجئت الى مركز الثورة الجديدة وجبهــة لقتال . لكن يبدو ان القيادات هى القيادات ، فى السلم فى الحرب ، وفى الثورة . عجينة واحدة هذا النوع من لرجال رغم اختلاف الملامح ، واللهجة ، والازياء وحركة

الذراعين أثناء السير ، والعين لا تثبت أبدأ فى العين .
والتقت عيناى وانا جالسة فى مركز القيادة بعينى شاب فدائى . أدركت من عينيه أنه فدائى وليس من سلالة القيادات . النظرة المباشرة الصريحة ، والعين تثبت فى العين فى خط مستقيم ، واليد أيضا تصافح والذراع ممدود مستقيم .
كانت له ذراع واحدة ، والذراع الثانية فقدها فى فلسطين . وساق واحدة ، والساق الثانية بترت فوق الركبة بعد معركة الكرامة فى ٢١ مارس ١٩٦٨ .
لم أكن حتى ذلك الحين أعرف معنى الحرب . لم اشهد فى حياتى حربا الا فوق شاشة السينما . مفرقعات وانفجارات وأجساد تسقط وأجساد تجرى وسيارات تنقلب وتحترق وطلقات رصاص ودوى مدافع ثم بنقشع الدخان وتسطع الشمس ويخرج الناس من بيوتهم الى الحدائق يرقصون ويغنون رافعين رايات النصر . وفى طفولتى لم أعرف عن الحرب الا صوت صفارة الانذار . صفارة غليظة متقطعة كبوق السيارة العتيقة ، وأمى تجرى فى غرفات البيت تطفىء الانوار وأبى يغلق شيش النوافذ ويترك الزجاج مفتوحا ، ومن باب المطبخ أتسلل الى الفناء الخلفى ، وتتعلق عيناى بكشافات الانوار تتحرك فى السماء السوداء وتملأ الكون بأشباح ضوئية بيضاء كالآلهة المسحورة ، وأصوات تدوى من بعيد كالرعد ، وأضواء تلمع وتختفى كالبرق ، بيضاء وصفراء وحمراء تشبه صواريخ العيد . ثم تدوى صفارة الامان . صفارة طويلة حادة غير متقطعة كصفارة القطار . ويعم ضوء الكهرباء فى بيتنا وكل البيوت ، وصوت الراديو يرتفع بالغناء . كنت لاأزال

صغيرة والعالم كبيرا ، واسمع ابى يقول ان الحــرب بين الانجليز والالمان . ولم اكن اعرف الفرق بين الانجليز والالمان ، واذا مات الانجليز فى الحرب او مات الالمان كلاهما عندى سيان مادمت أفتح عينى فى الصـــباح فأجد امى وابى وجميع اخوتى احياء ولم يموتوا .

وحين كبرت وبدأت افهم أكثر عرفت اسم اسرائيل ، وتدوى صفارة الانذار بالصوت الغليظ المتقطع ، ويعم الظلام الدامس ، وزجاج النوافذ طلاؤه ازرق داكـن وضوء السيارات أزرق ، ووجوه الناس من حولى تشوبها زرقة . ولاول مرة فى حياتى أسمع كلمة الموت ، مجرد كلمة سمعتها ، ارتبطت فى ذهنى بالزرقة الداكنة فوق الوجوه والجدران والنوافذ ومصابيح النور ، وبـكلمة اخرى اسمها اسرائيل .

لكنها ظلت مجرد كلمة « اسرائيل » او « الحرب » او « الموت » . وظل الموت بعيدا عن ذهنى لا اكـــاد اذكره واظن انه غير موجود ، حتى دخلت كلية الطب وعلى منضدة التشريح رأيت لاول مرة وجه انســان ميت .

***

لازلت أحملق فى وجه الشـــاب الفدائى . عينـــاه مرفوعتان الى أعلى وفيهما بريق . يتطلع نحو الطريق . وهو جالس الى جوار السائق وفى يده السلاح ، ويده الثانية مبتورة ، والسيارة مصفحة من النوع «الجيب» . اجلس خلف السائق والى جوارى ثلاثة من الفــدائيين المسلحين منهم فتاة فدائية اسمها « أسماء » . عينـــاها كعيون الشباب . البريق والعين المرفوعة تثبت فى العين ولا تتذبذب . وخلفى تجلس « أم يوسف » ، امـــرأة

متوسطة العمر ، ملامحها ريفية تشبه ملامح عمتي بهية، تلف رأسها بمنديل أبيض يسمونها أم الفدائيـــين . وصلت بنا السيارة الى الكرامة ، خراب وحطـــام ، والصمت كالهواء الثقيل الراكد يتحرك من حين الى حين على صوت انفجار مكتوم . البيوت كلهـــا متهـــدمة والاسلاك مقطوعة وعربات كقطع الفحم الاسود ، ولا أحد من السكان . لا شيء الا الاحجار ، بقـــايا بيـــوت متناثرة ، وبقايا أثاث ، وفردة حذاء طفل ورائحـــة دم جف ، وشجرة محترقة .

سرت مع الفدائيين بين الركام ، ثم انشقت الارض فجأة عن شاب طويل نحيف يلف رأسه بكوفية بيضـــاء فيها دوائر سوداء . عيناه سوداوان فيهمـــا البريق والنظرة المباشرة ، والعين تنفذ فى العين وتظل ثابتة . قادنا الى مغارة قريبة من حافة النهر فى بطن الارض ومجموعة من الشباب المسلحين في وضع الاستعداد ، عيونهم نحو الضفة الغربية شاخصة ، وحنين الى الارض التى ولدوا عليها ثم طردوا منها بقوة السلاح . تطـــل الارض عليهم من وراء نهر الاردن . الضفة العـــالية الخضراء . الوطن والاهل والام الممزقة بين الضفتين . الام المقتولة تحت الجدار . والاب المطعون فى الصـــدر والبطن والظهر . والطفل الذى لم يبق منه الا فـــردة حذاء . ومن أرض الوطن حيث اسرائيل الآن تنطلـــق مدافع الهاون تقذفهم بالدانات ، وطائرات امريكية الصنع تلقى الصواريخ وقنابل النابالم .

تلقى أحد الشباب الاشارة ، واختفينا جميعا داخل المغارة . صوت المدافع والقذائف يرج جدران المغارة . غبار يتساقط من السقف . اتطلع بعيني فوق راسى .

السقف أسود بلون الارض ، خشن ومشقق كالارض ، وحروف محفورة فوق الجدار بخط متعرج كشقوق النمل ، واسم محمود درويش :

انني مندوب جرح لا يساوم .

علمتني ضربة الجلاد أن أمشي وامشي واقاوم ،
ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي ،
ربما اعمل حجارا وعتالا وكناس شوارع
ربما ابحث في روث المواشي عن حبوب
ربما أحيا عريان وجائع
ياعدو الشمس ، لكن ، لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي سأقاوم .

« أسماء » الى جواري قابعة عند فوهة المغارة ، سلاحها في يدها ، وعيناها تخترقان الارض والسماء حتى رام الله ، الارض التي ولدت عليها ، ورات اباها يذبح أمام عينيها .

وفي الليل تسللت وفوق صدرها قنبلة ، القتها على ثلاثة من جنود اسرائيل ، مات اثنان وجرح الثالث . وعادت الى بيتها . وفي يوم آخر حملت قنبلة أخرى والقت بها على سينما صهيون . وفي المرة الثالثة امسكوها وهي تحمل المتفجرات فحبسوها وعذبوها لتعترف بأسماء زملائها ولم تعترف . اعتدوا عليها جنسيا حتى أغمي عليها ولم تعترف . أطفأوا في جسدها السجائر وخلعوا اظافرها وظلت مطبقة بأسنانها على شفتيها دون أن تنطق . ولما يئسوا منها القوا بها على الجسر وسارت حافية حتى الضفة الشرقية . دخلت المستشفى في السلط ثم خرجت بعد ثلاثة شهور وعلى جسدها آثار جروح وفي يدها سلاح

جديد ، قابعة عند فوهة المغارة ، وعيناها على الضـفة الغربية ، واذناها مرهفتان لصوت المدافع . تعرف نوع المدفع من صوته ، وتعرف أيضا من اى مسافة يضرب : هذه ضربة مدفع مابة وخمسين من مسافة خمستاشر كيلومترا .

وعلى باب المغارة رايتها جالسة ، « أم يوسف » براسها المربوط بالمنديل الابيض ، وبشرتها المحروقة بالشمس كعمتى بهية . عيناها شاخصتان نحو الضفة . عينان واسعتان غائرتان تغطيهما طبقة متجمـدة من الدمع وتحت حاجبها الايسر ندبة . جفناها مفتوحان لا يرمشان والمدافع تدوى ، والسماء والارض تمتزج فى كتلة نار واحدة يلفها الغبار .

ظلت جالسة تنتظر ، ثم رايتها تنتفض واقفة ثم تجرى بلا توقف حتى تصل الى حافة النهر . ظلت واقفة على الحافة تروح وتجىء فى قلق كأن ضاع منها طفلها الوحيد . ثم رأيت النهر ينشق فجأة عن ثلاثة من الشباب يحملون شابا جريحا ، اندفعت نحوهم تحمل معهم الجريح ، وبأربطة الشاش والقطن ضمدت الجروح ثم حملته معهم الى السيارة الجيب ، التى انطلقت كالسهم الى مستشفى السلط . وفى المستشفى رايتها تمر على المصابين واحدا واحدا تفك الرباط المتسخ وتضع الرباط النظيف . سمعتهم ينادونها « امنا » كما ينادون الارض والوطن . وهى تناديهم « أطفالى » كما تنادى الارض نبتها الاخضر . لم تتزوج ولم يكن لها بيت ولا رجل لكن البيوت كلها بيتها ، والرجال كلهم رجالها ، والنساء نساؤها والشباب شبابها . واسمها

الاصلى « أم يوسف » وفى ذاكرتها منذ ثلاثين عاما قصة حب كبير ، وطفل اسمه يوسف لا تذكر الا اسمه ، كأنه مجرد خيال وحلم ، أو جنين لم تلده أبدا ، أو ولدته وضاع فى الضفة .

كانت عربة الاسعاف قد حملت الجريح من جوار النهر وانطلقت بنا فى الاغوار تشق طريقها نحو السلط حينما رأيت شبحا يجرى خلفنا وكأنما انشقت عنه الارض . واتضح لى بعض لحظاته انه امرأة تجرى وراء العربة . وطلبت من السائق ان يتوقف ، فاندفعت المرأة نحو العربة دون أن تحدثنا أو تلتفت الينا ، ونظرت متفرسة فى وجه الجريح ثم بأصابعها النحيلة راحت تقلب فى يديه وقدميه . وأمسكها الفدائى برفق وأبعدها عن الجريح ، وهمس فى أذنى بصوت حزين : انها لا تسمع احدا ولا ترد على أحد ، بالنهار تتجول بين الخيام تتلفت حولها ، وفى الليل نرى جسمها مرتخيا ممدودا بحذاء النهر ، وحينما تلمح جريحا أو غريقا تهب واقفة وتجرى اليه ، تفتش فى ملامحه وفى يديه وقدميه كأنما تبحث عن شخص تعرفه .

رأيت هذه المرأة كثيرا خلال الفترة التى عشتها فى السلط . كانت تندفع أحيانا وراء عربة الاسعاف . وفى أحيان أخرى أراها راكعة بين الصخور فى الاغوار تنبش الارض وتأكل التراب . والتقيت بها مرة وهى تتجول بين الخيام وجها لوجه ، ورفعت الى عينين واسعتين تغطيهما طبقة متجمدة من الدمع ، وجرح عميق تحت العين كالندبة . تشبه « أم يوسف » لكنها لم تكن أم يوسف . وتشبه عمتى بهية لكنها ليست

عمتي بهية . ملامح وجهها مؤكدة لكن جسدها يذوب في الضوء مع العناصر الاخرى فيما يشبه الضياع . ولا أحد يعرف اسمها الحقيقي وينادونها « عين الحياة » .

وحين عدت الى مصر ظلت هذه المرأة تلوح لي في منامي بعينيها الغائرتين ، تؤرقني وتوقظني من عز النوم وفي ليلة مؤرقة أمسكت ألقلم ورسمتها فوق الورق على شكل قصة اسمها « عين الحياة » .

مؤتمر النساء فى هلسنكى

كانت هى أول رحلة الى تلك المنطقة الباردة ــ القريبة من القطب الشمالى ، والتى يطلق عليها اسم البلاد الاسكندنافية ، تلك البلاد المحصورة بين المعسكرين الكبيرين الشرقى والغربى ، تفصل بينهما كحاجز من مادة عازلة لا توصل الحرارة ، باردة وهادئة وساكنة كنقطة فى حبل طرفاه مشدودان بقوتين متعادلتين .

هذا السكون هو الصفة الغالبة على تلك البلاد وأهلها ، حتى الطبيعة تبدو ساكنة فلا الليل يعقب النهار ولا النهار ينتهى بقدوم الليل ، وانما تظل الشمس فى السماء ساكنة بغير حراك لا تغرب ولا تسقط وراء الافق ، ويظل لون شفقها الاحمر ثابتا فى السماء ، ويكاد يختلط الامر على العين فلا تكاد تعرف أهى سماء حقيقية أم لوحة لفنان .

وبعد منتصف الليل أعود الى حجرتى الصغيرة فى فندق « غالى » فى هلسنكى . الشمس وراء الغابة الكبيرة معلقة فى السماء ولا أكاد أعرف الليل من النهار لولا التعب الطبيعى يصيب اجسامنا ساعة النوم فأسدل الستارة الكثيفة على زجاج النافذة لأخفى ضوء الشمس ولأصنع داخل غرفتى ليلا صناعيا فأستطيع أن أنام . كنا فى يونيو عام ١٩٦٩ ، وهذه الليالى البيضاء فى فنلنده تستمر تسعون ليلة فى فصل الصيف وبقابلها فى الشتاء الايام السوداء حيث لا نهار

ولا شمس وانما ليل دائم طوال الاربع وعشرين ساعة .
وشوارع هلسنكى نظيفة هادئة ، ووجوه الناس نظيفة هادئة ، لا يكاد يبدو عليها انفعال . سكون غريب فى العيون كسكون البئر فيه صفاء ولكنه صفاء بارد برودة الماء المخزون فى بطن الارض .
وكل شيء فى هلسنكى بارد وساكن ، حتى شمس الصيف وعيون النساء وعيون الرجال أيضا ولعل ذلك انعكاس الطبيعة الباردة أو انعكاس السياسة المحايدة الصامدة بغير انفعال نحو شرق أو غرب ، أو يسار او يمين .
ولكن هذا هو سطح هلسنكى الخارجى .. هذه هى الطبقة الثلجية المتجمدة على سطح بحر فنلنده اذا ماكسرت بالسفن الفنلندية الحديثة أو ذابت تحت شمس الصيف انبثق الماء من تحتها غزيرا ودافئا .. وكشفت القلوب الفنلندية عن طبيعتها الانسانية التى لا تختلف عن الطبيعة الانسانية فى اى مكان وزمان .. وحتى فى السياسة ... تحت تلك الطبقة الحيادية الباردة بغير انفعال صراع دائم بين ثمانية أحزاب سياسية ...
المحافظين ـ الاحرار ـ الوسط ـ الفلاحين ـ « الاشتراكيين الديمقراطيين » ـ حزب المعارضة ـ « الفنلنديون الديمقراطيون » ـ الاقلية السويدية .
ويقابل الحزب الاشتراكى الديمقراطى حزب العمال فى بريطانيا ويمثل حزب الفنلنديين الديمقراطيين اقصى اليسار .. وهذان الحزبان يفوزان وحدهما بنصف مقاعد البرلمان ويفوز بالنصف الباقى ممثلين عن الاحزاب الستة الاخرى .. ولم يحدث أن فاز حزب واحد

بالاغلبية .. ورغم الصراع الدائم بين ممثلى اليسار وممثلى اليمين الا أن حالة التوازن تكاد تكون دائمة والحكومة تمثل مجموعة من الاحزاب وليس حزبا واحدا .

حصلت فنلنده على استقلالها وأعلنت جمهوريتها المستقلة وخرجت من تحت سيطرة روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ وهى نفس السنة التى تحررت فيها روسيا نفسها من قبضة القيصر وتكونت أول دولة اشتراكية فى الاتحاد السوفياتى برئاسة لينين .

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتوقيع معاهدة السلام فى باريس سنة ١٩٤٧ أعلنت فنلنده تصميمها على الوقوف على الحياد وبقائها خارج صراع القوى الكبيرة فى العالم ..

وفى سنة ١٩٥٢ تكون مجلس الدول الاسكندنافية الذى يضم الدول الخمسة : السويد . النرويج . الدانمارك . ايسلانده . فنلنده . وأصبح يسود هذه المنطقة الشمالية من أوربا نظام أجتماعى وسياسى واحد وجواز سفر واحد وموقف واحد داخل هيئة الامم المتحدة .. هو الموقف الحيادى الدائم البارد بغير انفعال مهما انفعل العالم ومهما بلغ الصراع ذروته بين مايطلق عليها بالقوى الكبيرة فى العالم .

هذا هو الموقف الحكومى .. اما الشعب فهو كأى شعب آخر فى العالم لا يمكن أن يكون حياديا فى عالم يغلى والحروب تشتعل هنا وهناك ويقتل بعضه بعضا ...

قالت لى احدى السيدات الفنلنديات : قرأنا كثيرا عن كفاح شعب فيتنام .. وعن الحروب الدائرة

في الشرق الاوسط .. وشعب فلسطين الذي طرد من وطنه .. الاستعمار والامبريالية الامريكية هى التى وراء كل هذا !! وضاعت القشرة الخارجية الساكنة وبدأ الانفعال والنقاش .

كان المؤتمر ضخما ، وكله من النساء . نظمه الاتحاد النسائى الديمقراطى العالمى . أكثر من الف امرأة يمثلن ٩٢ دولة ، ثم ممثلات المنظمات الدولية وعددها ثلاثون أو أكثر . ولاول مرة فى حياتى أعيش خمسة أيام كاملة فى مجتمع نسائى من كل الجنسيات .

وكنا مجموعة من النساء المصريات والعربيات . عددنا يبلغ المائة وكل دولة عربية أرسلت وفدا من خمس نساء أو أكثر ، يمثلن الحكومات العربية . ولكل وفد رئيسة تجلس فى الوسط ومن أمامها لافتة بيضاء كتب عليها اسم الدولة ، وعلى صدر كل واحدة دبوس ولافتة بيضاء كتب عليها اسمها ولقبها .

وجلست فى أحد المقاعد المخصصة لوفد مصر ، ولم اعلق الدبوس فوق صدرى . منذ الطفولة وانا اكره الدبابيس المعلقة فوق صدور النساء . ومنذ أول مؤتمر حضرته فى كلية الطب وانا أكره منظر اللافتات فوق الصدور ، وحروف الاسم واللقب معلقة فوق جسم الانسان ، كما تعلق الماركة والسعر واسم الدكان فوق الاحذية والملابس وعلب السردين . ومن حولى الف امرأة مكدسات فى القاعة ، والنوافذ مغلقة ، والهواء الصناعى المكيف يختلط فى صدرى برائحة العطور الانثوية ، وكلمات رئيسات الوفود من فوق المنصة ترن فى رأسى كضربات المطرقة .

عطست بصوت عال وانا جالسة لاطرد الهواء الصناعى

والكلمات المصنوعة ، وسمعتنى رئيسة الوفد المصرى وانا أعطس فرشقتنى بنظرة حادة من فوق المنصة ، ولمحت صدرى الخالى من الدبوس فاعتبرتنى ضد النظام ، وجاءت جلستها بعد أن هبطت من فوق المنصة الى جوار امرأة من اسرائيل فانتفضت مذعورة ولملمت أوراقها واسرعت فى الممر بين المقاعد لتجلس فى مكان آخر ، وعضوات الوفد الاخريات يتبعنها حيث تذهب ، يتأرجحن على كعوبهن العالية الرفيعة من خلفها كسرب بطىء من البط .

منذ الطفولة وانا اكره احذية امى ذات الكعب العالى . لكن أكثر ما كرهته هو دور التابع ، ومنظر الخادم وهو يسير خلف أبى أو أمى .

وظللت جالسة فى مكانى ، وكان بينى وبين المرأة الاسرائيلية مسافة تزيد عن المترين . وظهرى ناحيتها وعيناى ناحية المنصة ، لكن رئيسة الوفد اعتبرتنى وكأنما عقدت صلحا مع اسرائيل .

وحظيت قضية فيتنام بالصدارة فى كلمات الوفود ، اشتركت جميع الوفود فى ادانة السياسة الامريكية واعتدائها على شعب فيتنام ، ووقفت على المنصة فتاة فدائية من فيتنام اسمها ونتوانتو ، بملابسها الكاكى ، وعيناها الطويلتان المسحوبتان الى أعلى . لم تتجاوز الاربعة وعشرين عاما وتقود سرية فى جنوب فيتنام . فقدت أختها فى الحرب ، وأسر أخوها ومنذ تسع سنوات وهى تحارب ، استطاعت سريتها تحت قيادتها ان تسقط طائرة أمريكية وتحرق سفينة وتقتل مائتى جندى أمريكى . هى وحدها قتلت ٣٥ جنديا أمريكيا . جسمها صغير كالطفلة ، وضفائرها طويلة كتلميذات

المدارس ، وابتسامتها رقيقة كالام ، وهى نفسها أم لطفل عمره ثمانية شهور ، لكن النظـرة الثاقبة فى عينيهـــا وخطوتها السريعة كوثبات الفهد تؤكد لى انهــا يمـكن ان تقتل .

وجاءت قضية فلسطين بعد فيتنام ، ووقفت مندوبة فلسطين على المنصة . حكت تاريخ نشأة اسرائيـل أ،- وآلة الحرب الاسرائيلية والانجليزية ثم الامريـسكية ، والشعب الفلسطينى الذى قتل بالآلاف ، وطـرد من ارضه ، واصبح يعيش الخيام خارج وطنــــه ، والقهر والاذلال فى الارض المحتلة داخل اسرائيل .

وحظيت القضية الفلسطينية بتأييد الوفود كلها الا وفدى رومانيا واسرائيل .

***

رأيتها لاول مرة وهى جالسة وسط مجموعة مـــن النساء وقلت لنفسى هذا الوجه مألوف اين رايته وفى لحظة عرفتها .. انها فالنتينا التى طالعتنا صورها فى الصحف بعد أن طارت فى سفينة الفضاء ثم عادت الى الارض لتحمل على صدرها النجمة الذهبية . جاءت فالنتينا الى هلسنكى رئيسة لوفد الاتحاد السوفيتى فى المؤتمر . شابة نحيفة الجسم دقيقة الملامح لهـــا انف مستقيم مدبب وعينان زرقاوان عميقتان ، وشـــفتان دقيقتان مطبقتان لا تعرفان الثرثرة وقلمــا تنفرجان رغم البسمة الطبيعية الهادئة تكسو ملامح وجهها الصغير .

والتفت حول فالنتينا النساء من مختلف الوفود يعانقنها ... وتوالت عليها كلمات الاعجاب وكثير من الاسئلة .. كيف صعدت الى السماء ؟ هل شعرت بخوف ؟ العالم كله يعترف ببطولتك . فهل تشعرين انك عظيمـــة ؟

وانت جميلة ايضا ورقيقة . فكيف قمت بهذه الرحلة العجيبة ؟ وعانقتها احدى السيدات وهي تلهث قائلة لم أتصور انني سأراك بعيني في يوم من الايام ... لم اتصور انك امراة مثلنا من لحم ودم ..

ورغم هذا الجو المفعم بالاعجاب لم يبد على فالنتينا اي زهو بنفسها وظلت ملامحها هادئة باسمة ولم تنس في غمرة الاعجاب بها بقية عضوات الوفـد السـوفيتي فقدمتهن واحدة واحدة الى النساء وقالت بصـوت هادىء : لست وحدى .. عندنا بطلات من النساء في كل مكان من الاتحاد السوفيتي يكافحن كل يوم من اجل بناء المجتمع .

ولم تتكلم فالنتينا كثيرا بل تكلمت بضع دقائق قليلة ثم اعطت الكلمة لزميلاتها عضوات الوفد وبدأ الجميع يشترك في الحديث والمناقشة .

وفي اليوم الاخير من المؤتمر صدرت القرارات والبيان الختامي في ورقة وزعت علينا على النحو التالي :

الى كل نساء وامهات العالم :

جئنا الى هلسنكي مندوبات عن ملايين النسـاء من مختلف البلاد لندرس دور المراة في عالمنا الحاضر . كانت النساء في الماضي يهبن حياتهن لاعمـال البيت اليومية واليوم أصبحن يشاركن في كل ما يجـري في العالم وفي كل مايتعلق بمشاكل بلادهن ، وادركن أن حل هذه المشاكل يرتبط ارتباطا وثيقا بتحقيق الاستقلال الوطني والحرية والسلام كما يرتبط بحصولهن عـلى حقوقهن السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... وأن النساء في كفاحهن من أجل التحـرير ومن أجل المساواة بالرجل ومن أجل تحقيق حياة افضل

في الاسرة وفى المجتمع وفى العمل يمثلن قوة تقدميــة ضد التخلف وضد الاستغلال . اننا نمثل بلادا مختلفة في سياساتها وننتمي الى مجتمعات ومعتقدات مختلفة الا اننا نتفق جميعا على أن العالم يواجه الآن خطـــرا يقتضي منا كل جهودنا وتضامننا .

اننا ندين الاستعمار العالمي والامبريالية العالمية في حربها الوحشية ضد شعب فيتنام ، وفى لاوس وفى كوريا وفى الشرق الاوسط . اننا ندين اسرائيل ومن ورائها الامبريالية العالمية في عدوانها على البلاد العربية. ان اكثر من مليوني لاجيء فلسطيني قد طردوا من وطنهم ...اننا نؤيدهم فى حقهم لمقاومة العدوان وحقهـــم فى العودة الى وطنهم .. اننا نطالب بحقوق الشـــعب الفلسطيني التى أهدرت ونؤيد بقوة كفاح الشـــعوب العربية ضد العدوان ونطالب بانسحاب كــل القــوات الإسرائيلية من الاراضى العربية المحتلة ونطالب بتنفيذ قرارات مجلس الامن الصادرة فى ٢٢ نوفمبر ســنة ١٩٦٧ .

اننا نؤيد كفاح الشعوب الافريقية فى حربها ضد الاستعمار القديم والجديد ونؤيد كفاح شــعب أنجــولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية ضد الاســتعمار البرتغالى ونؤيد كفاح شعب جنوب افريقيــا وروديسيا ضد نظم التفرقة العنصرية والفاشستية فى بلديهما .

واننا نؤيد كفاح الشعب الكوبى ضد اى ضـــغوط اقتصادية وسياسية وعسكرية . واننا نؤيد كفــاح اى شعوب فى العالم من أجل الاستقلال والحرية والسلام . ونؤيد شعب اليونان وأسبانيا والبرتغال وشــــعوب أمريكا اللاتينية ضد اى قوى فاشستية ديكتاتورية .

اننا نؤيد اى حركة تناضل من اجل القضاء على التفرقة العنصرية فى امريكا وفى أى مكان من العالم . اننا ندين الامبريالية الامريكية لانها هى القوة وراء كل العدوان والحروب فى العالم أنها القوة المؤسسة للأحلاف العسكرية وأن قواعدها تنتشر فى العالم من جوانتانامو الى قبرص وفى آسيا وافريقيا واستراليا واوروبا . انها المسئولة الاساسية عن التسابق الى التسلح الذى يبتلع ملايين الدولارات ويبتلع الامكانيات البشرية الطائلة التى يحتاجها العالم اشد الاحتياج للقضاء على الجوع والمرض والفقر والجهل .

***

دعتنى احدى السيدات الفنلنديات لتناول العشاء فى بيتها .. وفى سيارتها الصغيرة تجولنا فى شوارع هلسنكى النظيفة ومررنا بالغابات الخضراء والبحيرات الصافية كالماء المقطر .. ووصلنا أخيرا الى بيتها الصغير وسط الشجر والماء ، ومن الشرفة وقفت اتطلع وهواء الليل كان باردا منعشا ، وأشعة الليل تسقط على سطح البحيرة الساكن ، اشعة بيضاء غريبة تختلط على العين فلا تكاد تعرف أشمس أم قمر هذا الذى يضىء الكون . لكنها الشمس المعلقة فى السماء بالليل .

تجولت فى أنحاء الشقة الفسيحة الغارقة فى الصمت والهدوء ..

— تعيشين وحدك ؟

— معى ابنى .

— وزوجك ؟

— لم أتزوج .

وسكتت لحظة ثم قلت :

ـ أهذا شيء عادى هنا ؟
ـ نعم .
ـ وابنك ؟ ما نظرة المجتمع اليه ؟
ـ كأي ابن آخر . انه يحمل اسمى وهذا شرف له لانى امراة لى عمل ناجح .
ـ الا توجد عندكم مشكلة اسمها اطفال غير شرعيين ؟
ـ نحن لا نعرف هذه التسمية .. كل طفل يولد هو طفل شرعى .
ـ ولماذا لم تتزوجى ؟
ـ كنت احبه واريد أن أتزوجه ولكنه لم يرغب فى الزواج منى .
ـ الم تقابلى رجلا يرغب فى الزواج منك ؟
ـ قابلت بعضا منهم .. ولكنى لم احبهم .
ـ كأنك لا توافقين على الزواج الا بعد الحب ؟
ـ هذا شيء طبيعى .
ـ وهل تعيشين الحب الآن ؟
ونظرت الى وقالت :
ـ هل وجدت تناقضا بين شخصيتى التى عرفتيها فى المؤتمر وبين حياتى الخاصة ؟ اننا هنا نفصل بين العمل وبين الحياة الخاصة . فى ساعات العمل انا اعطى كل نفسى للعمل وفى ساعات الراحة والاستمتاع بالحياة أعطى كل نفسي للراحة والاستمتاع بالحياة . أما مسألة الزواج أو لا زواج فهذا شيء لا أحدده وحدى وانما يحدده معى الرجل .. والآن دعينى أسألك سؤالا صريحا .. ماذا تفعلين لو احببت رجلا ثم رفض الزواج منك ؟ الا يحدث ذلك أحيانا عندكم ؟
ـ يحدث كثيرا .

ـ وماذا تفعل المرأة عندكم فى هذه الحالة ؟
ـ هذا موضوع يطول شرحه .. ولكن هذه الحريا موجودة فى كل البلاد الاسكندنافية ؟
ـ بالطبع . ولكنى اعتقد أن المرأة الفنلندية أكثر تقدما من غيرها .. وربما يكون هذا تحضرا ولكن التاريخ يثبت ذلك فقد كانت المرأة الفنلندية أول امرأة فى أوروبا تحصل على حقوقها السياسية وكان ذلك فى سنة ١٩٠٦ .

كان اسمها « ناتاشا » وهى عضو فى جمعية الصداقة العربية الفنلندية . دعتنى اليها ، والتقيت هناك برجل فنلندى طويل ضخم اسمه : ارماس صالنن ، وهو رئيس الجمعية ، وصديق العرب ، يتكلم اللغة العربية الفصحى ، ويقول انها أصعب لغة فى العالم ، ومن بعدها تأتى اللغة اليونانية الفصحى ثم اللغة الهندية القديمة . وأسهل لغة فى رأيه هى اللغة التركية .

وفى الليلة الاخيرة فى هلسنكى لم انم . ظللت اطل علي الكون من نافذة غرفتى .

الضوء ينتشر فى الغرفة طول الليل كضوء النهار .

قبل الفجر اعددت حقيبتى . سأغادر بعد ساعة فنلندة مع مجموعة من النساء ، فى أول رحلة لى للاتحاد السوفياتى . كان المفروض أن اعود الى القاهرة بعد انتهاء مؤتمر هلسنكي ، لكن فالنتينا رائدة الفضاء دعتنا لزيارة بلدها . ولم اكن رأيت روسيا من قبل الا فى الروايات ، وافلام السينما . وفي ذهني للاتحاد السوفياتى صور متناقضة بعضها مشرق كضوء الشمس ، وبعضها غامض مظلم كالوجه الآخر من القمر .

سمعت كلمة « الاشتراكية » لاول مرة من أبى وانا في العاشرة من عمرى . وحين دخلت المدرسة الثانوية التقيت بفتاة سمراء نحيلة اسمها « سعاد » ناولتنى جريدة اسمها « الجماهير » . وفى كلية الطب التقيت بطالب اسمه « يسرى » ناولنى جريدة اسمها « الجميع» وكان الطلبة يطلقون على « يسرى » اســـم « الطالب الاحمر » .

وقبل أن أتخرج فى كلية الطب قرات تولستوى ودوستيوفسكى وماركس وانجلز ولينين وكروبسكايا وبوشكين وجوركى وترجنيف .

وكان دوستيوفسكى أقرب الى من تولستوى . وفردريك انجلز وكروبسكايا أقرب الي من كارل ماركس ولينين .

ومن شرفتى ظللت أطل على الليلة الاخيرة البيضاء وهى تنتهى . دهشتى لا تزال كأول ليلة فى فنلندة ، والليل الابيض ينحسر عن نهار أبيض ولا أكاد أعرف الليل من النهار الا بحركة السيارات وظهور الناس فى الشارع .

وفى خيالى صورة للاتحاد السوفياتى مضيئة وبيضاء كليالى الصيف فى فنلندة ، لكنها ايضا كالليل الصامت لا تزال غارقة فى السكون الغامض .

أول رحلة الى العالم الاحمر

ركبنا القطار من هلسنكى الى لينينجراد . كل أربع نساء فى حجرة ، وكل حجرة بها أربعة أسرة ، اثنان منهما فى الدور العلوى ، لا يمكن للمرأة السمينة أن تقفز الى السرير العلوى ، وقفزت بهيجة الافغانستانية الى السرير العلوى وقفزت الى السرير المقابل وقالت بهيجة : أنت رشيقة جدا ، هل تزوجت ؟ قلت : نعم ثلاث مرات ، وعندى طفلان ، وأنت ؟ قالت : عندى سبع أولاد من زوجين . وضحكت ، ثم صمتت طويلا وقالت بعد فترة وفى صوتها حزن : لازلنا نهدم القيم البالية فى مجتمعنا لنبنى مجتمعا جديدا يتمتع فيه الناس بالعدالة . لا يمكن أن يهدأ الناس اذا حكموا بالقوة ، قد يبدو عليهم الهدوء ولكن اذا ما نبشت السطح وجدت الثورة .

وسمعنا ضجة بممر القطار فقفزنا الى الخارج ورأينا « روزا » الارجنتينية تحتضن الجيتار وتغنى بالاسبانية: أنا سجين أكسر قيودى واخرج الى الهواء . وافترشت أرض القطار من حولها نساء أمريكا اللاتينية وراحوا يرددون معها مقاطع الاغنية .

وسرت عدوى الغناء الى النساء وبدأت كل مجموعة تغنى أغنية بلغتها الشعبية . غنت النساء العربيات والله زمان ياسلاحى . وغنت النساء السوفيتات كاتيوشا . وغنت أوكيتا وونتى انتو نشيد شعب فيتنام

وغنت تشارلى الزنجية الامريكية : وجهى أسود ولكن قلبى أبيض .

وعلا صوت النساء على صوت القطار وارتفعت فى الجو أصوات ونغمات بمختلف اللغات واللهجـات ، واختلطت الالحان العربية بالروسية بالافريقية بالامريكية بالاسبانية ، بالانجليزية ، بالفرنسية ، بالفيتنامية ، ووجدت نفسى أردد مع النساء لحنا لا أعرف كلماته ولا أعرف لغته ، وأصبحنا مجموعة واحدة من بلد واحد وتلاشت الفروق الصناعية التى تفصل الانسان عن الانسان .

وكانت فالنتينا رائدة الفضاء تجلس وسطنا ولها سرير صغير كسرير النساء وفى الدرجة الثانية بالقطار ، انظر الى وجهها وادهش للبساطة الطبيعية تكسو الملامح الهادئة .

ثم سمعنا صوتا يعلن من ميكرفون القطار أننا اجتزنا حدود فنلندة وأصبحنا فى أرض الاتحاد السوفيتى اخرجت راسى من نافذة القطار فى استطلاع ، وفى لهذا البلد صور كثيرة ، بعضها من القراءات والتسمع وبعضها اقوال سمعتها .. الاقوال المتضاربة تصيب من يسمعها بتساؤل عن الحقيقة ورغبة فى أن يذهب بنفسه ليرى بعينيه ويحكم على الواقع .

وادرت عينى فى كل مكان خارج نافذة القطار ، أنظر الى الشجر والارض والبيوت والتقط آى شخص يظهر فى شارع أو حقل أو بيت ، أدقق اليه النظر رغم حركة القطار .. وانظر الى ملابسه وحذائه ، لماذا الحذاء بالذات ؟ ولكن كم سمعت من اشاعات !

وكان كل شيء يبدو كما كان . الارض هى الارض

والاشجار هى الاشجار والناس هم الناس ولولا ذلك الصوت الذى أعلن اجتياز الحدود لظننت أننا لازلنا فى فنلنده .

وعدت لسريرى لانام قليلا ثم استيقظت فجأة على صوت القطار وهو يقف . وهنا بدأت احس أننا فى الاتحاد السوفييتى . كان رصيف المحطة مزدحما بالرجال والنساء والاطفال يحملون الزهور ويرحبون بوفود النساء ويلتفون حول فالنتينا . واخذت أدقق النظر فى الناس ، كانوا يرتدون ملابس جميلة أنيقة وفى وجوههم نضارة وفى عيونهم بريق ، وجذبتنى وجوه الاطفال النضرة . هؤلاء هم أهالى قرية «لوجيكا» أول قرية سوفيتية على الحدود . وسارت وفود النساء تتقبل التحيات والزهور الى استراحة المحطة الفسيحة حيث صفت الموائد . وجلست فالنتينا وسطنا وبدأت سدادات زجاجات الشمبانيا تتطاير مفرقعة فى الهواء وتطايرت معها الضحكات والقفشات ، وأكلت النساء من كل بلاد العالم الكافيار الروسى واللحم والفراخ وشربن معا انخاب الصداقة والحرية والسلام .

دخل بنا القطار لينينجراد فى منتصف الليل لكن قرص الشمس كان لا يزال فى السماء يضىء المدينة الكبيرة بنور ابيض كالنهار ، ولمعت فى الضوء الابيض القباب النحاسية الحمراء وانعكست المبانى الضخمة المتشابهة على صفحة نهر نيفا ينساب تحت الكبارى ليصب فى خليج فنلندة .

ومن خلف النهر تلمع قبة نحاسية من فوق مبنى ضخم غارق فى الصمت والنسيان . أحد السجون القديمة وفى احدى زنزانات هذا السجن عاش

دستوفسكى فترة من حياته ، ومكسيم جوركى أيضا دخل هذا السجن قبل الثورة الاشتراكية وعاش وراء جدرانه يكتب .

ويواجه السجن على الضفة القريبة من النهر يلمع تمثال مكسيم جوركى منتصبا بقامته الطويلة فى الفضاء وقبعته فى يده . وعلى مسافة غير بعيدة ينتصب لينين بملامحه الدقيقة وقامته المتوسطة ويده المرفوعة نحو القاعة البيضاء . أول قاعة فى روسيا تشهد ثورة الفلاحين والعمال ، وعلى كراسيها الخشبية وعلى جانبى الكراسى وعلى النوافذ جلس العمال والفلاحون الثائرون فى يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٧ ثم دخل لينين القاعة بخطواته السريعة وأعلن أول دولة اشتراكية فى تاريخ روسيا .

وأخذونا فى زيارات للمصانع . أحدها مصنع العلم الاحمر . قالوا أنه من أكبر مصانع النسيج فى الاتحاد السوفييتى . يعمل به عشرة آلاف عامل منهم ٨٥٪ نساء . ومديرة المصنع شابة أنيقة قدمت لنا مجموعة من السيدات قائلة : هذه سكرتيرة لجنة الحزب فى المصنع ، وهذه مقررة لجنة الشباب ، وهذه رئيسة اللجنة النقابية ، كلهن شابات جلسن معنا حول مائدة محلاة بالزهور وزجاجات المياه المعدنية والشمبانيا وأطباق الكافيار الاسود والاحمر والسمك واللحوم ، ولابد لنا أن نشرب الانخاب فى صحة المصنع والعاملات وفى صحة الصداقة والحرية والسلام .

وطفنا بأنحاء المصنع الضخم ، واستقبلتنا العاملات بابتسامات ووضعن على صدورنا الشارات والنجوم ، العمل عندهن ثمانى ساعات فى اليوم والاجازة الاسبوعية

يومان . الحد الادنى للاجور للعمال والعاملات ١١٠ روبل في الشهر والحد الاقصى ٢٠٠ روبل حسب الانتاج والمهارات . مديرة المصنع تأخذ ٣٠٠ روبل فى الشهر بالمصنع ست دور حضانة لجميع أطفال العاملات من سن شهرين حتى السابعة . من حق المراة العاملة أن تحصل على اجازة وضع لمدة سنة كاملة منها اربعة شهور بمرتب كامل ، شهران قبل الوضع وشهران بعد الوضع . بالمصنع مصيف خاص للاطفال ومعسكرات صيفية للأشبال والشباب فى مراحل عمرهم المختلفة من سبع سنوات الى ٢٨ سنة . بالمصنع مصحة خاصة للراحة ومستشفى . اجر الطبيب ١٨٠ روبلا فى الشهر واجر الممرضة ١٠٠ روبل فى الشهر .

ثم خرجنا الى ساحة كبيرة تتوسطها شعلة ومن خلفها نصب الجندى المجهول ومقابر ٧٠٠,٠٠٠ شهيد . اصطفت وفود النساء ومن خلفهن مئات السياح من بلاد العالم يحملون الزهور ويسيرون على أنغام موسيقى تشايكوفسكى ، تنبعث هادئة ، فيها قليل من الحزن وكثير من القوة ، وتتراكم الزهور البيضاء والحمراء عند قدمى الجندى المجهول حيث تلك الكلمات بالروسية :

« لن ننسى شجاعتكم وصبركم . لن ننسى الشتاء المظلم وقنابل سنة ١٩٤٣ .

لن ننساكم ولن نستسلم » .

وقالت لى صديقتى الروسية « نينا » : اهل لينينجراد صمدوا كالابطال ولمدة ٩٠٠ يوم فى وجه الحصار النازى . عاشت لينينجراد الحرب ضد الالمان نازيين من سنة ١٩٤١ الى سنة ١٩٤٥ ومات منها

مليون شهيد وقصفت المدينة بأكملها بالقنابل والمدافع ولكن انظرى .. كيف بعثت لينينجراد من جديد ! هذا هو اصرار الشعب على الحرية !

***

لم ار بلدا مولعا بالمتاحف كالاتحاد السوفييتى . لينينجراد وحدها بها خمسون متحفا . وكل شيء هنا له علاقة بالتاريخ أو الفنانين يمكن أن يتحول الى متحف والفنانون يحظون بتقدير يشبه التقديس . والادباء والشعراء تتحول بيوتهم الى متاحف وتقام لهم التماثيل وتسمى المدن بأسمائهم . وبالقرب من لينينجراد مدينة ــ بوشكين وتمثال بوشكين أمامنا وأصغر طفل يعرف أشعار بوشكين .

وكان لابد من قضاء يوم كامل بمتحف «الهيرميتاج» ولا يمكن أن ترى لوحات الهيرميتاج فى يوم واحد ، ولكن يمكنك أن ترى كل لوحات الهيرميتاج فى ثمانين عاما اذا مادخلت المتحف كل يوم بانتظام ولمدة سبع ساعات فى اليوم الواحد . حينئذ فقط تستطيع أن ترى كل لوحات المتحف لو وقفت أمام كل لوحة دقيقة واحدة . فكم عدد اللوحات ؟

ولم أحاول أن أبدأ بالتجربة ، فقد وقفت ساعة كاملة أتأمل تمثال « الولد المنحنى » لمايكل انجلو ، وساعة أخرى امام لوحة حب الاب ، لوحة غريبة ، فتاة ترضع اباها ، كان أبوها مسجونا وذهبت لتزوره فى زنزانته ، ولم يسمح لها أن تأخذ له طعاما ، واشفقت الابنة على أبيها من شدة الجوع ولم تجد أمامها الا لبن ثدييها فأرضعته .

واحتدم النقاش بين النساء حول اللوحة ... اليس

هذا حراما ؟ وماهو الحرام ؟! حبس الاب حتى الموت جوعا ؟! أم ارضاع الابنة لابيها ؟! ولماذا لا يتحول الاب الى ابن اذا دعت الظروف ؟!

ولم اشهد احتفالا كهذا الأحتفال ، حديقة القصر الصيفى فى ليننجراد تحولت صباح يوم ٢٢ يونيو الى كرنفال . والقصر الصيفى ، متحف الآن ، أحد قصور قيصر روسيا قبل الثورة . وقد رأيت قصورا فى مختلف بلاد العالم . ولكن ما أن دخلت قصر قيصر روسيا حتى ايقنت السبب وراء الثورة الاشتراكية فى روسيا ...

حديقة القصر بدت لى كالحلم ، أشجار وخضرة وزهور ورياحين وأعناب تجرى من تحتها الجداول والنهيرات .. تماثيل من الذهب ، قباب ذهبية تنبثق من قممها المدببة نافورات مياه لايمكن عدها ولا يمكن معرفة ارتفاع مياهها ، مسرح من الرخام وسط النافورات ترقص عليه فرقة باليه ليننجراد رقصة بحيرة البجع .. راقصات الباليه بملابسهن البيضاء يرقصن بين نافورات المياه كحوريات الجنة أو جنيات فى الاساطير والحكايات تمثال لشمشون في احد اركان الحديقة ومن حوله نافورات .. وتمثال آدم والتفاحة ومن حوله عرائس الجنة ، والاف من الرجال والنساء والاطفال جاءوا من كل انحاء الاتحاد السوفييتى ومن كل بلاد العالم لمشاهدة كرنفال الليلة البيضاء في ليننجراد ، يحملون الزهور ويرقصون على نغمات الموسيقى تنبعث من كل ارجاء الحديقة ، ووجوه تتألق بالحيوية وتنقل عدوى الحيوية الى كل من ينظر اليها ، والتفت حولى فى دهشة: احلم هذا أم علم ؟! ولا احاول أن اعرف الجواب فقد

اندفعت مع الراقصين على الانغام .
السفينة اسمها « ترجنيف » باسم الكاتب الروسى المعروف ، والنهر هو الفولجا أشهر أنهار الاتحاد السوفييتى ، يسمونه نهر الثورة والحب والالحان ، فهو النهر الذى يشق الجمهورية التتارية ، حيث نشأ لينين ، وكانت أسرة لينين تعيش فى تلك المدينة التتارية الصغيرة على نهر الفولجا والتى سميت الآن باسم أسرته « أوليانوس » .
وحينما وصلت بنا السفينة الى « أوليانوس » كان نهر الفولجا قد اتسع فلم نعد نرى الضفة الاخرى ، وقالوا ان اتساعه فى هذه المنطقة اربعون كيلومتراً . وكان المطر ينهمر بشدة وتغير الجو فجأة فأصبح باردا شديد البرودة ، ورغم ذلك رأينا أهل أوليانوس ينتظروننا على شاطىء النهر يحملون الشمابى والزهور ، والموسيقى تعزف الاناشيد .
ونزل موكب النساء من السفينة وانهالت علينا الزهور والورود والتحيات والقبلات . لم أكن أتصور أن الشعب السوفييتى ينطوى على هذه الحرارة والعواطف ، أو أن النساء لهن كل هذه المنزلة عند أهل التتار .
وكما يحدث فى كل استقبال ذهبنا الى حيث الموائد، وطارت سدادات الشمبانيا مفرقعة فى الهواء ، وأكلت النساء الكافيار والسمك واللحوم ، وشرب الجميع نخب الصداقة والحرية والسلام . ثم ارتفعت الكئوس مرة أخرى وشرب الجميع نخب رئيس الطباخين الذى صنع مع زملائه الطباخين الاطعمة التى أكلناها . «يونس أحمد » وهذا هو اسم رئيس الطباخين « أهل التتار مسلمون وأسماؤهم عربية » رفع كأسه ورد على التحية

بكلمة شكر ثم جلس الى مائدته بجوار نائبة رئيس الوزراء التتارية والوزراء وأعضاء الحزب ، وبعد الطعام وقف الجميع وأنشدوا أنشودة الوطن ، ثم بدات الموسيقى تعزف الالحان الراقصة وانخرط الجميع فى الرقص والغناء . رايت نائبة رئيس الوزراء تعزف على البيانو ، ووزيرة التضامن الاجتماعى ترقص ، ووزير التعليم يشترك فى حلقة الرقص مع النساء . ولا شيء يبدو غير طبيعى . ولا احد يبدو أنه يختلف عن الآخرين . الكل مرح وعلى الوجوه تعبير بالاطمئنان .

ثم سرنا في شوارع « أوليانوس » حتى دخلنا بيتا صغيرا من الخشب ، وجعلونا نرتدى فوق أحذيتنا احذية خفيفة مصنوعة من القماش ، وهذا نظام يتبع قبل دخول أى متحف للمحافظة على الارض من ملايين الكعوب المدببة وغير المدببة التى تفد من انحاء العالم . وبيت لينين فى أوليانوس أصبح متحفا يزوره كل يوم آلاف السياح ، وصعدت السلم الخشبى الصغير الذى يقود الى حجرة نوم لينين . حجرة صغيرة بغير باب يفصلها عن السلم ، وسرير معدنى صغير الى جواره منضدة عليها كتب محفوظة وراء الزجاج . وقرأت عناوين الكتب : راس المال لماركس ـ تاريخ الماركسية فى روسيا لباروفسكى ـ أصل العائلة لفردريك انجلز وكتب اخرى فى القانون والاقتصاد والفلسفة ، ولمبة جاز فوق المنضدة لها سلك كهربى ، تعمل بالكهرباء واذا انقطع الكهرباء تعمل بالجاز . وبعد حجرة لينين حجرة أخيه الكسندر الذى أعدم شنقا وهو فى الحادى والعشرين من عمره لاشتراكه فى مؤامرة لقتل القيصر ، وحجرة أمه والبيانو كانت تعزف عليه لاطفالها الستة ؛

وحجرة اخته « أنا » التي حبست ونفيت ، والكرة الارضية « اللعبة » التى كانت تلعب بهـا أختـاه الصغيرتان .

ونطوف بالبيت الصغير نستمع الى شرح المترجمة الروسية . كل ركن فى البيت له قصة وكل قطعة اثاث لها دور فى حياة أسرة لينين . وانظر من خلال نافذة حجرته الزجاجية فأرى فروع شجرة صغيرة تتدلى على الحائط ، أتخيله واقفا وراء النافذة نفسها يطل على الشجرة نفسها وذهنه شارد ، مشغول بالافكار التي دخلت رءوس العمال والفلاحين فى روسيا وأشعلت اول ثورة اشتراكية . ومات لينين سنة ١٩٢٤ لكنه ظل حيا فى كل مكان بالاتحاد السوفييتي . تماثيله فى كل قرية وكل مدينة ، وكلماته محفورة على الحجر ، وكتبه واقواله تكاد تكون محفوظة ، حتى جسده الميت لم يدفن ولم يتحول الى تراب ككل اجسام البشر وانما ظل جسدا محفوظا فى مقبرته فى الميدان الاحمر بموسكو .

وهذا هو شارع مكسيم جوركى ، وهذا هو متحف جوركى ، ودخلنا بيتا صغيرا من الخشب فى أحد شوارع اوليانوس ، وارتدينا الاحذية القماش ، وهبطنا بضع درجات مظلمة فأصبحنا فى البدروم ، وهو المخبز الذى عمل فيه جوركى فترة من حياته . ورأينا الفرن والمنضدة الخشبية التى يوضع عليها الخبز ، وتحت الطاولة على الارض الاسمنت كان ينام جوركى ويثنى جسمه الطويل تحتها . وفى الحائط علقت لمبة جاز كان يقرأ على ضوئها الكتب كان يحصل عليها من صاحب المخبز . وصعدنا الى صالة واسعة على جدرانها

لوحات كثيرة تصور حياة جوركي . كان حمالا وهـــذه صورته وهو يحمل الاثقال ، واشتغل عند امـرأة فى حانة ، وحرضته المرأة على السرقة فضربها وخرج . وهذه صورته وهو يبيع الخبز ، وهذا تمثال لخنازير تأكل الخبز وجوركى لا يأكله . رفضته جامعة كازان لفقره ، وانضم الى خلية واحدة مع لينين ، وتتــوالى اللوحات والتماثيل تحكى قصة كفاحه .

ثم ركبنا السفينة الكبيرة ، سبحت بنا على نهــــر الفولجا واللحن السوفييتى « بحار الفولجا » تدندن به « زوبا » عضو الاتحاد النسائى السوفييتى ، يشـــبه فى بعض مقاطعه لحن النيل نجاشي « هيلا هوب هيلا » واشتركنا كلنا فى الغناء ، وكان الجو قد بدأ يصفو وسطعت الشمس وخلعت النسـاء المعاطف وملابس الشتاء وارتدين ملابس الصيف والربيع .

وفى مدينة كازان استقبلنا بالموسيقى والزهور وموائد الطعام والشراب . وقيل لنا انه لم يحدث من قبــل ان زار الاتحاد السوفييتى كل هذه الوفود من النسـاء . كان الاستقبال حارا والاحتفاء بنا اكثر من تصوراتنا ، وكما يحدث فى كل بلد طفنا بالمتاحف والمسارح ووضعنا الزهور على النصب التذكارى للجندى المجهول ، وزرعنا شجرة فى طريق الصداقة ، ووقفنا امــــام تمـــثال « عبد الله تقى » شاعر التتار ، وتمثال « موسى جليل » بطل التتار المقيد بالحبال ، وبرج سيومبيكى المائل . وفى متحف كازان رأينا العربة الحنطور التى ركبتهـــا كاترين الثانية والقرآن باللغة العربية داخل برواز زجاج وملابس التتار الشعبية مطرزة بشكل يشبه مــــلابس نساء فلسطين . وطاقية الرجال كطواقى العــــرب .

واللغة التتارية القديمة تشبه فى حروفها اللغة العربية وأســماء التتار تشبه أسماء العرب ودينهم الاســلام ايضا .

وفى قسم من المتحف رأينا أنواع سمك الفولجا . سمك « بيروجا » ويستخرج منه الكافيار الاحمــر ، وسمك اميوترا ويستخرج منه الكافيار الاســود . وقسم لصناعات التتار والبترول . وأجهزتهم الحديثة وخاصة فى مجال الطب . جهاز الكلى الصــناعية واجهزة جراحة الرئة الحديثة .

وجامعة كازان لها تاريخ طويل . درس بها تولستوى. وفى كلية الحقوق درس لينين . ودخلت النساء الى القاعة التى كان يدرس بها لينين ، وتنافسن على الجلوس على المقعد الخشبى الذى كان يجلس عليه فى مؤخــرة الفصل . وأمام الجامعة تمثال لينين وعمره ســبعة عشر عاما .

وقضينا اليوم الاخير فى كازان مع الاطفال . والاطفال فى الاتحاد السوفييتى طبقة مميزة تحظى بالاهتمام . زرنا مركزا لرعاية صحة الطفل ، وقالت لنــا طبيبة المركز بعد أن طفنا بأنحاء المكان : وفيات الاطفال هنا ٢ فى الالف وكانت قبل الثورة ٣٤٢ فى الالف والنساء هنا يلدن بالمستشفيات وقبل الثورة كان ٤٪ فقط مــن النساء يلدن بالمستشفيات .

وزرنا دار الحضانة واستقبلنا الاطفال بالزهــور والاناشيد . وفى معسكر الاشبال اســتقبلنا بالعيش والملح وأكلنا العيش والملح كرمز للصــداقة والحب . وقبل أن نودع الاطفال وقفوا فى حديقة معســكرهم الواسعة وانشدوا انشودة الاطفال السعداء . ومسحت

بعض النساء دموعهن وهن يودعن الأطفال ويطبعن على خدودهم الحمراء قبلة الوداع .

***

حين وصلنا الى القاعة الفسيحة فى فندق «روسيا» فى موسكو التقيت بعدد من الادباء العرب والمصريين ، وكانوا فى طريقهم الى مؤتمر الكتاب فى طشقند .

وفى الصباح وصلتنى باقة ورد ورسالة تدعونى لحضور مؤتمر الكتاب فى طشقند . انفصلت عن وفود النساء ووجدتنى وحقيبتى داخل طائرة الادباء . قطعنا المسافة بالطائرة بين موسكو والماتا « عاصمة كازاخستان» فى خمس ساعات ونصف ساعة . هبطنا الى مطار الماتا ولفحت وجوهنا نسمة الصيف الحار يشبه صيف مصر ، وطالعتنا وجوه أهل كازاخستان بأنوفهم الفطساء وعيونهم المستطيلة المسحوبة الى أعلى كعيون أهل الصين ، لا يفصلهم عن الصين الا الجبل العالى تغطى قمته الثلوج البيضاء وتنمو على سفحه الاشجار والخضر والفواكه ، يزرعون الجبل هنا ، ويصنعون من الثلوج الذائبة فوق القمة أنهارا وبحيرات صناعية ، ويحولون مجرى الانهار الطبيعية فى سدود عالية ، تصنع الكهرباء ، وهؤلاء هم أهل كازاخستان الذين أرسلوا خبراءهم الى أسوان واشتركوا مع المصريين فى بناء السد العالى ..

وكان رئيس اتحاد الادباء يتقدم الوفد الذى استقبلنا فى المطار بالزهور . ومن المطار الى الاستراحة الى المائدة رصت عليها زجاجات الفودكا والكونياك والشمبانيا والنبيذ ، واطباق الكافيار والسمك والفراخ واللحوم ، وعلى المائدة تلقى كلمات الترحيب ، ونشرب نخب

الصداقة بين شعوب آسيا وافريقية ، ونخب أولادنا الذين ولدوا والذين لم يجيئوا بعد ، يحبـــون الاولاد ولا يحددون النسل بل يمنحون مكافآت للأم التى تلد أطفالا من بعد الطفل الرابع ، وشربنا مرة أخـــرى نخب أطفالنا الذين لم يولدوا بعد .

وارتفعت الضحكات والقهقهات ، وزالت الكلفة بين الكاتب الهندى والمصرى والجزائرى والسودانى والروسى والافريقى واصبحنا جميعا أهل وطن واحد . وطـن الادب والفن .

ورايت على المائدة دورقا كبيرا مليئا باللبن ، وصب لى « يورى برزوفيتش » « رئيس اتحـــاد الادباء فى موسكو » كأسا من اللبن ، ما أن أخذت منها رشـــفة حتى لسعت حلقى بالحامض وضحك يورى قائلا :

ــ لبن حصان .. مفيد للصحـــة وبه ٥ فى المائة كحول .

وسألت . اتشربون لبن الحصان ؟

وسألنى : اتشربون لبن البقر ؟

ما الفرق بين لبن الحصان ولبن البقر ؟.

ومددت يدى الى طبق به قطع مشوية من اللحم ، واكلت بشهية قطعة لحم وجدت لها طعما لذيذا وقلت لجارتى « لاريسا » المترجمة الروســـية : « لحم لذيذ » .

وقالت لاريسا : جدا ، انه لحم الحصان .

واخفيت دهشتى وارتفعت مرة أخرى الايدى بكئوس لبن الحصان يشربون نخب الفن والصداقة فرفعت كأسى معهم وشربت لبن الحصان .

***

صعدت بنا السيارة الطرق المتعرجة فوق الجبل ويسمونه هنا باسم « القمة الخضراء » الاشجار والخضروات تتخللها جداول الماء الذائب من فوق القمة ووقفت السيارات في مكان من الجبل . واقبل علينا جمع من المزارعين يتقدمهم رئيس المزرعة الجماعية . رجال يرتدون البدل . وقادونا الى داخل المزرعة حيث رأينا مائدة طويلة عليها الاطعمة كالعادة ، والى جوارها حمام سباحة . وكان أغراء الماء شديدا فى ذلك الجو الحار فنزل بعض الكتاب وسبحوا فى الماء ثم تمددوا تحت الشمس .

وتجولنا فى المزرعة مع المزارعين ومعنا مرشد يقول : لتكون مزرعتنا من ثلاث قرى يبلغ تعدادها ٦٥٠٠ شخص من قوميات مختلفة عددها ٢٩ قومية . مساحة الزرعة ٨٠٠٠ هيكتار « ٣٢٫٠٠٠ فدان » يربى بها ٢٨٠٠٠ من الماشية منها ٧٥٠٠ حصان ، عندنا آلات الزراعة الحديثة وماكينات ومصانع مرتبطة بالانتاج ، وثلاث مستشفيات ، واربع مدارس وثلاثة دور حضانة ومعامل كيماوية وأبحاث ، ربح المزرعة يوزع على المزارعين بعد دفع حصة الحكومة ، والدولة هى التى تدفع أجور الاطباء والممرضين والمدرسين والاخصائيين الزراعيين والكيماويين

اجور المزارعين تتفاوت حسب عملهم وانتاجهم ، لكل أسرة بيت وحديقة يزرعها رب الاسرة لنفسه وأولاده ، العمل فى مزرعتنا ثمانى ساعات فى اليوم ، واجر المزارع العادى ٩٠ روبلا فى الشهر الذى يربى الحيوانات يحصل على ١٢٠ روبلا فى الشهر والذى يعمل على الآلات يحصل على ٣٠٠ روبل في الشهر ، نجحت فكرة

المزرعة الجماعية عندنا بعد أن تدرب الفلاحون على العمل الزراعي الجماعي وبعد أن تغيرت القيم وتخلصوا من نزعة الملكية ، الحديقة والبيت والسيارة ملكية خاصة ولكنها ملكية لا تستغل أحدا . الانانية والطمع يزدادان بازدياد الملكية . نحن نبنى انسانا اشتراكيا له قيم جديدة اساسها العمل الجماعي والتعاون مع الآخرين والحصول على الرزق بقدر العمل والانتاج . الفرد منا يطمئن الى مستقبله ومستقبل أولاده ، لا نشعر بقلق أو خوف من مرض أو عجز أو شيخوخة . الدولة ترعى كل هذا . لا نحمل هموم تربية أولادنا والانفاق عليهم فالدولة رفعت عنا هذا العبء . كل شيء متوفر لاطفالنا بالتساوى ، والمراة عندنا كالرجل ، تعمل فى اى عمل وتقود الجرار وآلات الزراعة وتأخذ حقها فى الاجر ولها حقوقها الاجتماعية والسياسية كالرجل ، لا توجد عندنا مشكلة اسمها أطفال غير شرعيين . كل طفل يولد هو طفل شرعى . يأخذ اسم الاب أو اسم الام وله كل الحقوق . الناس عندنا يتزوجون عن حب ، وروابط الاسرة قوية والطلاق ليس سهلا وله اجراءات ونظام معين ، لينين هو مؤسس الاشتراكية فى بلدنا ولكنه لم يكن وحده . كان معه أبطال كثيرون من شعبنا . نحن لا نحب الطقوس التى تقدس اى فرد مهما كان ونكره من يقدسون لينين أو ماركس . نريد أن نحرر الناس من طقوس العبودية . عندنا حرية رأى فى اطار الماركسية اللينينية . ولا نريد أن يكون للفكر الحر أى اطار مهما كان . قضينا على الجهل والخرافات والامية ، اصبحنا ثانى دولة فى العالم بعد خمسين سنة فقط ، حققنا الاشتراكية فى مجتمعنا اما الشيوعية فلا نزال

بعيدين عنها كثيرا وبيننا وبينها سنوآت طويلة . لن نصل الى الشيوعية الا بعد أن نحقق وفرة فى امكانياتنا المادية وتغير تفكير الناس بحيث يمكن تطبيق ميدأ « من كل حسب طاقته الى كل حسب حاجته » . تغيير تفكير الناس هو أصعب شيء .

***

على باب الجامع طلبوا منا أن نخلع أحذيتنا . وضعت حذائى بجانب أحذية الرجال المتراصة أمام الباب . لم يطلب احد منى أن أغطي شعرى أو أرتدى الحجاب . خطوت داخل الجامع وانا رافعة راسى كالرجال .

منذ الطفولة وأنا أكره التفرقة بين انسان وانسان . أو بين البنت والولد . وعلمنى أبى الصلاة وانا طفلة فى السابعة ، وحين أرى أخى يصلى دون أن يغطى شعره مثلى أتساءل لماذا يفرض الحجاب على البنت ؟ ويقول أبى أن الحجاب يخفى مفاتن المرأة عن اعين الرجال . واسأل أبى : ولكنى أصلى فى الغرفة وحدى ولا يرانى الا الله ، وهل من المفروض أن أخفى مفاتن شعرى عن الله وهو يرانى فى كل لحظة حتى وانا داخل الحمام ؟

ويقول أبى : تغطية شعرك اثناء الصلاة احترام لله وليس اخفاء للمفاتن .

واسأل أبى : ولماذا لا يغطى أخي شعره أثناء الصلاة، وانت أيضا لا تغطى شعرك ، فهل احترام الله أثناء الصلاة مفروض على البنات والنساء وليس مفروضا على الرجال ؟!

ولم يكن أبى يجد الاجابة على أسئلتى وانا طفلة . ولم اكن أكف عن الاسئلة ، ولم يكن أبى يمنعني عن

التساؤل عن أى شيء . ولكنه كان حين يعجز عن الإجابة يقول لى :
هناك حكمة فى هذا لا يعلمها الا الله . . .
ولم يكن عقلى وانا طفلة يقتنع بهذا الرد من أبي .
.. ورأيت عددا من الرجال راكعين يصلون وسمعت صوت الامام يرتل القرآن باللغة العربية كأى فقيه عربى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول »
وبعد انتهاء الصلاة نظر الى الرجال بدهشة ، فالجامع لا تدخله النساء ، وذهبت الى الامام الكازاكى وقلت له : الدين الاسلامى لم يمنع النساء من دخول الجوامع.
وقال : ونحن لا نمنع ولكننا غير متعودين على ذلك .
ـ أنت تعرف اللغة العربية .
ـ لا أعرفها .
ـ ولكنى سمعتك ترتل القرآن باللغة العربية ..
ـ انني أحفظ بعض الآيات فقط .
ـ الم تدرس القرآن باللغة العربية ؟
ـ لا . لا يوجد عندنا القرآن الا باللغة التركية .
ـ أيأتى الى الجامع كثير من الناس ؟
ـ لا ، ولكن معظم أهل كازاخستان مسلمون وأسماؤهم عربية .
ـ هل يتزوج الرجال المسلمون هنا بأكثر من واحدة؟
ـ لا . الاسلام فى نظرى لا يبيح الزواج بأربع .. قال الله سبحانه وتعالى : « وان لم تعدلوا فواحدة . ولن تعدلوا » .. لقد اقر الاسلام استحالة العدل وبالتالى فقد اقر عدم الزواج بأكثر من واحدة .

***

الفنـــانون في كازاخســتان طبقـــة مميزة كالاطفال والعلماء ورجال الحزب . وفى الساعة السابعة مساء ينطلق الناس من بيوتهم الى المسارح وقاعات الموسيقى وعروض الباليه والرقص الشعبى والغناء . وفى الليلة الاخيرة فى « الماتا » جلسنا نستمع الى بلبل كازاخستان « ببى بول » وهى شابة جذابة لها عينان ســوداوان وشعر أسود وملامحها تشبه المصريات . وغنت ببى بول على نغمات « الدرمبرا » وهى آلة موسيقية شعبية تشبه العود فى شكلها وانغامها وطريقة العزف عليها .

وبعد الغناء قدمنا الزهور كعادة الســوفييت الى المغنية . وجلست معنا ببى بول الى المائدة وشربنا نخب صوتها الجميل . وكانت تتقبل الإعجاب والتهانى ببريق خاطف فى عينيها يشبه الدموع وسألتها : هل رايت القاهرة ؟

وقالت بلغتها الكازاكية بضع كلمات لم أفهمها .

وترجم « عبد الكريم » « أحد كتاب كازاخستان » كلماتها من الكازاكية الى الروسية ، وترجمت «ناتاشا» الكلمات الروسية الى الانجليزية واخيرا استطعت أن أفهم ما الذى قالته . قالت أنها رأت القاهرة وقابلت أم كلثوم وانها أحبت صوتها حبا شديدا .

سافرنا بالطائرة ذات الاربعـة محركات من الماتا الى طشقند « عاصمة ازبكستان » .. وكان الجو صـحوا ودافئا والشمس كشمس مصر والملامح ايضا تشبه ملامح مصر ، ولهم عادات المسلمين وبعض طباعهـم . والفلاحون فى المزارع الجماعية يرتدون طاقيـة تشبه طاقية العرب ، ولولا اختلاف اللغة لظننت اننى فى مصر وطفنا بمتاحف المدينة وتماثيلها ودخلنا قاعات الموسيقى

والمكتبات والمسارح ومعاهد الابحاث والمصانع ودور الحضانة والمستشفيات ومعسكرات الاشبال والشباب.
وقال لنا المرشد أنهم زرعوا الجبل بالغابات ،واستخرجوا المعادن من باطن الارض ، وبعد سنتين فقط ستنتج أزبكستان وحلوها ٧٠٪ من ذهب الاتحاد السوفييتي ، وأحدثوا طرقا جديدة فى الزراعة ، انزلوا المطر الصناعى فى بعض المزارع الجماعية ، وانتجوا أنواعا جديدة من الفواكه ، عندهم الآن ١٢٠٠ نوع من العنب فقط ، وعندهم ٢٦ معهدا لابحاث الفواكه فقط ، وينتجون كل انواع المشروبات والنبيذ .

ثم اخذونا الى مائدة طعام نصبت بجوار البحر . يشبه بحر الاسكندرية لا ارى الشاطىء الآخر ، وان أطلت التحديق . لكنه بحر بلا أمواج كبحيرة قارون فى الفيوم وقالوا لنا انه إحدى البحيرات الصناعية فى أزبكستان.

وارتدى بعض الادباء بدل السباحة وقفزوا الى الماء . واتكأ الاديب السوفييتى « سوفرونوف » على كتف زوجته وراحا يغنيان معا أغانى موسكو ، ورقصت « ناتاشا » رقصة طشقند الشعبية .

وامسك الاديب الهندى « ملك راج أناند » بيد « لاريسا » وراح يقرأ لها الكف ، واستطعت أن التقط جزءا من الحوار الذى دار بينهما .

لاريسا : ماذا ترى فى كفى يادكتر ملك ؟

دكتر ملك : الك زوج تحبينه وطفلان .

لاريسا : قلت لك ذلك من قبل عدة مرات .

دكتر ملك : على العموم خطوط كفك تؤكد لى أنك قلت الصدق .

لاريسا : وماذا عن مستقبلى فى الادب ؟

ودقق دكترملك في كفها لحظة .

دكترملك : خط القلب يدل على أن قلبك نقي .

وسكت لحظة يفكر بعمق .

دكترملك : قلبك نقي يالاريسا ، أنقى من أن يدرك شرور الحياة ، ولذلك لن تصبحى كاتبة أبدا فى يوم من الايام .

وكان الكاتب السوداني « محمد سليمان » يتحدث بحماس الى المترجم الروسى عن ثورة السودان .

والاديب الجزائرى « مواود مامرى » قد نسى « المايوه » فى الفندق وراح يحملق فى الماء طويلا ، ثم القى بنفسه في البحر بملابسه ، أما « يورى بتروفيش » فقد أمسك بأسياخ الكباب الساخن وراح يأكل بشهية وحماس ثم وقف على رأس المائدة وطلب ان يشرب الجميع نخب الصداقة السوفيتية العربية ، وتسابق الجميع الى رفع الكئوس وأنشد شاعر طشقند باللغة الازباكية أبياتا من الشعر .

وفى طريق العودة كان هناك لحن خافت ينبعث من مكان ما رعلى جانبى الطريق أشجار وجداول مياه وبحيرات يستحم فيها أطفال ، ومبان تنشأ ، وطرق ، وقبل أن تنحرف بنا السيارة الى داخل المدينة رأيت امرأة تقود وابور زلط وترصف الطريق ولوحت لها من وراء الزجاج فاقتربت من السيارة وهي تقود وابور الزلط . رأيت وجها مرهقا ملوحا بالشمس وغارقا فى العرق . وسمعتها تقول شيئا بصوت غاضب . وترجمت لاريسا كلماتها . كانت المراة تقول أيها السياح لا تنظروا الى كالثور فى حديقة الحيوان ولا تصدقوا

ان المرأة تساوت هنا مع الرجل ، فأنا أعمل فى الشارع وفى البيت .

***

ركبت الطائرة الى موسكو . لم أر موسكو بعـد . وربما يكون ذلك أمرا معكوسا . فالناس تدخل البيوت من ابوابها وتدخل البلاد من عواصمها ، ولكن قد يدخل الانسان الى البيت من النافذة .

وأزحت الستارة الشفافة عن النافذة الزجاجيـة العالية ، فى أعلى طابق فى فندق « روسيا » الضخم ، فاذا بالميدان الاحمر يمتد فسيحا تحت عينى ، وقباب الكرملين الذهبية تعلوها النجمة الحمراء اللامعـة ، والكنيسة المهجورة القديمة تحوطها السقالات حيـث تجرى الترميمات استعدادا للاحتفال بمرور مائة عام على مولد لينين ، وفى مواجهة الكنيسة ترقـد مقبرة لينين المربعة الحمراء ، ومن خلفها مقابر الشهداء ملاصقة لجوار الكرملين ، ومن وراء سور الكرملين العالى يجرى نهر موسكو صامتا الا من لحن خافت لا أكاد أسمعه ، وكنت مرهقة ، ولكنى شعرت برغبة فى أن أتجـول فى شوارع موسكو بالليل . ولبت رغبتى فى السير صديقة روسية اسمها « فيرا » تعرفت عليها .

اخترقنا الميدان الاحمر وسرنا بحذاء النهر ، كـان الليل دافئا ، وأسراب الشباب تنساب مع لحن الليل الهادىء ، ثنائية او علي شكل مجموعات صغيرة ، تدندن أو تغنى أو تلتف بعضها حول البعض وترقص على اللحن الروسى القديم : « تلك كانت الايام يا أصدقائى التى ظننا أنها لن تنتهى ، كنـا نرقص ونغنى الى الابد ، ونحارب وننتصر ، لاننا كنا فى شباب العمر ، تلك كانت

هى الايام يا أصدقائى » .

وعلى المقاعد الخشبية بحذاء النهر كان هناك فتيان وفتيات يتبادلون العناق والقبل ، الشباب هم الشباب فى كل أنحاء العالم لا شيء يحول بينهم وبين تبادل العناق والقبل .

ثم عدنا الى الفندق وجلسنا فى البهو الكبير المزدحم بالناس . فندق « روسيا » هو ملتقى الوفود والمؤتمرات العالمية . وجوه كثيرة متعددة الجنسيات . وأصوات بمختلف اللهجات واللغات ، وملابس وأزياء من كل نوع . أمواج من البشر . رجال يحملون الحقائب الجلدية وأوراق المؤتمر الاقتصادى . شباب يعلقون شارات المؤتمر الرياضى . ممثلات ونجوم سينما تحوطهم العدسات والاضواء . وفود النساء وطرقعات الكعوب الرفيعة . مندوبو الصحافة يهرولون وراء الشخصيات المعروفة .

وهذه مجموعة من المشايخ يرتدون القفاطين والعمم، يسيرون بخطوات بطيئة ، حاملين فى أيديهم السبح والكتب السماوية . واستطعت أن أشق طريقى الى شيخ معمم سمعته يتكلم اللغة العربية . اسمه الشيخ ضياء الدين ويسمونه فى الاتحاد السوفيتى باسم باباخانوف ، وهو مفتى المسلمين بآسيا الوسطى وكازكستان . درس الاسلام فى طشقند على يد والده ، ودرس بالازهر بالقاهرة منذ سنين .

وسألته الى اين تذهب ؟ قال : الى مؤتمر الاديان الذى يعقد الآن ، ويحضره رجال الاديان من الاتحاد السوفيتى ومن جميع أنحاء العالم ، مسلمون ومسيحيون وبوذيون وغيرهم . سيعقد المؤتمر فى

مدينة زاغورنسك ويشرف عليه صاحب القداسة بطرق موسكو وعموم روسيا ، وانا أيضا بصفتي مفتي المسلمين بآسيا الوسطى وكازكستان . قانون الحكومة عندنا ينص على حرية الاديان وممارسة الشعائر الدينية سأقدم بحثا فى المؤتمر عن مشكلة النزاع فى الشرق الاوسط .

وجاء اليوم الأخير فى الرحلة ، واقترحت « فيرا » ان ازور مقبرة لينين . كنت ارى الطابور الطويل كل يوم فى الميدان الاحمر ، وحرس المقبرة بزيهم الرسمى يسيرون بخطى بطيئة ، وعند كل دقة ساعة يؤدون التحية .

منذ الطفولة وانا اكره الطقوس العسكرية والدينية، وحركات الجسم تبدو لى ميكانيكية : واكثر ماكنت اكره منظر الجنود وهم واقفون بغير حراك كأعمدة النور .

لكنى هبطت ذلك الصباح من غرفتى الى البهو الكبير ثم سرت نحو الميدان الاحمر . كان الطابور أمام المقبرة طويلا . وفكرت فى العودة الى الفندق ، لكن الاستطلاع جعلنى انتظر . لابد أن هناك شيئا يستحق الرؤية طالما ان هذه الامواج من البشر تأتى كل يوم وتنتظر بالساعات لحظة الدخول .

كان الطابور يتقدم ببطء شديد ، وشمس يوليو فوق الرءوس ، والعرق فى الملابس . ولا أحد يتخلى عن مكانه فى الصف . كطابور يوم القيامة والسير على الصراط المستقيم ، لكن نار جهنم ليست تحت اقدامنا ، وانما هي فوق رءوسنا ، ومن فوقها قباب الكرملين تعلوها النجمة الحمراء .

اخيرا وجدت نفسى على عتبة المقبرة ، ولفحت وجهى

نسمة باردة مكيفة . سرت بخطوات بطيئة وراء السائرين ورأيت لينين راقدا داخل غرفة زجاجية ، يسقط على وجهه ضوء أحمر خافت يخفى شحوب البشرة ويكسبها لونا ورديا صناعيا . العيون شاخصة نحوه فى خشوع كالصلاة الصامتة .

قشعريرة كالموت تزحف على جسمى ، كأول مرة دخلت مشرحة كلية الطب ورأيت جسدا ميتا . كأول مرة رأيت المومياء المحنطة فى التابوت القديم .

وقلت : التحنيط علم عرفه قدماء المصريين منذ خمسة آلاف عام .

وقالت « فيرا » : كان « لينين » عظيما .

وقلت : نعم ، ولكنى أكره الوثنية وعبادة الاجساد المحنطة .

إيران قبل الثورة

كانت رحلتى الاولى لايران « فى نوفمبر ١٩٦٨ » رحلة علمية طبية ، محصورة داخل جامعة طهران . أجلس وسط أعضاء المؤتمر الاطباء ، أسماؤهم والقابهم معلقة فوق صدورهم ، أستمع الى أوراق طويلة مكررة من الصحة والمرض ، ثم أخرج من الجامعة لتحملنى عربة خاصة تسير بي فى طريق واحد مستقيم يصلنى الى حجرتى الصغيرة بالفندق . وهذه الحياة العلمية البحتة لا أطيقها خاصة وانا خارج الوطن ، فالعلم ليس هدفى الوحيد حين أسافر ، فالعلم يمكن أن يحصل فى الجامعات المصرية أو فى المكتبات أو فى البيت وليس من الضرورى أن يسافر الانسان الى بلد أخرى ليقبع بين جدران جامعتها ويتلقى العلم .. أما المعرفة وهى شيء آخر غير العلم فتقتضى أول ماتقتضى الفرار من بين جدران الجامعات والمكتبات الى الحياة والناس والشوارع ومن هنا تكون للسفر أهمية كبيرة .

ورغم انحصار مهمتي داخل جامعة طهران ورغم ادراكى الشديد لانعدام الرغبة فى كثرة الحركة والتنقل هنا وهناك ، ورغم تلك المحاولات التى تحدث فى كل بلد تقريبا ، والتى تشد الاجانب والسياح شدا الى الواجهة المطلية من البلد سواء كانت احجارا أو أشخاصا تحجروا فى الوضع الذى صنع لهم ، يرددون صدى الاصوات كالقباب الاثرية الخاوية .

رغم كل ذلك استطعت أن أجد طريقا للهروب ، وكان ذلك هو طريق الادب . والادب فى حياتى ليس كالادب فى حياة الادباء الشرعيين الذين يمارسون الكتابة والذين يتقاضون رواتب ويأكلون ويشربون ويسافرون الى الخارج من أجل أن يكتبوا أدبا ، لكن الادب فى حياتى شيء غير رسمى ، شيء غير معترف به وسط الاطباء كالطفل اللقيط ، أمارسه فى الليل بعد أن انتهى من مهامى الرسمية كما يمارس الحب الآثم ، أنفس به عن نفسى من وطأة حياتى الشرعية التى تموج فى جو مشبع بالامراض والجراثيم .

هكذا وجدتنى فجأة أجمع أقلامى وكتبى وكراريسى وأغادر قاعة المحاضرات فى هدوء شديد . وخرجت الى فناء الجامعة . كانت شمس نوفمبر دافئة رقيقة ، والشباب الايرانى الجامعى ينتشر فى الفناء . وجوه لا تختلف كثيراً عن وجوهنا ، الملامح الشرقية بارزة فى الوجه ومدببة ، فيها خشونة ورجولة شرقية تتناقض مع الشعر الطويل المسدل فوق الرقبة وأمام الاذنين . والفتيات ببشرتهن القمحية الفاتحة وعيونهن الواسعة كعيون المها تتعثر فيها نظرات وجلة خجلة لم تتحرر بعد من عقدة الانثى الأمة ، رغم المساحيق الامريكية التى تظلل الجفون والرموش ورغم « المينى جيب » التى تكشف عن أفخاذ شرقية ممتلئة حياء وخفرا .

وفى وسط الفناء حديقة جميلة منسقة تتوسطها نافورة تملأ حوضا واسعا يشبه حمام السباحة يعكس الشمس الذهبية ، ويجلس من حوله الشباب والشابات يتهامسن ويتناجين ، والعيون تبرق متاججة بعنفوان الحب والرغبة ، لكن التقاليد لا تزال تمنع العناق

والقبل امام الآخرين . وفى مواجهة هذه الحديقة الحالمة جامع رصين ضخم البناء حليت جوانبه البيضاء بآيات من القرآن ومن مأذنته ينبعث صوت عربى يؤذن لصلاة الظهر محييا على الفلاح ومصليا على محمد عليه السلام وعلى بن ابى طالب امير المؤمنين .

لم اكن اعرف تماما الى اين أنا ذاهبة ، لكنى رأيت بناء كبيرا مواجها لهذا الجامع كتب على بابه بالفارسية « دانشكدة ادبيات » ومعناها كلية الآداب ، وقلت لنفسي لعل هذا هو الباب الى الادب الفارسى ، ودخلت ، وسألت عن افضل أديب فى ايران فقالوا لى أنه عميد الكلية . فاشتريت كراسة جديدة وذهبت للقائه فى مكتبه الفاخر ، وجلست معه نصف ساعة لم أدون فى الكراسة كلمة واحدة عن الادب ثم خرجت مسرعة من الباب الخلفي للجامعة وبهذا تفاديت باب العربة الذى يتصيدنى بعد انتهاء المحاضرات لاحمل كالوديعة الثمينة الى الفندق .

كان المطر قد بدأ ينهمر فدخلت الى مطعم صغير تفوح منه رائحة « الشيلوكباب » وكانت الموائد مكتظة برجال ونساء أمامهم اطباق كبيرة كالصوانى عليها أسياخ الكفتة المصنوعة من اصناف متعددة من البقول والخضر ولحم الخروف . فالخبز الايرانى الكبير كالفطير المشلتت والبصل واللفت الاحمر . وجلست الى جوار مجموعة من الشباب يختلف عن الشباب الذى رايته داخل الجامعة ، فالملامح اكثر خشونة ، والشعر مقصوص ، وفى عيونهم نظرة متحفزة ، فيها سخط وفيها غضب ، وأنا احب هذه النظرات فى الانسان ،

فكأنما خلق الانسان فى نظرى ليثور ويغضب ، ولعلها نظرة خلفها لى عمر عشته فى ظروف تقتضى دائما السخط والغضب والثورة .

وتآلفت بسرعة مع هذه العيون وكان بينهم فتاة اسمها « مانى » شعرها أسود قصير وعيناها سوداوان لامعتان ، ووجدتنى أشاركهم الحديث وكانوا لحسن الحظ يلمون بشيء من الانجليزية وكنت انا قد تعرفت على بعض الكلمات الفارسية . ودار بيننا جوار وعرفت منهم الطريق الى ايران الحقيقية ، والشعب الايرانى الحقيقى ، وعرفت أيضا كيفية الوصول الى أديب ايران الاول الذى يتلقف الناس كتبه ويحفظون كلماته وينتظرون مؤلفاته الجديدة .

وكان آلطريق اليه طويلا وعرا ، فهو لايعيش فى قلب طهران العاصمة ككل المشهورين ، وانما يعيش فى منطقة بعيدة شمال طهران اسمها شميران ، والطريق اليه صاعد نحو الجبل ، وعلى جانبيه أشجار عالية وقنوات تجرى فيها مياه المطر ، والمياه الذائبة الهابطة من فوق الجبل والثلج الابيض يغطى القمة العالية تشق السماء وتنعكس عليها أشعة الشمس الذهبية .

وصعدت بى السيارة الى شارع ضيق ثم دخلت فى زقاق ووقفت أمام بيت صغير قديم ظهر منه شاب أشيب ملامحه مالوفة كأنما رأيته من قبل تماما كما يحدث لى فى كل مرة حين التقى بانسان من هذا النوع يرتدى ملابس بسيطة ، وبيته من الخارج والداخل بسيطا وعربته الصغيرة تسد مدخل البيت الضيق ، عربة قديمة يشك الناظر اليها فى قدرتها على الحركة .. وربما هى أول عربة قديمة أراها فى طهران حيث العربات

الامريكية الجديدة تزحم الشوارع والميادين .

هذا النوع من الناس تألفه من أول لقاء ، وتلك الهالة غير المرئية تحيط بأجسام بعض الناس ، وهبوا طاقة لها اشعاع غير عادي ربما في العقل أو في النفس أو في شيء ما عميق داخلهم تحسنه نحن الغرباء عنهم بشيء ما داخلنا عميق ومجهول أيضا .

اسمه جلال آل احمد ، يعرفه الناس في ايران ، ويقرءون كتبه ، لكن حكومة الشاه تصادر الكتب ، وتمنع نشر مخطوطاته الجديدة ، فيهرب بها تلاميذه وقراؤه الي خارج ايران ، ويطبعونها في بلاد أخرى ، ثم يوزعونها سرا في ايران .

فيه نحافة تكسب وجهه مسحة من الارهاق فكأنه لا ينام ولا يأكل . ملامحه ايرانية صميمة . البشرة الملوحة بالشمس ، والإنف المستقيم الحاد ، والعينان الواسعتان السوداوان فيهما نظرة صريحة كاشفة ، تعري الاشياء بقسوة تصبح مع الصدق نوعا من الحنان له رواية طويلة بعنوان « لعنة الارض » وصف فيها مأساة الفلاحين في ايران وكتاب بعنوان « غرب زدكى » ومعناه « سحقا للغرب » هاجم فيه المبادىء الغربية الاستعمارية . وقد منع هذا الكتاب في ايران لكن تلامذة جلال آل احمد طبعوه في كاليفورنيا ووزعوا منه في ايران خمسين الف نسخة سرا . وقال جلال آل احمد : وانني اسهل على تلامذتي هذا العمل فأكتب على غلاف الكتاب انه حر للطبع في أى مكان وزمان دون قيد أو شرط ودون اى حقوق للمؤلف ، فيطبع منه مايطبع ويوزع منه مايوزع .

وله مؤلفات عن قضية فلسطين ، آخرها كتيب صغير

كتبه بعد حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ ، لكن السلطات فى ايران صادرته ، وحرقت دار النشر التى نشرته ، فهرب به بعض تلاميذه الى الخارج حيث طبعوه ، وترجم الى اللغة العربية ووزع فى بيروت .

كنا نجلس فى حديقة بيته الصغيرة ، وجاءت زوجته الدكتورة « سيمين دانشوار » ، وهى استاذة فى جامعة طهران . لها ايضا مؤلفاتها ، ومجموعة من القصص بعنوان « النار المطفأة » . احتفظت باسم ابيها دانشوار ولم تحمل اسم زوجها جلال آل احمد . ملامحها تشبه ملامح المصريات ، وجو من الالفة يسود واشعر كاننى فى بيتى فى مصر ، وسيمين تضع صينية الطعام والشاى الساخن امامنا . .

وأمسك جلال آل احمد ورقة وقلما ورسم خريطة ايران والخليج العربى ووضع نقطة اعلى الخليج كتب عليها « ابدان » ونقطة اخرى فى اسفل الخليج عند عنقه الضيق وكتب عليها « يحرس مسندم » ، وكتب الى جوارها ١٠٠٠ طن بترول .. ثم امسك احد مؤلفاته واخذ يقلب فى صفحاته باصابع طويلة رفيعة . واستقرت اصابعه فوق بعض السطور ، وضع تحتها خطا عريضا بالقلم .

« الآن ٩٠ درصد نفت اسرائيل را ايران ميدهدوانوقت، حكومت ايران اذ ترس اعراب اعلامية ميدهد كه « مادر مقابل كمپانى هيجكارة ايم . ايشان خودشان نقت رابهركه بخواهند مى فروشندا » .

وقال بصوت حزين :

هذه الكلمات معناها أن ٩٠٪ من بترول اسرائيل باتى من عبدان من عندنا !! يا للخجل وياللعار !

وتأملته طويلا في صمت ثم قلت : وكيف تعيش في ايران بكل هذه الافكار الخطيرة ؟ .

وقال في هدوء : أعيش ، لانى لست وحدى ، معي مجموعة كبيرة من الشباب والكتاب نلتقى كل أسبوع مرة في احد المقاهى الصغيرة . ولقد فصلت من وظيفتى ثلاث مرات ، ولكننى لست موظفا ، انا كاتب وفنان ..

وسألته : وماذا تكتب الآن ؟

قال : انتهيت من دراسة جديدة عن اسرائيل في حوالى ٤٠٠ صفحة استغرقت منى سنوات .

ـ وهل ستنشرها هنا ؟

ـ اذا استطعت .

ـ واذا لم تستطع ؟

ـ سينشرها تلامذتى بالخارج كما حدث للمؤلفات الاخرى .

ولمحت بين مؤلفاته كتيبا صغيرا أبيض بالفرنسية طبع بدار المعارف بالقاهرة . بعنوان جلال آل أحمد كاتب ايران المعاصر بقلم ج . مونوت . ويحتوى الكتيب على ترجمة فرنسية لاحدى قصص جلال آل احمد اسمها « زيارة للأماكن المقدسة » . ومقدمة استعرض فيها ج . مونوت حياة جلال آل احمد منذ ولد في طهران سنة ١٩٢٣ ، واتجه في أول حياته الى حزب تودا أو حزب الجماهير الايرانى ثم انفصل مع مجموعة عن هذا الحزب سنة ١٩٤٧ . وأكمل دراسته الجامعية وحصل على ليسانس الآداب وأصبح استاذا للغة الفارسية . وكان له نشاط صحفى وأدبى ، حرر في جريدة « الشعب » ومجلة « الطلبة » ومجلة « العلم والحياة » ومجلة « الشاهد » الناطقتين باسم الحزب

الاشتراكي تحت زعامة مصدق . وأسس مجلة اسمها « العالم الشهرى » صودرت بعد العدد الثانى . ثم ثم أصبح رئيسا لتحرير مجلة العالم الجديد لكنه أقيل من منصبه سنة ١٩٦٦ . وقد أصدر جلال آل أحمد مجموعات من القصص القصيرة منها « الزيارات » و « آلامنا » و « السنا فى حاجة الى هذه المرأة » وعدة روايات طويلة منها « عش النحل » و « مدير المدرسة » و « نون والقلم » وكتب دراسات ومقالات نقدية وترجم لدوستوفسكى وكامو وسارتر وأندريه جيد ويونسكو . وله كتاب يعنوان « خدمات وخيانات المثقفين » .

وقلت لجلال آل أحمد : هذه دار مصرية نشرت لك احدى قصصك .

وابتسم ، ثم قال : ولكنها صدرت باللغة الفرنسية وليست اللغة العربية . لقد قرأت قصصا لبعض الكتاب العرب باللغة الفرنسية أيضا ، ولكنى لا أريد هذا . أريد أن يلتقى الادب العربى والادب الفارسى وجها لوجه وباللغة العربية وباللغة الفارسية دون أى وسيط فرنسى أو انجليزى .

وكانت الشمس قد غابت والدنيا اظلمت دون ان أدرى فنهضت وملأت حقيبتى بمؤلفات جلال آل أحمد الفارسية .

وودعنى هو وزوجته سيمين دانشوار حتى الباب الخارجى للحديقة الصغيرة ، وظل ممسكا بيدى وهو يصافحنى قائلا :

تأكدى أن هذا النظام فى ايران سوف يسقط

قريبا . ان ٨٠٪ من الشعب الايراني يعيش تحت خط الفقر ، ولن يستمر الحال هكذا طويلا . شعب مصر وشعب ايران صديقان ونحن نحب العرب وعداؤنا لاسرائيل مثل عداؤكم .

كان واقفا امامي ممسكا بالباب ، والشمس قد غربت ، وشبح أسود لحته يتحرك في الظلمة . والتفت ورائي وقشعريرة باردة تسرى فوق جسمي . وقال جلال آل احمد بصوت مرهق : مخابرات الشاه في كل مكان .

وشددت على يده وانا اصافحه وهاجس غامض ملأني بالقلق ووجدتني أقول له : احترس ، فالخطر يحوطك .

وقال بهدوء : اختفى بعض اصدقائي ، وقد يحين دوري في أي وقت .

ولم أكن أعرف وانا اودعه انه الوداع الاخير ، وانني سأزور طهران مرة ثانية بعد عامين فلا أجده .

وفي الطريق المظلم وانا عائدة وحدي شعرت بالخوف . قطرات المطر فوق الاسفلت كوقع الاقدام من خلفي . وحفيف الاشجار على جانبي الشارع الهابط من الجبل كانفاس شبح مختفي . والظلمة داكنة . والجبل عال اسود . والطريق ضيق ينحدر الى اسفل . ووصلت الى غرفتي بالفندق وانا مبللة بالعرق .

***

بعد عامين ، وفي يونيو عام ١٩٧٠ سافرت الى طهران لحضور مؤتمر طبي عن تحديد النسل . وسافر معي طبيب آخر يعمل في جهاز تنظيم الاسرة اسمه « الدكتور سرور » . استخرجنا تذاكر السفر ثم ذهبنا الى السفارة

الأيرانية فى القاهرة وكتبنا طلبا للحصول على تأشيرة الدخول الى طهران .

وحصل « الدكتور سرور » على تأشيرة الدخول ، أما أنا فلم أحصل عليها ، وقال لي أحد موظفي السفارة : رفضت السلطات فى طهران اعطاءك التأشيرة . وتساءلت فى دهشة : لماذا ؟

وقال الموظف : لا أعرف ، فالرفض يأتى بدون ابداء الاسباب .

وخرجت من السفارة الايرانية حزينة . كنت أريد السفر الى ايران مرة أخرى ، والسير فى الطريق الصاعد نحو الجبل حتى شميران ، ثم الزقاق الضيق والبيت القديم ذو الحديقة الصغيرة ، والحديث الطويل حتى الليل مع جلال آل احمد وسيمين دانشوار .

وعلى الباب الخارجي للسفارة سمعت صوتا من خلفى ، ورأيت شابا ايرانيا طويلا نحيلا أشيب الشعر يشبه جلال آل احمد . قال : قرأت مقالك منذ عامين بمجلة المصور لكن مخابرات الشاه كتبت تقريرا ضد المقال .

وتساءلت : أى مقال ؟

قال : مقالك عن جلال آل احمد الذى نشر بمجلة المصور عدد رقم ٢٣٠٩ فى ١٠ يناير ١٩٦٩ . ودهشت لقدرته على الاحتفاظ فى ذاكرته برقم العدد وتاريخ صدوره رغم مرور عامين ، وأنا نفسى نسيت المقال ، ولم اكن احتفظ بالمقالات التى أكتبها . وسألت : ومن انت ؟

وهل تعمل بالمخابرات الايرانية ؟

وابتسم : لا ، ولكنى اعمل بالسفارة فى القسم الصحفى ، واعجبنى مقالك ، فأنا احب جلال آل احمد

وهو كاتبي المفضل ، وتألمت كثيرا لموته .
وانتفضت : مات ؟!
قال بصوت خافت : نعم ، في ظروف غامضة .
وسرت فوق جسدي القشعريرة القديمة ذاتها ، وتراءى لي جلال آل أحمد وهو واقف ممسكا بالباب ، وشبح أسود في الظلمة من ورائي كأنما يتبعني .
وفي الصباح رأيت « الدكتور سرور » وحكيت له عما حدث ، فضحك بسخرية الاطباء وقال : انت طبيبة فلماذا تكتبين وتجرين على نفسك المشاكل ، وهاهو مقال واحد يحرمك من السفر الي طهران وحضور هذا المؤتمر العالمي الهام .
عيناه من خلف النضارة البيضاء كعيون الاطباء ، شبه زجاجية ، بريقها من فوق السطح بغير عمق خال من العواطف ، لا يعرف عن الحياة الا المرض والجراثيم ، والناس في نظره اما مرضى أو سيمرضون حتما قبل أن يموتون ، وفي كلا الحالين المرض أو الموت هو يقبض الثمن مقدما او مؤخرا .
عيناه تلمع كالزجاج ، و « النني » يتذبذب في حركة دائرية كالحاسب الالكتروني ، لا يكف عن النظر الي عقارب ساعته ، وفي يده حقيبته الجلدية ، داخلها السماعة المعدنية وجهاز ضغط الدم والحقن والابر ، والجراب الداخلي السري تفوح منه رائحة البنكنوت واليود والدم .
منذ دخلت كلية الطب وانا أكره الاطباء . مشيتهم المتغطرسة بين الممرات . طرقعات كعوبهم الحديدية فوق البلاط . انوفهم المرفوعة بعيدا عن رائحة الجرح . عيونهم الشاخصة فوق جيب المريض . اصواتهم المعدنية

فوق المنصات عن الانسانية والرحمة .

وظل صـــوت « الدكتور سرور » فى أذنى . نبرة السخرية تؤكد فشلى . أهرب من أوساط الاطباء ، ولا أجد فى أوساط الادباء راحة أو عزاء . فالادباء فى بلادنا يشتغلون بالصحافة ، يتقاضون مرتبات من الدولة كموظفى الحكومة ، يطيعون الاوامر العليا ، عيونهم ناحية الحكام وظهورهم ناحية الناس والانسانية .

وفى أعماقى منذ الطفولة رغبة فى تحدى الاوامر . ووجدتنى أعد حقيبتى . المؤتمر طبى عالمى ، وصـــدر القرار المصرى بسفرى ، وتلقيت اوراق المؤتمر من جنيف وفى نهاية احدى الاوراق عبارة تقول بالانجليزية : اذا لم يحصل أحد أعضاء المؤتمر على تأشيرة الدخـول الى طهران بسبب ضيق الوقت فيمكنه الحصول عليها عند وصوله الى مطار طهران .

وضعت هذه الورقة فى حقيبتى ومعها جواز السفر والتذكرة . وفى مطار القاهرة لمحت الدكتور « سرور » من ظهره ، أمام النافذة الزجاجية للسوق الحـــرة ، يشترى زجاجات الويسكى وسجائر « كنت »

وسرت نحو الطائرة بقلب ثقيل . قد أصل الى طهران ثم أعود فى الطائرة نفسها الى القاهرة . ربما ابرقت سفارة ايران الى مطار طهران لمنعى من الدخـول . وربما يسمحون لى بالدخول ثم ينتقمون منى داخل طهران . عقلى يموج بهواجس متضاربة ، وقدماى تتقدمان نحـو الطائرة بغير تردد . ارادتى من حديد ، لكن الرحلة تبدو لى عبثية . لماذا اعرض نفسى للخطر بغير داع ؟ ســؤال راقد فى قاع عقلى منذ الطفولة ، وللخطر فى أعمـــاقى جاذبية ، ولطهران أيضا منذ الرحلة الاولى جاذبية ،

وجلال آل احمد لا يزال وجهه امامى ، لا أصدق انه مات .

كان شابا فكيف يموت الشباب ؟ في ظروف غامضة ؟

كلمة « غامضة » تثير خيالى ، منذ سمعتها من موظف السفارة وفي راسي قرار : لابد أن أعرف . والرغبة فى المعرفة كالثمرة الآثمة اكلتها حواء وجعلت آدم يأكل منها .

وفى صدرى احساس بالخوف كالهواء الثقيل ، كالحزن القديم ، والالم تحت المعدة . جالسة فى مقعدى بالطائرة كمن تنتظر المصير وعقاب السماء والآلهة .

ارتفعت الطائرة فى الجو واصبح كل شيء أبيض ، خفيفا بغير وزن كالهواء . لا أرض ولا سماء ولا الوان الا ذلك البياض المتكثف كرغوة صابون بغير ماء .

للحظة خاطفة غمرتنى سعادة . احساس طاغ بالخلاص من الخوف ، ثقل الارض تحت جسدى ، وثقل جسدى فوق الارض ، وثقل الهواء فى صدرى ، وثقل الاصوات فى أذنى ، وثقل العيون فى عينى .

من شدة الفرح قفزت ، لكن جسدى لا يزال مربوطا فى ومعه الخوف . لا هرب منه ولا فرار . سأظل الى الابد مشدودة اليه مربوطة فيه كوتد .

تجمع الحزن العتيق واخذ يضغط على معدتى من تحت حزام المقعد . الالم القديم نفسه والطنين فى أذنى . ومن وسط السحاب الابيض برز الجناح الفولاذى .

أغمضت عينى فأصبح السحاب أحمر ثم أسود وجناح الطائرة الابيض يقذف مايشبه اللهب ، وعلى الرمل الاصفر فى قاع الارض البعيد طفل منكفىء على وجهه

يسيل من زاوية فمه لعاب أحمر . لم أر وجهه لكن
أصابع يديه كانت ملوثة بحبر ازرق واصبع قدمه الصغير
يطل من الصندل الجديد الاخضر . صرخت ابنى ، لكنى
سمعت صوته . البحة نفسها والقهقهة المتقطعة كالشهقة
واستدرت بسرعة . لم يكن هو ابنى . كان طفلا سمينا
متورد الوجه يتكلم بالانجليزية .

ـ ماهذه الارض التى تحتنا يا امى ؟

ـ هذه مصر .

ـ مامعنى مصر يا امى ؟

ـ لا أعرف ، انها بلد فى شمال افريقيا .

نقط النور فى القاع البعيد الإسود تهتز وتقاوم الليل .
احدى هذه النقط مصباحى بجوار سريرى ، ورف كتبى
واوراقى ، واحزانى وأفراحى ، والوسادة الصغيرة عليها
بضع شعرات من راسه ، وقطرات من عرقه ، والعينان
الصغيرتان السوداوان تلمع فيهما دمعة ، وصوت فيه
بحة ينادينى ، ويدان صغيرتان تتشبثان بيدى وتمسكان
بها كقيد . اخلص يدى بغير عنف ، برفق شديد ، واسير
على اطراف أصابعى نحو الباب . ومن خلفى أسمع صوتا
خافتا كبكاء طفل . البحة نفسها والشهقة المتقطعة ،
واستدرت بسرعة . لم يكن ابنى . انه الطفل الانجليزى
السمين لازال يضحك ويلعب . ضحكته تشبه ضحكة ابنى
وعمره يكاد يقترب من عمره . اربع سنوات ونصف ،
تركته مع أبيه وأخته من أجل ماذا ؟ رغبة آثمة فى المعرفة؟
حنين جارف منذ الطفولة للعصيان ورفض الاوامر ؟ أم
انه السفر والترحال والانجذاب نحو العوالم الاخرى ؟

ثم ارتفع الصوت من خلال الميكرفون معلن عن الهبوط
فى مطار طهران . ولامست العجلات الارض بخفة فائقة .

ثم توقفت الطائرة تماما وظلت الابواب مغلقة . وخيل الي أنه بمجرد انفتاح الابواب سيندفع رجال البوليس والسافاك الى داخل الطائرة يبحثون في وجوه الركاب عن وجهي .

وانفتحت الابواب ولم يدخل أحد . وخرج الناس يسيرون الى مدخل المطار في طوابير . وأمام ضابط الجوازات وقفت في مكاني من الصف الطويل . والى جواري طبيب هندي تعرفت عليه ، ولم يكن حصل على تأشيرة للدخول ايضا . وأخذنا أحد موظفي المطار الى غرفة جانبية . قدمنا أوراق المؤتمر ، وأسماءنا في كشف ضمن الاعضاء ، وأشرنا الى العبارة التي تقول ان تأشيرة الدخول يمكن أن تعطى لاعضاء المؤتمر الذين لم يجدوا الوقت للحصول على التأشيرة في بلادهم .

كانت الغرفة مزدحمة بالناس ، وشاب ايراني نحيل يجلس من وراء مكتب صغير . وجهه شاحب مرهق ، وقطرات عرق فوق جبهته ، وفوق مكتبه كوم من الاوراق وجوازات السفر . رفع رأسه والقى على الطبيب الهندي نظرة سريعة ، ثم نظر الى الصورة في جواز سفره ورفع يده بالمطرقة على احدى الصفحات الخالية وطبع تأشيرة الدخول . وبالسرعة نفسها نظر الى صورتي في جواز سفري ، وظلت عيناي ثابتتان وهو ينظر في وجهي ، ورفع يده عاليا بالمطرقة وطبع تأشيرة الدخول فوق احدى الصفحات الخالية في جواز سفري .

ثم وجدت نفسي في قلب طهران ، وفي شارع بهلوي اسير . الشارع نفسه الذي كنت أسير فيه أربع مرات في اليوم . لولا الفاصل الحديدي الذي ينتصف الشارع والمباني الجديدة التي احتلت المساحات الخالية لظننت

أن الزمن لم يمر منذ كنت هنا من عامين . فالوجوه تكاد تكون هى الوجوه . الرجال بملامحهم البارزة المدببة فيها قوة الجبل وجرأته ، والنساء بعيونهم السوداء الكبيرة وجونلاتهم القصيرة تكشف عن أفخاذ شرقية بسمينة . والسينما هى السينما تعرض فيلم رأعى البقر ، وبائع الفسدق واللبان بأسنانه الذهبية وشاربه الاسود جالس فوق الرصيف ، والصبى الشاحب الحزين بميزانه الصغير والشحاذة العجوز نفسها لا تزال فى مكانها متكورة حول نفسها بجوار الحائط ويدها الفارغة ممدودة للامام .

ملأت صدرى برائحة الجو . والبلاد كالأشخاص لكل منها رائحة خاصة مميزة . ورائحة طهران جذابة بقدر مافيها من رائحة الجبل ، والمياه الذائبة الساقطة من فوق القمم الثلجية فى شلالات صغيرة تنكسر فوق الصخور ثم تجرى صافية بين الأشجار العالية على جانبى الشوارع المنحدرة الى أسفل .

وسرت فى الطريق الجبلى الصاعد نحو شميران ، حتى الشارع الضيق ، ووقفت امام البيت الصغير . لازلت إذكر شكل الحديقة الصغيرة التى رأيتها منذ عامين والسلم الصغير الذى يقود الى حجرة الاستقبال . وفتح الباب وكنت أظن أن الشاب الأشيب الطويل النحيل سيظهر على الفور كما ظهر فى نوفمبر ١٩٦٨ ، لكنه لم يظهر وخرجت لى امرأة شابة متشحة بالسواد ، تعرفت على ملامحها رغم شحوبها ونحولها . أنها زوجته سيمين دانشوار أستاذة تاريخ الادب فى جامعة طهران .

وحكت لى الدكتورة دانشوار قصة وفاة زوجها جلال آل احمد كان يمضى أجازة الصيف الماضى على شاطىء بحر قزوين ، وكانت معه تقرأ له بعض أبيات من الشعر

بعد رياضته على الشاطئ حينما وضع رأسه على الوسادة وصمت الى الابد . كانت الدنيا ليل والمنطقة بعيدة عن المدينة بغير كهرباء . واستنجدت ببعض عمال الشاطئ وعندما عرفوا انه جلال آل أحمد جاءوا اليه من كل الاكواخ وملأوا مصابيحه بالجاز وحوطوه بالزهور ، وسهر النجارون حتى الفجر يصنعون له نعشا مزخرفا .
وابتلعت الدكتورة دانشوار دموعها وهى تقول : مات جلال بين الناس الذين احبهم وكتب عنهم طوال الستة واربعين عاما التى صنعت كل عمره ، مات فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، منذ تسعة أشهر . لم يمض عام على موته بعد مات شابا .
وتساءلت : هل أصابه مرض ؟
وتلفتت حولها وهمست بصوت خافت : لا اعرف . كنا نجلس فى غرفة تطل على الحديقة ، ودب الصمت فجاة ، وجفيف الشجر بدا كوقع الاقدام الخفية . وسرت فوق جسدى القشعريرة ، وهمست : اتظنين أن البيت مراقب ؟
وقالت بصوت حزين : لا أعرف .
وفجاة انقطع التيار الكهربائى وغرق البيت فى الظلام وجلست فى مكانى غير قادرة على النطق أو الحركة .
وسمعت صوت دانشوار الخافت : التيار الكهربى ينقطع كثيرا فلا تنزعجى .
وعاد النور بعد دقائق ، وقرأت لى بعض فقرات من روايتها الاخيرة ، عنوانها : « الحزن على سيابوشى » ، استوحتها من الاساطير الفارسية القديمة قبل مجىء الاسلام . كان « سيابوشى » بطلا شعبيا ، وجد مقتولا ، وحزن عليه الناس . نشرت دانشوار روايتها قبل موت

جلال آل احمد باسبوعين . وقال لها جلال : لا تنشريها هذه الايام ، وبما تجعلهم يضعون الفكرة في رءوسهم !
مسحت سيمين دانشوار عينيها وقالت : خاتمة روايتي جاءت على شكل أبيات من الشعر ، يرسلها الناس الى الآن من كل أنحاء ايران .
وقرأت خاتمة روايتها ، وجاءت كالاتي :

لا تبكي يا اختاه
في بيتك ستنمو شجره
وأشجار في مدينتك
وأشجار كثيرة في بلدك
والريح ستنقل رسالته
من شجرة الى شجرة
الى كل الشجر
والشجر يسأل الريح
وهي في طريقها اليك
هل رأيت الفجر ؟

ثم بدأت تصف لي جنازة جلال آل احمد . عشرة آلاف شخص حضروا الجنازة . وارتدى شباب الجامعة السواد ، وصدرت الاوامر بمنع نشر أي شيء عنه . أحد الشعراء الايرانيين اسمه « صوراتجر » مات بعد جلال آل أحمد بأسبوع . قبل أن يموت « صوراتجر » أنشد قصيدة في مناسبة ذكرى تتويج الشاه تمدحه . ولم يذهب أحد الى جنازته . كاتب ايراني اسمه « فردون تنكاليوني » في السجن لانه عارض سياسة الشاه. وقعت دانشوار ومائة كاتب ايراني على عريضة تحتج على حبسه وتطالب الافراج عنه . تطوع بعض المحامين للدفاع عنه . المعارضة ضد الشاه تزداد قوة ، وكثير من الناس في

السجون . منظمات كثيرة سرية داخل ايران . وفى الخارج أيضا نشاط كبير ضد الشاه .

ثم قالت دانشوار : « وجمعنا ٦٠٠٫٠٠٠ تومانى وارسلناها الى الفدائيين الفلسطينيين فى الاردن . أعلن وزير الخارجية أنه مع الفدائيين ، لكن هذا غير حقيقى . حكومة الشاه أقامت احتفال فى ذكرى لينين فى جامعة طهران لكن الطلاب قاطعوا الاحتفال ، وأنا أيضا لم أذهب لانه اذا أصبح لينين تابع لحكومة الشاه فأنا ضد لينين ! شباب الجامعة فى ايران قوة كبيرة وهم الذين سيصنعون الثورة . »

وتركتها فى الليل وحدها بالبيت الصغير فى الجبل . ودعتنى حتى باب الحديقة ووقفت أمامى ممسكة بالباب . وقبل أن أترك الشارع الضيق استدرت خلفى ورأيتها لا تزال واقفة فى الضوء الخافت ممسكة بالباب .

***

من النافذة المفتوحة فى غرفتى بالفندق رأيت الهضبة العالية ومن فوقها تتلألأ أنوار فندق الهيلتون ، والى جواره « مركز ايران للمؤتمرات العالمية » ، وفى الحديقة الواسعة اصطفت الموائد وأطباق الطعام وكئوس النبيذ والشمبانيا ، وثلاثمائة شخص من كل أنحاء العالم ، من أمريكا وغانا وتنزانيا وبريطانيا والسويد والهند وكينيا وأوغندة والسودان وليبيا وتونس والفلبين ومدغشقر وافغانستان والحبشة ولبنان وتركيا ، ومن مصر كان الدكتور سرور وثلاثة آخرين من الاطباء وأنا منهم .

لم أحضر حفل التعارف الاول بعد الافتتاح . ولم أحضر الحفل الختامى للمؤتمر . بينى وبين الحفلات عداء . وجوه ترتدى أقنعة النفاق ، وحول أعناق النساء

واهر تبرق ، وحول أعناق الرجال الربطة الحريرية
ونة . يد تمسك الكأس واليد الاخرى تصافح ، عين
تابع حركة الرئيس أو مندوب الرئيس ، والعين الاخرى
تابع حفيف الجواهر . وضحكات تتطاير في الجـــو
فرقعة مع فرقعات السدادات وهي تتطاير من فوهـــة
زجاجات . وترتفع الأصوات والقهقهات . ومن حـــين
حين يرن في الجو اصطلاح طبى ، أو اسم جـــديد
ض جديد أو نوع حديث من لوالب عنق الرحم ، أو
ونة أمريكية جديدة على شكل شحنة من حبوب منع
حمل .

وفى أحد المقاعد الخاصة بالوفد الامريكى جلس طبيب
ريكى واعلن أن ولاية نيويورك اصدرت قرارا هذا العام
بيح الاجهاض . وارتفع صوت من الوفد التونسى يقول
الاجهاض أبيح فى تونس . وتحدثت طبيبة انجليزية
مفهوم جديد للجنس . وعاد الطبيب الامريكى يقول
الجتمع الامريكى لازال يحمر وجهه اذا سمع كلمـــة
جنس . وتحدث طبيب من السويد عن الحقنة الجديدة
تحقن بها المراة فتمنع الحمل لمدة عام كامل . واعترض
ضو الوفد التركى على اضطهاد جسد المراة وحده فى
ضوع تحديد النسل . وأدان الطبيب من الفلبـــين
بيعة المراة التى تجعلها قابلة للاخصاب فى أيام قليلة من
شهر ، أما الرجل فهو مخصب طوال الشهر ولا انفصال
ه بين الجنس والاخصاب . وتحدث الطبيب مـــن
لد عن عمليات التعقيم للرجال ، وانهـــا سهلة
سطحية اما عملية التعقيم عند المراة فتستدعى فتح
بطن .

وجلست صامتة طوال جلسات المؤتمر ، ثم رفعت

اصبعا طويلا مدببا فى الجلسة الاخيرة والقيت فى القاع
بالسؤال : ولماذا تحددون النسل ؟ وتحركت نحوى العيو
محملقة مستطلعة مندهشة . لم يكن حول عنقي جواهر
فادركوا انني من البلاد الفقيرة فى العالم الثالث . ول
اكن أحمل اسمي ولقبي فوق صدرى فادركوا انني بلا
اسم ولا لقب . واعترض طبيب على السؤال وقال ان
لا علاقة له بموضوع المؤتمر ، لان الموضوع هو وسائل
تحديد النسل وليس أسباب تحديد النسل . واعترض
على الاعتراض طبيب من السودان وقال ان السؤال في
صلب الموضوع ولا يمكن فصل الاسباب عن الظواهر.
وتدخل طبيب من الفلبين وقال ان الاسباب تدخل في
نطاق علوم الاجتماع والسكان وليس علوم الطب .

واعترض طبيب من الهند وقال أنه لا فاصل اليو
بين الطب والمجتمع . ونهض طبيب من الفلبين ليرا
لكن رئيس الجلسة دق بيده على المنصة وطلب المحافظ
على النظام ، واعطى الكلمة للطبيب الافريقى من غانا الذ
كان أول من رفع يده ، والقى الطبيب محاضرة عـ
فوائد تحديد النسل وخاصة فى البلاد المتخلفة في
افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . واعترض الطبيب م
الهند على كلمة « المتخلفة » واستبدلها بكلمة « النامية
ورفع الدكتور سرور يده وطلب الكلمة وأوضح ا
التخلف ليس عيبا ، وأن الفقر ليس عيبا ، ولكن العيب
هو كثرة الحمل وولادة الاطفال كالارانب . واعترض
الطبيب من السودان على كلمة « الارانب » وقال ان الفق
هو المشكلة وليس الاطفال ، والمفروض أن نعالج الفق
أولا . وتساءل طبيب من السويد عن أسباب الفقر و
البلاد المتخلفة ، ورد طبيب من السودان وقال

الاستعمار . وهنا وقف طبيب من كينيا وقال : هـذا مؤتمر طبي ولا دخل لنا بالسياسة ، واقترح العودة الى موضوع المؤتمر الاصلي ، ووافق رئيس الجلسة على ما قاله الطبيب الكيني ، وعادت المناقشة من جديد الى ما كانت عليه ، وبدأوا يتحدثون عن انواع اللوالب التي توضع حول عنق الرحم ، ونسب الهرمونات في حبوب منع الحمل الجديدة ، تنتجها شركة « اس أم » الامريكية وترسل منها كميات كبيرة الى البلاد المتخلفة ، ضمن مشروعات التنمية أو المعونات الاقتصادية والعسكرية .

وتسللت من الباب الخلفي الى الشارع . كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وظلال الانوار تنعكس على الجداول الهابطة من الجبل ، ورأس الجبل مدبب أبيض ، وعلى السفح المائل « شتانوجا » بانوارها الحمراء كحبات الكريز ، ونسمة الليل والجبل ، والمياه الذائبة في رائحة العشب ، وانغام الموسيقى الراقصة ، وايقاع كعوب الاحذية الثمينة مع اللحن الامريكي ، والشفاه المصبوغة تلتهم كرات الكافيار الاحمر .

ومن حول « شتانوجا » ترقد السيارات الطويلة الفارعة ، تتمدد على العشب بجوار أحواض الزهور ، وداخل كل سيارة سائق يجلس وراء عجلة القيادة في وضع الاستعداد .

وعند مؤخرة السيارة كان الطفل النحيل واقفا في يده فوطة صفراء ، يقترب من السيارة في وجل ليمسح الزجاج ، ويمد السائق ذراعه من النافذة ويطرده بيده كما يطرد الذباب . ويجلس الطفل على الارض في الركن البعيد ، وينضم اليه عدد من الاطفال ، عيونهم واسعة جاحظة ، وبياض العين أصفر ، وفي يد كل طفل فوطة

صفراء ، واليد الاخرى مفتوحة ممدودة فى الهواء ، تنتظر سقوط قطعة نقود من السماء .

سرت فى الطريق الهابط نحو المدينة ، واجتزت شارع بهلوى يسمونه خيابان بهلوى . طوابير الشباب امام السينما تعرض فيلم راعى البقر ، امرأة عارية فى وضع الاغراء ورجال فوق الجياد يحملون المسدسات ، وملصقات أخرى فوق الجدران . صورةالشاهوالامبراطورة اعلانات عن سجائر « كنت » ، وويسكى « جونى ووكر . » زجاجة كوكاكولا ضخمة تحتل المساحة فوق الجدار ومن حولها لمبات حمراء وزرقاء وصفراء على شكل دوائر تضىء وتطفىء ثم تضىء . نافورة المياه فى الميدان . بائع الفسدق واللبان جالس فوق الرصيف . الطفل الشاحب الحزين جالس القرفصاء وامامه الميزان الصغير . الشحاذة العجوز متكورة حول نفسها بجوار الحائط ويدها الفارغة ممدودة الى الامام .

دخلت الى المطعم الصغير ، تفوح منه رائحة « الشيلوكاب » . الخبز الايرانى الكبير والبصل واللفت الاحمر . مجموعة من الشباب حول مائدة وبينهم فتاة ، شعرها أسود قصير ، وعيناها سوداوان لامعتان .

ـ التقينا هنا من قبل ؟

ـ نعم ، منذ عامين .

ـ اسمك « مانى »

ـ نعم .

وسألتها من يكتب فى ايران بعد جلال آل احمد . وذكرت اسم عباس بهلوان ، وقالت أن جلال آل أحمد صنع جسرا بين الماركسية والاسلام ، وعباس بهلوان يمشى فوق هذا الجسر ، لكنه يرفض الدروشة

والدراويش ، وكتابه الاخير بعنوان « ثادرويشي » ومعناها لا درويش .

ذهبت اليه في مكتبه ، وكان يراس تحرير مجلس « فردوسي » . شاب نحيل قصير ، ملامحه هادئة ، ولمعة في العينين تكشف عن أعماق غير هادئة . ثورة كامنة تحت السطح . ودار بيننا حوار غريب . فهو لا يعرف الانجليزية ، وأنا لا اعرف الفارسية لكني فهمت مايقول . اشار باصبعه على بعض الصور في مجلة « فردوسي » . ورأيت صورة لبعض الفدائيين الفلسطينيين ، ومن تحتها مقال باسمه يدافع عن القضية الفلسطينية . وصورة اخرى لمجموعة من شباب فيتنام يحاربون . وعلى غلاف أحد الاعداد رأيت صورة جمال عبد الناصر ، ثم المقال الرئيسي بقلم عباس بهلوان يدافع عن القضية العربية ويهاجم اسرائيل .

وكان معنا في هذه الجلسة شاعر ايراني اسمه « علي نوري زاده » يتكلم العربية ، وقد ترجم الى الفارسية قصائد بعض الشعراء الفلسطينيين ، محمود درويش ، وسميح القاسم ، وفدوى طوقان .

وبينما نحن جالسون دخل رجل ايراني طويل اشيب ما أن عرف انني من مصر حتى بدأ يتكلم بالعربية الفصحى اسمه علي أكبر قسمائي كان في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٨ وحين فشلت محاولة اغتيال شاه ايران في ذلك الوقت كتب مقالا في جريدة الاخبار عن هذه القضية . وقد ترجم علي أكبر قسمائي من العربية الى الفارسية بعضا من كتابات المازني وطه حسين والعقاد والحكيم ، ويقول عن نفسه انه ربيب الادب العربي .

وسألنى على اكبر قسمائى : هل قرأت الخبر فى الصحف هذا الصباح ؟

وقلت : اى خبر ؟

قال : عودة العلاقات بين حكومتى مصر وايران ، وهذا خبر يفرحنا نحن الايرانيين ، فالشعب المصرى شقيق لنا ، ولغتنا الفارسية نصفها كلمات عربية . وبيننا تاريخ قديم ، وفلاسفة قدامى مثل ابن سينا والرازى .

وتراءى لى وجه جلال آل احمد ، وصوته وهو يقول:

٩٠٪ من بترول اسرائيل يأتى من عبدان من عندنا ! يا للخجل ويا للعار !

وتساءلت : وماذا عن جلال آل احمد ؟

ودب الصمت طويلا . وظهرت الحقيقة فى العيون على شكل الحزن المكتوم .

وفى اليوم التالى أخذتنى « مانى » لارى متحف جواهر تيجان الملوك فى قلب طهران . وقالت « مانى » : لابد أن ترى الجواهر داخل هذا المتحف لتعرفى لماذا يثور الشعب الايرانى اذا قدر له أن يثور .

رجال البوليس كانوا يحوطون المتحف . جردونا من الحقائب ومن آلات التصوير . سرت فى الطابور الطويل ندور حول العلب الزجاجية ، ومن خلال الزجاج نطل على التيجان المرصعة بالياقوت والماس والمرجان والفيروز اسلحة مزركشة بالجواهر . الكراسى محلاه بالاحجار الكريمة والماس . فى حفلات التتويج يستعير الملك أو الامبراطور التاج من هنا ، وكذلك الملك أو الامبراطورة . القطعة الواحدة من الجواهر بحجم راس الدبوس تقدر بملايين الجنيهات .

وسمعت مانى تقول : أموال مجمدة فى هذا المتحف

لمجرد الزينة على حين يجوع الملايين من الشعب الايرانى.
فى الطريق بالسيارة الى أصفهان وشيراز رأيت الفلاحين فى القرى . يرتدون سراويل طويلة واسعة تشبه سراويل الفلاحين المصريين . وجوههم شاحبة ، اجسادهم نحيلة مرهقة ، وفى عيونهم حزن السنين كعيون الناس فى قريتى كفر طحلة .
الى جوارى كان يجلس أحد الاطباء الايرانيين من أعضاء المؤتمر ، وحين سألته عن مشاكل الفلاحين قال : الفقر ، الجهل ، المرض .
فى شيراز وأصفهان انتقلت من عالم الفقر والجهل والمرض الى عالم آخر مرصع بالجواهر . الجدران والسقف مزركشة بالاحجار الكريمة . وفندق اسمه « شاه عباس » فى أصفهان ، بنى فى القرن ١٧ ، ينقلنا الى عالم شبه خيالى ، مسحور كليالى ألف ليلة وليلة . بذخ الحكام واسرافهم فى المتع الى حد الجنون . وتحت أقدامهم العبيد والجوارى راكعون .
وعدت الى طهران فى اليوم التالى . لم أحضر الجلسة الاخيرة فى المؤتمر ، أو الحفل الختامى . يد تمسك الكأس بالنبيذ ، وفى اليد الاخرى ورقة طويلة عليها التوصيات ، كلمات مكررة وحبر على ورق .
الليلة الاخيرة فى طهران قضيتها فى غرفة « مانى » فى الزقاق الصغير . تعيش وحدها فى طهران وأهلها فى قرية صغيرة بالقرب من شيراز . تذهب الى الجامعة فى الصباح وفى الليل تعمل مع مجموعة من المناضلين . صنعت لى كوبا من الشاى وجلست أمامى . وجهها طويل نحيل . بشرتها سمراء . عيناها سوداوان واسعتان وشعرها أسود طويل ، على شكل ضفيرة كبيرة خلف

ظهرها . ترتدى ثوبا أبيض ، وتجلس على شلتة خضراء فيها مربعات بيضاء . كانت تتكلم وكنت أنصت : لى صديقة فى السجن اسمها « هوما » قبض عليها رجال السافاك وهى تسير في الشارع . لم تكن تحمل اى منشورات . وضعوها فى السجن وحاولوا استجوابها . جردوها من ملابسها الى ماتحت الصدر ، ثم بدأ أحد الضباط في حرق حلمة ثديها بسيجارة مشتعلة . كاد يقتلها الالم وبدأت تعترف بكل مالديها . وفى الليل اقتحم البوليس بعض البيوت وحبسوا عددا من زملائنا الطلبة . قام رجال السافاك ورجال المخابرات الامريكية المركزية بعمل فيلم عن « فن استجواب الثوار » وخاصة من البنات والنساء ، وعمل من هذا الفيلم مئات النسخ وزعته أمريكا كجزء من المعونة الفنية على بلاد صديقة مثل تايوان والفلبين واندونيسيا . لم نعد نجتمع فى البيوت أو الاماكن العامة . أصبحنا نجتمع فى المسجد ، فهو المكان الوحيد الذى لا يصله رجال السافاك أو المخابرات الامريكية . الشاه شبه معزول ، وامريكا ترشده فى كل شىء ، وتحاول أن تصوره على أنه «الاب» للشعب الايرانى أو العائلة الايرانية « فرمانده » حسب التقاليد الشعبية . صور الشاه تغطى الجدران ومن تحتها كتب : « أبو العائلة الايرانية » ، وفى كل اسبوع يذهب الي الصلاة فى مسجد من المساجد . يحاول انتزاع القيادة الدينية من الائمة وآيات الله ، ويوهم الناس انه رجل صالح يخاف الله ، وهو فاسد فى حياته العامة والخاصة . استولى على أموال الشعب ، وخياناته الزوجية المتعددة معروفة للجميع حتى زوجته فرح دينا . يعتبرها بقرة ولادة لتنجب له ولى العهد .

لا يحترم زوجته ولا يحترم النساء . فكرته وراء انشاء وزارة لشئون المراة ليست الا محاولة لكسب تأييد النساء نظير تقديم بعض الحقوق السطحية لهن .

صوت « مانى » ظل فى أذنى حين ركبت الطائرة فى الصباح وعدت الى القاهرة .

ومرت السنون ونسيتها أو خيل الى ذلك . حتى قامت الثورة الايرانية فعاد الى صوتها وعيناها السوداوان الواسعتان وهى جالسة أمامى بثوبها الابيض وضفيرتها الطويلة خلف ظهرها . وطرد الشاه من ايران ولم يجد بلدا ترحب به ، حتى أصدقاؤه الامريكيون نبذوه كأرنب ميت .

وتصورت أن الثورة الايرانية سوف تحرر الشعب الايرانى ، وتتحقق آمال « مانى » وزملائها وزميلاتها . لكن الثورة الايرانية سرعان ما أجهضت على يد الخمينى واعوانه وتحولت من ثورة للتحرير الى قوة بطش باسم الدين .

وفى يونيو عام ١٩٨٤ التقيت فى لندن ببعض الشباب الايرانيين ، الذين هربوا من بطش النظام الخمينى . وسألتهم عن « مانى » . وقالوا أن هناك كثيرات من المناضلات اسمهن « مانى » وحاولت أن أصف لهم ملامحها . قلت لهم بشرتها سمراء وعيناها سوداوان واسعتان ولها ضفيرة طويلة خلف ظهرها . وتذكرها احدهم . ورأيته يطرق الى الارض ثم يرفع الى عينين فيهما دموع وقال : « مانى » أعدمت فى سجن الخمينى وقبل الاعدام بأيام قليلة دخل عليها رجل واعتدى عليها جنسيا ، حتى لا تموت وهى عذراء ، فهناك اعتقاد عند آية الله الخمينى أن الفتاة اذا ماتت وهى عذراء

تدخل الجنة . ومن أجل أن تدخل « مانى » النار أحضروا أحد الرجال وزوجوها له رغم انفها قبل اعدامها بأيام .

هذه هى العقلية التى تحكم ايران اليوم . ومنذ ثلاثة أعوام حاول أحد الاساتذة الايرانيين طبع كتابى « الوجه العارى للمراة العربية » وطبع فعلا بعد أن ترجم الى اللغة الايرانية لكن رجال الخمينى هجموا على دار النشر وحرقوها وحرقوا الكتاب . وأصر الاستاذ الايرانى على اعادة طبع الكتاب . وفعلا طبع ووزع فى ايران . وارسل نسخة من الكتاب الى عنوانى بالقاهرة مع رسالة رقيقة يعتذر فيها عن التاخير .

وفى يونيو عام ١٩٨٤ وفى لندن أيضا التقيت بهذا الاستاذ الذى اضطر الى الهروب من بطش الخمينى وأعوانه وأصبح يعيش فى المنفى هو وبعض أفراد أسرته هربوا معه عبر حدود ايران . وله ابنة صغيرة لم تستطع الهرب معهم وبقيت فى سجون ايران . وزوجته لا تنام الليل فى لندن تفكر فى ابنتها الحبيسة فى طهران وفى غيرها من الفتيات والنساء الايرانيات اللائى فرضت عليهن حكومة الخومينى « التشادور » ، والوانا محددة هى الرمادى ، الاسود ، البنى ، الازرق أو الاخضر الداكن . ومن لاتلبس هذه الالوان تعاقب . ومن لاترتدى التشادور تعاقب بالفصل من عملها أو السجن . وكثير من الفتيات والنساء دخلن السجون أو اعدمن . أما الشباب الذين لم يدخلوا السجن أو يعدموا فقد جندهم الخميني فى الحرب ضد العراق ، وعلق فى عنق كل شاب منهم مفتاح حديدى ، ليدخل به من باب الجنة بعد أن يموت فى الحرب .

بغير دموع تتحدث زوجة الاستاذ . عيناها مليئتان بالحزن ، وشيء آخر غير الحزن . الغضب والاصرار والتحدى . ذكرتنى بعينى الدكتورة سيمين دانشوار . وزوجها الاستاذ أيضا يشبه جلال آل أحمد . شاب طويل القامة نحيل ، واشيب أيضا . البشرة سمراء ، والملامح ايرانية صميمة . والحديقة صغيرة تشبه حديقة جلال آل احمد فى شميران ، ومائدة الطعام ونكهة الشاى ، ولهجة الكلام ، وكل شيء يذكرنى بطهران عام ١٩٦٩ رغم أننا فى لندن والعام هو ١٩٨٤ .

وعلى الباب الخارجى لبيتهما الصغير ودعنى الاستاذ وزوجته بمثل ماودعنى جلال آل احمد ودانشوار ورأيت مجموعة من الشابات والشبان الايرانيين مقبلين نحو الاستاذ وزوجته . وقلت لنفسى وأنا أسير نحو الشارع : ستحدث ثورة أخرى فى ايران .

وعلى جدران محطة القطار تحت الارض رأيت الحروف الفارسية بالخط الاسود . « يسقط الخومينى » ، وتذكرت هذه الحروف نفسها منذ اعوام ، وبدلا من كلمة « الخومينى » كانت كلمة « الشاه » .

رحلة الهند

رحلتي الى الهند لم تكن كأية رحلة الى أى بلد كانت اشبه ماتكون برحلة الحياة كلها منذ الولادة حتى الموت . كالدائرة تبدأ وتنتهى الى النقطة ذاتها . لكنها ليست النقطة ذاتها . لان الولادة ليست هى الموت والبداية ليست هى النهاية .

قد يدهش الكثيرون ممن يهوون السفر والرحلات لماذا شعرت نحو الهند بالذات مثل هذا الشعور والعالم فيه من البلاد والامكنة التى ينبهر لها السياح . لكن السياحة فى رايى ليست ركوب طائرات وزيارة متاحف والنوم والاكل فى الفنادق الفاخرة . السياحة عندى هى التجول على الاقدام فى الشوارع والحوارى المتربة ، واكتشاف الانسان فى أى مكان . وبالذات تلك الامكنة التى يهرب منها السياح ، أو يضعون مناديلهم فوق انوفهم حين يمرون عليها بالصدفة .

رحلتى الى الهند كانت طويلة ومرهقة ، ولكنها كانت ممتعة ، أشبه ماتكون برحلة الى النفس فى قسوتها وفى حلاوتها . ربما هى أصعب رحلة قمت بها فى حياتى رغم أننى زرت معظم بلاد العالم ومشيت فى أوعر الطرق . لكن صعوبة أكتشاف الهند تشبه الى حد كبير صعوبة أكتشاف النفس . رغم أن النفس ملتصقة بالانسان منا لكن كم من زمن وجهد حتى يعرف الواحد منا نفسه . وهذه هى الهند أيضا ، بقدر ما تعرف

نفسك تعرفها ، وبقدر ماعندك فى نفسك بقدر ما تعطيك الهند من نفسها ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الناس لا يرون فى الهند الا التراب والفقر ، والبعض الآخر يستطيع ان يخترق السطح ويصل الى قلب الانسان الهندى .

قبل أن تهبط الطائرة فى مطار نيودلهى أعلنت المضيفة أن الساعة السابعة صباحا . نظرت فى ساعتى فادركت أن الناس فى القاهرة لازالوا نائمين « الشمس تشرق فى الهند قبل مصر بثلاث ساعات ونصف » . كنا فى شهر يناير وكنت أرتدى معطفا صوفيا لكنى خلعت المعطف بمجرد هبوطى على ارض الهند ، واحسست شمس الشتاء فى الهند دافئة حنون بعثت فى جسدى نوعا من اللذة والتفاؤل .

انتظرت وصول الحقائب وسط جمع كبير من السياح والمسافرين . معظمهم من الاجانب ذوى الوجوه البيضاء المشربة بالحمرة ، ملابسهم غالية أنيقة ، حقائبهم كبيرة ثمينة ، بعضهم يعلق الكاميرا فى كتفه « سياح » والبعض الآخر يمسك حقيبة يد « سمسونايت » « خبراء بالطبع» فى كل مطار التقى بهؤلاء الرجال ، أعرف شكل حركاتهم ، وأعرف نظرة عيونهم الزرقاء ترقب فى استعلاء الوجوه السمراء مثل وجهى أو وجه الهنود ، وتتأفف من منظر الحقائب القديمة والملابس البالية . كأنما السفر بالطائرات ليس الا حق هؤلاء الرجال مندوبى الشركات الاستعمارية أو السياح الاثرياء العاطلين فى أوربا وامريكا . وكأنما الاموال التى يشترون بها ملابسهم الانيقة وحقائبهم الكبيرة الثمينة ليست هى فى

الاصل اموال هذه الوجوه السمراء والكادحة أصحاب الارض وأصحاب البلد .

الوجوه الهندية من حولي تذكرني بالوجوه فى بلدى ، وتلك الابتسامة المتواضعة التى تشبه أحيانا ابتسامة من يشعرون بالضعف أو الحرج أو الذل . أحد مخلفات الاستعمار هي تلك الابتسامة وكم افضل عليها تكشيرة الغضب . أحد الهنود يفسح مكانه فى تواضع لذلك الرجل الانجليزى المتعالى . يتقدم الرجل الانجليزى ويأخذ حقائبه دون أن يشكر الهندى أو حتى يبتسم له . أكتم الغضب فى نفسى وأرمق الرجل الانجليزى بنظرة ازدراء وكراهية يقشعر لها بدنه ويكاد يهرب من أمام عينى جريا . ابتسم لنفسى فى سخرية . هؤلاء الانجليز يغلفون انفسهم من الخارج بكبرياء يشبه الثقة والشجاعة ولكنهم فى حقيقة أمرهم لا يستطيعون مواجهة عينين سوداوين مفتوحتين تنظران اليهم دون ان ترمشان .

حملت حقيبتى بنفسى . حوطنى عدد من الحمالين يحاول كل واحد منهم أن يحمل عنى الحقيبة . تذكرت مطار القاهرة وشعرت بالحزن . مثل هذا المنظر لا أراه فى مطارات أوروبا أو أمريكا ولكن الفقر فى الهند أو فى مصر أو فى أى بلد من بلاد آسيا وأفريقيا ليس الا أحد مخلفات هؤلاء ـ المستعمرين فى أوروبا وأمريكا وينسى السياح هذه الحقيقة ويتأففون من منظر الحمالين وهم يتنافسون على حمل حقيبة ، أو يصدمهم منظر الشحاذين ، وكم يشكو السياح فى الهند من كثرة الشحاذين .

***

وجدت بحكم خبرتى فى السفر والرحـــلات أن الانطباعات الاولى للعين الغريبة من أهم الانطبــاعات وأصدقها ، وقد تعودت أن أسجل انطباعاتى الاولى عن اي بلد جديد اسافر اليه ، قبل أن تألف عينى البلد وقبل أن تضعف هذه الالفة حساسية العين للأشــياء الجديدة ، ويصبح الجديد شيئا عاديا لا تراه العين .

لا اقصد هنا العين أو الرؤية فقط ولكنى أقصــد الاحساس ايضا . فقد أدركت منذ هبطت على أرض الهند أن احساسا عميقا بالراحة والسلام والطمأنينــة غمرنى . لم أعرف سبب ذلك . هل هى ابتسامة الناس المستسلمة الوديعة . هل هى السماء الزرقاء الصافية والشمس . هل هو ذلك الرجل العجوز الجالس فوق الرصيف ينظر الى الناس والحياة باشفاق وزهد يشبه اشفاق وزهد غاندى أم هى تلك العصافير التى تشدو فى كل مكان وتهبط فى اى مكان تلتقط طعامها من وسط الناس ، أم هذه الابقار التى ترعى فى الشوارع الى جوار السيارات والموتوسيكلات والعجلات ، تأكل من أى مكان دون أن يتعرض لها أحد .

قلت لنفسى اذا كانت العصافير والابقار آمنــة فى الهند فهذا هو سبب شعورى بالامان والسلام . ولكنى عرفت بعد ذلك أن الهنود يحترمون الحياة فى أى شكل من أشكالها ، وأن الفلسفة الهندية قائمة على تقــديس الحياة وعدم قتل اى كائن حى وأن كان بعوضة . بل ان احدى الديانات الهندية واسمها الديانة « الجينية » تفرض على الناسك منها أن يرتدى فوق انفه قناعا ، وأن يمشى على الارض حافيا وبخطوات خفيفة . والهدف من ذلك هو حماية النمل والحشرات البريئة مــن أن

تدوسها قدم الناسك ، أما القناع فهو لحماية البعوض أو الهاموش الصغير البرىء من أن يدخل مع الهواء الى انف الناسك ويموت فى صدره .

كنت قد أعجبت كثيرا بموقف الهنود من الحيـــاة واحترامهم لها ، لكنى لم أستطع أن أمنـــع نفسى من الضحك على هؤلاء الرجال الحفاة ذوى الاقنعة الذين كنت التقى بهم فى الشارع أحيانا . وكنت أندهش لنظرهم واظن من ملابسهم البيضاء والقناع الابيض أنهم أطباء خرجوا لتوهم من حجرة العمليات بحثـــا عن مريض هارب ، أو أنهم مصابون بمرض فى الانف ، أو انهم مصابون بمرض الوسوسة ويغطون أنوفهم خـــوفا من الجراثيم فى الجو ، أو أنهم نزلاء أحد المستشفيات العقلية . وحينما عرفت أنهم الناســـكون فى الديانة الجينية وانهم يغطون أنوفهم ليس حماية لانفسهم من الجراثيم وانما حماية للجراثيم منهم قلت لنفسى كم ينقلب المبدأ العظيم أحيانا الى نوع من الهلوسة والجنون، وكم تنطوى الاديان أحيانا على تناقضات ومبـــالغات وخزعبلات .

***

من الصعب أن تعرف البلد من عاصمتها ، فعواصم البلاد فى معظم الاحيان ليست الا مدنا كبيرة متشابهة ، تسكنها السفارات ودواوين الحكومة ، شوارعها فسيحة نظيفة تزداد مساحة ونظافة باقترابك من بيوت الحكام أو مكاتبهم أو حيث ينشط مندوبوهم أو ممثلوهم أو ماشابه ذلك . والعاصمة نيودلهى لا تختلف عن أية عاصمة فى ذلك ، وكم تندهش لبعض البيوت الفاخرة ذات الطراز الحديث ، المحوطة بالحدائق اليانعة ، وتلك

الشوارع الفسيحة الجميلة التى تقودك الى الاحياء
الراقية حيث يعيش أثرياء الهنود والاجانب والسياح .
ولكن سرعان ماتدخل الى « دلهى » القديمـــة كما
يسمونها ، وتضيق الشوارع وتزدحم بالاجسام والانفاس
ولا تكاد تعرف الرصيف من الشارع . ولا تكاد تفصل
بين تلك المركبات التى تجرى فوق الارض ، مركبـات
تعرف أنها سيارة ، أو موتوسيكل ، أو عجلة ، ومركبات
لا تعرف ما اذا كانت سيارة أو موتوسيكل أو عجلة أو
مزيج من كل هذا . فى الهند تستطيع أن ترى بعينيك
جميع أنواع المركبات منذ اكتشاف العجلة وابتداء من
الفيل أو الجمل أو البقرة ، أو الخنزير . كل انواع
الحيوانات هنا تجر اية عربة فى اية شارع . وكل أنواع
العجل منذ تطور من عجلة تحركها قدما الانسان الى
عجلة يحركها موتور الى موتوسيكل ثم الى سيارة . كل
ذلك تراه فى الشارع الواحد يجرى ويتسابق . ويمكنك
أن تميز الطبقات وانت سائر فى الشـــارع ، الذين
يركبون السيارات هى طبقة الحكام والاثرياء من الهنود
والاجانب وذوى المهن المربحـة العاليـة . الذين يركبون
الموتسيكلات هم طبقة صغار التجار وصغار الموظفين .
الذين يركبون العجلات هم أبناء الطبقة الفقيرة والطبقة
العاملة . أما أدنى طبقة فى الهند فهم هـؤلاء الذين
لا يركبون شيئا وانما هم الذين يجرون العجلات « كما
يجرها البقر أو الحمير » ومن المناظر المألوفة فى الهند
هى أن ترى ذلك الرجل النحيف الهزيل الذى يلهث
ويتصبب العرق من وجهه وجسده وهو يجر على عجلته
ثلاثة أو أربعة من الاشخاص . هذه العجلة التى يجرها
لانسان اسمها « الريكشا » وهى منتشرة فى الهند ،

وكم ترى أحيانا ذلك السائح الابيض السمين والى جواره زوجته السمينة يجلسان فى سعادة يتفرجان بينما راح الرجل الهزيل الاسمر يجرهما فوق عجلته وهو يلهث .

على أن هذا الرجل النحيل اللاهث أحسن حالا من غيره لانه لازال يملك القوة التى يجر بها شيئا ، وهناك من فقد تلك القوة ، ولم يعد يملك الا الرقاد على الرصيف فى انتظار الاجل المحتوم ، وعلى الارصفة فى اى مكان فى الهند ترى هؤلاء الرجال والنساء والاطفال الذين لا ماوى لهم الا قطعة الرصيف التى يرقدون فوقها .

بعض السياح فى الهند ينظرون الى هذا الفقر نظرة رومانتيكية . بعضهم يقف مذهولا يتألم دون أن يدرك السبب الحقيقى لهذا الفقر . بعضهم يتهم هؤلاء الفقراء بالكسل أو الغباء . بعضهم يقول أن هذه هى ارادة الله والله هو الذى يوزع الرزق على من يشاء ويحرم من يشاء . بعضهم يظن أن الفقر فلسفة هندية ونوع ارادى من العزوف عن متع الحياة . كل شيء ممكن أن يفكر فيه السياح الا السبب الحقيقى . ذلك ان المال الذى ينفقه السائح الواحد منهم فى اليوم يكفى لاعالة أسرة هندية لمدة شهر ، وذلك أن ثروات الهند الطائلة لم تكن تذهب الى أصحاب البلد وانما الى جيوب الغزاة الاجانب ، بل ان جزءا منها حتى الان لا تزال تنهبه الشركات الانجليزية والاجنبية .

***

لا ادرى لماذا تذكرت طفولتى وانا فى الهند . ليس تذكرا عاديا بأن اتذكر حوادث ما ولكنه احساس قوى

طاغ يستولى على حين انظر فى وجوه الاطفال الهنود فاذا بى أحس كأنما هذا الطفل الواقف أمامى هو انا حينما كنت طفلة ، وأن تلك النظرة فى عينيه هى بالضبط نظرة عيني وأنا طفلة ، وأن الطريقة التى ينبهر بها أو يجرى بها أو يلعب بها ، أو يحمل بها أخاه الاصغر هى نفسها طريقتى وأنا طفلة .

من المناظر المألوفة فى الهند أن ترى الاطفال يلعبون ، وقد حمل الواحد منهم أخاه أو أخته الاصغر بطريقة معينة ، ذلك أن يركب الطفل الاصغر فوق خصر الطفل الاكبر وتتدلى ساقاه . هؤلاء هم الاطفال المحظوظون الذين خرجوا من بيوتهن ليلعبون فى الشوارع أو الحدائق . أما معظم الاطفال فانهم لا يعرفون شيئا اسمه اللعب وانما يشتغلون ويكدون سعيا وراء الرزق سواء فى الحقول أو المصانع أو الدكاكين الصغيرة وهناك أيضا الاطفال الذين يعترضون طريقك فى أى شارع باسطين أيديهم النحيلة وهم يقولون باللغة الانجليزية أعطنى بقشيشا . لكن المنظر الذى لا يمكن أن تنساه هو هؤلاء الاطفال الذين لا يعترضون طريقك ، ولا يقولون شيئا وانما ينظرون اليك بعينين كامتتين ليس فيهما الا معني واحد ملحا وصارخا يهتف بغير صوت : نحن جوعى !

احساس غريب أصبح يلازمنى فى الهند كلما رأيت طفلا أو دخلت بيتا أو معبدا أو مكتبا أو مدرسة و مستشفى أو مصنعا . احساس غريب كأنما أنا لست فى الهند وانما فى مصر . رغم الاختلاف الظاهرى هناك نوع من التشابه الغريب ، كأنما الجذور واحدة . وأصبحت وأنا أكتشف الهند كأنما أكتشف مصر ، وبدأت

اتفهم تاريخ مصر من تاريخ الهند ، وارى حقائق من مصر لم ارها وانا فى مصر . ليس ذلك فقط لان الانسان لا يعرف بلده الا وهو خارجها او لا يرى الشىء الا من مسافة ، وانما لان الملامح العامة فى الهند تشبه الملامح العامة فى مصر بل ان رائحة الهواء ورائحة التراب تكاد تشبه رائحة هواء وتراب مصر .

***

فى كل مكان اذهب اليه يسالوننى — هل رأيت التاج محل ؟ وحينما اقل لا ، تتسع العيون دهشة واسمعهم يقولون : اذن أنت لم ترين الهند . وتذكرت « الهرم فى مصر ، وكيف يتصور الكثيرون أن أهم مافى مصر هو هرم خوفو ، كما يتصور الكثيرون أن أهم مافى الهند هو التاج محل . وليست هذه هى الحقيقة فى رأيى ولست من هؤلاء الذين يعبدون الاثار والابنية . ودائما يراودنى هذا السؤال حينما أرى أثرا ضخما أو بناء هائلا : من الذى بناه ولماذا ؟ مهما بلغ البناء من جمال لا أدرى جماله الا بعد أن أعرف القصة وراءه . وكم من قصص أليمة وراء أجمل الآثار الابنية . وكم من اهرامات واشباه الاهرامات بنيت بدماء وعرق آلاف العبيد الجوعى .

ان اعظم اثر تاريخى هو الهرم الاكبر فى مصر الذى بنى بعرق ودم آلاف العبيد من المصريين الفقراء . وأن اجمل أباجورات فى العالم عملت من جلود الرجال والنساء الذين قتلهم هتلر فى سجون النازية . وان التاج محل أجمل بناء فى العالم بنى بسواعد آلاف الهنود الجوعى لمدة عشرين عاما ، ويقولون ان الامبراطور المغولى قطع ذراعى المهندس الذى بناه حتى لا يبنى

واحدا مثله لاى امبراطور آخر . ومع ذلك فقد أصبح التاج محل يرمز فى التاريخ الى الحب ، وفى الليالى القمرية ترى أفواجا من العشاق والسياح يتطلعون الى هذا المبنى الرخامى الابيض ، ويذكرون باعجاب ذلك الامبراطور المغولى الذى بناه لزوجته المحبوبة بعد وفاتها . ان التاج محل ليس الا مقبرة لاحدى زوجات الحكام المغول لكنه بنى بالرخام الثمين تعلوه قباب رخامية رائعة المنظر وعلى جدرانه من الداخل والخارج نقوش بديعة متعددة الالوان .

وقد رأيت التاج محل فى مدينة اجرا ، وكما نصحنى الناس رأيته فى ضوء الشمس ورأيته فى ضوء القمر ، ولمست بأصابعى جدرانه الرخامية الناعمة تشبه فى نعومتها بشرة زوجات الاباطرة والملوك وهبطت السلالم داخله لارى التابوت الذى دفنت تحته الزوجة والذى رصع بالمرمر والاحجار الكريمة . وقيل لى أن الاموال التى بذلت فى بناء التاج محل كانت تكفى لبناء الهند وجعلها أكثر البلاد تقدما .

• وعلى العشاء فى بيت الشاعرة أمريتا برتيام دار الحوار حول هذا السؤال : أيهما كان أكثر فائدة بناء التاج محل أم بناء الهند . وانقسمت الآراء ، بعض الهنود قالوا أن بناء التاج محل كان أكثر فائدة لان السياح من جميع انحاء العالم يأتون الى الهند لرؤيته ولانه يعتبر من الناحية المعمارية ، والناحية الجمالية أجمل بناء فى العالم . لكن البعض الآخر عارض هذا الرأى وتساءل قائلا : ماهو الجمال ؟ ان الجمال الذى يقوم على استغلال آلاف الجوعى لا يمكن أن يكون جمالا . وقد كنت مع الرأى الاخير . لكن بعض عشاق

التاريخ والآثار قالوا : بهذا المنطق كان من الممكن الا يكون هناك آثار ترى الان ولا تاريخ عريق للهند أو مصر يجسده الهرم الاكبر ويجسده التاريخ محل . لكنى تساءلت ماهو التاريخ . هل تاريخ الهند هو كيف أحب الامبراطور المغولى زوجته الى حد أنها حين ماتت بنى لها هذه المقبرة الثمينة الرائعة ؟ هل التاريخ هو قصص غرام الاباطرة والملوك بزوجاتهم أو بأنفسهم وتلك المقابر التى بنوها لانفسهم أو أسرهم على شكل اهرامات أو على أى شكل آخر ؟

لاشك أننا فى حاجة الى اعادة فهم التاريخ ، فالتاريخ ليس فقط حياة الملوك والحكام أو موتهم والتاريخ ليس مجرد أبنية وقلاع واهرامات . لكن التاريخ أكبر من هذا . التاريخ هو قصة ملايين الناس فى كل شعب وكفاحهم المستمر من أجل البقاء . التاريخ هو صمود هؤلاء الملايين فى وجه الاباطرة والملوك والحكام . ان الحاكم الذى يستحق أن نذكره فى التاريخ هو ذلك الذى سعى لتوفير حياة كريمة لملايين الناس فى بلده وليس هو الذى سخر الملايين واستعبدهم من أجل أن يبنى مقبرة من الرخام الثمين لجسد زوجة لم تفعل فى حياتها شيئا سوى الاكل والنوم .

ان التاج محل فى رأيى ليس رمزا للحب الذى حدث فى التاريخ ، ولكنه رمز للحب الذى فقد فى التاريخ ، ودفن تحت مقبرة من الرخام الابيض .!

فى نيودلهى عاصمة الهند نزلت ضيفة على زوجى الذى يعمل فى الهند منذ عامين . فى شقته الصغيرة البسيطة فى حى « ديفنس كولونى » ادركت لاول مرة ان افضل وضع للزوجة هى أن تكون ضيفة فى بيت

زوجها . انها تشعر دائما انها سعيدة . ذلك لان بقاءها ليس دائما وانما بقاء مؤقت . عرفت أيضا أن البعد يجدد الحب والشوق . كنت اعرف هذه الحقيقة دائما وأقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في حجرتين منفصلتين لتظل بينهما مسافة . وحينما تطور تفكيري كنت أقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في شقتين منفصلتين . ولكني الآن وبعد أن نضج تفكيري أقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في بلدين منفصلين . ان البعد يضعف العلاقات الزوجية الهشة لكنه يقوى العلاقات المتينة القائمة على أساس من الحب الحقيقي والفهم والتقدير .

« نارايان » هو اسم الشاب الهندى الذى يطبخ لزوجي طعامه . انه شاب أسمر قصير نحيف يمشى على الارض بخفة غريبة . كأنما هو يشفق على الارض من ان يدوس عليها بقوة . وقد لاحظت أن كثيرا من الهنود لهم هذه المشية . وعرفت من بعد أنها نوع من التواضع الذى يتميز به الهنود ، وايضا نوع من الرقة والحرص على احترام الكائنات الحية وان كانت حشرات صغيرة تسعى فوق الارض .

وعرفت من نارايان أن عمله فى الحياة هو الطبخ فقط ـ انه مثلا لا يغسل العربية ولا يكنس البيت مهما اخذ من اجر اضافي . وليس ذلك لانه لا يحتاج الى هذا الاجر ولكن لان مثل هذه الاشغال الدنيا لها طبقة معينة أما هو فهو من طبقة أعلى . وهو لا يغسل الا ملابس الرجل . كان يمكنه ان يغسل ملابس زوجي . أما ملابسي أنا فهو يترفع عن غسلها لانى امرأة .

ان المجتمع الهندى لازال حتى الآن يفرق بشدة بين

الطبقات . اعلى طبقة هى طبقة البراهميين ، وأدنى طبقة هى طبقة الخدم ويسمونهم « طبقة الذين لا يلمسون » أو طبقة المنبوذين ، وهم هؤلاء الناس الذين يستنكر الناس لمسهم أو مصافحتهم لانهم فقراء وملوثون . حاول بعض الرواد وزعماء الهند من أمثال غاندى ونهرو أن يحاربوا هذه التفرقة الشديدة بين الطبقات وقد خفت حدة هذه التفرقة لكنها لم تختف تماما .

كان يفرض على اعضاء طبقة المنبوذين الا يقتربوا من اعضاء الطبقات الاخرى ، وأن يتحدثوا معهم من على بعد معين حتى لا تصل أنفاسهم الى أنوف الآخرين . وقيل لى أن بعض الاثرياء من البراهميين كانوا يستحمون اذا ماوقع عليهم ظل رجل من المنبوذين .

***

فى الصباح الباكر أصحو كل يوم على صوت صفارة مفزعة تشبه صفارة الانذار . وعرفت أنها فعلا صفارة انذار ، ولكنها تستخدم فى أوقات السلم كجرس عام يعلن للناس بدء اليوم . فكرة لا بأس بها للذين يعملون، ولكنها مزعجة أحيانا لمن لم يعتادها ، أو لمن سهر الليل مثلى ويرغب فى الراحة لوقت متأخر من النهار .

لكن الناس فى دلهى لا يسهرون مثل الناس فى القاهرة . معظمهم ينامون قبل العاشرة مساء . وهم يستيقظون مبكرا جدا . اذ سرت فى الشارع الساعة السادسة صباحا تجد الزحام والعجلات والموتوسيكلات وتسمع الراديو يشدو بالاغانى الهندية فى الدكاكين والبيوت .

لكنك لا ترى السيارات فى الشوارع الا بعد التاسعة فالعمل فى المكاتب الحكومية يبدأ فى العاشرة صباحا

وينتهى السادسة مساء . وهذا نظام انجليزى لازال قائما فى الهند . كان الانجليز يستيقظون مبكرا ويذهبون الى النادى لممارسة لعبة الجولف قبل ان تشتد حرارة الشمس ثم يأخذون دشا وحين يذهبون الى مكاتبهم تكون الساعة قد أصبحت العاشرة . معظم الهنود الموظفين فى الحكومة لايذهبون الى النادى صباحا ولا يلعبون الجولف ولكنهم يستيقظون الساعة السادسة صباحا ويجلسون في بيوتهم يشربون الشاى ويتحدثون حتى تقترب الساعة من العاشرة . قال لى بعضهم أن هذا النظام الانجليزى لا يتناسب مع جو الهند الحار والافضل ان يبدأ العمل السادسة صباحا قبل أن يبدأ الحر وللاستفادة من ساعات الصباح الضائعة .

***

الهنود يدخلون عليك بيتك فى اى وقت . قد تكون مسترخيا فى سريرك مثلا وتفاجأ بجارك ـ الهندى وقد دخل حجرة نومك . وهم أيضا يتركون أبواب بيوتهم مفتوحة دائما لتدخل اليهم فى اى وقت . انهم يذكروننى بأهل قريتى كفر طحلة ، وكم احب مثل هذه العادات البدائية التى تحطم الحواجز المصنوعة بين الناس ، لكنها تبعث فى النفس بعض الضيق خاصة فى تلك الاوقات التى يريد فيها الانسان أن يكون وحده او فى عزلة كاملة عن الآخرين . لكن الهنود عامة لا يعرفون العزلة عن بعضهم البعض اللهم الا اذا كان الواحد منهم من عشاق اليوجا . او من النساك البوذيين او الهندوس الذين يقضون حياتهم فى عزلة كاملة غارقين فى تأمل النفس الكلية الخالدة والوصول الى

تلك الحالة المسماة « النرفانا » حيث يتوحد الانسان مع نفسه ويدرك السعادة النهائية .

احدى صفات الهند المميزة هى التناقض . فالهند مليئة بالتناقضات شأنها شأن أى مجتمع ينمو من التخلف الى التقدم ، ويلتقط القيم الجديدة على حين تظل القيم القديمة موجودة وسائدة . ان بعض الناس فى الهند لازالو يقدسون التقاليد الاقطاعية القائمة على التفرقة بين الطبقات وسيادة الرجل على المرأة داخل البيت وخارجه . البعض الاخر لا زال مجتمعا أمويا تسود فيه النساء وترث البنات الارض ولا يرث الاولاد الذكور . البعض الآخر وبالذات فى نيودلهى ومدن الشمال قد تأثر الى حد كبير بالثقافة الغربية الانجليزية فترى البنات قد خلعن السارى وارتدين المينى جيب أو البنطلون الضيق والصبيان قد أطالوا شعورهم والرجال قد رشقوا البايب فى زاوية الفم ومزجوا اللغة الهندية باللغة الانجليزية . وفى ظل هذه الثقافات المتباينة تجد قيما أخلاقية متباينة تبدأ من أقصى التزمت وفرض الحجاب على النساء والعذرية على البنات الى أقصى التحرر وسيادة المرأة وحريتها فى اختيار زوجها بل أزواجها حيث تتزوج المرأة بعدد من الرجال ، وتنسب اليها أطفالها .

وايضا تجد هذه الاختلافات الشاسعة بين الاديان والعقائد فى الهند . بعضهم يؤمن باله واحد مسكنه السماء ، وبعضهم يؤمن بعدد لا حصر له من الآلهة ويقولون ان الله داخل كل انسان ، وبعدد الملايين من البشر توجد الملايين من الالهة . بعضهم ينكر وجود الاله لا فى السماء ولا فى الارض ويقولون أن الدين هو

الحياة وهو الاستمتاع بالحياة .

وتنعكس هذه الفلسفات المتباينة على المعابد الهندية بعض المعابد تشبه البيوت يدخلها الرجال والنساء والاطفال ويأكلون ويشربون ويلعبون داخل المعبد ، ويقولون أن المعبد وجد للحياة وأن العبادة هي هذه الحياة .

وبعض المعابد تحرم دخول النساء والاطفال ولا يدخلها الا الذكور ، لان الذكور هم الجنس المفضل الطاهر المقرب الى الآلهة ، أما النساء فهن الجنس الملوث غير الطاهر . والتماثيل والنقوش على جدران المعابد تختلف أيضا اختلافا شديدا . بعض التماثيل تصور الآلهة على انهم بشر يأكلون ويشربون ويرقصون ويمارسون الجنس بكل أوضاعه وأنواعه . وبعض التماثيل تصور الالهة على أنهم كائنات غير بشرية بغير جنس وبغير اعضاء وانما هي قوى غريبة الشكل تبعث على الدمار او الفزع أو الموت .

بعض الآلهة لها ملامح انسانية باسمة محبة للحياة والخير ، وبعض الالهة لها ملامح شيطانية يتصاعد الشرر والنار من عيونها البشعة .

فتحت هذه التناقضات عقلى على حقائق كثيرة عن طبيعة هذا المخلوق الذى اسمه الانسان . أحسست وأنا فى الهند أزور المعابد وأشهد بعينى تطور البشرية منذ العصور البدائية حتى اليوم كأنما عالم جديد ينفتح أمام ذهنى وبدأ ضوء جديد يضىء أركانا كانت مظلمة فى رأسى .

ـ مهما قرأنا عن التاريخ ومهما درسنا نظريا عن تطور الاديان وتطور الحياة البشرية والانسان فلا يمكن

أن يدرك الانسان الحقائق كما يدركها حين يزور الهند. ويتنقل بين أجزائها المختلفة المتباينة ، ويعايش قبائلها البدائية فوق الجبال ، وأسرها الحديثة في المدن الكبيرة مثل بومباى ودلهى وكالكاتا . ان جذور الانسان واحدة وجذور الاديان واحدة وكم تتشابه حياة البشر حين يصل المرء الى اعماقها وجذورها وكم يشتد الاختلاف بخروجنا الى السطح والمشاهدات السطحية .

كنت في سريرى أقرأ رواية هندية . كانت الساعة الواحدة صباحا حينما سمعت صوتا غريبا مزعجا يدق أرض الشارع . فتحت الشرفة ورأيت رجلا هنديا عجوزا يسير بخطوات بطيئة في يده عصا غليظة ، وفي كل خطوة يدق الشارع بعصاه . وظننت انه «المسحراتى» الذى يطوف ببعض الشوارع في مصر أثناء شهر رمضان ليوقظ الناس ليتناولوا طعام السحور . وسألت زوجى: هل هذا مسحراتى وهل يصوم الهنود رمضان ايضا ؟ .

وضحك زوجى لهذا السؤال وقال — ليس هذا مسحراتى . انه الخفير الذى يشرف على الامن في هذه المنطقة .

وسألت : ولماذا يدق الارض بذلك الصوت العالى ؟

وقال زوجى : ليعرف سكان البيوت أنه يقظ وإنه ساهر بحمايتهم .

قلت : ولكنه بهذا الصوت يعلن للصوص عن الشارع الذى يحرسه فيسرعون الى شارع آخر حيث يسرقون الناس وهم مطمئنين الى عدم وجود الحارس .

وضحك زوجى قائلا : هذا بالضبط ما يحدث . ان عصا هؤلاء الحراس لا تفعل شيئا سوى ازعاج

النائمين أو تنبيه اللصوص الى مكان الحارس .
وفى اول الشهر جاء هذا الحارس الى شقتنا وطلب اجره الشهرى ، وعرفت سببا آخر لتلك العصا التى تدق ليلا . انها تقول للناس : أنا أقوم بواجبى كل ليلة واستحق الاجر الذى تدفعون .
الفقر فى الهند يدفع الكثير من الناس الى ابتكار مهن غريبة للحصول على اجر اى أجر . من المناظر المألوفة فى مدينة نيودلهى أن ترى هؤلاء المكوجية الذى يجر الواحد منهم عربة يد خشبية يوقفها امام اى بيت . ويهبط الخادم بصرة ملابس ويبدأ المكوجى عمله بنشاط حتى ينتهى من ملابس هذا البيت فيجر عربته ويتنقل الى بيت آخر .. وهكذا .. حين تسير فى أى شارع فى الصباح تجد هؤلاء المكوجية المتنقلين امام ابواب البيوت يكوون الملابس فوق عرباتهم الخشبية الصغيرة .
فى أى وقت من النهار قد يدق جرس بيتك ، رتجد ذلك الرجل الهندى الذى جاء يعرض عليك خدماته دون أن تطلبها . انه قد يقول لك أنه مستعد لان يشترى أثاثا جديدا لبيتك اذا كنت من سكان الحى القدامى . أما اذا كنت ساكنا جديدا فانه يأتى اليك ليؤثث لك شقتك . وأحيانا يعرض عليك أن يبحث لك عن شقة أخرى مع انك لم تقل له أنك تريد الانتقال من شقتك . وهكذا يتفنن بعض الهنود في الوسائل التى يقدمون بها خدماتهم من أجل الحصول على أجر أو ربح ما . وكم من مرة يدق جرس الباب « وبالذات فى يوم اجازتك » ويظهر احد هؤلاء الرجال ليعرض عليك خدمة لم تطلبها ولم تفكر فيها .

فى مرة من المرات دق الجرس رجل سمكرى ، واكتشفت أثناء وجوده أن احدى الحنفيات تحتاج الى جلدة حتى لا يتسرب منها قطرات الماء . واخرج الرجل أدواته العديدة « تشبه أدوات الطبيب الجراح » وأخذ يفحص الحنفية طويلا ثم قال فى النهاية انها لم تعد تصلح ولابد من تركيب واحدة جديدة . وتذكرت الرجل السمكرى فى مصر الذى كلما أطلبه ليضع جلدة فى الحنفية يقول لى انه لابد من تركيب حنفية جديدة وبالطبع يطلب ثمنا باهظا . تذكرت ذلك وقلت للسمكرى الهندى : لا ، هذه الطريقة انا اعرفها من مصر . وضحك الرجل الهندى لاننى اكتشفت حيلته ووضع الجلدة فى الحنفية نظير اجر بسيط .

***

أحب التجول فى الاحياء الشعبية واعشق السير فى حواريها والتفرج على الدكاكين الصغيرة وزحام الناس والاصوات والروائح القوية المنبعثة من كل مكان . ولكننى حين أسكن أفضل السكن فى حى هادىء بعيد عن الاصوات والزحام . وقد شاركت زوجى شقته الصغيرة فى ذلك الحى الهادىء « ريفنس كولونى » . لكن الهدوء هنا لا يعنى الهدوء الكامل ، اذ ما أن تشرق الشمس فى الصباح الباكر حتى تهب العصافير من أوكارها فوق الشجر وتبدأ تشدوا بأصوات حادة عالية يشترك فيها عدد هائل من العصافير . فى مصر حينما كنت أسمع عصفورا يشدو يطرب قلبى من الصوت الرقيق العذب، ولكن حينما يصبح هذا الصوت الرقيق العذب مضاعفا مئات المرات فانه يفقد رقته وعذوبته ويصبح كصراخ النسور . ان أعذب الاصوات تصبح مزعجة اذا زادت

عن الحد . والعصافير هنا فى الهند كثيرة وجريئة واحيانا تبلغ جراتها أن تطير فوق رأسي وتخطف الخبز من يدي . ان جراتها لا تقل عن جراة البقر الذى يرعى فى الشوارع ويسير بين العربات السريعة بغير وجل ولا خوف . وسبب ذلك هو أن الهنود يحترمون كل الكائنات الحية ولا يتعرضون لاى نوع منها بأى اذى .

حينما تكف العصافير قليلا عن الصياح يبدأ صياح الباعة الجائلين الذين يطوفون بالبيوت حاملين فوق رءوسهم أو فوق عرباتهم مختلف انواع الخضروات أو الفاكهة أو اية سلعة أخرى . وايضا يطوف رجل الروبابيكيا مناديا : كبادى وله ! « وله » باللغة الهندية تعني « ولد » أو « رجل » وحينما يكف الباعة قليلا عن صياحهم يأتى ذلك الرجل ومعه القرد أو الثعبان ويطوف بالبيوت مغنيا الاغانى الهندية أو نافخا فى المزمار ويرقص القرد على النغمات ويقوم الثعبان بألعاب بهلوانية ، وتطل النساء من شرفات البيوت ويقذفون له بعض النقود . وأحيانا لا يكون المغنى رجلا واحدا وانما فرقة بأكملها من المغنيين بالمزامير ودقات الطبول وحركات القردة والثعابين وقد يصاحبهم فى جولاتهم فيل يركبه رئيسهم . أو ذلك الحاوى الذى ينام فوق المسامير ويأكل النار ويطير فى الهواء فوق ملاءة كالبساط السحرى .

لقد وجدت انني لست فى حاجة دائما الى أن أخرج من بيتى لاتعرف على الهند — لان الهند تأتى اليك بنفسها حتى باب بيتك . لكن ليس هذا الا وجها واحدا من وجوه الهند وكم تحتوى الهند على وجوه متعددة

متباينة .

كنا في شهر يناير ، والجو فى نيودلهى كالربيع فى مصر . الشمس دافئة حنون . ونسمة الهواء منعشة لا هى حارة ولا هى باردة . لا تكاد تحس ملمسها على جسمك . كأنما هى من درجة حرارة الجسم . كنا ننتظر فى مطار « دلهى » الطائرة التى ستقلنا الى جنوب الهند حيث منطقة مزارع الشاى . زوجى يقرأ جريدة التايمز الهندية وأنا أرقب حركة الناس فى المطار . المطارات بصفة عامة كالعواصم ، أمكنة عالمية تختلط فيها كل الاجناس وكل الالوان وكل اللغات . بمعنى آخر هى أمكنة بغير جنس وبغير لون وبغير لغة . ولهذا السبب تبدو جذابة وقبيحة فى نفس الوقت . جذابة لانها تحطم كل الفوارق بين الاجناس والالوان واللغات والطبقات ، وقبيحة لانها بغير شخصية تذوب فيهـا الوجوه « بما فى ذلك وجهى أنا » فى وجه واحد ليس له ملامح معينة .

على أن مطار « دلهى » له شخصية مميزة . لا أدرى لماذا . ربما بسبب النساء الهنديات ذوات « السارى » والنقطة الحمراء فى منتصف الجبهة . وأيضا أبواب المطار الزجاجية عليها نقطة حمراء فى منتصف كل باب لم أكن أعرف سر تلك النقطة الحمراء لكنى عرفت من بعد أنها بقايا عادة هندية دينية ثم أصبحت نوعا من الزينة للنساء أو الرجال فى بعض مناطق الهند .

***

حلقت بنا الطائرة الهندية فى السماء الشاسعة الممتدة فوق ارض الهند المترامية الاطراف . حجم الهند يساوى حجم مصر ٣٦ مرة وتطير بك الطائرة بالساعات لتصل من بلد الى بلد داخل الهند .

هبطت الطائرة في مدينة « مادراس » جنوب الهند وعرفت أنني أصبحت عن خط الاستواء ، وتحت قرص الشمس مباشرة بسبب تلك الحرارة الشديدة والرطوبة التي تميز جو المناطق الاستوائية . تخففت من بعض ملابسي وبدأ العرق يتساقط من وجهي . رأيت الوجوه في جنوب الهند شديدة السمرة تشبه وجوه الناس في أفريقيا الاستوائية لولا أن تقاطيع الوجه هنا دقيقة ، الانف مرتفع دقيق ومدبب ، والشفتان رقيقتان والشعر أسود ناعم وليس مجعدا ، والعينان تلمعان في الوجه الاسمر الجذاب .

سرنا على شاطىء بحر مادارس وهو جزء من المحيط الهندي ، ولم ينجح هواء البحر في تخفيف حدة الحر الا قليلا . لست ممن تعودوا الحرارة الشديدة مع الرطوبة الشديدة ولهذا أشعر بنوع من الاختناق في المناطق الاستوائية وتبدو لي الارض كأنما تحولت الى قطعة من جهنم بغير نقطة هواء .

أسرعت ناحية السيارة التي ستقلنا الى مناطق مزارع الشاي فوق الجبل . هدأت أنفاسي قليلا وجف العرق حين بدأت السيارة تصعد فوق الجبل . أصبح الهواء منعشا محملا برائحة الاشجار والزهور الاستوائية من كل نوع ولون . السيارة الهندية الصغيرة تتبع الطريق الجبلي اللولبي وعند كل ثنية في الطريق يدوس السائق الهندي الاسمر على البوق ، فالمساحة ضيقة ومن السهل أن تصطدم العربة بأي من هذه اللوريات التي تهبط الجبل محملة بالشاي .

لاحظت أن معظم هذه اللوريات تحمل اسم « تاتا » وسألت من هو « تاتا » فعرفته أنه مليونير هندي

يملك اللوريات والفنادق وعدد من الشركات والمشروعات التجارية والصناعية فى الهند . فى كل مكان فى الهند لابد أن ترى أسم « تاتا » فوق أى شيء . لازالت ثروات الهند الطائلة تذهب الى جيوب حفنة قليلة من الناس بعضهم هنود وبعضهم انجليز . رغم استقلال الهند الا أنها لا تزال جزءا من « الكومنولث » ولا زال أصحاب الارض وأصحاب الراسمال يدعمون النظم الاقطاعية والرأسمالية ويحاربون بكل قوة أى اتجاه اشتراكى .

والاحزاب فى الهند متعددة من اقصى اليمين الى الى اقصى اليسار . ولكل حزب صحفه ومنابره واشخاصه ووسائله .

الهواء يزداد برودة وجفافا كلما صعدت بنا السيارة فوق الجبل . اختفت الاشجار الكثيفة التى كانت تكسو الجبل وبدأت أشجار الشاى القصيرة المستوية تظهر كالبساط الاخضر الممدود صاعدا نحو الافق . عرفت أن شجرة الشاى شجرة غريبة جدا ، ولها مزاج خاص ولها شروطها الخاصة لتنمو وتزدهر . انها تحتاج الى أرض معينة ، وارتفاع معين فوق سطح البحر لا يقل عن اربعة آلاف قدم ودرجة حرارة معينة ، ودرجة رطوبة معينة ، وقدر من الشمس معين ، وقدر من المطر معين وقدر من الظل معين . أفضل أنواع الشاى تنمو فوق الجبل على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

وقد وصلت بنا السيارة الى هذا الارتفاع عند المدينة المسماه « كونور » ورأيت مساحات هائلة من الجبل وقد تحولت كلها الى بساط أخضر هو أشجار الشاى

القصيرة التى قلمتها يد الفلاحات . لكن هناك شجرة طويلة لا تشبه شجرة الشاى قد نمت بنظام معين بين أشجار الشاى . ظننت انها شجرة برية نمت وحدها لكنى عرفت أنها زرعت بين أشجار الشاى ليحمى ظلها اوراق الشاى من حرارة الشمس القوية .

شجرة الشاى قد تعيش مائة عام ، تعطى خلالها قدرا كبيرا من أوراق الشاى ، تأتى الفلاحات الهنديات السمراوات كل صباح وعلى ظهورهن تلك السلال الكبيرة بأصابعهن السريعة المدربة يقطفن الأوراق الناعمة الملوية . ان زراعة الشاى وجمعه وصناعته فى الهند عمل نسائى فى معظمه ، ومن يتبع الشاى منذ أن يزرع فى الحقل الى أن يصبح فنجانا من الشاى نشربه يدرك أن وراء هذه المتعة من هذا الفنجان آلاف من الناس « أغلبهم نساء » الذين يعملون ويكدون منذ شروق الشمس حتى غروبها نظير بضعة روبيات هندية لا تكفى الا لسد الرمق .

بدأت زراعة الشاى وصناعته على يد المستعمرين الذين حملوا الى الجبال « ضمن ماحملوا » أعدادا من فقراء الهند ، جعلوهم أشبه بالعبيد . بعد استقلال الهند تحرر هؤلاء العبيد لكنهم لازالوا يبيعون جهودهم نظير اجور ضئيلة ، ولا يزال أبناؤهم وبناتهم محرومين من التعليم وليس امامهم من مستقبل الا أن يرثوا المهنة عن امهاتهم وآبائهم .

قبل أن تبلغ البنت العاشرة تذهب مع أمها الى الحقل تعمل فى مزارع الشاى ، أو الى المصنع لتشارك فى صناعة الشاى . فى بعض القرى يعمل الاولاد والرجال أيضا . ولكن هناك مناطق لا يعمل فيها الا النساء

والبنات أما الرجال فهم الجنس الاسمى العاطل الذى يتزين ويرقص فى الحفلات الدينية ويجلس طول النهار أمام البيوت يدخن ويشرب ويلعب الطاولة أو النرد .

***

فى صباح باكر ركبت السيارة الصغيرة الى جوار المترجم الهندى . كنت قد طلبت أن أتحدث الى هؤلاء الفلاحات اللائى يعملن ويعلن أطفالهن وأزواجهن العاطلين هؤلاء النساء يتكلمن اللغة الهندية المحلية . وكان لابد أن آخذ معى مترجما من أبناء المنطقة ويعرف اللغة الانجليزية .

كان الصباح مشرقا ، لكن سرعان ما تجمعت السحب الرمادية فوق قمم الجبل وبدأ المطر ينهمر . انهمار المطر فى تلك المناطق الاستوائية الجبلية يجعل السماء كالمحيط الذى يفرغ ماؤه فوق الجبل بغير هوادة ولا رفق .

سألت الشاب الهندى : ما اسمك ؟

قال : اسمى بوجان .

سألت : واسم أبيك ؟

قال : لا أحمل اسم ابى . أحمل اسم أمى . وأمى اسمها « برافاتى » على اسم الآلهة برافاتى زوجة الاله شيفا .

قلت : ولكن هل كل الناس هنا يحملون اسماء امهاتهم ؟

قال : لا . معظم الناس هنا لا يحملون لا اسم الام ولا اسم الاب . انهم يحملون اسمهم فقط . أما اسم الاب فلا يكون الا حرفا واحدا . وتدخل سائق السيارة قائلا : أنا اسمى م . نارايان . ان « م » هو أول حرف

من اسم أبى أما اسمى فهو « نارايان » وهو اسمى الاساسي واسم أسرتى ، وهذا عكس مايفعله الانجليز ، اذ أن الاسم الاساسى عندهم هو الإسم الاخير الذى هو اسم الاب أو الجد ، أما اسم الشخص نفسه فلا يكون الا الحروف الاولى .

سألته : وأيهما أفضل عندك ؟

قال : طبعا أن يكون اسمى الاساسى والاخير هو اسمى أنا وليس اسم أبى أو أمى أو جدى .

وضحكت وانا أسأله : وهل تريد أن يحمل أولادك اسمك من بعدك ؟

قال بحماس : لا . كل ولد من أبنائى أو بنت من بناتى يجب أن يحمل اسمه هو اساسا .

وتدخل المترجم الشاب قائلا : كثير من الرجال هنا لا يحرصون على مسألة النسب هذه كما هو الحال فى شمال الهند مثلا ، لان المرأة هنا فى أحيان كثيرة تتزوج أكثر من رجل ، وأحيانا تتزوج خمسة أو ستة أو سبعة من الاخوة امرأة واحدة . ان نسب الاطفال الى الاب هنا ليس شيئا هاما ولا يفكر فيه الرجال كثيرا .

سألت : وهل تحظى المرأة هنا بمكانة عالية ؟

وقال : نعم ، فى بعض المناطق تعمل المرأة وتعول أطفالها وأزواجها هذا اذا لم يسيطر عليها الرجل ويستولى على أجرها كما يحدث فى بعض مناطق مزارع الشاى .

توقفت بنا السيارة أمام بيت صغير أنيق بنى على على هضبة مرتفعة تحوطه من جميع الجهات حديقة جميلة مليئة بالزهور الاستوائية النفاذة العطر وأشجار

المانجو والجوافة وفواكه أخرى خاصة بهذه المنطقة .
رحب بنا رجل هندي هو المشرف الادارى على هـــذه المزرعة ، التى تملكها شركة هندية . مساحة المزرعــة ٩٠٠ فدان ممتدة كالدرجات الخضراء من الســـفح الى أعلى الجبل . يعمل فيها ١٩٠ عاملة وعامل ، معظمهم من العاملات . طلبت أن أذهب الى العاملات لاحدثهن لكن المدير قال لى أن الصعود اليهن صعب بسبب ارتفاع الجبل وتدرج الارض .

وسألته قائلة : وكيف تصعد العاملات ؟

قال : لقد تعودن ذلك .

قلت : انا امرأة رياضية واستطيع أن اصعد .

صحبنى المترجم الشاب وصـــعدنا الى فوق بين صفوف أشجار الشاى . بعد بضعة دقائق أصـــبحت الهث وابتسم الشاب الهندى وهو يقول : ان العــاملة من هؤلاء الفلاحات تصعد وتهبط هذا الطريق الشاق عدة مرات فى اليوم وفوق ظهرها سلة كبيرة تجمع فيها اوراق الشـاى ، وعند الغروب تهبط الطريق وتســير حاملة سلتها حتى باب المصنع حيث تفرغ حمولتها وتنال أجرها حسب كمية ما جمعت .

وصلنا الى أحد صفوف الفلاحات ، وقد وقفن بنظام معين حسب صفوف أشجار الشاى ، فوق ظهر الواحدة السلة الضخمة ، وأصابعها تجمع وريقات الشـــاى العلوية بسرعة شديدة ودقة غريبة نظرت الى عيــون الفلاحات فى دهشة واخذن يتأملن ملابسى ووجهى ، ثم أخذن يضحكن ويتحدثن بلغة لا أفهمها اســـمها « التامل » .

واخترت واحدة منهن لها عينان تلمعان بذكاء وحيوية

وسط وجهها الاسمر النحيف وسألتها :
ما اسمك ؟ قالت : أسمي ساروجا .
سألتها : كم عمرك ؟
قالت : سبعة عشر عاما .
قلت : متزوجة ؟
قالت : نعم .
لاحظت أن بعض النساء يرتدين « ساري » كاملا ويعضهن يرتدين نصف ساري فقط . وعرفت أن المراة المتزوجة هي التي ترتدي الساري الكامل . وهن يتزوجن في سن مبكرة جدا ، ويعملن طول النهار وحين يعدن الي البيت آخر اليوم يطبخن الطعام وينظفن البيت ويغسلن .
وسألت ساروجا : هل ذهبت الي المدرسة ؟
قالت : نحن لا نذهب الي المدارس .
وضحكت النسوة من سؤالي وقالت احداهن : نحن نعمل فقط .
وسألت ساروجا : وماذا يفعل زوجك ؟
قالت : يعمل معي في المزرعة .
قلت : هل لك أطفال ؟
قالت : طفلان .
قلت : انت لا تزالين صغيرة . ياترى كم من الاطفال سيكون لديك حين تصبحين في الثلاثين ؟
قالت ساروجا : لن أنجب غير هذين الطفلين لان زوجي ذهب الي الطبيب وأجرى له عملية التعقيم .
وعلمت من مدير المزرعة أن المشرفين الصحيين على المزرعة ينصحون العمال والعاملات بتحديد النسل حتى لا يزيد عدد أطفال الاسرة الواحدة عن اثنين أو ثلاثة ،

وحتى لا تنشغل الام بأطفالها عن أعمال المزرعة . وفى المزرعة دار حضانة للأطفال حتى يشبوا ويصلح الواحد منهم للعمل فى الحقل أو المصنع . انها مستعمرة كاملة من الرجال والنساء والاطفال نظمت حياتهم بدقة الساعة من أجل أن يخدموا شيئا واحدا هو انتاج الشاى . اما الربح الذى يعود من هذا الشاى فلا يعود اليهم وانما الى هؤلاء أصحاب المزرعة وأصحاب المصنع .

مصنع الشاى لا يختلف عن المزرعة فى ذلك النظام الدقيق المحكم الذى يعرف كيف يأخذ من العاملة أو العامل أقصى الجهد واكبر الانتاج نظير أقل اجر وأقل حقوق . وكما تحتاج شجرة الشاى لمزاج وشروط خاصة لتنمو وتزدهر كذلك تحتاج الاوراق الخضراء داخل المصنع الى شروط خاصة لتتحول الى ذلك الشاى الذى نشربه . عملية طويلة تبدأ بتجفيف الاوراق الخضراء بتعريضها لتيار من الهواء الجاف . هذا التجفيف له درجة معينة دقيقة بحيث تجف الاوراق وتظل محتفظة بمرونتها ولا تتكسر . ثم توضع اوراق الشاى الجافة فى آلة معينة لتلف كل ورقة على حدة على شكل اللوزة . ثم تنتقل الى آلة أخرى حيث تكسر الاوراق ليسيل منها سائلها : ثم تنتقل الى آلة اخرى ليعاد السائل اليها مرة أخرى . ثم عملية التخمير التى يقوم بها رجل خبير يعتمد فى عمله على أنفه الذى تدرب لسنوات طويلة على قياس الدرجة المثلى لتخمير الشاى .

من حين الى حين يتشمم هذا الخبير رائحة الشاى المخمر ثم يوقف عملية التخمير عند درجة معينة . سألت مدير المصنع : الا توجد آلة قادرة على هذا العمل بدلا

من أنف الخبير ؟ وقال المدير الهندى : بالطبع هنـاك آلات حديثة حلت محل أنف الانسان ، ولكنا هنـا لازلنا نفضل أنف هذا الخبير لانه عجوز ومدرب وانفه اكثر دقة من الآلة .

ولا ادرى كيف سررت من هذه الحقيقة ، فقد أكـد هذا الكلام ايمانى بأن حواس الانسان اذا دربت تكون اكثر دقة وكفاءة من اية آلة . فالانسان هو الذى اخترع الآلة ، لكن كم تنسى المجتمعات الصناعية المتقدمة هـذه الحقيقة ويضعون الالة فوق الانسـان ويجعلون البشر عبيدا لها .

بعد عملية التخمير يجفف الشاى ليتخلص من البلولة التى تفسده اذا حفظ طويلا ثم يمر بعد ذلك بمراحـل النخل وتنقية الشوائب ، ثم يعبأ فى الصناديق الخشبية ويرسل الى شركات التـوزيع ، حيث يخلط بأنواع متعددة من الشاى ، ويعبأ فى العلب الصـغيرة التى نشتريها من السوق .

دهشت وانا أتتبع هذه الخطوات الطويلة الدقيقة ، ورأيت هذه الوجوه السمراء النحيلة من وراء الآلات تعمل بغير توقف . ورأيت أجساد الاطفـال النحيلة الشاحبة وهى تتطلع الى الجبل تغطيه أشجار الشاى ، يدركون أن مصيرهم كمصير آبائهم وأمهاتهم فى الحقـل أو المصنع . رأيت البنات الصغار بأقدامهن المشققـة يصعدن الجبل وفوق ظهر كل واحدة حمل كبير ينثنى تحته جسدها الهزيل . دخلت بيوت المزارعين والمزارعات ورأيت انهم ينامون على الارض أو على شىء اشـبه بالبرش القديم . دخلت بيت المدير الانيق وقـدم لى فنجان من الشاى الفاخر فوق صينية من الفضـة ،

كاد الشاي الفاخر أن يقف في حلقي . وحينما لاحظ المدير انني ابتلع الشاي بصعوبة سألني قائلا : الا يعجبك الشاي ؟ انه شاي درجة أولى .

قلت : هل هناك شاي درجة أولى ودرجة ثانية ؟

قال : نعم بالطبع . الشاي درجة أولى هو الذي ينقى من الشوائب جيدا . وهذا لا يباع في السوق وانما يرسل بناء على طلبات خاصة الى الملوك والاباطرة ورؤساء البلاد .

سألت : والشاي درجة ثانية ؟؟

قال : انه الشاي الذي يخلط بانواع أخرى من الشاي وتظل به بعض الشوائب اما الشاي الدرجة الثالثة فهو الذي لا ينقى .

قلت : وهل هناك درجة رابعة ؟

قال : نعم . ويسمى تراب الشاي وهو التراب الذي يبقى بعد أن ينخل الشاي . وهذا هو الشاي الذي يباع في السوق المحلي بالهند .

قلت بأسى : وهذا هو مايشربه هؤلاء الذين يزرعون الشاي والذين يصنعونه ؟

قال دون أن يدرك معنى سؤالي : نعم ؟

وهكذا علمت أن هؤلاء النساء والرجال الذين يعملون طول النهار في مزارع الشاي ومصانعه لا يتذوقون طعم الشاي الذي يزرعوه ويصنعوه بأيديهم وعرقهم ودمهم .

***

الجزء الثاني العدد القادم

فهرس

صفحة

روايات الهلال تقدم

بنت من شبرا

بقلم : فتحى غانم

تصدر : ١٥ فبراير سنة ١٩٨٦

العدد القادم من كتاب الهلال

الجزء الثانى من :

رحلاتى حول العالم

بقلم الدكتورة : نوال السعداوى

يصدر : ٥ مارس ١٩٨٦

رقم الايداع ١٨٥١ / ٨٦

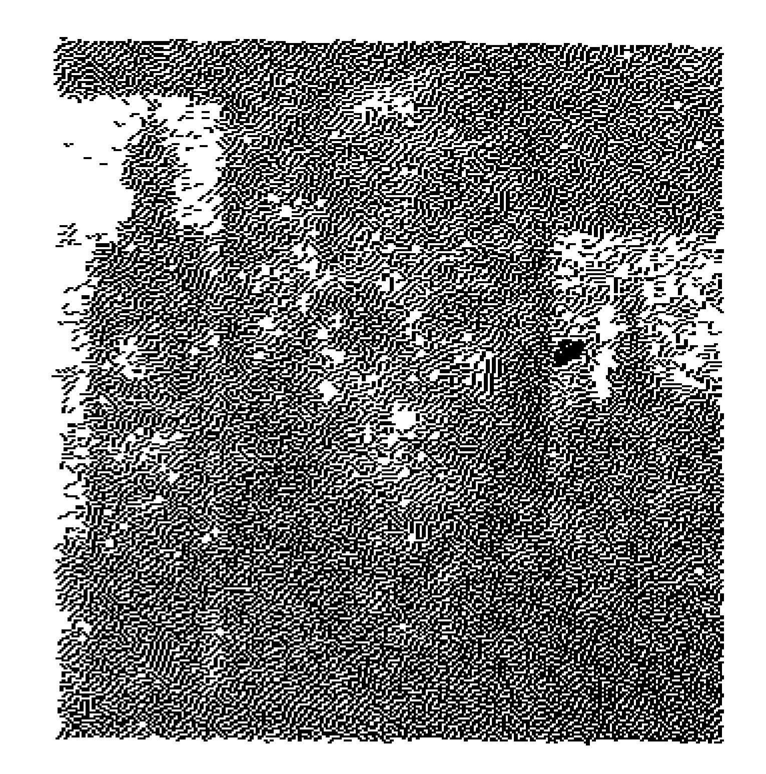
الترقيم الدولى ٧ - ٢١٣ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش

سوريا ٢٢٠٠ ق . س ، لبنان ٢٢٠٠ ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠ فلس ، العراق ٢٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢٠٠٠ مليم ، الخليج ١٢٠٠ فلس ، الصومال ١٥٠ بني ، لاجوس ١٥٠ بني ، عدن ٢٠٠٠ سنت ، لندن ٢٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٦٠٠ سنت ، البرازيل ٧٠٠ سنت ، استراليا ٧٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سوداني ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، غزة والضفة ١١٠ سنت ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشماليه ٢٠ ريالا ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة



هـذا الكتاب

بأسلوبها الخاص وقلمها المميز الذى جعلها واحدة من أبرز كاتبات العالم تقدم الدكتورة نوال السعداوى فى هذا الكتاب نوعا جديدا من أدب الرحلات . ترى الكون والتاريخ وحدة لا تتجزأ ، وتجمع بين المعنى واللفظ والعام والخاص والماضى والحاضر فى كائن واحد شبه عضوى . وتخلق على الورق حياة مترابطة لا انفصال فيها بين علم وفن أو طب وسياسة أو رجل وامرأة .

إنها رحلاتها حول العالم خلال العشرين عاما الماضية شرقا وغربا شمالا وجنوبا . وبقدر ما ترى الأوطان الأخرى ترى الوطن فى ضوء جديد .

فى هذا الكتاب تجول بنا الدكتورة نوال السعداوى من بلد الى بلد ومن قارة الى قارة من آسيا الى أوربا والأمريكتين تكشف بقلمها كمشرط الجراح عن المعنى العميق لظاهر الأشياء ، تبحث فى التاريخ والدين والعلم ، وتنتقل من الفلسفة الى الطبيعة والمجتمع وصراعات النفس .

تدخل المعابد والأديرة والحانات وبيوت الليل .

تقدم فى هذا الكتاب مفهوما جديدا لمعنى الرحلة والسفر ، ورؤية واسعة الأفق لمعنى الوطن كتاريخ وجغرافيا وانسان ، وليس مجرد حدود المكان . انه عمل مبدع خلاق تثرى به المكتبة العربية الى جوار مؤلفاتها الأخرى المتعددة الجوانب .

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من عمل طويل متكامل .

ويصدر الجزء الثانى فى العدد القادم .

الجزء الأول

١٠٠ قرش

كتاب الهلال

رحلاتي حول العالم

الدكتورة نوال السعداوى

...سلة
...قافية
...هرية



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٣ - جمادى الثاني ١٤٠٦ - مارس ١٩٨٦

NO 423 - MARCH - 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحواله بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

رحلاتى حول العالم

بقلم

الدكتورة نوال السعداوى

دار الهلال

الجزء الثانى

مقدمة

فى هذا الجزء الثانى من رحلاتها تواصل الدكتورة نوال السعداوى جولاتها فى بلاد العالم . وقد حملتنا معها فى الجزء الاول الى أماكن مختلفة فى أوروبا وآسيا وعشنا معها رحلتها الاولى الى الجزائر بعد الثورة ، وايران قبل الثورة ، وحياتها مع الفدائيين الفلسطينيين فى الاغوار على حافة نهر الاردن . وسافرنا معهـا الى النصف الاخر من الارض فى أمريكا ، وأول رحلة لها الى روسيا ومؤتمرات النساء فى شمال أوروبا ،ومتاحف باريس ولندن .

وتواصل الدكتورة نوال السعداوى بأسلوبها الخاص وقلمها المميز رحلتها الطويلة داخل الهند ، ذلك العالم الشاسع ، ثم تأخذنا معها الى عوالم أخرى فى قارة افريقيا ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . نشهد منابع النيل وبحيرة فيكتوريا ، وندخل الى الحبشة بعد الثورة، ونتابع معها الرحلات حتى جزيرة العبيد على الساحل الغربى .

ندخل معها الى المكان والانسان فى آن واحد ، ونربط بين التاريخ والسياسة والاداب دون فاصل . تلتقى بالانسان العادى البسيط بمثل مانلتقى بأنديرا غاندى وكبار الحكام .

انه رحلة ممتعة داخل النفس الانسانية بمثل ما هو رحلة الى العالم البشرى الواسع .

رحلة الهند

في الهند لم أشعر انني غريبة في بلد غريب . امشي في الشوارع وانظر الى الوجوه والسماء والارض والمباني والآثار فانسى انني في الهند واظن انني في مصر . بل انني رايت مصر في الهند أكثر مما كنت أراها وانا في مصر . عرفت عظمة تاريخ مصر الذي لم أعرفه جيدا في مصر . اقترابنا من الشيء يجعلنا دائما عاجزين عن رؤيته جيدا ، ولابد من مسافة بيننا وبين الاشياء لنراها ونعرفها .

رايت في الهند جذوري ، طفولتي ، ماضي وحاضري ولاول مرة تتلاشي غربتي مع نفسي ، ويحدث نوع من الاتصال بين الحلقات المتقطعة في نفسي ووطني .

أعظم ما في الهند أنها توحي للانسان بأفكار وأحاسيس جديدة ، انها تقوى الجزء العقلي والنفسي في الانسان . تجعله أكثر اقترابا من نفسه الحقيقية . لهذا شعرت في الهند بسعادة غريبة . كالذي يكتشف نفسه من جديد ، ويعثر على خصوبة جديدة في عقله وأحاسيسه ويكتسب تلك القوة النفسية المجهولة والمعلومة التي تجعله قادرا على الخلق والابتكار .

هذه هي ميزة الهند التي لم أجدها في بلد أخرى ،

وكم من بلاد زرتها فشعرت بالغربة مع نفسي والناس ، بل كم شعرت بالغربة عن نفسي والناس في وطني احيانا .

اعطتني الشهور التي عشتها في الهند وقتا كافيا لاقرأ شيئا من الادب الهندي . كان في خطتي ان التقي بعدد من الادباء والاديبات ذوي الانتاج الجيد . ولم تكن هناك من وسيلة لاختار هؤلاء سوى أن اقرأ بعض الروايات والقصص ، فاذا ما اعجبني شيء اكتب اسم المؤلف او المؤلفة . كنت في رحلاتي السابقة اسأل أهل البلد عن أدبائهم واديباتهم . ويذكروا لي بعض الاسماء المشهورة . وعلمتني التجارب أن هؤلاء لم يكونوا دائما افضل الادباء أو - الاديبات . كأنما الشهرة تتناسب تناسبا عكسيا مع جودة الانتاج الادبي .

لم أكن متحمسة للقاء الادباء الرجال . ليس ذلك لكونهم رجال . ولكن لانني وجدت بين انتاج النساء ما استوقفني . وبمثل ما استوقفني كفاح المرأة الهندية في السياسة ونشاطها في الاحزاب استوقفني أدب المرأة الهندية . وبمثل ما أعجبت بشجاعة انديرا غاندي وقوتها في حسم الامور اعجبت بشجاعة المرأة الهندية التي تمسك القلم وتكتب .

والمرأة التي تكتب في الهند تتناول جميع القضايا في بلدها وفي الحياة تحليلا ونقدا بغير خوف ولا حرج لا شيء أمامها اسمه موضوع حساس ، لا في السياسة ولا في الدولة ولا في الحب ولا في الجنس ولا في العمل . كل شيء في الهند وفي العالم أمام قلمها قابل للعرض والكشف .

احدى الكاتبات واسمها « ساهجال » كتبت تنقد الحكومة . وتنقد سياسة انديرا غاندي وبصرف النظر

عن سلامة رايها أو عدم سلامته فانها استطاعت أن تعبر عن نفسها ، ولم تستطع الحكومة أن تمنعها . بل والاهم من ذلك ان شيئا لم يحدث لها وظلت صداقتها باندير غاندى كما هى . وساهجال تكتب فى السياسة . وتكتب ايضا روايات وقصص . وفى روايتها الاخيرة بعنوان « هذا الظل » تكشف حياة المراة المطلقة فى الهند وتنقد كثيرا من التقاليد التى تحيط بالمرأة الهندية .

شربت الشاى الهندى فى بيت ساهجال فى دلهى ، وحدثتني عن حياتها ، وعن علاقتها بالزعيم نهـــرو وعرفت انها ابنة شقيقة نهرو وانها تاثرت الى حد كبير بشخصية نهرو لانها نشأت فى أسرته .

احدى الكاتبات فى الهند اسمها « كاملا داس » تمسك القلم كأنه مشرط فى يد جراح ، تشق اللحم وتكشف النخاع . تكتب عن حياتها بالشجاعة نفســها التى تكتب بها عن حياة الاخرين آخـر كتاباتهــا هى مذكرات حياتها . تقول عن نفسها أنها لا تملك الا الصدق وهذا الصدق دفعها الى أن تترك بيتها وزوجها والمدينة الكبيرة بومباى وتذهب لتعيش فى قريتها مع أهلهـــا الاصليين « الناير » حيث الثقافة الهندية الاصــيلة وحيث تحترم المرأة ولها السيادة داخل البيت وخارجه كالالهات القديمات . أمها كانت تكتب الشـــعر وهى راقدة على بطنها فى سرير من أربعة عمدان . أما هى فكانت تنام ناحية قدمى زوجها . تركت بيتها واولادها لزوجها وذهبت الى البحر والصيادين . كان لها أصدقاء يشاركونها رؤية الجاموس والطبيعة ، اما زوجهــا فلم يكن لديه وقت لرؤية الطبيعة . كان غارقا فى دوسيهات مكتبه ، ولم يكن يتكلم معها . كان يكفيه أن يكون لزوجته

جسم جميل ورائحة طيبة فى السرير . احيانا كانت تخلع «الساری» وتنزل فى البحر ويضحك أصدقاؤها. كان النهر بغير ضفاف كأنهر الهند التى تفيض وتغرق القرى . عرفت الحب وظنت أن الحب الى الابد والشباب الى الابد ولكنها عرفت بعد سنوات طويلة ان الوحدة هى الى الابد فقط .

النساء يملأن الفراغ داخلهم بالحب والاطفال . حين يملهن الحب وحين يكبر أطفالهن ويذهبون الى اذرع اخرى يتجهن الى الله . واتجهت كاملا داس الى آلهة الهند . اتجهت الى شيفا وكريشنا وجانيش وديزجا . لكن لم يستطع اى اله منهم أن ينفعها بشىء . كانت تكبر فى السن وتزداد وحدتها . أصبح من الصعب بل من المستحيل أن يحبها أحد أو تحب هى احدا .

حاولت أن تحتفظ بصدقها وشجاعتها لتشق طريقها نحو الموت دون أن تندم على حياتها الماضية . حين كانت تقارن زوجها بالازواج الاخرين تشعر بعدم الرضا لكن زواجها نجح لسبب واحد هو ان زوجها كف أن ينظر اليه كزواج . وملكت هى حريتها . الفرق بين الاله والانسان هى الحرية . الاله حر والانسان عبد . كاملا داس فخوره باصلها من « الناير » الذى كان مجتمعا متعدد الازواج فى « كيرالا » حتى الربع الثانى من هذا القرن . مراسيم الزواج لم تكن تستغرق الا دقيقة واحدة ثم يدخل الزوج الى حجرة نوم زوجته لم يكن ينفق عليها ، ولا يعيش معها فى بيتها ، ولكنه يأتى اليها ليلا فى ضوء القمر وينادى عليها قائلا « هو .. هو .. » حينما تسمح له زوجته بالدخول الى حجرتها يدخل ، والا فعليه أن ينتظر أو ينصرف اذا

كان معها زوجها الآخر . كانت المرأة هى صاحبة النسب وتشعر بكرامتها .

تعرضت كاملا داس لبعض الهجوم لكنها تقول ان معظم قرائها من الرجال والنساء سعداء بامرأة شجاعة تكتب افكارها بصدق . طلبت منها احدى الهيئات ان تقوم ببحث عن القيم الاخلاقية بين الازواج فى مدينة بومباى . وقامت كاملا داس بالبحث ونشرت نتائجه على الناس .

ولم تكن النتائج وحدها هى التى صدمت الناس فى مدينة بومباى ولكن تحليل كاملاداس لها . كتبت هذه الاديبة والباحثة الهندية تقول انها وجدت أن ٩٦٪ من الازواج يخونون زوجاتهم سرا خلال ساعات العمل ، وفى حجر الفنادق وفى رحلاتهم الى بلاد اخرى ، وفى الشهور الاخيرة من حمل زوجاتهم أو أثناء الدورة الشهرية . وحينما سألت بعض هؤلاء الازواج وجدت انهم يحبون زوجاتهم ولا يفكرون فى تركهن ولكن هناك نوع من البرود نشأ بسبب طول السنين ، ورائحة العرق فى الملابس ، وتآكل الفكر . أما فى حالة النساء فقد وجدت الكاتبة أن من كل مائة زوجة فان ٧٣ زوجة مارست الجنس مع رجال آخرين غير زوجها وبحثت كاملاداس عن أسباب اخلاص الزوجات الباقيات وهن ٢٧٪ فوجدت انهن مخلصات ليس بسبب ايمانهن بالاخلاص الزوجى ولكن لانهن قبيحات . ان القبح هو الذى انقذ زواجهن اكثر من اى عامل آخر . وتقارن الكاتبة بين النوعين من الزوجات فتقول : يمكن التعرف على الزوجات غير المخلصات بسهولة بسبب رشاقتهن وحلاوة الابتسامة ، والثقة فى حركة العينين ، وتحريك

الذراعين والساقين بخفة وسهولة . اما هؤلاء الزوجات المخلصات فلا رشاقة فى حركاتهن ، وشفاهن مدلاة فى غباء وأسى ، عصبيات ، تؤنب الواحدة منهن زوجها أمام الناس لاى سبب تافه ، على عكس الزوجات الخائنات اللائى يفضن جاذبية ورقة وحبا لازواجهن .
وقد دهشت الكاتبة من ملاحظاتها وتساءلت فى نهاية البحث عن ماهية الزواج . ولم يستطع احد أن يهاجم كاملاداس بعد هذا البحث لانهم أدركوا أنها كشفت النقاب عن حقيقة حياتهم التى يخفونها عن الآخرين بل من انفسهم ايضا .

ثالوث المحرمات فى معظم المجتمعات فى العالم هو الجنس والدين والحكومة . وقد استطاعت الكاتبة الهندية أن تمسك قلمها وتكتب فى اى من هذه الموضوعات بغير رهبة ولا حرج . ان الروائية والشاعرة « امريتا بريتام » احدى هؤلاء اللائى نقدت بشعرها ونثرها كل ماهو مزيف فى السياسة أو الحكم أو الدين او الجنس .
اكلت فى بيت « أمريتا بريتام » مسلا بالجبن والشطة وأهدتنى روايتها الاربعين بعنوان « ذلك الرجل » وقضيت ليلة كاملة اقرأ الرواية الصغيرة التى تكشف كثيرا من الزيف فى موضوع الدين . تدور الرواية حول مأساة شاب اصبح يكره أمه ويحتقرها لانه علم أنه ليس ابن ابيه ، وانما هو ابن ذلك الكاهن الذى يشرف على المعبد الهندى . كانت أمه عاقرا لا تلد فذهبت الى المعبد ووعدت الاله شيئا بانه لو رزقها بولد فسوف تهبه لخدمة الاله . وحملت الام بعد زيارتها للمعبد وانجبت ابنها الذى تركته وهو طفل ليخدم الاله فى المعبد . وشب هذا الطفل خادما فى المعبد تحت

اشراف الكاهن الذى عرف منه انه هو أبوه الحقيقى ، اذ تقمص دور الاله شيفا وقاد أمه من يدها الى حجرة مظلمة في المعبد حيث مارس معها الجنس . وصدمت هذه الحقيقة الشاب المخلص للمعبد والآلهة واصبح معذبا تؤرقه هذه الكذبة التي عاشتها امه مع ابيه وخدعته مع ذلك الكاهن . فى نهاية القصة ترقد الام على فراش الموت تطلب رؤية ابنها قبل أن تموت لكن الابن يرفض مغادرة المعبد ليزور أمه الزيارة الاخيرة فيأتى اليه زوجها أو « أبوه » غير الحقيقى ويدور بينهما الحوار التالى :

الاب ـ لماذا تكره أمك هذه الكراهية ؟

الابن ـ لانها خدعتك . أنا لست ابنك . أنا ابن ذلك الكاهن .

الاب ـ انها لم تخدعني . لقد ذهبت الى الكاهن وانا كنت أعرف ذلك . لكنك مخطىء حين تقول انك لست ابنى . أنا أبوك وانت ابنى رغم كل شىء . اتحاد الاجساد لا يهم يابنى ولكن المهم اتحاد العقول . حين اعطى الكاهن جسده لامك كان عقله متحدا بالإله شيفا . جسدى لن يصحبنى بعد موتى ولكن عقلى سيصحبنى . أنا الاله شيفا نفسه ، والكاهن لم يكن الا اداة لارادتى . جسد الكاهن كان تحت ارادتى . انت نتاج ارادتى وليس جسدى . ولكن الانسان ارادة وعقل وليس جسدا . لهذا انت ابنى وانا ابوك .

وتساءل الابن فى دهشة ـ اى أن أمى لم تخدعك ؟

وقال الاب ـ لا . انها امرأة مثالية . انا الذى خدعتها فى أول زواجنا . تركتها وهى عروس وسافرت للتجارة فى بلد بعيد وهناك عرفت بعض النساء واصبت

بمرض السيلان وفقدت قدرتى الجنسية . لم يكن من الممكن بعد ذلك أن انجب أطفالا . لكنى أردت أن يكون لى ابن من خلال جسد الكاهن ، وقد كان !

وقد نجحت رواية امريتا بريتام ليس بسبب احداث القصة ولكن بسبب طريقتها العميقة الساخرة فى عرض ونقد العقائد الدينية المنتشرة فى بلدها . والمجتمع الهندى كأى مجتمع فى العالم شديد الغضب حينما يمس أحد قدسية الآلهة . وقد هاجم بعض القائمين على الدين هذه الكاتبة واتهموها بالالحاد والاساءة الى صاحب الجلالة الاله شيفا .

وقالت لى أمريتا بريتام وهى تضحك بسخرية ـ معظم هؤلاء من امثال ذلك الكاهن الذين يدعون صلتهم بالآلهة ليعالجوا النساء العاقرات . وكم تشتهر بعض المعابد فى الهند بقدرتها على شفاء الزوجات اللائى لا يلدن . وبالطبع يكون داخل المعبد أحد الكهنة من ذوى الكفاءة الجنسية العالية .

ذكرتنى رواية أمريتا بريتام بقصة سمعتها وأنا طفلة من احدى قريباتى فى قريتنا . قالت لى أنها ظلت عشر سنوات لا تنجب واخيرا نصحتها بعض النسوة بأن تذهب الى « شيخ » فى القرية اشتهر بعلاج عقم النساء بواسطة حجاب من الاحجبة . وتذكرت انها قالت لى أنها ذهبت الى ذلك الشيخ الذى ادخلها الى حجرة مظلمة وجعلها تخلع ملابسها ليعلق لها الحجاب فى رقبتها . ودهشت حين سمعت ذلك وقلت لها بسذاجة طفلة فى العاشرة ـ ولكن الم يكن من الممكن أن يعلق لك الحجاب فى رقبتك دون أن تخلعى ملابسك ودون حاجة الى الحجرة المظلمة . وقالت قريبتى الريفية

وهي تتلعثم — لا ! ليس ممكنا ، لقد قال لي أن الارواح الشريرة التي تسبب لي العقم لا تغادر جسدي الا في الظلام وبعد ان يصبح جسدي نظيفا عاريا كما ولدتني امي .

لم اتذكر هذه القصة التي وقعت في قريتي كفر طحلة منذ اكثر من ثلاثين عاما الا هذا اليوم وانا في سريري في مدينة دلهي بالهند بعد أن قرأت رواية امريتا بريتام . وهذا هو الادب الجيد . انه الادب الذي يجعلنا نتذكر حوادث مضت عليها السنون والسنون . فنتذكرها لاول مرة ونفهمها ايضا لاول مرة . وهذا هو الفن الذي يضيء أركانا مظلمة في عقولنا .

شوارع المدن الكبيرة في الهند كدلهي وبومباي وكالكاتا تشبه بعضها البعض . في كل شارع تقريبا ترى أعدادا هائلة من راكبي الدراجات او الموتوسيكل او نصف الموتوسيكل ونصف الدراجة ونصف السيارة . الرجال والنساء هنا يركبون هذه الدراجات والموتوسيكلات . واحيانا تركب الاسرة كلها الاب والام والاطفال فوق دراجة واحدة أو موتوسيكل واحد — طريقة مفيدة عملية للتغلب على مشكلة المواصلات . والمرأة كالرجل تركب الدراجة أو الموتوسيكل رغم الساري الطويل الذي يطيره الهواء أو يشبك طرف من اطرافه في جنزير الدراجة . تناقض غريب لازال يحيط بالمرأة الهندية العاملة لقد كسرت الحواجز واقدمت على كل شيء سوى أن تخلع « الساري » الذي أجمعت نساء الهند على أنه زي غير عملي يعرقل خطواتها وتتعثر فيه وهي تركب الاتوبيس أو الدراجة بل وهي تسير فوق الارض . بعض النساء يقولون أن « الساري » فيه أنوثة ، وترد عليهن

اخريات بأن تذهب الانوثة الى الجحيم وترتدى النساء زيا عمليا كالسروال مثلا يساعدهن على الحركة السهلة السريعة . بعض النساء يقولون أن السارى يميز المرأة الهندية عن غيرها من النساء فى العالم ، وترد عليهن اخريات بأن ما يجب أن يميز المرأة الهندية من غيرها هو طريقة تفكيرها وليس طريقة لبسها . ويحتدم النقاش ويتدخل بعض الرجال الهنود فيقولون أنهم يفضلون « السارى » لكن بعض النساء يثرن ويقلن أن المرأة يجب أن ترتدى الملابس التى تريحها وتسهل الحركة لها والعمل وليست الملابس التى يفضلها الرجال .

لكن المرأة فى الهند بصفة عامة لا تزال حريصة على ارضاء الرجل . معظم الاسر فى الهند ابوية ، الرجل هو الذى يسيطر والاطفال الذكور يحظون برعاية أكثر وطعام افضل وتعليم اكثر من الاطفال البنات .

والمرأة فى الهند هى التى تدفع المهر لزوجها ، ويزيد مهر العريس بارتفاع طبقته وبارتفاع منصبه وتعليمه . وهذا بقايا النظام الاموى الذى كان سائدا فى الهند ، وكانت المرأة لها السيادة داخل البيت وخارجه . كانت هى التى تعمل وهى التى تملك وهى التى ترث وهى رئيسة الاسرة ينسب اليها أطفالها . وبعد أن ثار الرجل على المرأة وانتشرت الابوية وفقدت المرأة سيادتها لم يتغير نظام دفع المهر كثيرا وظلت المرأة هى التى تدفع المهر لزوجها .

قالت لى طبيبة هندية أسمها روماتالا « أى رحمة الله بالعربية » : كان الناس يفرحون بالبنت حين كان للمرأة السيادة والنسب أما الآن فيفرح الاباء والامهات بالاطفال الذكور ولا يفرحون بالاطفال البنات . الابن

كبيضة الذهب اما البنت فهى التى تدفع المهر وتدفع عمرها من اجل الزوج والاطفال دون أن تأخذ شيئا .

لكن هناك جيل جديد من البنات الهنديات اللائى يثرن على هذا النظام ويرفضن دفع المهر للعريس ، بل يرفضن الزواج كلية مادامت عقلية الرجل الهندى اصبحت تنظر الى الزوجة كمخلوق اقل من الرجل .

الغريب أن كثيرا من الرجال الهنود يعتنقون مثل هذه الافكار المتخلفة عن المرأة وكأنما قد نسوا تاريخهم وقد قال احدهم وهو طبيب متعلم : لقد خلقت المـــرأة للخدمة بالبيت . ان امكانياتها الذهنية والفكرية لا تؤهلها الا لهذا العمل .

وردت عليه احدى النساء قائلة : ولكن انديرا غاندى امرأة وقد ساعدتها امكانياتها الذهنية والفـــكرية ان تحكمك أنت والرجال والنساء فى الهند . فهل هى امرأة ام رجل ؟ .. وسكت لحظة كأنما نسى ان امرأة هى التي تحكم الهند ثم قال : نعم هى امرأة ، ولكن المرأة امرأة وسألت : ماذا تعنى ان المرأة امرأة ؟ وحاول ان يتحدث مستخدما تلك الكلمات كالانوثة والرجولة .. الخ وأدركت ان الرجال حتى وان حكمتهم امـــرأة يظل تفكيرهم ونظرتهم الى المرأة ـ وبالذات الزوجة كما هو وهذا يدل على أن الزواج او الاسرة الابوية هى البـؤرة الاساسية التى يتربى فيها الرجال بهذه الافـــكار ، وباستمرار نظام الزواج الابوى فسوف تظـل هـذه الافكار فى عقول الرجال « والنساء أيضا » سواء حكمهم رجلا أو امرأة .

***

المرأة العاملة باجر فى الهند تمثل ١٩٪ من قـــوة

العمل « ضعف الرقم فى مصر » وهى تعمل فى كل مكان . تعمل فى الحقل وتعمل فى المصنع وتعمل فى المكتب ، وفوق كل ذلك تعمل فى البيت تطبخ وتكنس وتخدم الصغار والكبار ، فيما عدا القلة من نساء الطبقة المستريحة القادرات على استئجار الخدم والمربيات والطباخين .

النساء العاملات يمثلن ٤٥٪ من جملة عدد النساء في الهند . من هؤلاء ٧٧٪ يعملن بالزراعة فقط . والمرأة التى تعمل بالزراعة هى تلك المرأة الكادحة التى تشقى طول النهار فى الحقل ثم تعود الى بيتها تطبخ وتغسل وتنظف . وهكذا فان معظم نساء الهند كمعظم النساء فى العالم يدفعن كل شيء ولا يحصلن فى النهاية الا على ما يسد الرمق ومعاملة سيئة من الزوج المسيطر . وفى بعض مناطق بالهند لا تجلس الزوجة فى حضور زوجها وانما تظل واقفة طول الوقت هى وبناتها أما الزوج والاولاد الذكور فيجلسون . وفى بعض المناطق يحرم على البنات والنساء دخول المعابد التى لا يدخلها الا الذكور . وتنتشر الكثير من الخزعبلات عن الانوثة والرجولة والشرف .

ولا زال مفهوم الشرف فى كثير من مناطق الهند قاصرا على الحفاظ على الاعضاء الجنسية وبالذات عند البنات والنساء . ولكن هناك مناطق تفرض العذرية على الذكور أيضا ويحرم على الشاب أن يمارس الجنس قبل الزواج . وفى بعض المناطق يتزوج الرجل أمرأة واحدة اما المرأة فلها عدد من الازواج .

وقد وجدت ان اختلاف انظمة الزواج ابوية كانت او أموية ، تعدد زوجات أو تعدد أزواج ، كل ذلك

يرتبط بالنظام الاجتماعي والاقتصادى لهذه المنطقة اكثر مما يرتبط بالنظام الدينى أو الاخلاقي . فى بعض مناطق الجنوب وجدت اسرا أموية ومسلمة فى الوقت نفسه ، ووجدت أن المسلمين والمسلمات فى بعض المناطق الهندية يحرمون على الرجال تعدد الزوجات لانه يضر بالمنطقة اقتصاديا ... وهكذا .

***

قرأت اليوم فى الجريدة الصباحية الهندية أن آلاف المسلمين الهنود فى « مدراس » جنوب الهند صلوا مع الهنود الآخرين لاله المطر ، ليشفق على الناس ويمنع عنهم ذلك الجفاف الشديد الذى حدث فى المنطقة . وقالت الجريدة أن الامطار انهمرت من السماء بعد ٧٢ ساعة من الصلاة . واعتقد كثير من الناس أن اله المطر هو الذى انزل المطر على حين ذكر علماء الارصاد الجوية أن الامطار هطلت بسبب تكاثف السحب فى المنطقة وهبوط فى درجة الحرارة بسبب رياح من المحيط .

تذكرنى بعض العادات فى الهند بالعصور الوسطى ، حين كان الناس يفسرون الامطار والعواصف والكوارث تفسيرا دينيا . ولازال بعض الناس فى الهند « وفى أماكن كثيرة من العالم » يؤمنون بالخرافات والخزعبلات .

المرأة الارمل فى الهند تعامل أحيانا كالساحرة الشريرة فى العصور الوسطى . كانت الزوجة الهندية الى عهد غير بعيد تحرق نفسها بعد موت زوجها ، أو كانت أسرتها تقيدها بالحبال وتلقيها فى النار مع جثة زوجها « عادة الهنود حتى الآن هو حرق الموتى » وقد انقرضت هذه العادة تقريبا فى معظم مناطق الهند ، لكن المرأة الارمل ظلت مكروهة . بعضهم يتصور أنها سبب موت

زوجها وبعضهم يتصور أنها سبب الكوارث التى تحدث احيانا . بعض الاحزاب السياسية ومن ذوى الميول الراسمالية والاقطاعية تستغل هذه العادة القديمة لتهاجم انديرا غاندى « وهى امراة ارمل » . انهم يروجون بين عامة الناس أن الكوارث التى تحدث فى الهند من حين الى حين مثل الفيضانات أو موت الالاف من الجوع أو الامراض ، كل ذلك لان التى تحكم الهند امراة أرمل . ويحاول هؤلاء بطبيعة الحال أن يضللوا الناس عن فهم الأسباب الحقيقية للمشاكل وأهمها الاستغلال الاقتصادى للشعب الهندى والاستعمار القديم والجديد الذى تحاول انديرا غاندى أن تحاربه .

أشفق على هؤلاء الملايين من الهنود الذين يركعون فى معابدهم كل صباح أمام تمثال الاله شيفا ليمنع عنهم المرض أو الجفاف أو الجوع غير مدركين أن الاله شيفا وغيره من الآلهة لا يمنعون الجوع ، وانما الذى يمنع الجوع هو عدالة توزيع ثروات الهند على أهلها وناسها بدلا من أن تنهبها أقلية فى الداخل ومستعمرون فى الخارج .

***

براهما ، فيشنو ، شيفا هم الآلهة الثلاثة الرئيسية فى الهند للقوة والخلق والدمار . وهم يقولون أن الاله القادر على الخلق هو الاله القادر على الدمار ، ولهذا يرمز شيفا الى الخلق والقتل معا . تماثيل الاله شيفا متعددة الاشكال . أهمها ذلك التمثال الذى يرقص وله اربعة اذرع تقطر الدم من احداها وتحت قدميه طفل مقتول . والقصة تقول أن الآلهة برافاتى زوجة شيفا ولدت ولدا ، لكن شيفا ظن ان برافاتى زوجة خائنة وأن

هذا الولد ليس أبنه . ومسك شيفا السيف وفصل راس الطفل عن جسده .

وغضبت الآلهة برافاتي ووضعت راس فيل لابنها وعاش وأصبح الاله « جانيش » له راس فيل وجسد انسان يرمز الى الحب والخير والحظ السعيد ويركع امامه الهنود ليتباركون به ويشعرون نحوه بالحب والعطف . أما الاله شيفا فهم يرهبونه ويخافون سره وغدره ، ولهذا يغدقون عليه الأموال والطعام درءا لشره لا يعرف هؤلاء أن هذه الاموال والطعام لا يذهب الى شيفا وانما الى طبقة من الكهنة والنساك جعلوا المعابد مؤسسات تدر عليهم الخير .

ظاهرة غريبة لاحظتها فى معظم المعابد ودور العبادة ذلك ان معظم زوارها الذين يدفعون الهبات هم من الفقراء . رأيت رجالا ونساء يهبون طعام يومهم للمعبد ويصومون اليوم كله بغير طعام . لماذا ؟ لانهم يطلبون من الاله مطلبا مثل أن يرزقهم بولد أو يشفى مريضهم او يحميهم من اضطهاد صاحب الارض .. الخ وتتعدد الاسباب ويتكوم فى المعبد الرزق الضئيل لآلاف الهنود الكادحين الاميين .

نسبة الامية فى الهند ٦٠٪ بين الرجال ، ٨٠٪ بين النساء تمر السنون وتظل مشكلة الامية بغير علاج ، كما هو الحال في بلاد كثيرة . ولكن كيف تعيش الاقلية المرفهة فى المدن اذا فتح الفلاحون والكادحون عيونهم واذهانهم ؟ من أجل هذا تحافظ هذه الاقلية « التى لا تذهب الى المعابد أبدا » على المعابد والالهة والاديان كمؤسسات للتجهيل والتعمية بل والقمع والتخويف أيضا .

قرأت اليوم فى جريدة الصباح شيئا طريفا . ان حاكم ولاية ماهرا شترا « عاصمتها بومباى » وأسمه على يافاريونج اعترف بالامس فى خطابه وهو يفتتح احد المعارض الكبيرة انه حينما كان سفيرا فى فرنسا رغب فى سرقة احدى التحف الجميلة من متحف فى باريس . لكنه قاوم هذه الرغبة ولم يسرق التحفة الجميلة . واستطرد هذا الحاكم الهندى يقول : لابد أن اعترف أن هذا الاغراء بالسرقة كان أشد اغراء تعرضت له فى حياتى بالرغم من أننى اميل أحيانا الى سرقة بعض الاشياء التى تعجبنى .

مثل هذا الكلام الصريح يتفق مع طبيعة الهنود البسيطة المباشرة . انهم يعبرون عن انفسهم احيانا بصدق شديد يدهش الغرباء عنهم . بعض الناس يظنون أن ذلك الصدق نوعا من البلاهة أو الغباء أو السذاجة . فى مصر حينما يريدون التهكم بشخص ساذج صريح يقولون عنه انه هندى . لكن احترمت صدق الهنود وصراحتهم . لقد احترمت حاكم ماهراشترا الذى اعترف بأنه يسرق او يميل الى السرقة أحيانا . كثير من الحكام يسرقون دون أن يعترفوا بذلك .

والهنود أيضا بصفة عامة لا يجيدون المجاملة . فالمجاملة نوع من الكذب الاجتماعى الذى انتشر فى العالم واصبح نوعا من الرقى والتهذيب . كما انهم لا يعرفون النفاق الوظيفى كما نعرفه فى مصر : ويتعاملون مع وزرائهم وحكامهم ببساطة وبغير تلك الرعشة التى نراها دائما فى اجتماعاتنا الرسمية . حضرت أحد الاجتماعات الكبيرة فى دلهى ورأيت الوزير يدخل ويخرج كأنه شخص عادى ودون أن يلتفت حوله أحد . وأثناء النقاش

سمعت صغار الموظفين ينقدون الوزير بغير هوادة ولا رفق ، وكان كل ذلك يبدو عاديا ومألوفا . وعرفت من بعد أن الهنود « وان كانوا موظفين » تعودوا النقاش والنقد الصريح الذى لا يخشى أى راس فى الدولة . وهذا يرجع الي تعدد الاحزاب فى الهند ، والى وجود احزاب معارضة تنقد الحكومة وتشجع الناس على ابداء رايها بغير خوف .

فى نيودلهى عاصمة الهند حديقة مشهورة جميلة اسمها « لودى » سرت فوق أحد ممراتها الحجرية بين مساحات الخضرة وأحواض الزهور . انعكست صورتى فوق سطح البحيرة الصافية ، وزهرة الليلى البنفسجية على سطح الماء بدأت تغلق أوراقها مع اقتراب الغروب كطفل يلف ذراعيه حول جسمه وينام وحيدا فى العراء. شمس الغروب دافئة بحرارة الجسم تلون السحب باللون الاحمر والبرتقالى ، تسقط فوق جدران المبانى المغولية وتنفذ من بين ثقوب الابواب الصغيرة المقوسة على الطراز الاسلامى ، أحد الشباب وقف تحت القبة المغولية وراح يغنى . الصوت جميل فيه عذوبة وقوة يتردد بين الجدران العالية والقبة المقوسة المرتفعة لم أفهم كلمات الاغنية لكن الصوت واللحن ووجه الشاب جعلنى أقف وأستمع . تجمع بعض الشباب والاطفال ورجل عجوز توقف عن السير واخذ يستمع . عيون الاطفال تلمع كفصوص العقيق ، النني الاسود بارز قوى لامع . لكن بياض العين تشوبه صفرة . معظم العيون فى الهند تشوبها صفرة غريبة كعيون المرضى بالصفراء أو داء الكبد المزمن .

أحد السياح الامريكيين توقف يسمع الغناء . تجمع

حوله الاطفال ، ملامحهم فيها نداء وأذرعهم ممدودة تنتظر ، وانكسارة الفقر والحرمان رغم تلك النظرة اللامعة الذكية المتحدية للجوع والقادرة على الانتصار حتى على الموت .

الشاب لازال يغنى تحت القبة المغولية السوداء . الصوت حزين قوى يصر خبنداء مجهول للسماء . قرص الشمس اختفى تماما ولم يبق الا اللون الاحمر فوق السحب وقمم الاشجار ، نسمة باردة هبت وسقطت ظلال قاتمة فوق البناء القديم ذى الرأس السوداء . كراس الغول تخيلتها وانا طفلة أسمع قصص الخرافات . وكلمة الغول تذكرنى بحصة التاريخ فى المدرسة وانا فى العاشرة من عمرى . المغول أغاروا على الهند وحكموها ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر .

لم تكن مدرسة التاريخ تعرف كيف تثير خيالاتنا . كنا نحفظ عن ظهر قلب بعض الغزوات وبعض الاسماء والتواريخ بغير ترابط وبغير فهم . بقايا ابنية المغول لا تزال هنا قائمة ، مهجورة قبابها السوداء توحى أن داخلها كان يقبع غزاة غلاظ القلوب .

وجوه الهنود فيها سلام وهدوء ، وشىء من الذلة والانكسار . تشبه وجوه بعض الناس فى مصر . ترك المغول والانجليز بصماتهم على وجوه الناس فى البلاد التى استعمروها . لكن بصماتهم هنا فى الهند اشد . ستة قرون وهم يمتصون ثروات هذا البلد . اهم ماخلفوه من آثار هو الفقر .

الذى يسمع عن الفقر فى الهند ليس كالذى يراه . الفقر هو أن يعيش الموت ملاصقا للحياه ، وتمتلىء المدن

والشوارع بالاشباح المشوهة . الامهات كالهياكل العظمية يحملن أطفالا ليسوا الا عيونا وعظاما . أجساد راقدة على الرصيف مغطاه بملايين الذباب كأنها كتل من القمامة الاذرع المعروقة ممدودة ، واليد متكورة منتظرة احدا يلقي في كفها شيئا تأكله . لوحة ثابتة تمثل صراع الانسان الاخير من أجل البقاء . دائما الشحاذون في كل مكان حتى في المطارات . الاطفال الجوعى ، الشباب العميان ، المصابون بالدرن الرئوى ، معظم الوجوه مليئة بالحفر بسبب الجدرى القديم . اعدادهم كثيرة الى حد انك تعتبرهم جزءا لا يتجزأ من الحياة ، ولابد ان تعترف بهم كعالم ضخم يتهدد عالم آخر من الناس يركبون السيارات ويتخمهم الاكل .

الجوع يكسح الحياة هنا كالفيضان . انه لا يأتى . انه دائما موجود كأحد الظواهر الثابتة في الحياه . والناس تحولوا الى عيون سوداء جاحظة ، لا يعيشون ولا يموتون لكن قلوبهم تستمر وحدها فى الدق بطريقة مجهولة لا يعرفها الاطباء .

قراءة اساطير الاديان فى الهند تكشف أمام العقل كثيرا من الاركان المظلمة . أحد الاساطير تقول أن الملك برتيفى ولد من الفخذ الايمن لابيه فانى . لكن بعض الهنود قالوا لى أن طفل من لحم ودم لا يمكن أن يولد من فخذ رجل وانما لابد أن يولد من رحم امرأة عاشرها رجل . وحقيقة القصة هى أن الآلهة أو الملكة بافتى حملت بغير زواج وولدت فاني . وكان الاله أو الملك برتيفى يحبها ويرغب فى ارضائها لتقبله زوجا فخرج الى الناس وأعلن لهم ان فانى قد ولد من فخذه الايمن . ولان الناس يخشون تكذيب الآلهة أو الملوك فقد صدقه الكثيرون

وانتقلت هذه الاسطورة جيلا بعد جيل واصبحت احدى قصص الهنود الدينية . قالوا لى أنها تشبه الى حد كبير قصة آدم وحواء مع اختلاف فى الولادة ، فقد حدثت هذه المرة من ضلع الرجل وليس من فخذه وقصة مريم وولادة عيسى أو « المسيح » من جسد العذراء التى لم يلمسها رجل وانما هى « روح » الاله هذه المرة التى صنعت فى رحمها جنينا من لحم ودم .

أسطورة هندية أخرى من براهما فاقرات بيورانا تقول أن الاله فيشنو أراد أن يضاجع تولسى زوجة كوزالسانكى ، فتنكر فى ملابس زوجها ودخل الى حجرة نومها وضاجعها . لكن تولسى عرفت بخدعته فلعنته آمرة بتحويله الى حجر . واستطاع الاله فيشنو أن يرد لها اللعنة آمرا بأن يتحول شعرها الى نبات تولس ويتحول جسدها الى نهر جانداك .

هذه الاسطورة يصدقها كثيرون من الهنود ، وحتى اليوم فان اية زهرة فى حوض نهر جانداك تمثل شاليجرام « عضو الذكر » وهى صورة الاله فيشنو . ويعبد الهنود حتى اليوم نبات تولس فى الليلة المظلمة بغير قمر فى شهر اغسطس من كل عام ، ويحتفلون بازدهار نبات تولس بواسطة الشاليجرام « عضو الذكر » ويتباركون به . وهكذا تحولت اللعنة القديمة الى بركة. وهذه هى حياة البشر ، تعيش فيها اللعنات والبركات معا ، مثل الشمس وظلها يحدثان فى اللحظة نفسها والمكان نفسه .

وجدت الهند كالحياه مليئة بالتناقضات . فى الوقت الذى يموت فيه آلاف الهنود من الجوع تضيع كميات هائلة من الطعام على شكل وهبات للمعابد الدينية .

يعالج الانسان هذه التناقضات بان يفصلها الواحدة عن الاخرى ويتظاهر بانه لا علاقة بين الواحدة والاخرى . بمعنى آخر ان الاعتقاد بفكرة دينية يمكن أن يعيش جنبا الى جنب مع التجربة العلمية . الاعتقاد بالفلك والتنجيم يعيش الى جانب علم الفلك . الاستغراق في المتع الدنيوية والشرب واللذة الجنسية الى جانب فلسفة روحية زاهدة في الاكل والشرب والجنس . يعالج الانسان هذا التناقض بأن يفصل بين الدين والعلم ، ويجعل الراس مفصولا عن القلب ، والروح مفصولة عن الجسد ، والفكر مفصول عن الواقع الحي .

يعيش الاديب الهندي هذا التناقض ويعبر عن أزمته وتمزقه بلغة غير لغته الاصلية ، وهذه أيضا مشكلة اخرى مشكلة اللغات المتعددة في الهند تعدد الاديان . احد الادباء الهنود وصف لي هذه المشكلة قائلا : ان الهندي يولد له لغة ، ويتعلم لغة ، ويفكر بلغة ، ويحلم بلغة ، ويكتب بلغة . ولم أفهم حقيقة هذه المشكلة الا حينما قابلت احدى الشاعرات الهنديات واسمها « اكيلا » وسألتها عن مشكلة اللغة في الهند فقالت لي : حين ولدت سمعت امي تتكلم لغة البنجاب . حين دخلت المدرسة تعلمت اللغة الانجليزية . حين كبرت قرات الكتب الهندية اكتب الشعر باللغة الانجليزية لانى لا اذكر لغتي الاصلية البنجابية كما انني لا اتقن الهندية . لكن شعري باللغة الانجليزية لا يعبر تماما عني . لانني احلم وابكي بلغتي البنجابية وهي لغتي وانا طفلة . لست راضية عن شعري لانه بلغة أخرى غير لغتي . وهذه مشكلة عامة في الادب الهندي واعتقد انها من اهم الاسباب التي تحول دون ظهور أدب عظيم في الهند ..

وقلت للشاعر « أكيلا » (« أكيلا » هي كلمة عقيلة بالهندية) : قد يكون كلامك صحيحا ، ولكن اللغة في رايي ليست الا الاناء الخارجي الذي يوضع فيه الشيء كما اننا حين نحلم وحين نبكي لا نفعل ذلك بلغة معينة احلامنا وبكاؤنا له لغة واحدة هي عقل الانسان لكن هذا لا يعني انك يمكن أن تكتبي شعرا أو ادبا جيدا بلغة لا تتقنيها . اتقان اللغة ضروري لاي فنان كاتب ، وحينما يتقن الانسان لغة من اللغات فانه قد يعبر بها عن نفسه أكثر من لغة ابيه أو أمه .

وتساءلت « أكيلا » : لماذا اذن لا يوجد في الادب الهندي شيء عظيم . وقلت لها : لقد قرأت شيئا من الادب الهندي وأعترف أن فيه ماهو عظيم اكثر من بلاد كثيرة . قد تكون اللغة الانجليزية أقل اتقانا ، ولكن المعاني تكون احيانا معان عظيمة وتحملها الكلمات البسيطة بل الركيكة لم أكن اجامل « اكيلا » كشاعرة هندية ، لكني كنت قد قضيت عدة ليالى ممتعة مع بعض كتابات الاديبات والشاعرات الهنديات . بعضها كتب مباشرة بالانجليزية وبعضها ترجم الى الانجليزية . ولم أكن في حقيقة الامر اجد فارقا بين الاثنين . ان الافكار الجيدة تظل جيدة بأية لغة وبأى شكل والافكار الركيكة تظل ركيكة بأية لغة وبأى شكل .

وقالت أكيلا : هذا صحيح ، ولكن اللغة الانجليزية تذكرنا بالاستعمار الانجليزى .

قلت : نعم ، ولهذا بدأتم في الهند بعد الاستقلال تهتمون باللغات الهندية المحلية . ولكن المشكلة عندكم أن اللغات الهندية تزيد عن سبعة عشر لغة ومن المهم توحيد اللغة حتى يمكن للهندى ان يتفاهم مع الهندي

« في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب أو الوسط » باللغة الهندية وليس باللغة الانجليزية .
وقالت أكيلا : احدى اللغات الهندية وهى « الهندى » Hindi اصبحت هى اللغة الرسمية وسوف تصبح فى المستقبل هى اللغة التى توحد بين اللغات الهندية المتعددة .
قلت لها : حينئذ تستطيع الشاعرات والاديبات والادباء أن يكتبوا باللغة التى يبكون ويحلمون بها .
وضحكت أكيلا . وكنت فى أعماقى أدرك مشكلتها كشاعرة هندية مع اللغة الانجليزية . لقد درست اللغة الانجليزية مثلما درستها « أكيلا » وكثير من قراءاتى الادبية والعلمية بالانجليزية وقد أكتب فى النواحى الطبية والعلمية بالانجليزية ، ولكنى حين أكتب الادب لا أكتب الا باللغة العربية . وقلت لاكيلا أن مشكلة اللغة فى الهند غير موجودة فى مصر . لاننا فى مصر لنا لغة واحدة هى العربية ، نولد بها ، ونحلم بها ، ونبكى بها ، ونتعلمها ، ونتكلم بها فى جميع انحاء مصر بل فى جميع أنحاء البلاد العربية . كما أن الانجليز لم يعيشوا فى مصر كما عاشوا فى الهند ثلاثة قرون . وقد لعبت اللغة العربية لكونها لغة واحدة دورا فى الصمود امام اللغة الانجليزية ولم يستطع الانجليز أن يفرضوها على المصريين كلغة رسمية كما فعلوا فى الهند . لقد ظلت اللغة الانجليزية فى الهند هى اللغة الاولى فى المدارس لسنوات طويلة ، أما فى مصر فقد كانت اللغة الانجليزية هى اللغة الثانية فقط أما اللغة الاولى فقد كانت دائما اللغة العربية .
وقالت اكيلا : ان مشكلتى كشاعرة « وهذه هى

مشكلة جيل من الشعراء والادباء فى الهند » أننى لا اشعر اننى املك زمام لغة واحدة . انني اعرف أربع لغات « الانجليزية ـ النبجابية ـ الهندية ـ الاردية » ولكنى لا اسيطر سيطرة كاملة على اى منها . واللغة هي الاداة أو ريشة الشاعر او الاديب ، واذا لم يسيطر الفنان على أداته سيطرة كاملة لا ينتج فنا جيداً . وسوف تظل مشكلة تعدد اللغات فى الهند قائمة حتى تصبح لنا لغة واحدة هى اللغة التى نولد بها والحروف الاولى التى تطرق آذاننا ونحن اطفال فى المهد . نحلم بها ونبكى بها ونكتب بها ايضا .

واهدتنى « اكيلا » ديوانها الاخير الذى كتبته بالانجلبزية . وقرأت ابياتها العميقة الرقيقة وهى تعبر عن مأساة قرية فى البنجاب اغرق فيضان النهر بيوتها وحقولها . لم اقرأ فى الشعر الانجليزى الاوربى أجمل من بعض ابياتها وهى تصف عيون الاطفال المشردين الجوعى او تلك الابيات التى تصف بها النهر المقدس الذى كان يتطهر فيه الهنود من آثامهم الدنيوية ثم اذا به يحدث الدمار للقرية . رغم بساطة اللغة والكلمات الا أنها تحمل أخطر المعانى . فان أكيلا تسخر بشعرها من بعض الخزعبلات والمقدسات فى بلدها وكتبت تقول كان النهر المقدس لا يغسل آثام الناس ولكنه كان يغسل عرق الفلاحين وطمث النساء وبراز الاطفال المرضى بالاسهال صيفا وشتاء ـ تبدو هذه الكلمات فجة غير أدبية غير شاعرية ، ولكن الفنان الحقيقى يستطيع ان يحول قطع الصخر الى احجار كريمة وجواهر .

قالت لى أكيلا انها بدأت تكتب الشعر بعد أن اشتغلت مدرسة باحدى المدارس الابتدائية وحين كانت تنادى

اسماء اطفال فصلها لتعرف من الغائب تكتشف كل صباح غياب اثنين او ثلاثة اطفال . وتطوى قائمة الاسماء وهى مطرقة ويظل الفصل صامتا بعض الوقت . كان الجميع يعرفون لماذا غاب زملاؤهم او زميلاتهم . الموت فى الهند كان يحصد الاطفال حصدا ابتداء من ايامهم الاولى حتى سن السادسة ، او السابعة او الثامنة ، وعدد وفيات الاطفال الاناث اكثر من الذكور ، فالطفلة الانثى فى الهند « كغيرها من البلاد » تنال من الاهمال والتجويع اكثر مما يناله الطفل الذكر .

« اكيلا » لا تزال شابة فى الاربعين ، لكن ملامحها الدقيقة البريئة تشبه ملامح فتاة فى الخامسة عشر ؛ وصوتها ناعم رقيق كصوت الاطفال . اما حين تخطر داخل عينيها تدهشك هذه النظرة العميقة الغائرة الموغلة فى السن كنظرة رجل عجوز فى السبعين من عمره . وكان ذلك سر جاذبيتها وقوتها . ان الالم هو الذى يصنع الانسان . لكن الفنان الحقيقى هو الذى يحول الالم الى فن جيد ويظل الفنان رغم السنين شابا قويا بل يظل طفلا بريئا رقيقا رغم تراكم الخبرات فى قاع عينه .

وقالت اكيلا : ماتت اختى وهى فى الخامسة من عمرها قبل أن اشترى لها « السارى » الاحمر الذى وعدتها بشرائه . وماتت أمى قبل أن أستلم أول مرتب لى وأعوضها عن شقائها . اما حياتى انا فهى صراع مستمر من اجل البقاء على ظهر الارض ـ انا لا اتزوج ولن اتزوج ولكنى أعيش الحب .

شعرت صباح اليوم بقلق غريب نحو طفلى الصغير

الذى تركته بالقاهرة مع ابنتي الكبرى . تذكرت اننى حلمت بالامس حلما مزعجا ، نسيت تفاصيله فى الصباح لكنه تركنى بذلك الشعور المقلق الذى دفعنى الى ان امسك التليفون واطلب بيتى فى القاهرة .

لم أكن أعلم أننى ساضطر للانتظار أربعة عشر يوما بلياليها ، وكل يوم يدق الجرس ويأتينى صوت عاملة التليفون الهندية تقول : ستكون معك القاهرة بعد لحظات ارفعي السماعة . واظل رافعة السماعة طويلا ثم يأتينى صوتها مرة أخرى تقول : معذرة ، وجدنا خط لندن مشغول واتساءل فى دهشة : لندن ؟ وما شأنى انا بلندن . انا أريد الاتصال بالقاهرة ؟

وتقول العاملة الهندية : ولكن جميع الخطوط عن طريق لندن ، وخط لندن مشغول طول الوقت . دهشت أول الامر لكنى تذكرت أن الانجليز استعمروا الهند ومصر فترة من الزمن ، ولكن بعد خروج الانجليز من الهند ومن مصر لماذا لا يكون هناك خط مباشر بين دلهى والقاهرة ؟

بالطبع ظل خط لندن مشغولا ، وبعد اربعة عشر يوما جاءنى صوت ابنتى من القاهرة ، ولم استطع أن أسمع الكلمات بوضوح وضاعت دقائق المكالمة هباء دون أن اسمعها أو تسمعنى .

الادب الهندى ايضا لا يصل الى القاهرة « كخطوط التليفون » الا عن طريق لندن . نحن لا نقرأ من الادب الهندى ألا ما يترجم الى الانجليزية فى لندن . والهنود ايضا لا يعرفون من الادب العربى الا مايترجم الى الانجليزية فى لندن . ولندن لا تترجم من الادب الهندى او الادب الا ما يروقها ، وما يتفق مع نظرتها الى الهند

او العرب . ولهذا فان أعظم مافى الادب الهندى او العربى لم يترجم فى لندن . وظل مغلقا فى السوق المحلية ولم يصل الى السوق العالمية . وبالطبع لم يحصل على جائزة نوبل . ولهذا أيضا لم نسمع عن اديب عظيم فى الهند كما نسمع عن هؤلاء الادباء العالميين من أمثال هيمنجواى وكافكا وفولكنز وشتاينبك وغيرهم مع أن الذى يذهب الى الهند ويقرأ بعض انتاج الادباء والاديبات فى ولايات الهند المختلفة يكتشف أن فى الادب الهندى ماهو عظيم ، وما هو أكثر خصوبة وتنوعا من بعض انتاج الادباء العالميين الذين درجنا على انهم هم العظماء وحدهم .

وكما حرمت المستعمرات من خيراتها وثرواتها المادية فقد حرمت أيضا من ثرواتها الفكرية والادبية والفلسفية وكما حرمت المستعمرات من كبريائها وكرامتها الوطنية حرمت أيضا من كبريائها وعظمتها فى الادب والفن أو العلم والفلسفة .

ان من يدرس الفلسفة الهندية القديمة يدرك انها تحتوى على افكار ومعان أكثر عمقا من بعض فلاسفة الغرب المشهورين بل ان بعض هؤلاء الفلاسفة العالميين قد أخذوا الكثير من أفكارهم من الفلسفة الهندية القديمة .

اعتكفت عدة أيام فى البيت وقرأت كتاب « الجيتا » وهو أهم الكتب المقدسة للدين الهندوكى ويحتوى على فلسفة هذا الدين العريق ، وكان الهنود يقرأونه حينما كانت أوربا غارقة فى ظلام الجهل . ودهشت وانا أقرأ « الجيتا » فقد وجدت فيها كثيرا من الافكار الحديثة فى علم النفس ، والفلسفة . فى أحد فصولها عن النفس البشرية وتقسيماتها خيل الى اننى أقرأ أفكار

« رونالد لينج » أحدث علماء النفس فى انجلترا اليوم .
تقسم « الجيتا » النفس الى نفس غير حقيقية وتسميها اللا نفس . والنفس الحقيقية وتطلق عليها اسم « النفس » .
أما علماء النفس المحدثون فيستخدمون كلمة النفس المزيفة . والنفس الحقيقية . وهناك بالطبع اختلافات فى التحليل والشرح ولكن كم يأخذ هؤلاء العلماء الاوربيون من الفلسفات القديمة وكم يتجاهلون مصادرها الحقيقية .
وكما طمس الأوربيون والمستعمرون الحضارات القديمة التى أزدهرت فى الشرق مثل الحضارة المصرية القديمة ، حضارة الهند ، حضارة العرب وغيرهم فقد طمسوا أيضا أدبهم ـ وثقافتهم الحاضرة .
وتدخل « الجيتا » بعمق فى تحليل النفس البشرية، وفى الامور الفلسفية وتنكر وجود قوى خارج الانسان مجهولة له . تقول « الجيتا » ان هذا الشىء الذى داخلنا والذى يرصد حركتنا هو النفس الحقيقية وهى ساكنة ثابتة حيث لا يمكن لها مراقبة النفس الاخرى الا من موقع ثابت ساكن . هذه النفس الساكنة الثابتة هى النفس الخالدة فى رأى « الجيتا » أى هى « الله » . بمعنى آخر ان « الله » داخل الانسان وليس خارجه ، وهذا المعنى هو احد المعانى الحديثة التى عبر عنها بعض الفلاسفة المحدثين من أمثال اريك فروم ورواد ما سمى بالفلسفات الانسانية . تقول « الجيتا » ان أى انسان يمكن ان يكون الها اذا ما أبتعد عن نفسه غير الحقيقية واقترب من نفسه الحقيقية الخالدة ، ان النفس غير الحقيقية هى النفس النهمة الى الملذات المادية الدنيوية الزائلة . أما النفس الحقيقية فهى التى

تنتصر على تلك الرغبات وتعلو عليها وتصل الى اكتشاف جوهر السعادة الحقيقية التى لا تزول وتدعو « الجيتا » الانسان الى ان يفكر طويلا وأن يحاول أن يصل الى نفسه الحقيقية عن طريق الزهد والعزلة والانفصال عن الحياة والتفكير العميق الطويل . لكنها تقول للانسان فى بعض اجزاء منها أنه لابد أن يعمل فى الحياة بغير كلل أو ملل . والسؤال هنا أليس من حق الذى يعمل أن ينال عن عمله أجرا يساعده على الاستمتاع بما فى الحياه من ملذات ؟ كيف اذن تدعوه « الجيتا » الى العمل ثم تدعوه الى الزهد والانعزال عن الدنيا وما فيها ؟ هذا تناقض واضح تحاول « الجيتا » أن تفسره بأن تقول أن الوصول الى النفس الخالدة الكلية أمر بالغ الصعوبة ولا يصل اليه الا القلة من صفوة الناس .

وهناك عبارة فى « الجيتا » تقول فيها للناس مامعناه أن اعملوا وانظروا الى العمل ذاته ولا تتطلعوا الى ما سيعود عليكم من هذا العمل . وبرغم هذه الفلسفة العميقة الانسانية القائمة على الفعل والتفكير والتامل الا اننى لا اتفق مع هذا الرأى الذى يدعو الناس الى العمل دون أن يتطلعوا الى نتائج العمل ، لان هذا الاتجاه يسهل لغيرهم أن يستغلهم ويربح من وراء جهودهم وعملهم . وقد وجدت فى « الجيتا » رغم ارتفاع قيمتها الفلسفية والفكرية بعض التناقضات التى لا يخلو منها أى دين من الاديان ، لكنها فى رأيى من اكثر الكتب الدينية اعتمادا على الفعل والتفكير المنطقى الفلسفى وليس على المعجزات والخرافات والاحكام القاطعة التى لا تقبل المناقشة . ان الانسان هو المعجزة الوحيدة فى « الجيتا » وهى تحثه على أن يكتشف نفسه وقوته

العظيمة الداخلية ولا يكون ضحية للظروف الخارجية .
انها تقول أن الانسان سيد نفسه وسيد الظروف الخارجية أيضا ويجب الا يرضخ لها وأن يغيرها لصالح الناس جميعا .

كنت أتساءل دائما لماذا لا يخاف الانسان الهندي الموت كما نخافه نحن . ووجدت الاجابة على هذا التساؤل فى « الجيتا » انها تقول ان الموت ليس موتا وانما هو انتقال الروح من جسد الى جسد آخر افضل من الجسد الاول . كما نفرح نحن بانتهاء الطفولة وانتقالنا الى مرحلة النضوج يفرح الهندى بالموت ويرحب به كانتقال الى حالة أفضل واكثر نضوجا .

تقول « الجيتا » أيضا ان التغير هو قانون الحياة الوحيد الذى لا يتغير ، وأن الخلود هو الحالة التى يصل اليها عقل الانسان حين يقبل أن كل لحظة وكل تجربة وكل عقل وكل جسم وكل شىء فى الحياة ليس خالدا . كل شىء فى العالم يتغير . الحر والبرد فلماذا يضايقنى الحر او البرد ؟ كل موقف يتغير ،الحزن أو الفرح ، النجاح أو الفشل ، فلماذا يضايقنى الحزن او يسعدنى الفرح ؟ الهندى الحكيم فى رأى « الجيتا » هو الذى لا يفرح ولا يحزن ولا يتألم من حر او برد أو جوع أو عطش . يقول اللورد كريشنا فى احدى فقرات « الجيتا » ، « هذا الانسان الصلب ، الذى أصبح لديه الفرح والحزن سواء بسواء ، انه أهل لان يفهم خلود الروح » .

من هذه الفلسفة ظهر فى الهند هذا الاتجاه الىالانتصار على الالم وتحمل كافة انواع التعذيب كالنوم فوق المسامير ، ورفض الملذات ومنها الطعام والجنس

واستعذاب الحرمان والآلام . وقد اثرت هذه الفلسفة الهندية القديمة فى غاندى وأصحابه وفى كثير من زعماء الهند بل فى كثير من افراد الشعب الهندى العادى . لا اظن ان أحدا فى العالم يستطيع أن يتحمل الفقر والجوع كما يتحمله الانسان الهندى . هذه الفلسفة لها ميزات ولها عيوب . من ميزاتها انها تقوى الناحية النفسية والروحية فى الانسان ، لكنها من ناحية اخرى تضعف رغبته فى محاربة اسباب الفقر والجوع بل تجعله فريسة سهلة للمستغلين والمستعمرين .

وقد حاول الانجليز طوال استعمارهم للهند أن يزيدوا من فلسفة الزهد هذه كما فعلوا بالاديان فى المستعمرات الاخرى .

فى بعض فصول « الجيتا » شرح علمى طويل للنفس الانسانية : ومراحل العمر المختلفة . تقول « الجيتا » أن طفولتنا ليست الا مرحلة تموت وتولد بعدها مرحلة الشباب التى تموت بدورها وتولد الشيخوخة . ولكننا نذكر الطفولة والشباب والتجارب التى مرت فى حياتنا وانتهت .

هذه الذاكرة التى ترصد حركتنا وتجاربنا التى تبدأ وتنتهى لابد أن تكون هى ساكنة ثابتة . لا يمكن لنا أن نرصد حركة الشيء ونحن نتحرك داخله . لا نعرف حركة القطار ونحن داخله . وكذلك النفس الانسانية . لكل انسان منا نفسان . نفس تتحرك وتعيش التجارب ونفس اخرى ساكنة لا تتحرك ترقب النفس الاخرى . تقول « الجيتا » أن النفس الساكنة الثابتة هى النفس الخالدة غير المتغيرة وهى الحقيقية وهى الواعية . أما النفس المتحركة فهى غير حقيقية وهى زائلة ، وهى متغيرة وهى غير واعية بما يحدث لها لانها عاجزة عن الرصد

والمراقبة وبالتالى عاجزة عن الوعى وادراك حقيقة الامور .

تحث « الجيتا » الانسان على أن يكافح من اجل أن يصل الى نفسه الحقيقية غير المتغيرة وبهذا ينتصر على الموت ويظل حيا وان مات جسده ، فالجسد ليس الا جزءا من النفس غير الحقيقية الزائلة .

يقول اللورد كريشنا « لارجونا » فى احدى فقرات « الجيتا » : —

« حارب ، لا تخشى الموت وانت تقاتل . حين يقتل جسدك فسوف تظل نفسك الحقيقية خالدة . كما تخلع ملابسك تخلع النفس الجسد عند الموت وترتدى جسدا آخر جديدا أكثر تناسبا لها . رسالة كرشنا للانسان هى أن يبتسم ، فالانسان الحكيم هو الذى لا يحزن أبدا ، أما البكاء فليس ألا للبلهاء . ان الحياة ليست الا سلسلة متصلة لا نهائية من الولادة والموت والولادة والموت . والانسان لا يموت أبدا وانما يتخذ جسده من كل موت أشكالا مختلفة . وهذه الفكرة تشبه ماقاله الماديون من أن المادة لا تفنى وانما تتحول الى اشكال اخرى من المادة . جسد الانسان يتحول عند الموت الى كربون وغازات تدخل فى تكوين كائنات أخرى حية وهكذا . وكما قال الفلاسفة أن قانون الحياة الوحيد الثابت هو قانون التغيير — قالت الجيتا أيضا هذه الحقيقة . لكن « الجيتا » فصلت بين الفلسفة وبين الحياة ألتى يعيشها الانسان واوقعت الانسان العادى فى تناقض شديد مثلها مثل الاديان الاخرى التى فصلت بين الدين والدنيا . كما انها أسست فلسفتها على وجود المطلق وهو النفس الخالدة غير المتغيرة ، على حين أن

الفلسفة المادية تقول ان كل شيء في الحياة نسبي وليس هناك شيء مطلق .

وتدخل الجيتا ايضا في شرح قانون السببية فى الحياة وتقول أن كل شيء له سبب لكنها تقول ان هناك عالمين .. عالم الاسباب وهو غير مرئي وعالم المسببات وهو العالم المرئي وأن الخروج من العالم اللامرئى الى العالم المرئى هو نوع من الخلق ويتبع قانون السببية .

تقول « الجيتا » أن الذى يخلق هو الانسان حين يدرك عظمة نفسه . أما الانسان الضال فهو هذا الذى نسي عظمة نفسه . الله هو الانسان حين يدرك عظمة نفسه . لورد كرشتا كان انسانا عرف عظمة نفسه ولهذا استطاع أن يخلق الجيتا . الخلق يحدث مرة واحدة ويعجز الانسان عن أعادة ماخلقه مرة ثانية . لورد كريشنا نفسه عجز عن أعادة « الجيتا » حين طلب منه « ارجونا » أن يكتبها مرة اخرى . هذا الخلق العقلى والفنى والالهام ليس الا اتحاد الانسان بنفسه وهو يتطلب جهد وصبر وقدرة على التركيز على النفس من أجل اكتشافها .

وقد وجدت أن « الجيتا » كانت أكثر من العقل الغربى الحديث أدراكا لماهية الالهام الفنى وضرورة الجهد الانساني والعمل المتصل للوصول اليه . كثير من المفكرين فى الغرب قالوا ان الالهام الفنى عملية مجهولة وتأتي للانسان بالصدفة . بعضهم قال ان الالهام يهبط من السماء . لكن الدين الهندوكى لا يعترف الا بالجهد الانسانى ، وليس فى هذا الدين اله سوى الانسان ، وليس فيه معجزات امام الانسان الخلاق الذى عرف نفسه واكتشفها .

وتشرح « الجيتا » فلسفة « اليوجا » وتقول أن اليوجا

هي وصول الانسان الى النقاء العقلي ، او الى الارتفاع فوق « الانا » وفوق العقل المادي والتحرر من الاضداد في الحياه . لان الحياة تقوم على الاضداد ، على الخير والشر ، على الفرح والحزن ، على الالم واللذة وهكذا . . اليوجا ارتفاع فوق كل هذا . معنى ذلك ان ينتصر الانسان على الالم وعلى اللذة ايضا ويصبح بغير الم وبغير لذة .

اليوجا هي فن العمل بغير لذة وبغير الم . هي ان يصبح الانسان منفصلا عن رغبات « الانا » جميعا سواء كانت رغبات خير ام شر .

وتقول الجيتا ان فن الحياة هو ان تعيش هذه اللحظة الحاضرة لانها اللحظة الحقيقية الوحيدة ، فالماضي مات ، والمستقبل لم يولد بعد . لا تندم ولا تحزن على اي شيء مضى ، ولا تأمل ولا تخاف من اي شيء سيحدث في المستقبل . ذكرني هذا باغنية زوربا اليوناني حين قال : لا اخشى شيئا . لا آمل شيئا . انا حر ـ تقول « الجيتا » عش هذه اللحظة الحاضرة بكل ماعندك . انسى نفسك او اعط نفسك كلية لهذه اللحظة . حينما تقوم بعمل ما اعط نفسك تماما لهذا الشيء الذى تعمله تكتشف انك قد خلقت شيئا عظيما .

أن تنسى نفسك في اللحظة الحاضرة معناه ان تنسى احزان وافراح الماضي وان تنسى آمال ومخاوف المستقبل .

بعبارة اخرى أن تكون حرا . معناه أن تنسى « الانا » وتعيش ملتصقا « بالنفس » الخالدة فيك أو « الله » داخلك . أن تكون كالجبل او البحر أو المحيط الذى لا يؤثر فيه شيء . هنا القوة والانتصار على كل شيء

في الحياه ، والوصول الى حالة من السمو فوق الخير والشر معا .

بهذا كله لا ينشغل عقلك في القلق أو الخـــوف أو الترقب أو الندم أو الامل أو غير ذلك من هذه المشاعر والرغبات . يتفرغ العقل تماما لما هو يعمله في هــذه اللحظة .

تقول الجيتا أن هذا التفرغ الكامل هو سر العبقرية وسر قدرة الانسان على الخلق ، وسر النجاح في العمل والفن واى شيء آخر .

لكن نسيان النفس أو اغراق النفس في اللحظة تحتاج الى جهد وتركيز شديدين . انها حالة ادراك نفسية عالية جدا وعظيمة القوة . هذه القوة التى لا توصف « تسميها الجيتا المايا » مثل قوة الكهرباء التى لا ترى .

هذه القوة لا ترى الا فيما تحدثه من آثار الكهرباء لا ترى الا من خلال تحريكها للالات الضخمة .

وهذه القوة النفسية العالية بمثل الكهرباء ، لا تري ولكنها تجعل الانسان قادرا على القيام بأعظم الاعمال وتحريك الصعب .

حين يصبح العقل نقيا من خلال الاغراق الكامل في اللحظة الحـــاضرة والتفاني في الشيء الذى يعمله فانه يصبح قادرا على أن يخترق « حجاب الجهل » الذى يفصله عن عظمة نفسه الكلية . هذا الحجاب من الجهل تصفه « الجيتا » على أنه يشبه النسيج الرقيق الشفاف من الشك وتردد الانسان في فهم نفسه أو ممارسة قوتها وهذا مايسمى بالقوة الخارجية أو المضللة .

ولكن قبل أن يصبح العقل نقيا تماما وقبل أن يصبح قادرا على الرؤية من خلال ذلك الحجاب وقبل أن يصل

الى تلك العظمة التي تشع حرارة وضوءا كالشمس فانه لابد أن يعرف العالم الخارجي ولذائذه كنوع من التسخين الصناعي « يشبه مدفأة صغيرة كهربية او من نار الفحم » ، ولكن حين يكتشف الشمس فسرعان مايهجر تلك النار الصغيرة ويخرج الى الخلاء والرحابة والشمس ، ويحصل الانسان على الحكمة والمعرفة ، ويستطيع أن يفرق بين « النفس » و « اللانفس » أو بين الحقيقى وغير الحقيقى ، ويصبح كل شيء فى العالم أمامه سواء ، لا يفرح ولا يحزن ، ولا يغضب ولا يأمل ولا يخاف ولا يقلق . يصل عقله الى حالة الاستقرار الكاملة حيث لا يهزه شيء ولا يغيره شيء . هذا الانسان تقول عنه « الجيتا » انه قد حصل على الحكمة أو « اليوجا » ، أو قيمة الوعى .

مثل هذا الانسان يصبح اهلا للزعامة أو النبوة او لقيادة غيره من الناس للوصول الى الحكمة والمعرفة . ولكنه قد يكون مكروها بسبب قوته العظيمة ، فالناس يخشون الشخص الذى لا ينفعل مثلهم ولا يتأثر ولا يغضب ولا يفرح ولا يؤثر فيه شيء . انهم قد يطاردونه وقد يقتلونه كما فعلوا مع بعض الزعماء والانبياء واصحاب الرسالات .

ذكرني هذا التحليل فى « الجيتا » برواية « فولكنز» بعنوان « ضوء في اغسطس » كان بطل هذه الرواية « كريسماس » لا يغضب ولا يفرح . وكان الناس يندهشون له ولا يرونه الا مستغرقا فى عمله أو مستغرقا فى تدخين سيجارة مثلا . وانتهى به الامر الى أن قتلوه لاسباب متعددة . اما صديقه الآخر « براون » فكان على عكسه . كان كتلة من الانفعالات يضحك ويغضب

فى اللحظة الواحدة عدة مرات ، وكان الناس يحبونه لكنهم فى أعماقهم يحتقرونه . أما « كريسماس » فكان مكروها لكنهم فى أعماقهم كانوا يحترمونه ويعجبون بقوته ويتمنون أن تكون لهم مثل هذه القوة .

تقول « الجيتا » أنه بالوصول الى الحكمة وهذه الدرجة العليا من الوعى فان الانسان يصل أيضا الى السعادة . هذه السعادة لا يصل اليها الانسان الا بعد ان يجتاز ثلاث مراحل :

١ ــ معرفة لذائذ ورغبات جسمه وعقله عن طريق التجربة .

٢ ــ التخلص من هذه اللذائذ والآلام معا والوصول الى حالة عدم الرغبة فى شيء .

٣ ــ الوصول الى لذة جديدة هى لذة الوصول الى « النفس » .

اذا توقف الانسان عند اية مرحلة من هذه المراحل يصبح انسانا شقيا أو مريضا . لابد أن يكمل الطريق كله ليصل الى السعادة الايجابية الحقيقية . ان المرحلة الاولى وهى معرفة لذائذ الحياة ليست الا سعادة مؤقتة سلبية . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة شقاء وتعاسة ومرض نفسى اذا لم يكملها الانسان بالمرحلة الثالثة ويكتشف اللذة الجديدة .

ويشبه هذا التحليل ما كتبه « اريك فروم » عن الحرية السلبية والحرية الايجابية ، وهى تكاد تكون موازية للسعادة السلبية والسعادة الايجابية . ويقول اريك فروم أن الحرية السلبية وحدها تسبب القلق والتعاسة والوحدة وغربة الانسان عن نفسه ، أما السعادة الايجابية فهى تعيد صلة الانسان بنفسه الحقيقية

والعالم من حوله فلا يشعر بالوحدة ولا الشقاء .
ويشبه أيضا تحليـل « رونالد لينج » حـين كتب « عصفور الجنة » وقد وصف « لينج » رجلا تنـاول عقارا من عقارات الهلوسة الحديثة وتسـمى عقـارات « سيكوريليك » وانه استطاع أن يخترق حجاب الجهل « مع الفارق فى التشبيه » وأن يصل الى درجة أعلى من الوعى الى حد أنه أحس أنه الله . ووصف « لينج » حالة الخوف التى تصاحب التجربة . وحالة أشـبه بالجنون وفقدان العقل ، لكن ما أن يجتازها الانسـان بشجاعة وقوة حتى يصل الى تلك الدرجة العـالية من الوعى ويكتشف نفسه وقوته .
من خبرتى مع بعض حالات الادمان بعقارات مختلفـة ومنها ل . س . د وصف لى المدمنون حالتهم حين يجتازون بواسطة العقار حاجز الخوف ويصلون الى تلك الحالة المدهشة من الرؤية الجديدة التى توحى اليهم بأفكار فنية عالية .
لم تتكلم « الجيتا » بالطبع عن تلك العقارات ، لانها لم تكن تعرفها . لكن بعض علماء النفس قارنوا بين الوصول الى تلك الرؤية الجديدة عن طريق العقـارات « أى صناعيا » وبين الوصول اليها عن طريق اليوجا وهو الطريق الطبيعى الشاق الطويل قالوا أن الذى يصل اليها عن طريق العقار كالذى يسرق بسرعة شيئا وقد ينجو وقد يقع وينتهى تماما . أما الذى يصل عن طريق مراحل اليوجا المتدرجة الطويلة فانه فى مأمن مـن الجنون أو الشقاء ألا اذا توقف فى منتصف الطريق . ولهذا ينصح هؤلاء العلماء الناس بالا يقدموا على مثـل هذه العقارات . أو مثل هذه اليوجا الا اذا كانوا واثقين

من قدرتهم على الاستمرار والصمود والتغلب على الصعاب التي تقابلهم أثناء الطريق الوعر الخطر .

ان خطورة هذه التجارب هي أننا البشر قد تعودنا على أن الحقيقة هي مانراه وما نسمعه وما تعرفه حواسنا لكن الانسان الذى يصل الى درجة أعلى من الوعي ويرى أشياء لا يراها الآخرون . هذه الاشياء التي يراها يكتشف حقيقة أخرى تسمى « الحقيقة غير العادية » بقوة ابصاره الجديدة هي أشياء حقيقية ، لكنها في نظر الاخرين غير حقيقية لانهم لا يرونها مثله . ولهذا يصبح هذا الشخص مجنونا في نظر الناس . وقد يصبح مجنونا أيضا في نظر نفسه وهنا الخطر . لان الانسان اذا ما فقد الثقة في نفسه وعقله انهار تماما وأصبح مجنونا بالفعل لكنه اذا حافظ على ثقته بنفسه وعقله فسوف يمر بالتجربة دون خوف ويجتاز حاجز الخوف ويصل الى المرحلة النهائية من السعادة أو الحرية أو الحكمة أو القوة .

وتختلف قدرات الناس حسب ثقتهم بأنفسهم . الانسان القوى هو الواثق في نفسه الذى يفعل ما يراه صائبا وليس ما يراه الناس صائبا . أما الشخص الفاقد الثقة بنفسه فانه يفعل ما يراه الناس صائبا بصرف النظر عما يراه هو . وبين هذين الاثنين يتدرج الناس أنواعا مختلفة حسب درجات ثقتهم بأنفسهم .

قضيت عدة أيام وليالى أقرأ « الجيتا » ، وأفكر ، وأتذكر كثيرا مما قرأته حديثا وقديما ، بل أتذكر حوادث في طفولتى نسيتها . كانت « الجيتا » أشبه بعمل فنى عظيم يثير أحاسيسى وأفكارى بل أشبه بعمل علمى عظيم يشرح النفس ويذكرنى بقراءاتى في علم النفس

والفلسفة والاديان . « الجيتا » كتاب دينى . وهو كتاب الدين الهندوكى لكنى وجدته مختلفا عن الكتب الدينية التى قراتها للديانات المختلفة وقد فكرت فى ان أعمل دراسة عميقة نوعا ما اقارن فيها بين « الجيتا » وبين الكتب المقدسة الاخرى السماوية منهـا وغير السماوية . وقد أفعل ذلك يوما .

وقد وجدت فى « الجيتا » من أفكار فلسفية عميقة وعلم نفس ومنطق منظم يعتمد على الفكر والعقل أكثر من كثير من الكتب الدينية الاخرى التى تورد بعض الاحكام والمعجزات بغير تحليل وبغير منطق علمى أو فلسفى ، وانما تعتمد فقط على نوع من الايمان الاعمى بحقائق ثابتة .

***

قالوا لى فى دهشة : الم تذهبى الى جايبور ؟ قلت : ماذا فى جايبور ؟ قالوا : جميع السياح يذهبون الى جايبور . قلت : ولكنى اذهب الى حيث لا يذهب السياح ، فانا اريد أن أعرف الهند الحقيقية . قالوا : لابد اذن أن تذهبى الى جايبور .

أعطتنى المضيفة الهندية جريدة الصباح . « اليوم ٢١ فبراير ١٩٧٥ » قرات فى الصفحة الاولى خبرا يقول أن البوليس ضبط كميات كبيرة من الذهب والمجوهرات ومائة مليون روبية فى احدى الحجرات السرية داخل احد المهراجا فى مدينة جايبور بولاية راجاستان . قام البوليس بحملة تفتيش كبيرة فى قصور جايبور ، واغلقت هذه القصور لمدة ستة أيام متصلة ولم تفتح ابوابها مرة اخرى للسياح الا منذ ثلاثة أيام .

قلت لمضيفة الطائرة : اذن لو حضرت الى جايبور

منذ ثلاثة ايام لما استطعت أن أزور هذه القصـــور .
وابتسمت المضيفة السمراء الجذابة وقالت : نعم . انت محظوظة .
وسالتها : ما هذه القصور المشهورة فى جايبور ؟
قالت : هذه القصور كان يملكها حكام راجاسنان . لم تكن ولاية واحدة كما هى الآن ولكنها كانت مقسسمة الى عشرين ولاية ولكل ولاية منها مهراجا ، ولـــكل مهراجا عدد من القصور الضخمة . وقد عثر البوليس على هذه الاموال والمجوهرات فى حجر نوم سرية داخل القصور .
وسالتها : ومن يعيش الآن داخل هذه القصور ؟
قالت : بعضها أصبح متاحف يقصدها الســياح ، وبعضها تحول الى فنادق درجة أولى ، وبعضها لايزال يسكنه أولاد المهراجا وزوجاتهم .
هبطت الطائرة الصغيرة فى مطار جايبور . انطلـق نحونا رجل هندى « يقوم بدور المرشد للسياح » وأخذ يعرض علينا خدماته . وأخذنا الى العربة الهنـــدية الصغيرة وركب الى جوار السائق بعد أن قال له بالهندية بضعة كلمات .
فى الطريق الى المدينة رأيت قصرا ضخما قائما فوق ربوة عالية . وقال المرشد الهندى . هذا أحد القصور الخاصة التى لا يدخلها السياح .
قلت : ومن يعيش فى هذا القصر الضخم ؟
قال : ابن المهراجا الذى كان حاكما لهذه الولاية قبل الاستقلال .
سألت : هل فتشوا قصره ضمن القصور التى فتشها البوليس فى الايام السابقة .

قال : نعم . وقد وجدوا جواهر وملايين الروبيات .
قلت : وماذا فعل ابن المهراجا ؟
قال : لا شيء . ترك القصر مؤقتا وذهب ليعيش فى قصر آخر ثم عاد الى قصره بعد انتهاء التفتيش . انه بغير قوة وبغير سلطة الان ولكنه يملك اموالا طائلة .
قلت : هل هو الابن الوحيد للمهراجا ؟
قال : لا . ان أبناء هؤلاء المهـــراجات كثيرون وهم ينفقون ببذخ ويعيشون فى القصور ويخفون الاموال فى حجرات سرية حتى لا يدفعوا عليها اية ضرائب .
قلت : هذا على حين يجوع الملايين فى الهند .
قال باسى : نعم . لكن الحكومة الآن بدات تفتش قصورهم .
قلت : من هو أشهر مهراجا سابق حكم هنا ؟
قال : انهم كثيرون ، ومن اشهرهم المهراجا مادوسبنج وسوف ترون قصره الآن .
وانطلقت بنا السيارة فى شوارع جايبور ، تشبه الشوارع فى اى مكان بالهند . وحركة الشارع متشابهة والوجوه متشابهة ..
جايبور يحوطها سور ضخم قديم بناه الحكام السابقين يشبه سور مدينة مصر القديمة لكنه اكثر ضخامة . لهذا السور ثمان بوابات ضخمة ، احداها بوابة ملكية لا يدخل منها السياح ولكنها مخصصة حتى الآن لابناء وبنات المهراجا السابق . هى مغلقة طول العام . ولا تفتح الا حين يرغب أحدهم فى زيارة المتاحف الداخلية .
دارت السيارة حول السور لتصل الى البوابة الخاصة بدخول السياح . لاحظت أن وجوه الناس فى الشوارع والدكاكين اقل اعياء واكثر صحة من المدن الاخـرى .

وعرفت أن جايبور من أغنى المدن فى الهند « ترتيبها فى الثراء رابع مدينة » وذلك بسبب توافـر الاحجار الكريمة بها . يعمل فى جايبور وحدها أكثر من ٥٠٠٠٠ عامل فى قطع الاحجار الكريمة . لكن معظم الوجوه تعلوها الحفر والبقع مما يدل على أن مرض الجدرى كان منتشرا هنا منذ سنوات . الشوارع تعلوها البقع الحمراء ، ومن حين الى حين ألمح رجلا يبصق ذلك البصـاق الاحمر بعد أن مضغ ورقة « البيقل » فى الايام الاولى لزياراتى للهند كنت الاحظ أن أفواه معظم الرجـال حمراء . حين يفتح الواحد منهم فمه ليتكلم أو يتثاءب يظهر فمه من الداخل ملونا باللون الاحمر . وفى بعض الاحيان تكون الشفاه أيضا من الداخل ومن الخـارج حمراء كأنما دهنت بصبغة حمراء أو أنها تنزف على الدوام دما أحمر .

ومن أهم الاشياء التى تلفت النظر فى الهند تلك العادة الغريبة التى يمارسها الرجال « وبعض النساء » فى جميع أنحاء الهند . مهما اتجهت شمالا أو جنـوبا أو شرقا أو غربا تدرك أن هذه العادة منتشرة بين معظم الرجال وبين عدد غير قليل من النساء .

ترى الرجل منهم قد جلس ، وأخذ يمضغ فى فمـه شيئا . وبعد قليل ترى لعابا أحمر اللون يسيل عنـد زاويتى فمه . وبعد مدة قد تطول وقد تقصر تراه يبصق على الارض لعابا أحمر بلون الدم .

كنت أندهش حين أرى شفاه الرجال حمراء مـن الداخل أو حين أرى تلك البقع الحمراء المنتشرة فوق شوارع أية مدينة فى الهند . وأدركت من بعد أن هذا يرجع الى تلك العادة ، عادة مضغ ذلك الشىء .

ذكرتني هذه العادة برحلتي الى اليمن ، حين رأيت الرجال والنساء في عدن يجلسون ويمضغون القات ويسيل لعابهم من زاويتي الفم . لكن ذلك الشيء الذي يمضغ في الهند ليس هو القات ، وانما هو ورقة شجرة اسمها « البيقل » يلف داخلها قطعا صغيرة صلبة من ثمرة تشبه جوزة الهند وقد خلصت بمسحوق أحمر من الجير الحجري على شكل عجينة ، يقولون أن هذه التركيبة حين تمضغ على مهل تصيب الانسان بحالة اشبه بالشبع وهو شبع مزيف يقاوم به فقراء الهنود الجوع وقلة الطعام ، لكنه أصبح من بعد عادة معظم الناس . لانه يحتوى على مادة مخدرة تسبب ذلك الشعور بالشبع وتسبب أيضا نوعا من الادمان . وقد مضغت هذا الشيء مرة واحدة كما مضغت القات في اليمن مرة واحدة ولم أشعر بأية لذة . وهذا طبيعي لان مثل هذه المواد تحتاج الى تكرار لتنشأ العادة . ان الذي يذوق الخمر لاول مرة يبصق بسبب مرارتها ولكن بعد التعود يدمنها ويحبها . ولكل شعب مواده الخاصة وادمانه الخاص حسب مشاكله وحسب المواد التي ينتجها أيضا . لقد اكتشف الشعب في جزيرة سيلان مادة مخدرة في عصير شجرة جوز الهند فأصبح يستخرجها بطرقه الخاصة وأدمن عليها . وفي الهند يصنعون « العرقي » وهو مسكر مثل الخمر والنبيذ ، وقد يكون أشد .

دخلنا من البوابة الضخمة الى قصر ضخم يشبه قصور الشاه في شيراز بايران ، أو قصور القيصر في لينجراد ، أو القصور التي لاهي هنا ولا هناك وانما

نراها فقط فى الاحلام والخيال لم اكن اتخيل ان الاباطرة المسلمين الذين حكموا الهند قد عاشوا هذه الحياه . لعلهم ارادوا أن يصنعوا الجنة فوق الارض بعد ان تأكدوا من سوء أفعالهم . وظلمهم للشعب الهندى الفقير أنهم ذاهبون الى جهنم الحمراء .

على انهم استطاعوا أن يتغلبوا على جهنم فوق الارض ، فالصيف فى الهند يلتهب فيه الجو كالنار ، وداخل هذه القصور تجد حجرات كاملة بنيت بالرخام الخالص . وهذا الرخام يظل باردا كالثلج رغم حرارة الجو . كما أنهم عرفوا تكييف الهواء ولكن بطريقة اخرى كانوا يضعون فى الجدران أنابيب تجرى فيها المياه المكشوفة التى تتبخر وترطب الجو . وداخل القصور تجد البحيرات ، والحدائق ذات الزهور والاشجار . وهناك أجنحة كاملة بالرخام المزخرف بالنقوش الذهبية والفضية . وجدران كاملة مصنوعة بالمرايا وماء الذهب وقصور للصيف وقصور للشتاء على غرار قصور القيصر فى روسيا . وقصور للحريم وقصور للرجال . وهناك قصر عجيب اسمه قصر « الهواء » ، وقد بنى خصيصا لتجلس فيه زوجات وبنات المهراجا ويتفرجن على الاستعراضات العسكرية فوق الفيله والخيول والجمال . فقد كان « الحريم » من النساء ممنوعات من الظهور أمام الناس لان ذلك ينافى تقاليد الحكام المسلمين . وبنى القصر بشرط إن يدخله الهواء من جميع الجوانب حتى لا تتعرض النساء المرفهات لحرارة الجو اثناء الفرجة على فرق الفيلة والخيول والجمال . كانت المراة منهن بحجم الفيل « رأينا بعض الملابس الداخلية والخارجية

للمهراجا ونسائه فى متاحف الملابس بالقصور » وكانوا ينقلونها من قصرها الى قصر الهواء على عربة ضخمة يجرها عدد من الرجال أو الفيلة ولهذا كان العرق يتصبب بسرعة من جسدها الضخم ولابد من تيارات مستمرة من الهواء لترطب هذا اللحم الوفير .

ورأيت جدار قصر الهواء رفيعا جدا مليئا بالنوافذ العديدة الصغيرة كالشقوق . وقال المرشد أن سمك جدار هذا القصر ليس الا ثمانى بوصات فقط وذلك من أجل التهوية أيضا وارتفاعه خمسة أدوار . أما النوافذ على شكل ثقوب فكانت لتنظر منها النساء على الناس دون أن يراهن أحد .

تحول هذا القصر الآن الى مكاتب حكومية ، وامتلأت واجهته العريضة بالحوانيت التجارية الصغيرة ، وأمامه رأيت بعض القرود تلعب وتقفز على نوافذه . فى جايبور ترى القرود فى كل مكان من المدينة ، وقالوا ان هناك غابات على بعد ٦ أميال فقط لاتزال تسكنها القرود واقتربت من أحد القرود فمد يده وسلم على وقال لى المرشد انه من نوع القرود السوداء المنتشرة فى هذه المنطقة .

تحولت بعض القصور فى جايبور الى جامعات ومعاهد ، وبعضها تحول الى فنادق ، والبعض بقى كآثار يتفرج عليها السياح .

نزلنا فى جايبور فى أحد القصور التى تحولت الى فندق واسمه « رامباج » « رام » معناها الله ، باج معناها حديقة . هذا القصر عاش فيه المهراجا « مون سنج الثانى » الذى مات فى انجلترا منذ أعوام قليلة

« ٥ أعوام » وكان من أحسن اللاعبين على الحصان لكنه سقط من فوق جواده ومات .

جدران الفندق مزخرفة بالنقوش البديعة ، تعلوها اللوحات الاثرية وصور المهراجا . حديقة الفندق أشبه بحديقة سحرية كأنما يتنقل فيها الانسان الى عالم خيالى من الالوان والعطور وأحواض الزهور ، يطـــل من بين الشجيرات عدد من الطاووس الملون ، يسير بخيلاء بين الزهور ، ويبسط ذيله الملون بمئات الالوان المختلفة .

حجرة نومنا كانت ايضا سحرية ، والسقف مزخرف بالنقوش الذهبية والفضية . قلت لزوجى : من الصعب أن يأتينى النوم فى مثل هذه الحجرة . وأصابنى الارق فذهبت لآخذ حماما دافئا لكنى أكتشفت أن الحمـــام ايضا سحرى . يشبه حمام المهراجا الذى تفرجنا عليه أول النهار وصنابير المياه فضية والوان الجدران والسقف تصيب العين بالدوار . لم أستمتع كثيرا بالحمام الدافىء بسبب عدم التعود على مثل هذه الحياه . كان يخيل الى أن الماء الذى يخرج من الصنابير قد تحـــول الى أسلاك فضية أو ذهبية تكهرب الجسم . حين خرجت من الحمام رأيت زوجى قد ارتدى « الشورت » وبدأ يجرى فى الحجرة . وضحك وهو يقول : لم أمـــارس رياضة الجرى منذ ايام وهذه الحجرة أكثر اتســـاعا من الملعب وارتديت مثله « الشورت » وبدأت أجـــرى أنا الاخرى .

اكتشفت بعد قليل وجود السرير ، ويـكاد يشـــبه سرير المهراجا . واقتربت من السرير فى وجل ، وقال زوجى ضاحكا : من المستحيل ان يأتينى النوم فى سرير

كهذا ؟ وجلسنا بقية الليل نتفرج على معالم السرير والجدران والنقوش كأننا داخل متحف ، ولم ننم الا ونور الفجر يشقشق ، في الصباح حملنا حقيبتينا وغادرنا القصر بخطوات سريعة .

من أغرب ما رأيت في جايبور هو « البيجاما » أو المنامة التى كان يرتديها أحد المهراجات واسمه المهراجا « مدو سنج » . كانت هذه المنامة ضمن المعروضات فى متحف الملابس داخل أحد قصور جايبور . لم تدهشنى الحلى الذهبية التى زينت المنامة « كل ملابس المهراجات وزوجاتهم محلاه بالجواهر والحلى الثمينة سواء كانت ملابس خارجية أو داخلية » لكن الذى أدهشنى هو حجم المنامة وقلت للمرشد فى تعجب : ماهذا ؟؟

قال المرشد : منامة المهراجا مدوسنج .

قلت : ولكنها تتسع لعشرة أشخاص معا أو لفيل ضخم .

وقال المرشد : هذا المهراجا كان طوله سبعة أمتار وعرضه مترا ونصف . كان يأكل كثيرا ويتحرك قليلا ، وحين ينتقل من مكان الى مكان يحملوه فوق عربة .

وحين دخلت قصر المهراجا مدوسنج رأيت العربة التى كانت تحمله داخل القصر من حجرة الى حجرة ومن دور الى دور . والى جوار الدرجات العادية التى نصعد عليها من الادوار السفلى الى العليا كانت هناك مزلقانات لتجرى فوقها العربات من تحت الى فوق حاملة المهراجا « أو زوجته الضخمة أيضا » . وكان يجر هذه العربات خدم بالقصر مخصصون لهذا العمل . وقال المرشد أن المهراجا « أو زوجته » كان ينتقل من حجرة

النوم الى الحمام على عربة ، ومن حجرة الطعام الى حجرة الاجتماعات على عربة . لم يكن يسير على قدميه الا نادرا ، واذا ما سار بضع خطوات اصابه الارهاق واخذ يلهث .

قصور المهراجات في جايبور كالقلاع الضخمة تحوطها الاسوار ، وفوق الاسوار حجرات للحراسة وداخل القصر أيضا مدينة بأكملها تعيش فيها حاشية المهراجا وخدمه وموظفيه . وهناك أيضا درجات سفلية تقود الى سجن مظلم له باب حديدى وقفل كبير . قال المرشد : هنا كان يسجن المهراجا الذين يتمردون عليه . ورأينا ايضا شيئا أشبه بالمقصلة . وهنا كانوا يقتلون — واقشعر جسمى من رائحة الهواء الراكد المنبعث من الباب الحديدى خلف القفل .

ان مثل هذا الثراء الفاحش لا يمكن أن يعيش فى أمان الا بنوع من القمع الرهيب والارهاب المستمر والتخلص من أى متمرد أولا بأول .

تركنا جناح التعذيب بسرعة وانتقلنا الى جناح الاجتماعات . انه قصر مستقل فيه المكاتب وفيه ساحة كبيرة لها منصة يجلس فوقها المهراجا ويخطب . تتوسطه بحيرة وحديقة ضخمة . وهناك صالة ضخمة تعلوها اللوحات والرسومات ، وبعض الصور . أشرت الى صورة أحد القواد وسألت المرشد : من هذا ؟

قال : انه مون سنج الاول وقد عاش فى القرن السادس عشر وكان رئيس أركان الجيش فى عهد الحاكم المغولى « أكبر » وقد زوج شقيقته للحاكم « أكبر » وكان هذا أول حدث في التاريخ ان تتزوج امرأة هندية من رجل مسلم وقد أنجب « أكبر » منها ولدا سماه

« سليم » وهذا السليم أيضا وقع فى غرام مطربة هندية .

اخذنا المرشد الى قصور اخرى فى طرف المدينة وسألته : من كان يعيش هنا ؟

وقال : لا احد . هذه القصور بنيت ليحرق داخلها اجسام المهراجا بعد الوفاة « وهى احدى العادات الهندية المستمرة حتى اليوم » . كان هناك قصر لحرق اجسام المهراجا الرجال ، وقصر آخر لحرق اجسام زوجات المهراجا وقصر ثالث لحرق اجسام محظيات المهراجا . كأنما بعد الموت أيضا لابد من وضع فروق بين الذكور والاناث ، وبين الزوجات الشرعيات وغير الشرعيات .

ومررنا على بحيرة كبيرة يتوسطها قصر ضخم ، وقال المرشد : هذه بحيرة صناعية أنشأها المهراجا ليمارس هواية صيد السمك ، وهذا هو قصر خاص كان يأتى اليه المهراجا من اجل صيد السمك فقط ويسمى قصر الماء لان الماء يحوطه .

وسألت : ومن يسكن فى هذا القصر الآن ؟

قال المرشد الهندى : الباعوض فقط انه مهجور منذ سنوات كثيرة .

ركبنا الفيلة وصعدنا الربوة العالية التى بنى عليها قصر « عنبر » الشهير بالقصر البللورى داخل القصر راينا السقف والجدران بللورية تعكس الضوء كملايين النجوم والكواكب . لقد صنع « عنبر » داخل قصره سماء صناعية ليستمتع بضوء القمر والنجوم مع زوجاته ومحظياته دون حاجة الى مغادرة القصر .

تجولت في المدينة بعد ذلك ورأيت تلك الاعـــداد الهائلة من الرجال والنساء والاطفال الذين يعيشـــون فى بيوت الخيش أو الصفيح يتكدسون فيهـــا وعلى الارصفة كالذباب أو كأكوام القمامة كنت أتساءل كيف يمكن لحاكم من الحكام مهما تبلد عقله واحساسه كيف يمكنه أن يعيش فى كل تلك القصور ، وأن ينفـق من أموال هؤلاء الفقراء هذا الانفاق الجنونى . كيف يفعل هذا دون أن يرتعش له جفن ؟ ولم يكن خافيا على أن المهراجا لم يكن الحاكم الوحيد الذى فعل هـذا كنت اعلم أن الحكام فى كل زمان ومكان يفعلون هـــذا ، وجميعهم أيضا لهم قصور وساحات كبيرة ومنصة عالية يقفون عليها ويخطبون ويتحدثون عن العدالة والمساواة والحق .

مدينة « احماد اباد » فى ولاية جوجراد على الساحل الغربى للهند لا توجد فى خريطة الهند السياحية . اذا كنت سائحا وذاهبا الى غرب الهند يقولون لك اذهب الى أودايبور وكاجيوراً وبومباى وماندوسجوا وغيرها . لا أحد يذكر لك احماد اباد .

احماد اباد ليس بها قصور مهراجا ولا قلاع حمراء ، ولا قبور من الرخام ولا حدائق شهيرة ولا بحيرات ساحرة ولا اى شيء من تلك المناظر الخلابة . هى مدينة فقيرة متربة . هواؤها الساخن « رغم أننى زرتها فى فبراير » محمل بالرمل الذى يتطاير من قاع النهر الضخم الذى يجف تماما فى فصل الشتاء ، ويصبح منخفضا رمليا واسعا ، تنتشر فوقه اكواخ الخيش والصفيح ، يعيش فيها العمال الموسميون الذين يشتغلون هذا الموسم فى

نقل الرمال من قاع النهر الى لوريات « تاتا » الضخمة .

لكن أحماداباد هي مهد رسالة غاندي ، بدأ منهـا كفاحه مع الفقراء وعاش فقيرا ومات فقيرا . دخلت بيته البسيط في احماداباد والذي عاش فيه وبدأ منه مسيرته الطويلة ضد الفقر وضد الظلم . لم أر في بيت غاندي الا حاجياته الشخصية حيث تركت في البيت « الذي أصبح متحفا » كما تركها غاندي قبـل أن يقتل . رأيت المنضدة على شكل طبلية التي كان يجلس أمامها على الارض ويكتب أو يقرأ . الى جـوارها نظارته ، وكتابه لازال مفتوحا ، وقلمه ، وعصـاه ، وقبقاب خشب ، وصندل ، وصحن وملعقة ، وتمثال صغير جدا لثلاث قطط معا وهذا هو كل ما كان يملك غاندي في حياته وكل ما تركه من ممتلكات بعـد وفاته .

وقفت لحظة اتأمل هذه الممتلكات الضئيلة لواحد من أكبر زعماء التاريخ ، وايقنت أن غاندي كان صادقا في رسالته وكان يستحق الزعامة ويستحق أن يكون قائدا لشعب الهند الكبير اخذ عقلي يقارن بين ممتلكات غاندي وبين ممتلكات غيره من الزعماء في البلاد الاخرى ، الذين يدعون في حياتهم أنهم يناضلون من أجل الحق والمساواه والعدل فاذا بهم بعد الوفاة وقد امتلكـوا الآلاف والملايين في البنوك داخل البلد وخارجها وامتلك ابناؤهم وبناتهم وزوجاتهم بالمثل أو مايزيد .

قلت لنفسي ان الطريقة الوحيدة الممكنة للحكم على صدق نضال زعيم او حاكم هو ان نعرف أملاكه وامواله بعد وفاته . وأن نعرضها على الناس كما نعرض أملاك

غاندي . وكنت اعرف بالطبع ان هذا أمر مستحيل لانها ستكون فضيحة مابعدها فضيحة .

اكتشفت وجود شيء آخر ضمن ممتلكات غاندي . انه « النول » الصغير الذى كان يغزل عليه ملابسه ، وكان يصحبه معه في سفره خارج الهند . على الجدار صورة لغاندي وهو يغزل فوق باخرة كبيرة تحمله الى انجلترا . لم يكن غاندى يكترث بتلك العيون الزرقاء الاوربية التي تنظر اليه في دهشة واستعلاء .

كان يسافر الى بلد الانجليز بلباسه الابيض الذى غزله بيده وشاله الذى صنعه على « النول » فى بيته ، والصندل المفتوح فى قدميه . بهذا المنظر وعصاه في يده كان يجلس غاندى وسط الانجليز ببدلهم الصوفية واحذيتهم الجلدية . وربطات العنق الثمينة ، يجلس معهم دون أن يكترث بمظاهرهم البراقة ، فهو يعلم ان تحت هذه القشرة قطاع طرق ولصوص يستنزفون خيرات بلده . وكان الانجليز يتفاوضون معه كما يفعلون مع أي زعيم فى أية مستعمرة لهم ولم يكن من الممكن لاية مفاوضات أن تنجح ، لان غاندى لا يهتز لمال قارون ولا يطربه مجد ولا يخشى الموت ولا يريد من حياته سوى أن يحقق رسالته .

لم تكن رسالته فى أول الامر سوى أن يحارب الظلم والفقر بالحب والتفانى فى العمل . كان وحده فى البداية ثم انضم اليه فقراء الهنود الذين ثاروا ضد ضريبة الملح واسمها « ساتايا جراها » والتى أصبحت من بعد رمزا لكل حركة ثورية . لم يكن الانجليز يكتفون بسلب أموال الهند بل كانوا أيضا يحملون الشعب الهندى ضرائب باهظة على كل شيء وأى شيء حتى الملح .

واصبح على ملايين الفقراء ان يدفعوا ضريبة على الملح الذى كان يشكل طعامهم الرئيسي بل الوحيد . وحينما عجز هؤلاء الفقراء عن دفع ضريبة الملح واصبحوا مهددين بالموت جوعا فوق الرصيف تجمعوا على شكل حركة وسميت حركة ضريبة الملح .

كان غاندي صادقا فى رسالته وكان مناضلا حقيقيا ، يسعى ضد الظلم ، لكنه مات مقتولا . وقال لى أحد شباب الهنود الذين تحدثت معه وأنا أتجول فى بيت غاندي : كان غاندي صادقا لكن الصدق وحده لا ينفع فى عالم تقوم فيه السيادة على الغش والكذب والخداع وكان مبدأ غاندى الحب ولكن سلاح الحب كسلاح الصدق لا يصلح ضد خصوم يحملون أسلحة مسممة كان غاندى انسانا عظيما لكنه كان سياسيا فاشلا ، وانتهى به الامر الى أن وافق على تقسيم الهند ، هذا القرار الخاطيء والذى كان سببا فى مقتله .

سألنى هذا الشاب : هل زرت أشرم غاندى ؟

قلت : ماهو أشرم غاندى ؟

قال : هذه المبانى الصغيرة المواجهة لبيت غاندى .

قلت : ومن يعيش فيها ؟

قال : يعيش فيها حوالى الف شخص من الرجال والنساء والاطفال . يعيشون على شكل « كوميون » يتقاسمون كل شيء ويطبقون جميع مباديء غاندى فى حياتهم داخل الاشرم . انهم يعملون ويتعاونون معا ويقرءون ويزهدون فى الحياة ولا يمارسون الجنس .

قلت : ومن اين جاءت الاطفال داخل الاشرم ؟

وقال الشاب : جاءت قبل التحاق الاب او الام بالاشرم . لكن بعد الانضمام الى الاشرم فليس هناك

اى اتصال جسدى بين الرجال والنساء حتى وان كانوا ازواجا قبل انضمامهم الى الاشرم انهم مجموعة من الناس اختاروا أن يعيشوا معا هذه الحياة الروحية والفكرية واستطاعوا ان يتغلبوا على شهوات الجسد .

قلت : وما الهدف من هذا الكوميون ؟

قال الشاب : أن يعيش الناس كما عاش غاندي وان تقوى فيهم القدرات الروحية والفكرية .

وسألت الشاب : هل انت عضو فى هذا الاشرم ؟

قال : لا .

قلت : لماذا ؟

قال : انا لا أومن ببعض مبادىء غاندى ، واعتقد ان بعض أفكاره تعزل الانسان عن الدنيا وتفصل بين الجسد والروح وهذه فلسفة لا تساعد الإنسان على الكفاح ضد الظلم . لابد للمكافح أن يكون متصلا بالحياة لا منعزلا عنها . ولابد للمكافح أن يعيش بجسده وعقله لان الانسان وحدة لا تتجزأ . انني احترم مقدرة غاندى وتلاميذه من اعضاء هذا الاشرم على كفاح شهوات الجسد الجنسية ولكنى أفضل أن يتجه كفاحهم الى العالم الخارجى حيث يستغل الملايين ويموتون جوعا .

وقلت للشاب : انا اوافقك على رايك .

فى تلك الليلة دعيت الى منزل أحد فلاسفة احماداباد ممن يؤمنون « بالجيتا » وفلسفة الزهد فى الحياة والتصوف واليوجا . فى حديقة بيته متحف من تماثيل آلهة الهند بجميع أنواعها ، صنعها له احد أصدقائه النحاتين . بعض التماثيل جمعها بنفسه من أطراف الهند أو المعابد المهجورة . أكلنا الطعام الهندى الحراق

فى الحديقة ومن حولنا الآلهة والالهات ، وبدأ النقـاش بين عدد من المفكرين والادباء ، والشاعرات . كنت صامتة استمع وأتأمل ملامح الآلهة الحجرية . وكانت تجلس الى جوارى امراة هندية صغيرة الجسم صافية العينين، على وجهها ابتسامة هادئة .

وسألتها : هل أنت شاعرة ايضا ؟

قالت : لا . أنا مدرسة روحية .

قلت : ماذا ؟

قالت : مدرسة روحية .

سألت : يعنى تدرسين علم الروح ؟

قالت : نعم .

سألتها : وأين تدرسين على الروح ؟ فى المدارس ؟ ضحكت وقالت : لا . أنا مدرسة روحية فى أشرم فى جنوب الهند وقد جئت فى أجازة لازور أسرتى فى احماداباد .

سألتها : هل فى جنوب الهند أشرم على غرار اشرم غاندي هنا ؟

قالت : نعم . فى كل مكان فى الهند يوجد هـذه الكوميونات حيث يعيش الناس معا حياة روحية .

قلت : وماذا تدرسين فى الاشرم ؟

قالت : أعلم أعضاء الاشرم من الرجال والنساء كيف يفكرون ، كيف يتأملون بعمق ، كيف يخترقون حجـاب الجهل فى عقولهم ويصلون الى الرؤية الواضحة والمعرفة وأعلمهم أيضا كيف يقاومون شهوات الجسد .

سألتها : هل فى كل أشرم مدرسة روحية مثلك ؟

قالت : نعم .

قلت : هل من الضروري أن تكون المدرسة الروحية امرأة ؟

قالت : لا . أحيانا تكون امرأة واحيانا يكون رجل . المهم القدرة على تدريس هذه المادة الصعبة . لان الدراسة ليست نظرية فحسب ولكنها عملية أيضا . هناك تمرينات اليوجا بجميع أنواعها ، وهناك القدرة على التركيز والتأمل لساعات طويلة ، وهناك القدرة على الزهد والتغلب على رغبات الجسد ، وهناك القدرة على صفاء الذهن والوصول الى الدرجات العليا من الوعي .

جلست استمع اليها طويلا ، أتأمل كلامها ، واتأمل ملامحها . ذكرتني بقراءتي « للجيتا » لكني كنت كلما نظرت في أعماق عينيها شعرت « باحساس الطبيبة النفسية » أن في قاع هاتين العينين مأساة قديمة دفنت منذ سنوات واصبحت ذكرى بل ضاعت أيضا من الذكرى .

من يتأمل معتقدات الناس في بلاد العالم المختلفة يدرك أنها متشابهة وتكاد تكون واحدة من حيث معناها ودوافعها وأهدافها . بعض الناس الذين يؤمنون باله واحد يظنون أن الذين يؤمنون بعدد من الآلهة ليسوا بشرا مثلهم ، أو أنهم بشر من نوع آخر ، أو أنهم على الاقل جاهلون ومختلفون . لكن الذي يزور الهند ويدخل معابدها المختلفة ويتعرف على أديانها المتعددة يدرك أن الفروق بين الشر قليلة جدا وانها فروق سطحية فحسب ، أو فروق في الحركات الخارجية وطريقة العبادة أو طريقة الطقوس ويبقى جوهر الانسان واحدا .

في مدينة بومباي دخلت في يوم واحد خمسة معابد مختلفة لاديان مختلفة . دخلت معبدا « هندوكيا » ثم معبدا « جينيا »ثم معبدا « بوذيا » ثم كنيسة ثم مسجد ودهشت حين وجدت تشابها كبيرا بين الخمسة معابد في المعمار من الداخل والخارج من حيث وجود القبة أو القباب ، وعمدان ، ومكان مخصص للعبادة ، ورجال داخل المعبد لهم زى معين ، ولهم حركات معينة ، وطريقة معينة ، في التعامل مع الناس ، أو تناول الهبات منهم . كما أن الناس الذين يزورون المعبد « يصلون للاله أو للالهة تبدو حركاتهم متشابهة بالرغم من أن بعضهم يصلى وهو واقف ، وبعضهم يصلى وهو راكع على ركبتيه ، والبعض يجثو منكفئا على وجهه . وجميعهم يدفعون شيئا للرجال القائمين على هذا المعبد أو الدين ، شيئا من مال أو طعام يعطى مباشرة لرجل الدين أو يعطى للفقراء الذين يحوطون المعبد فى أكواخ الخيش او يرقدون على الارض من حوله أو فوق الدرجات المقدسة التى تصعد اليه والتى يجب ان نخلع احذيتنا حين ندخله .

كنت قد قرأت شيئا عن تاريخ الاديان في حياة الانسان : كيف بدأت ولماذا وكيف تطورت من دين الى دين . لكن الذى يقرأ ليس كالذى يرى . وقد وجدت ان من ميزات الهند انها تحتوى في جوفها حتى اليوم على تاريخ الاديان فى مختلف الازمنة منذ أن عبد الانسان الشمس والافلاك والنار والهواء والحيوانات الى ان رمز الى القوى المجهولة من حوله برموز مختلفة ، منها آلهة على شكل تماثيل حجرية يراها ويلمسها ، ومنها آلهة غير منظورة وغير مرئية الى ان رمز الى كل تلك القوى

بآلة واحد غير منظور وغير مرئي .

كنت قد قرأت عن حاجة الانسان في كل الازمنة الى شيء يؤمن به . شيء يفسر له الظواهر المجهولة من حوله شيء يعزو اليه القدرة على فعل أشياء يعجز عنها الانسان لكن الذى يتأمل منظر الناس وهم يتعبدون داخل المعابد يدرك أن هذه الحاجة تتغير بتغير طبقة الانسان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . من أهم ما لفت نظرى أن معظم الذين يذهبون الى المعابد من الفقراء الذين لم ينالوا شيئا من التعليم . وقد لاحظت ان هؤلاء حين يصلون يغمضون أعينهم تماما وتتخذ ملامحهم وأجسادهم وضع الاستسلام الكامل ونوع من الرهبة والخوف والانكسار بل وشيء من العزلة أيضا . وحين يقدمون هباتهم لرجال الدين فهم يطلبون شيئا دائما .. أما أن يشفى الاله مريضهم ، أو يرفق بهم ويمنع عنهم كارثة معينة ، أو يرزقهم بولد أو ينصر أحدهم على مكايد أعدائه .

وبعض هؤلاء يقضون الساعات فى مثل هذه الصلوات، اما المتعلمون من الناس فهم اقلية قليلة داخل المعبد . وهم دائما على عجل . يصلون بسرعة ، وحركاتهم لاتنم عن الانكسار والمذلة بقدر ما تنم عن الرغبة فى انهاء الصلاة بأسرع مايمكن والذهاب الى أعمال أخرى هامة . وهم لا يغمضون أعينهم تماما أثناء الصلاة . بل تظل عين الواحد منهم مفتوحة او نصف مفتوحة . وهم لا يدفعون شيئا للفقراء حول المعبد ، ولا يقدمون الهبات الا ما كان منها واجبا دينيا مفروضا . وهم لا يطلبون من الاله علاج مريض لانهم عرفوا الاطباء والادوية ، لكنهم يطلبون من الاله مطالب أخرى مختلفة باختلاف مطالبهم

في الحياة وباختلاف قدرتهم أو عجزهم عن تحقيق هذه المطالب .

وفي الهند أيضا قطاع من الناس لا يذهبون الى المعابد انهم يصلون في منازلهم ويقولون أن الاله يوجد داخل المعبد وخارجه وليس له مكان محدد . وبعض الناس في الهند لا يصلون ويقولون أن العبادة هي الحياة وأن الله هو الانسان الذى يعمل لخير الناس والذى وصل الى درجة عالية من الوعى والحكمة وأصبح سيد نفسه لا يخاف نفسه ولا يخاف من القوى الخارجية لانه أخضعها لارادته القوية وكشف عن أسبابها بالعقل والمعرفة . وهذا الاتجاه الاخير ينتشر فى الدين البوذى أكثر من الدين الهندوكى . لان بوذا أعلن بثورته ضد الدين الهندوكى وضد الطبقات وضد التفرقة بين الناس . وفى الدين البوذى ليس هناك آلهة . وبوذا ليس الا انسانا وصل الى تلك الدرجة العليا من الوعى والمعرفة . لكنى رأيت الناس داخل المعبد البوذى يركعون لتمثال بوذا وينبطحون أرضا أمامه داعين أن يحقق لهم مطلبا من المطالب كغيرهم فى المعابد الاخرى . وسألت أحد المفكرين البوذيين عن ذلك فقال أن هؤلاء الناس لم يقرءوا الدين البوذى وهم جاهلون بتعاليم بوذا ، وهم يقلدون غيرهم من الناس بغير وعى .

ولكن أغلبية البشر وبالذات فى الشرق حيث تنتشر الاديان لا يقرءون لانهم أميون . ومعنى ذلك أن أغلبية البشر لا يعرفون شيئا عن فلسفة دينهم الحقيقى وعن التعاليم الاصلية فى ذلك الدين . ولهذا كم يستغل الدين فى تلك البلاد ويصبح سلاحا خطيرا فى يد رجال الدين أو رجال الحكم أو رجال الاستعمار .

ان معرفة حقيقة دين من الاديان تحتاج الى أن يقرا الانسان هذا الدين ويفهمه ليؤمن به ايمانا صادقا : ولكن أن يقلد الانسان غيره تقليدا أعمى فليس هذا من الدين فى شيء .

وقال لى هذا المفكر البوذى : قبل أن اقرأ ما قاله بوذا كنت اذهب الى المعبد وأركع لبوذا مثل هؤلاء الناس . لكنى بعد ان قرات وفهمت لم أعد أعبد أحدا .

سألته : ولكنك تؤمن ببوذا ؟

قال : لا . أنا أؤمن بنفسي ، وأؤمن بأى انسان يكتشف نفسه وقوته الداخلية ، ويحاول بهذه القوة الداخلية أن يغير العالم الخارجى الى الافضل والاحسن لنفسه ولغيره من البشر .

هذه هى فلسفة بوذا وهذه هى مبادىء الدين البوذى ، لكن القليلين هم الذين يقرءون وقليل القليل من يقرا ويفهم .

فى الهند أيضا مجموعات أخرى من الناس لهم اديان أخرى . منهم « السيخ » وهم يجمعون بين بعض مبادىء الدين الهندوكي وبين مبادىء الدين الاسلامى . انهم لا يعبدون التماثيل الحجرية ولكنهم يعبدون اله واحد غير منظور . لكنهم لا يقصون شعورهم أو لحيتهم طوال حياتهم . ترى الرجل منهم قد لف شعره الطويل تحت عمامة كبيرة ولف شعر لحيته بطريقة معينة .

وهناك مجموعة « الفارسيين » وهم الذين يعبدون النار ، ويعلقون جثث موتاهم فى شجرة لتأكلها طيور معينة . أسماؤها « فالتشرز » .

فى بومباى أخذنا أحد هؤلاء الفارسيين لنرى كيف

تأكل الطيور الجثث . لم نر الا الطيور الجائعة المفزعة تهبط فوق « برج الصمت » . انه برج عال بني خصيصا في وسط المدينة لتوضع فوق قمته جثث الموتى وتترك للطيور لتأكلها . داخل البرج بئر عميق تسقط فيه العظام بعد أن تتركها الطيور ، وتذوب هذه العظام في حامض معين داخل البئر لتتلاشى تماما .

دعانا هذا الفارس وزوجته الى العشاء وجلسنا نأكل العدس باللحم « طبق خاص في الهند يقدم يوم الاربعاء فقط لان الارز ممنوع في ذلك اليوم » وقال الزوج مداعبا زوجته « الفارسية أيضا » : « سوف تأكلك القالتشرز أكلا يا حبيبتي » . وضحكت الزوجة وهي تقول : هذه الطيور تأكل العينين اولا ثم تأكل بقية الجسم . انها تحب العينين أكثر من أى شيء . وكاد الاكل أن يقف في حلقي وتوقفت قليلا وسألت هذه الزوجة : ان هذه عادة بشعة .

وقالت الزوجة : بعد الموت لا نحس شيئا . الهندوكيون يحرقون جثثهم والحرق لا يختلف كثيرا عما نفعل نحن الفارسيين . بل اننا أكثر انسانية لاننا نطعم هذه الطيور الجائعة بدلا من حرق الجثث بغير فائدة . وهذه هي الحكمة من هذه العادة .

وقال الزوج : لكنها فعلا عادة بشعة . وبعض الناس الآن يثورون عليها ويطالبون بتغييرها . وقالت الزوجة : بعضهم يطلبون في وصيتهم الا تأكلهم الطيور ويحرقون أو يدفنون لكن هؤلاء يتعرضون لغضب الآلهة وغضب رجال الدين الفارسي ، الذين يرفضون الصلاة على اجسادهم وتدفن بغير بركة رجال الدين .

وضحك الزوج قائلا : رجال الدين يحافظون دائما

على اية عادات دينية من اجل أن يعيشوا وتكون لهم وظيفة وأجر . انا شخصيا أفضل أن تدفن جثتى دون بركة هؤلاء الرجال .

فى بلدة صغيرة شمال بومباى واسمها « بارودا » ركبنا العربة « الجيب » لنزور بعض القبائل الهندية التى تعمل فى ضرب الطوب أو تحويل الرمال من قاع الانهر الجافة الى اللوريات . رافقنا فى الرحلة شاب هندى اسمه سامانتا ، عمره ٣٣ عاما ودرس الكيمياء فى بولنده ثم عاد الى الهند واشتغل فى أحد المصانع الكيماوية فى بارودا .

سارت بنا العربة « الجيب » ساعات طويلة فوق شوارع رملية أو صخرية مليئة بالحفر والمطبات . كان الحر شديدا وكدت أطلب العودة من حيث أتيت لولا أن حديثا بدأ بين الشاب الهندى وبينى انسانى طول الطريق ووعورته .

لاحظت أن الشاب يرتدى حول عنقه شيئا أشبه « بالدوبارة » فسألته عنها فقال : هذه « الدوبارة » يلبسها الرجل قبل الزواج ليصبح مقدسا . قبل أن يلبس هذه الدوبارة يمكنه أن يفعل ما يشاء ويتصل بأية امرأة ولكن بعد أن يلبسها يصبح مقدسا ولا يقرب أية امرأة الا زوجته .. وهو لا يخلع هذه الدوبارة عن عنقه طوال حياته .

وسألته : وهل تلبس النساء مثل هذه الدوبارة أيضا ؟ .

وقال الشاب : لا . النساء لا يصبحن قديسات أبدا ؟ .

وسألته : لماذا ؟
قال : لانهن نساء .
قلت : وماهي الميزات التى يحصل عليها الرجـــل ذو الدوبارة .
قال : انه يصبح مقدسا .
سألت : ما معنى ذلك . هل فى ذلك ميزة معينة ؟
قال : نعم . الرجل المقدس له الحق فى أن ينادى ارواح الموتى . انا استطيع الآن ان انادى ارواح أجدادى لابى وأجدادى لامى . لكن الشخص الواحد لا يستطيع ان ينادى لاكثر من الجد السابع لكل من الاب والام .
قلت : وماذا تفعل بعد أن تنادى أرواح اجدادك ؟
قال : أكلمهم ويكلموننى ويعرفوننى باشياء كثيرة فى حياتى .
قلت : المرأة اذن لا تنادى أرواح اجدادها .
قال بحماس : لا . ان زوجها يفعل ذلك نيابة عنها .
كتمت الضحكة وقلت : لو كنت زوجة هنا لناديت بنفسى ارواح اجدادى .
وقال الشاب : الارواح لا ترد على النساء .
دهشت من منطق شاب مثل هذا درس وتعلم ، لكننى لم ادهش كثيرا ، فقد رأيت كثيرا من المتعلمين يؤمنون بعقائد غريبة .
وسألت الشاب : الم تسأل نفسك يوما لماذا ترد الارواح على الرجال ولا ترد على النساء ؟
قلت : لا . هذه هى طبيعة الحياة .
قلت : من قال لك انها طبيعة الحياة .
قال : اهلى . ابى وامى وكل الناس من حولى .
قلت : ولكن هل ترث معتقدات اهلك بغير أن تعيد

تفكيرك فيها على ضوء دراساتك الجديدة ؟

قال : أنا درست الكيمياء ، وليس هناك علاقة بين الكيمياء وبين الدين أو العقائد . أليس كذلك ؟

قلت : توجد علاقة ، ولابد أن تكون هناك علاقة بين أي شيء ندرسه وبين ماورث من أفكار وعقائد . ان هذا الفصل بين ما نسميه العلم والعقيدة يوقعنا في الكثير من التناقض . والآن هل أنت متزوج ؟

قال : نعم .

سألته : وهل انت الذى اخترت زوجتك ؟

قال : لا . اننا هنا لا نختار زوجاتنا . ان أهلنا هم الذين يزوجوننا .

قلت : وهل تعملون حفلاً للزواج ؟

قال : نعم وقد عملوا حفل زواجى الساعة الرابعة صباحا .

قلت فى دهشة : الرابعة صباحا ؟ لماذا ؟

قال : موعد حفل الزواج يتحدد حسب نجم العريس وقد حدد نجمى الساعة الرابعة صباحا .

وهكذا كلما كنت اتحدث مع هذا الشاب الهندى أكتشف عادة هندية غريبة . وقد حكى حكايات غريبة عن مسألة تناسخ الارواح التى يؤمن بها ايمانا عميقا مثل غيره من الهنود الذين يدينون بالدين الهندوكى . وفكرة التناسخ هى أن روح الانسان بعد الوفاة تتجسد فى جسد آخر قد يكون انسانا وقد يكون حيوانا . وقد ظل هذا الشاب يحكى لى الحكايات الغريبة حتى وصلنا الى قرية « فالود » حيث التقيت باحدى القبائل الهندية .

ذكرتنى هذه القبيلة بقراءاتى فى التاريخ القديم

للانسان منذ العصر الحجرى . رأيت تحت شجرة قطعة طوب يرقصون حولها ، وعرفت أن قطعة الطـوب هذه هي الاله . يرتدون قطعة قماش بيضاء حول نصـــفهم الاسفل ويحملون الحراب والاسهم وأحيانا البنادق . انهم لا يتبعون أي نظام ولا اى حاكم . ولا يؤمنون بالغد ولا الاستقرار ويقدسون شيئا اسمه الحرية . كل واحد منهم يعتقد أنه الملك وليس لاحد سلطان عليه . اذا وثقوا فيك أكرموك وأعطوك كل ما عندهم ، اذا لم يثقـــوا فالويل لك .

كان من حسن حظى أنهم حين نظروا فى وجهى وثقوا فى ورأيتهم يقدمون لى طعامهم « طعاما نباتيا مـــن الخضروات لانهم لا يأكلون اللحم » وأكلت معهم وشربت الماء من بئر يشربون منه . وغمس أحدهم أصبعه فى سائل أحمر مقدس ورسم فوق جبهتى النقطة الحمراء وهمس الشاب فى أذنى حتى لا يسمعه أحد من القبيلة : لو راى المسلمون هذه النقطة الحمراء فوق جبهتـــك لغضبوا جدا . انها ضد تقاليد المسلمين هنا .

أفراد هذه القبيلة من الرجال والنساء يعملون فى قطع الاشجار . بيوتهم من طين وسقفها من فروع الشجر . يرتدون فوق رءوسهم عمامة ضخمة ليست الا حبـــلا طويلا ملفوفا فوق الرأس عدة مرات ، يفكه الواحد منهم أمام البئر ليربط فيه الجردل ويدليه فى البئر . تقاليدهم تختلف عن تقاليد الناس فى المدن . الرجل والمرأة هنا متساويان فى الحرية الجنسية قبل الزواج . والبنـــت تشجع الولد لعمل علاقات قبل الزواج ، ولكن بعـــد الزواج تتزوج المراة رجلا واحدا ويتزوج الرجـــل امرأة واحدة . والرجال والنساء يتزينون بحلقات الحـــديد

فوق جباههم وأنوفهم وآذانهم وأرجلهم . لهم دقة مميزة على الطبول تنقلني الى عالم آخر ، كأنما مت وعـاد التاريخ وبعثت في أحد العصور البدائية . رغم فقرهم وجهلهم أحسست الشهامة والصـدق والطبيعة في وجوههم المباشرة وعيونهم الصريحة . شعرت بينهـم براحة رغم أنني كنت أجلس فوق قطعة من الطـوب واشرب الماء من بئر . انها الراحة التي نشعر بها مع هؤلاء الناس النادرين الذين لا يزيفون ولا يكذبون .

عربة الجيب تعود بنا الى المدينة . الشمس تهبط في الغرب من وراء الاشجار . على جانبي الطريق أرى أشجار الموز وحقول المسطردة ذات الزهور الصفراء ، وحقول قصب السكر ، والقمح وزيت الخروع . في السماء تحلق الغربان والحمام والعصافير . بين الاشجار الكثيفة المح السحالي والثعالب الصغيرة والقرود بعضها يجري ويلعب والبعض جالس فوق الشجر يرمق الطريق بعيون شاردة متأملة كعيون البشر .

الام القـردة من حولها أطفالها يلعبون وهي تسير بخطوات بطيئة كالرجل العجوز الوقور . القردة الصغار تضرب بعضها البعض وتلعب معا تماما كأطفالنـا . نظرت الى القردة الام ـ واكتشفت أنهـا تراقبني . حركاتها انسانية وصوتها ايضا انسانيا . نشـأ بيني وبينها ترابط واوقفت العربة . أردت أن أكلمهـا وهي جالسة تضـع مرفقها فوق ركبتها . عيناها انسانيتان لولا تلك النظرة المفاجئة الوحشية والمجنونة كأنما لم تعد تثق في وتريد الانقضاض علي بسرعة . حينما رأت انني لن اسبب لها اذى وانني أقترب منها لمجـرد الفرجة

استرخى جسدها وتلاشت النظرة المتحفزة . ثم اعطتنى ظهرها وسارت بخطواتها البطيئة نحو أطفالها .

ادركت أن الحيوان كالانسان يحتاج الى أن يثق فيك ويطمئن اليك والا فالويل لك .

تناولنا عشاءنا مع بعض الهنود المشرفين على المصنع الكيماوى واحد الخبراء الاقتصاديين الذى يعمل فى الهند واسمه « فيشمان » وهو أمريكى الجنسية .

كنت صامتة استمع الى الحوار الدائر بين فيشمان واحد الرجال الهنود . بدأت المناقشة بينهما حول قضية ووترجيت ونيكسون ومشكلة التجسس ،وسمعت فيشمان يقول للهندى : انا لا افهم فى السياسة ولا احاول أن افهمها .انا رجل متخصص فى الاقتصاد فقط .

وقال الهندى : هل يمكن ان تفصل بين السياسة والاقتصاد .؟

قال فيشمان : لكل علم المتخصصون فيه .

قال الهندى : ان الذى يحرك السياسة هو الاقتصاد ولا يمكن فصل هذا عن ذلك ؟

قال فيشمان : ولكنى لا استطيع أن أقرأ عن قضية ووترجيت ومشاكل التجسس ثم أقرأ فى الاقتصاد . ان ساعات اليوم لا تكفى الا لشىء واحد . ومن المهم ان اتقن الفرع الذى تخصصت فيه بدلا من أن أشتت جهدى فى فروع كثيرة ، وعندنا مثل انجليزى يقول ـ الذى يفهم فى كل شىء لا يجيد شيئا .

ورد الهندى قائلا : ولهذا السبب أصبح السياسيون يسيطرون على العالم . انهم من النوع الذى يفهم فى

كل شيء ولا يجيد شيئا ولهذا هم يحكمون ويسيطرون على الاقتصاد ويوجهونه كما يشاءون وحسب مصالح طبقتهم الصغيرة المحدودة وضد مصالح الاغلبية من الناس .

وقال فيشمان : انا اكره السياسيين واتفادى الحديث فى السياسة .

وقال الهندى بعند واصرار الهنود : ولكنك لا تستطيع ان تتفاداهم طالما انت تعمل فى مجال الاقتصاد . لانك فى الواقع تنفذ سياستهم فى مجال الاقتصاد .

وقال فيشمان : أنا كالطبيب الذى يعالج المريض سواء كان صديقا أو عدوا .

قال الهندى : لا . هناك فارق بين الطب والاقتصاد . الاقتصاد جزء لا ينفصل عن السياسة بل هو الركيزة التى تقف عليها السياسة . أما الطب فهو علم منفصل عن السياسة اليس كذلك يا دكتورة ؟

ووجه الرجل الهندى سؤاله الى فقلت : بل ان الطب ايضا لا ينفصل عن السياسة . هناك طب يعالج المريض دون أن يستغله وهناك طب يعالج المريض ويستغله . لا يمكن فصل اى شيء عن السياسة ، حتى الحب .

وضحك فيشمان محولا المناقشة الى نوع من المرح والفكاهة لكنى قلت بجدية وحزم : نعم هناك حب ينشأ على اساس من التساوى والتبادل وهناك حب يقوم على عدم التساوى والاستغلال .

ولم يحاول فيشمان أن يقتنع ، وذكرنى بالشاب الهندى الذى درس الكيمياء فى بولنده والذى يفصل بين دراسته العلمية وبين حياته اليومية من حيث الزواج والدوبارة المقدسة التي يعلقها فى عنقه وايمانه بأن أرواح

الموتى تخاطب الذكور وترفض مخاطبة النساء .
ان الانسان المثقف فى نظرى هو الذى استطاع أن يربط بين العلوم المختلفة ، وينظر الى الحياة والانسان نظرة كلية شاملة ، والانسان الجاهل فى رأيى هو الذى يقسم عقله الى حجرات منفصلة ، يضع فى حجرة علم الكيمياء أو الاقتصاد أو الطب ، ويضع فى حجرة اخرى الدين او المعتقدات والافكار الموروثة ، ويضـــع فى حجرة أخرى الحب او الجنس ، ويضع فى حجرة أخرى السياسة .. وهكذا يفقد نظرته الشاملة للحياة والانسان ويعجز عن فهم مظاهر الاستغلال المحيطة به . انه قد يكون أخصائيا ماهرا فى عمله . لكنه يصـبح كالثـور الذى يجر الساقية دون أن يعرف الى أين يذهب ماء الساقية .. أيذهب الى حقول الفلاحين الكادحين الذين يحتاجون الى الماء لزراعة المحاصيل أم يذهب الى حوض السباحة فى بيت الحاكم لتسبح فيه كل صباح زوجته السمينة العاطلة . وحينما تسأل الثور : هل تعـرف الى اين يذهب الماء الذى تخرجه من الساقية ؟
يرد الثور قائلا : لا أعرف . ليس هذا تخصصى . ان تخصصى ألوحيد هو أن اجر الساقية .
وتساعد كثير من الاديان « وبالذات الدين الهندوكى» على هذا الفصل بين العمل ونتيجة العمل .
حين تدخل المعابد الهندوكية تقرأ هذه اللوحة معلقة على الجدران : « اعمل بكل طاقتك ولا تفكر فى نتيجة العمل » . وقد اخذت هذه العبارة من كتاب الهندوكيين المقدس وهو « الجيتا » . وكان غاندى أيضا يتبع هذه الفلسفة ويفصل بين العمل ونتيجته ، ولهذا فشـلت حركته سياسيا وانتهت بتقسيم الهند .

لو أن كل انسان عرف لماذا يعمل والى اين تذهب نتيجة عمله لما استطاع احد أن يستغل جهد احد « أو علم أحد » ولانقرض الاستعمار والاستغلال من الهند ومن البلاد الاخرى .

***

عرفت ان العاملة أو العامل الهندى في مزارع الشاى يعمل تسع ساعات فى اليوم نظير « ٤ أو ٥ » روبيات ، وينتج فى اليوم الواحد كمية من الشاى تعادل « خمسين » روبية اي عشرة اضعاف الاجر الذى يحصل عليه . معنى ذلك انه ينتج فى الساعة الواحدة ما يعادل اجره ويعمل بقية الساعات الاخرى الثمانية بغير اجر . بعبارة اخرى انه ينتج فى الساعة الواحدة كمية من الشاى ثمنها ٥ روبيات تقريبا اى تعادل اجره اليومى كله لانه يتقاضى ٥ روبيات فقط عن عمل متواصل لمدة ٩ ساعات . الى أين يذهب جهد هذه العاملة أو هذا العامل ؟ انه يذهب الى أصحاب الشركات التى تصنع الشاى وتوزعه ، اى أنه يذهب الى جيوب حفنة من الاثرياء يستغلون جهد ملايين العمال والعاملات .

ان الربح الضخم الذى يحصل عليه هؤلاء والذى ينفقوه ببذخ على كماليات زوجاتهم — وأولادهم يتبخر في الهواء لو أن العاملة او العامل الهندى فكر لحظة في نتيجة عمله اليومى طوال تسع ساعات متصلة تحت قرص الشمس الملتهب . ولكنهم لا يفكرون واسباب ذلك :

١ — استنفاذ جهدهم طوال اليوم فى العمل فلايجدون متسعا من الوقت والجهد للتفكير .

٢ — عدم المامهم بالقراءة والكتابة والحساب ولذلك

لا يعرفون العملية الحسابية البسيطة السابقة التى تشرح لهم انهم يعملون ٨ ساعات بغير أجر .
٣ ـ ترويج السياسيين والاقتصاديين للفلسفة الهندوكية القائمة على الزهد والفصل بين العمل ونتيجة العمل .
٤ ـ وقوع بعض المصلحين من امثال غاندى فى هذا الخطأ والاستغراق فى المسائل الروحية والفصل بين الروح والجسد وترك ماديات الحياة للاخرين ينهبونها على، حين يجوع الملايين من الشعب الهندى .

***

ركبنا الطائرة الى كاجيوراو . انها احدى المدن الصغيرة فى ولاية ماديابراديش فى وسط الهند . ولكنها احد الاماكن الشهيرة فى الهند . قالوا ان بها اثنين وعشرين معبداً وآثارا قديمة تدل على عظمة فن النحت الهندى منذ القرن العاشر حين كان يحكم الهند ملوك تشانديلا .
وكنت قد زرت عدداً من المعابد القديمة الشهيرة في مادورا جنوب الهند ومعظمها تماثيل للالهة والآلهات وهم يرقصون .
لكن الالهة والالهات في كاجيوراو لا يرقصون فحسب ولكنهم ايضا يمارسون الجنس بشتى انواعه وأوضاعه .
كان ملوك تشانديلا يمثلون نوعا من الثورة على التقاليد القديمة المتزمتة التي تفصل بين الانسان وجسده وتنظر الي الرغبات الجنسية كنوع من الاثم والدنس والضعف.
وقد صور هؤلاء الملوك حياتهم وحياة الآلهة على انها حياة بشرية عادية بعضها حرب ، وبعضها اكل ، وبعضها علم ، وبعضها جنس وبعضها مرح ولعب .

من اكبر المعـــابد فى كاجيوراو معبد « لاكشانا » « وكانداري » . على الجدران الخارجية رأيت التماثيل تصور الحياة بكافة نواحيها . جيوش من راكبي الفيله يحاربون اعداءهم مواكب الاحتفالات والرقص والغناء . مجالس الحكام . انواع من العمل . مجرات الطعام . ثم فى احد الاركان هناك تماثيل عارية لرجال ونســـاء يمارسون الجنس الثنائي أو الجنس الجماعى . هنــاك لوحة كبيرة لمجموعة من الرجال والنساء . يداعبـــون بعضهم البعض جنسيا . ولوحة اخرى لنوع آخر من المداعبات ، ولوحة اخرى لرجل وامرأة أثنــاء عمليـــة جنسية كاملة .

لم يكن هذا الركن الجنسي يمثل الا مساحة صغيرة فوق الجدران ، فقد امتلأت الجدران بصور اخرى تمثل الحرب والعمل والحكم والطعام والاحتفالات وغيرها . لكنى لاحظت أن معظم المتفرجين « أكثرهم سياح أجانب وبعضهم هنود » قد جاءوا من أجل مشاهدة هذا الركن الجنسى فحسب . وسمعت ضحكاتهم وهم يتفرجون ، ووصل الي اذنى بعض تعليقاتهم . وقد ادركت أن ملوك تشانديلا فى العصور الوسطى المظلمة كانوا أكثر مـــن رجال ونساء العصر الحديث فهما للجنس . انهم بصورهم وتماثيلهم لا يقولون أن الجنس هو كل شيء فى الحياة ولكنهم يضعون الجنس فى مكانه الصحيح ويقولون ان الجنس جزء من الحياة . وهم يرفضون أيضــا الكبت وانكار الجنس ويقولون أن الحياة الخالية من الجنس حياة ناقصة أو مشوهه .

لكن الناس فى عصرنا الحديث لازالوا مرضى بشيء اسمه الجنس « بسبب الكبت والتربيـــة الخاطئـــة

والاستغلال التجارى للجنس » ولا زال كثير من السياح فى العالم يدفعون أموالا كثيرة من أجل مشاهدة حوانيت الجنس فى السويد والدانمارك أو تماثيل الجنس فى كاجيوراو والهند . هذا فى الوقت الذى يضربون فيه على يد أطفالهم اذا نطق أحدهم بكلمة الجنس .

***

أخذتنا الطائرة الى مدينة صغيرة اسمها « أناند » فى ولاية جوجارات على الساحل الغربى للهند . وهى مدينة صغيرة لكنها شهيرة . كل علبة جبن فى الهند طبعت عليها كلمة « أناند » . مصنع الجبن فى أناند تملكه شركة هندية كبيرة اسمها « آمول » تصنع الجبن والزبد وألبان الاطفال المجففة .

تتبعنا الخطوات التى يمر بها اللبن منذ أن يحلب من ضرع الجاموسة أو البقرة الى أن يصبح علبة جبن تباع فى السوق . نظام محكم دقيق ، والالات فى المصنع تسير بنظام محكم دقيق والمهندس المختص يشرح لنا كيف بدءوا يستخدمون الالات الالكترونية فى التصنيع .

لكن عقلى يشرد بعيدا ، وعيناى تتأملان الصف الطويل من الفلاحات اللائى وقفن بجوار اللبن ويبعن اللبن للمصنع . ان الواحدة منهن تحمل فوق كتفها طفل جائع هزيل هو أحوج ما يكون الى هذه الزجاجة من اللبن التى تبيعها . وبعملية حسابية بسيطة وجدت أن كمية اللبن التى تبيعها الفلاحة نظير روبية واحدة تنتج من جبن آمول ما قيمته خمس عشرة روبية . واذا حذفنا مصاريف المصنع كلها وجدنا أن الفلاحة التى تبيع عشرة أرطال من اللبن تأخذ ثمن رطل واحد وتعطى تسعة أرطال بالمجان .

وهذه الفلاحة لا تختلف كثيرا عن العاملة في مزارع الشاي التي تعمل ساعة واحدة بأجر وبقية الثماني ساعات بغير أجر .

قلت أفكاري للمهندس المختص فضحك وقال : هذه هي الصناعة في كل أنحاء العالم . اذا لم يربح هذا المصنع كل هذا الربح فلماذا يشغله أصحابه ؟

قلت : ولكن أصحابه يربحون الآلاف ، وهؤلاء الفلاحات يحرمن أنفسهن وأطفالهن من اللبن ويعشن على الكفاف .

قال المهندس : ان جاموسهن أيضا كان يعيش على الكفاف بسبب الفقر الشديد ، وقد وجدنا أن العناية بالجاموس ضرورية ليدر لبنا دسما وبكميات وفيرة . ولهذا أنشأنا في المصنع جزءا خاصا لانتاج علف خاص بالجاموس يغذيه ويزيد من دسامة لبنه . هذا العلف نبيعه للفلاحين والفلاحات وعندنا قسم التلقيح الصناعي للجاموس . نحن ننقل الحيوانات المنوية من ذكور الجاموس الجيد السلالة الى رحم الجاموسة . وتحمل الجاموسة ثم تلد السلالة الجيدة وقد دربنا الفلاحين والفلاحات على كيفية وضع أنبوبة الحيوانات المنوية في رحم الجاموسة نحن أيضا نربي ونستخرج بعض سلالات ممتازة من ذكور الجاموس .

وأخذنا المهندس الى مزرعة تربية الجاموس ، ورأيت مجموعة من ذكور الجاموس تدور حول نفسها وظننت انها تجر ساقية لكنني لم أر الساقية ، وقال المهندس : هذه تمرينات رياضية لذكور الجاموس حتى لا يترهلوا بسبب عدم الحركة وتضعف حيواناتهم المنوية . اننا نطعمهم طعاما جيدا مخصوصا والرياضة اليومية

ضرورية لهم . كما أن عندنا نظام طبى عالى الكفاءة لرعاية صحة الجاموس سواء هنا فى مزرعة المصنع ام فى القرية . ان رعاية صحة الجاموس من أهم مايمكن للمصنع لان الجاموس هو الذى يعطى اللبن .

واخذنا المهندس الى القسم الطبى فى المصنع ورايت امام المبنى عددا كبيرا من عربات جيب والى جوار كل عربة سائقها .

وسالت : ما هذه السيارات ؟

وقال المهندس : انها سيارات اسعاف الجاموس .

عندنا خدمة اسعاف عالية الكفاءة ، وعندنا عدد من الاطباء البيطريين الذين دربوا فى أعلى الجامعات والمعاهد .

ودخلت الى القسم الطبى ، ورايت عدة اجهزة تليفون وعامل خاص يتلقى الاشارات التليفونية التى تعلن عن مرض جاموسة فى اى مكان فى المنطقة . وبعض اطباء بيطريين فى وضع الاستعداد دائما للاسراع بسيارة الاسعاف الى الجاموسة المريضة . وحقائب اسعاف وادوية حديثة وكل شيء .

ان مركز اسعاف الجاموس هذا اكثر كفاءة من كثير من مراكز اسعاف المرضى من البشر فى بلاد كثيرة بل فى هذه المنطقة بالذات ، ترتفع نسبة وفيات الاطفال والكبار بسبب سوء الرعاية الصحية وانتشار الامراض .

ورعاية الجاموس الصحية تشمل أيضا الرعاية النفسية . قالوا لى انهم يدرسون الاسباب النفسية التى تجعل الجاموسة تحزن ويقل ادرارها للبن . احد هذه الاسباب هو حرمانها من أولادها الصغار . وقال لى احد الاطباء البيطريين مزهوا وهو ينظر فى بعض

الاحصاءات الاخيرة : لم تظهر حالة مرض معدية واحدة بين الجاموس في المنطقة كلها منذ عشر سنوات وقد تحسنت صحة الجاموس تحسنا كبيرا وزاد ادرار لبن الجاموسة الواحدة عشرة إضعاف في السنوات الخمس الاخيرة . كل ذلك بفضل نشاط القسم الطبي في « أناند » .

وبينما نحن نغادر المصنع رأينا من خلال السور وجوه الجاموس المتوردة ذات الصحة الجيدة ، ولم نكن قد نسينا منظر وجوه الاطفال والامهات الضامرة الشاحبة فقال زوجي للمهندس الهندي ضاحكا : اذا كانت مسألة تناسخ الارواح حقيقية كما تقول « الجيتا » فاني أود ان تلبس روحي بعد وفاتي جسد جاموسة في « أناند » » .

وضحكنا حتى دمعت عيوننا من شدة الضحك وشدة الاسى معا .

***

في شرفة فندق « التاج محل » انحنى الجرسون الهندي واضعا امامنا صينية الشاي . وجه أسمر نحيل من تحت عمامة ضخمة بيضاء . أسنان تلمع كالفضة . وابريق الشاي من الفضة أيضا مزين بنقوش اسلامية مغولية .

هواء البحر يملأني برائحة اليود وحنين لبحر الاسكندرية وأحلام الطفولة . أصوات الغناء والرقص والموسيقى تتصاعد مع رائحة البخور الهندية والصندل المحروق والند . وفي أعماقي تستيقظ مشاعر أو غرائز قديمة نامت مع الزمن أو ربما ماتت منذ عصور

مصر القديمة . انهض واقفة واحرك ساقي وذراعي في الهواء واندهش . فهى الحركة نفسها التي يؤديها الاله شيفا مع اختلاف واحد . هو له اربع اذرع وانا ليس لي الا ذراعان .

ضحك صديقي الهندي « شاندرى » بصوت خافت ، او بلا صوت . شهقة اشبه بالشهيق العميق او الزفير الطويل . وهزة راس لم اعرف منها ايقول نعم ام لا . لكن اسنانه البيضاء اضاءت وجهه الاسمر بابتسامة ورشف الشاي بصوت عال ، وقال بصوت خافت :

قدماء المصريين كانوا يرقصون مثلنا ، وذلك لاننا الهنود ...

وقاطعته قبل ان يدخل في حديث طويل عن الهنود وحضارتهم التى يؤمن انها اقدم من حضارة المصريين ، وقلت ضاحكة : ربما اكتشف الاله « شيفا » الرقص لكن الآلهة « ازيس » اكتشفت الحكمة والعقل .

هو استاذ للتاريخ في جامعة بومباى ، ولا يمكن أن يكف عن الحديث الا اذا قاطعه احد .

وقال وهو يرشق « البايب » فى زاوية فمه ، وفوهتها ناحيتى .. ارجوك دعيني اشرح لك الموضوع منذ بدايته ، لان ..

وقلت وأنا أطرد بيدى الدخان المتصاعد من انفه وفمه : ارجوك لا أستطيع أن أتابع حديثك واصوات الموسيقى والرقص تملأ الكون . انظر هؤلاء الناس الذين تجمعوا بالآلاف !

وقال : انه عيد الاله جانيش .

وقلت : هيا ! نشترك معهم في الرقص فانا لاأستطيع

ان أقاوم عدوى الفرح والبهجة بالحياة خاصة اذا كانت جماعية .

هبطنا الى الشارع . مهرجان من الالوان والالحان والرقصات . رجال ونساء وأطفال يملأون الشارع ويمتدون على الشاطىء حتى البوابة الضخمة المفتوحة على المحيط . بوابة بومباى الشهيرة تشبه قوس النصر على رأس « الشانزليزيه » فى باريس . لكنها هنا لاترمز الى النصر . لقد بنيت هذه البوابة من أجل أن يمر من تحتها ملك بريطانيا « جورج الخامس » فى أول زيارة له للهند سنة ١٩١١ . بوابة بنيت كالكوبرى الحجرى الضخم ليمر الملك الانجليزى من تحتها .

وهز شاندرى رأسه وهو يشير باصبعه الى البوابة : الملوك فى الهند كالكوارث وفياضات الأنهار لابد أن تبنى الكبارى ليمرون من تحتها .

وقلت : نعم ، فى عالم السياسة يمكن بناء كوبرى وان لم يمر تحته نهر .

سرنا وسط الجموع حتى الشاطىء . وقف شاندرى تحت البوابة وحملق فى مياه المحيط : السياسة كالتاريخ كالدين علم يحتاج الى خيال ، وليس كل شىء فى السياسة أو الدين ندركه بالحواس أو حتى بالعقل . والا ما أصبح « جانيش » اله رغم أن له رأس فيل .

مجموعة من الرجال يرقصون ويقتربون من الشاطىء يحملون بين أذرعهم تمثال الاله « جانيش » . له جسم طفل منتفخ البطن ورأس فيل . يلمسون الرأس والبطن ويتباركون . أيادى النساء تمتد من وراء الرجال تحاول الحصول على لمسة من الاله وبركة . الاجسام تتزاحم

حول الاله الخشبي . وأيادى الرجال ترتفع عاليا بالاله ثم تهوى به الي قلب المحيط .

ودهشت : اغرقوا الاله جانيش ؟!

وقال شاندرى : لانه ثمرة الخطيئة .

قلت : اى خطيئة ؟

قال : خطيئة الآلهة « برافاتى » مع رجل آخر غير زوجها « شيفا » . وقطع « شيفا » رأس طفلها ، لكنها اعادت الحياة اليه بعد أن ركبت له رأس فيل ، واصبح الاله « جانيش » ونحن الهنود نعبده ونحبه ونحتفل به .

قلت : تعبدونه وتقتلونه غرقا ؟

قال : اغراقه يعنى اغراق الخطيئة ، ولهذا نحتفل بهذا اليوم .

قلت : لكنه يموت غرقا .

قال : لا يموت أبدا . الآلهة لا يموتون . الخطيئة وحدها هي التى تموت ، أما الاله « جانيش » فهو ينقذ نفسه .

قلت : معقول جدا . اذا لم يستطع الاله أن ينقذ نفسه من الموت أو الغرق فهل يمكن أن يكون اله ؟.

وثبت عينيه السوداوين الواسعتين من تحت النظارة البيضاء على وجهى وقال بشيء من الاحتجاج : أتتهكمين على آلهتنا ؟

قلت : أنا احترم آلهة كل البشر على اختلاف انواعهم ، وعلى الاخص الاله « جانيش » فهو طفل برىء ولا يستحق الموت غرقا . لماذا تحاسبون الطفل على فعل قام به أبوه أو أمه . لماذا لا تحتفلون مثلا باغراق « شيفا » أو برافاتى ؟! هذا هو العدل فى رأيى .

وقال شاندرى : هذا هو العدل الانسانى المنطقى ..

لكن في عالم الاديان والآلهة هناك عدل آخر غير منطقي . لا يمكن أن نحاسب الاله « شيفا » على أخطائه لانه يملك قوة الدمار والموت .

لا يمكن أن نحاسب الآلهة الذين يملكون هذه القوة . فالمنطق هنا منطق القوة وليس منطق العدل .

ورأيت امرأة ترقص على حافة الشاطيء وتلقى زهورا حمراء في مياه المحيط حيث ألقى الاله جانيش وتردد بصوت كالغناء : أيها الاله الطيب « جانيش » ، يانصير الضعفاء والاطفال المرضى والجياع ، أتوسل اليك أن تتوسط لي عند الاله الجبار « شيفا » ليحمي طفلي من الموت . انه مريض منذ ثلاثة شهور ولا ينهض من الفراش ! .

ترجم لي شاندرى هذه الكلمات وقال : اترين ؟ نحن نعبد « جانيش » لانه اله طيب . لكنه اله ضعيف لا يملك الضرر أو المرض أو الموت ، وكل مايملكه هو أن يتوسط بيننا وبين آلهة الموت والدمار أمثال شيفا وبراهما وفيشنو .

بدأت عدوى الرقص تنتقل الينا . غمس شاندري اصبعه في المسحوق الاحمر المقدس وطبع على جبهتي دائرة حمراء . في حركة يده وفي تلامس الذرات المقدسة بجسدى تحولت الى امرأة هندية تعبد الاله شيفا ، أو ربما أصبحت الآلهة برافاتي نفسها زوجة شيفا التي خانته وانجبت جانيش . وأحببت الاله « جانيش » كأنه ابني ، من صلبي . ولدته في مكان وزمان لا أدرى عنهما شيئا .

حركت ذراعي في الهواء كالمروحة وأصبح لي اربعة أذرع ثم تضاعف العدد بسرعة وأصبح ثمانية أذرع .

بسرعة حركتي في الهواء تتضاعف عدد أذرعتي . توقفت لحظة عن الرقص وأنا الهث .

وقال شاندري : اتؤمنين بتناسخ الارواح ؟

وتساءلت : لماذا ؟

وقال : لان روحك الآن لبست جسد بارفاتي وأذرعتها وكأنما كنت على وشك التصديق وقلت : اجل ، ربما ، على أي حال ، عقلي لا زال غير مقتنع ، لكنى احس في هذه اللحظة انني الآلهة برافاتي ، أو ربما الالهة أزيس، على أي حال كلهن الهات !

وضحك شاندرى ضحكته الصامتة كالشهيق أو الزفير ولمعت أسنانه في المساحة السمراء وقال : وكلهـن خائنات ! في كل تاريخ الآلهات ليس هناك آلهة واحدة مخلصة لزوجها . وكلهن مثل الالهة برافاتي ، ولكل واحدة منهن طفل مثل « جانيش » .

وقلت : ألهذا السبب لم تتزوج يا شاندرى ؟ وشحب وجهه الاسمر : لا . ولكنى حين أتزوج سأختار امرأة من وسط العبيد وليس من وسط الآلهات ، فالعبودية تعلم المرأة الاخلاص لزوجها حتى بعد موته . فهى تلقى نفسها في المقبرة معه ولا تتركه يدفن وحده .

قلت : وانت زوجها هل تلقى نفسك في المقبرة اذا ماتت هي قبلك ؟

حك شاندرى راسه بطرف اصبعه واطرق الى الارض صامتا ، كأنما يستجمع افكاره أو ذاكرته من زمـن سحيق ، ثم قال : المرأة هي سبب الخطيئة وسبب الموت ، وهي المسئولة عن موت زوجها اذا مات قبلها . ولهذا أمرنا الآلهة بأن تدفن الارملة مع زوجها في المقبرة نفسها . واذا عاشت الارملة بعد زوجها فهي تسبب

الفساد والكوارث ، انظرى ماذا فعلت بنا أنديرا غاندى ؟ منذ أن تولت السلطة هذه الارملة وجميع الآلهة غاضبون علينا .

وتساءلت : جميع الالهة فى الهند أم فى بلاد أخرى ؟ وانفرجت شفتاه عن شهقة سريعة :

ماذا تقصدين ؟

وضحكت : لا اقصد شيئا . مجرد محاولة لمعرفة اذا ما كان الآلهة فى الهند يتفقون فى هذا الرأى مع الالهة فى بلاد أخرى من العالم ..

وبدأ اللون الاحمر يتصاعد الى بشرته السمراء وهز رأسه : ربما تؤمنين بآلهة أخرى وهذا حقك . لكن آلهة الهند لا يحبون الارملة ، لانها سبب موت زوجها . لكن الرجل ، ليس سبب موت زوجته . فهى تموت بسبب أخطائها وتكفيرا عن ذنبها . ومن حق زوجها أن يتزوج امرأة أخرى بعد موتها . هذا هو قانون الحياة . ألديك اعتراض على قانون الحياة ؟

وقلت : أتقصد أن قانون الحياة هو أن تدفن الارمل مع زوجها الميت فى مقبرة واحدة ؟

قال : أتعترضين على دفنهما فى مقبرة واحدة ؟ بعض الاديان تعترض على دفن النساء مع الرجال فى مقابر واحدة ، ولابد من دفن النساء فى مقابر خاصة بهن .

كنت لا ازال واقفة على الشاطىء ، تحت بوابة بومباى الضخمة . رائحة البحر واليود تملأنى بالحنين لبحر الاسكندرية وأحلام الطفولة . خيالات فى راسى تشبه خيالات الطفولة ، وصوت جدتى فى أذنى يحكى عن الجان والعفاريت ولكل عفريت ثمانية أذرع طويلة ، و « جنية » البحر لها راس امرأة وجسد سمكة .

صوت شاندرى يشبه صوت جدتى : الآلهة لا يحبون الارامل .

وقلت بصوت طفولى : لعلهم يفضلون العذراوات .

وصاح بدهشة : هذا صحيح ! كيف عرفت هذا ؟

وقلت : لاننى طبيبة نفسية ، وافهم نفسية الآلهة .

وقال شاندرى : لكن الالهة عندنا يختلفون . وليس شيفا مثل فيشنو أو « براهما » .

قلت : قد يختلفون سياسيا . وربما يفضل « شيفا » الراسمالية . وفيشنو ربما له ميول اشتراكية . لكنى اعتقد انهم يتفقون جميعا فى نظرتهم للمراة .

وظل شاندرى يحملق فى وجهى بعينيه السوداوين . اصبحت عيناه ضيقتين كعينى جدتى وبلا رموش . صوته ايضا هو صوتها . واطفال بومباى ينظرون الى بعيون سوداء واسعة يملأها الجوع والدهشة كعيون الاطفال فى قريتى البعيدة على شط النيل ، وعيونى فى الصورة وانا طفلة اقف فى الصف الاول الى جوار زميلاتى فى المدرسة الابتدائية .

اصبح شاندرى هو الذى يرقص الآن . على جبهته الدائرة الحمراء المقدسة . وراسه يشبه راس الاله « جانيش » بدون زلومة الفيل . ذراعاه يتحركان فى الهواء وقد تضاعف عددهما واصبح له اربعة اذرع طويلة كالمخالب . وصوته كصوت الاله الراقص « شيفا » : نحن افضل من غيرنا ، واكثر تقدما ، فنحن لا نعترض على اختلاط النساء والرجال فى المقابر بعد الموت . اما الارملة ؟ ! هل هناك احد يحب الارامل ؟ وقد نشفق على الارملة الضعيفة المستكينة المطيعة لاوامرنا . لكن هذه الاندرا غاندى ؟! انها تمتلك قوة تنافس بها الآلهة .

واستطاعت أن تتخلص من خصوم ابيها . وكان نهرو يسميهم « الثعابين » . وعجز عن مقاومتهم . واستطاعت أن تنجح فيما فشل فيه « نهرو » . لكن نجاحها معناه سقوط الآلهة ، وخاصة الاله « براهما » وجميع البراهميين اي رجال الدين والفكر عندنا . وهم الطبقة العليا . فنحن لا نفصل بين املاك الاله « براهما » واملاك البراهميين .

كان احد الرجال قد اقترب من شاندري وهو يرقص جلباب ممزق تفوح منه رائحة قمامة ووجه شاحب تشتعل فيه عينان سوداوان بوهج الجوع وسقط « ظله » وهو يرقص على سترة شاندرى السوداء من الصوف الانجليزي الثمين . توقف شاندري عن الرقص فجأة ، ونفض سترته « الظل » كأنه ينفض شيئا له قوام مادي . كالحشرة تماما ينفضها عن ملابسه .

وقلت بدهشة : انه لم يلمسك .

وقال : ظله لمسني وهذا يكفي . كان ابي يستحم اذا سقط عليه ظل واحد من هؤلاء المنبوذين .

ابتعدت أنا الاخرى عن الرجل . رائحته تملأ الدنيا بالقمامة والفقر . تذكرت قول برناردشو : « انا لا احب الفقراء ، ولا أحب رائحتهم » . وهل هناك احد يحب رائحة القمامة ؟ حتى الآلهة في الهند لا يحبون الفقراء والمنبوذين . خاصة الاله براهما وشيفا . مع أن الفقراء هم أكثر الناس حبا للآلهة . ما من معبد دخلته في الهند الا وكان مكتظا بالفقراء . لا يسكفون عن العبادات وتقديم الهدايا للالهة وخاصة الاله « براهما » . لكن الاله « براهما » يأخذ منهم ولا يعطيهم شيئا . انه لا يعطي الا طبقة البراهميين . يغدق عليهم من ماله

واملاكه . مع انهم لا يزورون المعابد ابدا . ولا يقدمون شيئا للالهة ، مثل غيرهم من طبقة رجال الحــــرب « التشاتريا » ، والتجار « الفيشيا » ، والتشودرا أيضا أصحاب الاعمال اليدوية .

وقال شاندري : هذا حال الدنيا . والدنيا ظالمة . لكن الآلهة عادلون . فهم يعطون الاشرار الاموال ويعطون الفقراء الايمان . والايمان أفضل من المال ، والفقـــراء منبوذون في الدنيا لانها ظالمة وزائلة لكنهم بعــد الموت سينالون رضا الآلهة ولذلك سماهم غاندى « الهاريجان » يعني أطفال الاله . نعم . نعم . . . وهز شاندرى رأسه . نعم لن ينسى « شيفا » « الهاريجان » بعــد الموت . أما الارامل فلا مكان لهم في قلب « شيفا » . وكــان لابد أن تدفن أنديرا غاندى في مقبرة واحدة مع زوجها منذ سنين . كانت ستنعم برفقة زوجها بدلا من حياتها كامرأة وحيدة بلا رجل ، تعيش في بيتها وحيــدة ، وتموت وتدفن في مقبرتها وحيدة . هذه الانديرا غاندي قد حرمت نفسها من أهم الحقوق التي تحظى بها أبسط امرأة هندية . وهو أن تدفن في مقبرة واحـــدة مع زوجها .

صوت « شاندرى » لا زال في رأسي . البحر أمامي والشاطيء . لكنه ليس شاطيء بومباى . انه شاطيء الاسكندرية . وانا أجلس في شرفة فندق « البوريتاج » أمامي الورق والقلم أحاول أن أكتب . الجرسون النوبي الاسمر ترك لى صينية الشاى وجرائد الصباح . لمحت عنوانا في جريدة الاهرام « ١٢ ديسمبر ١٩٨٢ » .

« لا يجوز دفن رجل مع امرأة في قبر واحد .

هل يجوز دفن رجل مع امرأة في قبر واحد ؟

.. جرى عمل السلف على دفن كل ميت في قبر خاص . فان دفن فيه أكثر من واحد كره أو حرم الا لضرورة ككثرة الموتى وضيق المقبرة .. وروى عبدالرزاق بسند حسن عن واثلة بن الاسقع أنه كان يدفن الرجل والمراة في القبر الواحد ، فيقدم الرجل ويجعل المرأة خلفه وكانه كان يجعل بينهما حاجزا لا سيما اذا كانا اجنبيين وذلك عند الضرورة . أما في غيرها فلا يجوز دفن رجل مع امراة في قبر واحد عند الشافعية . كما قيل لا يجمع بين رجل وامراة في قبر الا لضرورة فيحرم عند عدمها . قال ابن الصلاح : ومحله اذا لم يكن بينهما محرمية أو زوجية .. والذى في « المجموع » ان الجمع حزام حتى في الام مع ولدها .

كتبت بضع كلمات سريعة على ورقة . طويتهـــا وارسلتها عن طريق البرق كأنما هي وصيتي الاخيرة .

فتح البرقية وهو جالس في بيتنا بالجيزة ودهش . كانت كلمات البرقيـــة متـــكررة الحروف ثأثأة مصاب بداء في اللسان :

أ أ أريد يا يا يا حبيبي أن ن ن ن ؟ ؟ تضمني أنا أنا وانت وانت مــ مــ مـ مقبرة وا وا وا وا وا وا وا وا وا واحدة .

زوجتك المخلصة

لم اكن اطلب في رحلاتي لقاء أصـــحاب أو صاحبات السلطة . بيني وبين الالهة فوق الارض عداء . أما الالهة من ذوى الاجنحة أو من ذوى الاذرع المتعددة فقد كان من السهل أن ألتقي بهم في معابد الهند ، حيث يلتقي بهم كل الفقراء والمنبوذين والمنبوذات .

كنت اندهش . كيف يمكن للالهة الحقيقيين امثال شيفا وفيشنو ان يكونوا أكثر تواضعا من الالهة المزيفين فوق الارض ؟

روبية واحدة او كسرة خبز تكفى لان التقى بالاله الجبار شيفا ، أو اله الموت والدمار . وهو رغم الوهيته وجبروته لايعبأ بأن أرتدى له زى التشريفات . وليس له مدير مكتب ولا سكرتير خاص ولا حاجب ولا أحد يمكن ان يعترض طريقى اليه .

لكن هؤلاء الالهة الاخرين الذين يمشون فوق الارض على قدمين وليس لاى منهم أجنحة ، أو أربعة اذرع ، وانما مجرد ذراعين مثلى تماما ، هؤلاء الالهة لم اكن افكر فى اللقاء بهم . بل اننى كنت أسـعى الى الابتعاد عنهم . حتى صورهم فى الصحف اليومية الصباحية لم اكن أنظر اليها ، لسبب واحد بسـيط هو : رغبتى الصادقة فى استقبال اليوم الجـديد بنفس منشرحة متفائلة .

تعودت خلال السنين الاخيرة الا اقرأ الصحف أول النهار . اخبئها تحت المكتب حتى آخر الليل ثم انساها وانام . لكننى فى صباح اليوم التالى اراها تحت عينى تطل على من تحت عقب الباب .

ذلك الصباح استيقظت مبكرا وبحكم العادة اتجهت عينى نحو الباب وهبطتا حتى العقب . ولدهشتى لم اجد الصحف . رأيت الارض لامعـة نظيفة لا يعلوها شيء . نهضت من الفراش بحركة سريعة نشطة اشـبه بالسعادة المفاجئة . واكتشفت فى لحظة خاطفة كضوء الكشاف لماذا أصبحت أحب السفر : كنت اريد ان افتح عينى فى الصباح فلا أرى الصحف .

والصـــــباح فى نيودلهى كان مشرقا ، وقد أحببت شمس الهند فى الشتاء . فهي شمس قوية أقوى من أى ريح باردة . لكنها ليست قوة غاشمة مستبدة وانما قوة الكواكب العظيمة الواثقة فى نفسها . قوة الالهة الحقيقيين من ذوى الاذرع المتعددة والقلوب الرحيمة المتواضـــعة تحتضن الكل بالتساوى ، لا فرق بين منبوذ أو مهراجا.

اغرقتنى شمس الصباح وانا جالسة فى الشرفة أطل على القباب المغولية وانصت الى زقزقة العصـــــافير وسمعته يقول :

لقد زرت الهند عدة مرات وعشت فيها شـــهورا ، وتجولت فيها شمالا وجنوبا ، ولا يمكن لك أن تتركى الهند دون أن تقابلى أنديرا غاندى !

***

لم يمض على ذلك الصباح بضعة أيام ووجدت نفسى داخل السيارة الصغيرة التى اجتازت البوابة الحمراء الكبيرة التى تقود الى « راشترايا فى بافان » وهو مقر الحكومة فى العاصمة دلهى . لم أر الا حارسا واحدا على الباب الخارجى ، ولم أجد الا سكرتيرا واحدا صافحنى بابتسامة الهندى المتواضعة ثم اذا بى فى مكتب رئيسة الوزراء : أنديرا غاندى .

كانت واقفة مرتدية « السـبـــــارى » الذى يزيد من قوامها المشوق ، وعلى وجهها ابتسامة تنســـــجم مع اشراقة الخصلة البيضاء فوق جبهتها المســـــتقيمة الواضحة . ادركت لاول وهلة أن وجههـــــا يعبر عـــن شخصية اقوى واكثر تميزا من الوجه الذى رأيته لها فى الصحف والمجلات والكتب . هى اذن من هذا النوع من الناس الذين تعجز آلة التصوير عن نقل شخصيتهم

وروحهم الحقيقية للناس .

شعرت وأنا أصافحها براحة تغلبت على الضيق الذى أحسه دائما وأنا داخل مكاتب أصحاب السلطة من أى نوع . لابد أننى ابتسمت فى هذه اللحظة واتخذ جسمى وضعا طبيعيا مريحا فى المقعد المواجه لمقعدها .

وجها لوجه وعينا فى عين زاد شعورى بأننى أمام امرأة قوية . كنت قد قرأت بعض الكتب عن طفولتها وحياتها وكفاحها قبل وبعد وفاة أبيها نهرو . شاركت مع زعماء الهند ومع جيلها من الرجال والنساء فى الكفاح ضد الاستعمار . وحين أحبت رجلا من غير دينها ومن غير طبقتها (كان من الفارسيين الذين يعبدون النار ومن طبقة فقيرة) صممت على أن تتزوجه ، رغم أن زواجها منه كان مخالفا لجميع تقاليد الهند . لكنها ضربت المثل فى أن الزواج يجب أن يبنى على الحب والتفاهم . وكان هذا الفعل من جانبها ثورة فى المجتمع الهندى الذى يقوم على التفرقة الشديدة بين الطبقات والاديان . فى فترة ما من حياتها كادت أن تترك السياسة والكفاح العام وتتفرغ لحياتها كزوجة وأم ، لكنها لم تستطع . ان الكفاح السياسى فى دمها ، رضعته وهى طفلة وشاركت فيه طوال شباها وشبابها . لم تكن حياتها سهلة ، ولم يكن لامرأة بغير قوتها أن تنجح فى قيادة المجتمع الهندى الكبير الذى لازال فى معظمه مجتمعا رجاليا يسود فيه الرجل داخل الاسرة وخارجها ، ذلك المجتمع المترامى الاطراف ، الملىء بالمشاكل والثروات معا ، والذى خرج من قبضة الاستعمار لكنه لازال يعانى آثاره . فى الهند الان حوالى ٣٠٠ مليون شخص يعيشون دون الكفاف ، وفى كل مكان نرى هؤلاء البشر الجالسين أو الراقدين

على الارض ، أو الذين يعيشون داخل أكواخ من الصفيح أو القش أو الخيش ملايين من الناس رجالا ونساء وأطفالا اتخذوا من الرصيف بيوتا ، يأكلون وينامون ويستحمون ويموتون فوق الرصيف .

كانت أنديرا غاندى محاطة الاوراق العديدة فوق مكتبها . عيناها مليئتان بحيوية غريبة ، وابتسامة تكاد تكون مرحة ، وربما نسيت فى بعض اللحظات اننى أمام المرأة التى لقبها الغرب بأقوى امرأة فى العالم ، لكننى سرعان ما كنت أدرك أنها هى أنديرا غاندى بتلك النظرة العميقة فى عينيها والانقباضة فى عضلات فمها حين تتكلم ويتخذ وجهها الصرامة والجدية اللازمة لاصحاب السلطة .

وبدأت أنديرا غاندى تقول :

« صداقة العرب والهند صداقة قديمة وعلينا ان نقوى هذه الصداقة ونجددها دائما . وبالرغم من ان بعض زعمائنا ومنهم المهاتما غاندى قد عطفوا على اليهود بسبب اعتداء هتلر عليهم الا اننا لم نؤمن أبدا بالطريقة التى خلقت بها اسرائيل . ان مشكلة الشرق الاوسط (نسميها هنا منطقة غرب آسيا) لم تكن الا مشكلة أوروبية حاولت أوروبا أن تحلها على حساب الشعب الفلسطينى . نحن هنا فى الهند نساند الشعوب العربية لانهم ظلموا ، وقاوموا الاستعمار والاستغلال كما حدث لنا سنين طويلة . لقد عانينا فى الهند من أزمة البترول مثل غيرنا من البلاد لكننا نرى أن مشكلة الشرق الاوسط لابد أن ينظر اليها نظرة عادلة شاملة . من حق البلاد العربية أن تكافح وتحرر أموالها من قبضة البلاد المتقدمة . ومن حق جميع البلاد النامية أن تفعل ذلك . ونحن فى

الهند نحب السلام وهدفنا دائما هو الصداقة وازالة سوء التفاهم والقضاء على الكراهية . رغم كل شيء ساندنا الصين وأيدنا انضمامها الى هيئـــــة الامم . وكان السوفييت أول من ساعدنا في انشاء صناعة ثقيلة فى الهند . ونحن نحاول أن نقضى على الفقر فى بلادنا . لكن استمرار بقاء مشكلة الفقر لاتعنى فشلنا فى الهند كمجتمع ولكنها تعنى فشل نظام العالم الحديث . فى تحقيق العدالة . ان البلاد المتقدمة تحظى بكل خيرات العالم رغم قلة سكانهم . انهم يستهلكون أكبر كميات من القمح والبروتين والفواكه والبترول وكل شيء . ولا يتركون لشعوب العالم الثالث الا القليل رغم كثرة السكان . ولا ترجع مشـــــكلة الفقر فى بلادنا الى كثرة السكان كما يقولون فى الغرب . ولكنها ترجع الى خطـأ فى النظام العالمى . وقد غضبوا منى فى الغرب بسبب رأيى هذا . لكننا فى الهند نعرف مشاكلنا ونعرف اسبابها الحقيقية . ونحن ندرك أن التصنيع والتنمية الشاملة وخروج النساء الى العمل أهم العوامل التى تؤدى الى انجاح برامج تنظيم الاسرة . وقد تقدمت الهند فى هذه المجالات وانخفض معدل المواليد عن ذى قبل . والمرأة الهندية تعمل فى كل مكان . وأنا لم أصادف فى عملى كرئيسة للوزراء مشكلة واحدة بسبب كونى امرأة ، ولكننى بالطبع واجهت فى حياتى العديد من الصراعات التى استطعت التغلب عليها . ان الانسان لا يقوى الا من خلال انتصاره على الالام والصراعات التى تواجهه فى حياته . والنساء فى الهند تشارك فى جميع المجالات . عندنا ولايتان ترأس الوزراء فى كل منهما امرأة . وفى كل ولاية في الهند تشترك في الحكومة وزيرة امرأة على

الاقل . وعندنا عديد من عضـوات البرلمان وممثلات الاحزاب المختلفة . عندنا قاضيات فى مختلف الولايات. وفى القرى هناك نساء منتخبات فى المجالس القروية ، ونسبة الجامعيات والمتعلمات والعاملات فى كل المجالات اعلى من البلاد المتقدمة . ولنا فى الهند تاريخ فلسفى عميق يساوى بين الرجال والنســاء . ثم أن زعماءنا السابقين من أمثال مهاتما غاندى وابى نهـرو وغيرهم كانوا يدعون دائما الى مساواة المراة والرجل ، وخروج المراة الى الحياة السياسية والانتاج . وقد شاركت النساء فى الكفاح قبل الاستقلال ودخلن السجون مع الرجال . اثبتت النساء انهن قادرات على العمــل والتضحية ولهذا كان من الطبيعى بعد الاسـتقلال ان تستمر النساء فى عملهن السياسى وفى الانتاج . كان والدى نهرو متمردا مؤمنا بأن المراة كالرجل لذلك لم اشعر فى يوم بأى تفرقة او اضطهاد لانى امراة ، واخذت كل فرصتى فى التعليم والعمل السـياسى . لكن امى حرمت من هذا وكانت آسفة على ذلك دائما . لست اوافق على الرأى القائل بأن الام يجب أن تتفرغ لبيتها وأطفالها . المراة تستطيع ان تكون أما وعاملة فى الوقت نفسه . ان رعاية الطفل واعطاءه الحب لايعنى ان تتواجد المراة فى البيت طول النهار . ماهو مهم فى تربية الطفـل ليس هو كمية الحب ولكن نوع هذا الحب . هناك نساء متفرغات فى البيوت ولا يعطين حبا لاطفالهن . وهناك نساء عاملات يعطين الحب الحقيقى لاطفالهن فى الفترة القصيرة التى يعدن فيها الى البيت ، وهن أيضا قادرات على منح أطفالهن الاستقلال الذى يساعدهم على النضوج واستقلال التفكير من الاخرين . لذلك انا لا أوافق على الطريقة المتخلفة التى تظهر بها المراة الهندية فى افلامنا .

فالمراة الهندية فى الحياة الحقيقية اكثر احتراما واكثر ايجابية وكفاحا وتقدما منها فى الافلام الهندية . لكن السينما حرة فى الهند والحكومة لا تتدخل فى شئونها . نشجع الان مجموعات من الشباب لعمل أفلام جديدة متقدمة — ولكن الدور الاساسى لتطوير الفيلم الهندى يجب أن تلعبه الجمعيات النسائية والتنظيمات الشعبية. ان واجب هؤلاء هو تنوير الرأى العام وجعل المساواة بين الجنسين حقيقة فى الحياة اليومية للناس لتنعكس فى الافلام ويعبر الفن الهندى تعبيرا حقيقيا عن حياة الرجال والنساء فى الهند . ان جميع القوانين تساوى المراة بالرجل ولكن تطبيق ذلك فى الحياة والفن يقع على عاتق التنظيمات النسائية والنساء انفسهن . لقد زرت فى الفترة الاخيرة هذه الجمعيات ووجدت انها تقوم بنشاط كبير فعلا ، ولكن وجدت ازدواجا فى بعض الانشطة ، وأن كل جمعية منعزلة عن الاخرى وليس هناك تنسيق بين الجمعيات المختلفة . كما أن معظم الانشطة مركزة فى المدن والطبقة المتوسطة ولا تتوغل بالقدر الكافى فى الريف وبين الطبقات الفقيرة . ان جهودى موجهة لتقوية الانسان الهندى والقضاء على التفرقة بين الطبقات وحماية الانسان الهندى من أن يتحول الى ترس فى آلة . ان تحويل الانسان الى ترس فى آلة مشكلة فى البلاد الصناعية المتقدمة ، لكنها ليست مشكلة الان فى الهند ، وأحاول أن أبذل جهودا وقائية لحماية الانسان الهندى خاصة واننا نسير بخطوات سريعة نحو التقدم الصناعي . نحن نهيىء الظروف للتلميذ والتلميذة والعامل والعاملة للقراءة خارج المنهج المقرر وخارج العمل وخارج المصنع حيث تنمو قدرات الشخص الفكرية ومواهبه

الخاصة . بمعنى آخر لا يحبس عقل العامل داخـــل المصنع ، ولا يحبس عقل التلميذ أو التلميذة داخـــل المدرسة . ولابد من الاطلاع على الثقافات الاخرى . ان الهند ومصر لهما تاريخ عريق ولهما ثقافة متقاربة ولكنا لا نعرف عن الادب العربى الا القليل وكذلك لايعرف العرب عن الادب الهندى الا القليل . والسبب فى ذلك هو مشكلة الترجمة . ان الادب الهندى مترجم الى اللغة الانجليزية بكميات هائلة ولكنه لايترجم الى العربية الا نادرا . والحال نفسه أيضا بالنسبة للادب العربى . فلماذا يحدث ذلك رغم أن الانجليز قد خرجوا من مصر ومن الهند ، ورغم أن اللغة الهندية وبالذات اللغة الاردية تحتوى على ١٠٪ منها على كلمات عربية . نحن فى حاجة الى جهود كثيرة فى مجال الترجمة . لابد أن يقرأ الانسان الهنـدى عن الانسان العربى دون أن تكون اللغة الانجليزية هى الوسيط بينهما . انى أثق فى المستقبل وأعتقد أن صلتنا بالعرب وبمصر سوف تزيد على الدوام . »

***

وانتهى كلام أنديرا غاندى . وخرجت من مكتبهـا متفائلة قرب الظهر . وفى المساء لبيت دعوة عشاء مع كاتب هندى عجوز ، تربطه بأنديرا غاندى صلة قرابة ، لكنه من المعارضين لسياستها . لم يعترف بأى صفة حسـنة لانديرا وقال : كله كلام فى كلام . وماذا يمكن أن ننتظر منها ؟ والارملة فى تاريخنا شؤم وخراب .

وفرغت صحونه من الطعام ، وامتلأ صدرى بالتشاؤم . وخرجت لكن وجهه ظل امامى مليئا بالتجاعيد . وصوته يذكرنى بصوت جدتى .

كنت طفلة فى السادسة ، وهى تحكى كل ليلة قبل أن

إنام حكاية الغولة . تهز راسها الملفوف بالمنديل الاسود وتردد كأنها تغنى وعيناها نصف مغمضتين :
ـ هائلة مخيفة ...
ـ كل اصبع من اصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين..
ـ وفى راس كل اصبع منها ظفران حديديان مثل المنجلين ....
ـ وكان موضع جلوسها جريبا من الارض ...
ـ وهي اول من بغي على وجه الارض ...
ـ وعمل البخور والسحر ...
ـ وجاهر بالمعاصي ..
ـ ولذا أرسل الله عليها أسود كالفيلة ..
ـ وذئابا كالابل ...
ـ ونسورا كالحمير ...
ـ فقتلوها وأراحوا الارض من شرها .
واخفى وجهى تحت الغطاء وانا اسال جدتى بصوت خائف : هل هي جنية البحر ؟!
وترد جدتى : لا . انها امرأة من لحم ودم ، مثلى ومثل امك ، ومثلك حين تكبرين وتصبحين أمرأة مثلنا .
واهمس من تحت الغطاء : وما اسمها ياجدتى ؟
وتهمس جدتى بصوت كفحيح الثعبان : اسمها عناق أم عوج ، احدى بنات آدم لصلبه ، لعنها الله هي وأمها حــواء .
ادركت بعد التنقل فى انحاء الهند الشاسعة أن هــذا البلد العريق الضخم ينطوى فى أحشائه على تاريخ البشرية منذ بدء ظهور الانسان البدائى حتى عصرنا هذا فى الثلث الاخير من القرن العشرين .
فى ساعات قليلة بالطائرة كنت أتنقل فجاة من المجتمع

الابوي الشديد التزمت الشديد الاستغلال للمراة الى المجتمع الاموى حيث لايزال ينسب الاطفال الى امهاتهم وترث البنات الارض عن الام وترتفع مكانة النساء فى هذا المجتمع الاموى ارتفاعا كبيرا فى مختلف نواحى الحيـــاة والعلوم والفنون .

وبعد ساعات قليلة بالطائرة أهبط على الارض تبدو لي كأنها جزء من العصر الحجرى القديم وارى الرجال فى البيوت يتزينون بالمساحيق البيضاء والحمراء وفى آذانهم حلق ذهبي أو فضي . وأندهش حين أرى أصابع الرجال ناعمة رقيقة (لانهم لا يعملون شيئا سوى الاشراف على المعابد والرقص فى الحفلات الدينية » أما أصابع النساء فهى قوية خشنة بسبب مسك الفاس طول النهار فى الحقــل .

وحينما تهبط بى الطائرة فى مطار من مطارات البلاد الشهيرة بمعبد من المعابد او حينما أصل اليها بالقطار ، فان المطار او المحطة يكتظ دائما بهؤلاء البشر الجالسين او الراقدين على الارض ، اجساد متلاصقة ، الجسد جوار الجسد ، لا تكاد تعرف الذكر من الانثي ، ولا الطفل من العجوز ، فكلهم هياكل عظمية متشابهة تغطيها طبقة سوداء ، من الجلد الجاف ، والوجه ليس الا جمجمة تلتهب فى وسطها عينان سوداوان واسعتان فيهما نداء صامت واحد : نريد أن ناكل .

بعد ساعات من هذا المنظر المفزع تنقلني السيارة فى دقائق قليلة الى شوارع نظيفة ، وبيوت أنيقة تشبه فيللات الاثرياء فى لندن أو واشنطن او المعمورة . وارى الوجوه نضرة ممتلئة باللحم متوردة وأيضا كلابهم (اخذ اثرياء الهنود عن الانجليز هواية تربية الكلاب) أرى كلابهم تجرى

فى الحدائق الفيحاء متوردة الملامح سمينة تأكل اللحم بغير عظم .

وفى مدينة بومباى التى تشبه نيويورك فى أجزاء منها التقى ببعض رجال العلم من ذوى الشـــهادات العالية والدكتوراه واعجب بثقافتهم الواسعة ولكنى اراهم بعد دقائق جاثين فى خشوع امام الاله « جانيش » الذى له جسد انسان وراس فيل .

وفى شوارع نيودلهى العاصمة أرى الحدائق الجميلة النظيفة والشوارع الواسعة اللامعة ، ولكن هنا أيضـــا أسراب البقر تسرح جماعات ووحدانا فى جميع الشوارع ، وهؤلاء الذين يحرمون لحم البقر ، وهؤلاء الذين يعبدون النار او الشمس أو أى كائن حى ، وهؤلاء الذين يعلقون موتاهم فى الشجر لتأكلها النسور المسماه « قالتشرز » .

كل شيء واى شيء يمكن أن تراه فى الهند . حتى احلامى المزعجة وانا طفلة رايتها فى الهند ، حتى اغرب الخزعبلات البعيدة ، عن اى عقل بشرى وجدتها فى الهند ، هذا كله الى جوار أحدث المعاهد العلمية ، وأرقى الصناعات ، واعلى نسب فى العالم من ذوى الحاصلين على أعلى الشهادات ، سواء كانوا رجالا او نساء .

من الصعب على العين الغريبة عن الهند أن تلمس قوة المرأة الهندية . كثير من الصحفيين يذهبون الى انديرا غاندى رئيسة الوزراء ويسالونها كيف تقود هذا البلد الضخم وهى امراة فى مجتمع رجالى ينظر الى المرأة كمخلوق اقل من الرجل . هؤلاء الصحفيون لم يروا من المرأة الهندية الا هؤلاء القلة ممن تعلمن فى المعـــاهد والجامعات فى أوربا وأمريكا واثرت فيهن ثقافة الطبقة المتوسطة فى هذه البلاد الغربية .

لكن المتعمق قليلا فى حياة المرأة الهندية يدرك أن النساء الهنديات بصفة عامة يتمتعن بقدر أكبر من الاحترام والمساواة من النساء فى بلاد أخرى كثيرة .

وقد تحيرت فى أسباب ذلك الارتفاع لمكانة المرأة الهندية وبالذات فى جنوب الهند فى تلك الولايات مثل ولاية كيرالا « التى كانت بمنأى عن هجمات المستعمرين ولم تغزوها ثقافة الغرب الراسمالية الابوية القائمة على استغلال المرأة . ان ولاية « كيرالا » تتميز بارتفاع فى نسبة المتعلمين وتطور الصناعة ورقى الثقافة وارتفاع مكانة المرأة وانتشار الاسر الاموية .

وقد وجدت أيضا أن أحد أسباب ارتفاع مكانة المرأة الهندية سياسيا واجتماعيا هو أن الديانة الهندوكية فى أصلها لا تفرق كثيرا بين الرجل والمرأة ، وأن الالهة فى هذه الديانة ليسوا ذكورا فحسب ، ولكن هناك الالهات الاناث وكم من هنود يركعون أمام الالهة « برافاتى » أو الالهة « لاكشمى » وغيرهما الكثيرات .

عشت فى الهند بضعة شهور اتجول بين ولاياتها الشاسعة المتباينة ، ازور المعابد والمزارع والمصانع والجامعات ، والتقى فى كل ولاية بعدد من الادباء والاديبات وقيادات مختلفة لاحزاب متعددة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار . ودفعتنى هذه الجولات وهذه اللقاءات الى أن أقرأ عن تاريخ الهند ، وأديانها ، وبعض الروايات الهندية والقصص والشعر . كنت كلما ازددت معرفة بالهند كلما أدركت صعوبة الالمام بما فيها من تراث متشعب وثقافات متعددة وتيارات وتناقضات لا حد لها . هناك أشياء كثيرة مشتركة بين مصر والهند ، وكم من أحيان نسيت فيها اننى فى بلد

غريب خاصة فى تجولاتى بين الاثار الاسلامية التى تشكل اهم وابرز حضارة فى تاريخ الهند (حكم المسلمون الهند ثلاثة قرون ونصف من ١٥٠٠ ـ ١٨٥٠) . لكن الاستعمار الانجليزى للهند الذى استمر حوالى القرنين ترك بعض بصماته على الشخصية الهندية أكثر مما تركها على الشخصية المصرية . كثيرا ما يصادفك ذلك الرجل الهندى الذى يعيش على الطريقة الانجليزية ، فاذا به يضع « البايب » فى زاوية فمه ، ويتكلم الانجليزية من أنفه ، ويرتدى البالطو الانجليزى فى عز الحر ، ويشرب شاى الساعة الخامسة والدنيا ملتهبة كجهنم ، وأيضا هناك كلبه الذى يأخذه كل صباح للتريض .

لكن هناك ايضا الشخصية الهندية التى وعت فلسفة غاندى ونهرو ناضلت من أجل الاستقلال وعايشت استقلال الهند منذ سبعة وعشرين عاما . ان متابعة الجرائد اليومية فى الهند متعة . يشعر المرء أنه فى بلد ديمقراطى رغم المشاكل العديدة التى لاتزال تواجهها حكومة أنديرا غاندى الا أن ماحدث فى الهند من تقدم منذ استقلالها حتى اليوم ينبىء بأن هذا العملاق الاسيوى قد هب من رقاده ، وأن قوته الجديدة المتزايدة مع قوة العملاق الاسيوى الاخر « الصين » قد أصبحتا مثار قلق شديد فى العالم الاوربى والامريكى ، هذا العالم الذى أطلق على نفسه اسم « العالم الاول » ايمانا بسيادته ، وأطلق على بلاد آسيا وافريقيا اسم « العالم الثالث » .

لكن التاريخ يتغير على الدوام ، وكم من امبراطوريات عظيمة تهاوت وحلت مكانها بلاد أخرى . هل يعيد

التاريخ نفسه ويصعد العالم الثالث الى فوق وتتهاوى امبراطورية العالم الاول ؟ هناك من تنبأ بذلك من علماء الغرب ، ولعل هذا هو سبب ذلك الذعر الذى اصبح يعم بلاد العالم الاول وهو السبب ايضا فى ان بلاد العالم الثالث اصبحت تتجمع وتتآزر معا فى مواجهة اطماع العالم الاول .

***

فى ليلة مظلمة بغير قمر وقفت فى خشوع أمام الاله « فيشنو » ، فى حوض نهر « جانداك » . صورته ليست صورة انسان مثل الاله « شيفا » . أو نصف انسان ونصف فيل كالاله « جانيش » . ولكنه تجسد على شكل ثمرة تشبه الموز والرأس كعضو الذكر يشبه الزهرة المتفتحة المتأهبة للاخصاب .

وتقول الاسطورة أن الاله « فيشنو » أراد أن يضاجع « تولس » زوجة « كور السافكى » وفكر طويلا فى الامر ثم تنكر فى ملابس زوجها واستطاع أن يحقق أمنيته . لكن « تولس » اكتشفت خدعته بعد فوات الاوان ، واستطاعت بقوتها الالهية أن تصب عليه اللعنة بأن يتحول الى حجر . وكان الاله « فيشنو » أيضا قادرا على أن يرد لها اللعنة بأن يتحول شعرها الى نبات تولس وجسدها يتحول الى نهر جانداك . وحتى هذا اليوم فى الهند فان أى زهرة فى حوض جانداك تنمو على شكل « شاليجرام » وهو صورة الاله « فيشنو » بعد أن تحول الى عضو ذكرى . ويؤكد الهنود على أن علاقة « فيشنو » و « تولس » تعيش حتى اليوم والى مابعد الموت ، وفى شهر اغسطس من كل عام ، فى الليلة المظلمة تماما بغير قمر يحتفل الهنود بعبادة نبات تولس

واخصابه بواسطة « الشاليجرام » . لقد تحولت اللعنة في الاسطورة الى بركة . وتسعى النساء والرجال المصابين بالعقم الى حوض نهر جانداك فى تلك الليلة المباركة بغير قمر ، من أجل أن تحل بهم بركات «فيشنو» اله الاخصاب .

وقال الفيلسوف الهندى الفقير الجالس على حافة النهر داخل معبد هندوكى صغير طلى بالجير الابيض : عندنا فى الهند آلهة كثيرون ولدوا بغير آباء . أو من ضلوع الرجال أو رءوسهم أما الاله « برتيفى » فقد ولد من الفخذ الايمن لابيه « فانى » . والاساطير عندنا ليست خرافات . انها حقائق تحولت الى أساطير بعد تحريفها . كل الالهة الذين ولدوا من أجساد الذكور ليسوا الا أبناء العلاقات الاثمة . لكنها فى ذلك الوقت لم تكن آثمة . كانت مقدسة لان الام كانت الهة مباركة ، ثم تحولت البركات الى لعنات . أو على الاصح أصبحت البركة هى اللعنة مثل الشمس وظلها يمكن أن يحدثا فى اللحظة نفسها والمكان نفسه وهذا هو سر الحياة . وجود الشيء ونقيضه فى وقت واحد وفى جسد واحد .

كانت الدنيا ليل ، والظلمة شديدة بغير قمر . مياه النهر سوداء . زهور الشاليجرام والتولس تتمايل وتتعانق خلسة دون أن يراها أحد . النهر يمتلىء فجأة بالزهور الوليدة تلمع تحت ضوء النجوم كآلاف من السمك الصغير .

وفى الضوء الخافت رأيت امراة فارعة الطول تخرج من النهر . لها ذيل سمكة مثل جنية البحر . ملامحها حادة قوية تشبه ملامح الالهة . وعيناها سوداوان ثاقبتان كعينى حتشبثوت او الالهة ايزيس .

ومياه الطمي تلونت بالطمي الاحمر الداكن ، مثل نهر النيل . وعلى سطح الماء رايتها تمشي بخطوات سريعة كانها تمشى على الارض . ومن حين الى حين تنثني وتلتقط شيئا تدسه في فتحة ثوبها . ودققت النظر ، ودهشت . كان الاله فيشنو أو « الشاليجرام » قد تبعثرت اجزاؤه كالاشلاء الصغيرة ، وهى تحاول أن تلم الشتات قطعة قطعة تضمها بعناية داخل جلبابها . وتكومت أجزاء الاله كلها تحت الجلباب فوق صدرها وبطنها . وحين رفعت راسها الى أعلى وسارت فوق الماء بدت كالمرأة الحامل . لكنها لم تكن تحمل إلا الاله الذى اخذ اسما جديدا : « أوزوريس . » وكشف الفيلسوف الهندى عن أسنان بيضاء في وجه شديد السمرة وقال وهو يهز رأسه على طريقة الهنود : « نعم .. نعم .. « الشاليجرام » و « تولس » هما الاب والام ، لكن الام تحولت الى لعنة والاب أصبح الاله . والاله عندنا معصوم من الخطأ وان تنكر فى ملابس الزوج . أما المرأة فهى مخطئة دائما سواء فعلت أم لم تفعل . ويرجع ذلك الى أن الاله خصها باللعنة .

وهمست فى الليل وانا لاازال احملق فى الزهور الاثمة: بدأت الاديان الذكرية بالظلم العظيم .

***

واعظم ظلم فى تاريخ الهند وقع على مائة الف امرأة هندية حملن سفاحا اثر معركة اغتصاب مسلحة . وقد تنكر الالهة فى زى الجنود وحملوا اسلحة انجليزية وملامح هندية واقتحموا المدينة فى ليلة مظلمة بغير قمر . والمدينة هندية لكنها بعد التقسيم اصبحت فى الباكستان الشرقية — دخل الجنود المسلحون الى المدينة

الجامعيه وذبحوا الذكور ثم اغتصبوا الاناث .

والمرأة آثمة (حسب التعاليم المقدسة) سواء فعلت أم لم تفعل . سواء رغبت أم لم ترغب . سواء اغتصبها الرجل بالقوة المسلحة الانجليزية أو بأى قوة ذات جنسية اجنبية أو متعددة الجنسيات .

لم يكن الالهة فى ذلك الوقت يعرفون شيئا عن القوى المتعددة الجنسيات ، لكنهم كانوا يعرفون شيئا واحدا محددا : اذا حملت المرأة دون أن يعرف الاب فهى آثمة.

وفى المحكمة ارتدى الاله « فيشنو » زى القاضى الباكستاني وحملق فى بطون مائة الف امرأة حامل بغير اب معلوم . وأصبح بياض عينه أحمر كأنما ينظر الى الجحيم ، وضرب المطرقة الحديدية على راس المنضدة الخشبية وصاح بذعر : مائة ألف بطن تحمل مائة الف من أجنة الاعداء ؟! لابد من اعدامها جميعا !

وثار ضمير العالم البشرى . ماذنب النساء ؟ ماذنب الجنين البرىء ؟

وتحركت ضمائر الكهنة فى المعابد ورجال الاديان فى بقاع العالم . ثم تذكروا فجأة أن هناك شىء اسـمه « المغفرة » والالهة يغفرون الاثم أحيانا لمن يشاءون . وهز أحدهم لحيته الطويلة البيضاء وقال : نعم ، احيانا، فلماذا لاتكون هذه المرة من تلك الاحيان ؟ فالاجنة بريئة لاشك ولا يجوز قتلها ، والنساء أيضا قد يكون فيهن البريئة التى قاومت الاغتصاب حتى الموت . وبذلك أنقذها الموت من الحمل سفاحا بواسطة العدو . وعلينا أن نطلب المغفرة لهؤلاء البريئات اللائى متن دفاعا عن شرفهن أما هؤلاء اللائى يقفن أمامنا الان ببطونهن المنتفخة بالاثم فلا مغفرة ولا رحمة بهن ولابد من تنفيذ قرار

الاعدام عليهن فورا !

وصاح رجل آخر : ولكنك قلت سيادتك أن الاجنة بريئة ولا يجوز قتلها واذا أعدمت الامهات فسوف تقتل الاجنة فى بطونهن ايضا . وهذا ظلم للارواح البريئة .

وهرش الرجل شعر لحيته الطويلة وطرقع أصابعه وتمطى ثم قال : نعم نعم لك حق فيما تقول ويمكن تأجيل قرار الاعدام حتى بعد الولادة .

وزمجر رجل من الجالسين فوق المنصة : لا .. وهذا ايضا أمر غير مقبول بل خطير . سيصبح فى بلادنا مائة الف طفل غير شرعي . وياليتهم غير شرعيين فحسب ، ولكنهم جميعا جاءوا من صلب رجال من الاعداء . وسوف يبحثون ان عاجلا أو آجلا عن آبائهم ويصبحون بالطبيعة مثل آبائهم اعداء لنا !

ودب الصمت فى قاعة المحكمة . ثم نهض القضاة وساروا يتعثرون فى أذيال جلاليبهم ولحاهم الطويلة تهتز فوق صدورهم . اختفوا واجمين فى غرفة المداولة ثم عادوا مستبشرين وقد عثروا على الحل . وصاح كبيرهم وهو يخبط بالمطرقة الحديدية :

تؤجل الجلسة الى الاسبوع القادم للدراسة واستشارة الخبير الامريكي .

حملق الرجال الهنود فى ذهول . ما دخل الخبير الامريكي فى أمورنا الخاصة شديدة الخصوصية مثل هذا الامر المتعلق بشرف مائة الف امرأة من نسائنا .

الا ان الصحف بدأت ترد على تساؤلات الرجال . ونشرت مقالات عن الخبرة الامريكية فى عمليات الاجهاض الحديثة . وان الاجهاض وان كان محرما فى جميع الاديان الا أنه جائز فى بعض الاحيان .

وصدر القرار الاستثنائى باجراء عمليات اجهاض جماعية لقتل مائة ألف جنين . وتساءل احد الرجال من ذوى الضمير الحي : ولماذا تقتل الاجنة البريئة ؟ لكن احدا لم يرد عليه . وتم تنفيذ القرار فى جنح الليل .

احدى الامهات رفضت أن تقتل جنينها . حكموا عليها بالاعدام الاخلاقى . وقالوا فى أسباب الحكم : لانها عصت الالهة وأحبت طفلها الاثم ابن العدو ، ولا يمكن للام أن تحب طفلها وتكره اباه .

وهكذا أسدل الستار على مأساة عام ١٩٧١ فى تاريخ الهند أثر قرار التقسيم ، ومآس اخرى راح ضحيتها آلاف الهنود قبل أن يؤدى الاستعمار الانجليزى طقوس الوداع الاخير لاهم المستعمرات في الامبراطورية البريطانية المتهاوية شيئا فشيئا .

وها هو صوت أمريتا برتيام شاعرة البنجاب والبنغال وبيننا صينية الشاى فى بيتها الصغير فى نيودلهى : تآمر انجليزى تحت ستار التوحيد الدينى . شطروا وطنى وأهلى شطرين . شطر فى الهند وآخر فى باكستان . وحدثت أكبر هجرة واكبر مذبحة فى التاريخ فرض على الهنود المسلمين أن يهاجروا الى الهند . وفى الطريق ذبح الالاف من الفريقين وكل فريق يدافع عن آلهته . لو لم يكن هناك آلهة لخلقها الاستعمار الانجليزى ليمزق الشعب الهندى .

ولاحت لى بيروت والمذابح الطائفية . وتذكرت كلمات « ماريون » صديقتى الامريكية : عندنا فى الجامعات واجهزة المخابرات أقسام تبحث وسائل استخدام الاديان والاقليات لخلق الفتن الطائفية وتقسيم البلاد على اساس اختلاف الدين والالهة .

- تصاعد الدم فى وجه الرجل الانجليزى العجوز صاحب شركة الشاى الهندى وصاح مدافعا عن قدسية الالهة وهو يرشف الخمر المعتق من كأس بللورى وينفث دخان سيجاره الهافانى فى وجوه الاخرين . وانتقل من الدفاع عن الاله شيفا وفيشنو الى اتهام انديرا غاندى التى عصت الالهة وظلت تعيش بعد موت زوجها . وياليتها تعيش فحسب ، ولكنها تحتكر السلطة ، وتصادر حرية الشعب الهندى .

وظهرت على علامات الدهشة . وحملقت فى عينيه الزرقاوين الضيقتين كالمأخوذة وتساءلت :

يبدو أنك شديد التدين وشديد الحرص على حرية الشعب الهندى !

وحملق بدوره فى وجهى ثم قال بصوت الالهة :

نعم . نحن فى انجلترا متدينون ونحترم كل الاديان ونحرص على الديموقراطية لكل الشعوب ، وخاصة الشعب الهندى الذى يربطنا به تاريخ عريق وصداقة قديمة .

وقالت أمريتا بهدوء : نعم صداقة قديمة وتاريخ عريق مقدس بدماء الشهداء الطاهرة . ورفع صاحب شركة الشاى الهندى صوته الانجليزى قائلا :

نعم ، فلنصلى جميعا على روح الشهداء المجهولين وندعو لهم بالرحمة والغفران ودخول الجنة آمين . ثم قذف فى جوفه بقية « الويسكى » .

***

- مدينة العبادة والدعارة

الطائرة تحلق فى سماء تايلاند . انوار بانجوك تبدو تحت الجناح الفولاذى الضخم كالاف الفصوص

في عناقيد من اللؤلؤ . صوت المضيفة ينبه الى ربط الاحزمة واطفاء السجائر استعدادا للهبوط . عجلات الطائرة تلامس الارض بخفة كأنما تنزلق فوق الماء . موسيقى راقصة تنبعث من سقف الطائرة .

اهز راسي مع اللحن . رجل عجوز يرمقني بعينين رماديتين من تحت النظارة .

السلم الآلي يقترب ببطء من باب الطائرة . أمد قدمي واهبط الى الارض بخطوات سريعة . مطار بانكوك فسيح حديث . يشبه أى مطار فى أوروبا أو أمريكا . سيارة بيضاء عليها لافتة الامم المتحدة تنتظر زوجي . سائق تايلاندى قصير مربع الجسم عيناه شريطان رفيعان كعيون الصينيين . يفتح لنا باب السيارة بانحناءة ظهر وانكسارة قلب .

هذه الانحناءة رايتها منتشرة فى البلاد الآسيوية . ما ان تقترب من رجل أو امرأة حتى ينثنى الظهر بتلك الحركة . هل عانت البلاد الاسيوية من قهر أشد مما عانته البلاد الاخرى فى افريقيا أو امريكا الجنوبية أو المنطقة العربية ؟ حتى فى جزيرة زنزبار ، مهد العبودية والعبيد لم أر الظهور تنحنى بهذا الشكل . بل العكس . رايت ظهر الرجل الافريقى الاسود مشدودا ممدودا الى أعلى . وراسه ايضا شامخ الى أعلى وان كان انفه افطس . والمرأة الافريقية ايضا رايتها فارعة القامة مفرودة الظهر ، ممدودة الراس الى أعلى .

المح وجه السائق من الجانب . ملامحه تنفرنى من بانجوك قبل أن اراها . منكسرة كظهره . وانكسارة الجفون فوق العيون الضيقة الشريطية . عينان زجاجيتان شاخصتان الى الامام ومن حين الى حين تختلسان نظرة

من خلال المرآة الصغيرة الينا ونحن جالسون على الاريكة الخلفية .
شفتاه المطبقتان انفرجتا فجاة وقال بالانجليزية بلهجة امريكية : بانجوك اصبحت قطعة من امريكا ، وعندنا خبراء امريكيون في كل مكان .
واشار باصبعه خارج نافذة السيارة نحو طائرات ضخمة راقدة على ارض المطار من بعيد : طائرات حربية امريكية عظيمة !
وهز راسه بزهو متسائلا : انتما من امريكا ؟
وقلت : لا .
وتدلت شفته السفلى فوق ذقنه بحركة تنم عن خيبة الظن لكنه رفعها بسرعة واطبقها على الشفة العليا ثم تساءل بصوت خرج من فتحتى انفه : ومن اين انتما ؟
ورد زوجي : نحن من مصر .
وهنا تحول نصف وجهه الاسفل الى شفتين ممطوطتين وانشغل فجاة بشيء أهم من وجودنا .
ثم تساءل دون أن ينظر الينا من خلال المرآة :
ـ هل عندكم امريكيون كثيرون مثلنا ؟
وقلت : لا .
وقال : وماذا عندكم ؟
قلت : عندنا مصريون .
وارتفع حاجباه في اندهاش ثم هبطا بسرعة كأنما اكتشف فجاة أن الامر لا يدعو الى الاندهاش . واطبق شفتيه في صمت ، لكنه عاد يرمقنا من حين الى حين في المرآة أمامه وكأنما هبطنا عليه من كوكب آخر أو من فصيلة غريبة من البشر .
اوقف السيارة أمام الفندق . يشبه الهيلتون او

الشيراتون في اي عاصمه في العالم . فندق بلا هويه وبلا شخصية وبلا ملامح كالقرش الممسوح . ووجـوه الناس داخله ممسوحة . والغرف والممرات ممسوحة . وقررنا أن نغادر الفندق في الصباح الباكر . وما أن اشرقت الشمس حتى غادرنا الفندق بعد ان اصـبحت جيوبنا ايضا ممسوحة .

على الباب الخارجي للفندق اقترب من زوجى رجل قصير مربع الراس مشروط العينين يشبه سائق الاسس همس فى أذن زوجى بشيء لم اسمعه . لكنى رايت زوجى يطرده بيده قائلا : لا اشكرك !

ولم ينطرد الرجل . ظل يلاحق زوجى .

وسألت : ماذا يقول لك هذا الرجل ؟

قال : يقول ان عنده لى امراة جميلة هذه الليلة !

وحين اقترب الرجل مرة اخرى قلت له : واليس عندك لى رجل جميل الليلة ؟!

جحظت عيناه الشريطيتان فى اندهاش أشبه بالذعر ثم أطلق ساقيه للريح .

« بوذا » معبود الناس هنا يتربع على تمثـال من البرونز ومن فوق رأسه ثعبان . والثعبان فى البوذية يرمز الى الحماية والماء « اىَ الخيرَ » .

« الاله شيفا » معبود الهنود لا يؤمن به هنـا الا القليل . « ٧٪ فقط من السكان » . يتربع هو الآخر على تمثال حجرى على شكل عضو الذكر الضـخم . تحوطه النساء العقيمات هندوكيات وبوذيات . فالمـرأة البوذية العقيم تؤمن بأى اله قادر على اخصابها . ولا يهمها ان يكون « بوذا » او « شيفا » أو حتى الاله الطفل « جانيش » ذو راس الفيل .

ويهز الكاهن البوذي رأسه قائلا . نعم الرأس » يهم في عملية الاخصاب .

وجوه النساء العاقرات شاحبة رمادية بلون القماش الدمور . العيون مسحوبة الي أعلى نحو الاله . والايادي المشققة مرفوعة والشفاه مفتوحة تلهث بكلمات لا أفهمها.

وسألت الكاهن : أهو دعاء للاله ؟

وحملق الكاهن في وجهي بعينين ضيقتين وقال : أي اله ؟ ليس عندنا آلهة كالهندوكيين .

« بوذا » ليس الها . انه انسان مقدس ووصاياه مقدسة لكنه لم يقل عن نفسه أنه اله .

***

اليوم الاحد ، يوم السوق في بانجوك . الدكاكين الصغيرة كآلاف العلب المربعة علي جانبي الطريق . آلاف السياح الاجانب يتزاحمون على شراء الحرير التايلاندي اجود حرير وأرخص حرير . الايدى العاملة في مصانع الحرير لا تزال رخيصة . آلاف الفتيات الفقيرات يقفن امام الالات ست عشرة ساعة في اليوم « من ٦ صباحا الي ١٠ مساء » وأجر الفتاة في اليوم دولارين ونصف . وفي الشهر خمسة وسبعون دولارا ، وفي السنة تسعمائة دولار .

ما تحصل عليه فتاة المصنع في العام يساوى ما تحصل عليه فتاة الليل في الاسبوع أو نصف الاسبوع واحيانا في الليلة الواحدة .

لكن فتاة الليل هنا لا تسمى فتاة ليل . وبيوت البغاء هنا لا تسمى بيوت بغاء .

يسمونها بيوت « التدليك » . وهى بيوت محترمة لا تقل احتراما عن معاهد العلاج الطبيعي وعيادات

الاطباء . بل انها اكثر اهمية من كل هذه المعاهد او العيادات . واكثر منها عددا .

ولا شيء في بانجوك يساوى بيوت الدعارة فى الاهمية والعدد الا بيوت العبادة . والى جوار كل معبد لابد وان تقرا تلك اللافتة المكتوبة بالخط العريض : بيت التدليك .

وتتنافس بيوت التدليك على جذب السياح الاجانب اليها . وتشجعها الدولة فهى تسعى الى انعاش الثروة القومية بالعملات الصعبة . وهذا واجب وطنى . وهز الخبير الاقتصادى راسه : نعم ، الفضيلة ايضا تعيش هناك .

لكن المشكلة « كما قال لى احد خبراء التدليك » ان بيوت التدليل يزداد عددها بمعدل أكبر من زيادة عدد السياح الاجانب . حتى اصبح عددها أكثر من عدد السياح . وزادت حدة التنافس بينها على نحو عجيب . اذ يستاجر كل بيت من هذه البيوت عددا من الرجال يطلق عليهم اسم « المرشدين السياحيين » ومهمتهم بالتحديد هى : اصطياد الرجال السياح فى الفنادق او خطفهم من الشوارع !

كنت اراهم واقفين امام ابواب الفنادق ، وعند نواصى الشوارع . عيونهم الشريطية تتحرك بسرعة فى كل اتجاه . وما أن يظهر سائح اجنبى حتى ينقضون عليه :

عندى لك امراة جميلة الليلة ـ اسعارنا ارخص الاسعار ـ الخدمة تشمل كل شيء ـ تدليك عضلات البطن والفخذين والساقين وما بين الساقين وطرقعة مفاصل الاصابع ..

ـ عندنا أجمل نساء تايلاند وأجمل نساء العالم . عندنا تعدد الجنسيات . ومن جميع المقاسات وعندنا أيضا فتيات عذراوات لمن يعشق أن يكون الاول .

***

الرغبة في المعرفة أو الرغبة في الاستطلاع سيطرت على . أريد أن أرى بيتا من هذه البيوت من الداخل ؟ لكن المرأة ممنوعة من الدخول . الا اذا كانت عاملة داخل البيت . دورها هو تقديم الخدمة ، او الانتاج فحسب . أما الاستهلاك فهو حق الرجل وحده .

وارتديت زى رجل ودخلت . اصرار على المعرفة وهتك ستار المجهول .

الظهور تنحنى أمامى في خشوع . والعيون الشريطية ترمقنى باحترام بالغ . لاول مرة أدرك معنى أن يكون الانسان رجلا . أن أى حركة يمكن أن تتحول الى شرف عظيم وان كانت حركة الساقين في الطريق الى وكر دعارة .

ورفعت راسي في زهو وتصورت انني رجل .

ثم وجدتنى أقف بين صفوف من الرجال ذوى الوجوه البيضاء المشربة بالحمرة . أكتافنا العريضة متلاصقة . أقدامنا متلامسة . عيوننا شاخصة الى الامام .

صفوف من الفتيات الجالسات أمامنا خلف لوح من الزجاج الحيوانات الصغيرة الحبيسة داخل قفص من الزجاج كالسلع المعروضة وراء نوافذ المحلات . نراهم دون أن يروننا . السيقان عارية بيضاء . والنهود نافرة يعلوها رقم كأرقام المساجين في القفص . عيون الرجال تتسع بالحملقة ، تثبت فوق النهد او الساق

او الفخذ . ثم تجرى كقطع الزجاج فوق البشرة الناعمة البيضاء بلون الطباشير . كوجوه العرائس من الجبس الابيض . وعلى كل خد دائرة حمراء كاللطمة . يرتفع الجفن لحظة وتطل النظرة خلسة . نظرة مملوءة بالفراغ يشبه الحزن . أو بالحزن يشبه الفراغ . ثم تختفي النظرة بسرعة . ينكسر الجفن وينكسر العين وتطرق الراس حتى تلامس الذقن طرف النهد . وتنغلق العينان تماما بما يشبه النوم أو الملل أو الارهاق .

أجسامهن نحيلة صغيرة كاجسام الاطفال . واجسام الرجال كبيرة ضخمة كالخراتيت أو الديناصورات . وعيونهم مفتوحة محملقة أو مبحلقة . مملوءة باليقظة والانتباه والدقة . تفحص الراس والانف والشفتين . ثم تهبط الى العنق والنهدين . ثم البطن والفخذين . ثم الساقين والقدمين .

اقدامهن صغيرة دقيقة كاقدام العصافير . هل وضعوا القدم منذ الطفولة فى الحذاء الحديدى مثل اهل الصين ؟

رايت رجلا طويلا يرفع يده فجاة ويشير باصبعه الى الرقم المثبت فوق صدر احدى الفتيات . الى جوار الرقم كان السعر ايضا على شكل رقم ثان ، انتفضت كالفراشة يلمسها الضوء وسارت على أطراف اصابعها نحو ممر طويل فى نهايته باب مغلق . فتحت الباب ودخلت ودخل وراءها . ثم اغلق الباب .

وقفت حائرة مترددة . هل ارفع يدى واشير أم لا ارفع يدى . وربما تحركت يدى بسبب التردد باشارة لفتت الانظار . فاقترب منى أحد الرجال منحنيا وفى

عينيه نظرة احترام بالغة : ـ أى خدمة ؟ هل تريد شيئا ياسيدى ؟

وقلت : لا . شكرا .

ونسيت ان صوتى لم يكن صوت رجل . وجحظت عينا الرجل بدهشة ، وتسربت منهما بسرعة نظـــرة الاحترام . واخذنى الى مدير ادارة البيت .

جسمه النحيل الصغير يطل من خلف مكتب ضخم . عيناه مثل أهل تايلاند شريطان رفيعان مسحوبان الى أعلى .

رمقنى بدهشة وقال : ربما اخطأت الطريق ودخلت الى هنا بسبب الخطأ ليس الا .

وقلت : لا . جئت لاشباع رغبة الاستطلاع .

وصعد الدم الى وجهه وخبط بقبضة يده على مكتبه غاضبا : اشباع رغبة الاستطلاع ؟! الا تعرفين أن رغبة الاستطلاع لا تساور شخصا محترما ؟ وهذا المكان محترم « وخبط بيده على المكتب » نعم محترم وليس فيه مكان لاشباع الرغبات غير المحترمة .

وقلت : ربما تكون الرغبة الجنسية عند الرجل أكثر احتراما من رغبة الاستطلاع عند المرأة لكن الاله «شيفا» خلق الرغبات جميعا ومنها رغبة الاستطلاع !

وصاح الرجل : انا لا أؤمن بالاله « شيفا » ؟

وتساءلت : وبأى اله تؤمن ؟ بوذا أيضا احترم رغبة الاستطلاع بل انه لم يفرق بين رغبة الاستطلاع ورغبة المعرفة .

ورد الرجل بغضب : انا لست بوذيا ! انا يهـودى وأؤمن بالتوراه .

حملقت فى عينيه الضيقتين بدهشة . كنت اظن أن

الديانة هنا اما بوذية أو هندوكية فقط . وقال الرجل : ان حقى ان اطلب البوليس .

وابتسمت بسخرية : بالطبع ، هذا حقك ، فقد ضبطتني متلبسة بجريمة الرغبة الآثمة ، « الرغبة في المعرفة » ، وقد لعن الرب في التوراه حواء لانها اكلت من شجرة المعرفة .

وتظاهر بأنه لم يسمع ما قلت وفكر لحظة . رأيت « النني » الصغير في عينيه الشريطية الضيقة يدور حول نفسه عدة دورات كعين زجاجية في آله الكترونية حاسبة . ثم توقف « النني » عن الدوران ورأيته ينظر في ساعته ثم يسجل على ورقة بضعة ارقام جمعها ثم كتب الرقم الكلي : سبعة عشر ونصف . وقال : يمكن أن تدفعي غرامة قدرها سبعة عشر ونصف دولار ونطلق سراحك .

وقلت بغضب : هذا ابتزاز !

وقال بهدوء شديد عجيب : هذا حقنا . لقد دخلت هنا لتحصلى على المعرفة . وهذه السبعة عشر ونصف دولار مقابل المعرفة التى حصلت عليها . انا لم أفتح هذا البيت ليدخل اليه الناس ويحصلون على ما يريدون بالمجان . لا شيء بالمجان فى هذا البيت .

ثم أن وقتى أيضا له ثمن وقد أخذت من وقتى الان تسع دقائق ونصف .

فكرت لحظة ، منطق هذا الرجل اليهودى سليم بلغة السوق والتجارة . وهو رجل سوق ، يبيع للرجال المحرومين الاشباع الجنسى بالدقيقة ، حسب اللوحة المعلقة امامى . تشبه اللوحة التى تعلق فى عيادات الاطباء ، ومعاهد العلاج الطبيعى والتدليك . واذا كان

ثمن اشباع الرغبة فى طرقعة اصابع القدم دولار ونصف فى الدقيقة فما بال اشباع الرغبة فى المعرفة ؟ واذا كان يريد منى سبعة عشر دولارا ونصف نظير تسع دقائق ونصف ، فانه قد حسب الدقيقة بحوالى دولار ونصف. اى بثمن طرقعة اصابع القدم .

وقلت لنفسى : على اى حال ، من صالحى الآن ان يكون ثمن « المعرفة » بخسا .

وكنت على وشك أن أدفع المبلغ بشعور المنتصر لولا اننى تذكرت أن هذا البيت يدار للبغاء تحت اسم التدليك ، وأن هذا الرجل يشغل الفتيات الفقيرات ليربح اموالا من ورائهن ووجدتنى أقول بغضب : لن أدفع مليما واحدا ، وأنا التى سآخذك الآن الى البوليس فهذا بيت للدعارة وليس للتدليك !

لم يكن القانون فى بانجوك يضع حدا فاصلا بين تدليك بطن الرجل واشباع رغبته الجنسية . الا أن الرجل بدأ يتراجع . وقال : نحن لا نفعل شيئا ضد القانون .

وبدأ صوته ينخفض ، وظهره ينثنى ، وبانحناءة مؤدبة ودعنى حتى الباب .

***

وكان دخول المعبد اسهل بالنسبة لى من دخول بيت التدليك . والكهنة لا يمنعون أحدا من الدخول بشرط ان يدفع شيئا للالهة . طعام أو ملابس او نقود . فالآلهة هنا شانها شان البشر تحتاج الى نقود وطعام وملابس . صحيح أن كل هذه الاشياء تذهب فى النهاية الى الكهنة فى المعبد ، لكن الكهنة هم المندوبون عن الآلهة . وليس هناك من حد فاصل بين امسلاك

الكاهن وأملاك الاله .
رايت أمام المعبد كاهنا بوذيا حليق الراس ، يرتدى ثوبا طويلا أصفر ، ويرش الماء المقدس على الارض ، ثم يمد يده للناس قائلا : تبرعوا للالهة .
يده وهي ممدودة تشبه يد الشحاذين . وفى كل صباح باكر يخرج هؤلاء الكهنة البوذيون بأروابهم الصفراء ورءوسهم الحليقة وايديهم الممدودة يشحذون طعامهم من الناس .
لابد وأن تقابل كاهنا منهم اذا سرت فى اى شارع . يغيب الكاهن عن المعبد ثلاثة ايام أو أكثر فى رحلة للشحاذة ثم يعود الي المعبد ومعه خزين يكفيه اسبوعا او شهرا . فاذا ما نفد الخزين يخرج مرة اخرى فى رحلة جديدة لجلب الطعام .
ناولنى الكاهن ثمرة فاكهة يسمونها « دوريان » , وهى فاكهة تايلاند الشعبية .
قضمت عليها بأسناني . طعمها لذيذ كالتفاح . لكن رائحتها منفرة . وضعت المنديل على انفى وأنا آكلها .
وقال الكاهن : دعى الرائحة تدخل الى صدرك . انها مفيدة للصحة .
وقلت : انت كاهن تفهم فى الدين ، أما « الصحة » فهذا اختصاصي لاني طبيبة .
ورد الكاهن : وأنا أيضا طبيب .
واكتشفت أن هناك مدرسة طبية داخل المعبد . يتدرب فيها الكهنة على العلاج بالابر الصينية وبعض العلاجات الاخري الشعبية . ويسمونهم الاطباء الحفاة .
فى ركن المعبد رايت فجوة فى الارض على شكل حوض

لحفظ الماء المقدّس . ماء غسل قدم بوذا . وقدما أيضا مطبوع على قطعة حجر . بعض النسوة يقبلن الحجر ، والكاهن يرش عليهن الماء المقدس وهو يتمتم : لتطهرن من الاثم !

حاول الكاهن أن يطهرني أيضا من الاثم ، ويرش علي الماء المقدس . لكني رفضت . خشيت أن أصاب بأحد الامراض الجلدية . وقلت للكاهن :

لم أدخل الى المعبد من أجل التطهير .

وسألني بغضب : من أجل ماذا دخلت ؟

وقلت : مجرد الاستطلاع .

وصاح بغضب : هذا بيت عبادة محترم وليس فيه مكان للرغبات الآثمة .

وقلت بهدوء : « بوذا » لم يحرم الاستطلاع أو الرغبة في المعرفة .

وقال : اذن ادفعي لبوذا شيئا لانه أباح لنا المعرفة .

وأخرجت من جيبي بعض النقود وخرجت .

رحلة أفريقيا

رحلتي لافريقيا جاءت متأخرة . رايت اوربا وامريكا وآسيا قبل أن ارى أفريقيا ، مع أن قارتنا هي أفريقيا ، ونحن نعيش عليها ، وجذورنا ومنابع نيلنا تمتد من قلبها .

لكن عيوننا ووجوهنا كانت دائما تتجه نحو البحر الابيض واوربا وامريكا وظهورنا ناحية أفريقيا ، ناحية انفسنا . حينما يدير الانسان ظهره ناحية نفسه ، حينما يخجل الانسان من بشرته السمراء أو السوداء ويحاول أن يخفيها بمسحوق أبيض . كيف يعرف نفسه . كم اساء الاستعمار الاوربي للانسان الافريقي حين استنزف موارده وثرواته ، لكن الاساءة الكبرى كانت ذلك السهم الذي صوبه الرجل الابيض الى شخصية الانسان الافريقي ، فأصبحت افريقية وصمة عار وبشرته السوداء صك عبودية . وقد استغرقت رحلتي لافريقيا ثلاثة شهور الصيف عام ١٩٧٧ وهي مدة قصيرة لا تكفي للدخول في قلب الانسان الافريقي ، لكنها كانت كافية على الاقل لان ادخلَ في قلبي ، وأتعرف على نفسي وعلى كوني افريقية .

ان أول مظاهر افريقيتي هو لون بشرتي السمراء التي تتحول سريعا الى السواد بعد بضعة أيام تحت الشمس ، فاذا بي أسير في شوارع الحبشة أو أوغنده فلا يكاد يلحظ أحد أنني غريبة . وأعترف بأن ذلك لم

يكن يبهجني دائما . ففي أعماقي منذ الطفولة حنين لان أكون بيضاء مثل القشطة . مازلت أذكر رغم مـــرور السنين انني منذ ولدت أدركت حقيقتين اثنتين لا شك فيهما ، أولهما أنني بنت ولست ولدا مثل أخي ، وثانيهما ان بشرتي سمراء وليست بيضاء مثل أمي . ومع هاتين الحقيقتين أدركت شيئا آخر أكثر أهمية . ذلك أن هاتين الصفتين وحدهما وبدون أي عيوب أخرى كافيتا للحكم على مستقبلي بالفشل . كان المؤهل الوحيد الذي يرشح البنت « في ذلك الوقت » لمستقبل مضمون هو أن تكون جميلة ، أو على الاقل بيضاء البشرة مثل الاتراك . جدتي لامي ذات الاصل التركي كانت حين تدللني تنـاديني « جارية ورور ... ومنذ تلك اللحظة رسخ في ذهني ان الجواري والعبيد لهم بشرة من لون بشرتي ، واصبحت اخفيها بمسحوق أبيض ، واتصور أن حركة اخفاء بشرتي انما هي حركة نحو شيء أفضل . لكنني ومع كل ذلك كنت أدرك بجزء آخر عميق من عقلي أن لون بشرتي هو حقيقتي مثل كوني بنتا ، وانني أحب حقيقتي ، بل ان الحب الحقيقي الوحيد في حياتي هـــو حبي لنفسي الحقيقية . ورغم ذلك لم أتخلص من مسـاحيق وجهي تخلصا كاملا الا بعد أن أدركت قيمة عقلي ، فاذا بي أملك الشجاعة لمواجهة العالم بوجه مغسول نظيف .

كنت اجلس وسط النساء والرجال الافريقيين في « دار السلام » ، بشرتهم سوداء كالبن المحـروق أو الكاكاو ، قامتهم طويلة ممشوقة ، حركتهم في السير الطبيعي تشبه الرقص . عيونهم وهم يتحدثون تشـبه الغناء ، وغناؤهم للحب كغناؤهم للثورة وكلمة الحرية بلغة شرق افريقيا « السواهيلي » تشبه كلمتنا العربية

« الحرية » مع اختلاف بسيط في النطق « أهرية » .
اعجبني نطقهم وغنيت معهم « أهرية » وقالوا لي أنت افريقية مثلنا لكنهم مزقوا افريقيا ، وفصلوا بين الشمال والجنوب فهذه افريقيا السوداء وهذا حوض البحر الابيض ، او الشرق الاوسط ، كانما شمال افريقيا ليس من افريقيا ، وكأنما هناك افريقيا سوداء وأفريقيا بيضاء .

شعرت بالراحة معهم ، والتآلف مع نفسي ، ومع بشرتي السمراء . ان أجزاء نفسي الحقيقية تظهر وتملأني بالثقة والفخر ، فالرحلة الى افريقيا أشبه ما تكون برحلة الى النفس ، الى أعماق النفس بقدر ماهى رحلة الى جذورنا ومنابع النيل .

احساس لم أدركه في رحلاتي الى أوروبا وامريكا او آسيا . احساس بعد أن عرفته ندمت لان رحلتي الى افريقيا جاءت متأخرة ، لكنى كنت كالآخرين أحلم بالسفر الى اوربا او امريكا ولا اذكر انني حلمت مرة واحدة بالسفر الى افريقيا ، تماما مثل القناع الذي كنت أرتديه فوق وجهى على شكل مسحوق ابيض .

احساس مريح بالتآلف مع نفسى ولون بشرتى السمراء تآلف لم أعرفه من قبل بهذا الوضوح . لا انسى في أول رحلة لي لامريكا سنة ١٩٦٥ انني توقفت أمام المرآة « في مدينة « رالى » بنورث كارولينا » قبل أن ادخل دورة المياه ، فقد قرات على الباب لافتة كتب عليها : « خاص بذوى البشرة البيضاء » وعلى الباب الآخر كانت هناك لافتة اخرى كتب عليها : « خاص بذوى البشرة السوداء » . ذلك اليوم وقفت أمام المرآة متحيرة ، أى باب ادخل ، فلم يكن لون بشرتى ابيض او أسود وانما

هو لون متوسط بين البياض والسواد ، ولم أعرف الى أي عالم انا انتمي ، الى عالم البيض أو عالم السود .
وضحكت صديقتي التنزانية واسمها « باريز »وهي استاذة اقتصادية بجامعة « دار السلام » ، ولهاأربعة اطفال ، اثنان منهما حصلا على اسم الاب ، والاثنان الاخريان حصلا على اسم الام ، فالمراة تعمل مثل الرجل وتنسب اطفالها اليها . وقالت لي « باريز ». درست في انجلترا سنة ١٩٥٩ وكانوا يشعرونني بالنقص لانني سوداء ولانني امرأة الى حد انني اصبحت أخجل من نفسي ولكنني تغيرت كثيرا بعد ان درست الاقتصاد وعرفت كيف استعمرونا وخربوا اقتصادنا وخربوا نفوسنا . اني أعيش وأرى الاشتراكية تتحقق تدريجيا في بلدى تنزانيا وادرك بمرور السنين الارتباط الوثيق بين العدالة الاقتصادية وبين حرية الرجال والنساء ، في تراثنا الافريقي الاصيل نحن لا نفرق بين الرجل والمراة ، هل تعرفين أن وزيرة العدل عندنا امرأة اسمها « مانينج » ؟ هل هناك وزيرة للعدل في أي بلد من تلك البلاد التي تسمى نفسها بالبلادالمتقدمة؟
وأعطتني رقم تليفون وزيرة العدل في بيتها ومكتبها، وقلت الافضل أن أكلمها في المكتب لا البيت ، فقالت بدهشة وما الفرق ؟ وأدركت أن الناس في افريقيا يتعاملون مع الوزراء والحكام كما يتعاملون مع الناس العاديين ، فلا أبواب ولا حجب ولا تشنجات . وتحدثت مع وزيرة العدل في بيتها وسألتها « هل أنت وزيرة العدل حقا ؟ وضحكت مس « مانينج » وهي تقول عندنا النساء في كلّ مجال وعندنا وزيرات غيري . قلت لها نحن عندنا وزيرة واحدة للشئون الاجتماعية أما

العدل فهذا لازال في بلدنا حكرا على الرجل وحده .
تذكرت وانا أحادث وزيرة العدل الافريقية مقالا كنست قراته في احدى الصحف المصرية العام الماضى يقول فيه كاتبه أن هناك شروط يجب أن تتوافر في الشخص الذى يتولى منصب القاضي وأول هذه الشروط هو « الذكورة » .

***

كنت اتلفت حولى وانا أتجول على شواطىء المحيط الهندي على ساحل شرق افريقيا في كينيا وتنزانيا وزنزبار وجزر القمر الكبرى ومدغشقر وادهش لهذا السحر الذى لم اره من قبل . جبال كينيا وقمة كليمانجارو الشاهقة فى تنزانيا لا تقل روعة عن جبال الهيمالايا التى رايتها فى نيبال . وجبال الحبشة الكثيفة الخضراء ، واوغنده تشبه الجنة الخضراء حول بحيرة فيكتوريا . هذا الجمال الذى رأيته فى شرق افريقيا لم أره فى سويسرا ، كثيرا ما سمعتهم يشيدون بجمالها ، ويتفاخرون بالسفر للمصيف فى ربوع شطآن أوروبا ، مع أن شواطىء وجبال شرق أفريقيا اكثر جمالا وخضرة ، امتزاج الجبل بالماء بالخضرة الاستوائية الداكنة ، واشجار المانجو وجوز الهند ، ورائحة الزهور الاستوائية القوية ، وتلك البرودة المنعشة فى الجو ، أكثر انعاشا من برودة صيف اوربا .

كنت اظن انني ساصطلى نارا فى اغسطس وانا أتجول فى أفريقيا تحت خط الاستواء ، لكنى وجدت أن الارتفاع عن سطح البحر آلاف الاقدام يحمى معظم هذه البلاد من الحرارة ، ويصبح الجو معتدلا أشبه ما يكون بجو الربيع في بلادنا مع بعض البرودة الخفيفة احيانا

اذا اشتد الارتفاع كما هو الحال في أديس ابابا او نيروبي .

السخونة في شرق افريقيا في الجو السياسي ، وهي سخونة طبيعية ، فالاستعباد الطويل يؤدي في النهاية الى ثورة ساخنة لها ايجابياتها ولها أيضا مخاطرها . حين قلت في القاهرة أنني ذاهبة الى أوغنده والحبشة وشرق افريقيا اتسعت العيون دهشة وحذرني الجميع ، فالثورة كانت مندلعة في كل مكان . لكنني صممت على الذهاب ، فأنا أحب أن أكون حيث يكون الانسان ثائرا وغاضبا . ان الغضب في رأيي هو الحالة النفسية المتلائمة مع هذا العصر . لا شيء يؤلمني أكثر من ابتسامة انسان مستعبد أو استكانة شعب مستعمر أو محكوم بأقلية جشعة . كما أنني منذ المدرسة الابتدائية وأنا أسمع عن بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل ، وعندي رغبة ملحة في البحث عن منابعي وجذوري . كان جدي لابي اسمه « حبشي » وبعضهم قال لي انه كان أسمر وفيه دماء حبشية . وكانت أمي حين تغضب مني تقول انني ورثت بشرة أهل أبي . أليس من حقي بعد كل ذلك أن اعرف جذوري ومنابعي ، أما منابع النيل فقد وقفت في أوغندة مشدوهة أمام روعة الضفاف العالية الخضراء في « جنجا » بالقرب من « كمبالا » ، نقطة الالتحام بين النيل الابيض وبحيرة فيكتوريا ، وحيث أنشيء حديثا شلال « أول » الذي يعترض المياه المتدفقة بغزارة نحو النيل .

وقفت أتأمل عنق النهر الضيق عند نقطة الالتحام مع منبعه ، وارتفعت يدي دون وعي اتحسس عنقي ، واحساس له رهبة غريبة ورجفة ، ذلك أن هذا العنق الصغير الضيق هو شريان الدم في أرض جسدي . انه

عنقي ومع ذلك فهو ليس في جسدى ، وانما هو في جسد آخر ، أوغنده ، تموج بأعنف الهزات السياسية فى عهد عيدى امين .

وعلى هضبة الحبشة العالية وفى أديس أبابا التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى سبعة آلاف قدم كانت الامطار تهطل طول النهار والليل ، وأدرك بحكم معلومات الابتدائية أن هذه الامطار تحمل الرى والطمى الينا فاغتبط لصوت الرعد واقول لنفسي : هذه المياه الغزيرة ستتدفق على ارض أهلى الفلاحين . وسمرة أهل الحبشة كسمرة اقاربى فى قريتى « كفر طحلة » ، وفيهم أيضا تلك الوداعة والهدوء رغم التقاطيع الحادة التى تنقلب بسرعة عند الغضب كما ينقلب الجو فجأة من شمس ساطعة الى برق ورعد ومطر . وفى أوغندة أيضا ترى الملامح فيها رقة وهدوء لكنها سرعان ما تتغير عند الغضب وتصبح حادة كالسيف أو كطلقة الرصاص .

وفى مطار « عنتيبى » حين هبطنا من الطائرة ادركنا اننا الوحيدون زوار أوغندة . كنا اربعة فقط « زوجى وابنتى وابنى وأنا » ونظر الينا عمال المطار فى دهشة واستطلاع ، فمن هؤلاء المغامرين القادمين الى أوغندة فى مثل هذه الفترة المتوترة ؟! ونصحنا المشرفون على فندق بحيرة فيكتوريا فى « عنتيبى » الا نغادر الفندق بعد غروب الشمس .

وفى دار السلام أيضا ، وفى نيروبى وجهوا الينا النصيحة نفسها : لا تسيروا فى الشارع بعد غروب الشمس . احساس دائم بالخطر لم أشعر به من قبل الا فى مدينة نيويورك . وبقدر مايكون النهار صاخبا مليئا بالشمس والحركة والحيوية بقدر مايصبح الليل مظلما

موحشا صامتا يوحى بالخطر . وفى مدينة « نيروبى » فى كينيا التى بنيت على أحدث طراز تبدو المدينة نشطة سابحة فى جو من المدنية الحديثة ، ولكن ما أن يجيش الليل حتى تخلو الشوارع الا من قراصنة الليل ، وفى « دار السلام » وقبل أن تغرب الشمس ترى شبان تنزانيا وشاباتها يتنزهون على شاطىء المحيط الهندى ، والصبية بأقدامهم السوداء الحافية يبيعون البيض المسلوق أو المانجو الخضراء . يجلس الصبى أمام المشترى ويقشر له البيضة ثم يشقها بملعقة صغيرة ويحشوها بالشطة . وكذلك المانجو الخضراء تقطع بالسكين وترش بالشطة . وفى المقاهى ترى النساء كالرجال جالسات فرادى أو مجموعات يشربن البيرة ويدخن ويتحدثن فى السياسة . لكن ما أن تغرب الشمس حتى تخلو الشوارع من الناس ويخيم على « دار السلام » الظلام والصمت الا تلك الاضواء الصغيرة المنبعثة من السفن الراسية فى الميناء . وقد تصحو فى منتصف الليل على صوت استغاثة مكتوم فتدرك أن أحد قراصنة الليل قد انقض على فريسة . ان الخطر هنا كأى خطر فى اى عاصمة أخرى مبعثه اللصوص وقطاع الطرق .

ويقولون عن « نيروبى » عاصمة كينيا أنها عروس أفريقيا ، فهى مدينة بنيت على أحدث طراز ، الا انها بدت لى كالعروس التى ترتدى فستانا جميلا من الخارج ، وملابسها الداخلية قبيحة . هذه الازدواجية رأيتها فى عواصم البلاد غير المتحررة ، أو التى تحررت ظاهريا فقط . والعواصم التى تشبه « نيروبى » فى عالمنا الثالث كثيرة ، وتذكرت « بانكوك » عاصمة تايلاند : وانا اسير فى شوارع نيروبى « فالعمارات الحديثة هى العمارات ،

والسيارات الامريكية هى السيارات ، والشوارع الاسفلت العريضة هى الشوارع ، والنواصى التى تقف عليها المومسات هى النواصى ، وأفلام الجريمة والجنس الامريكية المعروضة فى دور السينما هى الافلام ، ومعظمها كتب عليها « ممنوع لاقل من ١٦ عاما » ، والاعلانات عن سجائر « كنت » وسيارات كاديلاك وسفن اب وكوكاكولا .

وتوقفت لحظة أمام احدى دور السينما أتأمل طوابير الشباب الافريقى . شباب أعزل تماما فى مواجهة هذا الخطر الزاحف ، هذا الطوفان من الفن الرخيص ، هذا الغسيل المخى الردىء ، يتكرر كل يوم وكل ليلة ، ليس فى بلاد أفريقيا وآسيا فحسب ولكن فى بلادهم أيضا فى أمريكا وأوربا . وقد رأيت طوابير الشباب أمام مثل هذه الافلام فى نيويورك ولندن وباريس . لكن الشباب الغربى اكتسب نوعا من المناعة ضد هذا الخطر . ربما هو الارتفاع النسبى فى مستوى الحياة الثقافية والاقتصادية . أما شبابنا الافريقى فهم عزل ، وما من سلاح يحميهم من هذا الوباء .

شاب أفريقى طويل يرتدى سلسلة حول عنقه ، وقميص ملون رسم عليه قلب وكلمة « أحب نيويورك » بالانجليزية ، يدخن سيجارة « كنت » ويمضغ لبانة ، واليتاه البارزتان تهتزان داخل بنطلون « جينز ضيق » .

رأيته قبيحا ، وأقبح منه مدينة « نيروبى » . وأدركت السبب الحقيقى وراء ماتسميه قبحا . انه التناقض بين التأنق الخارجى والفساد الداخلى ، سواء فى الانسان أو فى المدينة .

***

ولم تكن رحلتى لافريقيا سياحية ، فالسياحة

كالتكنولوجيا حكر على ذوي البشرة البيضاء من سكان « العالم الاول » الذين استطاعوا بثرواتنا ان يجدوا من المال والفراغ مايساعدهم على التريض والمتعة والسياحة. أما نحن الذين أطلقوا علينا اسم « البلاد المتخلفة » فلم يخلفوا لنا الا الفقر أو الارهاق الجسدي سعيا وراء سد الرمق ، ولم يعد لنا من السياحة نصيب الا أن نكون « المناطق السياحية » التى يأتى اليها هؤلاء البيض ذوى الوجوه المتوردة والعيون الزرقاء اللامعة ، يأتون فى أجازاتهم للفرجة علينا بمثل ما يتفرجون على المتاحف وحدائق الحيوانات ، ويندهشون الدهشة نفسها لمنظر فقرائنا وشحاذينا .

لمحتنى امرأة عجوز « من هؤلاء الامريكيات السائحات المنتشرات فى افريقيا » وأنا أتابع حركات وجهها وهى تحملق بدهشة فى وجه امرأة شحاذة يحوطها عدد من الاطفال كالهياكل . ويبدو أننى حملقت طويلا اليها لاننى سمعتها تقول لزميلتها أو زوجها « الناس هنا غير متمدينين فهم يحملقون فى الناس بطريقة غريبة » . وكانت تظن أننى لم أفهم ماقالت فرددت بلغتها قائلة : « السياح هنا غير متمدينين فهم يحملقون فى الناس بطريقة غريبة ، الا اذا كانت هذه المرأة الشحاذة ليست من الناس فى نظرك ! » .

هؤلاء السياح كنت أراهم بالطوابير ، وعلى الاخص فى كينيا حيث لا تزال المنطقة مفتوحة للمستعمرين والسياح معا ، وكلهم من ذوى البشرة البيضاء ، نادرا ما كنت ألمح بينهم رجلا أسمر أو أسود ، فاذا به يسير بينهم كالغريب ، يخجل من غربته مع انه فوق أرضه ، ويتحرج من لون بشرته ، ويتعثر فى مشيته وكأنه فى مكان لا يحق

له أن يوجد فيه ، كأنما المتعة أو السياحة محرمة عليه ، او كان مكانه الطبيعي ليس سائرا أو جالسا بين السياح ، وانما واقف بطرطوره الابيض وهم جالسون الى موائدهم ينتظر الاشارة منهم ليتقدم بانحناءة مؤدبة .

اكثر ما آلمنى فى رحلتى الى آسيا كانت انحناءة الرجل الهندى ، لكن انحناءة الرجل الافريقى آلمتنى اكثر . فأنا افريقية بحكم الجغرافيا والتاريخ ، ويحزننى ان أرىَ واحدا من أهلى منحنيا لاحد . كما أن الرجل الافريقى طويل القامة قوى الجسد يكاد يكون عملاقا فى احيان كثيرة ، وقد أغفر للقزم انحناءته لكن انحناءة العملاق تصيبنى فى الصميم .

لازلت اذكر التمثال الذى رأيته فى معرض نيويورك الدولى سنة ١٩٦٥ . وقد رأيت فى هذا المعرض الضخم مئات الاشياء العجيبة التى استوقفتنى ، لكن الشيء الذى بقى فى ذاكرتى من هذا المعرض حتى اليوم هو تمثال برونزى لرجل افريقى عريض الكتفين عملاق الجسد راسه منحنى . ووقفت أمام هذه الانحناءة طويلا كأنما أرى لاول مرة انحناءة رجل ، وبدت القوة والذل فى الجسد الواحد تناقض عميق مؤلم .

وعرفت وانا اتأمل هذا التمثال لماذا كنت أحزن حين ازور حديقة الحيوانات وعلى الاخص بيت الاسد . كنت كلما ارى الاسد داخل القفص وتلتقى عينيه بعينى أشعر برجفة . ليس انبهارا بقوته وجبروته وانما بسبب الحزن الذى كنت أراه فى عينيه . الحزن العميق ، الحزن الحقيقى الذى لا نراه فى عيون الضعفاء وانما نراه فى عيون الأقوياء حين يضعفون .

ولم اعرف حقيقة الحزن فى عيني الاسد المحبوس

حتى رأيت اسدا حرا طليقا لاول مرة . كان ذلك في غابة « ميكومي » في تنزانيا ، وقد خرجت مع المرشد الى الغابة لاشاهد الحيوانات المتوحشة على الطبيعة . ذلك اليوم رأيت جميع الحيوانات الا الاسد ، وبدأت الشمس تغرب وبدأنا نعود وقد خاب أملي في رؤية الاسد . وفجأة سمعت المرشد يهتف : انظرى ! وتجمد الدم في قلبي . كانت المرة الاولى في حياتي التي أرى فيها الاسد وجها لوجه دون قضبان حديدية . وهمس المرشد في أذني : لا تخافي ، فالاسد دائما هادئ لا يهاجم الا من يهاجمه . وهدأت بعد أن وجدت أن الاسد هادئ فعلا ، واستجمعت كل قوتي لانظر في عينيه . وشملني فرح غريب وانبهار يشبه فرح الاطفال حين يرون شيئا جديدا لاول مرة . والجديد الذي اكتشفته في لقائي مع الاسد الحر هو عيناه المليئتان بالقوة والثقة بالنفس الى حد الهدوء ، هدوء يشبه الرقة . هدوء القوى الذي يعرف أنه يستطيع أن يضرب من يضربه .

والانسان الحر كالاسد الحر ، شديد الهدوء الى حد الرقة ، لانه يعلم أنه يستطيع أن يضرب من يضربه .

***

ركبت الطائرة الصغيرة « فوكر فرنشيب » الالمانية . تشبه الاتوبيس القديم . مقاعد ممزقة ، وصوت محركاتها كموتور عربة عتيقة . خيل الى انها ستسقط من الجو . انوار دار السلام تحت عيني ، والسفن في الميناء تتألق كالعرائس . هبطت الطائرة في جزيرة زنزبار بعد ٢٥ دقيقة فقط . الجزيرة مظلمة راقدة فيما يشبه السر المغلق المجهول . في المطار اعطوني ٤ أقراص كينين وقاية من الملاريا . قالوا أن الجزيرة موبوءة بالملاريا والفيلاريا

والدرن . أما مرضي الجزام فهم يعزلون في جزيرة اخرى قريبة اسمها جزيرة الموت .

حملقت في الظلمة وانا جالسة في التاكسي من المطار الى فندق « بوانا » . رائحة الهواء ثقيلة كالموت . فكرت في العودة الي المطار لكن الرغبة في المعرفة كانت أقوي . زنزبار جزيرة العبيد أدوس على ارضها ، وأشم رائحة الاستعباد كالموت ، لكنى اسير . في الفندق الضخم على الشاطيء انحنى الجرسون وحمل عنى حقيبتي . انحناءته تشبه انحناءة الجرسون في فندق أوبروى . وعرفت أن هذا الفندق هو أحد فروع فنادق أوبروى في افريقيا . في الصباح تمددت بجوار حمام السباحة . لم أجرؤ على النزول الى الماء . رائحة كالموت تفوح من قاع الحمام ومن كل أنحاء الحديقة . وهمس الجرسون في أذنى : حين حفرنا الارض لنقيم حمام السباحة عثرنا على آلاف الجماجم والهياكل البشرية . كانوا يقتلون الثوار ويدفنون جثثهم في هذا المكان قبل بناء الفندق .

نهضت فورا وحزمت حقيبتي . قررت الانتقال الى فندق آخر .

قال الجرسون : لا يوجد بالجزيرة الا هذا الفندق ، بقية الفنادق قديمة ومن الدرجة الثالثة ، ولا احد يذهب اليها خشية ناموس الملاريا والفيلاريا .

وقلت : الملاريا والفيلاريا افضل من البقـــاء في هذا الفندق .

انتقلت الى فندق صغير في زقاق ضيق ، اسـمه فندق « افريقيا هاوس » يطل على المحيط . البيت من الطراز الافريقي الاسلامي ، أعمدة ضخمة قوية كسواعد الافارقة . الغرفة نظيفة والسرير تغطيه ملاءة بيضاء .

رائحة القرنفل تنبعث من كل مكان وتملأني بالانتعاش ، وأصوات الغناء والطبول تملأ الجو بما يشبه الفرح . أطفال يحملون الفوانيس الصغيرة ويسيرون في الشوارع يغنون لشهر رمضان . تذكرت أطفال قريتي على ضفاف النيل . المحلات الصغيرة على جانبي الشارع كمحلات الموسكي في القاهرة . ناولني طفل فرعا من شجرة القرنفل وصافحني وهو يقول : قريبو واجيني يانجو . ولم افهم ماذا يقول . فتاة صغيرة تعرف العربية قالت لي : يقول لك مرحبا . الفتاة اسمها « هدى » ، وهي ابنة أحد المصريين الذين يعملون مع القنصل المصري . خرجت امها من محل القرنفل وصافحتني . اسمها « أم علاء » . ليس لها ابن اسمه علاء ، لكن الجزيرة كلها من المسلمين : ولهم عادات قديمة ، لا ينادون الام باسمها ، وانما باسم ابنها ، واذا لم يكن لها ابن خلقوا لها ابنا وهميا ، لمجرد أن تحمل اسمه .

اخذتني في سيارتها الصغيرة الصفراء الى بيتها . على الجدار صوره اهرامات الجيزه وأبو الهول ، وسجاده صلاة عليها صورة الكعبة . ملامحها مصرية صميمة وراسها يشبه كليوباترا . عينان سوداوان تمتزج فيهما القوة بالحزن . قدمت لي صينية الشاي وكعك العيد الصغير وقالت : قرات كتبك وكنت أنوي الحضور الى عيادتك بالقاهرة .

وقلت : اغلقت عيادتي منذ سنتين .

وهتفت : لماذا ؟

وقلت : لم أسترح لفكرة أن أبيع الصحة للناس مقابل ثمن محدد .

وتنهدت : انفقت كل ما معي على اطباء النفس في

القاهرة . أعاني يا دكتورة من حالة « اكتئاب » وامتلات ادراجي بالاقراص والحبوب المهدئة والمنومة . تركت عملي في القاهرة لاصحب زوجي فى حياته الدبلوماسية . عشرون عاما ونحن نسافر فى جميع أنحاء العالم من نيويورك الى زنزبار . « هدى » ابنتي تعيش وحدها فى القاهرة طوال السنة ، ولا نراها الا فى الاجازة الصيفية . أبى مات وانا فى نيويورك ولم أره . وأمي ماتت العام الماضي وأنا هنا فى زنزبار . زوجى يعانى من الاكتئاب أيضا ، فهو يكره السادات ، ويعرف أنه لايعمل لصالح مصر ، لكنه يقول العكس كل يوم حسب وظيفته الدبلوماسية .

دخلت ابنتها« هدى » فى هذه اللحظة فسكتت«أم علاء» ثم غيرت الحديث وقالت : ماذا رأيت فى زنزبار ؟

وقلت : لا شيء حتى الان الا فندق « بوانا » ومن تحته الجماجم البشرية .

وضحكت أم علاء : سآخذك بسيارتى لترين متحف زنزبار وكان بيت العبيد .

ركبت الى جوارها فى السيارة الصغيرة . أصابعها الرفيعة حول عجلة القيادةهادئة مملوءة بالثقة ،وسمعتها تقول : قيادة السيارة تعيد الى الثقة بنفسى واشعر انني انسانة مستقلة . عشت حياتى ظلا لرجل هو زوجى ، وأما لابن وهمى يعيش فى الظل ، وخلقت لنفسى عالما اخر أحلم فيه بالحرية كالعبيد .

تجمع بعض الاطفال حول السيارة وجروا خلفنا كما يفعل أطفال القرى فى مصر . وجوه الاطفال نحيلة شاحبة كاطفال قريتى ، يغطيها الذباب . وقالت « أم علاء » : جزيرة زنزبار فيها ثراء كثير لانتاجها الوفير من القرنفل ،

لكن الناس هنا لا يجدون اللحم ولا الخضروات ولا حتى الماء . كل شيء يستورد من دار السلام . ضرورات الحياة غير موجودة فوق الجزيرة ، لكن التليفزيون الملون موجود، وكماليات اخرى مستوردة من اوربا وأمريكا . الاطفال البنات يرتدين جلاليب طويلة ويغطين رءوسهن . البنت التي تسير في الشارع بجلباب قصير وان كان عمرها عشر سنين فهي تعرض نفسها للحبس من ثلاثة أيام الى ستة شهور . صوت المؤذنين يرتفع من فوق المآذن وميكروفونات الاذاعة والتليفزيون الملون .

وصلنا الى ميدان صغير مربع اسمه ميدان العبيد ، تتوسطه كنيسة ضخمة تشبه كنائس العصور الوسطى ، ونوافذها ذات القضبان تذكرني بمحاكم التفتيش . من خلف الكنيسة مبنى آخر ضخم كالقصر بني على أعمدة تحوطه الاشجار . جدران القصر مسودة كآثار حريق قديم . كان السلطان يعيش في هذا القصر عام ١٨٩٩ وسط مائة من نسائه « حريم السلطان » . وتآمرت النساء المائة ضد السلطان وحرقن القصر ثم هربن في الزوارق الى المحيط . الى جوار القصر البرج المسمى بيت العجائب . رائحة القرنفل تعبيء الجو ، والساحل يمتد حتى الافق ، أشجار جوز الهند طويلة رفيعة ممتدة في السماء ، وشجر المانجو أوراقه كثيفة خضراء ، يهزها الهواء القادم من المحيط . الصخور ترتفع في المياه سوداء كرءوس العبيد تنكسر عليها الامواج . بيت العبيد كالصخرة المطلة على الزمن البعيد . والكهف الصخري في قاع البيت كان مخزنا للعبيد ، يخزنون فيه كما تخزن البضاعة ويعيشون شهورا داخل الكهف مع الثعابين . في الميدان كانوا يسوقون الرجال والنساء بالسلاسل .

وفى المتحف الصغير رأينا السلاسل الحديدية من وراء الزجاج . فوق الحديد بقع سوداء كالدم القديم .

عدنا الى السيارة بقلب ثقيل . وفى بيتها على مائدة الغداء التقيت بزوجها المصرى ، ورجلين آخرين أحدهما موظف اسمه « محمود » يعمل فى السفارة المصرية في دار السلام . والثاني أحد الزعماء الوطنيين في زنزبار اسمه الشيخ على محسن . وجه قوى وحزين كالاسد الحبيس ، تمتزج فيه الملامح العربية والافريقية كما امتزج العرب والافارقة فى زنزبار منذ مئات السنين ، فلا تكاد تعرف الدم العربى من الدم الافريقى .

حارب الشيخ « على محسن » مع زملائه ضد الاستعمار الانجليزى ثم نالت زنزبار استقلالها السياسى وبدأت تسعى نحو الاستقلال الاقتصادي . وهنا ضرب الاستعمار ضربته متعاونا مع السلطة فى دار السلام . فالاستعمار لا يرى ضررا كبيرا فى ان تستقل البلاد الافريقية سياسيا مادام اقتصادها لازال يرتبط بالسوق الراسمالية ولايطيق أن تخرج بلد من قبضته الاقتصادية .

وكان فى استطاعة الشيخ « على محسن » والوطنيين فى زنزبار أن يواجهوا الضربة لو أنها حدثت فى النور . لكن مذبحة زنزبار حدثت فى الظلام ، قتل فيها الآلاف الرجال والنساء ودفنوا تحت الارض . وحبس علي محسن وغيره من زملائه فى سجون دار السلام ، ومات منهم فى السجن من مات واستطاع « على محسن » أن يهرب وينجو بحياته .

أما دماء القتلى المدفونين تحت الارض فلا تزال تفوح وتملأ الجزيرة الحزينة برائحة خانقة غريبة تشبه رائحة جريمة لم يكشف النقاب عنها بعد .

وقال الشيخ على محسن : الانجليز يخشون زنزبار ، لان الثورة كامنة ، وقد تنتقل الى تنزانيا وبلاد افريقية اخرى . الاستعمار الانجليزى لازال يعمل في الخفاء فى افريقيا ومعه أمريكا .

كانت « هدى » تحرك مفتاح « الراديو » الصغير باصابعها الرفيعة حين رن فى الجو فجأة صوت مذيع يتحدث اللغة العربية ويقول : صرح الرئيس المصرى أنور السادات فى واشنطن بأنه سيرسل جنوده لتحارب فى الصومال ضد الحبشة ، من أجل الدفاع عن منابع النيل . وضحك « محمود » المصرى وقال : وحين أرسل جنوده الى زائير كان يدافع عن ماذا ؟ ورد « أبو علاء » المصرى : يقول أنه رجل سلام ويرسل جنوده لتحارب فى أرض الغير ، وأرضه لا تزال محتلة باسرائيل . اصبح مندوبا لامريكا للدفاع عن مصالحها فى افريقيا ، ويعارض قرار ٤٩ دولة افريقية فى منظمة الوحدة الافريقية ويقف مع الحكومات المعادية لحركات التحرير . بعد أن كانت حجته الدفاع عن البحر الاحمر أصبح الآن يدافع عن منابع النيل .

وخيم على الجميع الصمت والوجوم . وانقطع صوت المذيع فى الراديو ، وبدأت موسيقى أمريكية وأغنية باللغة الإنجليزية تقول : دعنى يا حبيبى أقرر مصيرى .

وضحك الشيخ على محسن : دعونا يا انجليز نقرر مصيرنا .

وقال محمود : لم أكره فى حياتى مثل الانجليز . بريطانيا هى التى أنشأت اسرائيل بوعد بلفور ، لان فلسطين هى خط الدفاع الاستراتيجى لمصر ، ولكى تؤمن مصالحها فى قناة السويس . وأعلنت بريطانيا حمايتها لاوغنده عام

١٩٠٣ وعرضت على الحركة الصهيونية انشاء دولتهـم هناك . أوغنده تسيطر على منطقة البحيرات في أعـالي النيل ، وبها مصب بحيرة فيكتوريا . تمد البحـيرات مصر بجزء من المياه « حوالي ٧/١ الميــــــاه الواردة اليها » لكن هذه المياه ترد الى مصر في فترة التحاريق او فترة الجفاف التي كانت تسبق الفيضان السـنوي حيث لا يكون مورد آخر للمياه . وفي عام ١٩٨٣ ذكـر المهندس الفرنسي مسيو برنت أن اقامة خزان للمياه على مجرى النيل في اوغندة يعرض مصر لاشد الاخطار ، ويكفي للقضاء على مصر ان ينشأ سد على فوهة بحـيرة نيانزا . اما اذا انشيء خزان على بحيرة فيكتوريا فيمكن اغراق مصر او منع المياه عنها تماما . وفي عام ١٩٠٢ جاءت الى مصر بعثة انجليزية صهيونية لتدرس مشروعا آخر هو اقامة الوطن الصهيوني في سيناء . وبحثت البعثة امكانية توصيل مياه النيل الى سيناء عبر مواسير تمر تحت قناة السويس . كان يراس حكومة مصـر مصطفي فهمي باشا وكان متعاونا مع الانجليز ، وبطرس غالي وزير خارجيته الذي رأس المحكمة التي أعـدمت فلاحي دنشواي عام ١٩٠٦ ، وقد دافع عـن الانجليز والصهيونيين رغم معارضة الشعب المصري ، واغتـاله أحد المصريين الوطنيين لهذا السبب عام ١٩١٠ . وفشل الانجليز في اقامة الوطن الصهيوني في سيناء .

وقال ابو علاء : وهاهو السادات يحاول توصيل مياه نهر النيل الى أسرائيــل عبر مواسير تحت قنـاة السويس .

ورد محمود : ولن تختلف نهايته عن بطرس غالي عام ١٩١٠ .

وخيم الوجوم والصمت الثقيل ، والهواء ايضا أصبح راكدا . سرت نحو النافذة المطلة على المحيط . جزيرة الموت تلوح من بعيد ، حيث يلقون عليها بمرضى الجزام لتأكلهم الضباع والثعابين . ومن بين الاشجار الكثيفة تلوح أعمدة القصر المحروق ، وفندق « بوانا » حيث دفن آلاف الثوار تحت حمام السباحة ، ثم ميدان العبيد حيث السلاسل والكهف داخل الصخور .

وفى الصباح الباكر حملت حقيبتى واتجهت الى المطار ركبت الطائرة الصغيرة العتيقة تشبه عربة نقل الموتى السوداء . صوت محركاتها يتحشرج وتنتفض فى الجو كالدجاجة المذبوحة ، وفى الجو يرن صوت المذيع فى الراديو مرة أخرى ويقول ان السادات سيوصل مياه نهر النيل الى اسرائيل ، ثم يرسل جنوده الى آفريقيا لتقاتل من أجل حصول مصر على مياه النيل .

***

من جزيرة الحزن والعبيد ركبت الطائرة الى دار السلام ، ومن دار السلام طرت الى جزيرة مدغشقر ؛ يسمونها جزيرة الابتسام . هبطت الطائرة فى منتصف الطريق فى جزيرة فى عرض المحيط اسمها جزيرة القمر الكبرى . قطعة من الارض الخضراء وسط المياه والامواج والصخور . الملامح مزيج من الدم العربى والافريقى . اللهجة غير مفهومة . مزيج من السواهيلى بالعربية ، ضوء القمر الابيض ينعكس على الجلاليب البيض . شيء من السحر يلف الجزيرة ، ومن وراء هذا الجمال غموض له رائحة مريبة كالتهريب .

ومن جزيرة القمر حملتنى الطائرة الى تناناريف عاصمة مدغشقر . يسمونها مدينة الألف محارب والالف بيت .

بيوتها صغيرة بيضاء ذات أسقف حمراء مقوسة ، بنيت على التلال وبدت متدرجة تغطي السفوح المنخفضة والتلال العالية . ملامح الناس اسيوية تشبه الاندونيسيين القامة القصيرة والانف المنخفض . حاربوا البرتغال والعرب والانجليز والفرنسيين ثم نالوا الاستقلال في يونيو ١٩٦٠ والمرأة حاربت الى جوار الرجل ، وتعمل النساء في كل مكان ، ولهن ما للرجال من حقوق .

النصب التذكاري ينتصب في وسط البحيرة الكبيرة « أنوسي » . تحوط البحيرة الاشجار والبيوت الصغيرة البيضاء . شاب وشابة يسيران متعانقين على شاطيء البحيرة . يقود الشاطيء الى شارع كبير وسط المدينة اسمه شارع الاستقلال . في نهاية الشارع سوق « الزوما » وكلمة « الزوما » ماخوذة من الكلمة العربية « الجمعة » دكاكين صغيرة ، وشماسي بيضاء من الزهور ، والفواكه . الاناناس . جوز الهند . الموز . البرتقال . مهرجان من الالوان ، والناس يرتدون قبعات كبيرة من الخوص والقش الملون ، يبتسمون ويتبادلون التحيات . منتجات من الفن المتقن الجميل . مزيج من الثقافات الاوربية والاسيوية والعربية .

فوق قمة الجبل العالي القلعة ، والنصب التذكاري « الروفا » ، والقصر الفضي ، وقصر الملكة « رانزوهيرنيا » وشجرة ضخمة اسمها « بيوباب » تأكل الاشجار من حولها ، ولها جذع ضخم سميك ، وليس لها اوراق . كانوا يعبدون هذه الشجرة ، لانها تأكل غيرها ، ويقولون ان الاله هو من ياكل الآخرين ، اى يسبب الموت للاخرين . وعبدوا حيوان اسمه « ليمور » على شكل سلحفاه تزحف وتاكل غيرها . والبقرة ايضا عبدوها

مثل الهنود ، وحين ادركوا انها ليست اله ذبحوها فى العيد ، واصبحت هى الضحية « زيبو » كخروف العيد عندنا . والبقره هنا لها صنم كالجمل . وفى زنزبار ايضا رايت هذا النوع من البقر . لكن الناس فى جزيره زنزبار يعيشون الفقر والحزن . وهنا يبدو الناس أكثر مرحا ، والطبيعة اكثر جمالا ، والمرأة كالرجل ، والفتيات يرقصن حول البحيرة رقصة الزهور ، يبتسمن واثوابهن ملونه بالوان الطيف . اذا كانت مدغشقر هى جزيرة الابتسام والمرح فان زنزبار جزيرة الحزن والعبيد .

***

فى متحف دار السلام رأيت أقدم جمجمة انسان فى التاريخ . اكتشفت الجمجمة فى منطقة « أولدوبى جورج » فى شمال تنزانيا . اكتشفها الدكتور « ليكى »، وقدر عمر الجمجمة بحوالى مليون سنة وسبعمائه وخمسين الف عام ، منذ عاش الانسان « زنجا تروبوس بواسى » .

فى الصباح زارتنى بالفندق صديقتى التانزانية « زين كامل » . أمها افريقية وابوها من الهند . يعيشان فى نيروبى حيث يملك أبوها ثلاث شركات تجارية كبيرة . هى تعيش فى دار السلام وتعمل فى وزارة الخارجية . ورثت عن أبيها الشعر الاسود الناعم ، وأخذت من أمها القوام الفارع المشوق .

ذهبنا الى شاطىء « باهورى » على المحيط الهندى . يشبه شواطىء أوربا . سبحنا فى المحيط وأكلنا السمك المشوى . قالت لى وهى راقدة فوق الرمل أنها لا تحب الحياة مع أبيها لانه راسمالى يتعاون مع الامريكيين وهى تؤمن بالاشتراكية ونيريرى .

وجلست فجاة وهي تقول بحماس : نيريري يسعى لاستقلال تنزانيا الاقتصادي ويعارض سياسة أمريكا واسرائيل وتعاونهما مع حكومة جنوب افريقيا العنصرية

واشترت الجريدة من صبى يبيع الصحف على الشاطىء . مشكلة اللحم فى الصفحة الاولى . رأى يؤيد عودة اللحم الى تجار القطاع الخاص ، والرأى الآخر يعتبر ذلك عودة الى الرأسمالية ينادى بأن يظل بيع اللحوم فى نطاق القطاع العام ، منعا لزيادة أسعارها أو اختفائها من السوق .

وتناقش الصحف أيضا مشكلة المعاش ، فالموظف يحال الى المعاش فى سن ٤٥ سنة كحد ادنى . لكن متوسط العمر اقل من ٤٥ عاما ، أى أن معظم الناس يموتون قبل أن يستمتعوا بالمعاش . ويسقط حق الموظف فى المعاش اذا حكم عليه فى قضية أو دخل السجن .

نيريرى يصرح فى الصحف ان صورة أمريكا أصبحت قبيحة فى افريقيا ، لأنها تساند الحكومات العنصرية ، وتمدهم بالسلاح والاموال ، وتشجع الحركات الدينية المتعصبة لاحداث فتن طائفية .

من غرفتى بالفندق كنت أسمع صوت المؤذن ، ومن المآذن ينطلق صوت الاذان فى شوارع دار السلام . وقالت لى زين : عندنا هنا حرية دينية ، مثل معظم البلاد فى افريقيا ، وبالامس اعتنق شاب تانزانى المسيحية وحضر تعميده أبوه وأمه وهما مسلمان . لكن الرجال المسلمون هنا أكثر تخلفا من الرجال الآخرين ، والرجل منهم يطلق زوجته بلا سبب ويتزوج أربع نساء . والمرأة المسلمة يفرضون عليها الحجاب وعدم الخروج من البيت ، مع أن النساء هنا يعملن أكثر من

الرجال ، والمراة في كثير من الاسر تنفق على أطفالهـا وتنسبهم اليها . وعندنا ١٩ امراة فى البرلمان ووزيرتان، وزيرة للعدل ووزيرة للاسكان . عندنا يوم الفلاحين اسمه « نين نين » ، ومشاريع للتنمية الزراعية . خلال عامين من ١٩٧٤ الى ١٩٧٦ تم نقل ١٣ مليون فلاح وفـلاحة الى قرى جديدة . تنزانيا هى احدى دول المواجهـة ضد الاستعمار الجديد ، وكانت موطن العبيد . هـل رايت ميناء « باجامويو » ؟

واخذتنى الى هذا الميناء . يبعد عن دار السلام ٤٥ ميلا ناحية الشمال . ميناء « باجامويو » كان هو المحط الاخير على الساحل الشرقى لافريقيا ، تقف عنده العربات التي تنقل العبيد من داخل افريقيا الى المركـب الذى ينقلهم الى جزيرة زنزبار ومنها الى بلاد بعيـدة مجهولة لا يعرفوها .

على الجدار حفرت كلمات تقول : « هنا اترك قلبى »

وقالت زين : كانت هذه هى الصرخة الاخـيرة التى يطلقها العبد قبل أن ينتزع من وطنه الى بلاد غريبة .

أقبل علينا بعض الصيادين . يتكلمون لغة السواهيلى التقط بعض كلمات تشبه العربية . أحسنت .. تفضلى ... أما كلمة « سوا سوا » فمناها « بخير » .

بعض المحلات بجوار المحيط ، وشباب يعملون بأيديهم تماثيل بديعة من الخشب والعاج . عيونهم تلمـع وأسنانهم تلمع وأمواج المحيط تضرب الشاطىء بهدوء . وعلى الجدار لا تزال الحروف محفورة : « هنـا اترك قلبى » ، يرمقونها فتكسو عيونهم سحابة الذكرى لماضى اليم .

فى الطريق الى غابة « ميكومى » رايت جبـل

كليمانجارو . قمته عالية ترتبط فى ذهنى بارنست هيمنجواى . كان صياداً يسير تحت الشمس ، ويكتب القصص .

أحلم ببيت صغير فوق الجبل اعيش فيه وحدى واكتب الرواية . منذ اعوام تؤرقنى الفكرة ، لكن الايام تمر ، والسفر يأكل العمر . لكنى منذ رأيت الاسد الحر فى الغابة وأنا مشدودة الى الغابة . وفى السيارة الجيب ركبت الى جوار المرشد ابحث عن الاسد . غربت الشمس ولم نعثر على الاسد . ورأينا اللبؤة فقط .

وقلت للمرشد : يبدو أن عدد الاناث أكثر من عدد الذكور فى الاسود »

وضحك قائلا : لا ، ولكن اللبؤة هى التى تخرج للاصطياد لاطعام أطفالها ، اما الاسد فهو لا يطعم الا نفسه ، الانانية صفة الذكور دائما ، والانثى أقوى من الذكر فى الحيوان . لا يستطيع الذكر أن يقترب من الانثى الا اذا أعطته الاشارة ، وهى لا تعطيه الاشارة الا فى أيام معينة فى فترة الحرارة . بقية الشهر أو العام تنشغل باطعام أطفالها ، وتضرب الذكور حتى لا يأكلوا صغارها . لم يحدث فى تاريخ الغابة كلها ان اغتصب ذكر الانثى من أى فصيلة . وهذا يعنى أن الاغتصاب ليس الا عملا من صنع الانسان .

وضحك المرشد مرة أخرى . بشرته سوداء بلون الفحم ، وأسنانه بيضاء . يتكلم بلغة انجليزية ، ويبدو انه ملم بطبائع الحيوانات والبشر . ثم حكى لى قصة الصياد ، قال : كان الصياد يسير تحت الشمس ، يرى ظله من وراءه طويلا أسود يتحرك معه ، واحيانا يتحرك وحده . وقال لنفسه : سبحان الله . وبدأ يخاف من

مثاله حين يتبعه . يتصوره رجلا آخر يقتفى اثره ، وينتهز اى فرصة لاغتياله . واخيرا توقف حين رآه واستدار بسرعة وضربه على راسه بالبندقية . ثم حملق في الجسد الميت تتدرج منه الدماء . لم يكن يشبه بنى آدم . صرخ: شيطان ! جره من قوائمه الاربعة الى بيته . شواه على النار واكل لحمه بشهية ، ثم شعر بقوة سحرية في بدنه. قال لنفسه : سبحان الله ، لابد انها القوة الالهية . اطفا النار ، وحوط الجسد بعيدان الذرة الجافة ، ودار حوله يرقص طربا محتفلا بالعيد الكبير ، وحوطه اخوته الذكور واكلوا جميعا حتى شبعوا ثم رقصوا على شكل حلقة ينشدون اغنيتهم المقدسة :

قتلنا الشيطان وأكلنا لحمه قبل أن ياكلنا .
لحمه مقدس نحبه ونخشاه
ونغني له في العيد لننسى اننا ذبحناه
لحمه للذكر شهي نخفيه عن النساء
والا اكلوا منه وعشقوه مثلنا .

الامبراطور هيلاسلاسى والثـــــــــورة ..

منذ حكم السادات وأنا اشعر بالغربة فى وطنى . احد عشر عاما كالسحابة السوداء ، من ١٩٧٠ حتى ١٩١٨ ، حجبت الشمس والضوء ونسمة الهواء . ولم يبق أمامنا الا وجهه ، وهو علينا كل يوم فوق الشاشات ، وعلى صفحات الصحف تدفعها اليد الخفية من تحت عصب الناب . وصوته كالرعد فى مكبرات الصـوت يدوى فى الشوارع وكل الاذاعات .

احملق فى الصورة المعلقة فى الجو وفوق الجدران . ملامح الوجه فيها حركة غير مباشرة . لا تسير فى خط مستقيم . وفى الصوت المطوط مايشبه الفهم المطىء أو الشرود والسرحان . والصق باسمه كلمة المؤمن ليستمد من الله السلطان كما فعل الامبراطور هيلاسلاسى . وكل اسبوع يصلى فى جامع مثلما فعل شاه ايران . وسموه أيضا أبو العائلة المصرية . على غـــرار أبو العـــائلة الايرانية .

وكلما اراه أو أسمعه اشعر بالغربة ، والاغتراب يصاحبه احساس آخر يشبه الانحدار أو السقوط فى بئر مظلم تضيع فيه حقوق الانسان .

وانقلبت الاشياء فى حياتنا ، فاصبح الخطر هـو الامن ، والحرية هى الدكتاتورية ، وتحولت الاحـكام العرفية الى الديموقراطية بفضل العلم والايمان . امـا

الغلاء الفاحش والديون والتضخم فقد أصبح لها اسم جديد هو الرخاء . والقواعد العسكرية وقوات الانتشار السريع أصبحت حمائم السلام . والغيرة على الاسلام فى افغانستان لايوازيها الا الغيرة على مصالح فرنسا فى تشاد ، والنضال الطويل ضد الاستعمار والصهيونية انقلب الى صداقة ومحبة وتعاون .

وبدأنا نرى البيرة والبيض الاسرائيلى فى الدكاكين المصرية ، وانهمر سيل من الاعلانات الامريكية عن سجائر « كنت » وسفن آب وشويبس ورموش صناعية للنساء .

واختفت من الاسواق البضائع الوطنية حتى المكرونة المصرية والارز والخبز أصابها الاختفاء . وارتفعت نسبة البطالة بين الشباب ، والاصوات ارتفعت تنادي بعودة المرأة الى البيت وارتداء الحجاب .

واصبح كل شيء أجنبى أعلى قيمة من اى شيء مصرى حتى الانسان . أصبح الاجانب يحظون أكثر من المصريين بالاحترام والاهتمام من جانب جميع المسئولين فى الحكومة ابتداء من حراس الابواب حتى أكبر المديرين والوزراء ورئيس الدولة .. ويحصل الاجانب وخاصة الامريكيون منهم على امتيازات وتسهيلات لانشاء شركات الاستثمار ، أو لاجراء بحوث والحصول على بيانات ومعلومات لا يحصل عليها المصريون .

وكم هو احساس مرير أن يشعر الانسان بأنه غريب فى وطنه ، وأن كل من ارتدى زيا أجنبيا أو رطن بلغة غير عربية نال الاحترام .

ولم يكن غريبا فى ظل هذا الحكم أن أطرد من عملى ، وأن تصادر جميع كتاباتى ، وأن أعيش تجربة تشبه

المنفى ، ثم ينتهي الامر بى فى السجن .

وكلها تجارب مفيدة رغم كل شيء . اتاحت لى السفر والترحال ، ورؤية العوالم الاخرى . والعمل فى جهاز آخر عجيب يشبه الجهاز الحكومي في بلادنا واسمه هيئة الامم المتحدة .

واصبح لى لقب جديد هو « الخبيرة » ، وفي جيبى جواز سفر أزرق ، رسمت عليه الكرة الارضية ، ومن فوقها « الامم المتحدة » ، ومن تحتها : « دعه يمر » .

ومن جميع مطارات العالم أمر دون أن يستوقفني أحد . وفي نهاية كل شهر احصل على ثلاثة آلاف دولار غير نفقات السفر والاقامة اي مايوازى ثلاثين ضعفا لراتبى من الحكومة المصرية .

وكان مقري الاول هو اديس ابابا ، عاصمة اثيوبيا او الحبشة . بيني وبين كلمة الحبشة قرابة دم . واسم جدى لابى كان « حبشي » ، وعلى الجدار العالى فى بيت جدى لامي كانت تتدلى صورة الامبراطور هيلاسلاسي وخالتي بأنفها العالى تحكي أن جدها كان صديقا للامبراطور ، وبأصابعها المدببة ذات الاظافر المطلية تشد ورقة من قاع المكتب . ورقة بليتها السنون وظلت عليها كلمات مطبوعة تثبت أن الخديوى اسماعيل كان يستدين من جدها واستولى منه على قطعة أرض .

كنت لا ازال طفلة ولا اعرف الفرق بين الامبراطور والخديوي ، وحروف اسم هيلاسلاسي تحت صورته تبدو لعيني كالهيروغليفية . عيناه واسعتان فى وجه طويل نحيل . وأنف مدبب حاد . ومن فوق صدره أشياء كثيرة مزركشة تقول عنها خالتي أنها نياشين واوسمة مثل نياشين واوسمة الملك فاروق . وحين سقط الملك فاروق

في يوليو ١٩٥٢ تصورت ان هيلاسلاسي ايضا سيسقط .
ولم أكن اعرف عن الحبشة شيئا الا أنها الهضبة العالية حيث تسقط الامطار وفيها منابع النيل . وفي عام ١٩٧٤ قرأت أن هيلاسلاسي سقط وتذكرت الملك فاروق ، وتصورت ان الحبشة تحررت . لكن السادات أعلن أن الشياطين الحمراء استولت على الحكم في الحبشة وأن سقوط هيلاسلاسي انما هو ضد ارادة الله ، لأن الله هو الذي اختاره ، وهو مستعد لان يمتطي سلاحه ويذهب الي الحبشة دفاعا عن ارادة الله ، وحماية أيضا لنابع النيل من عبث الشياطين .

ولم أكن أصدق شيئا مما يقوله السادات . وهو نفسه لم يكن يصدق مايقول . ويدرك أن الناس لن تصدقه . ولذلك كان يلجأ الى الله دائما من أجل أن يصدقه الناس، كما فعل هيلاسلاسي .

الطائرة الاثيوبية قطعت المسافة بين القاهرة واديس أبابا في ثلاث ساعات ونصف . لم نحلق فوق أرض السودان . النميري منع هبوط الطائرات الاثيوبية في السودان او الطيران في سمائها ، وأعلن كالسادات الغضب على منجستو عدو الله وعدو هيلاسلاسي .

حلقنا فوق شاطيء البحر الاحمر ثم هبطنا في مطار اديس أبابا .

الشمس مشرقة ، برودة منعشة في الهواء والجبال الخضراء من كل ناحية . السماء زرقاء والجو صافي بلا غبار . ملامح الناس تشبه ملامح قدماء المصريين . الوجوه الطويلة النحيلة . العيون السوداء المسحوبة الى أعلى . وأنف كليوباترة المرتفع الحاد . وعنق نفرتيتي المصبوب فوق جسد نحيف طويل كالرمح . سمرة داكنة

كتربة الحبشة وجبالها السود . يذوب سوادها تحت سيول المطر كالذهب السائل . يتدحرج من فوق القمة الى السفح ويجرى غزيرا قويا يشق الارض ويلمع تحت أشعة الشمس كثعبان طويل من الفوسفور . يشبه نهر النيل . حفر الصحراء منذ ملايين السنين وصنع ذلك الوادى الطويل الاخضر .

هل سبح جدى « حبشى » مع مياه المطر الهابطة من الجبل الى الوادى حيث استقر فى الدلتا بقرية كفر طحلة ؟ وبقية أهله الاحباش بقوا فوق الجبل ولم يستعمرهم أحد واحتفظوا بملامحهم الاصيلة ، ملامح المصريين القدماء ، على حين فقدناها نحن المصريين ؟ هل اختلط الدم المصرى بالدم اليونانى والرومانى والتركى والعربى والفرنسى والانجليزى والامريكى ؟ بكل الدماء التى غزت مصر خلال القرون الماضية ؟ أم أنه الجبل الشامخ المرتفع ، يجعل الملامح شامخة مرتفعة . والوادى المنخفض الهابط نحو البحر صنع لنا ملامح أقل حدة وأقل عنفا ؟

الدماء الحبشية فى جسدى تشدنى نحو الجبل ، وفى أعماقى عشق لقوة الجبل ، وانجذب نحو تلك الملامح الشامخة المنحوتة فى صخر . وكلما نظرت فى وجه طفل تذكرت طفولتى . كأنما ولدته هنا فى زمن لا أدرى عنه شيئا .

سرت فى شارع تشرشل ثم وجدت نفسى فى الميدان الكبير سموته ميدان الثورة . مهرجان شعبى كبير احتفالا بالثورة . آلاف الناس تتجمع . رجال ونساء وأطفال . وجوه سمراء بلون الكاكاو . تقاطيع حادة كالسيف . جلاليب بيض وطرح بيضاء على الرأس .

ايادي سمراء تمسك بالاعلام الصغيرة الوانهـا ثلاثة : الاحمر والاخضر والاصفر . يغنون ويرقصون ويدقون الطبول . من فوق الرءوس ثلاثة وجوه ضخمة تتدلى كأنما من السماء . ماركس وانجلز ولينين . صـورهم الثلاثة بحجم الاهرامات معلقة فى الميدان . عيون الاحباش تتطلع نحوها ولا تعرف من هؤلاء الاجانب الثلاثة . بدأت مواكب الوزراء والسفراء ، ثم سيارة منجستو هايل مريام . سيارة لا ينفذ اليها الرصاص ، ولا احد يعرف فى أى سيارة هو . منذ ستة شهور ضربت سـيارته بالرصاص وأصبحت مخرمة كالمنخل . هـكذا سمعتهم يقولون .

بالليل أصحو على صوت طلقات الرصـاص . لانكاد نعرف من يضرب من ؟ وصديقتى الاثيوبية واسـمها « ألمظ » تخشى الحديث تتلفت حولها وتهمس بكلمـات مبتورة ؟

عندنا قرارات تفرض علينا الا نتحدث فى السياسة ، والا نزور الاجانب فى بيوتهم .

سافرت معها مرة الى مؤتمر نيروبى ، وما أن حلقت الطائرة فى الجو واجتازت حدود الحبشة حتى تنهدت وتنفست ثم قالت : كرهت هيلاسلاسى مثل كل أهـل الحبشة ، وكنا نأمل فى التغيير الى أحسن ، ولـكن أصبحنا نخشى حتى الكلام ، ويتحدثون عن الماركسية اللينينية بلغة لا يفهمها أحد من الشعب . أليس فى تاريخنا ابطال وشخصيات وطنية مثل احمد عـرابى عندكم مثلا يعلقون صورهم فى الميدان بدلا من صـور ماركس وانجلز ولينين ؟ إنا مع الاشتراكية لكن ضـد النقل الاعمى عن الآخرين وتجاهل تاريخنا .

وقلت لها : حدثيني عن تاريخكم ، وكيف حدثت الثورة ضد الامبراطور هيلاسلاسي ؟ كل ما اعرفه عنه انه كان يحكم بقوة الله كالسادات عندنا فكيف نجحت الثورة ضده ؟

وحكت الى المظ قصة هيلاسلاسي الامبراطور . تشبه قصص الف ليلة وليلة . كان هيلاسلاسي رجلا صغير الجسم نحيفا . يقل وزنه عن خمسين كيلوجراما ، ومع ذلك حكم الحبشة أكثر من خمسين عاما من الحكم الدكتاتوري المطلق . كان يعتبر نفسه رئيس الكنيسة وأن الله هو الذي عينه في منصبه . لكنه لم يكن يعتمد في حكمه على الله وانما على جهاز مخابرات مدرب في أوربا وأمريكا ، وعلى تأييد هذه الدول له وقد استونى على الحكم عام ١٩١٦ حين دبر مؤامرة واطاح بالامبراطور السابق « بج ياسو » .

كان من الصعب على رجل صغير الحجم أن يكون كبير الهيبة في بلاد افريقية كالحبشة . يزهو فيها الرجال بقامتهم الفارعة وعضلاتهم القوية وملامحهم الجبلية . ودفع الكثير ليصبح شديد الهيبة رغم ضآلة حجمه . وتقمص شخصية العظماء . يرفع راسه نحو السماء وفي عينيه نظرة باردة للكون والله والناس . البرود العاطفي صفة العظماء من الحكام والعواطف في الرجل نقطة ضعف فما بال الامبراطور . ويمتد البرود الى صوته أيضا ، ولهجته في الكلام . لا يمكن لاحد أن يستشف درجة انفعاله . وهو يختلف تماما عن السادات في هذه الصفة . فالسادات شديد العصبية ، لكن هيلاسلاسي يعتبر العصبية نوعا من كشف العواطف .

والمفروض ألا تكون عواطفه واضحة ، وكلامه أيضا غير

واضح ، ولا احد يعرف تماما ماذا يقول ، فهو لا يقول شيئا ، وانما يحرك شفتيه فقط كشفتي الاله ، بلا صوت وعلى رسوله أن يفهم الاشارة ، ثم يبلغ الرســـالة الى الناس ، على شكل أوامر .

وكان رسوله يطلق عليه « الوزير ناقل الاوامر » .

وحين تدهورت الامور وانتشر الفساد وعمت المجاعة لم يتصور عامة الشعب أن الاله هو المسئول . فالمفروض أن الاله لا يخطيء ، وانما الخطأ يقع على ناقل الاوامر . وفي كل ازمة يصبح الوزير هو كبش الفداء ، يضحي به الامبراطور ليرضي الشعب ، ويعين وزيرا آخر أو وزارة جديدة . وهو هنا لا يختلف كثيرا عن السادات او اي حاكم آخر .

وكان هيلاسلاسي يعين جميع الموظفين في الدولة ابتداء من الوزراء حتى مديري المدارس ، والفنادق وحانات الخمور والبارات . ويصدر قرار التعيين شفهيا بحركة شفتيه ، فهو كالاله لا يمسك قلما ولا يكتب ولا يحب مثل السادات الجلوس على المكتب . وعلى الرســول أن يحول الامر الشفهي الى أمر مكتوب ، ومقدس .

ولا يصبح قرار التعيين نافذ المفعول الا بعد حلف اليمين أمام الامبراطور . وفي القصر قاعة خاصة لحلف اليمين يسمونها قاعة « الاستماع » ، حيث يقف الموظف المعين منحنيا أمام الامبراطور ويستمع الى قرار تعيينه . ثم يستمع الامبراطور بعد ذلك الى صوت الموظف أو الوزير يعلن الطاعة والولاء ويؤدي القسم أو حلف اليمين .

ولا يختلف حلف اليمين في الحبشة كثيرا عن حلف اليمين في بلادنا .

ومن قاعة الاستماع ينتقل الموظف الى قاعة اخـرى

تسمى « غرفة الالقاب » ، حيث تصدر المنح الالهية بالالقاب والنياشين ، أو العكس ، أى تسقط اللعنات الالهية وتسحب الالقاب والنياشين .
وكان الوزراء يخافون من دخول « غرفة الالقاب » كما يخاف الاطفال دخول غرفة الفئران . ولم يكن لهم من وظيفة سوى ارضاء الامبراطور ودراسة سيكلوجيته .
وكان ارضاء هيلاسلاسى ، يتركز فى شىء واحد . اثبات الولاء له بحركات الجسم حين الوقوف أمامه . انحناءة الرأس مع انثناءة الركبة اليمنى ، والتمتمة ، ببعض آيات الحمد ، ثم التقهقر الى الوراء حتى الباب الخارجى دون الاستدارة حتى لا يصبح ظهر الواحد منهم فى وجه الامبراطور .
وكان الدخل القومى فى الامبراطورية يعتمد على الرشاوى أساسا ، وكل خطوة داخل أى مكتب حكومى لها رشوة معروفة . والامبراطور يعرف ذلك ، ويدرك أن الغاء نظام الرشوة يعرض الدولة للافلاس .
ولم يكن فى وسع الامبراطور أن يفعل شيئا تجاه هذا الفساد ، فهو جزء طبيعى من الحياة البشرية ، والا كان وجود الشيطان عبثا والله لم يخلق الشيطان عبثا ، بل جعل له وظيفة ، وهى الافساد .
رغم هذا الايمان الشديد بالله الا أن الامبراطور كان يخشى دائما من حدوث مؤامرة ضده وهو غائب عن الحبشة . وكان كثير السفر والترحال فى العالم الواسع ، يعشق أوروبا وامريكا ، وأوروبا وأمريكا تعشقه . لكنه أقسم أمام الشعب انه يعشق وطنه الحبشة ويدافع عنها ضد أى غزو من الخارج . وحين غزت ايطاليا الحبشة هرب الى انجلترا . ثم عاد بعد

ان استطاع بعض الضباط البواسل ان يطردوا الايطاليين وأطاح هيلاسلاسي بهؤلاء الضباط البواسل وسيطر على الحكم .

كان يعشق الرحلات وفي كل رحلة يأخذ معه جواهره وتاجه خشية أن يسرق فى غيابه ، ويأخذ معه أيضا رجاله المشكوك فيهم ، ويترك الموثوق فيهم .

ولم يكن أحد يفهم هذا التناقض . فالمفروض ان يصطحب الحاكم هؤلاء الذين يثق فيهم . لكن هيلاسلاسى كان يفعل العكس . يأخذ معه المشكوك فيهم حتى لايقوموا بمؤامرة ضده في غيابه . وبذلك حرم رجاله المخلصين من رحلاته الكثيرة الممتعة . واستمتع المتآمرون ضده بالسفر والنزهات العالمية .

لكن عدد المتآمرين ضد هيلاسلاسى كان يتزايد على الدوام ، ولم يكن فى امكانه أن يأخذهم كلهم معه في رحلاته . وكان الفساد قد عم وانتشر السخط بين معظم طبقات الشعب ، الفلاحين والعمال والتجار والطلبة . وامتد السخط أيضا ليشمل رجال الجيش والبوليس ، بل الحرس الامبراطورى ذاته .

وكان هناك رجل جسور اسمه « منجستو جيرمام » كان رئيس الحرس الامبراطورى ، وقد استطاع مع رئيس البوليس الامبراطورى ورئيس جهاز الامن بالقصر ان يشكلوا « المجلس الثورى » من أربعة وعشرين ضابطا .

وفى رحلة للامبراطور الى البرازيل فى ديسمبر عام ١٩٦٠ قام المجلس الثورى بقيادة منجستو بعزل الامبراطور هيلاسلاسى ، وشكلت حكومة جديدة يرأسها ابن هيلاسلاسى الامير كاسا . وكان رئيس مجلس التاج ، وأعضاؤه من الوزراء وأصحاب الاراضى الاثرياء . وكانت

هناك اشاعة بأن الامبراطور كان دائم الشك فى نسب هذا الابن اليه ، وأن زوجته خانته مع رجل آخر ، وأنجبت « كاسا » .

كاد الانقلاب ينجح لولا أن أسلاك التليفون بين أديس أبابا والخارج لم تقطع ، واستطاع اعوان الامبراطور الاتصال به تليفونيا فى البرازيل فعاد طائرا . واستطاع أن يجمع حوله بعض رجال الحرس . وكان هناك صراع بين رجال الجيش ورجال الحرس . وذهب منجستو يخطب في الجامعة ضد الامبراطور وطبقة الاثرياء الارستقراطيين . لكن جموع الفلاحين كانت لا تزال تؤمن بالاله هيلاسلاسي ، وتدافع عنه بالطوب والعصى ضد الشيطان . وانتصر هيلاسلاسى وأعوانه . وهربت الفرق الثائرة الى الغابات . وانطلق الرصاص فى أثرهم ، وأقبلت الضباع والاسود الجائعة على صوت الرصاص واكلت منهم ما أكلت . والثعالب ايضا أكلت . وبلغ عدد الذين أكلوا عشرة آلاف رجل . واعتقل هيلاسلاسى من لم تأكله الضباع . وبلغ عدد المعتقلين خمسة آلاف . شنق منهم هيلاسلاسى من شنق ، وعلق رءوسهم على الابواب ، أما « منجستو » فقد تم اعدامه فى الميدان العام .

وعاد هيلاسلاسى يحكم الحبشة بأمر الله ، وأعلن أن الله نصره على أعدائه ، وضاعف من عدد جهاز المخابرات كتدعيم لقوة الله وضاعف لهم المكافآت والامتيازات ، وتضاعف الفساد والرشاوى ، وأصبحت الطائرات الاثيوبية تحلق فى الجو ما بين باريس وأديس ابابا تحمل زجاجات الشمبانيا والكافيار للامبراطور وأعوانه . واكتظت شوارع اديس أبابا بالشحاذين العراة ودفعهم الجوع الى الهجرة من القرى الى المدينة بحثا

عن الطعام أو مهنة في الحلال أو الحرام . بعضهم لم يجد امامه الا الشحاذة . والبعض الآخر الاذكى اصبح نشالا أو قوادا . والبنات الصغيرات يبعن أجسادهن نظير سد الرمق . والمرأة العجوز تفتح دكانا لبيع الكوكاكولا والسجائر ، وتخصص الغرفة الداخلية الدعارة وعلى كل ناصية شارع ترى دكاكين الدعارة ومن فوقها كتب : كوكاكولا .. ومن تحتها مومس حبشية .

وبدأ الفلاحون يموتون من الجوع ، ومواشيهم تموت من الجوع أيضا . ويدفن الفلاح الى جوار حماره في حفرة واحدة . وامتدت المجاعة الى الجنود أولاد الفلاحين . وبدأت جثث الجنود تظهر في بعض الشوارع . ولم يكن من حق الجندى فى الحبشة أن يدفن حين يموت . كان هذا الحق قاصرا على الضباط فقط .

وفى عام ١٩٧٣ شوهد الامبراطور هيلاسلاسي وهو يلعب الجمباز فى حديقة القصر ويقدم الكافيار لكلبه فى صحن من الفضة . وكانت رائحة الجثث قد بدأت تزكم الانوف ، والسخط امتد ليشمل معظم رجال الجيش والحرس الامبراطورى والطلبة والعمال والتجار والقوادين والمومسات .

وكان فى قصر الامبراطور خادمة لها ابن ضابط فى الجيش اسمه منجستو هايل مريام . وهجم رجال الجيش المتمردين بقيادة منجستو هايل مريام على مقر الحكومة ووضعوا الوزراء في السجون . وارتدى هيلاسلاسي الزى العسكرىَ وحمل عصاة المرشال واعلن انه مع الضباط المتمردين .

ولم يبق خارج السجون من أعوان الامبراطور الا خادمه وكلبه الامين . وكف الامبراطور عن لعب الجمباز في

الحديقة ، فقد اختفى الحراس من حول القصر ، واصبح البقر يدخل الحديقة ليأكل العشب .
كان العام هو ١٩٧٤ ، وقد استفاد منجستو الجديد من تجربة منجستو القديم عام ١٩٦٠ ، وقطع أسلاك التليفون داخل القصر فلم يعد يسمع الامبراطور رنين جرس التليفون . ولم يعد يفعل شيئا سوى ارتداء الزى العسكرى كل صباح ، والجلوس بجوار النافذة او الباب وقد يأخذه خادمه الى الكنيسة حيث يصلى ويقرأ كلام الله .

حتى جاء يوم ١١ سبتمبر ١٩٧٤ حين سمع الامبراطور أصوات المظاهرات فى الشارع تطلب شنقه ، ودخل اليه رجال الجيش ، وبعد أداء التحية العسكرية قرءوا عليه قرار خلعه عن العرش . ثم اركبوه احدى السيارات المصفحة . وتساءل الامبراطور فى هلع : الى اين تأخذونى ؟ وقالوا له : نأخذك الى مكان امين .
وكان المكان الامين هو السجن بلغة الاحباش ، واخذ منهم السادات هذا الاصطلاح . وفى السجن عاش هيلاسلاسى اثنى عشر شهرا ثم مات .
وقبض منجستو ورجاله على بعض أعوان الامبراطور . وبعضهم هرب خارج الحبشة . وبعضهم تنكر فى زى الرهبان فى الاديرة . وبعضهم فر الى الجبال ، ليعود من حين الى حين الى أديس أبابا ، يتخفى فى الليل ويطلق الرصاص على رجال الثورة .
وفى الليل نسمع سيارات الجيش وهى تجوب الشوارع فى اديس أبابا تبحث عن اعوان هيلاسلاسى ورجال الثورة المضادة ، وتدوى طلقات الرصاص فى الليل .

بيتي نوافذه عريضة من الزجاج . ارى الجبال الخضراء وانا راقدة فى سريرى . فى الصباح الباكر اخرج الى حمام السباحة فى فندق الهيلتون على الهضبة العالية فى مواجهة قصر هيلاسلاسى . مياه حمام ساخنة تتصاعد منها البخار . ورذاذ المطر يتساقط فوق راسى . أرى الشمس والقمر فى السماء ، ومدينة أديس أبابا لاتزال نائمة ، الا بعض الشباب يتدربون على السلاح . صفوف من الفتيات والفتيان يؤدون التدريبات الساعة السادسة صباحا . دقات كعوبهم فوق الاسفلت وأنفاسهم منتظمة متصلة كالنشيد الصامت . وفى الميدان الكبير ترتفع الصور الثلاثة ، ماركس وانجلز ولينين ، فى صدر كل منهم عدد من الرصاصات . بالامس سمعت الطلقات وأنا نائمة . وفى الصباح عرفت أن بعض أعوان هيلاسلاسى أطلقوا الرصاص على الصور الثلاثة فى منتصف الليل .

لازالت الصور معلقة على الاعمدة ، تقاوم الرصاص ، وسيول المطر ولهيب الشمس . رجل ولد منذ مائتين عام نطق باللغة الالمانية على بعد اربعة آلاف كيلومتر وصورته لا تزال فوق هذه الهضبة التى تنطق باللغة الامهرية فى وسط افريقيا ؟

مبنى الامم المتحدة يواجه الميدان ، ومكتبى فى اللجنة الاقتصادية الدور الثالث حيث قسم المرأة الافريقية . رئيس اللجنة له مساعد ، والمساعد له سكرتيرة أثيوبية ، وهو من شمال أوروبا . أبيض تشوبه حمرة كبشرة البرص . وهى سمراء كالكاكاو أو البن المحروق . شمال يحن الى جنوب . وتسرى الاشاعات فى المبنى الضخم عن قصص العشق بين السكرتيرات والمديرين . تبدأ القصة عادة فى رحلة الى مؤتمر ، وتنتهى فى رحلة

أخرى الى مؤتمر آخر . والتخطيط لعقد المؤتمرات يبدأ مع بداية اللقاء في الربيع . ينعقد المؤتمر في أي مكان من العالم الا موطن المدير . فهناك زوجته وأولاده، ورصيده في البنك بالرقم السري الخطير .

منذ تخرجت واشتغلت وبيني وبين المديرين عداء . مفهومهم للادارة عجيب ، وعلاقة الرئيس بالمرءوس كالسيد بالعبد . طاعة مطلقة للأوامر بغير مناقشة . والرؤساء في الحكومة المصرية فراعنة . لكنهم في الامم المتحدة آلهة مقدسة . والمرءوس في الحكومة اذا تمرد وفصل فلن يخسر الا الملاليم . لكن الخسارة في الامم المتحدة بالآلاف والملايين . لهذا يسود الهدوء المكاتب ، ويسيرون فوق الارض بخطى خفيفة حذرة . لا يدخلون الى حجرة الرئيس أو المدير الا بعد استئذان . واذا أذن لهم يطرقون الباب برقة بالغة ، واذا فتح الباب فلا فلا يدخلون دفعة واحدة . وانما على أجزاء . الرأس أولا تطل من الباب بأدب ، ويتبعها الكتفان ثم الذراعان وبقية الجسم . والجزء الاخير الذي يدخل هو القدمان. تدلفان من الباب بهدوء شديد داخل حذاء لامع مصقول .

وفي حفلات الكوكتيل تراهم يدورون حول النقطة التي يقف فيها المدير . يلفون حوله من كل النواحي ، حتى تلتقي عيناه بعيونهم ، ويدرك وجودهم ، فاذا بالشفاه تنفرج عن الابتسامة العريضة ، ويبدو الواحد منهم منفرج الأسارير مستريح البال وكأنه وقع باسمه في سجل التشريفات أو في دفتر الحضور والانصراف .

وكان غيابي عن هذه الحفلات يسجل ضدي في التقارير السرية . وفي يوم سألني المدير لماذا لا أحضر الحفلات ،

فالحفلات فى الامم المتحدة جزء من العمل . واندهشت .
لكن الجميع ايدوا كلام المدير واعتبروا غيابي عن الحفلات
نوعا من التقصير .

ولم يكن في مدينة أديس ابابا الكثير . مدينة تحاصرها
الجبال ، وقوات معادية من الشمال والجنوب . ولاشىء
يبدد سكون النهار الا رذاذ المطر أو انهمار السيول
أو صوت العربات الكبيرة تحمل الموظفين من اديس أبابا
الى القرى للاشتراك فى جمع المحاصيل ، وتسود
السيارات محملة بالفلاحين ليجندوا فى الحرب ، أو
يعملوا مع فرق الشعب المسلح لحماية المدينة أو تنظيم
طوابير السيارات أمام محطات البنزين كطوابير الناس
أمام المخابز فى بلادنا ودجاج الجمعيات التعاونية .

وفى الليل لا يقطع الصمت الا طلقات الرصاص ، أو
دقات الطبول . تذكرنى بدقات الطبول فى قريتى كفر
طحلة . الطريقة نفسها واللحن نفسه ، وايقاع الاقدام
الراقصة فوق الارض الحبشية هو نفسه الايقاع فى
وادى النيل . يصل الصوت الى أذنى وانا نائمة فى
سريرى ، ويخيل الى أننى ولدت هنا منذ بعيد الزمان .
وأمام بيتى مبنى أبيض صغير له فناء كبير . يتجمع فيه
الرجال والنساء والاطفال . يدقون الطبول ويرقصون
طول الليل ويغنون . وفى الفجر يختفون . الا اذا كان
هناك مسيرة شعبية أو مهرجان . فاذا بالشوارع كلها
تمتلىء بالبشر . الاف وآلاف . يحملون الرايات والاعلام .
ويهتفون باللغة الامهرية : تحيا العدالة والمساواة . تحيا
الحرية وكرامة الانسان . تسقط أمريكا واسرائيل .
بعض الشباب يحملون لافتة كبيرة كتب عليها : نؤيد
القضية الفلسطينية .

وجوه الشباب الحبشى كوجوه المصريين . سمراء دقيقة الملامح . وصوتهم وهم يهتفون بالامهرية كالاصوات العربية . وحين تلتقط أذانى كلمة « فلسطين » أحس الدقات تحت ضلوعى ، ودموع أبتلعها فى الصدر ، والجرح عميق ، الحاكم في بلادنا يعادي الواقفين معنا على طول الخط ، ويصادق الطاغين لنا فى الصدر وفي الظهر .

أصوات الفتيات الحبشيات كالغناء وهن يهتفن فى نفس واحد : فلسطين . يتقدمن على دقات الطبول ، والفتيات أيضا يهتفون . تمسك الفتاة بيد الفتى ويتقمصان . الصفوف وراء الصفوف رجال ونساء وأطفال . لا حاجز بينهم ولا حجاب . والفتاة ترفع راسها الى أعلى فى شموخ .

تذكرت الامس القريب ، حين كنت فى أجازة بالقاهرة لمدة أسبوع ونظمت الحكومة مظاهرة من الموظفين تأييدا لزيارة السادات لاسرائيل ، وصدرت الاوامر من الوزارات بخروج المظاهرة فى يومين منفصلين : يوم للنساء ، ويوم للرجال . ورأيت الموظفات فى اليوم المخصص لهن يسرن فى الشوارع بكعوب عالية ، ورءوس منخفضة ، وعيون مطرقة الى الارض ، وحجاب أسود او أبيض يغطى بعض الرءوس . وفى يوم الرجال رأيت الموظفين يسيرون فى صف منتظم ، أيديهم خلفظهورهم كالمقيدين بالسلاسل ، أكتافهم متلاصقة وظهورهم محنية متشابهون كأنما تسكهم الحكومة كقطع النقودالمسكوكة، وكالقرش الممسوح أصبحت ملامحهم باهتة شبه ممسوحة . ومن فوق رءوسهم تطل صورة السادات

في يده العصا والصولجان ، وعلى اسنانه يضغط الكلام ويمضغه كاللبان .
ميدان الثورة امتلأ بآلاف الاحباش من كل قرية ومدينة . حتى الرجال من القبائل الجبلية جاءوا على ظهور الخيول الجامحة . تطير في الجو كالطيور الجارحة. وشعورهم الطويلة الكثيفة تطير خلف ظهورهم كفرسان العصور القديمة ، ملابسهم ملونة ، والخيول ايضا مزركشة . عيونهم حادة كالصقور ، وحركتهم السريعة الخاطفة كالسهم ينطلق او طلقة رصاص بغير صوت .
بيني وبين الملامح الجبلية قرابة دم ، كأنما ولدت فوق جبل . وفي كل بلد جبلي اشعر بالحنين الى جذوري الى جدودي البدائيين ، والطبيعة والهواء ومياه المطر تجري بحرية تشق السدود . رجل اثيوبي عجوز يستند الى العكاكير يتقدم وسط الفتيان والفتيات . يرفع ذراعه في الهواء ويهتف : فلسطين . يسقط العكاز من تحت ابطه ، ويقع على الارض . يرفعه الشباب الى فوق . يضعون العكاز تحت الابط ، وينطلق الجميع في المسيرة .
منذ الطفولة وانا احب المسيرات الشعبية ، الاصوات العالية تهتف ضد الانجليز والملك . وفي المدرسة الابتدائية والثانوية ، وفي كلية الطب بالجامعة ، وفي كل مظاهرة احمل العلم واخرج . ومع الملايين اهتف : الحرية الاستقلال العدالة والمساواة .
ابتلع اللعاب المر . الحرية في بلادي غائبة . والعدل ايضا غائب ، في الوطن الام ، وفي الامم المتحدة .
***
في الامم المتحدة ترتفع مكانة الرجال البيض من العالم

الاول ، يليهم في المكانة النســاء البيض ، من أوروبا وأمريكا ، ثم يأتي بعد ذلك الرجال الملونين من آســيا وافريقيا وأمريكا الجنوبية . وفي القاع ترقد النساء من العالم الثالث .

نظام هرمي منذ عصور الفراعنة ، والعصر اليـوناني العبودى ، حين فرض على الانسان قوانين الفلك والنجوم فالعبد يدور في فلك السيد بمثل ماتدور الارض فيفلك الشمس . والمحكوم يدور في فلك الحاكم . والابن يدور في فلك الاب . والمرأة تدور في فلك الرجل . والدولة الصغيرة في فلك الامبراطورية الكبيرة .

والولايات المتحدة في الامم المتحدة امبراطورية كبيرة يدور في فلكها دول صغيرة . وحين تثور بعض الدول على العبودية تهدد الولايات المتحدة بالانسحاب من الامم المتحدة ، ومن منظمة العمل الدولية هــــددت أمريـكا بالانسحاب ذلك العام ، لان منظمة العمل الدولية بدأت تراجع قوانين العمل العبودية . وأمامالتهديدات بات الوظفون بالمنظمة مؤرقين مهددين بالفصل . فالولايات المتحدة تدفع للمنظمةحصةكبيرةوجزءمنهارواتب الموظفين . واعتذرت منظمة العمل الدولية عما بدر من بعض الدول الصغيرة ، أو خبراء العالم الثالث ، وباركت القــوانين القديمة الموروثة ، وعلى رأسها القانون الفيزيائي العتيد من حيث حركة الافلاك والاجرام ، ودوران الجرمالصغير في فلك الجرم الكبير ، كما يدور الالكترون داخل الذرة حول النواة ، ويدور الانسان حول الاله .

ويدور منشور في الامم المتحدة يؤكد هذا القانون . وهو ليس مجرد قانون . ولكنه نظام ودين . والامم المتحده تؤمن بالدين ، وتؤمن بوجود الاله ، واذا اختلفت أسماء

لاله من بلد الى بلد الا موجود . والولايات المتحدة على رأس الدول فى الامم المتحدة التى تؤكد على وجود الاله ، وتنفق الاموال الطائلة حتى لا يغيب هذا الوجود .

كانت منشورات الامم المتحدة تلصق على أبواب المكاتب بالدبابيس . وكل يوم منشور جديد . وجاءنا منشور يحذر الخبراء من نزول الشوارع فى أديس أبابا وأن نلصق على بيوتنا ختم الامم المتحدة .

ولم الصق على بيتى الختم ، وأنزل لامشى فى الشوارع فى كل الشوارع كنت أمشى ، وفى الاسواق ، والازقة . قامتى طويلة نحيفة كقامة الاحباش .. وبشرتى سمراء بلون بشرتهم ، لا أشعر بينهم بالغربة . والطفل الشحاذ على ناصية الشارع ملامحه تشبه ملامح طفلى . والفتاة الصغيرة الواقفة أمام الكشك تشبه ابنتى الصغيرة .

أطفال فى سن العاشرة يهربون من الآباء والامهات فى القرى . يهربون من الجوع . بقايا الجوع المزمن القديم منذ هيلاسلاسى . والجوع فى الحبشة أشد من الجوع فى الهند . يقتل فى الانسان الاحساس بالابن أو الابنة . يسحق فى قلب الام الامومة ، ويقتل فى الاب الابوة ، ويهرب الاطفال فى عتمة الليل من تعذيب الاب والام . يصبح الطفل الذكر شحاذا أو ماسح أحذية . وتصبح الطفلة البنت مومسا .

وفى قبائل الحبشة تختلف القيم . قد تقتل البنت اذا مارست البغاء . وفى قبائل أخرى يقدسون البغى ، وتحصل المومسات الثريات على سلطة سياسية .

فى قبيلة جوجام « أمهارا » تحتل المرأة مكانة اجتماعية عالية ، وتملك الارض وترث كالرجل تماما . وتحتفظ المرأة بعد الزواج باسمها ولا تحمل اسم زوجها .

واملاك الاسرة تقسم على الزوجين بالتساوى لا فـرق بين الزوج والزوجة . ولا يجرى للبنات في هذه القبائل عملية الختان أو عملية خلع الاظافر . بعكس قبيـــلة « جوراجى » ، وفيها لا تملك المرأة ولا ترث ، والبنت لابد أن تتزوج قبل أن يدركها الحيض ، واذا أدركهـــا الحيض قبل أن تتزوج يعلقونها من شعرها في شجرة . وقبل الزواج بثلاثة شهور يمسكون البنت الصغيرة وهى مستغرقة فى النوم ، اربع نساء ، كل واحدة تمسك يد أو قدم . وامرأة خامسة تمسك الرأس ، يضعون أصابع يديها وقدميها في وعاء به زبدة ثم يخلعون الاظـــافر العشرين من الجذور ، وهى تصرخ وتنزف ومن حولها يرقص الاهل والاقارب ، ويأتى الجيران بالهدايا كل يوم حتى تشفى البنت من جروحها بعد أسبوع أو أكثر . قبل الزواج بثلاثة أيام تشرب البنت شربة مثل زيت الخروع لتنظيف الامعاء ، ثم يفرض عليها الصيام عن الاكل اربعة أيام . فى يوم الزفاف تغطى البنت تماما من الرأس الى القدم ثم تحمل على فرس أو حمار الى بيت العريس ، حيث تحبس وحدها فى غرفة ويطلقون عليها اسما جديدا ، وفى منتصف الليل تماما يدخـــل عليها العريس ويغتصبها بعنف . على باب الغرفة يقف أهل البنت ينتظرون فى قلق علامة العذرية . قطرات الدم الاحمر ، فوق منديل العريس ، وتدق الطبـــول والمزامير . لكن اذا خرج المنديل نظيفا ابيض كان الله فى عون البنت . قد تقتل وقد تعذب حتى الموت . كـثير من البنات يهربن قبل الزواج الى أديس أبابا . وكثيرات يهربن ليلة الزفاف قبل دخول العريس . واذا اختفت الزوجة يقولون أن الضبع اخذها وأخفاها فى ظلمـــة

الليل .. ولابد أن يدفع أهل الزوجة فدية على شكل عجل صغير ، يقدم للضبع من أجل أن يرد الزوجة اليهم وحين يعثرون على البنت الهاربة في الجبال يجدونها فاقدة الوعي ، لا تنطق ولا تسمع ولا تتعرف على أحد . يأخذونها الى بيت شيخ القبيلة لتعيش كشحاذة حتى يأذنون لها بالعودة الى بيت أهلها . وتحظى بمعاملة أفضل من البنات . يترددون في ضربها أو تعذيبها خشية عقاب القوى فوق الطبيعة .

اما البنات الاخريات والزوجات اللائى لا يهربن فانهن يعيشن حياة العبيد . لا ترفع الزوجة عينيها الى وجه زوجها ، وتهرب منه كلما رأته ، ولا تناديه باسمه ابدا . وهو يمكن أن يطلقها بلا سبب ، أو لانها طلبت جلبابا جديدا ، أو لانها لم تنجب ، أو لانها انجبت بناتا فقط ولم تنجب ذكورا ، أو لانها أكلت قطعة لحم .

تعيش الزوجة كالعبد في هذه القبائل ، ولا يحترمها احد الا اذا أصابها الصرع أو الجنون ، ويقولون حينئذ أن الروح ركبتها . وفى شهر العسل تركب الارواح الزوجات بنسبة ٢٠٪ حسب دراسات جامعة اديس ابابا . اى انه من كل خمس زوجات تركب الروح زوجة واحدة ، ويسمونها « سودو » . وتحظى برعاية طيبة واحترام لخوفهم منها ، واعتقادهم أن هناك صلة مابينها وبين القوى الخارقة فوق الطبيعة . وأهلها في هذه الحالة يصيبهم ايضا شيء من الاحترام ، وتصبح الفرص أمام ابنتهم أفضل ، فهى تتلقى الهدايا والقرابين اتقاء لشرها وشر الارواح التى ركبتها . وتسمى هذه البنت أو المرأة « مييت » ، ويفد اليها المرضى طلبا للبركة والشفاء . ولا تكلف بأى اعمال في البيت . تجلس وفي يدها عصا ،

واذا اساء اليها أحد تضربه .
وتتجمع هؤلاء البنات والنساء اللائي ركبتهن الارواح في بيت شيخ القبيلة ، ويتولى بنفسه جمع الهـدايا والقرابين التي تقدم اليهن .. وهي ثروة طائلة تزيد من ثراء مشايخ القبائل ونفوذهم السياسي .
هذه هي حياة المرأة في قبيلة « جوراجي » في الحبشة. وهي قبيلة كبيرة ، هرب منها الى اديس ابابا كثير مـن البنات والنساء . بعضهن يعشن في الفقر والشـحاذة ومهنة البغاء . والبعض منهن قد يحظى بالتعليم . في جامعة اديس ابابا قابلت أستاذة من قبيلة « جوراجي » لكنها انكرت أنها جاءت من هذه القبيلة . وكثيرات غيرها ينكرن مثلها . لكن الرجال من هذه القبيلة لاينكرن . واسـتاذ اثيوبي بالجامعة قال لي : انا من قبيـلة « جوراجي » . وأعطاني دراسة طويلة قام بهـا عـن تعذيب البنات في قبيلته ، ودراسة أخرى عـن قبيلة « جالا » وهي من المسلمين ، وفيها يجري للبنات عمليات الختان ، وهي استئصال البظر من جسم البنت قبـل أن يدركها الحيض . وهي عملية شائعة في بلاد افريقية متعددة ومنها السودان ومصر .
وفي أديس ابابا انواع مختلفة من المشردين الاطفـال ويطلق عليهم صبية الشارع . اراهم في الشوارع واقفين عند اشارات المرور وما أن تقف سيارة حتى يهجمـون عليها وفي أيديهم الفوط الصفراء يلمعون زجاج النوافذ ويشحذون . يمضغون القات بين أسنانهم ، ويشـمون البنزين كما يشرب خبراء الامم المتحدة الويسـكي والنبيذ . دوريات البوليس تلمهم مع القمامة حين يأتي زائر كبير ، ويودعون في السجون . يموتون بالآلاف في

السجون لقلة الطعام ، ثم يفرج عنهم حين لا تجد ادارة السجن لهم طعاما .

ومصير البنت في الشارع مثل الولد ، الا اذا حظيت بمؤهلات للدعارة . والبنت قد تمارس البغاء وهي طفلة في العاشرة . والمومسات عدة أنواع ، وكلهن يدفعن الضرائب ولهن رخص طبية تضمن خلوهن من الامراض التناسلية ؛ وتجدد الرخص الطبية مرة كل ستة شهور ومعظم المومسات من النوع الفقير او مومس الشارع ، وهن البنات الصغيرات ، يعشن فى الشارع ، وفى الليل ينمن في افنية الكنائس ، أو أقسام البوليس .

وهناك « مومس الكشك » أو « الكيوسك » ، وتسكن في كوخ صغير من القش أو الصفيح أو الكشك الخشبي . تعلق على الكشك لافتة الكوكاكولا أو كازوزة وفى الفرفة الخليفة تمارس البغاء .

وهناك مومسات يملكن دكاكين أكبر كالبارات والحانات أو المقاهى ، ويكسبن من التجارة والبغاء معا . ولكل مجموعة منهن قوادا أو قوادة تملك الحانة وتعطى لكل مومس أجرا شهريا ثابتا .

وهناك المومسات الراقيات اللائي يعملن فى الفنادق الكبيرة ، أو الملاهى الليلية الفاخرة ، ويأخذها الرجل الى بيته ثم يعيدها الى صاحب الملهى . وبين المومسات نساء ثريات ، ولهن أحياء وأملاك ونفوذ . ترفع الواحدة منهن رأسها فى كبرياء وتقول : المسيح قال أنه سيضع نارا في فم من يأخذ ربحا عن ماله ولكنه سيسامح المومس . ومعظم المومسات متدينات ، والناجحات منهن لا يتزوجن . لكن المومس الفاشلة هى التى تتزوج لانها فقيرة . وتجهض المومس الفقيرة نفسها بأن تشرب

الجازولين أو الجاز . لكن المومس الثرية لا تجهض نفسها وترغب فى الطفل ليرث أموالها .

معظم المومسات بنات هاربات من الريف ، يعملن خادمات أول الامر ، ثم يكتشفن أن البغاء يضمن لهن حياة أكثر كرامة ، أو قد يتعرضن للاغتصاب من رب الاسرة ، وتطردهن ربة الاسرة ، ولا يجدن وسيلة للعيش الا البغاء .

وفى قبيلة « جوراجى » ترجم البغى بالحجارة حتى تموت . وفى قبيلة « جالا » وقبيلة « تيجر » تعاقب البغى بالحبس أو الضرب . وفى قبيلة أمهارا لا تمارس المرأة البغاء الا نادرا . واذا مارسته وكسبت أموالا كثيرة أصبح لها نفوذ مثل رجال القبيلة .

وفى قبيلة « بورانا » تحظى المرأة مثل الرجل بحرية تعدد العلاقات الزوجية ، ولا تعرف قبيلة«بورانا» البغاء ، لان الرجل لا يدفع للمرأة ، والزوجة لايستعبدها الرجل .

جزيرة العبيد على الساحـل الغربـى

كان عملى بالامم المتحدة يقتضى السفر الدائم . مؤتمرات دولية واجتماعات اقليمية ومشروعات للتنمية فى بلاد العالم الثالث وعلى رأسها البلاد الافريقية . وفى كل رحلة من الرحلات أحلق فوق سماء مصر وأنا متجهة من اديس ابابا الى الشمال أو الشرق أو الغرب أو الجنوب . واكتشفت أن الانتقال من بلد أفريقى الى بلد افريقى آخر لابد وأن يمر باحدى العواصم الاوربية . ولكى اصل من اديس ابابا الى السنغال أو النيجر وساحل العاج لابد أن أطير شمالا الى القاهرة ، ثم أجتاز البحر الابيض المتوسط الى باريس ، ومن باريس أركب الطائرة الى داكار .

ولاول مرة أدرك أن بلادنا الافريقية لم تستقل بعد . وأن هناك حبل سرى لازال يربط بين افريقيا والاستعمار .

أنتقل من الطائرة الافريقية فوق الارض الافريقية لاركب الطائرة الفرنسية أو الانجليزية فوق أرض أوروبا التى تنقلنى الى الطائرة الافريقية فوق الارض الافريقية مرة أخرى .

كأنما أدور حول العالم وحول نفسى لاعود الى النقطة ذاتها التى بدأت منها أو الى نقطة قريبة منها .

واشعر بالمهانة . لا تزال بلادنا الافريقية عاجزة عن

اتصال بعضها بالبعض دون وسيط من البلاد الاستعمارية .

وتزداد المهانة حين أرى المضيفة الافريقية السوداء تنحني باحترام لكل من ارتدي بشرة بيضاء ، ورطن بلغة أجنبية ، تلبي رغباتهم وعلى وجهها ابتسامة ، وأنا أناديها فلا تسمعني وكأنها صماء .

لكن الاحساس بالمهانة يتبدد وأنا محلقة فوق السحب فوق الارض والجبال ، فوق الجغرافيا والتاريخ ، وفوق حدود البلاد التي صنعها الاستعمار .

وحين تدخل الطائرة الى سماء مصر ، أشعر بالسعادة وأدرك أن الاستعمار لا يخلو من فوائد ، فأنا أمر بالقاهرة في كل رحلة داخل أفريقيا طالما أن أفريقيا لا تسافر الى افريقيا الا بعد اجتياز البحر الابيض المتوسط والهبوط على أرض أوربية .

أحملق من الجو على أرض الوطن . تحت ضلوعي دقات قلب محسوسة ، وعيناى تخترقان السحاب ، تبحثان عن الارض الصلبة في مساحة هائلة من الهيولة الذائبة في الكون . وحين ترسو عيناى على الارض السوداء تشتد تحت ضلوعي الخفقات . وفي الظلمة السوداء تتعلق عيناى بضوء خافت . هذا الضوء هو مصباحي بجوار سريري ، ورف الكتب ، وأوراقي ، وعينا طفلي من فوق الوسادة الصغيرة تتسعان بالدهشة وتتعلقان بالطائرة .

لحظة العناق تنقطع فجأة ، ولحظة الفراق تمتد الى الابد . وفي شوارع القاهرة أمشي كالغريبة . لا زالت صورة السادات معلقة فوق كل جدار ، تحتل المساحة

بين السماء والارض ، ومن حولها لمبات النور تدور ، والارض أصبحت صفراء بلون الصحراء ، واخضرار الشجر أصابه الشحوب ، ونهر النيل يقاوم الامتداد الى تل أبيب ووجوه الناس شاحبة كالارض ، وأصواتهم مخنوقة كالعبيد .

حملت حقيبتى وخرجت من بيتى الصغير فى الجيزة دون أن أغسل وجهى . شقتى فى الدور الخامس ، ولم تعد مواسير المياه تحمل الماء . ركبت سيارة الليموزين متجهة الى المطار . اجتزنا كوبرى الجيزة ، وفاحت رائحة الجلود الميتة قرب المدافن حيث المدينة الجديدة ، يسمونها مدينة الموتى ، ومليونان من البشر يعيشون فيها وينادون فى القبور .

سيارة الليموزين سوداء أنيقة من النوع المرسيدس . شركات السياحة الجديدة تشتغل بكفاءة عالية لخدمة السياح الاجانب . السائق المصرى يرتدى قبعة ويتحدث فى جهاز لاسلكى . أخذ منى ضعف الاجر بقشيش ورمقنى بنظرة ازدراء حين نطقت بالعربية .

على باب المطار كان الزحام شديدا . أحد حراس الابواب يسب امرأة فلاحة تجر ثلاثة أطفال . يلقى بجواز سفرها الاخضر على الارض ويبصق . النسر ذوالجناحين تغطيه البصقة . مددت يدى بجواز السفر الازرق، وتمتمت ببعض كلمات انجليزية . انحنى مبتسما وأفسح لى الطريق .

جلست فى مطار القاهرة احملق فى الفراغ وفى جوفى مرارة . أصبحت أتكلم الانجليزية فى بلدى ليفسح لى الطريق وانال الاحترام . اشعر بالغربة فى وطنى ،

وخارج الوطن أيضا أشعر بالغربة . لازلنا نعيش عصر العبيد .

دوى في اذنى صوت حاد كالصرخة الحادة أو زغرودة طويلة ممدودة . فتاة مصرية ترتدى فستان الزفاف الابيض . تتعثر في ذيل فستانها الطويل ، وعلى جبهتها حبات عرق . تسير نحو الطائرة السعودية في وجل وفي جيبها صورة عريس جاءتها بالبريد وشيك على البنك في جيب أبيها . من الطائرة نفسها يهبط جثمان فلاح مصرى داخل صندوق خشبى ، وفي جيبه الداخلى صورة امه ورزمة دنانير . الزغاريد الحادة المطوطة تختلط بأصوات النواح والعويل . وعلى أرض المطار يرقد الفلاحون المصريون صفوفا . تحت الراس قفة او حقيبة ممزقة مربوطة بالحبال ، ومن فوقها الاسم والعنوان بحروف عربية متعرجة .

لاول مرة في تاريخ مصر يهاجر الفلاح بحثا عن لقمة العيش . سنوات السادات جلبت للوطن الاجانب والاسرائيليين وطردت الوطنيين حتى الفلاحين ، تركوا الارض في القرى لتبور ، وشركات أجنبية حولت الارض الزراعية الى مكاتب بالاسمنت المسلح . والموز الاسرائيلى طرد الموز المصرى من السوق . والشامبو الامريكى اكتسح واختفى الصابون النابلسي . وغرق الناس في العرق يجرون بغير استحمام وراء الرغيف .

المقاعد في مطار القاهرة أصبحت من البلاستيك المستورد وطليت بلون برتقالى .

عمال النظافة في المطار يرتدون بدلا أجنبية ، يكنسون الارض وعلى ظهورهم علقت أحرف انجليزية .

خيل الى انني في مطار آخر غير القاهرة . وأن هؤلاء

العاملات والعمال ليسوا مصريين وانما انجليز او امريكيين من ذوى البشرة السمراء . وربما استوردت حكومة السادات رجالا ونساء لعملية كنس الارض . ولم أكن رأيت من قبل رجلا انجليزيا أو أمريكيا يأتى ليكنس الارض فى بلد من بلادنا أو مايسمونها البلاد المتخلفة أو العالم الثالث .. العكس هو الذى كنت أراه ، وهو أن يذهب شبابنا لكنس شوارع العالم الاول .

المفروض أن تكنس كل بلد ارضها سواء كانت فى العالم الاول أو الثالث والمفروض أن ينظف كل انسان نفسه وبيته سواء كان حاكما أو محكوما رجلا او امرأة ، أبيض او أسود . فليس هناك امتهان للانسان اكثر من أن يغسل الملابس الداخلية لانسان آخر وان كان هذا الانسان الآخر هو الملك أو الامبراطور .

وأخذت اتأمل الحروف الانجليزية فوق ظهور الكناسين فى المطار بدهشة . وازدادت دهشتى حين علمت من احدهم انه ليس انجليزيا ولا امريكيا وانما مصرى صعيدى استأجرته شركة انجليزية أصبحت هى المتولية أمر تنظيف مطار القاهرة .

ويمكن لعقلى أن يتصور أن الحكومة قد تستعين بالخبرة الاجنبية فى مجال علمى عويص أو فى حل مشكلة تكنولوجية مستعصية ، ولكن أن نستعين بشركة انجليزية لكنس أرض مطارنا فلم يخطر ببالى أو خيالى .

ولكن هذا هو ما أوصلنا اليه حكم السادات ، وبعد أن كنا بصدد التصنيع الثقيل أصبحنا نعجز عن كنس مطارنا بأنفسنا ، أو اننا نكنسه بأيدينا تحت ادارة واشراف انجليزى . وكأنما نعلن على الملأ أننا لا نملك الا سواعدنا ، ونحتاج دائما الى عقل آخر غير عقلنا كى

يشغلنا ويديرنا .

وتذكرت فقرة قرأتها فى احدى الصحف فى نوفمبر ١٩٧٧ بعد زيارة السادات لاسرائيل ، وهى لمناحم بيجين قال فيها أن العلاقات الطيبة التى يمكن أن تنشأ بين مصر واسرائيل سوف تساعد على أن تستفيد كل بلد بامكانيات البلد الاخرى . واسرائيل فيها العقل ، ومصر فيها الايدى العاملة ، وبتعاون الاثنين معا : العقل الاسرائيلى والسواعد المصرية سوف يزدهر الكون .

ولابد أن بيجين كان يعنى بالكون أسرائيل !

والغريب أننى رأيت المنظر نفسه فى مطار جدة . رأيت العمال السعوديين يكنسون مطار جدة وقد علق الواحد منهم فوق ظهره لافتة حروفها انجليزية أو امريكية .

والاغرب من هذا أننى لم أر هذه اللافتة على ظهور الكناسين فى مطار دار السلام أو عدن أو داكار أو نيودلهى أو كولومبو أو حتى زنجبار جزيرة العبيد ..

***

الطائرة الفرنسية تنقلنى من باريس الى داكار . أحلق من الجو على مضيق جبل طارق . المضيفة الفرنسية الشقراء تضع أمامى صينية الاكل وزجاجة نبيذ ، ودفتر بأنواع الموسيقى ، وسماعات صغيرة أضعها فى أذنى ، وأحرك بطرف أصبعى « زر » مثبت فى المقعد ، وأسمع بيتهوفن أو شوبان أو موزار . احرك طرف اصبعى قليلا فوق « الزر » فتتغير القناة واسمع موسيقى الجاز . اثنى عشر قناة مختلفة تنقل الى وأنا فى الجو اثنى عشر نوعا من الموسيقى ، ابتداء من السيمفونيات الكلاسيكية الى رقصة الكونجو فى افريقيا

على الشاشة امامى يعرض فيلم أمريكى « الحب

والجريمة » طلقات الرصاص وخيول تقفز فوق جبال واغتصاب جنسي لفتاة زنجية .
أنام ثم أصحو علي صوت المضيفة يعلن بالفرنسية أننا نهبط في داكار . شمس حارقة ، وتراب ورائحة العرق ، وأجساد راقدة علي الارض . حملتني سيارة الامم المتحدة الي الفندق الضخم المطل على البحر . وحول أطباق اللحم المشوي وكئوس النبيذ المثلج جلست وسط خبراء الامم المتحدة وفي جيب كل خبير مشروع جديد للتنمية .
منذ عملت بالامم المتحدة وأنا أشهد هؤلاء الخبراء الدوليين . لم أكن أعرفهم على حقيقتهم ، وكانت كلمة « خبير » حين ترن فى أذنى تصيبنى بالرهبة .
كنت لا ازال أعمل بالحكومة المصرية ، وما أن يأتى أحد من هؤلاء الخبراء لمقابلة الوزير حتى ترتعد فرائص الوزارة كلها . وتنتقل الى الرعدة بالعدوى . واجلس أمام « الخبير الدولى » منكمشة فى مقعدى ، مرهفة الاذنين ، أخشى أن تفوتنى كلمة أو درة من تلك الدرر التى يمكن أن تتساقط من فمه . وكنت اتهم نفسى بالغباء حين لا أفهم شيئا مما يقوله الخبير الدولى ، ولا أعرف الصلة بين ما يقوله وبين مشكلة الجوع فى مصر أو الهند ، والتى تخصص فيها وهو يعيش فى نيويورك أو باريس ويتغذى غذاء كاملا ، وحين يزور مصر أو الهند ينزل فى فندق هيلتون أو مينا هاوس . الى أن أتاح الله لى الفرصة الكاملة لمعرفة هؤلاء الخبراء العالميين فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم الدولية والتى فيها يمرحون ويسرحون ويسوحون بالعالم الثالث ، وكل همهم هو أن يحلوا لنا نحن الفقراء مشكلة الجوع . وفى كل مؤتمر

احضره أندهش لهذا الكم الهائل من حفلات العشاء والكوكتيل ، وهذا الحماس النادر لمشكلة الجوع من فوق الاطباق المملوءة باللحم والدجاج .
لم أكن أحضر الحفلات ، ولا أتزين أو أرتدى الملابس الانيقة كالخبيرات الدوليات ، وهيئتي كانت تتخذ دائما شكل امرأة من فقراء العالم الثالث ، فاذا بخبراء الامم المتحدة يندهشون ويعتبرون وجودى بينهم كالشيء النشاز .
لكن حديثهم يفيض حبا للفقر والفقراء ، ولا يكفون من الحديث عن الجوع في اجتماعاتهم وحفلاتهم وأوراقهم وبحوثهم وما أن يرون جائعا او فقيرا حتي يتأففون .
وكنت اجلس بين هؤلاء الخبراء اتأملهم واسمعهم ، كموظفي الحكومة ، لهم شكل واحد ، ولهم طريقة واحدة في النطق ، وفي حركة الشفاة والعينين واليدين بل ان شكل حقائبهم واحد ، ونوعها واحد « من السامسونيات » والاوراق داخلها أيضا شكلها واحد ، وتقاريرهم صيغتها واحدة .
وكنت أقول أن موظفي الحكومة لهم عذرهم ، فالحكومة تسك الموظفين كما تسك النقود ، أما الخبراء الدوليون فمن الذي يسكهم ليصبح الواحد منهم نسخة من الآخر ؟!
وأدركت أن المنظمات الدولية حكومة أخري ، قد تكون حكومة فوق الحكومات أو تحتها ، وقد تكون حكومة الظل ، لكنها لا تختلف عن أى حكومة اخرى ، الداخل فيها مفقود وان كسب آلاف الدولارات ، الخارج منها مولود رغم الفقر والجوع .
في فندق داكار الفخم المطل على المحيط الاطلسي

جلست وسط هؤلاء الخبراء الدوليين . عرض أحدهم مشروعا جديدا للتنمية في السنغال . ميزانية المشروع ١٢٦ ألف دولار ، قسمت كالآتي :

مرحلة اولى

العام الاول

٤١ الف دولار اجر الخبير فى السنة .

٢٠ الف دولار أجر مساعدة الخبير فى السنة .

٥ آلاف دولار لشراء سيارة للخبير .

١٥ الف دولار أجر لسائق الخبير فى السنة .

٥ آلاف دولار مصاريف طبع التقارير .

١٠ آلاف دولار شراء أجهزة تكنولوجية حديثة .

مرحلة ثانية

العام الثانى

٣٠ ألف دولار مصاريف عقد مؤتمر فى نيويورك لمتابعة المشروع .

المجموع : ١٢٦ الف دولار امريكى .

اخرجت من جيبى تقريرا من تقارير الامم المتحدة عن النتائج الخمسة الاساسية لمشروعات التنمية فى العالم الثالث . وضعت التقرير أمامهم . يتلخص التقرير في الآتى :

اتضح من الدراسات التى وردت الى الامم المتحدة عن مشروعات التنمية فى افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية خلال عقد التنمية ان هذه المشروعات باءت كلها بالفشل، وأن نتائجها كانت عكسية كالآتى :

١ ـ ازدياد الهوة بين بلاد العالم الاول وبلاد العالم الثالث .

٢ ــ ازدياد الهوة بين الفقراء والاغنيــاء فى البلد الواحد .
٣ ــ ارتفــاع المستــوى الاقتصادي لخبراء الامم المتحدة .
٤ ــ انخفاض الانتاج الزراعي والصناعي والثقافي في بلاد العالم الثالث .
٥ ــ تضاعف أرباح مصانع التكنولوجيا فى العالم الاول .

تركوا كئوس النبيذ ، ووضعوا النظارات فوق عيونهم ، يتشككون فى صحة التقرير ، ويتساءلون : ماهو مصدر هذه المعلومات ؟

والمصدر هو الامم المتحدة ذاتها . يرتفع الحاجب فوق العين باندهاش . يركبون العدسات مرة أخرى فوق العين . يتأكدون أن المصدر هو الامم المتحدة ، والختم ليس مزورا والتوقيع صحيح .

يمسكون كئوس النبيذ مرة أخرى ، ويرفعون عيونهم نحو السماء ، كأنما فى انتظار الوحى أو الالهام . يرشفون على مهل ثم يعترفون بصوت حزين أن مشروعات التنمية فشلت فعلا ، ويتساءلون عن السبب .

وفجأة يهب أحدهم واقفا ، عيناه تلمعان بالحماس والنبيذ معا ويصيح : الانفجار السكاني !

ويردد الجميع بصوت منتشى : نعم الانفجار السكاني !

وبصوت هادىء رصين يعتلى أحدهم المنصة ويقول : منذ انعقاد أول مؤتمر عالمى للسكان تحت اشراف الامم المتحدة فى بوخارست عام ١٩٧٤ لم ينخفض معدل نمو سكان العالم الا ٣ر٠٪ فقط ، من ٢٪ سنويا الى ٧ر١٪ سنويا .

يتنهد الجميع وترتخي عضلاتهم تماما .

ويواصل الخبير كلامه : المشكلة ياسادة أن خصوبة نساء العالم الثالث تزداد على حين تفقد الارض خصوبتها .. وتشير تقديرات البنك الدولي وتقارير الامم المتحدة أن عدد سكان الارض زاد في السنين العشر الماضية ٧٧٠ مليون نسمة ، وأصبح عدد البشر اليوم ٤٫٧٥ مليار . وسوف يتضاعف هذا العدد عام ٢٠٢٥ ليصبح ٨٫٣ مليار بشر منهم ٧ مليارات في بلاد العالم الثالث .

ويلتهم الخبير قطعة من فخذ الدجاجة المشوية ثم يقول : ان الفشل في ضبط معدل نمو السكان في العالم الثالث ستكون له نتائج خطيرة ، انتشار الجوع والبطالة وتشوهات البيئة والنمو السرطاني في المدن ، وازدياد العنف والارهاب وعدم الاستقرار العالمي . ان استمرار نمو خصوبة النساء في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية سيقودنا الى عالم بلا أمل ، تهدده المجاعة والفوضى وقانون الغاب ، عالم يمتلىء بالاسلحة المدمرة على شكل أفواه بشرية جديدة تطلب الطعام . وفي افريقيا السوداء ارتفعت خصوبة النساء . مثلا في كينيا اصبح متوسط عدد الإطفال الذين تلدهم المرأة الكينية ٨ اطفال ، كما ان ارتفاع المستوى الصحي أدى الى انخفاض في معدل وفيات الاطفال وبالتالي يمكن أن يرتفع عدد سكان كينيا من ٢٠ مليونا اليوم الى ٨٣ مليون نسمة عام ٢٠٢٥ ، وفي بنجلاديش بلغ معدل خصوبة النساء « أي متوسط عدد الاطفال الذين تلدهم المرأة في عمرها كله » ٦٫٣ ، وهذا يعني أن سكان بنجلاديش سيصل عددهم الى ٢٦٦ مليونا عام ٢٠٢٥ أي ثلاثة اضعاف العدد الحالي .

ومعدل الخصوبة فى الهند ٤ر٧ ، وفى عام ٢٠٢٥ سيصبح عدد سكان الهند ٥ر١ مليار نسمة . أما المرأة الامريكية والاوربية الغربية فان معدل خصوبتها ليس الا ٦ر١ طفل . وهكذا نري أن سوء الاحوال فى بلاد العالم الثالث يعود الي زيادة الخصوبة لدى النساء ، وأن الزيادة فى معدلات النمو الاقتصادى فى هذه البلاد تأكله الافواه التى تنتجها أرحام النساء . وتزداد الهوة بين مستوى الدخل فى العالم الثالث والعالم الاول . مثلا فى الفترة من عام ١٩٥٥ حتي اليوم ارتفع متوسط دخل الفرد فى أمريكا من سبعة آلاف دولار سنويا الى ١١٥٠٠ دولار ، اما فى بلاد العالم الثالث فلا يزال دخل الفرد يتراوح ما بين ١٧٠ دولارا سنويا الى ٢٦٠ دولارا. وهكذا تضاعفت الفجوة بين بلاد العالم الاول وبلاد العالم الثالث والسبب فى ذلك يرجع الى خصوبة المرأة فى هذه البلاد المتخلفة . باستثناء بعض البلاد مثل تايلاند والصين حدث انخفض معدل النمو فى السكان فى السنين الاخيرة بسبب تصميم هذه البلاد على تنفيذ برامج صارمة لتنظيم الاسرة .

ويرن فى القاعة سؤال : ماذا تقصد ببرامج صارمة ؟
ويهمس خبير : عمليات قتل الاطفال البنات فى الصين ؟

ويعترض خبير : لا ، انه اباحة الاجهاض . ويرد آخر لا ، انها عمليات التعقيم للرجال والنساء دون تفرقة بين الجنسين . ويقول خبير : لا هذا ولا ذاك ، انه انشاء وحدات تنظيم الاسرة . فى تايلاند وحدها ٤ آلاف وحدة لتنظيم الاسرة .

ويعترض آخر : لكن هذه الوحدات تتكلف اموالا كثيرة . عندى تقرير من البنك الدولى يقول ان العالم

الثالث يحتاج الي ٦ر٧ مليار دولار من اجل انشاء وحدات لتنظيم الاسرة .

ويصيح خبير من أمريكا : هذا مبلغ ضخم جدا . كيف ندفع ٦ر٧ مليار دولار لمجرد خفض معدل خصوبة نساء العالم الثالث ؟

ويرد خبير من الهند : ولكن العالم ينفق سنويا على التسليح ٦٠٠ مليار دولار ، وايهما أهم انتاج أسلحة لقتل البشر في الحروب أم انتاج وسائل لمنع ولادة البشر .

ويقول خبير من باكستان : كلاهما قتل للروح وهذا حرام عند الله .

ويرد خبير : الافضل قتل الجنين قبل أن يتكون في رحم الام بدلا من قتله في الحرب .

ويقول واحد : الافضل أن نمنع دخول الحيوان المنوى الى رحم المراة من خلال الاتصال الجنسي .

ويقول آخر : هذا صعب ، والاسهل استئصال رحم المراة ، أو سد قناة « فالوب » حيث يجتمع الحيوان المنوى بالبيضة . ويرد الخبير من أمريكا : الافضل منع تعدد الزوجات وتعدد العلاقات الجنسية ، فالرجل الواحد يخصب عشرات النساء . ويصيح الخبير من باكستان : لقد أباح الله للرجال تعدد الزوجات ومن ملكت اليمين .

ويتساءل خبير من السويد : ما معنى « من ملكت اليمين » .

ويرد الخبير الباكستاني : يعني الجواري والعبيد من النساء .

ويصيح الخبير السويدى : هل لا يزال عندكم عبيد ؟

الم يتم تحريم العبيد منذ القرن الماضى ؟
ويرد خبير من فرنسا : اتعرفون السبب الاساسى للانفجار السكانى فى بلاد العالم الثالث ؟
ويهتف الجميع : ماذا ؟
ويرد الخبير الفرنسي : انه تعدد الزوجات وتحت يدى تقرير يقول أن معدل المواليد بين المسلمين أكثر من غيرهم .
ويتهيج الخبير الباكستانى ويقول : ليس الاسلام باسادة ولكنه فشل مشروعات التنمية .
ويتساءل الامريكى : ولماذا تفشل مشروعات التنمية؟
ويرد الهندى : لان هذه المشروعات لا تلبى احتياجات بلاد العالم الثالث وانما تلبى احتياجات بلاد العالم الاول .
ويتساءل السويدى : ولماذا لا تلبى المشروعات احتياجات العالم الثالث ؟
ويرد الهندى : لان الذى يضع هذه المشروعات هم خبراء العالم الاول وليس خبراء العالم الثالث .
ويتساءل الامريكى : وأنت ؟ السـت خبيرا من خبراء العالم الثالث ؟
ويرد الهندى : نعم ، ولكنى أعيش معك فى نيويورك ولا أنتمى الى العالم الثالث .
ويضحك الجميع ، يدق رئيس الجلسة على المائدة معلنا انتهاء المؤتمر ، ويصدر الجميع قرارا بعقد مؤتمر آخر لمناقشة المشكلة ذاتها خلال الصيف القادم على جبال سويسرا ، ويتقرر اعتماد مبلغ ٩٥ الف دولار لهذا المؤتمر الجديد .

***

التقيت بفتاة اسمها « آن » . رأيتها تركب دراجتها

البخارية في الشارع المطل على المحيط . ملامحها دقيقة وبشرتها بلون البن المحروق . وعمرها خمسة وعشرين عاما . أمها سنغالية تزوجت رجلا من ساحل العاج . أنجبت منه ٧ أطفال ثم تركها . عاشت « آن » مع أمها واخواتها ثم جاءت الى داكار لتعمل بالصحافة . ادخرت من أجرها واشترت الدراجة البخارية . طافت ببلاد غرب افريقيا ، تدرس أوضاع المرأة .

ذهبت معها الى متحف داكار بجوار المبنى الضخم لمجلس الامة . قادتني الى غرفة واسعة بها تماثيل لرجال ونساء افريقيات . لاحظت أن النساء أكبر حجما من الرجال في قبائل « سينوفوكوروجو » في مالي وساحل العاج . رأيت تمثال امرأة ضخمة الجسم والرأس الى جوارها زوجها اصغر حجما .

وقالت آن : رأيت هذه القبائل في مالي وساحل العاج والمرأة هناك أقوى من الرجل ، وتشتغل في الحقل والبيت ، والرجل كسول لا يكاد يعمل شيئا . وتذكرت القبائل التى رأيتها في جنوب الهند حيث تشتغل المرأة وتعول الاسرة والرجال يرقصون حول الاله شيبا ويتزينون بالحلي والمساحيق .

وقالت آن : أمي هى التى كانت تشتغل وتعولنا .

خرجنا الى الشارع وسرنا نحو المحيط . ملامح أهل السنغال شديدة الجاذبية . البشرة بلون الكاكاو والابتسامة المشرقة والقوام المشوق . احساس بالسلام والامان فى أى مكان ، بعض الناس يتكلمون العربية ، ومجموعة من النساء يصلين فى العراء . رجل فى جامع يؤذن لصلاة الظهر . طفل صغير يقترب منا ويطلب فرنكا .

وصلنا الى المركب الذي سياخذنا الى جزيرة جوريه تحركت السفينة وابتعدت عن شاطيء داكار . تحرك الهواء واصبح منعشا باردا . جزيرة جورية تبدو من بعيد فى وسط المحيط الاطلسى كالصخرة . آن الى جوارى . شعرها الاسود الخشن على شكل ضفائر صغيرة كثيرة ملتصقة بالراس . انفها الحاد مرتفع وفى ارتفاعه شموخ وقوة . وقالت آن : ساحكى لك قصة سمعتها من امراة افريقية فى ساحل العاج :

« منذ زمن بعيد أراد الاله العظيم فى السماء احدا يساعده فى عمل شيء ، فنادى على النساء . لكن النساء كن مشغولات بالعمل فى زراعة الارض وخض اللبن لاطعام الصغار وتغطية الكوخ بالطين منعا للرياح . ونادى الرب عليهن قائلا : تعالوا هنا ، سوف أرسلكن فى مهمة كبيرة لكن النساء اجبن قائلات نعم ، سنحضر ، ولكن انتظر لحظة حتى ننتهى من اعمالنا . وبعد فترة نادى عليهن الرب مرة اخرى ، وأجابت النساء مرة أخرى قائلات : انتظر لحظة حتى ننتهى من عمل الطعام وسقف الكوخ . وكان الرجال فى ذلك الحين لا يحلبون البقر ولا يبنون الاكواخ ولا يبحثون عن وقود ولا ماء مثل ماكانت النساء تفعل . كان عملهم الوحيد هو اقامة سور حول البيوت . ولانهم كانوا بلا عمل تقريبا فقد أسرعوا لتلبيــة نداء الرب قائلين : « أرسلنا يا ابانا بدلا من النســاء » . وهكذا اتجه الرب الى النساء وقال : أيها النساء سوف لا تنتهى أشغالكن الى الابد ، فاذا ما انتهى عمل جاءكم عمل آخر . اما الرجال فسوف ينالون الراحة لانهــم سمعوا ندائى حين ناديت ، ولكن أنتن يا نساء فســوف

تعملن وتشقين بلا راحة حتى نهاية اجلكن . وظلت حياة النساء منذ ذلك الحين عمل وشقاء وكدح . ومر الزمن. وجاء يوم جاء فيه رجال أجانب ومعهم كتب وحبوب وبنادق . رحب بهم الرجال الذين كانوا فى راحة دائمة وبدأ الرجال ينقسمون الى قسمين : قيادات لا تعمل . وعبيد يعملون بغير انقطاع . وتدرب العبيد على احترام العمل عن طريق دفع الضرائب . أما النساء فقد واصلن عملهن دون أن يلتفت اليهن احد . وفى النهاية طلبت النساء من ابنائهن واخواتهن وأزواجهن أن يعوضوهن عن جهدهن فى العمل . لكن الرجال ذكروهن بأن الرب قد كتب عليهن أن يكن خادمات للجنس البشرى . وقالوا أن الكتب التى جلبها الاجانب تؤكد أيضا أن مكانة المرأة تحت الرجل . وزمجرت بعض النساء قائلات أن : أعظم عقاب هو أن يكون الانسان فقيرا وامرأة . ونساء اخريات بدأن يبحثن عن طرق للتحرر .

وانتهت آن من قصتها وضحكت . أسنانها البيضاء تلمع فى وجهها الاسود . عيناها تلمعان كأسنانها . توقفت المركب عند شاطىء الجزيرة . قفزت « آن » من المركب الى الارض بخطوة واحدة . جسمها طويل نحيف كراقصات الباليه . تمشى رافعة رأسها مملوءة بالثقة والكبرياء .

صعدنا الى القلعة العالية المطلة على المحيط ، وجلسنا على حافة الصخر نطل على ارض السنغال من بعيد . وقالت آن : من هذه الجزيرة قيدوا جدة أمى وأرسلوها الى امريكا . ولهذه الجزيرة تاريخ قديم ، منذ القرن ١٥ ، حين بدأت البرتغال وأسبانيا البحث عن طريق

جديد عبر البحار . كان العرب يسيطرون على الطريق الذى يؤدى الى الشرق حيث كانت الثروات . وفى عام ١٤٤٤ وصلت سفن البرتغال الى هذه الجزيرة وسموها جزيرة « يالما » ، جعلوها مقبرة لدفن موتاهم ، ثم حولوها الى مركز للتجارة مع افريقيا . وفى نهاية القرن ١٥ جاء الفرنسيون واطلقوا على الجزيرة اسم جوريه ، وبنوا عليها هذه القلعة على التل ، وقلعة اخرى على الشاطىء . وبالرغم من هاتين القلعتين غزا البرتغاليون الجزيرة فى عام ١٦٥٩ ، ثم غزاها الانجليز فى عام ١٦٦٤ ، وبعد عشرة شهور طرد الفرنسيون الانجليز منها ثم جاء الهولنديون مرة أخرى وطردوا الفرنسيين . وظلت الحروب تدور فوق الجزيرة بين بلاد أوروبا حتى استولى عليها الانجليز عام ١٦٩٧ . واندلعت الحرب مرة أخرى واحتلتها الشركات الفرنسية التى أفلست بسرعة ، وظل الحاكم الفرنسي فوق الجزيرة وتعاون مع صاحب سفينة حملته الى امريكا ومعه ستين عبداً افريقيا . لكن صاحب السفينة تركه فى قارب صغير فى عرض المحيط وهرب مع العبيد الى امريكا . أما جزيرة جوريه فقد ظل يعيش فوقها نسل مختلط من أوروبا وافريقيا ، ونساء الجزيرة كانت لهن قوة وجبروت مثل نساء قبائل السينوفو كوروجو فى مالى وساحل العاج . وكان يطلق عليهن اسم « سيجنار » ، تزوجهن حكام الجزيرة ، ونشطن فى التجارة وأصبحن من ذوات الثراء الكبير والنفوذ . وفى عام ١٧٤٩ كان سكان الجزيرة ٦٦ شخصا فقط ملكوا ١٣١ عبداً ، وفى عام ١٧٦٧ وصل عدد السكان الى ١٠٠٠ شخص ، تضاعف الى ٢٠٠٠ شخص فى عام

١٧٨٦ . واستولى الانجليز على الجزيرة بعد حرب السبع سنوات من ١٧٥٦ - ١٧٦٣ ثم عاد الفرنسيون اليها عام ١٧٨٩ ، وعين الملك لويس السادس عشر حاكما فرنسيا على السنغال كلها . ثم غزا الانجليز الجزيرة مرة أخرى خلال حرب سنة ١٨٠٤ حتى سنة ١١٨٧ ، وسمحوا لاهل الجزيرة أن يبنوا بيوتهم من الحجر على الشاطىء الذى حرمه الفرنسيون عليهم وأطلقوا عليه اسم « رصيف الملك » . وأسس الانجليز مع أهل جوريه مدينة بانجول . ثم استولت فرنسا على الجزيرة مرة أخرى عام ١٨١٥ ، وتمتعت جوريه بتسهيلات التجارة كميناء حر ، ونشطت التجارة من سنة ١٨٤٠ بعد اكتشاف زيت الفول السوداني ، ووصل عدد السكان الى ٦٠٠٠ شخص منهم ٤٠٠٠ عبد افريقى لم يتحرروا الا فى عام ١٨٤٨ .

وانتهت « آن » من قصة جوريه ، وتركنا القلعة وهبطنا الى بيت العبيد الذى أصبح متحفا الآن .

الدور العلوى من البيت كان مخصصا لتجار العبيد . الدور الارضى مقسم الى غرف . غرفة الوزن حيث كانوا يضعون العبد فوق الميزان كما توزن الماشية . اذا كان العبد أقل من ٦٠ كيلو جراما يحبسونه فى غرفة أخرى فترة من الزمن ويطعموه حتى يسمن .

غرفة العبيد من النساء مكتوب عليها عبارة باللغة الفرنسية . معناها أن « قيمة المرأة بثدييها » كانوا يفحصون ثديي المرأة ليحددوا ثمنها قبل البيع . أما الرجل فكانوا يفحصون أسنانه . وهناك غرفة لفصل الاطفال عن أمهاتهم . فى قاع البيت باب يؤدى الى المحيط ، يربطون العبيد بالسلاسل ليسيروا فوق حاجز

خشبي الى السفينة . كان بعض العبيد يلقون بانفسهم في الماء فيغطس وراءهم الغطاس وينتشلهم ويعيدهم الى السفينة . عدد العبيد الذين ارسلوا الى امريكا ٢٠ مليون عبد ، وهناك رأى آخر يقول ان العدد ٢٠٠ مليون.

هناك بيت آخر مقابل لبيت العبيد . هو بيت امرأة من ذوات النفوذ والثراء اسمها السيجنار « آن بيبان »، كانت عشيقة الحاكم ، وبيتها على شكل مركب ضخم ، وكانت تسير في الشوارع في موكب يشبه موكب الملك . تحول بيتها الى متحف . لوحات ضخمة تغطي الجدران . احدى اللوحات عليها كلمات عربية كالاتى :

« سيجتمع سويا جميع القبائل الفلانية في مكة ويكون ذلك علامة لقيام الساعة » .

وعلى لوحة اخرى كتب : قبيلة « فلانى » اسمه « باح » البحر الابيض . بعد الاسلام غيروها الى كلمة « مكة » .

وآيات من القرآن معروضة داخل علب من الزجاج ، وسلاسل حديدية صدئة كانت تستخدم لربط العبيد . سفينة طويلة رسم عليها العبيد راقدين في القاع كالسردين . لوحة كبيرة لامراة قوية ضخمة من نساء الامازون تمسك في يدها رأس رجل من الحكام . وقالت « آن » : العبيد من الرجال والنساء هم الذين حرروا انفسهم ولم يحررهم الاوربيون كما ذكروا في التاريخ . كان هناك جيش من النساء يحارب في القرن ١٩ ضد الجيش الاستعماري .

خرجنا نتمشى على الشاطيء ، وجلسنا الى مطعم صغير تعزف فيه فرقة موسيقية سنغالية . المغنى شاب

طويل نحيل يرتدي قميصا ملونا . يعزف على آلة تشبه العود ويغنى أغنية شعبية شائعة . لم أفهم كلمات الاغنية وترجمتها « آن » لى . تقول الاغنية أنه كان هناك فتاة جميلة صغيرة ، وفى ليلة زفافها خشيت أن يكتشف عريسها أنها ليست عذراء ، فجعلت فتاة عذراء ترقد مكانها فى سرير العرس . لكن أهل العريس اكتشفوا أمرها . وتنتهي الاغنية بانتحار الفتاة .

وقالت آن : هذه الاغنية لا تغنيها الا القبائل الابوية فى افريقيا وهى القبائل التى تستعبد المرأة وتجرى عملية الختان للبنات . لكن القبائل الامومية تنظر الى المرأة كانسان ، ولا تجرى للبنت عملية قطع البظر ، بالعكس، منذ تولد البنت تقوم الام أو الخالة بتنشيط البظر عن طريق التدليك لينمو ويزداد حجما وطولا . وهذه القبائل تعيش فى رواندا واوراندى ، ومالاوى وزامبيا وزيمبابوى ومالى . وفى أوغندة هناك قبائل « أنكولى » وقبائل « تورو » و « نيكولى » ، وفيها تحدث عمليات اطالة البظر ، وقبائل أخرى تساعد على تنشيط الاعضاء الاخرى للبنت كالشفرتين الداخليتين ، ومن هذه القبائل بوجاندا ، بوسوجا ، وبانيورو فى أوغندة أيضا . والى جوار هذه القبائل توجد قبائل أخرى تستئصل بظر البنت قبل البلوغ وتستئصل معه الاعضاء الخارجية كلها كما يحدث فى السودان والصومال وبعض قبائل كينيا والحبشة ، وفى هذه القبائل يصر أهل العريس على رؤية دم العذرية ليلة الزفاف على منديل أبيض . واذا ظل المنديل أبيض تعرض البنت للموت أو الانتحار ، كهذه البنت فى الاغنية .

كان الشاب السنغالى لازال يعزف على آلته ويغنى .

من حوله التفت الناس واخذوا يغنون معه ويرقصون .
بين الراقصين امرأة امريكية عجوز . تعيش في بيتهـا
على شاطىء الجزيرة منذ عشر سنين . اخذتنا الى بيتها
لنشرب الشاي . في فناء البيت شجرة ضخمة ، وفي
الغرفة الخلفية آلة كاتبة على منضدة منخفضـة وكرسى
منخفض مثل كراسي البوذيين . اسمها « سـوزى »
وعمرها ٧٥ عاما ، ولدت في سانتا بربارا على الساحل
الغربي لامريكا الشمالية . لها ثلاثة أحفاد من ابنتهـا
الوحيدة . وزوجها طلقته منذ ثلاثين عاما . وفى بهـو
البيت رايت رجلين جالسين على الارائك المصنوعة من
البوص . رجل سنغالى عاش فى أمريكا عشرون عاما .
ورجل أمريكى عاش في افريقيا عشرون عاما . السنغالى
يتكلم الانجليزية بطلاقة ، والامريكى يتكلم السـنغالية
بطلاقة . وعيونهم ترمقنى بدقة كأنما يحفظون ملامحى .
والمرأة الامريكية العجوز عيناها تلمعان من حين الى حين
شيء من الغموض يحيط بهذا البيت . يبدو لى فى لحظة
كانه وكر للجاسوسية . وفى لحظة ثانية يبدو كبيـت
للمرضى النفسانيين ، وفى لحظة ثالثة يغلف المكان نوعا
من الجمال النادر . هذا الجمال الذى يحيط بانسـان
عظيم له رسالة انسانية كبيرة .

وسألت المرأة الامريكية العجوز : ولماذا تركت وطنك؟
وقالت : جئت الى هنا فى رحلة سياحية ، واحببت هذه
الجزيرة ، وقررت أن أعيش فيها بقية حياتى .

قد تكون صادقة . فى عينيها لا أرى الكذب . لكنى
لا اصدق كل العيون .

بالقرب من مطار داكار جلست فى بيت الـكاتب
السنغالى سيمبينى عثمان . رجل متوسط العمـر ،

زحف الشيب الى شعره . بشرته سوداء وعظام وجهه افريقية . بين شفتيه يقبض على « البايب » أو الغليون . جلبابه ابيض وفى قدميه صندل مفتوح . زوجته الى جواره . . طويلة ضخمة سمراء . عيناها واسعتان تتكلم الانجليزية بلكنة امريكية . ولدت فى أمريكا وتعمل فى احد البنوك في داكار . سيمبينى عثمان يتكلم الفرنسية ولا يعرف الانجليزية . ابنهما شاب في العشرين ، جالس في البهو المقابل مستغرق فى مشاهدة التلفزيون الملون ، او فيلم من أفلام الفيديو .

دار الحديث حول الادب الافريقى ، والثقافة .

وقال سيمبينى عثمان : لم أتفق يوما مع فكرة سنجور عن « الزنجية » . ليس هناك ثقافة نابعة من الجلد الاسود وثقافة إخرى نابعة من الجلد الابيض . الثقافة تنبع من المخ ، وليس هناك مخ أسود ومخ أبيض . ولكن هناك شعوب فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية عانت الاستعمار بصرف النظر عن لون البشرة . ثم ان سنجور ليس هو مؤسس الزنجية . وانا لست مع سنجور ، وأى شىء يفعله سنجور فاشل ، وسياسته هنا كالسادات عندكم ، أما عبد الناصر فهو محبوب بين شعوب أفريقيا كلها . وقلت : هذا صحيح .

وقال : هل انت ناصرية ؟

قلت : لا .

قال : هل انت ماركسية ؟

قلت : لا .

وقلت : لا احب أن انسب نفسى لشخص مهما كان ، وانا مع العدالة والمساواة والحرية للمراة والرجل والوطن . عبد الناصر كان عظيما ، واخطاؤه ايضا كانت

عظيمة . وماركس كان مفكرا عظيما ، لكن افكاره ناقصة خاصة فيما يتعلق بوضع المرأة .

وقال سيمبينى عثمان : هذا طبيعى ، وليس هناك كلمة نهائية فى أى شىء ، وانا معك أن الاستقلال للاديب أمر هام ، لكنى اخترت أن اكون عضوا بالحزب الشيوعى السنغالى ، فالنضال السياسى من خلال الحزب هو الوسيلة الوحيدة لتغيير النظام ونحن فى حاجة الى تغيير الانظمة . ان كثيرا من الناس يتصورون أن السنغال بلد مستقل لان حاكمها رجل سنغالى اسود . لكن هؤلاء الحكام السود أشد خطرا من غيرهم لان الاستعمار يختبىء وراءهم .

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤١٥ ـ ١٩٨٦

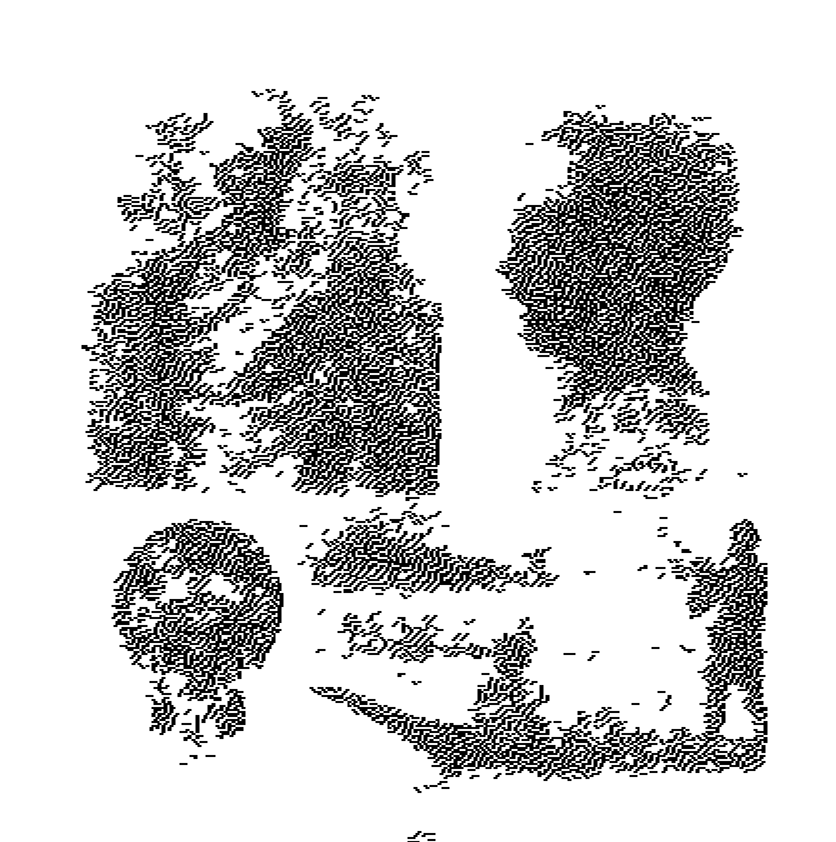
الترقيم الدولى × ـ ٢١٧ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧
ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش .

سوريا ٢٢٠٠ ق . س ، لبنان ٢٢٠٠ ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠ فلس ، العراق ٢٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢٠٠٠ مليم ، الخليج ١٥٠ فلس ، الصومال ١٥٠ بنى ، لاجوس ١٥٠ بنى ، عدن ٢٠٠٠ سنت ، لندن ٢٥ سنتا ، اثينا ٢٥٠ دراخمة ، كندا ٦٠٠ سنت ، البرازيل ٧٠٠ سنت ، استراليا ٧٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سودانى ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، غزة والضفة ١١٠ سنت ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشماليه ٢٠ ريالا ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .



هــذا الكتاب

في هذا الجزء الثاني من رحلاتها تواصل الدكتورة نوال السعداوى جولاتها فى بلاد العالم . وقد حملتنا معها فى الجزء الأول إلى أماكن مختلفة فى أوروبا وآسيا ، وعشنا معها رحلتها الأولى إلى الجزائر بعد الثورة ، وإيران قبل الثورة ، وحياتها مع الفدائيين الفلسطينيين فى الأغوار على حافة نهر الأردن . وسافرنا معها إلى النصف الآخر من الأرض فى أمريكا ، وأول رحلة لها إلى روسيا ومؤتمرات النساء فى شمال أوروبا ، ومتاحف باريس ولندن .

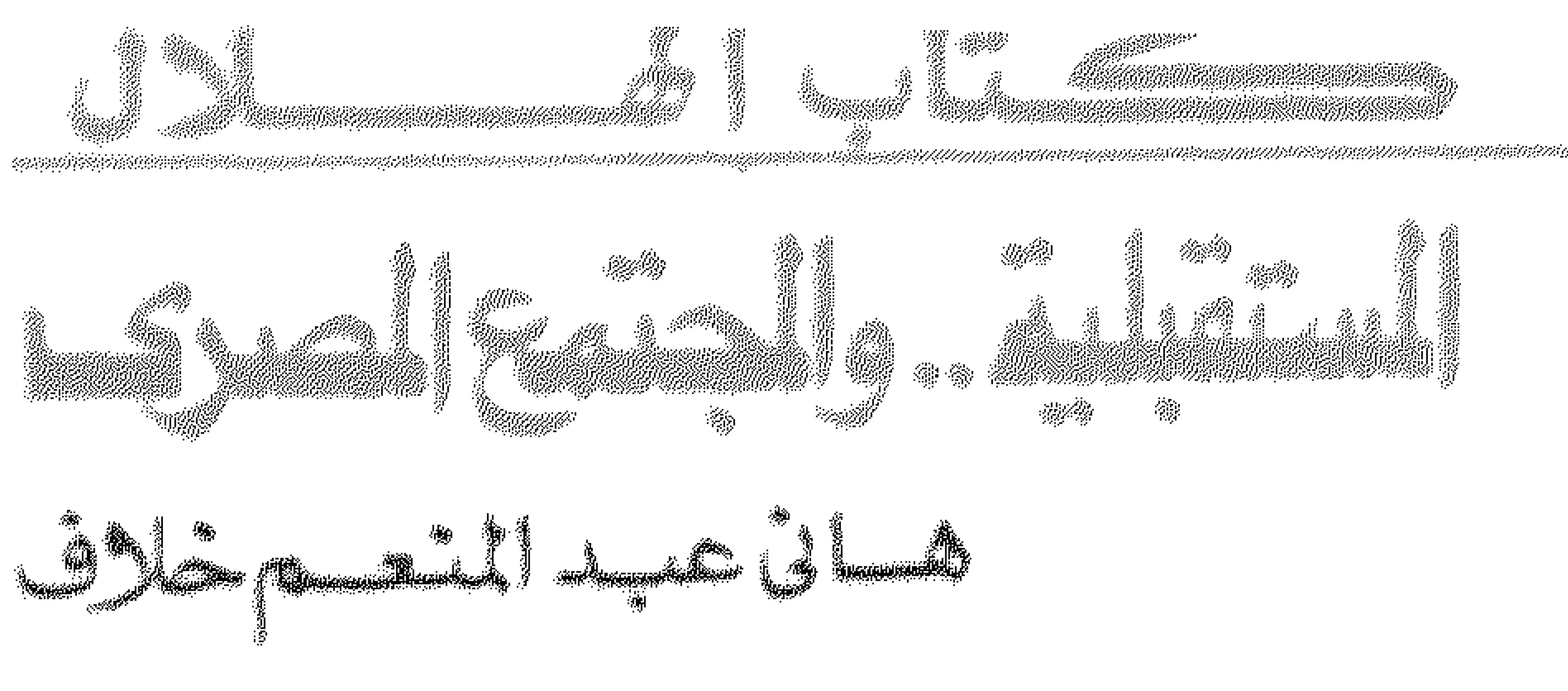
وتواصل الدكتورة نوال السعداوى بأسلوبها الخاص وقلمها المميز رحلتها الطويلة داخل الهند ، ذلك العالم الشاسع ، ثم تأخذنا معها إلى عوالم أخرى في قارة أفريقيا ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . نشهد منابع النيل وبحيرة فيكتوريا ، وندخل إلى الحبشة بعد الثورة ، ونتابع معها الرحلات حتى جزيرة العبيد على الساحل الغربى .

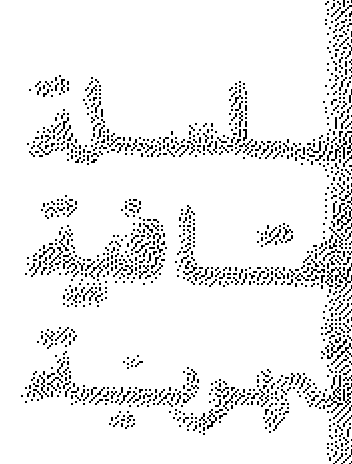
ندخل معها إلى المكان والانسان في آن واحد ، ونربط بين التاريخ والسياسة والأدب دون فاصل . نلتقى بالانسان العادى البسيط بمثل مانلتقى بأنديرا غاندى وكبار الحكام .

إنها رحلة ممتعة داخل النفس الانسانية بمثل ماهو رحلة إلى العالم البشرى الواسع .

الجزء الثانى

١٠٠ قرش


كتاب الهلال
المستقبلية.. والمجتمع المصرى
هانى عبد المنعم خلاف


سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٤ - رجب ١٤٠٦ - ابريل ١٩٨٦

NO 424 - APRIL - 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاستراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

· الغلاف بريشة الفنانة
ســــميحة حســــنين

المستقبلية والمجتمع المصرى

●

بقلم :
هانى عبد المنعم خلاف

●

دار الهلال

المستقبلية ....
بين رحابة المنهج العلمى ..
وقيود الفكر العربى

- موقع المستقبلية فى بنيان المعرفة العلمية
- موقع المستقبلية فى الفكر الشعبى المصرى
- المعـــالجة الاعلامية للمســـتقبل

موقــــع المستقبــــل في بنيان المعرفة العلمية

يلحظ المطالع لتاريخ الفكر الانسانى والحضارات المتتابعة تعدد ظواهر استشراف الانسان لآفاق الزمن المجهولة ، وتباين مناهجه ومحاولاته لاستفتاح مغاليق الغيب ، والتطلع الى مايغالب به حاضر الاشياء وواقع الحياة الى حيث الانس بالاحلام الوردية فى مستقبل مأمول .

فهناك عبر التاريخ توجد نظرات الحكماء الى المستقبل من قبيل « الطوباويات » أو المدن الفاضلة كما سماها الفارابى فى ترجمته لجمهورية افلاطون او كما صور فرانسيس بيكون فيما أسماه « اتلانتا الجديدة » .

وطريقة الطوباويين حين ينظرون الى المستقبل يفندوا عيوب الحاضر ثم يرسموا للمستقبل صوره منزهة عن تلك العيوب ، ولا سبيل عندهم الى تحديد وسائل التحول الى هذا المجتمع المثالى ، أو تحديد ما اذا كان قريبا ام بعيدا . . . موجودا بعد حين أم غير قابل للوجود أصلا .

وهناك احلام اليقظة التى يتعلق بها فكر الحكيم ويصوغها على مايرتضيه وكأنها ضرب من الرواية التى تحمل الواقع بحلية مستعارة من الخيال .

وهناك قدرة الحدس أو الفراسة التي يستعان بها على كشف المجهول من الغد ولكنها خصيصة فطرية وفردية ، تولد لدى البعض ولا تكتسب ، ولا يمكن ايجادها من عدم ، ولا يمكن الاعتماد على توافرها بين كل الناس فى كل وقت وفى اى موقع .

وهناك فوق ذلك رؤى الاديان للمستقبل النهائى حقائق « ستاتيكية » محتومة ، يتحرك اليها « المؤمن » بغير حول يستطيع منعها ولا قوة تستطيع التحوير فيها التعجيل بها أو الابطاء فى احداثها وليس « للمؤمن » مجال التعامل معها سوى التسليم بها كما انزلت شرح أبعادها وتفسير رموزها ، وفى بعض الاديان يطالب المؤمن بمحاولة اقناع الآخرين بها .

وبين هذا وذاك تسود فى كل العصور والاوطان عادات وسلوكات اجتماعية يحاول بها الناس بالوعى أحيانا وباللاوعى أحايين كثيرة ـ استشعار الانس بعلم الغد المجهول والتوهم بالاحاطة ببعض أبعاده وذلك فى اشكال عادات كثيرة ومتباينة تستخدم فى بعضها مواد الطبيعة كالرمل أو النار أو النجوم ، وفى بعضها الاخر اجزاء من جسم الانسان كالكف ، أو العين ، وتستخدم فى البعض منها أدوات ومواد مصنوعة « كالبن فىالفنجان»و«الاوراق المرسومة » ، و « الكزات البللورية » ، و « ايقاع الدفوف » .. وغير ذلك مما نعرف ومما لا نعرف من عادات الشعوب وطقوسها .. وأوهامها !

وحين بدات الآلة تفعل اثرها فى حياة الناس وتوسع امكانات قوتهم وحركتهم وتطلعهم بدات تظهر هناك منتوجات فكرية من نوع جديد يلفقها الفكر والخيال معا ويجمع فيها بين مشاكل الحاضر وقيود الواقع من ناحية

وأماني المستقبل وانطلاقاته المتصورة من ناحية أخرى وعرف ذلك فيما سمي في الادب الحديث بخيالات العلم Science Fiction ومن بين أشهر هذه المنتوجات التي عمرت بها أسواق الفكر والفن في أوروبا وأمريكا منذ الثلاثينيات في هذا القرن مؤلف دينس جابو « اختراع المستقبل » ومؤلف أرثر كلارك « صور جانبية للمستقبل » .

الا أن نوعا جديدا من ظواهر البحث في المستقبل قد شق طريقه الى دنيا الناس والفكر الانساني ابتداء من الربع الثاني للقرن العشرين نوع ليس من قبيل الطوباويات ولا من قبيل الاحلام ولا فراسة الحدس ، ولا شفافية الفطنة ولا الارتباط الديني . نوع من الجهد ليس للخيال ولا للاماني أو للرؤى الشخصية دور كبير فيه وانما يقوم على أساس من الحسابات العلمية المضبوطة والمحكومة بقياسات موضوعية مجردة . شأنها كحساب المهندس لحركات الجهاز المعروف بسرعته وطاقته . وتستهدف رصدا دقيقا لابعاد وظواهر محددة في مواقع محددة خلال فترات محددة . فهي اذ ذاك نوع من الرصد التمهيدي الواجب قبل الشروع في سياسات معينة واتخاذ اجراءات مناسبة للمكان أو الزمان . وصار لهذا النوع من البحث قواعد منهاجية وأصول وادوات ، واضحى أحد الاركان الاساسية لعمليات الحرب والسياسة والتجارة وغير ذلك .

هذا ما يسمى الآن بالدراسات المستقبلية أو علم المستقبلية .

متى بدأت دراسات المستقبل وكيف تطورت ؟

قد يكون عالم الاجتماع س . س جيلفان هو أول من

طرح اسسا للدراسات المستقبلية بمعناها الاصطلاحي المعاصر عندما اقترح عام ١٩٠٧ ان يسمى هذا الحقل من الدراسة : ميلونتولوجي , Futurology وهو اسم مشتق من الاصطلاح الاغريقي الذى يطلق على احداث المستقبل ، فقد كتب جيليفان فى هذا المؤلف يقول :

« ان هناك دعوة الى ايجاد « ميلونتولوجين » وهم دارسو المستقبل العام للحضارة ، تماما كما يوجد الارشيولوجيون الذين يفسرون العلاقات المتداخلة لحضارات ماقبل التاريخ » .

وقد حظى تعبير « ميلونتولوجى » بقبول متواضع فى ذلك الحين ثم صار فى طى النسيان . الا ان صاحبه ظل على قيد الحياة يدافع عنه بحماس حتى مشارف الستينيات ، عندما وصل الاهتمام بدراسات المستقبل الى مرحلة راقية ، فاستطاع جيليفان تذكير تلاميذه ببحثه السابق وتعبيره المقترح كاسم لحقل الدراسة منذ عام ١٩٠٧ .

وفى خلال عام ١٩٤٣ طرح أوسيب فلختايم ــ وهو استاذ للعلوم السياسية من أصل روسي ويحمل الجنسية الالمانية وقبض عليه النازى فى عام ١٩٣٥ لكنه تمكن من الهجرة الى سويسرا ومنها الى الولايات المتحدة ــ طرح اصطلاحا بديلا وهو : فوتورولوجى

أو المستقبلية وقال عنه « انه نظام علمى جديد منبثق عن وحدة تكاملية بين الزمن والحقائق المكتشفة وهذا النظام يتعامل مع نفس الاشياء بطريقة جديدة » «١» .

(١) انظر مقال : ادوارد كورنيش الرئيس العام لجمعية مستقبل العالم المنشور فى دورية الجمعية Futurist عدد فبراير ١٩٧٧ ــ ص ٤٤ .

وشـــهدت المجتمعات الامريكية والاوروبية منـــذ الاربعينيات طفرة كبيرة فى اعداد المؤلفات المنتمية الى هذا الميدان فظهر مؤلف هيرمان كاهان « عام ٢٠٠٠ » ومؤلف دانيال بل « فى الطريق الى عام ٢٠٠٠ » ومؤلف تشارلز جالتون داروين « المليون سنة التالية » ، وكتاب جورج سول « صورة الغد » وكتاب جورج راســـل « ماذا يكون الانسان بعد ذلك ؟ » .

وتعتبر هذه المؤلفات الفردية ــ فى وجهـــة نظـر المؤرخ لتطور المستقبلية ــ الارضية التمهيدية الكلاسكية التي وضعت بها بذور مايسمى « بالفلسفة المستقبلية » حيث كان الشغل الشاغل لمؤلفيها هو النظر الى المستقبل العام للانسان والانسانية ككل دون تحديد لهوية الظروف القومية أو السياسية ولا الشروط الفنية أو العملية التى تحيط بموضوع الدراسة .

وقد توالت بعد ذلك ــ وعلى وجه التحديد مع بداية الستينيات ــ موجات متتابعة من الانتاج المتخصص فى مجالات اكثر تحديدا وظهرت أجيال جديدة من رجـــال الدراسات المستقبلية المهتمين ببحث مستقبل المحاور الحياتية الرئيسية الحاكمة لصورة الحياة ومستواها فى المجتمع الامريكى بالذات كالتعليم ، والمواصلات والطاقه . وما الى ذلك . فظهر مثلا مؤلف أدريان نورمان وجيمس مارتين « مجتمع العقل الاليكترونى » ، كما ظهرت فى نفس الفترة سلسلة الفين توفلر فى المستقبليات والتى بدأها بكتاب « صدمة المستقبل » ثم أعقبها بمؤلفه عـن « التعليم من أجل المستقبل » ثم « الرجال المستقبليون » ثم « الوجه الثالث »

وقـــد تميزت دراسات المستقبل فى الستينيات

والسبعينيات فى هذا القرن عموما بأربع سمات رئيسية:
أولها : التركيز على الانتاج الجماعى ودراسات الفرق البحثية المتكاملة وتمويل ذلك من المؤسسات السياسية والعلمية والاقتصادية الكبيرة ذات المصلحة فى التعرف على الفرص الممكنة أو المتاحة لاعمالها مستقبلا مثال ذلك مؤسسة راند الامريكية ، ومؤسسة فورد ، ووزارة الدفاع الامريكية .
ثانيا : الاهتمام بتأصيل منهاجية الدراسات المستقبلية واستكمال أدواتها وتجريب المستحدث منها او المستعار من الميادين العلمية الاخرى . وقد ظهرت فى اطار هذا الاهتمام مؤسسات وجمعيات متخصصة للدراسات المستقبلية ومناهجها كمعهد الدراسات المستقبلية فى نيويورك Institute of Future وجمعية مستقبل العالم World Future Society ، « ومقرها واشنطن » والاتحاد الدولى للدراسات المستقبلية « مقره روما » ومركز الدراسات المستقبلية فى باريس ، وسكرتارية الدراسات المستقبلية « التابعة لمجلس الوزراء بالحكومة السويدية » .
ثالثها : الانتقال فى دراسة المستقبل من مرحلة الدراسات الموضوعية الى مرحلة تلقين منهج الرؤية المستقبلية من خلال عمليات التعليم المدرسى والجامعى . وقد بلغ مجموع المقررات الدراسية المتخصصة فى علوم المستقبل داخل المدارس والمعاهد الامريكية حوالى ٤١٥ مقررا دراسيا موزعا على ثمان عشرة ولاية امريكية .
رابعا : توسيع مجالات الاهتمام فى دراسات المستقبل لتشمل أوضاع العالم كله وخاصة بعد ثبوت اثر الوسائل العلمية الحديثة لربط اجزاء العالم فى مدى الاعتماد

والتأثر المتبادل بين المواقع المتعددة فى مجالات الامن بمعناه الاستراتيجى الواسع . فظهرت دراسات امريكية عن المستقبل النووى فى القارة الاسيوية وعن « مستقبل الطاقة فى العالم العربى » ودراسات اسرائيلية عن « مستقبل اقتصاديات الشرق الاوسط » ، ودراسات فرنسية عن « مستقبل الذاتيات الثقافية فى العالم المتشابك » وليس من المبالغة تقدير العدد الاجمالى لهذه الدراسات المتوافرة فى أنحاء العالم وحتى الآن ـ قياسا على المتوافر بمكتبة الكونجرس الامريكى حتى عام ١٩٧٤ ـ بأكثر من خمسة عشر الف دراسة علمية .

اختلاف التسميات :

وبعد هذا العرض التاريخى لتطور « الدراسات المستقبلية » فى العالم ابتداء من عام ١٩٠٧ وحتى الوقت الراهن ، نتقدم الآن نحو توصيف الماهية العلمية لهذا الحقل الجديد فى محاولة للتعرف على موقعه فى البنيان المعرفى ، والتأصيل النظرى لمنهجه وأدواته .

وأول مانلاحظه فى هذا الصدد افتقاد الاتفاق بين الباحثين على تسمية محددة « لعلم المستقبل » ولاشك أن غياب هذا الاتفاق يعكس اختلافا جوهريا حول ماهية الحقل الذى يدور فيه الموضوع ، فالتساؤل لايزال قائما وبرغم مضى أكثر من اربعين عاما على محاولة فلختايم الاولى تأصيل نظرية خاصة بعلم المستقبل ـ حول ما اذا كانت المستقبلية : علما أم فنا . أم فلسفة .. أم ماذا ؟ وهل يهتم رجال المستقبلية فقط بدراسة احتمالات المستقبل ، أم ينبغى عليهم المشاركة الفعلية فى خلق هذه الاحتمالات ان كانت ايجابية ، او تجنبها وتفاديها ان كانت سالبة ؟ .

وقد اجرت الجمعية الامريكية لمستقبل العـــالم World Future Society ومقرها واشنطن عن طريق مجلتها الشهرية التى تصـــدرها بعنـــوان « المستقبلى » « Futurist » استطلاعا للرأى العام بين أعضاء الجمعية وقراء المجلة وغيرهم من المهتمـــين بدراسات المستقبل وكان موضوع الاستطلاع هو : الاسم المناسب الذى ينبغى أطلاقه على حقل الدراسات المستقبلية وفق نظرة كل منهم ، وكانت الاجابات التى تلقتها ادارة الجمعية والتى نشرتها فى عدد فبراير ١٩٧٧ من الدورية على النحو التالى : ـ

الاسم المطـــروح	نسبـــة المؤيدين	نسبـــة المعارضين	نسبـــة المحايدين
FUTURE STUDIES	٪ ٢٩	٪ ٦	٪ ٦٥
FUTURE RESEARCHES	٪ ٢٥	٪ ١١	٪ ٦٤
FUTURISTICS	٪ ٢١	٪ ٣٦	٪ ٤٣
FUTUROLOGY	٪ ١٤	٪ ٤٤	٪ ٤٢
FUTURES ANSIYSIS	٪ ١٢	٪ ١٥	٪ ٧٣
FUTURICS	٪ ٧	٪ ٥٣	٪ ٤٠
FORECASTING	٪ ٦	٪ ٢٦	٪ ٢٨
PROGNOSTICS	٪ ٤	٪ ٤٦	٪ ٥٠
FUTURIBLES	٪ ٢	٪ ٦٠	٪ ٣٨

هل المستقبلية علم ؟

برغم اخفاق البروفيسور الشهير « نيومان » في التوصل الى تعريف كامل لماهية « العلم » وبرغم التجائه بالاستقصاء في ذلك الى اثنى عشر عالما من علماء المنهاج ، فانه يمكننا اعتماد ما انتهى اليه هؤلاء وغيرهم من بعض الاساسيات المتفق عليها في توصيف شروط البنيان العلمي على النحو التالي : ـ

* موضوع للمعرفة واضح وقابل للتحديد .
* منهاجية ذاتية اى مسالك للبحث والتحقق تنبع من طبيعة الظاهرة موضوع المعرفة .
* اطراد ثبات بعض العلاقات الداخلية القائمة بين عناصر الظاهرة بما يمكن أن يفيد في اكتشاف قوانين عامة تحكمها .

وأخذا في الاعتبار انتفاء هذه الشروط عن موضوع « المستقبلية » نبادر في البداية الى تقرير حقيقة أساسيه ـ لا يكاد يخفيها دارسو المستقبلية انفسهم ـ وهى أنها لا تمثل علما متكاملا ، فموضوع المعرفة فيها غير محدد ولا هو قابل للتحديد ، لانها تقوم مرة حول مسائل اجتماعية وتقوم في أخرى حول مسائل طبيعية ، قد يكون موضوع الرصد المستقبلي مثلا : مشكلة السكان .. وقد يكون التحرك السياسى .. وقد يكون : القوة الاقتصادية ، وقد يكون : طبيعة المناخ .. الخ .

وبديهى أن شرط وجود علاقات مضطردة الثبات بين وحدات الظاهرة يعتبر شرطا غير ذى موضوع ،حيث أن فكرة « الظاهرة » غير واردة اصلا .

ولكن هل ينتقص هذا من قيمة الاضافة الحقيقية

التى قدمتها المستقبلية للفكر الانسانى بالطبع لا .. ذلك أن المجال المعرفى لا يقتصر فقط على العلم بمعناه التطبيقى والعملى ، وانما يشمل الى جانب ذلك ميادين أخـــرى كالفلسفة ، أو المنطق ، أو المنهاج .

و « المستقبلية » ـ ان لم تكن علما بالمعايير الكاملة ـ الا أنها يمكن أن تكون فلسفة متكاملة ، أو منهاجا لابحث . وهى بالفعل كذلك .

المستقبلية كفلسفة :

المستقبلية كفلسفة ، تعتبر نظرة تقدمية وانسانية ، لانها من ناحية أولى : تدور حول رؤية الناس والاشـــياء والظواهر والانظمة دائما فى حركة ايجابية الى الامام .. ولانها من ناحية ثانية : تقوم على اعتبار أنسانى هام هو البحث فى حياة القادمين حلا لمشاكلهم وحرصا عـــلى استمرار النوع الانسانى .

يقول أوسيب فلختايم المسمى : « بأبى المستقبلية » : « أن المستقبل هو البعد الذى فيه سنكون بالضرورة . ولكنه أيضا البعد الذى سيكون فيه اطفالنا وافكارنا وتنشأ فيه حياة ملايين غيرنا ، ان الموت مشكلة كل فرد منا لكن موت الانسانية كلها لاشك هو المشكلة الاكثر رعبا وايلاما .. ويستطرد فلختايم فى فلسفته فيقول : « الفـــرد يموت .. حسنا .. لكن لماذا لا يحيا آخرون بطريقـــة أكثر انسانية » «(١)» .

ومن وجوه الثراء والخصب للفلسفة المستقبلية انهـــا

(١) من حوار اجرى معه ونشر فى الفيجارو الفرنسية يوم ١٨ مايو ١٩٧٤ ص ٦ .

تستطيع ان تضم تحت مظلتها العامة توجهات متباينة تنطلق من زوايا عديدة لكنها تصب جميعها فى فكرة اساسية هى الحرص على استمرار النوع الانسانى وتخليصه من وجوه القصور والعيوب والمشاكل التى يعانيها فى الحال او فى الاستقبال فبعكس منطق التجرد من الذات الفردية والحضور الشخصي الذى اتسم به فكر فلختايم على نحو ماسبق عرضه نجد دارسا آخر وفيلسوفا مرموقا من فلاسفة المستقبلية هو تشارلز جالتون داروين ـ حفيد العالم الشهير بنظرية النشوء والارتقاء ـ يقول فى ختام كتابه من « المليون سنة التالية » :

« اننى اعبر عن ميولى الخاصة فاقول اننى شديد الاهتمام بمصير العالم كله . واود حق الودادة . ان يكون لذريتى دورهم فيه .. ومهما يكن من نزاره العلم بالمستقبل فليس مما يقنعنى ان يكون مستقبلا تنقطع الصله بينى وبينه . وايا كان مصير الحياة الى السعادة او الى الشقاء بعد احبال ـ ولا مفر من الشقاء على اية حال ـ فانها لتجربة تستحق العناء .

وقد اثار البعض تساؤلا عما اذا كان علماء وفلاسفة المستقبلية يرصدون المخبوء فى مقبل الايام والعصور فقط أم لهم ان يشاركوا فى صنع هذا المستقبل بالعمل على تعجيل اللقاء به او العمل على تفاديه . وهنا تكمن الحساسية فى الاجابة . ذلك ان رجال المستقبلية ليسوا مجرد اخصائيين فى علوم الاحصاء او الاحتمالات الرياضية ولا هم مجرد معدى برامج للحاسب الاليكترونى وانما هم ذلك كله واكثر منه ، حيث يفترض فيهم توافر قدر من الرؤية الشاملة تعززها وتنميها فكرة المستقبلية

كفلسفة انسانية وتقدمية تلازم ـ أو ينبغي أن تلازم ـ كل من يعمل بأصالة وامانة فى هذا الحقل المعرفى الجديد .

وبرغم مايلاحظ فى كثير من الدراسات المستقبلية من ميل الى الحذر والتحفظ فى التقديرات والرغبة عموما فى عدم تجاوز مناطق العلم المتيقن والتطور المرصود عينا وعددا .. الا أن هناك من كبار فلاسفة العلوم من يرون أن « العلم ليس مجعولا للاخبار والمعلومات وحدها ثم ينقلب بعدها جهلا لا فائدة فيه ، وانما هو مجعول كذلك للفروض أو لما يسميه العلماء المتحرجون بالنظريات وانها لتلحق بكل علم من علوم اليقين وتسبق كل علم يتبعها وان لم يبلغ بعد مبلغ اليقين «١» .

وانطلاقا من هذا التصور اخذ رجال المستقبلية المتمرسين وعلى رأسهم أوسيب فلختايم ، وهيرمان كان، والفين توفلر يدعون فى مراحل متأخرة بحسب تطور الميدان المعرفى الجديد الى « ضرورة التوصل الى فلسفة عامة للمستقبل الانسانى ككل » وزاد فلختايم على رفقائه بالتأكيد على أهمية أن « تؤسس هذه الفلسفة العامة على الاراء والاوضاع الموجودة فى العالم كله ، فلا تقتصر على وجهات النظر الصادرة عن التقاليد والافكار الغربية فقط » وهو اتجاه تحمده له ـ ولاشك ـ شعوب العالم الثالث التى عاشت طويلا بعيدة عن المشاركة فى صياغة الامور العالمية الاساسية .

---

(١) عن كتاب الاستاذ عباس العقاد : القرن العشرون ما كان وما سيكون نشرته الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٠ .

ومثل هذه الفلسفة المستقبلية العالمية العامة ــ حين تتكامل لها عناصرها ومقوماتها تستطيع في تقدير الكثيرين أن تقوم بما لم تقم به حتى الان كل من الاديان الطائفية أو الفلسفات القومية السائدة أو المذاهب العنصرية ، بل انها تستطيع ــ وهذا يتوقف على مقدار شمولها ومدى تعبيرها عن مختلف المصالح والمواقع والحضارات الانسانية القائمة ــ أن تحقق تجاوزا لعمل ومفهوم التنظيم الدولى بأوضاعه الراهنة ــ الى حيث آفاق جديدة أرحب وأخصب ليس الا واحدا منها أفق التعامل المنتظر بين الكوكب الارضى والعوالم والكواكب الاخرى .

والمستقبلية كفلسفة لها على وجه التعميم عدة محاور تبحث فيها وحولها وابرز هذه المحاور : فكرة التغير ، ومعايير حساب الزمن ، ومعنى الكمال والنقص ، وقدرة العلم وحدوده ، ودور كل من المشيئة الالهية والارادة البشرية فى صياغة المصائر ، وموقع الصدفة والمفاجأة فى التاريخ ، وموقع الانسان والارض من النظام الكونى ، والمسئولية الاخلاقية فى علاقات الاجيال ، ونمط الدورة التاريخية واتجاهها : هل هى تراجعية أم تقدمية ، أم تكرارية ، أم ثابتة ؟ والرؤى المختلفة لفكرة البعث والخلود وتطور احتياجات الانسان المادية والمعنوية ، ومعنى الرفاهية ومشاكلها .. الخ .

وبهذا الاطار الرحب الذى نفهم به المستقبلية كفلسفة قد يجوز لنا القول بأن كتابات عربية عديدة قد أسهمت ــ من حيث لا تدرى ــ أو لعلها تدرى بغير أن تعلن ــ فى الاضافة الى هذه الفلسفة المستقبلية .. وعلى متابعى هذا الحقل المعرفى الجديد من أبناء العرب بذل المزيد من

الجهد فى استجلاء ثم اجلاء هذه الاضافات العربية الهامة والاعلان عنها فى محافل الدراسات المستقبلية كى نحفظ للعرب والعروبة مكانا مرموقا فى مسيرة هذا الحقـــل المعرفى المزدهر .

المستقبلية كمنهاج :

أما المستقبلية كمنهاج فهى فى الواقع الاضافة الحقيقية التى يمكن أن تكون علامة من أكثر علامات المعرفة اشعاعا فى القرن العشرين . وقيمة هذا المنهج تكمن فيما يقدمه من تيسيرات جديدة لعمليات التخطيط والبرنمة وتأمين دقتها وفعاليتها وخاصة فى المدى الاطول .

ماهى اذن خصائص المنهاجية المستقبلية ؟ وما هى حدودها وشروطها ؟ ثم ماهى الطرق والادوات الفنية التى تعمل من خلالها ؟.

١ ـ أول الخصائص المنهاجية فى دراسات المستقبل هى اتساع الاماد الزمنية موضع الرصد واختــــلاف المعالجات الخاصة بما يعتبر مستقبلا قريبــا عن تلك المعالجة الخاصة بما يعتبر مستقبلا منظورا أو مستقبلا بعيدا .

وقد يكون من قبيل الاعتساف الجرىء أن يحـــاول البعض طرح تحديد مسبق وعام لما يعتبر مستقبلا قريبا وما يعتبر منظورا أو بعيدا ذلك لان الظواهر موضع الرصد تتباين فى طبيعتها وبالتالى فى مراحل تطورها . فما قد يعتبر مستقبلا قريبا بالنسبة لحالة الزراعة مثــلا قــد لا يعتبر كذلك بالنسبة لحالة التعليم أو حالة المنــاخ وهكذا ترتبط الاساليب والادوات المستعملة فى دراســة

المستقبل بالمدة الزمنية موضع الرصد وهـــذه بدورها ترتبط بطبيعة الظاهر موضع البحث .

والملاحظ على وجه العموم ندرة اكتراث الباحثين بما سوف يجرى فى المستقبل الابعد من خمسين عاما . كذلك يلاحظ ان بؤرة اهتمام الغالبية من الدارسـين والباحثين للمستقبل انما تنحصر فى تحسين احــوال الانسان ولا تعنى كثيرا بتحسين طبائعه . والامـــل ان تنصب تلك المساعي على خطة من الاصـــلاح لا تنقضى بانقضاء الاحوال والظروف .

٢ ـ ضرورة الاعتبار بفكرة العوامل غير المنظورة آنيا وقت البحث وعنصر المفاجأة والصدفة . وقد كتب العلامة الشهير هيرمان كاهان عام ١٩٦٧ فى تقديم مؤلفه « عام ٢٠٠٠ » يقول : ستكون مفاجأة لو انه فى اى من الثلاثة والثلاثين عاما القادمة لم يحدث فى العالم عديد مـــن المفاجآت السياسية والتكنولوجية وقـــد يكون غياب المفاجآت هو أكبر مفاجأة يمكن أن تحدث .

والمقصود العام أن فكرة احتمال المفاجآت فكرة أساسية لابد أن يأخذ بها أصحاب الدراسات المستقبلية والاصح أن يتسع مدلولها ليشمل كل التطورات المحتمل حدوثها بغير مقدمات ـ أو العوامل غير المنظورة عيانا وقت البحث .

وكلما اتسع أفق التصور العام وافق التصور الفنى الخاص بموضوع معين ساعد ذلك فى استيعاب أكبر قدر ممكن من العوامل غير المنظورة آنيا ، وفى توقـــع المفاجآت المرتبطة بمستقبل المسألة موضع الرصد ، مما يؤدى الى مزيد من الدقة والسداد فى نتائج الدراسة .

ويمكن فى حالات استحالة حصر جميع المفـــاجآت المحتملة ـ ويحدث ذلك عادة فى البحوث المســـتقبلية

المتصلة بعدد كبير من المتغيرات كتصور دور الأمم المتحدة مثلا او فى البحوث المتصلة بالمستقبل البعيد ، ما فوق ٥٠ سنة ـ يمكن أن يعوض عن ذلك بتخيل انواع المفاجآت المحتملة واتجاهاتها العامة دون الدخول فى تفاصيلها او احجامها .

اما فى الحالات التى لا تحتمل بطبيعتها تقديرا لعواملها التى قد تستجد مستقبلا فيمكن أن يعوض فيها عن غياب هذا العنصر بأساليب رياضية جبرية وهو مابرع فيه كل من « روبرت داهال » صاحب الفتح الاكبر فى التحليل الرياضى للسياسة ، ومانيكور أولسن الذى استخدم فى مؤلفه « منطق الحركة الجماعية ما أسماه « بالرياضة غير الرقمية » .

واخيرا يمكن توجيه النظر الى التقابل القائم بين فكرة « احتمال التطور الذى يحدث بغير مقدمات » وفى المنهاجية المستقبلية ، وفكرة : المشيئة الالهية الحرة » فى الرؤية الدينية ، وفكرة « الصدفة » فى فلسفة التاريخ ، فالثلاثة تشترك فى الطبيعة التحكمية غير الخاضعة للقياس أو الاستقراء وان كانت كل منها لها حدودها الخاصة ومجالات تأثيرها .

٣ ـ كذلك يتسم منهاج الرصد المستقبلى بتعدد المتغيرات التى تدخل فى أطار الرصد وتوزعها بين متغيرات طبيعية تجرى تلقائيا وفق معدل محسوب مسبقا ومتغيرات أخرى مفتعلة أو مصنوعة بفعل خطط مرسومة أو سياسات منتهجة أو بتوقيع انتهاجها بعد فترة من بدء البحث .

وقد يحس بالباحث الراصد البدء لتجديد العناصر

المحتم ادخالها لعمليات التغيير الصناعى كمصادر الطاقة ، والحجم المتوافر منها ، وحجم السكان ، ودرجة الوعى ، وحالة الامن ، وموارد الطبيعة .. الخ . وكلما احكم الباحث حصره لهذه العناصر كلما جاءت نتائج ابحاثه اكثر دقة حيث، أنه سيقوم بعد عملية التحديد النظرى بتجميع كافة المعلومات والمستندات المتوافرة التى تدل على نوعية واتجاه ومعدل التغيير المطلوب أو المفترض .

٤ ـ يقوم منهاج الرصد المستقبلى أيضا على أعمال فكرة التراكم Accumulation بين المتغيرات الطبيعية والمتغيرات الافتعالية . ذلك أن كلا منهما يمكن أن يكون سببا ويكون نتيجة للآخر .

وقد يؤدى التراكم الى احداث دوائر مفرغة تكون تراجعية فتسمى بدائرة التراكم المعيبة Vicious Circles وقد تؤدى الى تراكم ايجابى حميد فتسمى بالدوائر التصاعدية الحميدة Progressive Positive Circles

طرق ووسائق الرصد العلمى للمستقبل :

برغم اشتراك « المستقبلية » مع غيرها من مناهج التحليل المتبعة فى العلوم الانسانية فى استعارة بعض الادوات والمسالك المتنهجة لدى غيرها من العلوم المستقرة «١» الا أن المستقبلية استطاعت ـ برغم حداثة

(١) يستعير علم السياسة مثلا مناهج التاريخ مع بعض ادوات التحليل الاحصائية والقانونية كذلك يستعير علم الاتصال الانسانى وهو الميدان الذى يشمل عمليات الإعلام والرأى العام والتعليم والحرب النفسية وغسيل المخ والعلاقات العامة وظواهر الهجرة والسياحة ـ بعض قواعده ومسمياته من التحليل الفيزيائى والكهربائى ، وكذلك علم الاجتماع يستعير بعض ادوات التحليل الاكلينيكية .

عهدها ، أن تستحدث لنفسها وسائل خاصة بها ».

* ومن بين الوسائل التي تستعيرها الدراسات المستقبلية من غيرها اسلوب تحليل المضمون Content Analysis وهو يستهدف التعرف على النوايا المبيتة للأطراف المختلفة من خلال مايصدر عنها من تصريحات أو اقوال مكتوبة أو مروية . وأسلوب الاحتمال الاحصائي ، وهو يستخدم عادة في قياس المستقبل قصير المدى بافتراض ثبات معدلات التطور والحركة على ماهي عليه ، وبافتراض عدم دخول عناصر خارجية غير مرئية جديدة .

* كذلك يلجأ بعض المستقبلين الى استخدام الحاسب الألكتروني في بناء نماذج رياضية تساعد على استكشاف أحداث المستقبل . وقد استحدث هذا الاسلوب مؤخرا في الولايات المتحدة الامريكية وفي بعض دول غرب اوروبا كتطور طبيعي للدقة والكفاءة التي وصل اليها العلم الالكتروني في تخزين المعلومات والربط بينها وتحليل دقائقها .

وعندما يغذى الحاسب الالكتروني بالمعلومات والارقام اللازمة وفق قاعدتي « التطور الطبيعي » والمؤدية الى استمرار المعدلات والانماط الحالية للحركة والنمو والتطور الارادي اى ادخال تغييرات كمية وكيفية في المعدلات الراهنة عن طريق التخطيط . يتمكن الحاسب من عرض الاحتمالات المستقبلية وقد استطاع العالم المستقبلي جاي فورستر Gay Forster — الاستاذ في معهد ماساتشوستش للتكنولوجيا بالولايات المتحدة أن يصمم نموذجا رياضيا يمكن الحاسب الالكتروني من تقدير الاحتمالات المستقبلية لاى جديد في العالم اجمع ، وقد

استخدمت حكومات كثيرة نموذج فورستر وغـــيره من الاساليب المستقبلية للتخطيط في شتى المجالات .
وهنا ـ في معهد التخطيط القومي ـ بجمهورية مصر العربية تجرى محاولة ممتازة لبناء نموذج رياضي يستخدم في التنبؤ بمسارات النمو للمتغيرات الاقتصادية الاجمالية في مصر .
أما الأساليب التي تمكنت الدراسات المستقبلية مـــن استحداثها لنفسها ففيما يلي عرض لابرزها :

طريقة السيناريوهات في توقع المستقبل :

لا تختلف هذه الطريقة عن طريقة التفكير العـــادي للانسان عند تصوره للتوقعات المستقبلية فكثيرا مانسأل في حياتنا اليومية والشخصية التساؤل الآتي : اذا فعلت كذا فماذا سيكون رد فعل فلان ؟ ، وماذا سيتبقى لي بعد صرف كم من النقود ؟ وكيف يمكن توزيع هذا الكم المتبقي للوفاء بكل الحاجات المستمرة أو الجديدة ؟ وماهي الاحتمالات المختلفة لالتحاق الابنـــاء بالكليات الجامعية المختلفة ؟ وكل احتمال من هذه الاحتمـالات يترتب عليه تقدير لكيفية المواجهة أو التعامل معه ، وتؤدي هذه المواجهة باحتمالاتها العديدة ـ الى خلق ردود فعل وانعكاسات تخلق بذاتها مواقف جديدة مما يجعل من الضروري اخضاعها ايضا لسيناريوهات تنبؤية متعددة . وهكذا ...
فاسلوب السيناريو بهذا يمكن أن يسجل في شـــكل خريطة بيانية متصاعدة أو على هيئة شجرة متفرعة ، ويخرج من فروعها فروع أصغر ، ومن تلك فروع أخرى

متناهية في الصغر .. وهكذا .. ويعبر حجم الفـرع عن المدى الزمني للمستقبل المرصود .. فالفـــــروع الكبيرة تكون المستقبل القريب والفورى ، ثم تعـــبر الفروع الاخرى عن المدى الزمنى اللاحق « المتوسط ». وكلما تقدمنا مع زمن المستقبل واحتمالاته بعيدة المـدى كلما ظهرت فروع الشجرة المعبرة عن هذه الفترات البعيدة زمنيا متضائلة الى حد كبير بحيث لا يمكن رؤيتهـا أو التعرف على تفاصيلها .

وتلتقى فكرة السيناريو المستقبلى مع النظـرية التى تقوم عليها بحوث العمليات فى عـــدد من الخصائص والاساسيات وان اختلفت بعض مجـــالات استـخدام السيناريو عن بعض مجالات استخدام بحوث العمليـات وفى بعض الادوات الفنية المستخدمة فى كل منهما .

اسلوب تمثيل الادوار Simulation Game

يشبه هذا الاسلوب فى فكرته الاولية لعب الاطفـال التى تدربهم على تمثل عالم المستقبل وتربى فيهم ملكة اتخاذ القرارات المختلفة والمفاضلة بين الاولويات . فكما فى لعبه « المونوبولى » الاثيرة لدى الاطفال والتى يلعب فيها الطفل دور رجل اعمال او سمســـار أو بائع او مشترى وعليه أن يتخذ القرارات المناسبة وفق الظروف والمعطيات المحيطة ، توزع فى أسلوب « التمثيل » الادوار المختلفة التى تعبر عن القوى والاطراف المرتبطة بالمشكلة موضع الرصد والتوقع ، فاذا كان الموضوع مثلا أزمة دولية ، وكان المطلوب هو التعرف على أرجح التوقعات والاحتمالات الواردة لتطور هذه الازمة ، هناك يتم توزيع

الادوار بأن يتقمص كل باحث دور أحد الأطراف الضالعة في هذه الازمة أو الشاهدة عليها أو المتاثرة بها والمؤثرة فيها . فيأخذ الباحث دور الاتحاد السوفييتي ويأخذ الثاني الدور الامريكي ويلعب الثالث دور منظمة من المنظمات ويتقمص الرابع دور السكرتير العام للامم المتحدة .. وهكذا .

وتبدأ عملية « التمثل » من واقع معلومات وبيانات معينة يجمعها صاحب البحث ، سواء كان فردا أو مؤسسة ، ويلتزم أطراف التمرين في آرائهم ومناقشاتهم وقراراتهم بما في هذه المعلومات والبيانات المعطاه . ولذلك فان المعول الرئيسي في هذا الأسلوب يقع على كفاية ونوع ورقة المعلومات المجمعة سابقا على بدء اللعبة .

وعادة ما تنشأ مؤسسات متخصصة في تخزين المعلومات اللازمة لمثل هذه البحوث ويطلق على البعض منها اسم « بنوك المعلومات » وعلى البعض الاخر « مخازن الافكار » . ولعل اشهر المؤسسات في هذا المجال مؤسسة راند الأمريكية Rand Corporation ومؤسسة I·B·M ومركز ماساتشوستس للمعلومات الفنية .

ويمكن مزاولة وسيلة تقمص الادوار باستعمال الحاسب الاليكتروني بمفرده أو استعماله بالاشتراك مع العنصر الانساني . أو الاقتصار على العنصر الانساني فقط . وفي هذه الحالة يسمى اسلوب تماثل الادوار « بالمباريات السياسية » .

وقد استخدمت أداة التحليل هذه لاول مرة وبصورة مبسطة من جانب العسكريين الالمان ثم تم تعميم استعمالها وتطويرها من جانب دول اخرى . حتى جرى استعمالها بطريقة مكثفة في وزارات الخارجية والجامعات بعد

الحرب العالمية الثانية أولا فى امريكا الشمالية واوروبا الغربية وتستعمل حاليا فى الاتحاد السوفييتى ودول اوروبا الغربية .

وفى عملية تمثيل الدور يهتم الباحثون او القائمون على فحص المشكلة بالتعرف على اهداف واولويات وقدرات الطرف الذى يمثلونه . كما يهتمون عند اتخاذ قرار او الاتفاق ثنائيا او جماعيا على قياس ذلك القرار او هذا الاتفاق على حالات مماثلة يكون قد سبق للطرف الحقيقى أن اتخذ فيها قرارات مماثلة . كما يلزم التأكد من مدى اتفاق تكلفة هذا القرار او ذلك الاجراء مع الامكانيات الحقيقية للطرف الاصلى سواء المادية او غير المادية . وتدور معظم الاستخدامات الحالية لهذا الاسلوب فى اطار ابحاث السياسة الخارجية وقد قامت بعض المؤسسات المصرية فى اعتماد هذا الاسلوب ضمن بعض عملياتها البحثية والتدريسية « مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ومعهد الدراسات الدبلوماسية » .

طريقة « دلفاى » او استطلاع المتخصصين : ...ii Method

استحدثت هذه الطريقة فى الولايات المتحدة الامريكية فى منتصف الخمسينيات وكان القصد المبدئى منها تقدير الاثار المحتملة لاى هجوم نووى ضخم يقع على المدن الامريكية .. وبرغم أن هدفها الرئيسى هو التنبؤات بالتطورات الفنية والتكنولوجية فقد استخدمت ابتداء من منتصف الستينيات فى مجالات اخرى عديدة تكون فيها القيم « والتفضيلات » والمعايير غير النمطية جزءاً اساسيا

من عناصر المشكلة . ومن بين هـــذه المجالات : تقييم الاولويات والقيم المرتبطة بمستوى الحياة والمعيشة ، واتخاذ القرارات السياسيـــة ، وفحص وتقييم بعض احداث التاريخ .

والقيمة الجوهرية فى طريقة دلفاى انها مصـــممة للحصول على أكثر التوقعات دقة وحيادا وابعدها تأثرا بالنظرة الذاتية أو الضغوط السياسية أو الالتزامـات العقائدية في موضوعات تكون فيها عناصر « الذاتيـة » والقيم الشخصية والافضليات جزءا لا يتجزأ من معطيات المشكلة .

وهذه الطريقة تبدأ بتحديد المتخصصين الذين يبـدون استعدادا للمساهمة في البحث ، ويتم ارسال استبيانات لهم عن توقعاتهم المستقبلية حول موضوع الدراسة ، ويتم استطلاع آراء كل مختص على حدة .

ونظرا لما انتهت اليه نتائج دراسات قياس الاتجاهات السابقة من ان جماعة المتخصصين كثـيرا ماتتبع راى النخبة البارزة فيها ــ حتى لو خالف ذلك ما يؤمنون به ــ فان الاسلوب الجديد فى استطلاع الراى يتم بالاتصال بالمختص دون احاطته بأسماء وآراء زملائه .

وبعد أن تصل آراء المختصين ــ قد يقوم الباحث ــ او المؤسسة القائمة بالدراسة ــ بارسال اســتبيان آخر لاستيضاح بعض ما غمض من الآراء التى تلقاها فى المرحلة الاولى ، أو لكى يطرح على البعض من المتخصصين ما ورد من آراء فى اجابات غيرهم ، حتى يتوفر نوع من الحد الادنى المشترك بين المتخصصين ــ على الاقل فى تحديد مفاتيح أو عناصر الاجابات ، وينتهى الباحث او المؤسسة ــ الي تجميع الآراء وصياغة هذا الحد الادنى

المشترك فيما بينهما باعتباره أرجح وأوثق التوقعات ..
وقد يتم تحليل وتبويب مختلف الاراء الواردة واعطاء أوزان خاصة ومتدرجة بحسب نسبة تكرار وتماثل ورودها فى اجابات المتخصصين .

وبرغم مايكتنف هذا الاسلوب الجديد من أعباء مالية وتنظيمية ، وما يحتاجه من وقت وجهد ، فانه يظل أفضل بكثير من الراى الفردى لاحد المختصين أو من وجهات النظر التى يتمخض عنها اجتماع عدد منهم من ندوة مفتوحة يخضعون فيها لتأثيرات جانبية وشخصية تتعلق بالمركز الاجتماعى أو العلمى او الادارى لكل منهم مما يضعف ـ ولا شك ـ القيمة الموضوعية للنتائج .

وقد أحصى العلامة الامريكى « هارولد لينستون » مع زميله « موراى توروفى » وهما من كبار المنظرين لوسيلة « دلفاى » ـ الحالات والظروف التى يتم اللجوء فيها أو يستحسن اللجوء فيها الى « دلفاى » وذلك على النحو التالى :

ا ـ عندما تستعصى المشكلة المرصودة على وسائل التحليل التقليدية والجامدة ويكون من المفيد استخدام أحكام قيمية . Value Judgements
على أساس جماعى Collective

ب ـ عندما يكون هناك احتياج الى مزيد من الخبراء والمتخصصين الذين يصعب عليهم عمليا الالتقاء وجها لوجه .

جـ ـ عندما يكون الاشخاص الذين تحتاج اليهم حلول المشاكل العامة المرصودة على غير صلة كافية بعضهم ببعض ويمثلون خلقيات وتخصصات مختلفة .

د ـ عندما تحول محدودية الوقت أو ضخامة

التكاليف دون امكان جمع الخبرات المطلوبة فى مكان واحد وفى توقيت واحد .

هـ ـ عندما يثبت ان فائدة اللقاء المباشر بين جماعة المتخصصين يمكن ان تزداد بمتابعات واتصالات لاحقة .

و ـ عندما يكون الخلاف بين الافراد الضالعين فى بحث المشكلة حادا أو عنيفا لدرجة يصعب معها تحقيق الاتصال المباشر فيما بينهم أو تحقيق هذا الاتصال علنيا .

ز ـ عندما يكون اخفاء الهوية الشخصية والمركز الاجتماعي أو السياسي للمشاركين امرا ضروريا لمنع اى تحيز طبقى أو فئوى أو عنصرى أو سياسى ولحجب اى مؤثرات انفعالية كالخوف ، أو التردد ، أو الكراهية .

وقد لا يحتمل مقام التعريف العام بوسيلة « دلفاى » فى هذا البحث تفصيل أنواعها ومدارس الخبرة الامريكية والاوروبية واليابانية فيها . وقد تكفى الاشارة فقط الى أن هناك مايسمى بوسيلة « دلفاى التقليدية » Conventional Delphi التى تجمع بين حرفية استفتاء الراى واجراءات المؤتمرات الفنية التخصصية ، وهناك مااستحدث مؤخرا عليها باحلال حاسب اليكترونى ليقوم بعمل هيئة التجميع المركزية للاراء وتسمى هذه الطريقة الحديثة : Real-Time Delphi

موقـع المستقبـــــل
فى الفكر الشعبى المصرى

رغم شيوع الحكم لدى الكثيرين بأن الفكر المستقبلى غائب الى حد كبير عن العقل الشعبى السائد بين المصريين .. الا أننا لا نعلم شيئا عن اية دراسة علمية ـ نظـرية كانت أو ميدانية ـ أجريت بواسطة علماء الاجتماع أو علماء السياسة أو مراكز البحوث الاجتماعية حـــــول حقائق وأبعــاد التوجه الجماعى الســائد بين المصــريين ازاء فكرة الزمن ونظرتهم الى المستقبل ، وكل ما هنــاك ليس الا اشارات متناثرة داخل الابحاث المتعلقة بالشخصية القومية لمصر والمصريين تتعرض بعضها لملامح جانبيـــة يمكن أن يقاس بها أو عليها فى استكشاف طبيعة النظرة الى المستقبل فى الفكر الشعبى بمصر .

ولسنا نزعم أننا فى هذا الفصل من الكتاب قادرون على تغطية هــذا النقص العلمى ، فذلك ما لا تســتطيع الوفاء به سوى البحوث القومية بما لديها من امــكانات ووسائل للاستطلاع الميدانى ، وبما يتوافر لديها بالطبع من خبرات وتخصصات أكثر دقة وتنوعا وشمولا بمــا يساعدها على تغطية المجتمع المصرى بعناصره الغشــوبة والطبقية والعمرية ، وتوزيعاته الجغرافية والمهنية ، كما تحتاج مثل هذه الدراسة الكبرى الى متخصصين فى تاريخ الادب الشعبى الى جانب عدد من علماء الدين وعلماء النفس .

بيد أن ذلك كله لا ينبغى أن يمنع من البـــــدء فى محاولة « لتجميع الاوراق » و « المواد » وتحسس المواضع

وتحديد المصادر التى قد تفيد فى الاعداد لمثل هذه الدراسة الكبرى المأمولة .

وسوف نتتبع فى محاولتنا الراهنة عددا من المظاهر القولية والسلوكية فى التراث الشعبى والعادات والتقاليد الاجتماعية والمفاهيم والمعتقدات الدينية ، الى جانب الكشف عن بعض الطبائع المستقرة فى تركيب الشخصية المصرية مما قد يكون له تأثيره فى تشكيل نظرة المصريين للمستقبل وتوجيه حركتهم نحوه ، وسوف يكون الهدف فى النهاية هو التعرف على أبرز الملامح والسمات الرئيسية التى يتسم بها التوجه الجماعى الشائع شعبيا بين المصريين ازاء فكرة الزمن والنظرة الى المستقبل ، والتعقيب بما قد يلزم من مقترحات وتصحيحات واجبة تستهدف تعزيز التوجه المستقبلى بين الناس فى مصر .

اولا : النظرة الى المستقبل فى الفولكلور المصرى :

تحفل كثير من مقولات التراث الشعبى المصرى ــ المكتوبة والمروية ــ بنماذج عديدة لنظرة المصريين الى المستقبل . وتتسم هذه النظرية فى عمومها بالتأرجح والتردد بين الاعتقاد فى أهمية رصد المستقبل وامكان التحسب له بأسباب التحصين والتخطيط وبين الشك فى جدوى هذا الحساب وذلك التخطيط فى تغيير المجرى المقدور للاحداث والمصائر .

ففى الامثال الشعبية التى تؤكد ضرورة التدبير وتدعو الى اجراء الحسابات الواجبة ضد غوائل الزمن نجد مثلا ان « التدبير نص المعيشة » وان « القرش الابيض ينفع فى اليوم الاسود » وان « من يزرع كل يوم .. ياكل

كلّ يوم » « ومن استكتر قماسه كل حاف » ، و « اللى يحسب الحسابات .. فى الهنا يبات » و « من تأمل فى العواقب آمن من المعاطب » .

ويجرى نفس المجرى نصح الناصحين « دبر غداك .. تلقى عشاك » و « خلى شربه لبكره » ، و « قبل ماتفصل .. قيس » ، و « « على قد لحافك مد رجليك» و « مطرح ما تأمن .. خاف » .

وتذهب بعض هذه الامثال الشعبية الايجابية مذهبا اعمق تركيبا وأكثر اقترابا من بعض المفاهيم المعقدة « كالتمرحل » و « التوارث » و « التراكم » و « الانتظار المحسوب » و « أولويات القرار الاقتصادى» فنجد مثلا « احنا نزرع وأولادنا يحصدوا » ، و«الخسارة القريبة خير من المكسب البعيد » .

ويطلق الاخير فى بعض البلاد العربية على نحو يختلف قليلا فيقال « خطب عاجل ولا ربح طايل » ومعناه ان الخسارة اذا ما تحققت فى زمن سريع خير من المكسب الذى يطول انتظاره ، حيث يمكن لصاحب هذه الخسارة فى العمل أو التجارة أن يهيىء اموره مرة أخرى ليعيد توظيف امواله وجهوده مبكرا فيضمن فرصة نجاح أوفر فى المحاولة الثانية «(١)» .

كذلك يقال « كشكار دايم .. ولا علامة مقطوعة » وينطق فى بلاد الشام « ساقيه دايمه .. ولا نهر مقطوع » ويضرب فى تفضيل الردىء الدائم على الجيد الذى لايدوم بل ينال منه الزمن سريعا .

---

(١) محمد قنديل البقلى : وحدة الامثال العامية فى البلاد العربية . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ ـ ص ٢٢٠ .

وعلى الجانب المقابل لهذه النظرة الشعبية الايجابيه نحو الزمن والمستقبل نجد هناك من يرى أن تخطيط الانسان لحياته ومستقبله لا يفيد كثيرا فى تغيير المسار حيث أنه « لا يغني حذر من قدر » و « العبد فى التفكير والرب فى التدبير » و « وما كان من نصيبك سوف يأتيك » ، و « اللى من نصيبك يصيبك » و « اجرى جري الوحوش غير رزقك لم تحوش » . وينتهى هذا الفكر الى الاكتفاء بالواقع الراهن والمضمون دون التطلع الى المزيد من الممكن أو الجائز كما فى المثل « عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة » و « بيضة النهاردة ولا فرخة بكره » وهو نفس المعنى الذى يحمله المثل المتواتر « احيينى النهاردة وموتنى بكره » .

ونستطيع أن نجد لدى البعض منطقا أكثر من ذلك تكاسلا وتقاعسا وانهزامية حين يدعو الشاعر الى عدم الانشغال بماضي الزمان ولا بآت العيش قبل الاوان ودعوته الى الاكتفاء باغتنام ما يطيب من متع الحاضر الراهن مبررا ذلك بأنه ليس من طبع الزمان الامان .

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآت العيش قبل الاوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس من طبع الليالى الامان

كما نستطيع أن نلمح الى جانب ذلك نغمة التواكل غير العاقل فى المقولة الشعبية السائدة « اصرف مافى الجيب .. يأتيك مافى الغيب » وهى نفس النغمة التى تسرى فى أعماق القائلين فى موضوع آخر « من أحبه ربه واختاره .. جاب له رزقه على باب داره » ويجرى نفس المجرى فى التوجه السلبى نحو المستقبل قول الشاعر :

ولست بخابىء أبدا طعـــاما
جذار غد .. لكل غد طعـــام

وحين تجرأ بعض الزجالين على فكرة الاستســلام « للقدر » أو « المكتوب » وأعلنوا فى بعض أغنيــاتهم الشعبية تحررهم وعزمهم على رفض الرضــا بالهزيمه « فى الحب » .. ثار الثائرون من أصحاب الفكر التقليدى والمذاهب الاتباعية الموروثة حرفيا وقاموا ليعلنوا على منابر الخطابة وصفحات الجرائد تكفير هذا الشاعر وذلك الزجال لتجرأهم على النظر الى المستقبل خارج اطـار النظرة الاتباعية التى ترى أن « المــكتوب ممنــوش هروب » .

وبين المقولات الداعية الى التدبر وعمل الحســاب الواجب للزمن والمقولات الاخرى ذات التوجه السلبى فى هذا الشأن توجد هناك منطقة وسطى تشيع فيهــا بعض الاتجاهات والدعاوى غير المباشرة ازاء فكرة الزمن عموما وان كانت فى التحليل النهائى تحسب ضمن الدعـاوى والمواقف السلبية العامة للشخصية المصرية ازاء المستقبل وحساباته العلمية المطلوبة . ومن بين هذه المقولات أن « الشهر اللى ماهو لك ماتعد أيامه » ويضرب فى أن العمل الذى لا يعود عليك بدخل مادى مباشر لا تتعب نفســك فيه .. وهو مايعبر عن قصــور فى حقيقــة التأثير المتداخل بين عناصر الزمن والمتغيرات الاجتماعية العديدة المرتبطة به .

كذلك فان المأثورات الشائعة شعبيا عن « تغير حــال الدنيا » حيث يقال « الدنيا ماهى دايمه » و « الدنيــا متنضمنشى » و « الدهر ميال » و « يوم لك ويــوم عليك » كلها تعبيرات يمكن أن تفسر سلبيا فى غير صالح

الحسابات المستقبلية . ويمكن في الوقت ذاته ان توظف توظيفا ذكيا في خدمة جهود الاقناع بأهمية عمل هـذه الحسابات المستقبلية .

وقد يكون هناك عدد من التفاسير التى يمكن بها ومن خلالها منحهم ظاهرة الاعتقاد الشائع بين الجماعة المصرية بعدم جدوى التخطيط والتحسب للمستقبل .

التفسير الاول أن يكون هناك احساس عام بعدم القدرة على التحكم فى البيئة المحيطة والتعرض على مر العصور لتحديات وغزوات غلابة تحد من قدرة ورغبة المصريين في التخطيط للمستقبل بطريقة آمنة ومضمونة .

والتفسير الثانى أن يكون هذا الموقف السلبى فى نظرة المصريين للمستقبل راجعا الى التوجه الدينى العـــام للشخصية المصرية وصدورها التلقائى وشبه الدائم عن الافكار والمقولات الدينية التى تجعل من المشيئة الالهية العامل الحاسم والاوحد فى تقرير مصائر الناس والانظمة والاشياء ، مما يرتب قناعة فى العقل الجماعى بعـــدم جدوى التخطيط البشرى والتحسب للمستقبل البعيد .

والواقع أن التفسير الاول لا يستطيع ان يصمد كثيرا أمام حقيقة الوداعة النسبية التى تتصف بهـــا عناصر الطبيعة والبيئة في الارض المصرية حيث تخلو تلك العناصر من الهزات العنيفة والتغيرات الفجائية او الموسمية على نحو مايحدث للماء أو الهواء أو الارض فى بيئات جغرافية اخرى .

كذلك لا يتسق التفسير بالخوف من الغزوات والاخطار الخارجية ، أو من بطش طغاة الحكام فى الداخل مـــع ماسجله التاريخ على مر العصور من تعـــدد وتنـــوع المقاومات الشعبية الناجحة من جانب المصريين لكثير من

التحديات التى واجهتهم برغم ما كانت عليه من سطوة وقوة ».

يبقى بعد ذلك مناقشة التفسير الثانى الخاص بالعامل الدينى واثره فى تشكيل نظرة المصرى الى المستقبل .. وهو مانتناوله فيما يلى :

ثانيا : العامل الدينى واثره فى تشكيل نظرة المصريين الى المستقبل :

يشيع بين بعض البسطاء من المتدينين فى مصر ـ وتشاركهم فى ذلك بعض الجماعات الاخرى على امتداد العالم الاسلامى ـ اعتقاد بأن البحث فى أمور المستقبل والتخطيط له وحساب احتمالاته يعتبر تجاوزا لحدود العلاقة الواجبة بين العبد وربه ، أو استلابا من الانسان لاحدى خصوصيات الذات الالهية التى اختصها الله لنفسه وذلك تأسيسا على قول الحق جل وعلا « وماكان الله ليطلعكم على الغيب » ، وقوله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء أن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

كما يسوق البعض لدفع محاولات البحث فى المستقبل وتأثيم القائمين عليها بعض الاحاديث النبوية الشريفة كقوله صلى الله عليه وسلم « من ذهب الى كاهن أو عراف فقد برأت منه ذمة الله ورسوله » !

والملاحظ أن هناك خلطا شائعا فى هذا الشأن بين مفهوم « العلم والمستقبل » الذى هو احد الخصوصيات الالهية التى ينفرد بها الخالق دون سواه ومفهوم

« التحسب للمستقبل » الذى يقوم عليه البنيان الحديث للمعرفة العلمية المسمى فى بعض الاحيان « بالمستقبليه» أو « الرصد المستقبلى » .

فالمستقبلية ـ وعلى نحو ما اوضحناه فى الفصل الثانى من هذه الدراسة ـ منهج علمى وعملى محوره الوعى بأثر التراكم الزمنى فى تشكيل أو اعادة تشكيل أبعاد وأحجام الظواهر الاجتماعية أو الاقتصادية او الطبيعية موضع الرصد ، وذلك على ضوء عدد من الافتراضات المختلفة التى يؤدى كل منها الى نتائج فى اتجاه معين خلال فترة زمنية معينة .

فالمستقبلية اذن منهج للتفكير والتقدير والتعامل مع الازمنة القادمة وليست معرفة موضوعية مطلقة بحقائق المستقبل .

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حين يعلن براءته ممن يذهب للكهان والعرافين فانه بذلك ينهى عن اللجوء الى وسائل الدجل والشعوذة غير القياسية التى تباعد بين الناس وطريق الاجتهاد العاقل والموزون فى تخطيط الحياة الدنيا وهو نفسه ـ صلوات الله عليه ـ الذى دعا الى « العمل فى الدنيا كأننا نعيش فيها أبدا » ، اذ قال « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا » وهى قمة الحكمة فى استحضار اطول مدى ممكن عند تدبير معاش الناس فى الدنيا .

والاصل أن النظرة الدينية بطبيعتها العامة ـ فى أى دين سماوى ـ هى فى حقيقتها نظرة مستقبلية حيث أنها تتضمن الدعوة الى عالم زمانى ومكانى يعقب العالم الحاضر ويلزم التحضير له فى الحياة الدنيا بمختلف وجوه التحضير والاستعداد .

كذلك فانه على المستوى العملى لا يوجد ثمة تعارض جوهرى بين « الدين » و « المستقبلية كمنهج للتخطيط » اذ أن من القواعد التى تعارف عليها علماء المستقبلية المحدثون ضرورة الاعتراف بوجود عناصر غير منظورة حاضرة وقت البحث ، وعناصر محتملة الظهور فى المستقبل بغير مقدمات ، وهو نفس مايعرف فى التقاليد الدينية « بالقضاء والقدر » أو « المشيئة الالهية » .

يضاف الى ذلك أن هناك عددا كبيرا من الشواهد والتجارب التى تتضمنها الاصول والوثائق الاسلامية الاساسية مما يدل على سماح الاسلام بالبحث فى المستقبل بل اقتضائه ذلك من الناس وجوبا ، ومثال ذلك قصة النبى يوسف عليه السلام وما فيهما من دلالات باعتبارها احدى التجارب المبكرة التى عرفتها الحضارات الانسانية فى مناهج التخطيط الاقتصادى والزراعى . اذ جاء بالقرآن الكريم « قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد ياكلون مما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون » (١) .

كذلك جاء فى محكم الايات البينات قول الحق « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » .. والدلالة العامة لهذه الآية القرآنية تفيد بفداحة مايمكن أن يصيب قوما أسقطوا المستقبل من حساباتهم ، أما معناها المباشر فهو بالطبع منصب على العقاب المتوقع للذين شغلوا فى الدنيا بما أنساهم حقيقة الحساب فى الآخرة .

ويجرى على نفس السياق قول الحق تعالى « واتقوا

---

(١) سورة يوسف : الاية ٤٦ ، ٤٧ .

الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد » (١) ، وفيه دعوة واضحة الى اقامة الاعتبار دائما للمستقبل والعمل على استثمار الحياة الدنيا استثمارا عمليا وروحيا شاملا .

كذلك يفيد درس « أحد » فى تأكيد أهمية الالتزام بالخطط الموضوعة سلفا وعدم التفريط فيها وعدم التعاون فى تطبيقها حتى مراحلها الاخيرة .

وهكذا ــ وعلى ضوء تلك الشواهد والاصول الدينية ــ وعلى ضوء اليقين المؤكد بوجود فارق بين المحاولات التعسفية لمعرفة المخبأ فى علم الله وبين العمل والتخطيط لشئون الحياة المادية بالاجتهاد العاقل وفق المتاح من معلومات وقوانين ــ فليس ثمة سبب يبرر استمرار القصور والتردد في نظرة المجتمعات المؤمنة والمتدينة الى المستقبل والتعامل معه ، بل ان لتلك المجتمعات أن تؤسس جهودها العلمية والعملية فى رصد المستقبل والتحسب له باسم الله وعلى أساس توجيهاته الدائمة بضرورة « النظر » و « التدبر » و « إلتدبير » و « الاخذ بأسباب العلم » و « الحذر » و « الحساب » و « تقدير القوى » ، على أن يتوازى ذلك مع التفسير القويم لمعانى الصبر والتوكل على الله ، وقضية التسيير والتخيير ، وقوانين الله فى الرزق والارتزاق ، وهى المحاور التى حاول البعض من خلالها تقييد نظرة الانسان المؤمن الى المستقبل وتكبيل تطلعاته مما لا يساعده على تحقيق ذاته أو التعامل الحر الواعى مع قوانين الحركة الكونية .

---

(١) سورة الحديد .

ويعتبر التصدى للمفاهيم الدينية الجامدة والخاطئة ازاء المستقبل واجبا عاجلا يلزم تقديمه على ما عداه فى أوليات العمل لتعزيز التوجه المستقبلى بين الجماعات الشعبية فى مصر ، والمستحسن الا تسند هذه المهمة لواحد فقط من الفريقين الدينى أو العلمانى بل قد يلزم اسنادها للاكثرين قدرة على فهم المنطلقات الدينية والعلمية معا ، وقد تشير علينا أساليب التنظيم الحديثة بوسائل شتى لتحقيق الهدف وتوفير الحصيلة المطلوبة من مصادر متنوعة ان عز اجتماعها فى شخوص واحدة .

ثالثا : الموقف من المستقبل فى بعض العادات والتقاليد الاجتماعية :

وعلى النحو السابق ملاحظته فى الامثال والاهازيج الشعبية فان العادات والتقاليد الاجتماعية لدى المصريين تتضمن قدرا من التباين والتأرجح فى النظرة العامة الى المستقبل فهناك عدد من التقاليد الشائعة التى تعطى الانطباع باستحضار المستقبل فى السلوك الشعبى المصرى الى حد ما .. كشيوع الاهتمام بقراءة الطالع سواء فى « الكف » أو « فنجان القهوة » أو « باوراق اللعب » أو من خلال النجوم والافلاك أو « بالاتصال بالارواح » أو بضرب الودع فيما يسمى « بفتح المندل » كذلك يهتم المصريون عند اتمام عمليات الزواج بتحديد مؤخر للصداق المسمى بين العروسين تحسبا لحالات الفشل أو الاخفاق بعد فترة .

ورغم أن عادة قراءة الطالع تعتبر من العادات الدالة على وجود قدر من الاعتقاد المبدئى بأهمية استطلاع

المستقبل والتحسب لاحتمالاته ، الا أنه باعادة الفحص الموضوعي لجذور هذه العادة وظروف ممارستها جماعيا أو فرديا وحدود انتشارها في الاطار المصرى ، يمكن القول بأنها عنصر معطل وليس مساعدا فى الدعوة الى تكريس النظرة العلمية الى المستقبل بين المصريين وذلك تأسيسا على الاعتبارات الاتية :

١ ـ ان عادة قراءة الطالع لا تنتشر فقط بين الاميين او غير المتعلمين فى الريف ، وانما توجد أيضا لدى فئات المتعلمين واهل المدن .. وفى تحقيق أجراه القسم الاجتماعى بصحيفة اخبار اليوم عن انتشار الخرافات فى مصر تبين أن الاعتقاد فى قراءة الطالع وغيرها من عادات مشابهة لا يقف عند حدود الريف حيث يؤمن بها ويمارسها ٩١٪ من سكانه وانما يمارسها ايضا ٨١٪ من سكان المدن المصرية الكبرى (١) .

٢ ـ وقد زاد من خطورة هذا الوضع ما كشف فى نهاية الستينات عن لجوء بعض العناصر القيادية فى الحكم والادارة لهذه العادة واستئناسهم بها عند اصدار القرار . (٢) .

٣ ـ كذلك يزيد من خطورة الموقف أن الممارسين أو المعتقدين فى قراءة الطالع لا يناقشون فى العادة مدى صحة الرؤى التى ينتهى اليها محترفو هذه العملية ،

---

(١) اخبار اليوم العدد الصادر فى ٧٢/٨/١٢ ـ وقد اشترك فى التحقيق د. احمد عكاشة استاذ الطب النفسى بجامعة عين شمس و د. رءوف عبيد أستاذ القانون المدنى بالجامعة والشيخ عبد الرحمن بيصار .

(٢) انظر مقال : بصراحة للاستاذ محمد حسنين هيكل : اهرام ١٩٦٨/١/٢ .

بل ولا يهتمون كثيرا بالتدقيق فى صدق سريرة هؤلاء العاملين فى هذا الحقل والمرتزقين منه ، ولا يتقبلون بسهولة افتراض الشك فيهم أو اتهامهم بالدجل أو بالابتزاز .

٤ ــ يلاحظ أيضا ــ ومن واقع مانشر ــ أن حجم المصالح والاعباء الاقتصادية المرتبطة بعملية قراءة الطالع سواء من جانب مقدمى الخدمة أو من جانب مستهلكيها ــ قد تزايدت وتشعبت على نحو ملحوظ .. ويكفى الاشارة الى اكتشاف السلطات الامنية فى الاسكندرية مبلغ ٤٠٠،٠٠٠ جنيه فى منزل أحد أدعياء قراءة الطالع بعد شكوى ابتزاز تقدمت بها مواطنتان فى صيف عام ١٩٧٦ ضد هذا الدجال . كما يشار الى أن رسم الكشف لدى بعض مايسمى « بمكاتب » أو « عيادات» الطب الروحى يبلغ « ثلاثين جنيها » فى المتوسط .

والى جانب هذه العادات المشيرة الى الطريقة غير العلمية فى نظرة المصريين للمستقبل توجد هناك مظاهر اخرى لقصور تلك النظرة المستقبلية بين المصريين كتواضع الاقتناع بينهم باهمية التأمين ضد المرض أو العجز أو الشيخوخة أو الظروف المفاجئة وميلهم الى اهمال الصيانة للممتلكات كاجراء وقائى لازم ضد الغوائل الطبيعية للزمن .

بعض طبائع الشخصية المصرية المتصلة بالنظر الى المستقبل :

هناك عدد من الصفات الراسخة فى شخصية المصرى مما تخرج عن اطار الموقف الموضوعى المباشر ازاء

« المستقبل » لكنها بطبيعتها تمس هذا الموقف من حيث كونها تتنافى مع امكان النظر الى « المستقبل » بأسلوب علمي حر وجرىء كذلك الاسلوب المفترض فى الدراسات المستقبلية الحديثة .

مثال ذلك : صفات « المحافظة » Conservation « والقناعة » و « الفهلوة » .

ا ـ الطبيعة المحافظة فى الشخصية المصرية :

وتجد هذه الطبيعة شواهدها فى عدم الرغبة على التغيير الجذرى وتغليب السوابق فى الاحكام ، وقياس كل مستحدث بمثله فى الماضى وهو ما يسمى احيانا « بالسلفية » .

وتفسر بعض الدراسات هذه الصفة فى الشخصية المصرية باعادتها الى اثر الارتباط بالنيل والزراعة على مر العصور .

والعقبة التى تمثلها هذه الصفة تكمن فى انها تعطل احداث التغييرات او التعديلات الهامة التى قد تسفر نتائج الابحاث المستقبلية عن القول بأهميتها لحل المشاكل الراهنة او المحتملة (١) .

---

(١) تذهب بعض الدراسات الاجنبية الى حد الزعم بان المصرى يتجنب الصدام حتى ولو كان ذلك على حساب نفسه او مبادئه وحتى لو قاده ذلك الى مواقف مخالفة للقانون الاخلاقى، وانه بهذا يعكس عدم قدرته على التعبير عما يعتقده وعن خوفه من خلق المواقف العدائية او المواقف الجديدة .

انظر ملامح الشخصية المصرية ـ بحث اعده بعض الباحثين فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة باشراف د. حامد ربيع مايو ١٩٦٩ .

ب ـ القناعة فى الشخصية المصرية :

وتفسر هذه الصفة ماديا واقتصاديا ، كما أن لهـــا تفسيرا يتعلق بالموقف الدينى .

وبالتحليل المادى والاجتماعى يمكن ألقول أن تلك القناعة ناتجة عن جهل المصرى بما هو أكثر مما لديه أو جهـــله بنماذج الحياة فى بقاع أخرى من العالم ، وقـد تفسر قناعة المصرى بالندرة الحقيقية فيما يملكه من موارد ، أو باعتياد الغالبية الكبرى من الشعب على نمط حياتى ثابت سواء فى الكم أو النوع أو الدرجة . كذلك فقـد يكون تأصل ألوازع الدينى المتضمن يقينا قويا بزوال الدنيا وخلود الآخرة سببا رئيسيا لهذه القناعة الظاهرة فى حياته وتطلعاته .

وهذه الصفة الرئيسية فى آلشخصية المصرية تتعارض بطبيعتها مع الأخذ « بالفلسفة المستقبلية » التى تعنى بالحتم مزيدا من التطلعات وتغرى بضرورة التحرك مـن حاضر الناس من أجل مستقبلهم ، وتدعو آلى هجـــر ألمقولة الشائعة عن « زمانى .. وزمان غيرى » .

جـ ـ « الفهلوية » والشخصية المصرية :

ترى بعض الدراسات الاجنبية أن احدى الصـفات الثابتة للمصرى « الفهلوية » ومعناها التوهم بقـــدرة التعامل مع الناس ومع النفس فى كل الظروف وفى كل الاوقات ، واذا كانت الاحكام الخلقية والمعايير الاجتماعية تصنف هذه الصفة فى الجانب الايجابى من جـــوانب شخصية المصرى فان الاحكام الموضوعية تنتهى الى تصنيف

مماكس على الاقل فى المجال الذى يهمنا الآن وهو « الموقف العلمى من المستقبل »

فالفهلوية لدى المصرى تجعله يؤجل عمل الحسابات الواجبة للغد توهما بقدرته على التلاؤم التلقائى مع ظروف هذا الغد ، وهى من جانب آخر تجعله يخلط بين مفاهيم الحظ والمغامرة من ناحية ومفاهيم الجرأة والشجاعة الموضوعية من ناحية أخرى مما يحجب أولا الاحترام الواجب للعلم والمواقف العلمية ويعطل بالتالى نشر الوعى الموضوعى اللازم لفهم المستقبل والتعامل معه .

الاسلوب الصحيح فى تقويم هذه الصفات :

١ ــ ينبغى علينا أن نميز بين حقيقة الصفات القائمة فى الشخصية المصرية National Character وبين الصورة التى تنطبع عن هذه الشخصية لدى الاطراف الاجنبية National Image ولا ينبغى أن نفهم الدعوة الى هذا التمييز على أنها تشكيك فى صحة وجود الصفات الثلاث السابق ذكرها فى الشخصية المصرية وانما التمييز مطلوب لاهداف عملية ، فهو يخدمنا فى التعرف على المداخل المناسبة لتصحيح هذه الصفات ووضعها فى اتجاه يتفق والنظرة العلمية للمستقبل .

٢ ــ ان الشخصية المصرية ــ وكما يقول أحد المتخصصين ــ ليست قالبا جامدا يتضمن عددا من السمات الغريزية التى لا يعتريها التغيير ولا تنال منها رياح الزمن ، بل انها فى التحليل العلمى الدقيق تعد انعكاسا لنمط المجتمع بما يتضمنه من علاقات اقتصادية

متميزة فى حقبة تاريخية محددة مضافا اليها بعد اساسى وهام هو البعد الحضارى الذى يمتد فى الزمان بصورة خفية قد تستعصى أحيانا على التحليل (١) ـ وعلى ذلك فان تحليل الاصول التاريخية والظروف الاقتصـادية والاجتماعية المحيطة بالافكار والمقولات والطبائع الشعبية الشائعة بين المصريين حول المستقبل والموقف منه يمكن أن يفيد كثيرا عند العمل من اجل تغيير الجوانب السلبيه او المعطلة فى النظرة الى المستقبل بين المصريين .

فان كانت القناعة الظاهرة بين المصريين فى وقت ما ترجع الى عدم معرفة مالدى غيرهم من نماذج حيـاة او بما هو مستور فى أرضهم من كنوز فليس ثمة شـك فى أن الواجب والضرورى هو نشر التعليم وتوفير المعلومات الحرة لكل الناس فى مصر . واتاحة المجال حرا للسفر والتنقل والتشجيع على الهجرة ومخالطة الشـعوب الاخرى والاطلاع على حقائق الحياة فيها .

واذا كانت الطبيعة المحافظة فى الشخصية المصرية ترجع الى الارتباط طويلا بالنيل « المضمون » و «الزراعة» ذات الروتين السنوى الرتيب .. فان الدخول الى مرحلة التصنيع وغيره من نشاطات انتاجية خارج الزراعـة كفيل بذاته أن يحدث التغييرات اللازمة فى هذه الطبيعة المحافظة ، مما يفسح الطريق أمام امكان التعامل مع المستقبل بمنطق حر ان لم يكن ثوريا .

---

(١) السيد ياسين : حرب اكتوبر والنظرة العلمية للشخصية المصرية . مقال بالاهرام : ٢٢ يناير ١٩٧٤ .

معالجة المستقبل
في الاعلام المصرى

يمكن أن تفيد دراستنا لما ينشر أو يذاع في الصحف واجهزة الاعلام المصرى « عن المستقبل » فى أكثر من اتجاه . فهي من ناحية أولى تستطيع أن تمدنا بمؤشرات ودلالات على طبيعة موقف الادارة السياسية المصرية ازاء ماترغب وما لا ترغب الاعلام عنه والتوجيه اليه من امور المستقبل سواء كان توجهها بهذه المواد الاعلامية الى الرأى العام الداخلى أو الى أطراف اجنبية معينة . ومن الواضح أن هذه النظرة تؤسس على أفتراض توجيه الدولة واشرافها العام على العمليات الاعلامية فى مصر وهو ما باشرته الدولة فعلا ممثلة ــ حتى وقت قريب فى وزارة الاعلام والهيئة العامة للاستعلامات من جهة ، أو ممثلة من ناحية أخرى فى دور مكتب الرقيب العام وفى اشراف التنظيم السياسى الواحد « الاتحاد الاشتراكى العربى » فى مرحلة أخرى على دور الصحف .

فاذا ما اثيرت بعض الدفوع بعدم مسئولية الدولة عن المواد المنشورة أو المذاعة فى أجهزة الاعلام ــ على الاقل فى المرحلة المعاصرة التى تبدأ منذ عام ١٩٨٢ تقريبا والتى تشهد تسييراً ذاتيا فعليا للصحف وحرية أوفر لاداراتها وظهورا لصحف جديدة تمثل آراء مختلفة ومعارضة لخط الدولة الرسمى ــ فسوف يظل لهذه المواد موقع عام داخل أطار دراستنا لانها اذ ذاك تعبر عن موقف قادة الفكر والرأى فى البلاد آزاء المستقبل

واساليبهم فى تناوله ، ولاشك انه قطاع هام ينبغى عدم تجاهله فى بحث يدرس ظاهرة الاهتمام بالمستقبل فى المجتمع المصرى الحديث على مختلف المستويات .

وعلى ضوء هذه الرؤية المزدوجة لطبيعة العملية الاعلامية فى مصر واختلاف مراحلها من حيث تمثيلها للرأى الرسمى أو للفكر غير الرسمى .. فقد رأينا ان تستقل « مواد المستقبل » فى الاعلام المصرى بجزء خاص من الدراسة حتى لا تنصرف الملاحظات الواردة بشأنها الى أى من المجالين المذكورين فى تعميم غير دقيق .

وقد يلزم فى البداية الاشارة الى عدد من الحدود المنهاجية التى تحيط بدراستنا فى هذا الجزء وذلك على النحو التالى —

١ — ان الفترة الزمنية التى يغطيها هذا المبحث هى الفترة الواقعة بين ١٩٧٠ ، ١٩٨٠ باعتبارها أخصب الفترات التى اينعت فيها التوجهات والاهتمامات المستقبلية بوضوح داخل اجهزة ومواد الاعلام فى مصر . وينبغى الا يفهم من ذلك أن مرحلتى ما قبل وما بعد السبعينيات قد خلت تماما من التوجهات المستقبلية فى الاعلام المصرى .

٢ — أن الباحث لم يكتشف فى رصده للمواد المتصلة بالمستقبل داخل اجهزة الاعلام بمجرد الرجوع الى الكشافات السنوية أو الفهارس الخاصة بأعداد الصحف او المجلات الصادرة خلال هذه الفترة بل حرص على مطالعة كل منها مطالعة تحليلية للتاكد من مدى وفاء موضوعها بما يحمله عنوانها من اشارة الى « المستقبل » ويستثنى من ذلك بالطبع بعض الابواب الثابتة فى الصحف

والمجلات كتلك التي تعرض « للطالع اليومي » (١) حيث لا تفيد مضامينها شيئا ذا بال من ناحية التحليل الموضوعي لاتجاهات اجهزة الاعلام ، ولا تلك التي تعرض الاخبار المتوقعة خلال فترة قصيرة (٢) . ولن يهمنا منها سوي التعرف علي مدى دوريتها أو تكراريتها في النشر ونوعية كاتبيها
والمساحة المخصصة لنشرها بالنسبة الى المساحة الاجمالية للصحيفة .

٣ ــ حاول الباحث ايجاد مقاييس نقدية موحدة في الحكم والتحليل الخاص بالمواد الصحفية والاذاعية الخاصة بتناول المستقبل حتى يؤمن قدرا معقولا ومقبولا من سلامة التعميم والمقارنة . ومن بين هذه المعايير . مدى استيعاب صاحب المادة المنشورة أو المذاعة لمفهوم « المستقبلية » كمنهج علمى حديث ، ومدى تقيده ــ فى حالة توافر ذلك ــ بما يستدعيه هذا المنهج من ضوابط وحدود ، والمدى الزمنى للمستقبل الذى تدور حوله المادة الاعلامية ، ومدى اتفاق موضوع المقال أو البرنامج الاعلامى مع اسمه الذى يحمل أشارة للمستقبل ، ونوعية النظرة الى المستقبل الواردة فى المادة الاعلامية من ناحية تفاؤلها أو تشاؤمها .

٤ ــ واخيرا فانه بالنسبة للبرامج الاذاعية والتليفزيونية يلزم الاعتراف ببعض الصعوبات الفنية

---

(١) مثال ذلك باب (حظك اليوم) تنشره صحيفة الاهرام ، وباب (نجمك غدا) تنشره صحيفة المساء ، وباب (انت وبختك) بمجلة اكتوبر ، وباب (ماذا يقول طالعك) بالمصور .

(٢) مثال ذلك باب (اخبار الغد) بصحيفة اخبار اليوم الاسبوعية ، وباب (اتجاه الريح) بمجلة اكتوبر .

والعملية التى حالت دون المتابعة العينية لمضامين كل الحلقات الخاصة بالبرامج موضع الحصر مما تتصل بأمور المستقبل . لذلك فقد اكتفى بالاطلاع على خرائط التنسيق الاذاعى واعلانات البرامج التليفزيونية المنشورة فى بعض الصحف ، باستثناء قدر من المتابعة العشوائية والمتقطعة لبعض الحلقات المذاعة (١) .

* قد يلزم أيضا الاشارة الى أن استبعاد المواد المنشورة فى صحف المعارضة الحزبية انما يرجع فقط الى أن معظم فترات انتظام هذه الصحف فى الصدور قد جاءت خارج الفترة الزمنية موضع البحث ولا يعنى اهمالها هنا انها جاءت فى بعض فترات صدورها خلوا من بعض المعالجات الهامة للمستقبل وقضاياه مما قد يستحق دراسة أكثر تخصصا فيما بعد .

ونبدأ فيما يلى بعرض الملاحظات التحليلية حول طبيعة التوجه المستقبل فى هذه المواد الاعلامية والخصائص العامة التى يتسم بها الاداء الاعلامى فى تناوله للمستقبليات .

الخصائص العامة لمعالجة المستقبل فى مواد الاعلام المصرى :

يمكن بمتابعة المواد المتعلقة بالمستقبل فى الصحف

---

(١) المعروف أن للبرامج التليفزيونية والاذاعية دورات زمنية محددة ، ولكل من هذه الدورات خريطة مركزية تسمى خريطة التنسيق تحدد اسم البرنامج وموضوعه وموعد اذاعته واسم مقدمه ، ويحتفظ بهذه الخرائط السابقة واللاحقة فى ارشيف الاذاعة والتليفزيون كما يمكن الرجوع اليها عن طريق مجلة الاذاعة والتليفزيون الاسبوعية .

وادوات الاعلام المصرية الاخرى أن نستخلص عددا من السمات الرئيسية والمشتركة التي يتسم بها التناول الاعلامي المصرى لهذه الموضوعات وذلك على النحو التالى : ـ

اولا : ان هناك تواضعا ملحوظا في فهم واستيعاب « المستقبلية » كمنهج علمي وفى الدراية بأساليبها وادواتها المستخدمة لرصد المستقبل وتقدير الاحتمالات فمعظم الكتابات والتحقيقات التي تحمل عنوان المستقبل وتبحث في احتمالاته تتسم أساسا بالاتجاه الى التعميم غير المرتبط بأسلوب علمي محدد في الرصد أو التقدير الاحتمالي .

ثانيا : يلاحظ أيضا أن نسبة غير بسيطة من المقالات والكتابات التي تحمل في عناوينها اشارة الى المستقبل تخلو في صلب موضوعها من أية محاولة للتنبؤ او لطرح التقديرات المتباينة لذلك المستقبل . والمرجح ان هذه المواد تتخذ من المستقبل ورموزه شعارا أو عنوانا لاثارة اهتمام القراء والمستمعين بأكثر من خدمتها فعليا وعمليا لهذا المستقبل (١) .

ثالثا : يلاحظ أن المدى الزمني للمستقبل المقصود

---

(١) اشار احد كبار العلماء المصريين في مجال الفضاء الى الخلط الشائع في بعض الكتابات والتحقيقات الصحفية في مصر بين المفاهيم الاساسية في مجال الفضاء وعدم الدقة في اختيار العناوين والاصطلاحات المتعلقة بهذا الميدان .

راجع محاضرة السيد الوزير المهندس سعد شعبان خبير الفضاء ورئيس شعبة الفضاء الخارجي بنادى الطيران المصرى التي القاها في احتفال النادى بمناسبة يوم الطيران المصرى في ٢٧ يناير ١٩٨٥ .

« فى معظم المواد الاعلامية المختلفة غير محـدد بمحطة استهداف زمنية معينة ، باستثناء ماينشر فى قطـاع الاخبار من تصريحات أو بيانات عن خطط محددة أو تطورات معينة مرتبطة بفترة زمنية محددة . أماالموضوعات التحليلية ودراسات التقدير التى تميل الى تحديد زمنى معين فغالبا تركز على عام ٢٠٠٠ باعتباره سنة الاستهداف النهائية للدراسة . ويندر أن نجد مثالا أو دراسـة أو احصائية منشورة فى أى من أدوات الاعلام المصـرية تتناول المستقبل فيما بعد عام ٢٠٠٠ » .

رابعا : كذلك يلاحظ أيضا خلو الادوات الاعلامية من المواد الموجهة للاطفال والناشئة والتى تقدم لهم صـورة المستقبل وانجازات العلم فيه بطريقة بسيطة وجـذابة على النحو الملحوظ فى معظم بلاد العالم وقد يسـتثنى من هذا الحكم بعض الاعمال المتقطعة والمحاولات الفردية التى قامت بها مؤسسة دار المعارف ، وبعض برامـج التليفزيون المصرى .

خامسا : تكاد تخلو الاعمال السينمائية والانتـاج التليفزيونى المحلى فى مصر من أعمال الخيال العلمى التى تساعد على تقريب بعض صور الحياة فى المسـتقبل الى الذهن العام وقد يـكون من المفيد التنبيه الى أن تعريب وترجمة بعض الاعمال العالمية الكبرى فى هـذا المضمار على الاقل يمكن أن يكون له اثر كبير فى تهيئـة أذهان المواطنين للتعامل مع أدوات وصور الحيـاة فى المستقبل شريطة أن تختار الاعمال العالمية بدقة متناهية وبحيث لا تصطدم موضوعاتها وشخوصها ومسـتوى الاداء الفنى فيها مع أساسيات الطبـائع المحليـة

واحكامها القيمية الراسخة عن الحق ، والقوة ، والواقعية والايمان ، والمسالمة ..

سادسا : يمكن القول بالنسبة للاعلام الاذاعي والتليفزيوني أنه يقوم في تناوله للمستقبل عموما على افتراض خاطيء أساسه الاعتقاد بأن « المستقبل » منطقة متخصصة للعلم بمعناه التطبيقي والمعملي والتكنولوجي وليس مجالا رحبا لكل الظواهر والقيم والاشياء والتخصصات . وعلى ذلك فقد جاءت معظم المواد المقدمة في برامج « عالم الغد » و « آفاق الغد » و « القرن الواحد والعشرين » امتدادا لما يسمى بالبرامج العلمية « كنادي العلوم » و « والعلم والحياة » و « العلم في حياتنا » ، و « المحلية والعلمية » و « عالم الفضاء والطيران » . وقد يستثنى من ذلك بعض البرامج المتميزة كما في « حواء سنة ٢٠٠٠ » و « في العام القادم اتوقع ان » و « فكرة لبكرة » وغيرها من البرامج التي تتسع مادتها للنظر الارحب للمستقبل في مجالات متنوعة اجتماعية واقتصادية ، فردية وجماعية ، تقديرية او تأملية .

سابعا : ومع اشتراك معظم أدوات الاعلام خلال الفترة موضع البحث في بعض السمات والخصائص السابقة فمما لاشك فيه أن هناك تباينا نسبيا في نصيب كل من الادوات الاعلامية من هذه السمات كما انها تتأرجح بالنسبة للاداة الاعلامية الواحدة بين مرحلة واخرى وذلك وفق عدد من الاعتبارات الشخصية والتنظيمية والفنية والسياسية . وابرز تلك العوامل بالطبع نوعية الثقافة لدى صاحب المادة المنشورة او المذاعة ، والمستوى الفني والتخصصي للادارة الاعلامية ، ومدى الحرية

المكفولة فى نشر كل النتائج والتصورات المتوقعة فى المستقبل مهما كانت مثبطة للامال أو مسيئة الى طرف من الاطراف .

ويمكن لمزيد من الفحص أن نقسم الفترة الزمنية موضع البحث الى عدد من المراحل الجزئية التى تتسم معالجة الاعلام فى كل منها للمستقبل ببعض الخصائص والابعاد المشتركة .

المرحلة الاولى ١٩٧٠ - ١٩٧٤ :

جاءت معظم مواد الاعلام المتصلة بالمستقبل خلال تلك الفترة كاشارات عامة حول قضايا مستقبلية عامة « كضرورات واشكال التحديث الحضارى فى مصر » « ومهام وبرامج العمل الوطنى فى المرحلة المقبلة » « وحساب المتغيرات الدولية وآثارها المتوقعة على مسار العمل الوطنى فى مصر مستقبلا » . وكان الحديث عن علم المستقبلية محدود الانتشار بين الكتاب فى ذلك الوقت فلم يتحدث عنه سوى نفر محدود من كبار الكتاب ذوى الخبرة الواسعة وأولهم الاستاذ احمد بهاء الدين الذى قدم فى أهرام ٣-٨-١٩٧١ أول تعريف منهجى بعلم المستقبلية .

* وكان الباعث على اثارة الجزء الاعظم من المواد الاعلامية المتصلة بالمستقبل فى هذه المرحلة باعثا فوقيا يتخذ من « برنامج العمل الوطنى » الذى قدمه رئيس الدولة آنذاك ثم « ورقة الحوار حول المتغيرات الدولية وآثارها على العمل الوطنى » نقطة انطلاق للكتابة فى مستقبل مصر . فعقب اعلان برنامج العمل الوطنى وجدنا

مثلا مقالات الاستاذ أحمد بهاء الدين حول « رسم خريطة جديدة لمصر » ، ومقال د . جمال حمدان حول « خريطة مصر الجديدة .. وجغرافيا سنة ٢٠٠٠ » ومقال د . محمد عزت سلامة « مصر سنة ٢٠٠٠ » ومقال الاستاذ حاتم صادق « حتى نراعى ظروف العصر عند صنع القرار » ، والعدد الخاص من مجلة « الطليعة » حول « برنامج العمل الوطنى فى المستقبل »

* كذلك لوحظ انه عقب طرح ورقة « المتغيرات الدولية واثرها على مسار العمل الوطنى » فى أغسطس ١٩٧٣ ظهرت موجة جديدة من المقالات والدراسات المستقبلية فى الصحف والمجلات متابعة لهذا الموضوع المطروح « من فوق » . فنجد فى الصور مثلا مقال الدكتور محمد حافظ غانم « مصر عام ٢٠٠٠ » ، ثم مقال د . عبد العزيز كامل « الدين والعلم والاتجاه الى العالم فى المستقبل » ومقال د . جمال العطيفى حول « المتغيرات السياسية والمستقبلية » .

المرحلة الثانية ١٩٧٤ - ١٩٧٧ :

* وفى هذه المرحلة يظهر الدور الهام للمجالس القومية المتخصصة التى انشئت عام ١٩٧٤ فى أنعاش الرؤية والاهتمامات المستقبلية وامداد الصحف والاذاعة بمادة خبرية غنية عن دراسات المستقبل التى تضطلع بها .

فصارت الموضوعات المدرجة على جداول أعمال تلك المجالس فى محاور البحث والنشر عن المستقبليات فى المجلات والصحف اليومية والاسبوعية .

* كذلك يلاحظ في هذه الفترة التاثير القوي لنتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣ على نوعية الاهتمامات الصحفية حيث صار موضوع السلام مع أسرائيل ، وامكانات مصر التكنولوجية وتوجهاتها التنموية السلمية ، المحاور الرئيسية الغالبة على معظم مواد الاعلام المصرية عند تناولها للمستقبل . وطبيعي أن ينسب ذلك الى استعادة الثقة بالذات القومية فى مصر عقب النتائج الأيجابية الملموسة في الحرب . وقد لمس احد خبراء الظواهر الاجتماعية هذا الجانب حين كتب يقول : « ان الاداء البطولى للقوات المسلحة فى الحرب ومابرز للعالم كله من فاعلية الجندى المصرى وبسالته ، بالاضافة الى التخطيط العلمى الدقيق المتفق الذى سبق الحرب قد أدى الى تغيير ملموس فى تقييم الشخصية المصرية لدى عديد من الكتاب والمفكرين المصريين » وأنتهى صاحب هذا المقال الى أن المرحلة الجديدة يلزمها « نظرة علمية متوازنة لا تسقط في هوة اليأس القاتل بالتركيز على السلبيات . ولا تغامر بالمبالغة حول الايجابيات والطموحات » .

ويؤكد صاحب المقال الذى يعتبر نموذجا جيدا فى الدلالة على اتجاه سائر المقالات المتصلة برؤية المستقبل خلال تلك الفترة « ان محل ابداعنا الحقيقى هو كيف نخطط للتغيير بصورة عقلانية فلا نريد أن نعود الى الوراء كما ينادى بعض المفكرين .. ولا نريد أن نقفز قفزة عشوائية الى الامام تقليدا أعمى لمجتمعات اجنبية » (١)

* وعلى ضوء هذه الثقة بالذات راينا فى هذه المرحلة كيف أن حصار الكتمان والتعتيم الاعلامى المضروب

---

(١) د. سيد ياسين . حرب اكتوبر والنظرة العلمية للشخصية المصرية . مقال بالاهرام فى ١٩٧٤/١/٢٢ .

لسنوات طويلة حول التعريف باسرائيل واوضاعها الداخلية ورؤيتها للمستقبل قد نسف تماما فوجدنا دراسات علمية عن « الرؤية الاسرائيلية لمستقبل فلسطين «١» ، و « تقرير جامعة تل أبيب عن مستقبل الشرق الاوسط » .

« وجهة النظر الاسرائيلية حول مستقبل الضفة الغربية » كما وجدنا دراسات مشابهة عن « مستقبل العلاقات الفلسطينية السوفيتية » «٢» .

* وشهدت هذه الفترة أيضا بواكير الاهتمام الموجه مباشرة الى علم المستقبلية كحقل معرفى جديد دراسة وتعريفا وتقريبا . فقد صدر كتاب الاستاذ محمد سيد أحمد « عندما تسكت المدافع » عام ١٩٧٦ متضمنا مقدمة تعريفية وتأصيلية ممتازة لعلم المستقبلية ، وكتب الاستاذ أحمد بهاء الدين فى صحيفة الاهرام خلال نفس العام تعريفا بهذا العلم أيضا ثم صدرت للباحث دراسته التمهيدية المنشورة بدورية السياسة الدولية فتناول بالنقد والتعريف ملامح هذا البنيان المعرفى الجديد وضرورات الاخذ به فى حياتنا العربية ووسائل رفع معوقات الفكر المستقبلى لدى مجتمعاتنا الشرقية«٣»

---

(١) ابراهيم كروان • السياسة الدولية ـ عدد ٤٢ ـ اكتوبر ١٩٧٥ •

(٢) احمد يوسف احمد ـ السياسة الدولية ـ عدد ٤٢ اكتوبر ١٩٧٥ •

(٣) هانى خلاف : المستقبلية بين رحابة المنهج العلمى •• وقيود الفكر الشرقى • دراسة بالسياسة الدولية عدد اكتوبر ١٩٧٧ •

المرحلة الثالثة من ١٩٧٨ ــ ١٩٨٢ .

وتبدأ هذه المرحلة مع زيارة الرئيس السادات للقدس حيث اطلقت تلك الخطوة الجريئة وغير المسبوقة فى الممارسة العربية العنان بعدها لكل جهود البحث فى المستقبل بكل تحرر ممالل ، وكأنها ازاحت باختراقهـا للمألوف السياسى والنفسى الضارب فى ذهن المفكرين المصريين لما يزيد على ثلاثين سنة ــ أكبر قيود التفكير الحر ، وأصبحت بما قدمته من بدائل ومسالك جديدة فى العمل السياسى قدرات التخيل وفوارغ الطموح والتطلع غير المحدود الى المستقبل .

وكانت المواد الاعلامية ــ سواء المنشورة أو المذاعة اثيريا ــ أكثر مواد الفكر فى سرعة الاستجابة لهـذا المثير الهائل الذى تضمنته تلك الخطوة التاريخية . وكان طبيعيا أن تتركز الاهتمامات الاعلامية حينئذ فى بحث آفاق المستقبل فى عهد السلام . لذلك جاءت المـواد الاعلامية التى تتناول المستقبل المصرى فى فترة السـلام لتمثل حوالى ٦٠٪ من مجموع المواد المتصلة بالمستقبل عموما فى أدوات الاعلام المصرية المختلفة . وتركـز ذلك فى محورين :

الاول : تصورات الرخاء المترتب على الانتهاء من حـالة الحرب مع اسرائيل « ويشمل ذلك كل ما يتصـل بمستقبل الزراعة ومستقبل السياحة ومستقبل الكثافة السكانية ، ومستقبل الطاقة » .

الثانى : ويمثل نسبة أقل من سابقه ويدور حـول مستقبل العلاقة باسرائيل ذاتها ومستقبل مايرتبط بهذه العلاقة من أوضاع وتنظيمات ودوائر دبلوماسية خارجية

ومثال ذلك « مستقبل الوضع الامنى فى سيناء ـ ومستقبل الاوضاع الاجتماعية فى اسرائيل بعد السلام ـ ومستقبل الجيوش العربية ومستقبل العلاقات الامريكية العربية ومستقبل أمن البحر الاحمر ـ ومستقبل قناة السويس ، ومستقبل الوضع النووى فى اسرائيل » .

* ولقد ضاعف من اهتمام الاعلام فى هذه المرحلة بآفاق المستقبل ـ الى جانب خطوات السلام ـ ماشاع منذ بدايات ١٩٧٨ من أخبار ومشروعات عن « الثورة الخضراء » « وغزو الصحراء » « وانشاء مدن جديدة » « والكشف جيولوجيا وبالاقمار الصناعية عن المياه الجوفية » « ومسح التربة » مما صار موضوعا متجددا وحيا فى معظم الصحف والمجلات والبرامج الاذاعية والتلفزيونية على نحو ماتوضحه قوائم الحصر بالمواد المستقبلية الواردة فى أعداد مجلة أكتوبر ، والاهرام الاقتصادى ، والاخبار ، والاهرام ومجلة الشباب وعلوم المستقبل وفى مواد البرامج الاذاعية « عالم الغد » و « مصر الامل » .

المستقبلية ....
في مصر والعالم العربي ..
رفاهة .. أم ضرورة ؟

- قضية « احيينى النهاردة .. وموتنى بكره » والرد عليها ؟
- الاخطار الدولية الخارجية .. وضرورات التحسب للمستقبل .
- تحديات الطبيعة .. والبيئة فى المستقبل .
- مشاكل البنية الاجتماعية .. ومرحلة مفترق الطرق .

استهلال :

مسألة « احيينى النهاردة وموتنى بكرة » فى الفكر المصرى

أو قضية التوظيف الأمثل للموارد بين احتياجات الحاضر واحتياجات المستقبل

يميل البعض فى مصر الى اعتبار البحث فى أمور المستقبل وخاصة المستقبل البعيد ـ ضربا من الترف الفكرى الذى ان كان يناسب بعض المجتمعات المتقدمة فهو لا يناسب مرحلة البحث عن حلول لمشكلات طاغية فى الحياة اليومية الراهنة ببلادنا .. وترجمة لهذا الفكر يميل البعض الى توظيف الجهود والاستثمارات التى يمكن توفيرها لحل المشكلات الراهنة والملحة حتى ولو كان حلا مؤقتا أو محدودا ، وحتى لو كان هذا الحل على حساب اجيال اخرى قادمة .

ونستطيع أن نجد امثلة وترجمات عديدة لهذا الاتجاه الفكرى سواء فى نتائج استطلاعات الرأى العام التى تجريها بين الحين والاخر بعض مراكز ومؤسسات البحث الاجتماعى والاحصائى فى مصر ، أو فى بعض المناقشات البرلمانية والحزبية المتعلقة بعدد من المشروعات والقوانين القومية الكبرى (١) ، أو فى مقالات وكتابات بعض الصحف

---

(١) انظر مثلا مداولات البرلمان المصرى عام ١٩٤٦ حول فكرة انشاء سد أسوان ، والمناقشات المشابهة فى مجلس الشعب عن اثار السد العالى وفى موضوع النفايات الذرية ، وموضوع تجريف الارض الزراعية ، وعند مناقشة مشروع اغلاق قمائن الطوب الاحمر .

والمجلات ، وأخطر من ذلك أننا نجدها في عدد مـــن القرارات والاجراءات الادارية .

« والاخيرة سوف نناقشها في موضع آخر من هـــذه الدراسة حينما نتناول الرؤية المستقبلية في فكر وعمل الادارة المصرية ـ الفصل من الكتاب » .

أما الان فالذى يهمنا هو مناقشة أصـــل الموضـــوع والرد على المنطق الشائع شعبيا الى حد كبير والقـــائل برفاهية « أبحاث المستقبل » في مجتمعاتنا الحـــاضرة بظروفها ومشاكلها اليومية الملحة ، وفى ذلك نعـــرض النقاط التالية :

أولا : ان مايقال لها « المجتمعات المتقدمة » لم تبلغ في الواقع مرحلة تقدمها الا من خلال خطط للمســـــتقبل وضعتها شعوبها وقياداتها في أوقات سابقة وعملت على تنفيذها ومتابعتها بمسالك وأساليب علمية وتنظيميـــــة دقيقة . صـــــحيح أن الدراسات المســـــتقبلية بالمعنى الاصطلاحي المعروف حاليا وبوسائلها التكنولوجية وادواتها العلمية المستحدثة مؤخرا لم تكن قائمة بوضـــــوح في المراحل الاولى لنمو تلك المجتمعات المتقدمة ، وصحيح أيضا أن كثيرا من أسباب التقدم في بعض هذه المجتمعات كانت غير انسانية أو غير عادلة ـ على الاقل في نظـــر غيرها ـ الا انه تبقى الحقيقة الموضوعية الصريحة بأن قسما لا بأس به من انجازات التقدم في هذه المجتمعات جاء وليدا لتوافر رؤية واضحة للاحتياجات والظـــروف المستقبلية ، ولعل تفكير القائد البريطاني ونستون تشرشل ـ في منتصف الحرب العالمية الثانية وقبل أن تضع الحرب أوزارها ـ ببحث مستقبل بلاده واعادة بنائها فيما بعد الحرب ـ يعتبر مثالا واضح الدلالة على ذلك .

ثانيا : ان مايقال لها « المشاكل اليومية الملحة التي تواجهها الجماهير » ليست حكرا على البلاد النامية فحسب ، فلكل مجتمع مشاكله اليومية . ولكل مرحلة زمنية مشاكلها الخاصه بها بل قد تكون أكثر المشاكل اليومية تعقيدا بالمعايير الفنية والعلمية هي تلك التي تواجهها حاليا البلاد التي يقال عنها « متقدمة » . ورغم ذلك فلم تتوقف تلك المجتمعات عندها دون النظر الى غيرها من القضايا والاخطار الفنية والاقتصادية التي يتوقعها علماؤها في المستقبل . فمشاكل البطالة ، والتضخم ، والعنف ، والجريمة المنظمة ، والمخدرات ، والاغتصاب ، والارهاب السياسي لم تمنع المجتمع الامريكي مثلا من البحث في اخطار التلوث الكيمائي والضوضائي على مستقبل حياة الانسان ومستقبل التركيب البيئي ، ولم تحل تلك المشاكل الاتية واليومية التي يواجهها هذا المجتمع دون المضي في ابحاث إستغلال قاع المحيطات في زراعات بحرية ، وفي البحث عن بدائل للطاقة التقليدية ، والبحث في شئون الفضاء ، ومقاومة التصحر وما الى ذلك من مجالات جديدة وعديدة تستهلك الكثير مما كان يمكن توجيهه ــ من موارد وجهود ــ لحل مشكلات الحياة اليومية المعروفة في هذا المجتمع .

ورغم ما يقال عادة في بعض التفسيرات الايديولوجية المعينة عن حقيقة الدوافع الحاكمة لهذا التوجه المستقبلي في المجتمعات المتقدمة عموما والغربية منها على وجه الخصوص ، فسوف يبقى صحيحا أن معايير توصيف المشاكل وتحديد أولوياتها بين هام وغير هام معايير نسبية الى حد كبير وتتوقف على درجة الوعي العلمي المتوافر بفكرة التراكم الزمني وتاثيراته على الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

ثالثا : ويدفع القول بفكرة التراكم الى التذكير بأن أصول وبدايات معظم المشاكل الحياتية الراهنة التى يواجهها مجتمعنا المصرى ترجع فى حقيقتها الى عهود وأزمان طويلة فى الماضى ، ولو أن أحدا كان قد تولاها فى بداياتها بمنطق الرؤية المستقبلية بعيدة المدى لما امتدت أحجامها أو استشرت أبعادها على النحو الذى بلغته فى حياتنا الحاضرة .

ويكفى مثلا أن نشير الى ما كان يمكن أن يسفر عنه برنامج مبكر وجدى فى عام ١٩٥٢ لمحو الامية بين المصريين من نتائج ايجابية تترك آثارها الحميدة على معدل التزايد السكانى وبالتالى على مستوى الدخل الفردى ، وبالتالى على معدل الانتاجية الفردية ، ومايتبع ذلك من نتائج وفروع نتائج تحملها فكرة التراكم الحميد أو دوائر التنمية الحميدة .

ولا يجرؤ أحد مع ذلك ـ ومهما بلغ حماسه العاطفى أو وعيه العلمى بالمستقبل البعيد ـ على القول بوجوب تجنيد كل الطاقات وتوظيف كل الموارد والامكانيات الحالية فى خطط تستهدف رفاهة سكان مصر الذين سيعيشون على أرضها بعد خمسين عاما أو ما يقارب ذلك ، والتضحية من أجل هؤلاء برفاهية الحاضر تماما ، فالقول بذلك يصبح انتقالا من تطرف الى تطرف آخر وانما المقصود أن يستحضر المخططون عند وضعهم لخطط التعليم والتنمية والاستثمار والانتاج فكرة التراكم التى هى المفتاح الصحيح وصمام الامن الرئيسى لكل لخطط التعليم والتنمية والاستثمار والانتاج فكرة التراكم سواء الحميد Postive أو المعيب Vicious وكذا لمدي هذا التراكم ومراحله الزمنية العديدة .

رابعا : والى جانب الدفوع الموضوعية المطروحة آنفا للرد على المنطق القائل بان أبحاث المستقبل نوع من الترف الذى لا تحتمله الاوضاع والمشاكل اليومية الملحة فى مجتمعنا يلزم أيضا الاعتراف ببعض وجوه القصور والتقصير التى تكتنف ابحاث المستقبل ذاتها وطريقة عمل المؤسسات القائمة عليها . مما يكرس لدى العامة والبسطاء والمعارضين المشككين انطباعاتهم السلبية عنها .

وبرغم أننا سوف نخصص مبحثين كاملين فى الفصل الثالث من هذا الكتاب لدراسة تفصيلية عن أعمال المراكز والمؤسسات المسئولة عن البحوث المستقبلية فى مصر وتقويم ادائها وعرض مشاكلها الا انا نود الاشارة هنا فى هذا الموقع الى اهمية ايجاد قنوات اتصال بين عمل هذه المراكز والمؤسسات المتخصصة والرأى العام الشعبى فى مصر . يتم من خلالها تبسيط الابحاث المتخصصة عن المستقبل وتقديمها الى الرأى العام مع ماقد يلزم من شروح وايضاحات تبين الفوائد المباشرة وغير المباشرة لهذه الابحاث وتوضح بطريقة عملية ومبسطة وبلغة يفهمها غير المتخصصين كيفية الانتقال الى صورة المستقبل التى تنتهى اليها تلك الابحاث والدور المطلوب من المواطن للمشاركة فى هذا الانتقال ـ سواء بالفعل الايجابى أو الفعل السلبى ـ وبذلك تتكون علاقة فهم وتعاطف ومشاركة بين « علماء » المستقبلية والمواطنين أصحاب المصلحة فى هذا المستقبل الذى يخطط له العلماء .

وبديهى أنه كلما كانت تلك الابحاث متصلة اتصالا وثيقا بما يستشعره الناس من مشاعر أو مشاكل أو مخاوف

او امانى فان تلك العلاقة الجديدة المقترحة سوف تنجح فى تحريك الموقف التقليدى الشائع عند بعض النـــاس ازاء المستقبل وابحاث المستقبل وليس مستبعدا حينئذ أن يشيع بينهم ماثور جديد يقول « موتنى النهـــاردة واحيينى بكرة » .

ضرورات التحسب للمستقبل في مصر والعالم العربي

واذا كان الوعى بالمستقبل يعتبر أحد القرائن والوسائل التي ارتبطت بها عمليات النمو فى كثير من بلاد العـالم المتقدمة حتى بلغت مراحل تقدمها الحالي .. فان التسلح بهذا الوعى فى الحالة المصرية والعربية الراهنة لم يعد مجرد اختيار ارادى وانما أضحى ضرورة حياة وشرطا من شروط البقاء .

ويمكن القول اجمالا بأن هناك ثلاثة انواع من الضرورات الحيوية التى تحتم على مصر والعالم العربى التســـلح السريع والحكيم بمناهج دقيقة فى رؤية المستقبل واعداد العدة له بأسباب التحصين وأسباب التحكم .

* والنوع الاول من هذه الدوافع يتعلق بالاخطـار الخارجية المحيطة بمصر والعالم العربى والتى تتبدى فى تكاثر القوى الدولية ذات المصلحة فى استلاب مـــوارد المنطقة . بالاضافة الى تحفز عدد من القوى الاقليمية المجاورة لمنطقة الشرق الاوسط وتطلعها للتاثير فيها بأمل الحلول محلها فى الدور الدولى أو الدور الاقليمى .

* والنوع الثانى يتمثل فى التحديات الطبيعيـــة والبيئية التى بدأت مصر ودول المنطقة فى التعرض لها مؤخرا . والتى يتوقع أن تتعرض لها مستقبلا مما يؤثر

على حجم ونوع امكانيات القوة الموضوعية ومستوى المعيشة لشعوب المنطقة في المستقبل .

* واما النوع الثالث فيتمثل فى نوعية المشاكل الاجتماعية والبنيانية التى بلغت في مصر والعالم العربى مرحلة الاحتدام الحرج والتى تتحدد بها وعندها كثير من ملامح حياة الناس والانظمة والمؤسسات فى المستقبل .

الأخطـــــــار
والمؤثرات الخارجية

بين نظرية التآمر الاجنبى .. والتطور الموضـــوعى للعلاقات الدولية :

يلزم التمييز ابتداء بين الرصد الموضوعى للمؤثرات الخارجية السالبة التى يتوقع أن تتعرض لهـا منطقة الشرق الاوسط مستقبلا بتاثير من الانعكاسات الطبيعية والظروف الموضوعية المتطورة للقوى والاطراف الخارجية وبين الاعتقاد المسبق والدائم بان هنـــاك تآمرا تاريخيا ثابتا ومتكررا ضد مصر والعالم العربى من جانب الاطراف الاجنبية .

ووفقا للموقف الاخير الذى تميل اليه كثير من نماذج الفكر العربى السائد تكون الاطراف الاجنبية هى المسئولة عادة عن كل ماتواجهه مجتمعات المنطقة من مشـــاكل وصعوبات وانتكاسات . بل ان بعض نماذج هذا الفكر تذهب الى ابعد من ذلك فتحكم على مستقبل الحيـــاة بالمنطقة العربية من خلال ماتراه فقط او ماتتوهمه فى بعض الاحيان من خطط الاخرين التى يستهدفون بهـــا « كسر الارادة العربية » تارة ، او « اجهاض الحضارة الاسلامية » تارة اخرى او التى يستهدفون بها — فى كثر التقديرات تواضعا واقربها الى الموضـــوعية — « استلاب مزايا المنطقة على حساب اهلها » . والخطأ فى انتهاج هذا النهج العقائدى المسبق والدائم انه يهمل

وسط شعاراته الساخنة وعاطفيته المثيرة للابعاد والاسباب الموضوعية والذاتية الاخرى التي يحتويها المجتمع العربي في داخله ، وكأن حياة الناس في هذه البقعة من العالم قد خلت من ارادات واختيارات وصراعات محلية ، ومشاكل وامكانيات ذاتية يمكن أن تلعب دورا مماثلا ان لم يكن أكبر من دور الاطراف الخارجية في تشكيل مستقبل المنطقة .

وسواء كان الدور الاجنبي المقصود هنا دورا تآمريا سالبا أم كان دورا ايجابيا معاونا فان التسليم بمبدأ طغيان المؤثرات الخارجية على مستقبل الحياة في منطقتنا يعتبر ــ على هذا النحو ــ اخلالا بحقائق الحياة المرصودة في التاريخ والجغرافيا وعلوم السياسة والاقتصاد والاجتماع .

حقا قد تكون هناك توجهات قديمة ، وأدوار خاصة ، وخطط مرصودة تعمل في اطارها ووفقا لها عدد من القوى الاجنبية ازاء منطقة الشرق الاوسط عموما والعالم الاسلامي خصوصا ومصر والعالم العربي على وجه أخص، الا أن معايير الاهمية وأولويات الاهتمام تختلف نوعياتها ودرجاتها بين مختلف القوى الخارجية ، فمن هذه القوى مايركز اهتماماته في المنطقة على بترولها وثرواتها الطبيعية ، ومنها ماتتسع اهتماماته لما هو أكثر من مجرد البترول فيسعى الى التعامل مع المنطقة باعتبارها منطقة الحضارات والثقافات المنافسة ، ويسعى آخرون للتعامل معها باعتبارها سوقا لتصريف منتجاتهم ، أو لتجريب أسلحتهم ، ويهتم بها آخرون باعتبارها المدخل الجغرافي الى غيرها من مناطق لها عندهم اهمية أسبق وأولى ، وهكذا تختلف معايير الاهمية وتتباين توجهات ودرجات

ما يسمى بالمخطط الاجنبي للتوسع والسيطرة بحيث تصير النظرية المطلقة في التآمر الاجنبي الثابت والدائم Grand Consipiracy Theory التي يحلو لرافعي الشعارات بيننا التحدث عنها ـ تعميمــا غير علمي أو تبسيطا مخلا لملاقات موضوعية ومسارات تاريخيــه متغايرة أو قابلة للتغيير .

فالمهم اذن أن يكون رصدنا للمؤثرات الخارجية المختلفة رصدا موضوعيا دقيقا يبعد بنا عن دائرة التعميم والاطلاق والتصورات الدوجماتية المسبقة ويقترب بنا من حقيقة الظروف والدوافع والحاجات التي تحيط بمــواقف الاطراف الاجنبية كل على حدة أو في اطار التنسيق المتيقن بينها .

وذلك ما نحاول تقديمه الآن فيمــا يلي مستحضرين دائما الدور المقابل الذى يمكن أن تلعبه الارادات المحلية في منطقتنا من اجل استثمار وتوجيه مايمكن استثماره وتوجيهه من المصالح المتعارضة لدى الاطراف الاجنبية وبهدف تحويل الدور الاجنبي ليكون في المستقبل لنا وليس علينا .

١ ـ مستقبل الشرق الاوسط في الخطط والتصورات الامريكية :

يمكن القول اجمالا ان منطقة الشرق الاوسط لهــا في الفكر السياسي والاستراتيجي الامريكي ثلاث أهميات . .

الاهمية الاولى : في موقعها الجغرافي الملاصق للحدود الجنوبية والغربية للغريم الدولي الاول وهــو الاتحاد السوفييتي . .

والاهمية الثانية : فيما تمثله هذه المنطقة حاليــا

ومستقبلا من أسواق تجارية وفيما تحمله طبيعة أرضها من موارد اقتصادية وثروات طبيعية مناسبة للاستثمارات الامريكية ولازمة لتشغيل العجلة الاقتصادية ذات الانطلاق الواسع والمتعدد .

ثم تأتى الاهمية الثالثة لمنطقة الشرق الاوسط فى الفكر الامريكى فى اطار ماتقدمه النظريات والدوافع الاسلامية من تحديات خطيرة للمصالح الامريكية وللفلسفة الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى العالم الغربى عموما .

وعلى ضوء هذه الاهميات المحورية الثلاث يمكن أن نرى خطوط الحركة الامريكية ازاء مستقبل المنطقة وهى حركة محسوبة يمكن رصد بداياتها مع بواكير الثروة البترولية التى ظهرت فى المنطقة بمعدلات اقتصادية عالية فى أوائل الخمسينات ، وألتى تزامنت مع موجات المد الاستقلالى التى انتشرت فى أرجاء البلاد العربية خلال نفس الفترة ، فى مواجهة القوى الاستعمارية الاوروبية التقليدية ، فاستثمرتها الحركة الامريكية استثمارا ذكيا للتغلغل الى اعماق المنطقة وتسيير مسارات الحياة فيها على نحو يتوازى مع مصالحها الخالصة .

وتظهر فى التصريحات الرسمية وفى الادب السياسى الامريكى المعاصر عدة تصورأت ودراسات وأدوار خاصة بمستقبل الشرق الاوسط مما يدور فى اطار هذه الاهميات الثلاث الموضحة سابقا .

وفيما يلى نعرض للنقاط المشتركة التى تكرر ورودها داخل معظم هذه التصورات والدراسات .

ا ــ احتمالات التدخل العضوى « العسكرى » لتأمين منابع البترول فى السعودية والخليج وتأمين انسياب

تدفقه للعالم الغربي (١) ، مع دراسة فرص الكشف البترولي الجديد في كل من اليمن ومصر وجنوب السودان .

ب ـ امكانيات استغلال الطاقة الشمسية المتوافرة بالمنطقة بعد نفاذ احتياطي البترول .

جـ ـ رصد وتطويق واستثمار مايسمى « بالمد الشيعي الاسلامي » وانعكاساته المتوقعة على منطقة الجزيرة العربية والخليج ودور الثورة الايرانية في ذلك .

د ـ احتمالات القلاقل المستقبلية بين الجمهوريات والاقاليم السوفييتية المتاخمة لايران وتركيا ذات الاغلبية المسلمة .

هـ ـ الدور المتوقع لبحر العرب والبحر الاحمر في مستقبل الصراع الدولي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة «٢» .

---

(١) انظر مقال هنرى كيسنجر في مجلة بزنس ويك الامريكية عدد يناير ٧٥ وتصريحات وزير الدفاع ووزير الطاقة الامريكية امام لجنة العلاقات الخارجية مجلس الشيوخ الامريكي في ٧٩/٢/٢٨ وكذلك خطاب الرئيس الامريكي فورد في افتتاح الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة في ١٩٧٤/٩/١٨

(٢) تشير الدراسات التي تمت الى ان افضل المواقع بالنسبة لخطة الرئيس ريجان المسماة « بحرب الكواكب » للتعامل مع الصواريخ السوفييتية هي بحر العرب ، وبحر النرويج ، وهذا يقلل من اهمية الحلفاء الغربيين من وجهة النظر الامريكية .

انظر دراسة اللواء ا٠ح٠ امين نمر ـ مدير المخابرات الحربية والاستطلاع بعنوان : « خطة الرئيس ريجان حرب الكواكب والصراع الدولي » ـ مجلة الدفاع ـ العدد الثالث ـ ابريل ١٩٨٥ ص ٣٦ ويتوقع صاحب الدراسة أن يبدأ تأثير هذه الخطة الامريكية الجديدة في علاقاتها بالعالم الثالث والحلفاء الغربيين خلال السنوات العشر القادمة .

و ـ الافكار الخاصة بالتعاون مع الصين في شرق افريقيا لتحجيم التواجد السوفييتي ومنع انتشاره الى القارة الافريقية والتحكم بمزيد من الحرية في الممرات المائية العربية « باب المندب ـ مضيق هرمز » .

ز ـ احتمالات حل القضية الفلسطينية وشكل الدولة المتوقع انشاؤها على الحدود الشرقية لاسرائيل والتوجهات السياسية والمقومات الاقتصادية المطلوبة لها وضمانات الامن فيها .

ح ـ التنبؤات الخاصة بمستقبل تطبيق الشريعة الاسلامية في كل من مصر والسودان ودراسة مستقبل الاقليات العنصرية والطائفية بهما والمنطقة ككل .

والملاحظ على وجه العموم ان الولايات المتحدة لاتعتمد في تصوراتها التي تطرحها في اطارات رسمية أو في اطارات غير رسمية على مجرد « الحماس الايديولوجي » أو « الانفعال بالمصالح الوطنية » وانما تعزز هذه التصورات بدراسات وتجهيزات تزيد من مقدرتها على التنبؤ المبكر والدقيق بالاحداث المستقبلية .. وحين فوجئت امريكا مثلا في عام ١٩٧٩ بالاحداث الايرانية الصاخبة ثارت ثائرة الكثيرين داخل الولايات المتحدة لعدم امكان التنبؤ مسبقا بهذه الاحداث وحجمها ، وقامت على الفور مجموعة عمل خاصة على مستوى عال مكونة من عدة اجهزة بدراسة لنشاط وكالات المخابرات ودور المؤسسات الامريكية العاملة في بحوث المستقبل والتنبؤ وذلك بهدف تحسين قدرتها على التنبؤ بالقلاقل السياسية وخاصة في البلاد ذات الاهمية المتميزة بالنسبة للولايات المتحدة.

وبرغم أن مدير وكالة المخابرات الامريكية قد حاول

اخفاء هذا الفشل الامريكي وانكاره في حينه (١) ، الا أن التحركات والتعديلات التى شهدها المجتمع الامريكى بعد ذلك فى أبنية ومؤسسات جمع المعلومات وابحاث التنبؤ والدراسات المستقبلية تؤكد أن الولايات المتحدة لم تعد تقبل بل لم تعد تحتمل تكرارا فى اخفاق حساباتها الراصدة وتوقعاتها المسبقة .

واذا كانت الولايات المتحدة تعتبر الدولة صاحبة الاسهام الاكبر حتى الآن فى نشأة وتطوير الدراسات المستقبلية وابحاث التنبؤ .. فان فضلا كبيرا فى ذلك لاشك يرجع الى تعدد وتنوع الاجهزة المتخصصة فى هذه الدراسات المستقبلية . ففى أمريكا يوجد على المستوى الحكومى نوعان من التنظيمات والمؤسسات العاملة فى حقل المستقبل .. الاول يشمل تلك الاجهزة التابعة مباشرة لرئيس الجمهورية كمجلس الامن القومى ومجلس المستشارين الاقتصاديين ، ومجلس بحوث الطيران والفضاء ومكتب العلم والتكنولوجيا ، والمجلس القومى لتنمية المصادر والهندسة البحرية ، ومكتب العلاقات الحكومية ، ومجلس الشئون الداخلية ، ومكتب التخطيط للظروف الطارئة ، ووكالات المخابرات المركزية .

والنوع الثانى يشمل عددا من الهيئات المستقلة التى

---

(١) ذكر مدير وكالة المخابرات المركزية فى حديث لمحطة تليفزيون الامريكية فى ١٩٧٩/٢/٤ أن التنبؤ بالاضطرابات السياسية والانقلابات العسكرية ونتائج الانتخابات هو أصعب أعمال المخابرات • وانه ما من جهاز للمخابرات فى العالم ـ حسب علمه ـ استطاع أن يتنبأ بالاحداث التى وقعت فى ايران (انذاك) •

تكون فرعا خاصا من فروع السلطة التنفيذية . ويذكر دليل الحكومة الامريكية ٣٢ هيئة مستقلة رئيسية تحت هذا الاطار .. من بينها ثلاثة مما يتصل عملها بموضوع الدراسات والتحضيرات اللازمة للمستقبل كالهيئة القومية للعلوم والهيئة القومية للفنون والانسانيات والمجلس الاتحادى للعلم والتكنولوجيا .

وفي خارج النطاق الحكومى ، يوجد فى الولايات المتحدة مئات من المؤسسات والهيئات والجمعيات التى تعمل فى مجالات جمع وتخزين المعلومات كمؤسسة راند Rand Corporation أو في مجال تطوير العلوم كالاكاديمية القومية للعلوم والاكاديمية القومية للعلوم الهندسية ، أو فى مجال البحوث المستقبلية : كالمجلس القومي للبحوث وجمعية عالم المستقبل World Future Society ومقرها واشنطن ، ومركز ابحاث تخطيط التعلم ومقره فى سيراكيوز ـ نيويورك ـ واقسام الدراسات المستقبلية فى معهد ماساتشوتستى للتكنولوجيا فى بوسطن ، ومركز الدراسات المتكاملة بجامعة نيويورك .

والى جانب أعمال التنبؤ التى تقوم بها المؤسسات الامريكية الرسمية وغير الرسمية على النحو السابق ـ تقوم الجامعات والمدارس الثانوية فى الولايات المتحدة بتدريس مقررات متخصصة فى علم المستقبلية بلغ عددها ٤٧٥ مقررا دراسيا ، وذلك فى الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧١ ـ فقط . كما أن ١٨ ولاية أمريكية ادخلت هذه المقررات ضمن برامج التعليم الرسمية بها ، كما تتخصص فى الولايات المتحدة الآن عدد من دور النشر والتوزيع للدراسات المستقبلية بحيث يقتصر نشاطها على هذا المجال .

٢ - مستقبل الشرق الاوسط فى التصورات والتحركات السوفيتية :

يستطيع المتابع المدقق للمرحلة الحالية أن يلمح عددا من التحركات السوفييتية في منطقة الشرق الاوسط والمناطق المحيطة بها من زوايا مختلفة وذلك على النحو التالى :

* تزايد التسليح السوفييتى لليبيا وسوريا والتواجد العضوى بهما فى اطار خبراء عسكريين وخبراء تنمية اقتصادية .

* محاولات اقتراب « أشبه بالمغازلات السياسية » مع كل من السعودية والكويت والمغرب والاردن ، وهى الدول ذات الانظمة التقليدية التى كانت لموسكو نحوها مواقف ونظرات غير ودية فى مراحل سابقة .

* محاولات لتثبيت الوجود السوفييتى فى عدن والانتقال منه الى اليمن الشمالية وخاصه مع تزايد احتمالات اكتشاف البترول على الحدود المشتركة بين اليمنيتين .

* الدخول المكثف فى الشارع اللبنانى بعد غيبة التواجد السوفييتى المباشر عن الارض اللبنانية .

* استمرار الامداد العسكرى للعراق حتى بعد توجه الاخير لاعادة العلاقات مع واشنطن .

* الاحاطة بالشرق الاوسط من أفغانستان شرقا الى اتيوبيا والصومال وأريتيريا جنوبا .

* الاهتمام المتزايد بمنطقة جيبوتى ومحاولة الاقتراب من الصومال وخصوصا بعد تبين أهمية مداخل البحر الاحمر ودورها فى التحكم بالملاحة فيه والدخول الى مياه المحيط الهندى .

* السياسة السوفيتية المتبعة بحرص وحنكة ازاء مسأله هجرة اليهود السوفيت لاسرايل ، واستثمار هذه السياسة بطريقة ذكية في الضغط على طرفي الصراع العربي الاسرائيلي بما يحقق المصلحة السوفييتية في المقام الاول .

وقد تختلف التفسيرات لهذه التحركات والسياسات السوفيتية بحسب مواقع المفسرين ومواقفهم السياسية كما تختلف بحسب قدر العلم المتاح عن الظروف والعوامل الداخلية التي تحكم حركة الاتحاد السوفييتي الخارجيه .

ففي احد التقارير السنوية التي اعدتها وكالة المخابرات المركزية الامريكية عن اتجاهات ومؤشرات التطور في القوة الانتاجية والمستوى الاقتصادي لدى اهم دول العالم جاء مثلا أن الاتحاد السوفييتي مقبل - لا محالة - على استيراد البترول الخام وأن توجهاته الطبيعية المتوقعة في هذا الصدد ستكون نحو المناطق القريبة منه .. ويقدر التقرير أن ذلك قد يحدث خلال الثمانينات .

ويؤكد تقرير آخر لمعهد ابحاث الشئون الخارجية - صدر في لندن بتاريخ ٢ فبراير ١٩٧٩ - ان الاتحاد السوفيتي سيحرز تقدما كبيرا في مجال القوة النووية الاستراتيجية خلال نفس الفترة وان هذا التقدم سيتضمن بالضرورة توزيعا جديدا لمواقع الصواريخ العابرة للقارات وزيادة في عدد الغواصات النووية التابعة للاسطول السوفيتي في البحر الابيض المتوسط .

وفي دراسة ثالثة نشرتها الدورية الخاصة بالاكاديمية الامريكية للعلوم والفنون في عام ١٩٦٧ جاء أن هناك توقعات لحدوث أزمة سياسية داخل الاتحاد السوفيتي

فى نهاية الثمانينات تتمثل فى اضطرابات على نطاق واسع تكون بدايتها مطالب الاقليات ، وقد تصل الى تدهور نسبى ومؤقت فى السلطة المركزية تجاه الاقاليم السوفيتية النائية ، مع احتمال حدوث بعض الصراعات العلنية بين القطاعات الرئيسية داخل الحكومة حول مسائل السياسة الخاصة بالسلع الاستهلاكية وبعض مسائل السياسة العسكرية .. وقد يؤدى ذلك الى انقسامات داخل الحزب الشيوعى . ويصاحب ذلك ـ كما تتوقع الدراسة ـ ضعف القبضة السوفييتية على شرق أوربا ، واحتمال حدوث محاولة لاعادة توحيد الالمانيتين تجهضها على الفور المساعى والاتصالات الدبلوماسية المشتركة بين الولايات المتحدة وبعض دول شرق أوروبا .

واذا كانت الدراسات السابقة تقدم بعضا من التوقعات والتفسيرات الغربية للحركة السوفييتية المستقبلية فان الجانب السوفيتى نفسه له تصوراته وتفسيراته وتوقعاته المختلفة .. ففى دراسة نشرها الخبير السوفيتى هنرى تروفيمنكو فى الدورية الامريكية « السياسة الخارجية » Foreign Affairs. جاء أن السياسة السوفييتية الداعمة للبلاد النامية والتى تشمل ٧٠ دولة وتتضمن توسيع حوالى ١٠٥٠ صناعة محلية وعددا آخر من المشروعات القومية .. انما هى تعبير عن تنامى الاقتصاد السوفيتى ..

ويؤكد تروفيمنكو أن السوفيت « ليس لديهم تطلع الى توسيع حدودهم الجنوبية ولو لبضعة أميال ، وانهم فى غنى عن بترول الشرق الاوسط لان لديهم ما يكفيهم بل وما يمكن لهم تصديره للغرب » وانهم لا يتطلعون الى النزول فى مناطق يتحتم فيها المواجهة مع الامريكيين مما

قد يصل الى حد المواجهة النووية .. » ، وفى عبارة ذات دلالة يذكر الخبير السوفييتي أن « ثمن البترول العربى لا يقارن بالحرب النووية التي يمكن أن تسفر عنهـا المواجهة مع أمريكا » ويؤكد الكاتب « أن السوفييت مستعدون للتفاوض لرفع المخاوف القائلة بوجود تطلع سوفييتي نحو بترول الخليج » .. وهم « يدعون الى اتفاق دولى يضمن حقوق السيادة لدول المنطقة وتأمين الممرات المائية وغيرها » .

وقد تستلزم هذه المقولات السوفييتية عن عدم احتياج موسكو لبترول الشرق الاوسط وعن حقيقة نمو الاقتصاد السوفييتى باعتباره العنصر المساعد على تنمية المعونات السوفييتية الخارجية وقفة فحص وتحقق على ضوء المعروف عن حالة المحاصيل الزراعية السوفييتية فى بداية الثمانينات واللجوء السوفييتى الى التكنولوجيا الغربية فى مشروعات الغاز الطبيعى بسيبريا وخط انابيب البترول فى اوربا ، وموقف العمـالة الأجنبية فى الاتحاد السوفييتى ، والاصرار على عدم اعادة جدولة الديون بالنسبة لبعض البلاد التى تتلقى منهم معونات عسكرية أو أقتصادية .

٣ ـ مستقبل الشرق الاوسط فى الخطط والتصورات الاوربية :

برغم أن الكثيرين فى كل من أوربا الغربية وبلاد الشرق الاوسط بما فيها اسرائيل يعترفون ضمنيـا بوجود بعض الابعاد الدفينة أو الكامنة فى علاقاتهم المشتركة .. الا انهم يحاولون ـ جاهدين ـ تصوير هذه الابعاد ايجابيا وتوجيهها الى حيث لا تطفو على سطحها المواقف الكامنة فيها بفعل التنافس التقليدى بين الحضارات .

فعلى الجانب الفرنسى مثلا يستطيع قارىء مذكرات ديجول تحت عنوان « الامل ـ التجدد ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢ » أن يلحظ استحضار فرنسا لفكرة « الدور التاريخى » و « العودة من جديد » ـ يقول ديجول : « فى هذه البقعة من العالم « يقصد الشرق الاوسط » حيث كانت فرنسا دائما حاضرة وفاعلة من الطبيعى أن نعمل على استعادة دور فرنسا التاريخى خصوصا مع الاهمية السياسية والاستراتيجية الكبرى التى اضيفت فى العصر الحديث الى وادى النيل ودجله والفرات والبحر الاحمر والخليج » .. ثم يستطرد ويقول « ان كل شيء يدعونا الى العودة من جديد الى القاهرة ودمشق وعمان وبغداد والخرطوم وان نبقى فيها كما بقينا فى بيروت .. طلاب صداقة وتعاون » .

وفى نفس هذه المذكرات كتب ديجول أيضا مشيرا الى اهمية وحيوية البعد الحضارى والثقافى فى علاقة فرنسا بالمنطقة « ان لكل من فرنسا والبلاد الواقعة على الجانب الآخر من البحر المتوسط نسقه وعبقريته فى التقدم نحو الحضارة الصناعية . فاذا أردنا أن نبنى حول هذا البحر المتوسط حضارة كبرى لا تمر عبر النموذج الامريكى فلابد عندئذ أن تتفتح حضارة كل منا على حضارة الآخر » .

واذا كان ديجول قد استحضر بهذه العبارة فكرة « اللقاء الحضارى » فقد استحضر فى نفس الوقت فكرة « استقلالية حضارة البحر المتوسط فى مواجهة النموذج الامريكى » . ونفس هذه الفكرة الاخيرة نراها تتردد على لسان ميشيل دوبريه وزير الدفاع الفرنسى فى عهد ديجول ولكنها موجهة هذه المرة الى غرماء فرنسا التقليديين فى أوربا الغربية حين قال « ان الذين ينتقدون توجهات

فرنسا نحو المنطقة العربية لاشك منافقون .. وأن مايثير جزع الانجلوساكسون فى المقام الاول هو أن فرنسا بدات تستعيد أسواقهم الاقتصادية هناك » .

وسواء تميزت أشكال العلاقات الاوروبية القادمة مع منطقة الشرق الاوسط والبلاد العربية بالصراع أو تميزت بالتعاون فالذى لاشك فيه أن المنطقة تمثل لاوروبا اهمية قصوى ومجالا حيويا تحرص على الانفراد به لنفسها دون منازعة من جانب السوفيت أو الامريكيين .

وقد يكون من الواجب على شعوب الشرق الاوسط الانتباه تماما الى حقيقة الدوافع والتوازنات الدقيقة التى تحكم الحركة الاوروبية تجاه منطقتهم ، ورصد ماقد يكون فيها من تناقضات وصراعات داخلية ظاهرة أو كامنة مما يمكن استثمارها لصالح المنطقة مستقبلا ... وقد يكفى الاشارة هنا الى الوصف الذى اطلقه نيكيتا خروتشوف السكرتير العام الاسبق للحزب الشيوعى السوفيتي اذ قال : « ان السوق الاوروبية المشتركة وضع شاذ يشبه زواج رجل برجل ، وهو تقريبا نفس ماذهب اليه مارشال ماكلوهان ـ حين قال أن المظهر الوحيد للوحدة الاوروبية هو مظهر اليكترونى » ، وبرغم ماقيل عن وجود ملامح قومية أوروبية جامعة اسمها القومية الاقتصادية Economic Nationalism
وان هناك ولاء أوروبيا قاريا يعبر حدود الدول الاوروبية فى انسياب وانطلاق تؤكده ظواهر عامة كثورة الطلاب الاوروبيين فى توقيت واحد عام ١٩٦٨ ، ويدعمه الاحساس بخطر المنافسة الخارجية الواردة من الشاطىء الآخر عبر الاطلنطى .. فانه لا تزال هناك اختلافات سياسية لا يمكن انكارها ، وطبائع شعبية يصعب تغييرها ومصالح خاصة بكل دولة أوروبية لايمكن تجاهلها .

والذى يهمنا فى كل هذا هو كيفية توظيف كل من حقائق الاتحاد وحقائق الخلاف بين هــذه الوحدات الاوروبية فيها يحقق المصلحة العربية الاساسية سواء كان ذلك فى اطار الحوار الحربى الاوروبى الجماعى ، أو كان فى اطار العلاقات الثنائية المباشرة .. وهناك بالطبع مجالات مستقبلية عديدة لهذا التوظيف نذكر منهـا على سبيل المثال : مشروع تحييد البحر المتوسط ، ومشروع اعلان الشرق الاوسط منطقة خالية من الاسلحة النووية، ومشروع سوق البحر المتوسط المشتركة ، وقضـية القدس ، وتأمين الملاحة فى البحر الاحمر ، والامـن الاوروبى (١) .

نبوءة نوستر أداموس :

وفى الادب الاوروبى القديم نستطيع أن نلحظ بعض الاشارات الاخرى التى تتصل بالرؤية الاوروبية لمستقبل الشرق الاوسط ، ومن بين هذه التصورات ما جاء فى شكل نبوءة لاحد الكهان العرافين فى فرنسـا ويدعى نوستراداموس .. والحق أننا لم نكن لنرضى فى هـذا البحث الذى يزعم لنفسه قدرا من الصفة العلمية والذى يتوجه فى الاساس الى تبنى فـكرة دراسة المسـتقبل بطريقة علمية وجادة وموضوعية بأن نعرض فيه لمقولات العرافين أو لبوءات الكهان والقديسين ، وانما يشفع لنا

(١) سبق للباحث تفصيل هذا الرأى فى دراسته المقدمة لمعهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية بعنوان : (الخطر الاسرائيلى على أوربا ـ دراسة فى اختلاف المصالح ـ مايو ١٩٧٣) .

فى هذا الاستثناء الحرص على تبين بعض الابعاد الواردة فى التراث الادبى الاجنبى عن الشرق الاوسط واهميته ومستقبله مما قد يفيد فى التعرف على ما نسميه بالابعاد الكامنة او التصورات الدفينـــة التى تقف وراء بعض السياسات الاوروبية بطريقة غير مباشرة والخطير والمهم فى هذه الحالة الفرنسية التى سنعرضها انهـا جـاءت متطابقة الى حد كبير مع كثير من المـلامح والتطورات المعاصرة التى نشهدها على مسرح الشرق الاوسط .

لقد كتب نوستراداموس يقول فى نبوءاته الشـهيرة التى اتخذت فى القرن السابع عشر شكل المذكـرات الرمزية :

« سوف يشهد العالم على مسرح الشرق خـــلال اربعمائة عام صراعا من نوع الصراعات القديمة وســوف يبدأ بعد ذلك الصراع بظهور رجل فى البلاد القديمـة يرتدى عباءة سوداء فضفاضة يحاول أن يحجب بهـا أشعة الشمس عن « البلاد الجديدة » ، وسوف يدخل العالم كله فى صراع ضد بلاد الشرق ، على الارض القديمة وتكون الغلبة فى الفترة الاولى من الحرب للتحـــالف الذى يتم بين « البلاد الجديدة » و « الدب الابيض » ثم يتفكك هذا التحالف بعد فترة لتنتصر عليهم البـــلاد القديمة ويسود السلام فى الدنيا فترة طويلة جدا من الزمان وقد يكون ذلك هو السلام النهائى » .

ولقد فسر بعض شراح هذه المذكرات رمز « البلاد القديمة » بأنها فلسطين أو ايران والبلاد الجـديدة بأنها الولايات المتحدة ، واما بلاد الدب الابيض فطبيعى وفق هذا الشرح أن تكون الاتحاد السوفيتى ، وقد ورد فى شرح المعاصرين لنوستراداموس أن تلك الرموز الواردة

فى مذكراته المكتشفة بعد وفاته بسنوات كانت بسبب خوفه من بطش زملائه فى الكنيسة الفرنسية الذين اتهموه بمشايعة بعض الافكار الاسلامية ، وقد يؤكد ذلك أن هناك مايشبه التطابق بين ما أورده هذا الكاهن الفرنسي المغمور وبين ماورد في مستهل سورة الروم بالقرآن الكريم عن مراحل الحرب ومآلها بين بلاد الروم وبلاد الاسلام ، حيث جاء قول الحق تعالي « غلبت الروم فى أدني الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » صدق الله العظيم .

وعلي أية حال فاذا كان المنجمون ـ كما يقال ـ كاذبين ـ ولو صدقوا . . فان العيون والآذان المعاصرة لاتستطيع الا أن تكون صادقة فيما تري وما تسمع عن بدء تشكيل ملامح مشابهة لصورة الشرق الاوسط والعالم كما تصورها نوستراداموس ابتداء من ظهور خوميني فى ايران بعباءته السوداء التى ترمز الى البترول ومحاولته حجب هذا البترول عن الغرب فى فترات معينة حتي يبلغ الامر فى العالم الغربى درجة من الاظلام والبرودة تشبه الشمس حين تحجب طاقتها ، ثم هانحن أولئك بصدد سياسة وفاق تمضي ثم تتقطع ثم تمضى فتتقطع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وأخيرا نجد أن اسرائيل بتحديها لقرارات المجتمع الدولى وقوانينه المتعارف عليها وكأنها تدعوه الى منازلتها فى ساحة الشرق الاوسط أو على أرض البلاد القديمة ، وقد يكون لبنان هو المقصود بهذه الساحة ، وقد تكون فلسطين أو ايران ، ثم هاهى بواكير الحرب الطائفية بين « الشيعة والسنة والدروز . . والموارنة » تظهر فى هذه المنطقة يساند كلا منها قوة دولية خارجية ذات توجهات ومصالح متباينة وما تزال هناك مجالات متسعة لدراسة احتمالات تطور هذه الصراعات الطائفية المحلية ، ومدى مايمكن أن

تصل اليه فى وجود قوات دولية تحت علم الامم المتحدة او غيره ، والمدى الذى يمكن أن تصل اليه استمرار الامور الراهنة في القدس ، وموقف الفاتيكان من هذه المسالة وتاثيرات فكرة « الجهاد الاسلامي » المتنامية الان في منطقة الشرق الاوسط .

٤ ـ الخطر الاسرائيلي علي مستقبل الامن القومي المصري والعربي :

يمكن بغير حرج علمي كبير القول بأن اسرائيل لاتزال تعتبر المصدر الرئيسى لتهديد الامن القومى العربى حاليا ومستقبلا ، اذ تحتل قواتها بالفعل أراضي دول عربية مجاورة ، كما تقوم الفلسفة الاستراتيجية للدولة الاسرائيلية ـ والتى لم ينكرها احد من قادة اسرائيل السابقين أو المعاصرين ـ على اساس جوهرى خطير هو ناقلة له الواردة فى التوراة : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير .. نهر الفرات » .

قال بن جوريون احد مؤسسى الدولة الاسرائيلية فى ديسمبر ١٩٤٨ عقب معركة فلسطين : « ان الانتصارات العسكرية الاخيرة هى احدى المقدمات لاهداف اسرائيل البعيدة .. فعلي الشعب أن يكتل قواه الوصول الى تلك الاهداف .. استعدوا للوصول الى الهدف النهائى فى بناء الدولة اليهودية وجلب يهود العالم جميعا وتحقيق النبوءة الواردة فى التوراه : من النيل الى الفرات حدودك يااسرائيل » .

وبن جوريون ايضا هو الذى قال ذات يوم لمراسل احدى الصحف « كان هناك قديما شعبان عظيمان

لا ثالث لهما هما اليهود واليونانيين .. ولسنا نرى الآن اثرا للعظمة القديمة فى اليونان الحديثة .. أما نحن اليهود فلا تزال الرسالة فى يدنا نريد أن نبلغها للعالم .. ولقد قطعنا تلك الرسالة فى منتصفها ، وفى الوقت المناسب ستكون الملايين منا أقوى فأقوى وسنكمل الرسالة » (١) .

ويقول اسرائيل زانكويل أحد زعماء الصهيونية الاوائل ومؤسس المنظمة الصهيونية لاستعمار الاراضى منذ حوالى تسعين عاما « ان فلسطين وطن بلا شعب ، ويجب أن تعطى لشعب بلا وطن .. وان واجب اليهود هو أن يضيقوا الخناق على العرب حتى يضطروهم الى الخروج وليس فى نفوسهم العودة » .

وأصرح من هذا قول الكاتب اليهودى « بن آفى » فى جريدة « دواهايوم » العبرية « ان على اليهود أن يطهروا وطنهم من المغتصبين ، فعلى سكان فلسطين المسلمين أن يرحلوا الى الحجاز والصحراء وعلى سكانها المسيحيين أن يذهبوا الى لبنان .. »

واذا زعم اليوم زاعم بأن تلك المأثورات والمقالات قد صدرت فى ظروف الانفعال اليهودى بالاضطهاد والشتات فيما قبل انشاء الدولة الاسرائيلية وأن الفكر الرسمى لهذه الدولة قد صار ملتزما بعد اكتساب الشرعية الدولية واستقرار المقومات القانونية والاقتصادية والعملية ـ بحدود العمل الدولى المقنن .. فكيف يمكن اذن تفسير الادعاء الاسرائيلى المعاصر بأن منظمة الامم المتحدة ذاتها ـ

---

(١) انظر مؤلف الاستاذ عبد المنعم خلاف مع القومية العربية فى ربع قرن ـ مقال نقطة البدء فى الاتجاه الصهيونى الى بلاد العرب ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ص ١٥١ .

وهي التي تم في اطارها تقنين الوضع الرسمي للدولة الاسرائيلية ـ تعمل على أسس غير أخلاقية (١) .

وكيف يمكن أيضا تفسير اصرار اسرائيل حتى الآن على عدم تحديد حدودها الدولية في اطارات أو مواثيق قانونية ومسجلة ؟ .

وكيف يمكن أيضا تفسير غياب الانكار الرسمي لهذه التطلعات الاسرائيلية القديمة والتي لا يزال الكنيست الاسرائيلي يحمل شعارها والامل فيها على جدران مبناه وعلى السنة أعضائه ؟

وكيف يمكن أيضا تفسير توالي اعلانات ضم الاراضي والمدن والمواقع التي قامت اسرائيل باحتلالها عقب الحروب العديدة التي تمت بينها والدول المجاورة لها كالجولان والقدس ، وبعض مواقع الضفة الغربية لنهر الاردن ؟ وكيف يمكن تفسير عمليات التهويد للمدن والمواقع التي لم يعلن ضمها بعد ، واتخاذ كافة الاجراءات الضاغطة من اجل اخراج العرب منها ونقل المستوطنين اليهود للحلول محلهم فيها ؟

واخيرا .. وليس آخرا .. كيف يمكن تفسير تلك التصريحات المنسوبة لقادة اسرائيل المعاصرين الذين يتحدثون عن حق اسرائيل في أن تكون صاحبة الكلمة الاولى والوحيدة في تسيير الاحداث على مسرح الشرق الاوسط والبحر المتوسط (٢) .

---

(١) من بيان مندوب اسرائيل امام الجمعية العامة للامم المتحدة ـ اكتوبر ١٩٧٤ .

(٢) يقول جدعون روفائيل المدير العام الاسبق للخارجية الاسرائيلية في محاولة لانكار تطلع فرنسا الى مركز متميز في البحر المتوسط : « ان فرنسا تريد ان تحتل موقعا رئيسيا في

وقد تلجأ اسرائيل فى بعض المراحل الى الظهور بمظهر الساعي نحو معايشة الدول المحيطة بها معايشة سلمية ، قد تذهب فى مقولاتها الدعائية الى تصوير مستقبل المنطقة على انه مستقبل للتعاون الايجابى البناء بينها وتلك الدول .. الا ان هذه الصور والأطروحات الدعائية لا تستطيع ـ برغم الجاذبية المؤقتة لبعضها ـ أن تخفى حقيقة التوصيف المفتعل لمعايير المشاركة المطروحة فى هذه المشروعات بين العرب واسرائيل ، فمعظم مايقال عن هذه المشروعات يقوم فى أساسه على تصوير مجحف وتقسيم تعسفى بين مايسمى بالعبقرية اليهودية الخلاقة والمعرفة الفنية المتوافرة لدى اسرائيل ، من جهة وبين المال العربى والايدى العاملة الكثيفة المتوافرة لدى الجانب العربى من جهة اخرى ، وهو تصوير يعكس على احسن الفروض حرص اسرائيل على استغلال اكبر قدر ممكن من الامكانات والمزايا النسبية المتوافرة فى الاقتصاديات والاسواق العربية بما يحقق فى النهاية مصالح اسرائيل الخالصة ويضعف من طموحات التنمية والاستقلال لدى الطرف العربى .

ويعتبر المشروع الذى طرحته فى عام ١٩٦٧ الرابطة الاسرائيلية للعمل من أجل السلام نموذجا معبراً عن هذه الخصائص والدوافع الاسرائيلية فى سائر المشروعات

البحر المتوسط كما كان يريد نابليون ان يعمل منذ ١٧٠ عاما ، ولكنها يجب الا تنسى انه توجد الان فى قطاع لا يستهان به من ساحل البحر المتوسط دولة قوية تسمى اسرائيل ولا يمكن بدون موافقتها أن يتم شيء فى الشرق الاوسط » .

وكالة الانباء الالمانية ـ تل ابيب ـ فى ١٩٧٠/١/١٧ ـ (رقم البرقية ١٥٩ ـ ٢٣٣٠) .

المطروحة ، ففى هذه الدراسة تقترح الرابطة فكرة سوق مشتركة لدول الشرق الاوسط تحصل فيه اسرائيل على النصيب الاوفر من مراكز الصناعات النووية والبتروكيماوية والتعدين ، ومراكز الطب والسياحة ، وزراعة الحمضيات وتصنيعها ، وتقدم الدراسة فى اطار دعائى جذاب يوهم الراى العام العالمى بعدالة التوزيع وعلميته بينما هو فى حقيقته حجب للدور الطبيعى الذى يرشحه الموقع الجغرافى والامكانات الذاتية لكثير من الدول العربية .

كذلك نستطيع أن نلحظ الكثافة النسبية فى طرح الافكار والمشروعات الخاصة بالتعاون الاقتصادى المشترك بين اسرائيل والبلاد العربية فى توقيتات خاصة ترتبط بمراحل الحرج فى الاقتصاد العربى ، أو فى تطور الصراع الديبلوماسى بين اسرائيل والعالم العربى ، مما يسمح للبعض بالشك فى مدى صدق هذه المشروعات ومدى سلامتها من الناحية الموضوعية والاقتصادية حيث انه من الوارد فى تقدير البعض أن يكون الاعلان عن هذه المشروعات أحد عناصر الاغراء الاسرائيلى أو الضغط الاسرائيلى للتعجيل بتمرير مشروعاتها الديبلوماسية والتفاوضية على حساب بعض المبادىء القانونية والاسس السياسية التى يتضمنها الموقف المبدئى للجانب المصرى أو الجانب العربى .

ويمكن الى جانب ذلك ملاحظة عدد آخر من التطورات الحديثة التى ادخلتها اسرائيل مؤخرا فى مناهج ووسائل اقترابها من أهدافها وذلك فيما يتعلق بحدود استخدام القوة الحربية .. وهى مؤشرات ـ يفترض استمرارها والتوسع فى استخدامها مستقبلا ـ وذلك على ضوء غياب مايثبت عكس ذلك ـ :

أ ـ التحول من العمليات المحدودة الى العمليات الواسعة التي تستخدم من أجل احداث التغييرات الديموجرافية الكبرى « عملية لبنان » .

ب ـ التأكيد على نظرية وايزمان فى ضرب المراكز الرئيسية لدى الخصم والتحول من احتلال التخوم الى احتلال وضرب العواصم والمناطق الاستراتيجية العربية « ضرب المفاعل النووى العراقى ـ غزو بيروت » .

جـ ـ التأكيد على مفهوم الحرب الاختيارية كبديل للحرب الدفاعية أو الاجهاضية .. ويقصد بذلك الحرب التى تخوضها اسرائيل بمحض اختيارها وفى التوقيت الذى تحدده .

د ـ توسيع نطاق المجال الحيوى الاسرائيلى ليشمل الدول الاسلامية والنظام الاقليمى الافريقى « محاولات الاقتراب من الهند ـ سرى لانكا ـ الصومال ـ غينيا ـ السودان ـ وتركيا » .

هـ ـ تنمية القدرة النووية تحسبا لاية مواجهة كبرى بين العرب واسرائيل . (١)

---

(١) برغم تعمد اسرائيل احاطة برنامجها النووى منذ فترة طويلة بغموض مقصود بحيث تسمح ببعض الشك فى امتلاكها للقنبلة الذرية وبدون تسجيل هذا الموقف على نفسها ، فان المظاهر التى التقطها القمر الصناعى الامريكي يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩ في جنوب المحيط الاطلنطى قد قطعت فى تقدير الكثيرين هذا الغموض والشك • وقد ورد فى بعض تقارير مخابرات وزارة الدفاع الامريكية ان هذه المظاهر ليست الا شواهد تجربة قنبلة ذرية مشتركة بين اسرائيل وجنوب افريقيا •• ويتبقى مع ذلك مسائل اساسية لابد من حسمها بالنسبة لاسرائيل واولها مسالة خط الامان النووى لهم وسط الظروف الجغرافية والطبيعية التى تحكم استخدامهم المحتمل لمثل هذا السلاح مستقبلا ••

انظر الدراسة الممتازة للواء احمد فخر ـ رئيس تحرير مجلة الدفاع القاهرة ـ العدد الثالث ابريل ١٩٨٥ •

و ـ القيام انفراديا بمشروعات داخلية من شانهـا التاثير بالسلب على المركز الاستراتيجي للاطراف المجاورة « كمشروع شق قناة بين البحر الاحمر والبحر الميت » « مشروع تحويل روافد نهر الاردن » « زيادة عـدد المستوطنات اليهودية على الحدود اللبنانية » « استقبال يهود الفلاشا القادمين من اثيوبيـا » « التركيز على مشروعات الجلب السياحي في ايلات وطابا » .

ه ـ مشروعات واتجاهات اقليمية اخرى ذات تاثيرات سالبة على المركز الاستراتيجي المصرى في المستقبل :

والى جانب التطلعات والخطط والمشروعات المباشرة الامريكية والسوفيتية والاوروبية والاسرائيلية ، توجـد هناك اتجاهات ومشروعات اخرى تشهدها بين الحـين والاخـر سـاحة الشرق الاوسط والاقاليم المجـاورة لها تلعب فيها اطراف عديدة ومتباينة المواقع والاتجاهات .. ادوارا ظاهرة احيانا ومستترة في احيان اخرى .. بحيث تختفي او تتميع فيها حقيقة القوى الاساسية والاهـداف والمصالح التى تقف وراء الترويج لها .

وقد يبدو الشكل الخارجي لهذه المشروعات جـذابا لبعض دول المنطقة او معبرا عن المطالب والمصالح الموقوتة لبعض وحداتها ، الا انها لا تخلو ـ بحكم محصلة آثارها المتوقعة في المدى البعيد ـ من التاثير بالسلب على المركز الاستراتيجي المصري او العربي مستقبلا .

ونذكر هنا بعض امثلة لهذه المشروعات مع موجز مختصر لكل منها :

مشروع اطلس لنقل البترول من مناطق الخليج والسعودية الى الساحل الغربي لافريقيا :

وقد ورد اول ذكر لهذه الفكرة ضمن أنباء تناقلتها الوكالات العالمية منذ عدة سنوات عن توقيع حكومة السودان لاتفاقيات مع بعض الشركات الامريكية بشأن مد خط انابيب بترول يقع من احد الموانى على البحر الاحمر ويمر عبر بلاد افريقية عديدة بينهـا الكاميرون وحتى السواحل الغربية لافريقيا مقابل رسوم مرور مجزية تحصلها السودان سنويا .

وقد تبين في مرحلة لاحقة أن هذا المشروع وارد أيضا ضمن المشروعات الاقتصادية الليبية التى تخطط لها وتمولها تحت شعار التنمية الاقليمية لحزام السافانا الافريقي .. ولكن هذا المشروع الليبى الذى لم ير النور بعد والذى يقدر لتنفيذه مدة سبع سنوات تضمن امتدادا بحريا لانابيب البترول تحت سطح مياه البحر الاحمر من احد الموانى السعودية وحتى احد الموانى السودانية ثم يبدأ بعد ذلك الجزء البرى من هذا الخط ليمر عبر تشاد ومالى والنيجر وموريتانيا « وليس عن طريق الكاميرون » .

وبغض النظر عن مدى الجدوى الاقتصادية والصعوبات العملية والطبيعية التى تكتنف هذا المشروع ، وبغض النظر عن ضخامة التكاليف الاستثمارية وعدم وضوح الجهة التى ستقوم بالتمويل والتامين لهذا الخط ، وعدم وضوح الدوافع السياسية التى تقف وراء هذا المشروع .. فان المؤكد ان مثل هذا المشروع من شانه التاثير على المعابر المصرية لنقل البترول وهى قناة السويس وخط سوميد وعلى الاخص في المدى المتوسط .

المشروعات المائية على حوض نهر النيل :

تعتبر محاولة المساس بكمية المياه الواردة الى مصر عبر نهر النيل من اخطر المحاولات تأثيرا على المركز الاستراتيجى المصرى وعلى هذا الاساس تبدو أهمية التحرك المصري لتأمين استقرار العلاقات مع دول حوض النيل والعمل والمشاورة الدائمة معها فى كل ما يتصل بالمشروعات المائية الجديدة التي يفكر فيها احد الاطراف . ويدخل ضمن ذلك محاولات تانزانيا مؤخرا لاستغلال مياه بحيرة فيكتوريا فى توسيع رقعة الاراضى المروية بواقع مائة الف فدان لزراعتها قطنا ، وقيام اثيوبيا بطرح مشروعات مماثلة لانشاء سدود جديدة ، وقد يستحق انتباهنا بحث معنى اشتراك كوريا الشمالية فى دراسة وتنفيذ كثير من المشروعات المطروحة . كذلك يلزم الانتباه الى خطورة الافكار الليبية الشاردة بتحويل جزء من مجرى النيل الى واحة الكفرة بالصحراء الليبية ، والى خطورة انفراد السودان او الشركات الاجنبية العاملة فى مشروع قناة جونجلى بمتابعة التنفيذ بعيدا عن مشاركة مصر او متابعتها .

تناقص الاهمية الدولية للبترول العربى :

الى جانب النفاذ التدريجى لاحتياطيات البترول فى العالم العربى والذى تقدر له بعض الدراسات الاجنبية ان يحدث فى الفترة من ٢٠٢٥ ـ ٢٠٣٥ ، فان هناك اخطارا ومؤثرات سالبة اخرى من شأنها التأثير على اهمية البترول العربى ـ حتى قبل نفاده .. واهم هذه الاعتبارات ما يلى :

ا ــ نمو مصادر الطاقة البديلة خارج منطقة الشرق الاوسط وعدم الاستعداد العربى الكافى للانتقال الى هذه البدائل من الناحيـــــة الفنيـــة والتكنولوجيـــة والاقتصادية .

ب ــ تزايد اهمية اسواق البترول فى جنوب شرقى آسيا .

ج ــ عدم مقدرة القنوات الحالية لمرور البترول على استيعاب كافة صادرات المنطقة المتوقعة خلال السنوات العشر القادمة .

د ــ ظهور بدائل جديدة لمعابر نقل البترول الى اوربا كخط اطلس المقترح ، والقناة الاسرائيلية المقترحة ، والنقل برا عبر الاراضى التركية .

تزايد العمالة الاسيوية فى بلاد الشرق العربى :

يعتبر تزايد نسبة العمالة الوافدة الى العمالة الوطنية فى اى موقع وتحت اى ظرف من المصادر التى يمكن ان يتهدد بها الامن القومى للدول المستقبلة لهذه العمالة .. وفى اطار العلاقات العربية المتداخلة قد يكون هـــذا القول صحيحا الى حد ما ، لكنه يصير يقينا فى حـــالة استقدام العمالة الاجنبية من خارج الاقليم العربى .

ولقد اتسع تدفق هجرة العمالة الاسيوية الى منطقة الخليج والسعودية اتساعا طفريا فى اواخر السبعينات ، فقد بلغ عدد الاسيويين فى هذه البقعة من الباكستان فقط عام ١٩٧٩ حوالى ١ر٢ مليون شخص ، بعـــد أن بدأ الرقم فى عام ١٩٧٥ بحوالى ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠ فقط . وقد أدت أرقام عام ١٩٧٩ الى حالة من شبه التعادل بين حجم تدفق العمالة المصرية وحجم تدفق العمالة الباكستانية .

ثم ظهر بعد ذلك فى أوائل الثمانينات تطور آخر فى تركيب العمالة الاسيوية ، فبالاضافة الى الهنود والباكستانيين بدأ الكوريون والتايوانيون والفليبينيون وجنسيات أخرى يظهرون فى الخليج . وقد جاء معظم هؤلاء العمال بشبكة جديدة من العلاقات الاجتماعية كما ابتكرت شركاتهم اساليب ووسائل جديدة تضمن استمرار التدفق وانتظامه وزيادة قبول الدول المضيفة لهم (*)

والذى يهمنا فى هذا الصدد هو التأثيرات السالبة التى تترتب على هذا الحل الجديد للاسيويين فى مواقع الامتداد الطبيعى لمصر والوحدات العربية الاخرى المكتظة بالعمالة الزائدة ، كما يهمنا دراسة أثر النمط المعيشى والثقافى للاسيويين على النسق الاجتماعى والقيمى فى الحياة العربية .. وتؤكد كثير من الدراسات التى تمت حتى الآن أن زيادة العمالة الاجنبية عن العمالة الوطنية فى بلاد كالامارات وقطر والكويت والسعودية من شأنه تهديد مستقبل الاستقرار السياسى والاجتماعى لهذه البلدان (١) (*)

كما تؤكد بعض التنبؤات أن البلاد المكتظة بالسكان كمصر واليمن سوف تواجه احتمال قيام اضطرابات داخلية عندما يصبح خيار الهجرة الى الخارج غير متاح للعديد من العمال بسبب احلال الدول المستقبلة للعمالة عمالا آخرين غيرهم .. أو لاى سبب آخر «٢» .

(١) انظر د. عبد المنعم المشاط : البعد العربى للامن القومى المصرى دراسة منشورة فى مجلة الدفاع ـ العدد الثالث ـ ابريل ١٩٨٥ تصدر بالقاهرة ص ٦٢ .

(٢) د. نازلى شكرى ـ استاذة العلوم السياسية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ـ ديناميكية الهجرة المعاصرة فى الشرق الاوسط ، منشور بالسياسة الدولية ـ القاهرة عدد يوليو ١٩٨٣ ص ٦١ .

تشجيع الاقليات ومشروع الكانتونات الطائفية بالمنطقة:

ترجع أفكار التقسيم الطائفى لدول الشرق الاوسط الى فترة الحروب الصليبية التى تسابقت فيهـــا بعض الدول والوحدات الاوروبية على حماية ما اســـمته بالاقليات والمقدسات المسيحيـــة فى الشرق ... ثم تجددت هذه الافكار مع مراحل التخطيط لانشاء الدولة الاسرائيلية بحيث تكون دولة يهودية خالصة مما استدعى تفريغ الدولة الجديدة من سكانها غير اليهود وتهجيرهم بالاغراء تارة وبالتهديد تارة أخرى الى مناطق التجمـع الطائفية أو العنصرية المناظرة لهم خارج الحدود ... وصارت هذه السياسة احدى العـــلامات البـــارزة للممارسات الاسرائيلية شبه اليومية فى التعامل مـــع السكان العرب داخل الاراضى الفلسطينيـــة المحتلة ، وتأكدت بوضوح اكبر فى المراحل الاخيرة من خــــلال الممارسات الاسرائيلية أثناء غزو لبنان .. الامـــر الذى يمكن تجميع خيوطه بحيث تتكون لدينا فى النهـــاية صورة لمنطقة الشام وقد تصدرتها دولة « اسرائيــــل اليهودية » الخالصة ومن حولها دولة « لبنان المارونية » ودويلات صغيرة أشبه بكانتونات « للدروز » و «الشيعة» « وللسنة » « وللعلويين » .

ونفس هذا التصور وأرد فى أكثر من بقعة من بقاع العالم العربى والشرق الاوسط .. فالتخطيط يتم على قدم وساق لفصل جنوب السودان عن شماله بحجـة استقلال الهوية الطائفية والثقافية لاهل الجنوب ، كما يتم بدرجات متفاوتة السرعة والوضوح بالنسبة للاقلية الكردية في العراق والقبطية في مصر .

ويري البعض أن انفجار الثورة الاسلامية فى ايران بالشكل الذى حدث كان أحد العوامل الرئيسية التى عجلت بزيادة وضوح هذا المخطط والبدء تدريجيا فى تنفيذه بواسطة اسرائيل من ناحية وبعض الشخصيات المحلية العميلة او الجاهلة من ناحية أخرى .

وبديهى أن المستفيد الاول من وراء هذا التفتيت النووى للوحدات السياسية بالمنطقة هو اسرائيل والقوى الطامعة فى الشرق الاوسط ككل حيث يقدم هذا التقسيم الطائفى افضل طريقة لشغل شعوب هذه المنطقة بصراعات محلية لتشتيت الانتباه بعيدا عن أى محاولة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

تحديات الطبيعة .. والبيئة .. في المستقبل

لا تقتصر دوافع القول بوجوب التسليح السريع بمناهج وأدوات دقيقة لرصد المستقبل والاعداد له على الاخطار السياسية والعسكرية الواردة من خارج الحدود ، وانما يدعو ايضا الى هذا الوجوب ــ وبنفس أهمية الاسباب السابقة ــ عدد من التحديات الطبيعية والمشاكل البيئية التي يتوقع أن تشهدها منطقتنا خلال السنوات العشرين القادمة . بل ان منها ماقد بدات بواكيره تظهر بالفعل في افق حياتنا المعاصرة ، وهذه التحديات الطبيعية والبيئية سوف يلزم لمواجهتها بعد رصدها ــ استعداد دقيق وحلول علمية وغير تقليدية من واقع ماانتهت اليه احدث أبحاث العلوم وما يستجد عليها مستقبلا .

وسوف نتناول هنا في عجالة مختصرة بعضا من هذه المشاكل الطبيعية والبيئية المتوقعة مكتفين في العرض بالاشارة الى الابعاد الاجمالية العامة لتلك المشاكل ، وانعكاساتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتوقعة دون الدخول الى تفاصيلها الفنية التي تحتاج خبرات أكثر تخصصا .

١ ــ مشكلة الجفاف :

تستخدم مصر حاليا حوالى ٥٠ بليون لتر مكعب من المياه وذلك من بحيرة ناصر . وسوف يؤدي نقص المياه في البحيرة بسبب ظروف الجفاف في هضبات أعالي

النيل الى التأثير بصورة مباشرة على حالة الزراعة المصرية وامكانيات توليد الطاقة ، مما قد يحدث بالتبعية آثارا فى الميزان التجارى وميزان المدفوعات بالاضافة الى ما قد ينتج عن هذا الوضع من تناقص فى حجم الحـركة السياحية الوافدة الى البلاد وحجم الهجرة منهـا الى الخارج .

وقد يكون من بين العوامل المؤثرة أيضا فى كمية المياه المتوافرة بمصر ظاهرة الفاقد فى مياه بحيرة السد العالى ووفقا للقياسات المتوافرة لمعدلات التبخر التى سبق رصدها باستعمال اجهزة القياس الفنية عند كل من أسوان وحلفا يتبين ان متوسط التبخر السنوى من بحيرة السد العالى يبلغ ١٠ مليارات متر مكعب . كذلك أسفرت الابحاث التى تمت لتحديد معدلات التسرب من حوض خزان السد عن تقدير الفاقد بالتسرب بما قيمته مليار متر مكعب سنويا ، وهى كمية تعتبر ضئيلة على كل حال. ويقل تأثيرها مع مرور الزمن نظرا لقيام الطمى المخزون فى البحيرة بسد اى مسام أو قوالق فى الطبقات الارضية المحيطة .

٢ ـ احتمالات النحر والاطماء وزيادة الملوحة فى حوض النيل :

تتفق معظم النظريات الهندسية فى مجال الرى الى أن أى مشروع لتخزين مياه الفيضان المحمـلة بالطمى يترتب عليه اطلاق المياه من الخزان رائقة .. مما يؤدى الى حدوث نحر بقاع مجرى النهر .

ووفقا للدراسات الخاصة بمشروع السد العالى فان ظاهرة النحر الكثيف خلف قناطر أسنا سوف تحدث

مع مرور سنوات طويلة .. وقد يمكن بمتابعة النحر فى الحبس الاول « اى بين أسوان واسنا » تلافى تاثير النحر خلف اسنا قبل حدوثه بوقت كاف (١) .

وبرغم ان عددا كبيرا من معارضى فكرة السد العالى ومنتقديه كانوا قد أقاموا بعض اعتراضاتهم القوية على اساس هذه الاحتمالات المتعلقة بظاهرة النحر ، الا ان بعضا منهم قد تراجع فى فترات لاحقة عن قسم كبير من تقديراته المتشائمة وذلك بعد أن اتخذت الاجراءات الفنية الوقائية وبعد ثبوت ضآلة معدل النحر بخلاف المتوقع له سابقا » (٢) .

أما ظاهرة الاطماء فى بحيرة السد العالى فلا تزال من بين الموضوعات التى تشغل الاهتمام والقلق بالنسبة لاثرها على حوض الخزان أولا ، ثم تاثيرها على خواص التربة الزراعية التى تحرم تدريجيا من الاطماء السنوى بواقع ٤ ملايين طن سنويا فى المتوسط « يمثل ذلك حوالى ٩٪ من القيمة الكلية المضافة سنويا الى التربة المصرية » . (٣) .

---

(١) د· مهندس عبد العظيم ابو العطا : مصر والنيل بعد السد العالى اصدرته وزارة الرى واستصلاح الاراضى - يناير ١٩٧٨ ص ٣٦ ·

(٢) قدم المهندس على فتحى · خبير الرى المصرى فى عام ١٩٥٦ أول محاولة للتنبؤ بالنحر الشامل · ثم عاد فى عام ١٩٧٠ ليقدم تقديرات مختلفة الى حد كبير تحت عنوان : (اعتبارات حول مشكلة النحر) · ثم عاد للمرة الثالثة ليقدم فى عام ١٩٧٦ مذكرة من جامعة الاسكندرية تحت عنوان : (تقدير النحر المتوقع على أساس ما حدث فعلا حتى الان) وهى تتضمن تراجعا ملحوظا عن تقديراته الاولية ·

(٣) د· عبد العظيم أبو العطا · المرجع السابق ص ١٠٨ - ص ١٠٩ ·

كذلك يشير البعض الى ظاهرة الضعف التدريجى فى مسامية التربة المصرية واختناق البكتريا الارضية بسبب احتجاب طمى الفيضان مما يؤدى الى ضعف الانتاجية الزراعية لبعض الاراضى .

وفى تقديرنا فان الظاهرة الاكثر خطورة من الاطماء المفتقد بسبب حجب الفيضان وراء السد العالى هى تجريف الاراضى الزراعية بهدف تصنيع الطوب الاحمر أو لاسباب أخرى . ولاشك أن مااتخذته الدولة مؤخرا من اجراءات حازمة لانهاء هذه الظاهرة واغلاق قمائن الطوب الاحمر يعد من الاجراءات الاستراتيجية ذات النظرة المستقبلية الحكيمة والواعية .

كذلك قد يشار هنا الى ظاهرة زيادة نسبة الملوحة وارتفاع مناسيب المياه الجوفية فى بعض الاراضى بسبب حرمان الارض من غسيل مياه الفيضان ويقطع بعض الجزاء بأن تلك المشكلة لا صلة لها بالسد العالى ، وان ظهورها سابق لانشائه ، وهى ظاهرة طبيعية يمكن التحكم فيها عن طريق ترشيد استخدام المياه ، وعمليات الصرف وتجنب استصلاح الاراضى الجديدة فى مناطق تعلو

المناطق القديمة ، والحرص على عدم تصريف نفايات وعوادم المصانع فى حوض النهر الكبير .

٣ ـ النفاد التدريجي لاحتياطي البترول وغياب الموارد المعدنية البديلة :

تقدر حياة المخزون العربى من البترول بمدة خمسين عاما أو اقل قليلا .. وتتوقع بعض الدراسات ان تصل صادرات البترول العربى الى الخارج فى عام ٢٠٠٠ الى ٥٠٠ مليون طن وليس ثمة شك في ضرورة البحث منذ

الآن عن المقومات المتوقعة للحياة الاقتصادية العربية في حالات نفاذ هذا المخزون الهائل الذى أودعتــه الطبيعة في قلب الارض العربية ، وعما اذا كانت هناك ثروات طبيعية بديلة يمكن أن تحل محل هذا الرصيد المتآكــل شيئا فشيئا .

وقد يقال أن خام الذهب متوافر فى بعض منــاطق الصحراء الشرقية بمصر وبعض المناطق الجبلية فى اطار سلسلة الاوراس بالمغرب العربى ولكن المسألة الاهم هى مدى التكلفة المطلوبة لتشغيل مناجم الذهب تشــغيلا اقتصاديا .. وماهى السياسة الاستثمارية والامنيــة المثلى التى يلزم اتباعها فى هذا الشأن .. وذلك على ضوء حقيقة انفراد شركات التعدين الاجنبية الـكبرى بمزايا التشغيل الاقتصادى والوسائل التــكنولوجية المتقدمة فى حين تفتقر معظم مؤسسات التعدين الوطنية فى ألعالم العربى وخاصة المشتغلة بالمعادن الاستراتيجية النادرة الى هذه المزايا .

٤ ـ مشكلة التصحر :

افادت الصور الفضائية التى قام بالتقاطها المــكوك الفضائى « تشالنجر » للصحراء الغربية فى مصر أن حوالى ثلثى الصحراء مغطى ببطانية من الرمال تـكونت بفعل الرياح وطبيعة التضاريس فى شكل كثبان رملية .. ولقد أثبتت دراسات مركز دراسات الارض والكواكب التابع لمعهد سميث سونيون بواشنطن أن هذه الـكثبان الرملية هى السبب المباشر لصعوبة تعمير الصحراء ... حيث انها تغمر الزراعة وتسد الطرق وتؤثر على خطوط التليفونات وتحيل حياة الانسان والحيوان فى هذه المناطق الى حياة شاقة .

وتقوم الدراسات حاليا حول هـذه الظاهرة بتحديد سرعة حركة الرمال ومعدلها واتجاهها بحيث يمكن التنبؤ مسبقا بالاماكن التى ستتعرض لغزوها .. ويجرى حاليا تنفيذ مشروع مشترك بين جامعة المنيا فى صعيد مصر والكلية الفنية العسكرية بالقاهرة لدراسة زحف الكثبان الرملية على الاراضى الزراعية فى غرب وادى النيل ليس فقط فى مناطق الواحات بالصحراء ولكن أيضا بمحافظة الفيوم وبعض المحافظات الاخرى التى تتعرض بطبيعـة موقعها لهذه الظاهرة المثيرة للقلق (١) .

وهناك طرق عديدة للتغلب على هذه الظاهرة لكنها حتى الآن مكلفة وغير اقتصادية وهى تختلف من بلد لآخر حسب ظروفه وامكانياته .. فى السعودية وايران مثلا تقوم سلطات البيئة برش خام البترول فوق الرمال لتثبيتها لسنوات عديدة ومنعها من تكوين الكثبان الرملية .. اما فى الجزائر فقد قام الاهالى مع الحكومة بتشجير منطقة طولها ١٣٠٠ كيلومتر سميت بتجربة « الســاتر الاخضر » .. وفى أمريكا تقوم بعض هيئـات البحث بدراسة امكانيات نجاح رش احدى المواد الكيماوية على الرمال لتثبيتها وخاصة فى صحراء نيفادا الكبرى (٢) .

وبرغم أن تجربة الأهالى فى مصر لزراعة الأشـــجار

(١) انظر مقال : الدكتور فاروق الباز ـ وادى النيل فى صور مكوك الفضاء ـ مجلة وادى النيل ـ العدد الثانى مارس ١٩٨٥ ص ٦٠ .

(٢) من محاضرة للدكتـور فاروق البـــاز عن استخدامات ابحاث الفضاء فى تنمية الصحارى المصرية .. القاها فى اجتماع الجمعية العربية للتعدين والبترول ـ يوليو ١٩٧٩ ـ وقد نشر ملخص لها بمجلة الشباب وعلوم المستقبل ـ العدد ١٢ السنة الثانية يوليو ١٩٧٩ ـ اعداد راوية سالم ص ٢٥ .

والنخيل قد ثبتت لها بعض الفعالية فى بعض المناطق الا أنه قد ثبت فى مناطق معينة ان الكثبان الرمليه يمكن ان تغمر تلك الاشجار .

وقد قيل فى بعض الدراسات العلمية أن افضل الحلول للتغلب على ظاهرة التصحر هو محاولة تجنب مناطق الكثبان الرملية عند اختيار مناطق التعمير والبعد عن طريقها او اختيار الاماكن التى لن تصلها الكثبان الا بعد مئات السنين بحيث نكون قد استفدنا الفائدة القصوى من هذه الاماكن .

وعلى وجه العموم فان تحقيق التعاون والتنسيق بين الهيئات المعنية بهذه الظاهرة فى مصر مع مثيلاتها فى الدول العربية التى تعانى من نفس المشكلة يمكن ان يحقق فائدة هامة فى معالجة المشكلة واختيار انسب البدائل والحلول من الناحية العملية .. وقد يكون مفيدا الاشارة هنا الى الدراسات المشتركة التى بدأت بالفعل بين جامعة قناة السويس فى مصر وكل من جامعتى اليرموك والجامعة الاردنية فى عمان .. كذلك يمكن الافادة بأعمال قسم الخرائط المساحية بجامعة الملك عبد العزيز فى جده بالملكة السعودية الذى يقوم بدوره بالاعتماد على الصور الفضائية المجسمة التى يلتقطها المكوك الفضائى الامريكى .

٥ ـ مشكلة تلوث البيئة :

تعتبر ظواهر التلوث البيئى من اكثر العوامل التى سوف تحكم فى المستقبل المنظور أساسيات التصنيع والتوطن الصناعى ، ولذلك فان التعرف على الاثار الكيماوية او الطبيعية الجانبية المحيطة بأى مشروع جديد

سيكون شرطا من شروط هذه السياسات الجديدة .

وهناك مجالات عديدة يلزم الانتباه فيها الى نوع التلوث وحجمه واثاره ، والاحتياطات الامنية والوقائية اللازمة له ، ومن هذه المجالات « النفايات الذرية الناتجة من مشروعات توليد الطاقة بالذرة ، والصرف الصحى على شواطىء البحار ، وتسرب الغازات من المصانع ، وعوادم السيارات ، والغلالة الترابية الكثيفة التى تغطي سماء القاهرة فى الحدود بين جبل المقطم وضفة النيل » .. كذلك قد يلزم الانتباه الى بعض الاشكال الاخرى للتلوث البيئى كظهور « نباتات طفيلية تغطى صفحة مياه النيل فيما يسمى بظاهرة ورد النيل » وما يسمى بالتلوث الضوضائي **Noise Pollation** الذى ينتج بسبب ارتفاع أصوات الاجهزة ووسائل النقل ويسبب تناقصا ملحوظا فى قدرة السمع البشرى وحالة السلام النفسى والتماسك العصبى .

وقد يقال لدى البعض أن مثل هذه الامور تدخل فى عداد المشاكل الترفية ، ولكننا نكتفى هنا بالاحالة الى ما أوردناه فى إستهلالنا لهذا الفصل بشأن مناقشة مسألة مدى الترفية ومدى الوجوب الحيوى فى مثل هذه الظواهر والابحاث المستقبلية .

٦ ـ الانماط المناخية الجديدة :

اثار تكرار ظواهر انخفاض درجة الحرارة غير المعتادة فى شتاء الشرق الاوسط والعالم مضافا اليه تكرار ظواهر الجفاف فى أفريقيا جنوب الصحراء والهند وجنوب آسيا .. وانتقال هذه الظاهرة تدريجيا الى

الشمال .. تساؤلات وتنبؤات عديدة عن المستقبل .. وعما اذا كان يحمل فى طياته ملامح تغييرات جوهـرية للنمط المناخي التقليدي السائد فى العالم .. ومدى تأثر منطقة الشرق الاوسط بهذه المتغيرات وانعكاساتها على مختلف مجالات الحياة في الزراعة والرى والسياحة والصيد والنواحي الاخرى .

ولقد عقد اتحاد معاهد الدراسات المتقدمة فى المانيا الغربية حلقة بحث متخصصة فى عام ١٩٧٤ بمدينة بون لدراسة هذه الظاهرة وخرج المجتمعون باجماع على أن « الاتجاه المناخي الحالى الذي يميل الى البرودة سوف يستمر الى نهاية هذا القرن .. وأن هناك كارثة مناخية محتملة فى نهاية العقد القادم .. ومن المتوقع ايضا أن يكون المناخ اكثر تقلبا منه فى العقود الماضية ..

وذكر التقرير الختامى لهذه الحلقة البحثية انه اذا كانت حاجة الدول والشعوب للعمل شديدة للغاية فان الوقت المتاح قصير ايضا للغاية .

ولان المناخ ظاهرة عالمية فان اى تغيير يطرأ عليه فى اقليم لاشك أنه يؤثر على أقاليم الارض الاخرى ، والدليل على ذلك انه فى الفترات التى تشتد البرودة فى أوروبا وتتقدم الثلوج نحو الجنوب يصحبها ضعف فى هبوب الرياح الموسمية على الهند وغرب افريقيا ، وبالتـالي تصاب بالجفاف .

وبديهى أن التغيرات المناخية لابد وأن يصحبها تغيرات حضارية وعلى ذلك فان التحول المناخى الذى تشـهده الكرة الارضية الآن سوف يكون به آثاره الرهيبة اذا لم نخطط له ، ومن أوائل المسائل التى ترتبط بهذه التأثيرات ظواهر الهجرة السكانية ، وهى اذ ذاك ــ للأسف ــ

هجرة اضطرار ، وليست كما هي الآن هجــرة ارادة واختيار ».

وقد يكون من المهم بعد هذا الاستعراض الموجز لابرز المشاكل الطبيعية والبيئية المتوقعة مستقبلا ــ الاشارة الى التداخل الظاهر بين هذا النوع من التحديات والاخطار السياسية السابق الاشارة اليها ، ويبدو هذا التداخل في حقيقة اهتمام اسرائيل وعدد من القوى الاجنبيــة ذات التطلع الحضاري المنافس لمنطقة الشرق الاوســط برصد هذه الظواهر البيئية الخطيرة ، وتفريغ جزء كبير من امكانياتها البحثية لبحث الوسائل الكفيلة بمواجهــة هذه المشكلات المتوقعة سواء للتعجيل بها واســتثمارها في اضعاف المركز الاستراتيجي لمصر والعالم العربي ، او للتلويح بأنها الجهات الوحيدة القادرة على التصدي بنجاح لمثل هذه الظواهر والتحديات الطبيعية واستخدام هذا التلويح كوسيلة من وسائل الضغط والاغراء الموجه لاضعاف الارادات السياسية المحلية في العالم العــربي أمام المطالب الاسرائيلية والمطالب الاجنبية الاخرى (١) .

---

(١) من امثلة هذا التداخل قيام اسرائيل بالدعاية الواسعة لتجاربها المحلية الناجحة في تحلية مياه البحر ، والاستخدامات الرشيدة للمياه ، والاستزراع النــاجح للاراضي القــاحلة والصحراوية ، وقيامها بابحاث متقدمة عن التصحر والجفاف ، وكيفية حماية البيئة من مختلف مظاهر التلوث .

ويعتبر المؤتمر الحادي والثلاثون لخريجي اكاديمية لاهــاي للقانون الدولي الذي عقد بفندق شيراتون بالقاهرة في اوائل مايو ١٩٨٥ اخر مظاهر هذه الدعاية الاسرائيلية .

مشاكل البنية الاجتماعية ..
ومرحلة مفترق الطرق

ليس من قبيل التزيين البلاغى ولا من قبيل التضخيم السياسى أن يقال بأن المرحلة الراهنة فى الحياة الاجتماعية المصرية تمثل مفترقا حقيقيا للطرق فى كثير من جوانب البنية الاجتماعية . وهذا « المفترق » فى تاريخ التطور الاجتماعى يعبر عن « النقطة » أو « الحالة » التى تصل اليها الظواهر والمشاكل الاجتماعية بعد تاريخ طويل من التطور التلقائى والطبيعى ، والتى يتحتم عندها قدر من التدخل الارادى لحسم مشكلة الاختيار بين الاستمرار فى المعالجات التقليدية بما تكلفه من مزايا الاستقرار الشكلى وما يعتورها من أوجه عيوب وقصور فى الفعالية أو الانتقال الى معالجات ومناهج جديدة وغير تقليدية ترتبط فى العادة بقدر من القلق والتردد فى المراحل الاولى وأن توافر لنتائجها النهائية قدر أكبر من الفعالية ونصيب أوفر من النجاح .

ومشكلة هذا المفترق التاريخى لا يتوقف عند الاختيار نظريا بين البدائل والمسالك ، وانما تمتد لتشمل أيضا مشكلة البحث عن قوة الدفع والتحصين اللازمة لتأمين المسار المختار ضد المقاومات الطبيعية أو المفتعلة التى ترتبط حتما باختيار بديل دون بديل أو انتهاج مسار دون آخر .

وفي حالتنا المصرية نستطيع أن نلمح أبعـــاد هـذا المفترق على النحو التالي .

* بلغت مشكلة الانفجار السكاني حدا أصـبح من المحتم أمامه اجراء اختيار حاسم . ويزيد من اشـكالية هذا الاختيار أن طرائق المعالجة العلمية والموضـوعية الواردة محكومة بقيود ثقيلة من موروثات القيم ، ورواسخ الطبائع ، ومحدودية المعرفة ، وضيق الامكانات المادية .

* وتوزيع الثروة في مصر مسألة جد خطيرة . وما يزيدها تعقيدا أن مناهج المعالجة المطروحة على الساحة لا تخلو من الخضوع لتصنيفات ايديولوجية مسبقة ، بحيث يصعب سواء على الحاكم أو على المحكوم — أن يختار بطريقة عملية ومتحررة — بين هذه المناهج دون التعرض للارهاب الفكرى والمصادرة أو المزايدةالسياسية من جانب المواقع الايديولوجية والطبقية المغايرة .

* ومشاكل التعليم والامية لها أثرها المزدوج على مستقبل البلاد سواء القريب أو البعيد اذ يترتب على استمرارها بأحوالها الراهنة عدم القدرة على التعـــامل مع حلول المشاكل السياسية أو الاقتصادية سواء كـانت تلك الحلول تقليدية أو غير تقليدية . وكـــذلك تحـول الامكانات المادية والتنظيمية المتاحة حاليا دون اتخـــاذ السبل المثلى لمواجهة المشكلة في جذورها .

* والظاهرة الدينية في مصر والعالم العربى عموما لم تعد تمثل فقط احدى شواغل الفكر والاعتقاد والسلوك الاخلاقي .. بل صارت شغلا شاغلا أمام صناع القـرار السياسي والاجهزة المعنية باستقرار الامن القومى .

* وقضية التعدد الحزبى فى الحياة السياسية لها مزاياها ولها عيوبها . ويتوقف الكثير فى المستقبل على

مدى التطور أو التطوير الذى سيتم فى روح واطـــار الممارسة الحزبية والتقنينات التى ستدخل عليها .

* وحالة الجريمة بلغت فى حجمها وأشكالها وأدواتها ونوعية مرتكبيها حدا غير مألوف طوال التاريخ الاجتماعى الطويل لمصر ، بحيث صار محتوما اتخاذ اجراءات غير مألوفة أيضا لمواجهتها . وقد يزيد من صعوبة الاقـدام على مثل هذه الحلول الشوط الذى قطعته الحيـــاة الاجتماعية والسياسية المصرية فى مجال التشــريع والممارسة الديمقراطية وحماية حقوق الانسان . كمـا قد يزيد من صعوبة التصدى علميا للمشكلة استمرار شيوع بعض القيم والتقاليد التى من شأنها تعـــويق المسألة أو المتابعة على النحو اللازم .

* والعلاقة بين الاجيال : مسألة تستحق وقفـــة فحص وتأمل ، حيث بلغت ظواهرها شأوا بعيـــدا فى الانقطاع ، بل فى الكراهية أو السلبية وبديهى أن يكون من بين تصورات الحلول أمور تتصل بالعملية التربوية والتعليمية ، وبعملية التوجيه الدينى ، وبعملية القدوة والمثال .

وفيما يلى تفصيل لابرز المشاكل المذكورة التى يتوافر فيها قدر أكبر من المحورية المؤثرة فى غيرها من قضايا ، مصحوبة ببعض مؤشرات واتجاهات المعالجة المقترحة لها .

اولا : الانفجار السكاني أو معادلة الارض ، السكان :

على خلاف المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الاخرى فان مشكلة اختلال التوازن الكمى والكيفى بين الارض وسكانها تعد بطبيعتها من المشاكل غير القابلة للحـــل

الجذرى الحاسم فى المدى المنظور . وعلى ذلك فان أنسب الطرق من الناحية العملية هى التسلح فى المـــدى القصير ـ بقدرات خاصة فى ادارة المشاكل Crisis Management وعلى المدى البعيد ـ بالتفكير فى اطارات غير تقليدية للحلول .

والمشكلة فى الحالة المصرية تتميز بحدة كل من أبعادها الثلاثة :

* فالبعد الاول الخــاص بمعــدل التزايد السكانى السنوى قد وصل وفق الاحصاءات الاخيرة الى ٣ر٢٪ كما أن عوائق الحد من تزايد هذا المعدل يشـــترك فى تشكيلها الرؤية الدينية ، ونسبة الامية ، وتقدم الخدمات الصحية ، ونوعية الشعور الوطنى والمسئولية الاجتماعية للفرد .

أما البعد الثانى فيتمثل فى محدودية الارض الزراعية الحالية وعدم قدرتها ــ حتى بعد اضافة مســـاحات جديدة اليها ــ على الوفاء باحتياجات الغذاء الاساســية للسكان المتزايدين فى المستقبل .

* والبعد الثالث : يتمثل فى تكدس السكان فى مساحة ضيقة ومحددة من اجمالى مساحة مصر الكلية مما يخلق كثيرا من المشاكل والصعوبات فى تأدية الخدمات وتسيير المرافق العامة .

وعلى ذلك فان مواجهة المشكلة السكانية فى مصـــر ينبغى أن ينطلق من هذه الابعاد الثلاث وحيث أن العوائق لاتزال قوية أمام امكانية تخفيض المعدل السنوى للزيادة السكانية فان مواجهة المشكلة فى المدى القصير والمتوسط لن تخرج عن أن تكون تثبيتا لعناصر المشكلة كمـــا هى الآن باحتوائها والتخفيف من تفاقمها .

وقد انتهت نتائج مؤتمر تنمية الصحراء المصرية الذى عقدته الجامعة الامريكية بالقاهرة فى نوفمبر ١٩٧٨ الى أن « تنمية الصحراء ذاتها ليست كافية لحل مشكلاتنا الغذائية والسكانية لان الحد من الانفجار السكانى ضرورة حتى ولو نجحنا فى تحويل كل صحارينا الى مزارع خضراء » (١) .

وبرغم التحفظ الذى قد يرد لاسباب كثيرة على مثل هذه النتيجة الموغلة فى تشاؤمها ، والموغلة فى ذات الوقت فى « أحاديه » أتجاهها أى فى تأسيسها على مبدأ « أما تحديد النسل أو .. الكارثة » فانها تظل ذات قيمة فى التعبير عن ضرورة الاهتمام بالعنصر الاول للمشكلة الا وهو تزايد الحجم السكانى فى مصر .

غير أن هناك من يرى امكانية المعالجة بوسائل اخرى تقف جنبا الى جنب مع مشروعات تنظيم الاسرة وتنظيم النسل . ويعتقد هؤلاء عن يقين له مشروعيته المستندة الى سوابق وتجارب الاخرين . ان أراضى مصر الشاسعة لابد وأن تكون قادرة على أستيعاب الحجم السكانى المتزايد لو أحسن التخطيط لها واستحدث فيها طرق علمية ووسائل غير تقليدية . ويطرح المتفائلون مبدئيا عددا من الاسس اللازمة لرسم خطط التعمير الصحراوى وذلك على النحو التالى : ـ

أ ـ ضرورة أن تستهدف خطة التعمير الصحراوى الحصول على أعلى درجة من الانتاجية المستمرة وليس الانتاجية المدمرة أو قصيرة الامد .

---

(١) الدكتور عدلى بشاى رئيس قسم العلوم بالجامعة الامريكية ـ تقرير عن المؤتمر المذكور ـ منشور بالاهرام الاقتصادى ـ اول يناير ١٩٧٩ ـ ص ٤٤ .

ب ـ أن تستخدم في عمليات التعمير الصحراوى تكنولوجيا بيئية صحيحة ومناسبة بحيث لا ينتج عنها اخلال بالاتزان البيئى الدقيق .

ج ـ أن تتضمن الخطة برنامجا متكاملا للاستعمالات غير الزراعية للارض « التعدين ـ الصناعة ـ السياحة ـ الطب والعلاج ـ التجارب العلمية » .

د ـ أن تتضمن الخطة برنامجا واضحا لحل الخلافات بين المنتفعين المتنافسين .

هـ ـ أن تتضمن الخطة وضع الخدمات الاولية الاساسية كشبكات الطرق ووسائل النقل والاتصال ومستلزمات الرعاية الصحية والاجتماعية .

و ـ تأمين مصادر التمويل قبل الدخول الى العمليات الاساسية فى البرنامج .

ز ـ تشريع القوانين الجديدة اللازمة وتعديل ما قد يلزم من التشريعات القائمة وذلك لكفالة القدر الكافى من حوافز التوطن والهجرة الى المواقع الجديدة .

ح ـ خطة محكمة للمتابعة والتقييم والمقارنة المستمرة مع نتائج التجارب المشابهة وفى الدراسات العديدة التى قامت بها مراكز الابحاث القومية فى مصر ، ومؤتمرات البيئة الدولية ، وندوات وحلقات البحث فى تنمية الصحارى واستزراع الاراضى ، وبرامج المؤسسات الحزبية والسياسية . نستطيع أن نلمح قدرا من الاهتمام المشترك بالعمل على المحاور المتعددة التالية :

* المسح الكامل للصحراء الغربية وسيناء لكشف مواطن المياه الجوفية بوسائل الاستشعار عن بعد والصور الفضائية :

* التفكير فى وسائل تحلية مياه البحر عند خليج

العقبة أو في الساحل الشمالي لسيناء أو الساحل الشمالى الغربى بوسائل الطاقة النووية .

* ترشيد نظام الصرف القائم حاليا لتحقيق الافادة القصوى بكمية مياه النيل المستخدمة فى الزراعة .

* التفكير فى شق فرع من النيل يتوجه الى جزء من الصحراء الغربية ويصب فى البحر المتوسط عند منطقة مرسى مطروح أو السلوم والتحكم عند بداية الفرع فى كمية المياه المتدفقة بواسطة وسائل التحكم المعروفة وبترتيبات دولية يتفق عليها مع الدول المشتركة فى حوض النيل .

* تنظيم عملية الجذب السكانى خارج وادى النيل ودلتاه وذلك باعادة توزيع مراكز التوطن الصناعى وآنشاء مدن جديدة .

* التركيز على معالجة الاسباب الطاردة التى تؤدى الى هجرة سكان الريف الى العاصمة (١) .

* التفكير فى استخدام الطاقات الحزبية والمناقشة التقليدية بينها فى عمليات التعمير الجديدة للمدن والاراضى المستحدثة .

* الاتجاه نحو سياسة تشجيعية جديدة للهجرة الخارجية تقوم على أسس واتفاقات دولية وحوافز كبيرة لتشجيع الهجرة الفردية والعائلية «٢» .

---

(١) انظر البحث الاجتماعي الذى اعده جهاز تنظيم الاسرة والسكان فى عام ١٩٧٨ عن هذه الظاهرة (نشرت مجلة الشباب وعلوم المستقبل ملخصا له فى عددها الصادر فى يوليو ١٩٧٨)

(٢) يمكن أن تقوم وزارتا الخارجية والهجرة بمسح اقتصادى وسياسى لدول العالم ومناطقه المختلفة التى يتوقع احتياجها لقوى عاملية اضافية خلال المستقبل المنظور بحيث لا يقتصر هذا

* الافادة بالامكانيات الفنية والمادية لابناء مصر المقيمين بالخارج فى دعم مشروعات التعمير الجديدة فى اطار سياسة عملية وفعالة يجتمع فيها الوازع الوطني مع المردود المادي والاجتماعي . «1»

الهجرة بين البلاد العربية ومستقبل المنطقة :

نتوقف هنا عند قضية من أهم واخطر القضايا المؤثرة على مستقبل العلاقات العربية وهى قضية الهجرة فالملاحظ أن هناك اتجاهين أساسين لهجرة المواطن العربى على الخريطة العربية ـ الاول يمثله مهاجرون باحثون عن لقمة العيش الاساسية حيث ينزحون من البلاد ذات الكثافة السكانية العالية الى البلاد ذات الثراء البترولى والاجر المناسب أما الاتجاه الثانى فيضم مهاجرين باحثين عن الترف حيث ينزح أبناء البلاد البترولية الى البلاد العربية الفقيرة نسبيا ذات المناخات والسياقات

المسح على بلاد الهجرة والعمالة التقليدية وانما يشمل الدول الافريقية والاسيوية ـ كالصومال وموريشيوس وجزر القمر وجيبوتى وزائير واوغندا وكينيا وسلطنة بروناى وغيرها مما تسمح المؤشرات الاقتصادية والسياسية فيها بترتيبات يمكن اتخاذها حكوميا لتنظيم ومضاعفة هجرة العمالة المصرية الزائدة اليها .

(1) قدم الباحث مشروعا لبرنامج قومى متكامل المراحل لاعادة توزيع الكثافة السكانية فى اتجاه مجتمعات انتاجية وعمرانية جديدة خارج وادى النيل ودلتاه باستخدام الحوافز الوطنية والامكانات العلمية والمادية للمهاجرين بالخارج ـ انظر دراسة هانى خلاف « ظاهرة الهجرة المصرية بين مؤشرات الفكر الشعبى وسياسات السلطة » ـ السياسة الدولية ـ عدد ابريل ١٩٨٢ .

السياحية المتعة . وواضح أن اتجاهى الانتقال يصل الى حد التناقض . والنتيجة انه بدلا من أن يلعب البترول العربى دورا فى تطوير النظام العربى وخلق فرص التكامل والوحدة ساعد على تعميق هذا التناقض بتنمية مشاعر غير متجانسة فيما يتعلق بقضية الوحدة العربية (•)

ويطالب أحد الدارسين المتعمقين لهذه الظاهرة كلا من البلاد البترولية والبلاد المصدرة للعمالة بمراعاة هذا البعد فى سياستها المستقبلية تجاه الهجرة ، وبأن يتطور تأسيس التنمية فى اطار المجتمعات البترولية الى تأسيس التنمية فى مختلف مواقع الخريطة العربية بمعنى أن تشكل تنمية المجتمعات البترولية مراكز التنمية المجتمعات العربية الاخرى المحيطة بها وقد تكون فى هجرة راس المال البترولى فى حركة مضادة لهجرة العمالة مع تأمينه بكافة الضمانات الكافية احد هذه الوسائل والاسس الجديدة المطلوبة لاستثمار ظاهرة الهجرة العربية استثمارا صحيا وقوميا وفعالا فى اتجاه تقوية المركز الاستراتيجى للعالم العربى ككل . (١)

وفى دراسة أخرى عن الهجرة السكانية داخل البلاد العربية تنبه احدى الدراسات المتخصصات الى خطورة العواقب السياسية المحتمل أن يؤدى اليهما انخفاض حجم الهجرة من الدول المصدرة للعمالة « اذ أن عودة كادر كبير من العمال المهاجرين الذين اعتادوا على دخل اكبر وفرص عمل أوفر قد تكون مصدرا كامنا لعدم

---

(١) د. على ليله : الهجرة وقضايا الوحدة العربية . دراسة لاتجاهات المهاجرين العرب فى المجتمعات البترولية السياسية لدولية ـ عدد ٧٣ يوليو ٨٣ ص ٦١.

الاستقرار السياسي وان عددا كبيرا من العمال الذين لم تتح ولن تتاح لهم فرصة الثراء السريع بالعمـــل في الخارج قد يشكل خطرا اكبر على هذا الاســــتقرار السياسي » «(١)»

ومما يبعث على بعض القلق ان دراسات أخرى تنتهي الى أن مثل هذا الاحتمال قد صار وشيك الوقوع ، ففي دراسة اجرتها مؤسسة راند الامريكية Corporation عن مستقبل الاحتمالات الاقتصادية في عدد من الدول العربية وأشرف عليها البروفسور ارثر سميتز الاستاذ بجامعة هارفارد بناء على تكليف من وزارة الدفـــاع الامريكية جاء :

«ان خطر التضخم واحتمال حدوث عجز في ميزان المدفوعات الخارجية ابتداء من عام ١٩٨٦ قد يحمـــل السعودية على تعديل خططها الانمائية الطموحة وانه سيقع على عاتق السعودية الاخذ باجراءات أكثر صعوبة عما كان يتطلبه الامـــر خلال فترة الرخـــاء البترولي وأوضحت الدراسة أن مشكلة السعودية لن تكون بسبب ارتباطها بالتنمية الداخلية في بلادها فحسب بل بتأثير الصعوبات الجديدة على التزاماتها الخاصة بمســاعدة الدول العربية الفقيرة .

وقد نشرت في ابريل ١٩٨٥ أن دول الخليج قـــد استغنت عن ٧٠٠ ألف عامل أجنبي خلال عام ١٩٨٤ ، وانه من التوقع أن يصل العدد الى مليون عامل خـــلال عام ١٩٨٥ وذلك بناء على توجيه مجلس التعـــاون الخليجي بالحد من العمالة الاجنبية في اطار سياسـة

---

(١) د نازلي شكري : ديناميكية الهجرة المعاصرة في الشــرق الاوسط ـ السياسة الدولية ـ عدد ٧٣ يوليو ١٩٨٣ ص ٦١ .

تخفيض الانفاق ومواجهة انخفاض اسعار البترول . (١)

ثانيا : نظام التعليم .. والمستقبل :

يكاد لا يختلف اثنان فى الحكم على نظام التعليم القائم فى مصر بأنه نظام محافظ يعكس الاوضاع القائمة ويحافظ عليها . وبرغم المحاولات والاجراءات التى تطفو على السطح احيانا ثم تخبو والتى تحاول أن تجعل « التعليم » فى الموقع الاول من جبهة التغيير الاجتماعى والفكرى الا انها لاتزال محاولات متناثرة لا ينتظمها استمرار ولا يدعمها حماس .

هناك مثلا نتائج وتوصيات مؤتمر التعليم المصرى سنة ٢٠٠٠ ، وهناك دراسات وتقارير المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى « من المجالس القومية المتخصصة» وهناك كذلك تقرير لجنة الخدمات بمجلس الشورى عن « الجامعات .. حاضرها ومستقبلها » .. وكلها تتضمن الدعوة الى ترشيد العملية التعليمية فى حدود المحافظة على اساسياتها التقليدية كمبدأ مجانية التعليم ، ومبدأ الاشراف الحكومى ، والتمويل الحكومى ، ومسئولية الدولة عن توظيف خريجى الجامعات والمعاهد ، ونظام تنسيق القبول بالجامعات ، الخ .. صحيح أن بعض هذه الدراسات والتقارير قد تضمنت بعض اشارات الى فكرة الجامعة الاهلية كأحد حلول مشكلة التكدس الطلابى الذى بلغت نسبته « ٥٠ طالبا الى كل عضو بهيئة التدريس » (٢) كما تضمن بعضها اشارات الى « ضرورة

---

(١) الاهرام الاقتصادى فى ١٢/٥/١٩٨٥ .

(٢) من حديث المستشار احمد فتحى مرسى امام مجلس الشعب اثناء مناقشة المجلس لسياسة التعليم . انظر الاهرام فى ٣٠/٥/١٩٨٥ .

تحديد سقف عددي مناسب لكل كليـــة ، والى تنويع مؤسسات التعليم العالي لمواجهة احتياجات المجتمع من التخصصات المتنوعة وذلك بأن تقـــوم تحت مظـــلة الجامعات كليات ذات منحى تطبيقي ومهنى جنبا الى جنب مع الكليات التى تختص بالعلوم الاساسية » (١)

الا ان معظم هذه الدراسات والتوصيات لا تزال فى راى الكثيرين بعيدة عن فكرة « تثوير التعليم » وجعله فى مقدمة عمليات التغيير الاجتماعي والفكرى .

وفي تقديرى ان فكرة التثوير تبدأ حين يتم الاقتناع اساسا بمنهج « التعليم من أجل المستقبل » الذى يحكم النظم التعليمية والسياسات التعليمية فى بلاد العالم المتقدم .

ومع اعترافنا باثر آختلاف نقطة البدء بين مجتمعنا وهذه المجتمعات وباثر الظروف التاريخية والاقتصادية التى تحيط بالعملية التعليمية هنا وهناك ، وبوجوب الانتباه الى ماقد يكون هناك من تفاوت فى المفاهيم القيمية والاخلاقية بين المجتمعات الحضارية المختلفة . الا ان هناك حدا أدنى وقاسما موضوعيا اساسيا يلزم البدء به مما يخرج عن دائرة هذه المؤتمرات جميعها .

فكرة التعليم من اجل المستقبل

والمنهج المقترح فى تقديم المستقبل للطالب له بعدأن :

الاول : الصورة التى تقدم للطالب عن شكل العالم فى المستقبل .. ويتضمن ذلك الرؤية الذاتيـــة التى يتصورها الشاب لنفسه بالقياس الى وضعه الحالى .

---

(١) من تقرير لجنة الخدمات بمجلس الشورى عن (الجامعات حاضرها ومستقبلها) برئاسة د. محمود محفوظ . مايو ١٩٧٥ .

الثاني : الظروف التعليمية أو « المناخ » الذي ينتظر منه ان يحدث تغييرا في سلوك الشباب وهيئة التدريس وهو التغيير الذي يناسب بالضرورة تصور الفئتين عن نفسهما في المستقبل .

« صور المستقبل » وطرق تقديمها للشباب من خلال التعليم

يستلزم تصوير « عالم المستقبل » في صورة واقعية وانسانية عدد من أساليب التعليم الجديدة التي طبقت منذ سنوات طويلة في معظم مدارس ومعاهد البلاد المتقدمة والتي أدخلتها بعض المدارس التجريبية الرائدة في مصر منذ سنوات .

فجانب « الغموض » في المستقبل له مايعين عليه من اساليب تعليمية محورها اشارة التساؤلات كالتحضير وعدم التلقين ، والاستخدام المكثف للاسئلة والحوار كطريقة للتدريس ، وتنمية الشك والعقلية المتفتحة لدى الطالب .

وجانب « التنوع الحضاري » في المستقبل يقابله منهج التنقل بين المواقع ، والرحلات ، والزيارات الميدانية ، وبرامج تبادل الطلاب بين المدارس والمحافظات والدول .

كذلك فان معاني « الحرية » بما تتضمنه من مزايا وقيود يمكن أن تقدم للطالب من خلال سياسة الباب المفتوح واجابة الاختبارات في المنازل Hame Examination والسماح بالاطلاع على الكتب والمراجع عند الامتحان .

واحترام « قيمة العمل » في المستقبل ومعاني « المساواه بين الافراد » يمكن تقديمها تعليميا من خلال برامج لتنمية المهارات الالية واليدوية بحيث تجعل الفرد مفيدا لنفسه ولاخوانه ، وتجعله قادرا علي المشاركة

الايجابية فى عملية التنمية الاجتماعية بغير العقل التقليدية الشائعة حاضرا كالترفع عن مزاولة العمل اليدوى أو التشفع بواسطات شخصية أو مادية للحصول على عمل أو التخلص من عمل .

كذلك فان تنمية المهارات التعبيرية التى تعطى معنى لحياة الفرد الانسانية ، وتربية النزعة الى الضحك والابتسام يمكن أن تؤكد للطالب مفاهيم التحدى والاستجابة ، والتاثر والتأثير ، والتعبير والاستقبال والاتصال الحر بين الناس وهى كلها مفاهيم محورية فى عالم المستقبل .

واخيرا فان صورة « السلام » فى المستقبل يمكن أن تقدم للطالب من خلال مناهج محايدة فى دراسة التاريخ الحضارى بحيث تتيح للفرد فرصة احترام القيم الذاتية فى كل شعب وكل حضارة ، على ماقد يكون بينها من اختلاف .

هذه مجرد جوانب محدودة لصورة المستقبل التى ينبغى تقديمها للطلاب من خلال الاساليب المشار اليها . وهى بعد مجرد أمثلة ينبغى احتذاؤها فيما عداها من صور واساليب تعليمية . ونعتقد عن يقين أن لهذه المفاهيم والاساليب من الاهمية التوجيهية والتأسيسية مايوجب تبينها ليس فقط فى مراحل التعليم العليا بل ايضا فى المراحل الاولى من السلم التعليمى .

والسؤال المطروح الآن : كيف نجرى هذا التغيير المقترح فى الطرق التعليمية ولصالح تكريس وتعميق هذه الجوانب المختلفة لصورة العالم فى المستقبل .

قد يرى البعض انه طالما كانت المدارس والمعاهد فى مصر مستمرة حتى هذه اللحظة على نظامها التقليدى

ومقرراتها المعتادة فانه يلزم اذن أن يتم التطوير بعكس كل الممارسات الحالية . أى أن ننتقل :ـ

من

* التعليم الجماعى الكثيف
* العلوم والمقررات الدراسية المنفصلة .
* الاستيعاب السليم للمعلومات
* البرامج اليومية الثابتة
* التدريب على المهارات والمعارف الشكلية
* التوجيه والمبادرة من المدرس
* التركيز على الكتب المدرسية
* الاجابات المحفوظة

الى

* التعليم الفردى
* المقررات الدراسية المتداخلة المترابطة
* البحث الايجابى
* الجداول المرنة
* خلق قدرات التقدير والتذوق والاختيار التى تثير الرغبة فى التعرف .
* مبادرة الطالب والتخطيط الجماعى
* تنوع مراجع ومصادر المعرفة .
* الوعى بالمشاكل والاستيعاب العام .

بيد أن العمل بطريقة الانتقال من أقصى اليمين الى أقصى اليسار أو التحول على زاوية تساوى ١٨٠ درجة يعتبر من ناحية أولى تبسيطا مخلا لاوضاع بطبيعتها معقدة ، ومن ناحية ثابتة تحقيقا لنجاح زائف لا يؤتى الثمار المرجوة على مدى مستقبلى بعيد .

والواقع أن مانحتاج اليه فى نظام التعليم المصرى ـ

الى جانب ضرورة البدء التدريجى في ادخال هذه الصور والاساليب التعليمية ـ هو فهم صحيح للمقـــررات المناسبة ولخصائص المناخ النفسى والاجتماعى للتعلم . ذلك بالطبع بالاضافة الى فهم الظروف التنظيميـــة والامكانات المادية والمصالح الشخصية المحيطة بعمليـــة التعلم والتعليم فى بلادنا .

مقررات دراسية مقترحة « للمستقبلية » :

نجحت المدارس الامريكية فى آدخال مقورات خاصة « بالمستقبلية » الى مراحلها الاعدادية والثانوية الا اننـا نرى ـ على الاقل فى المرحلة الحالية ـ أن تبقى القررات الدراسية فى مرحلتى التعليم الاعدادى والثانوى بالمدارس المصرية على ماهى عليه بشرط أن تتغير فقـط أسـاليب تدريسها أى أن تستخدم فيها الطرق التعليميـــة التى سبق تقديمها مع ادخال بعض التغييرات فى الظـروف المحيطة بعملية التعليم ـ كما يأتى فى حديثنا عن « المناخ المحيط » .

اما التعليم العالى فقد يكون من المناسب أن تدخـــل اليه بعض المقررات الكاملة فى المستقبلية .

وفيما يلى نماذج لهذه المقررات :

مقرر تمهيدى :

ويتناول هذا المقرر البحث فى الموضوعين التاليين :

* لماذا نبحث فى المستقبل ؟
* ماهى المواقع الفكرية والعملية التى من شانها البحث فى المستقبل ؟

- الانبياء
- الطوباويون
- مؤلفو قصص العلم الخيالى
- أهل الجلاء البصرى
- الفلاسفة
- رجال الارصاد الجوية
- المنجمون والعرافون
- المستقبليون

مقرر رقم « ١٠ » ويتناول :

● ماهو مجرى تطور الانسان ؟
● كيف ستكون بيولوجيا انسان المستقبل ؟
- الترقى .
- التطور الذاتى للانسان .
- هندسة الخلايا
- التحكم فى السكان
- الطب فى المستقبل
- الآثار القادمة للعقاقير والمخدرات .

مقرر رقم « ٢ » ويبحث فى الموضوعين التاليين :

* على أى نحو سوف يمكن الوفاء بحاجات الانسان المستقبلية :
- المأوى
- الطاقة
- الانتقال
- الاتصال
- التعليم

* ماهى مواقع الموارد الاخرى التى يمكن أن تغطى حاجات الانسان فى المستقبل اذا استمرت اتجاهات الاستنزاف الحالية فى الموارد ؟

- الفضاء الخارجى
- قاع المحيطات والبحار
- انتركاتيكا والقطب الشمالى

مقرر رقم « ٣ » ويتناول البحث فى الامتدادات القادمة للانسان :

* ماموقع الانسان من التكنولوجى الحديث ؟
- الحاسب الاليكترونى
- الميكنة
- الاستشعار عن بعد

مقرر رقم « ٤ » ويتناول العلاقات الاجتماعية للانسان فى المستقبل :

* تأثير الشباب فى هيكل الاسرة
* تغيرات الادوار بين الرجل والمرأة
* الحياة الجماعية ومستوطنات الصحراء
* العلاقات الوطنية « الداخلية » والدولية

هذه هى بعض مقررات مقترحة للتعليم العالى بصفة عامة . وقد يكون بعضها قابلا للاندماج وبعضها الاخر يقبل الاختزال . وقد يرى أن يتم توزيعها على كليات ومعاهد التعليم العالى اما وفق التخصصات أو بحسب السنوات الدراسية فى الكلية الواحدة . وتقدير هذا لابد أن يترك لكل جامعة بما يناسب امكاناتها البشرية والمادية والتنظيمية .

مناخ « التعليم للمستقبل » :

يبقى امامنا أن نبحث الظروف المحيطة التى يتبقى توفيرها لنظام « التعليم من أجل المستقبل » وهىالظروف التى يطلق عليها الاستاذ هارولد شين « مناخ التعليم المستقبلى » :

ومن بين هذه الظروف المحيطة نستطيع ان نعدد على سبيل المثال لا الحصر :

* نظام للمشاركة بين الطلبة وادارة المعهد .
* خلق قنوات اتصال دائمة بين المعهد ومؤسسات المجتمع البارزة .
* مساعدة ادارة المعهد للطلاب فى تحقيق ذواتهم « تشجيع عمليات النشر والطبع ، والسفر وحفلات التمثيل والعمل وقت العطلات » .
* نظام دائم لتجديد معلومات المدرس وطرق تدريسه .
* نظام للتزاور بين المدارس المختلفة « كسرا لحواجز السن والجنس والمكان » .
* الاستفادة بالطالب كمصدر لمعرفة المدرس ولادارة المعهد .

ثالثا : الظاهرة الدينية فى الشرق الاوسط .. وابعادها المستقبلية :

تمثل الثورة الاسلامية فى ايران ، الى جانب البعد الاسلامى فى التحركات الليبية الدولية بداية مرحلة جديدة فى وضعية الظاهرة الدينية داخل الحياه

السياسية والاجتماعية لمنطقة الشرق الاوسط . وبرغم ان قيام دولة اسرائيل فى عام ١٩٤٨ يمكن أن يعتبر من وجهة نظر اخرى البداية الحقيقية لظاهرة المد الدينى على المسرح السياسى فى المنطقة الا أن هذا العنصر لم ينجح برغم خطورته الحقيقية على المدى الابعد - فى أن يفرض الطابع الدينى الظاهر على مستوى حركة الشعوب والانظمة الرسمية لوحدات المنطقة بنفس القدر الذى اثر به مؤخرا عنصر الثورة الايرانية والتحركات الليبية وخاصة فى توجهاتهما المثيرة والعابرة للحدود .

وقد ترجع هذه المفارقة بين بدايتى تصاعد الظاهرة الدينية على المسرح السياسى الى أحد أو كل الاسباب الآتية :

أ - ان الانظمة العربية والاسلامية المحلية لم تشأ فى بداية مواجهتها للكيان الاسرائيلى عند انشائه أن تبرز الطابع الدينى للمواجهة أما لارتباطاتها الدولية القائمة آنذاك مع بعض القوى الكبرى ذات النفوذ اليهودى ، أو لاعتبارات محلية تتعلق بطبيعة التركيب الطائفى المتعدد داخل المجتمعات العربية ذاتها .

ب - ان اسرائيل قد سعت بمجرد قيامها والاطمئنان الى تحقق حلمها فى انشاء دولة يهودية الى اخفاء الطابع الدينى الخالص فيها وذلك من خلال عمليات دعائية واعلامية ضخمة تستهدف الايحاء خارجيا بأنها دولة علمانية أو على الاقل انها دولة تحترم الاديان على قدم المساواه ، وتتعامل مع الاجناس والثقافات والعقائد المتباينة تعاملا متساويا لا تعالى فيه ولا تمييز ، بحيث يصبح من الصعب على الطرف العربى أو الاسلامى المناوىء لها الاعلان بحرية وبلا حساسية أو حرج عن جهاده المقدس ضدها .

جـ ــ ان انتشار الفكر الماركسى والاتجاهات العلمانية عموما داخل انظمة الحكم القائمة فى عدد من دول المواجهة مع اسرائيل ــ ولو لحقبة زمنية أدى الى تمييع التناقض الدينى ــ او على الاقل تجميده ــ داخليا وخارجيا خلال هذه الفترة . وبمجرد انقضاء تلك الانظمة الحاكمة يبدأ هذا الفكر العلمانى فى الانحسار تدريجيا ليخلى الساحة لتيارات الفكر التقليدى ومنها الاتجاهات الدينية على نحو ماجرت عليه الممارسات السياسية والتوازنات الداخلية التى تنتهجها النخب الحاكمة عقب كل تغيير فى مواقع السلطة على امتداد العالم العربى .

د ــ ان اخفاق معظم الانظمة العربية والاسلامية ــ تحت شعار الفصل بين الدين والسياسة فى حل أبرز مشاكل المعاش اليومية بالنسبة لمواطنيها قد ادى مؤخرا الى تصاعد فكرة تجريب « البديل الاسلامى » وقد أدى تزامن هذا الاخفاق مع اندلاع الثورة الايرانية ونشاط النظام الليبى الى استشراء الفكرة داخل بعض المجتمعات التى لم يكن واردا بها قط ــ لاسباب داخلية ــ أو دولية ــ مثل هذا البديل المطروح .. كلبنان مثلا .

هـ ــ ان مماطلة الاطراف الاجنبية ــ وخاصة اسرائيل ــ فى رد الحقوق والمقدسات الدينية الى اصحابها العرب أو المسلمين قد عجل بالعمل على المحاور الدينية فى الجانب العربى والاسلامى .. وقد اتسم هذا العمل نظرا لحداثة استئنافه بعد فترة تعطيل طويلة نسبيا . ونظرا للاسباب العاطفية المفهومة والمرتبطة ــ بالتوجهات الدينية فى العادات العربية ــ ببعض مظاهر المغالاة والتطرف ووصل بعضها الى حد استعمال العنف فيما عرف بظاهرة « الارهاب » .

وبصرف النظر عما اذا كان جوهر « البديل الاسلامى » يعتبر مفتاحا صحيحا لحل مشكلات الحياه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراهنة فى المجتمع العربى أم لا . . . « ونحن نعتقد في صحة ذلك » الا أن الذى يهمنا حاليا فى عملية رصد الاخطار المحيطة بنا والمؤثرة على مستقبل الاستقرار المنتج على أرض المنطقة هـــو ذلك المنهج الاثاري والانتهازى الذي تطرح من خلاله الفكرة ، وذلك المدخل العاطفي الذى يسقط من حساباته احتمال استغلال القوى السياسية المناوئة أصلا للمصالح العربية والاسلامية ، فيعطيها الفرصة سائغة سانحة للالتفــاف والانقضاض على التجربة قبل أن تبدأ .

وقد حدث ذلك بالفعل ـ كما رأينا فى المبحث الأول من هذا الفصل اذ سارعت اسرائيل ومعها كثير من مراكز القوى الدولية المؤثرة الى استغلال التجاوزات التى حدثت في التجربة الايرانية والليبية لشن حملات دعائية مكثفة على مستوي العالم ضد المشروع الاسلامى فى عمـــومه وفى تفاصيله ، واتبعت ذلك بتنفيذ سريع لمخططاتها السابقة لاثارة مسألة الاقليات في البـــلاد العربيـة والاسلامية على نحو ما اوضحنا فى المبحث الاول .

والعالم العربى ـ كما هو معروف ـ يضم اقليــات متنوعة دينية وعرقية ولغوية وايديولوجية ولاشك أن التكامل القومي يرتبط بقدرة النظم السياســية على الاستيعاب والدمج ، ويتوقف ذلك ـ كما يرى خبراء العلوم السياسية والامن القومى على « مدى الـــكفاءة التوزيعية والسياسية للنظــام ومدى قدرته على خلق الولاء التطوعى لدى تلك الاقليات ، ومدى شـــعورها بتمتعها بحقوقها القومية وعدم التميز ضدها بســـبب وضعها كأقلية » .

التركيب الطائفى فى مصر ومستقبل الوحدة الوطنية:

يلعب التركيب الطائفى بين المسلمين والاقباط فى مصر دورا هاما فى تشكيل حالة السلام الاجتماعى الداخلى . وفى تدعيم الصورة الحضارية لمصر فى الخارج .. كما كان يلعب دورا هاما فى فترات سابقة فى تشكيل حالة الرخاء الاقتصادى والمقدرة الانتاجية خلال فترة التواجد اليهودى المكثف قبيل الخمسينات من هذا القرن .

ولان الخبرة المصرية الضاربة فى التاريخ الطويل قد تميزت عبر العهود والازمان ورغم تبدل الانظمة ووفود الحضارات المغايرة ــ بخصيصة الجمع بين « التدين » « والوطنية » تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقد كان طبيعيا أن يعتبر المصرى المعاصر كل الصــــور المستحدثة من الالحاد أو الاستفزاز الدينى او اصطناع المعارك والتراشق بما يثير المشاعر وتضخيم الحــــوادث الفردية ، والتلقائية والاحياء المستتر لانه ذاتية فئــــوية خاصة خيانة عظمى من وجهة النظر الشعبية .

وقد تكون هذه السمة الفريدة التى اتسمت بها علاقة الدين بالوطنية فى مصر هى اكبر اسباب حقد الحاقدين من أعداء مصر وغرمائها . وقد يكون الى جانب ذلك ايضا تحضر الرؤية الاسلامية فى مصر وسبقها الآخرين فى سماحة الفهم للاصول والتقدم فى تفسير النصوص والاتزان فى تطبيقها بما يحقق روح الاسلام الاصــــيل ويحلى عبقريته الفذة فى التعايش مع غيره من الفلسفات ، والاديان والشرائع الوضعية والتحديات المعادية فى هذا العصر وفى غيره .

ان الفهم المصرى المتحضر لكل من « التـــدين »

« والوطنية » وعلاقتهما معا يمثل تحديا غير هين لمراكز التعصب والرجعية وطواغيت الالحاد فى العالم القريب والبعيد وليس مستبعد أن تسعى هذه المراكز حثيثا لضرب هذا الفهم المصرى ومحاولة اجهاض تجربته الفذة وخاصة مع بدء أنتهاجه السبيل الانسانى والعالمى بتوسيع دائرة التسامح الدينى والقومى ليشمل اليهود الى جانب شموله السابق للمسلمين والمسيحيين .

من هذه الزاوية نستطيع أن ندرك الابعاد الحقيقية والدوافع الخلفية لتلك النغمات الدخيلة التى بدأت تظهر .. فى مصر وخارجها خلال الفترة الأخيرة ، والتى يتوقع أن تستمر خلال الفترة القادمة والتى تخرج فى فلسفتها وفى مناهج ادائها عن طبيعة الموقف المصرى والشخصية المصرية المعروفة عبر التاريخ الطويل .

وبنفس قدر الفداحة فى خروج هذه النغمات عن الروح المصرية والمصلحة المصرية سوف يلزم أن تكون هناك وقفة رسمية وشعبية أمام أصحاب هذه النغمات الدخيلة تتضمن ما يلى : ــ

أ ــ اجراءات لتصحيح وتنقية بعض أجهزة التوجيه الدينى والاعلامى وتقوية أدوارها الايجابية فى الدعوة الدينية المجردة من شبهة الغرض السياسى أو المصالح الفئوية المحددة .

ب ــ العمل بالاسلوب المؤسسى والاسلوب الوظيفى على خلق مزيد من الاقتناع الشعبى بأن الوحدة الوطنية بين الطوائف الدينية المتباينة هى فى الاصل مصلحة للجميع قبل أن تكون واجبا دينيا أو التزاما سياسيا أو دستوريا .

جـ ــ التأكيد وعيا وسعيا على الهوية التقدمية

والمتسامحة والعادلة للشريعة الاسلامية فى أصولها الاساسية ، والعمل بما تتضمنه هذه الاصول من قواعد ومبادىء مرنة تصلح لكل العصور والمواقع والمشاكل المتغايرة .

د ـ الوقوف بحزم أمام تيارات المد الدينى المتعصب عنصريا أو مذهبيا والوافدة من الخارج . والعمل على وأدها واجهاضها فى مناطق تصديرها وذلك بكشف عيوبها الفكرية وحقيقة التشابه فى أهدافها مع خطط ومصالح الاعداء المباشرين لمصر والعالم العربى والاسلامى .

مسائل اخرى فى تنظيم العمل الدينى :

ذلك من ناحية الاوضاع الدينية فى مصر وعلاقتها بمسالة التكامل القومى والوحدة الوطنية غير أن لهذه الاوضاع جوانب اخرى تمثل فى حقيقتها قدرا آخر من المشاكل والاعباء والمفارقات التى يلزم مواجهتها بالتصحيح الحكيم والحاسم .

* فمسألة اغلاق باب الاجتهاد لاتزال تشكل عبئا غير مفهوم يعوق حرية العمل بالمفهوم الصحى والصحيح للدين ، وخاصة على ضوء مستجدات الحياه المعاصرة واحتياجاتها المتعددة .

* ومسالة الارتزاق من وراء العمل الدينى مسالة تستحق وقفة فحص ومراجعة على ضوء المفارقات العجيبة والمذهلة التي تشهدها بعض الاوساط الاجتماعية عندنا سواء فى الجانب المسلم أو فى الجانب القبطى . ونشير فى ذلك فقط على سبيل المثال الى أجور قراء القرآن الكريم ووعاظ المساجد ، ونظام صناديق النذور وعطايا الشعب القبطى للكنيسة ونظام المعاملة المالية

للقساوسة المبعوثين للخدمة الكنيسية فى خارج مصر .

* ومسألة الوصاية الدينية ، وكهنوت العلماء والحق فى تكفير الآخرين والحكم على مدى تدينهم والتزامهم ايضا تعتبر مشكلة من المشاكل الكبيرة التى يلزم التصدى لها ضمن اجراءات المراجعة الشاملة للظاهرة الدينية فى مجتمعاتنا .

* ونظام تعيين شيخ الازهر وآختيار بابا الكنيسة القبطية وعلاقة ذلك بالدستور قد يكون أيضا من المسائل الواردة بحثها فى المستقبل القريب نظرا لحساسية مدلولها ونتائجها ، ونظرا لتنامى الحديث والمزايدة فيها فى الفترة الاخيرة .

* ومسألة التعليم الدينى فى المدارس والجامعات تحتاج أيضا الى مراجعة شاملة حيث ثبت بما لا يدع مجالا للشك ان كلا من نظام ومحتوى التعلم الدينى المعمول بهما حاليا مسئولان الى حد كبير عن كثير من حالات الشطط والمزايدة ، وأحادية التفكير وشكلية الممارسات الدينية من ناحية ، وكثير من حالات التقاعس والسلبية والتواكلية المعطلة لمساعى العمل والانتاج .

رابعا : اتجاهات الجريمة وابعادها الجديدة :

عرفت كثير من المجتمعات الاجنبية بل يكاد يكون قد استقر فى صميم حياتها اليومية جرائم « الاغتصاب » « والسرقة بالاكراه » ، و « تجارة الجنس » و « المخدرات » ، و « قطع الطريق » ، و « عقوق الابناء لوالديهم » ، و « قتل ذوى الرحم » و «الاختطاف للابتزاز » ، و « استخدام العنف فى العلاقات

الطائفية » .. الا ان المجتمع المصرى ظل لازمان طويلة خلوا من هذه الجرائم الا مايعتبر بالمعايير الاحصائية أو بالقياس الى عموم الاحوال .. أستثناء فريدا وشاذا .

لكن الامر قد تغير بعض الشيء خلال السنوات السبع الماضية اذ ارتفعت فجاة نسبة هذه الاستثناءات الفريدة والشاذة فى المجتمع المصرى بما يدعو الى مراجعة وصفها « بالشذوذ » واعادة تكييف النظرة اليها تناسبا مع ما أضحت تمثله فى الواقع ــ وبشهادة الحيثيات المعلنة وفق الأحكام القضائية العديدة الصادرة فى بدايات عام ١٩٨٥ ــ من حجم جديد ونسبة جديدة ذلك الى جانب ماراحت تشكله النوعيات والشرائح الجديدة التى عرفها عالم الجريمة المصرية لاول مرة ــ من صعوبات فنية وعملية بالنسبة لبعض الاجهزة المتعاملة معها .

ومن الملاحظات ذات الدلالة على مستقبل التطور الخاص بالجريمة فى مصر ظهور نسبة عالية لبعض الشرائح الاجتماعية التى لم يسبق لها الدخول الى مجال الجريمة بمعناه الاصطلاحى . كمجموعات « المتعلمين » « والمثقفين » و « الطلبة » ومن يطلق عليهم « ابناء العائلات » أو القادرين ماديا .

ولا يصدر الاهتمام بهذا التطور عن آفتراض يشابه المستقر فى الوعى ألجماعى المصرى التقليدى من تصورات او مقولات طبقية تضع « الاثرياء » أو « المتعلمين » فى معظم الاحوال بعيدا عن الشبهة أو احتمال التورط فى السلوك الاجرامى ، وانما يرجع الاهتمام بهذا التطور الى عدد آخر من الاسباب الموضوعية نجملها فيما يلى : ــ

أ ــ ان « العلم » و « المال » و « الشباب » هى اكثر العناصر المحورية تأثيرا فى مسارات الحضارة والتحضر بين الناس عبر التاريخ .. وبنفس محورية الدور الايجابى لهذه العناصر فى تحقيق التطور والتنمية لشعب من الشعوب تأتى فداحة دورها السلبى فى تعطيل المسار المتطور لهذا الشعب .

ب ــ ان كلا من فئات « القادرين ماديا » و «المتعلمين» و « الشباب » قد قدم فى التاريخ المصرى شواهد ونماذج لكلا الدورين الايجابى والسلبى . الا أن الدور الايجابى لهذه القوى كان فى معظم الاحوال ــ على الاقل من وجهة نظر الباحث وحساباته ــ الدور الاغلب ــ فلماذا اذن بدأت هذه الحقيقة التاريخية تنحو نحوا مختلفا فى حياتنا المعاصرة وخاصة فى مراحلها الاخيرة .. والى أين يمكن أن يصل تطور هذه الظاهرة ؟

جـ ــ ان « أصحاب المال » وأصحاب العلم ، و«الشباب» هم اكثر الفئات الاجتماعية تعرضا لاصحاب السلطة واكثرهم ــ فى كثير من الاحيان تعرضا معها .

ومع الاعتراف مبدئيا ببعض التداخل العضوى الذى يحدث احيانا بين هذه القوى الثلاثة من جهة وقوى السلطة من جهة أخرى ، بطريقة اجتهادية ومتقطعة ، وبمبادرات تلعب التفضيلات والعلاقات الشخصية أو الدوافع الموقوفة فيها دورا هاما ، فان الملاحظة الجديرة بالتأمل والفحص أن « أصحاب السلطة » لم يتمكنوا خلال التاريخ المعاصر من تحقيق الوفاق مع قوى « المال » و « العلم » و « الشباب » فى وقت واحد .. وبطريقة منتظمة وثابتة .

وهذه الملاحظة الاخيرة هى مدخل لملاحظات فرعية

أخرى تتعلق بتأثيرات المناخ السياسي العام على طبيعة السلوك الاجتماعي والبنيان القيمي والاخلاقي لفئات الشعب المختلفة .. بما في ذلك اشكال الانحراف والجريمة والقيم والدوافع المرتبطة بها .

ونسوق فيما يلي عددا من الملاحظات في هذا الشأن :

١ ـ من الملاحظ أن بدايات ارتفاع نسبة العناصر الجديدة في السلوك الاجرامي « وتشمل نوعية الجرائم وهوية مرتكبيها » قد تراوحت بين عامي ١٩٧٨ـ١٩٨٢ وهي الفترة التى شهدت طفرة كبيرة وبأبعاد غير مسبوقة لاعداد المصريين المسافرين للعمل بالخارج ، وتفاقم مشاكل الخدمات المهنية من ناحية كفاءتها واسعارها والاخلاقيات المرتبطة بها . وهى نفس الفترة التى تضاعف فيها الفارق بين المعروض والمطلوب من المساكن والمواد الغذائية ، وارتبط بذلك رهق مادى ونفسى ضخم لغالبية المواطنين ، وهي ذات الفترة التى تعددت فيها منافذ إستجلاب السلع المسماه « بالاستفزازية » ، وأنتشرت فيها ظاهرة الدروس الخصوصية لتصبح عبئا ماديا جسيما على أهل التلاميذ ونقطة تحول جوهرية فى العملية التربوية والتعليمية على وجه العموم .

٢ ـ فى نفس الفترة المذكورة شهد المجتمع المصرى تغايرا وتبادلا فى مواضع الاهتمام والاولويات وفى سلم البنيان القيمى حيث انتقل الى مراكز الصدارة والاهتمام ـ واحيانا التكريم ـ المشتغلون بالفنون السهلة مهما كان مستواهم ومهما كانت ظروف صعودهم وأنتشارهم ، والسماسرة ، واصحاب « البوتيكات الانفتاحية » وتجار « الخبطة الواحدة » ، وانصاف المتعلمين ، ودعاة التطرف الدينى .. بينما تراجع الى مؤخرة الصفوف

وانزوى فى دائرة الظل العلماء والمعلمون الجادون ، والمثقفون ، وكبار رجال المال والاقتصاد ، وأصحاب المواقف المستقلة بين الشباب ، وأصحاب الرصيد الاجتماعى العريق فى مجالات الخدمة العامة وأعمال البر ، وابطال القلم ، ورواد الصناعة والمبتكرون ، ولاعبو الرياضيات الجادة والمتميزة ، والفنانون الاصلاء ، والموظفون الجادون ، والعمال المهرة والمخلصون .

٣ ـ يلاحظ أيضا أنه فى نفس هذه الفترة أيضا « ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢ » شهد المجتمع عددا من الاحداث والتوجهات السياسية غير المألوفة للشعب خلال سنوات طوال من تاريخه الحديث . فقد أتيحت خلال الفترة فرصة العمل العلنى والتعبير الحزبى للاراء والمعتقدات والمواقف المختلفة . ورفع فى نفس الفترة الحظر الرسمى على استيراد الكتب والصحف والمصنفات الفنية والادبية الاخرى ، كما شهدت نفس الفترة ترتيبات جديدة لتعزيز فرص الانفتاح بين الثقافة المصرية والثقافات الاجنبية وخاصة الغربى منها كزيادة المنح الدراسية ودورات التدريب والبرامج التليفزيونية الاجنبية ،وتقنين ظاهرة الهجرة للخارج وتشجيعها مع السماح فيها بازدواج الجنسية ، ومضاعفة أعداد البنوك والشركات الاستثمارية والوكالات الاجنبية العاملة فى مصر ومنحها تيسيرات وأوضاعا خاصة . كما شهدت هذه الفترة انتقالا حادا ومفاجئا فى النظرة التقليدية لما كان يعرف لفترة طويلة بانه « خيانة وطنية » فاضحى السلام مع اسرائيل معيارا تكرم به المؤيدون ، وشرطا أساسيا لا تحصل الاوعية السياسية بغير توافره فيها على مشروعية الوجود والعمل .

٤ ـ يلاحظ كذلك أن تعامل كل من قوى « المال » و « العلم » و « السلطة » فى مصر مع هذه الاحداث والظواهر جاء فى اجماله العام متماثلا الى حد كبير برغم اختلافات الدوافع والنوايا فيما بينها . فقـــد تميز أسلوب كل منها بالحرص على احالة النتائج الى اسباب تتعلق بغيرها من القوى الاخرى والميل الى المعـــالجة بأسلوب « ادارة المشاكل » وليس بمنطق « حل المشاكل من جذورها » .

ولعل الظاهرة الأخطر من هذه المشاكل أن هناك عددا من عناصر المال والعلم والسلطة فى مصر لم يستطع أن يرى حجم المشكلة على حقيقتها وفيهم من رأى الأبعاد على حقيقتها لكنه لم يعتبرها مشكلة .

والآن : ماذا عن انعكاسات هذا النهج فى معـالجة الاسباب على مستقبل التطور الاجتماعى العام فى بلادنا .. وعلى مستقبل ظواهر الجريمة على وجه التخصيص؟

هنا نطرح التساؤلات التالية : ـ

* التساؤل الاول : هل هناك اتجاهات وأحـداث اخرى سبقت أو تزامنت مع المرحلة التى ارتفعت فيهـا نسبة هذا السلوك الاجرامى الجديد مما قد يساعد فى الكشف عن أسباب هذا التطور الحديث وخاصة دخول عناصر وشرائح جديدة الى عالم الجريمة .

* واذا لم تكن هناك أسباب وظروف أخرى افعـل تأثيرا واطغى فى تشكيل السلوك الفردى والفئوى فى مصر خلال الفترة المذكورة .. فهل يمكن ان يكون هذا التزامن بين تلك الظروف المبينة سابقا . وذلك السلوك الجديد مجرد صدفة عابثة ؟

* وهل يجوز الزعم بعد ذلك بأن دخول « المتعلمين »

« والمثقفين » « وأبناء العائلات » « والشباب »
« والقادرين ماديا » الى عالم الجريمة سواء فى شكلها
التقليدى أو أشكالها الجديدة ـ يأتى كرد فعل لجرائم
أسبق وأكبر تداخلت وتميعت بها الحدود والقيم
والصور المستقرة في الوعي الجماعى المصرى عن العلم ،
والعدل ، والحق ، والرزق ، والارادة ، والحرية ،
والواجب ، والوطنية ، والتدين ، والمسئولية ،
والقدوة .

ولاشك أن اعادة الحدود والوضوح ألى هذه القيم
الاساسية هو المخرج الاساسى أمام أى اصلاح تسعى
اليه الجماعة المصرية فى المستقبل وهى بالقطع مهمة
ليست هينة ، ولا يستطيع القيام بها فئة القضاه
وحدها ، ولا اية فئة واحدة مهما تسلحت بقوة السلطان
او حكمة العلماء . فالمهمة مهمة الجميع حكاما ومحكومين
مؤيدين أو معارضين ، منتفعين أو مضرورين فى الماضى
أو الحاضر . ذلك أن مصير الجميع على ظهر السفينة
المصرية واحدة .

على انه قد يلزم ايضا عند الشروع فى تخطيط الحركة
الواجبة التحوط ازاء المحاذير والمحظورات الاتية : ـ

أ ـ ان محاكمة الماضى واستصدار تشريعات رجعية
الاثر لتجريم ومعاقبة الفائت من الاشخاص والاوضاع
ليس بجدى شيئا فى اطار مهمة الاصلاح الكبرى المأمولة
فالقبطان الحكيم هو الذى يحكم توزيع العمل بين جميع
ركاب السفن فى حالات الطوارىء حتى اذا كان بين
هؤلاء الركاب من كان سببا فى حالة الطوارىء ذاتها .

ب ـ ان شعور المواطن الفرد بوظيفته المحددة
ودوره الشخصى فى عملية الانقاذ أو الاصلاح امر هام

وضروری جدا . وأی محاولة لتعميم الادوار أو للاستئثار بهذه المهمة وفق منطق التحزب أو منطق الوصـــاية . أو توزيع المهام وفق التقسيمات الفئوية التقليـدية أو التصنيفات الطبقيـة والعقائدية المعتادة من شأنه أن يسمح بنفاذ الشك فی جدية وصدق المحاولة القومية ذات البعد الوطنی الواحد .

جـ ـ ان التغيير والتعديل لا ينبغی أن يشمل كـل ماكان فی الماضی المذكور . ففی بعض هذا الماضی جـذور لمصالح وطنية جماعية ممتدة الى الحاضر والمستقبل ، وفيه أيضا حقائق موضوعية وتراثية احتفظت بصلابتها ورسوخها الثابت لها منذ زمن أبعد ، وكل المطـــلوب فيها ازالة ما أهيل عليها فی الماضی القـــريب من أتربة صناعية وما أحيطت به من اغلفة التزييف والافتئات . وفی هذا الماضی أيضا نماذج مضيئة لنجاحات وانجازات فردية وجماعية أو علی الاقل محاولات جادة يمـــكن استثمارها وتوظيف الخبرة المكتسبة منها فی مشـــروع النهوض القومی المأمول .

الفصل الثالث :

موقـع المستقبليـة داخـل البيئة السياسية المصرية

برغم صعوبة القول ـ علميا ـ بان اداء دولة بأكملها يمكن أن يكون انعكاسا لدور القيادة كمؤثر وحيد الا اننا فى الحالة المصرية لا يمكن ـ علميا أيضا ـ أن نغفـل حجم وتأثير الكاريزما الشخصية للرؤساء ، وطبيعـة توجهاتهم المحلية والاقليمية والعالمية الى جانب الامكانيات السلطوية الهائلة والمودعة بايديهم ـ تقليديا وعلى مـر عصور طويلة ـ فى صياغة آفاق وايقاع التوجهـات الرئيسية العامة للدولة فى مصر . ويظهر ذلك التأثير بوضوح خاصة حين يتعلق الامر بالتغييرات والمشروعات الجديدة وغير التقليدية فى حياة المصريين .

وبرغم اتفاق رؤساء مصر خلال جمهوريات الثـورة الثلاث فى أحكامهم العامة عن ماضى ماقبل الثورة وفى مجمل نظرتهم الى أهداف المستقبل وآمال المصريين فيه الا أنه يمكن ملاحظة عدد من الفـوارق والتباينات فى منهاجية كل منهم وتعامله « الحرفى » و « التكتيكى » مع مقتضيات هذا المستقبل .

ولان المقصود الاساسى من وراء هذا البحث هو دراسة ظاهرة الاهتمام بالمستقبل فى المجتمع المصرى ومكونات تشكيلها والعوائق امامها ، فان عقد مقارنات بين رؤى ومناهج الرؤساء فى مصر ليس هدفا فى ذاته وانمـا نتعرض لهذه المقارنة بمقدار ما تسهم فى ايضاح الظروف والملابسات المرتبطة ببدء الظاهرة موضع البحث والتى

تزامنت كثافتها الملحوظة مع انفجار الحقائق الذى حدث فى يونيو ١٩٦٧ والذى أدى الى تأكيد الحاجة ــ شعبيا ورسميا ــ الى نظرة أبعد نحو المستقبل وما يلزم لتلك النظرة من دراسات واجهزة ومنطق جديد فى التعامل مع هذا المستقبل .

وتأسيسا على ذلك فقد يكون من المناسب التركيز على مرحلة « السبعينات » باعتبارها المرحلة التى شهدت استجابات تنظيمية وفكرية عديدة لهذا التغيير المطلوب ، وظهرت فيها بوضوح تأثيرات القيادة السياسية على طبيعة التوجه العام للدولة وايقاعه ، الامر الذى انعكست آثاره ــ بالطبيعة ــ على المرحلة المعاصرة التى تبدأ منذ أوائل ١٩٨٢ .

وعلى ذلك فان هذا الفصل من الدراسة سيتناول المباحث الآتية :

- خصائص وابعاد الرؤية المستقبلية فى فكر القيادة السياسية المصرية خلال السبعينات واوائل الثمانينات.
- تقويم عام لموقف الادارة المصرية من المستقبل ومناهج تعاملها معه .

خصائص وابعاد الرؤية المستقبلية للقيادة السياسية المصرية خلال السبعينات واوائل الثمانينات

١ ــ الفكر المستقبلى لانور السادات :

ليس من قبيل المبالغة القول بأن الشخصية غير التقليدية التى اتسم بها الرئيس المصرى خلال فترة

السبعينات قد نجحت فى طبع الاتجاه العام للدولة خلال تلك الحقبة بتوجهات جديدة وغير تقليدية أيضا ، فقد ظهرت فى هذه المرحلة دعاوى وبرامج عديدة وجـديدة تتعلق بغزو الصحراء ، والثورة الخضراء وانشاء وتعمير مجتمعات جديدة خارج النطاق العمرانى التقليدى لوادى النيل ، كما ظهر أيضا توجه غير مألوف للتعامل سـلميا مع اسرائيل انتهى بتطبيع العلاقات معها ، مما أحـدث تغييرات شبه جذرية فى خريطة التوجهات المستقبلية لمصر وبالتالى فى خريطة أولويات العمـل لديها ولدى غيرها من الوحدات الدولية الاخرى فى المنطقة بأسرها .

ولا يجانب الصواب كثيرا أن يقال بأن هذه التوجهات نحو البرامج والمشروعات والتطلعات غير التقليدية فى عهد أنور السادات يمكن أن نجد لها بعض التأصيلات النظرية فى بيانات الرئيس السابق وكتاباته المتعـددة حـول « المستقبل » و « الزمن » و « سرعة التغيير » ، وفى نظرته الى أولويات الاهتمام ومنهج التعامل مع مايستجد من متغيرات .

وقد اخترنا فى هذا المبحث مصدرين أساسيين للتعرف على ملامح هذه النظرة « الساداتية » نحو المسـتقبل ومنهاج تعامله فيها .. وهذان المصدران هما :

١ ـ برنامج العمل الوطنى الذى قدمه أنور السادات فى ٢٣ يوليو ٧١ .

٢ ـ كتاب السيرة الذاتية لانور السادات « البحث عن الذات » والذى صدر عام ١٩٧٨ .

ولا يحتاج الامر توضيحا أن تحديد هذين المصـدرين مرتبط بتاريخ كل منهما حيث يقدم الاول نموذجا للفكر الاصلى والطموحات النظرية للسادات فى بدايات عهـده

بالموقع القيادى الاول فى مصر ، بينما يقدم المصدر الثانى نموذجا لهذا الفكر بعد ان أمتزج بخبرة السلطة وتجاربها المنوعة وان كان قد خصص فيه قسما كبيرا للرواية عن أحداث سبقت ولايته لتلك السلطة .

اولا : برنامج العمل الوطنى - يوليو ١٩٧١ :

تعتبر هذه الوثيقة التي قدمها انور السادات فى بداية السبعينات علامة خاصة فى تاريخ الفكر القومى المصرى . فهى من ناحية الاطار الزمنى والشكلى تأتى كرابعة وثائق الثورة التى بدأت بكتاب « فلسفة الثورة » ثم تلاه ميثاق العمل الوطنى فى أوائل الستينات ، ثم بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ ، وهى تعتبر من الناحية الموضوعية أولى هذه الوثائق وأكثرها انتباها لاهمية ترجمة المنظورات الفكرية الثورية الى برامج محددة للحركة ذات آجال زمنية وابعاد تطبيقية معينة وقابلة للاختبار .

ومن بين عشرات المشروعات والافكار التى خطط لها برنامج العمل الوطنى تأتى ثلاثة منها على رأس المؤشرات الدالة على رؤية المستقبل بمنهج تطبيقى ومحدد وهذه المشروعات هى :

* برنامج اعادة بناء القرية المصرية .
* تثوير البيئة الصناعية .
* الدعوة الى انشاء المجالس القومية المتخصصة للبدء فى رسم سياسات مصرية فى المستقبل البعيد .

* وفيما يختص باعادة بناء قرى الجمهورية ذكر برنامج العمل الوطنى انها أولى مهام الدخول الى الدولة الحديثة وحدد لها « عشرين سنة » بحيث يصبح

لكل سكان الريف فى نهاية هذه الفترة مساكن صحية جديدة مزودة بالكهرباء والماء النقى وبحيث يكون لكل مجموعة من القوى مركز يتوسطها لتجميع الخدمات التى لا يمكن توافرها فى كل قرية على حدة ، كقصور الثقافة ومحطات صيانة الالات الزراعية والمدارس الثانوية والعالية والمعاهد الفنية والمستشفيات العامة ، ثم وحدات لتصنيع المنتجات الزراعية آليا .

وقد قرر البرنامج تكاليف هذا المشروع الثورى « بحوالى ألف مليون جنيه على أساس بناء أربعة ملايين وحدة سكنية جديدة لسكان الريف الذين يبلغ عددهم حوالى ٢٠ مليونا .

وبصرف النظر عن مدى تأسيس هذه الارقام على دراسات دقيقة ومدى استحضار عنصر التراكم فى حسابها .. فلاشك أن قيمة هذه التفاصيل تظل مؤشرا جيدا الى طبيعة الاتجاه المنهجى فى رؤية المستقبل المأمول من خلال أبعاد واحجام ملموسة ، وان كانت تقريبية .

ولعل من أهم الآثار التى نتجت عن هذه الخطة الطموحة لبناء القرى المصرية الواردة فى برنامج العمل الوطنى تلك الافكار والدراسات التى سارع المتخصصون وغير المتخصصين من أهل الفكر العام الى تقديمها ونشرها حول بناء القرية المصرية .

* وفيما يتعلق بالبرنامج الثانى وهو « تثوير » البيئة الصناعية ، فقد ذكر برنامج العمل الوطنى « أن علينا — فى نفس الوقت — أن نعمل على تطوير تجمعات الصناعة المهمة ، بحيث يصبح كل منها مجتمعا صناعيا متكاملا يضم الى جانب المصانع المساكن الحديثة المقامة فى احياء

سكنية تتوفر فيها جميع الخدمات اللازمة للعمال وأسرهم من مستشفيات ومدارس ومواد ودور الثقافة والترفيه » وحدد البرنامج وسائل تمويل هذا المشروع الضخم وأبرز مزاياه لصالح العمل والعمال والناتج القومي الاجمالي .

وتعتبر هذه الخطة أول اشارة تفصيلية الى الاتجاه رسميا الى فكرة « التخطيط الاقليمي » الذى تنشأ بمقتضاه مجموعة من البيئات الحضارية ذات النواة المركزية وهي انتقال لا تناقض فيه مع ماعرف فى الفكر السياسي المصرى والتجربة المصرية قبل عام ٧٠ بالتخطيط القومي .

* أما الاشارة المستقبلية الثالثة التى تضمنها برنامج العمل الوطنى فهى دعوته الى « انشاء المجالس القومية المتخصصة كهيئات علمية استشارية ترتبط بمراكز البحث العلمى ومعاهده » .. فبعد أن كان الاطار العام للمجالس القومية المتخصصة قد تحدد فى بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ حرص برنامج العمل الوطنى على تحديد طبيعة ومجال عمل هذه المجالس ، فأشار الرئيس السادات فى مجال حديثه عن المبادىء الدستورية المقترح تضمينها الدستور الدائم ــ الى اهمية انشاء هذه المجالس لمعاونة رئيس الجمهورية بالمشورة فى جميع المسائل ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي .

ثانيا : كتاب السيرة الذاتية للرئيس أنور السادات .. البحث عن الذات

يتضمن هذا المؤلف الشخصى ثلاث عشرة نقطة تتعلق برؤية السادات للمستقبل وموقفه منه وأسلوبه فى التعامل معه ، ويمكن تصنيف مادة « المستقبل » فى هذا الكتاب فى ثلاث مجموعات :

الاولى : فى متطلبات الرؤية المستقبلية الصحيحة
والثانية : تبرز المنهج الشخصى للسادات فىالتخطيط والعمل من أجل المستقبل .
والثالثة : تعبر عن مدى المام السادات بالمفاهيم الحديثة فى العلوم المستقبلية .
أما المجموعة الاولى : فتتركز تقريبا فى الفصل المعنون : « نحو تحرير الذات ـ الزنزانة ٥٤ » ففى هذا الفصل وضع السادات قاعدتين هامتين يلزم العمل بهما حتى تكون رؤيتنا صحيحة للامور فى الحال أو الاستقبال الاولى : الوعى بالذات وبامكاناتها ، والثانية ضرورة اتخاذ مثل أعلى أو هدف نهائى واضح وواقعى .
يقول أنور السادات فى صفحة ١٠٨ وصفحة ١٠٩ « الأعتماد على النجاح الخارجى يبعد الانسان عن ذاته ـ والجهل بالذات هو أسوأ مايمكن أن يصيب المرء اذ تنتشر الظلمة داخل النفس وبانتشارها يفقد الانسان الرؤية وتضيع عنه معالم الطريق .. » .
ويقول فى صفحة ١١٨ « قد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذى هو ثمرة السلام الروحى يعنى الاستسلام للامر الواقع أو تقبله على الاقل .. ولكن هذا غير صحيح فأنا لا أقبل الامر الواقع كما هو بل احاول دائما تطويعه والسمو به الى ماهو أفضل .. ففى اعتقادى أن الانسان يجب أن يعمل دائما ونصب عينيه مثل أعلى يريد أن يبلغه فبدون المثل الاعلى كيف تكون للانسان رسالة ؟ » .
واما ملامح المنهج الشخصى للرئيس السادات فى التخطيط والعمل من أجل المستقبل ـ وكما تبدو فى كتابه « البحث عن الذات » فيمكن تلخيصها فى أربع نقاط هى :

ا ـ حساب كل البدائل والاحتمالات حتى المستحيل منها .
ب ـ اتاحة قدر من المرونة فى الخطة بحيث يسمح بالتعديل والتطوير عند الممارسة الميدانية .
ج ـ ديمومة وشمول الحلول أهم من مجرد ايجادها .
د ـ أسرع الطرق الى المستقبل .. افضلها .
* والعلامة الاولى من علامات هذا المنهج فى العمل المستقبلى تظهر فى أكثر من موضع ، ففى معرض وصفه للقيمة الحقيقية للثغرة العسكرية التى حققها الاسرائيليون فى أواخر حرب أكتوبر ٧١ ـ قال الرئيس السابق « الحرب النفسية قد تصلح مع غيرى ولكنها لا تصلح معى أبدا .. لانى أعرف ما افعل واعد لكل خطوة اخطوها عدتها » .
كذلك يظهر تحسب السادات لكل احتمال وارد عندما ذكر حادثة نصحه للرئيس جمال عبد الناصر عقب هزيمة يونيو ٦٧ بالانتقال الى الصعيد وترك القاهرة استعدادا لحرب مقاومة شعبية تحسبا لاحتمال سقوط القاهرة فى اليوم الثالث لحرب حزيران .
وقد وصف السادات « السياسة » بانها فن المستحيل خروجا على الشائع لدى البعض من تعريف لها بانها « فن الممكن » ويعبر ذلك عن أقصى الطموح فى تخطيط المستقبل ، ويود الرئيس ان يلفت النظر فوراً الى المثل المعبر مباشرة عن هذا الموقف المتحرر ازاء مختلف البدائل المتاحة للتحرك المصرى واستعداده لانتهاج مسالك قد ينظر اليها البعض على انها مستحيلة التحقيق ـ فيشير الى « حرب أكتوبر » قائلا : « يصف البعض السياسة بانها فن الممكن ولكننى لا آخذها بهذا التعريف فاذا قسناه

على حرب اكتوبر لقلنا أن السياسة هي فن المستحيل ».

* والعلامة الثانية لمنهج السادات في التعامل مع المستقبل كانت في اتاحته قدرا من المرونة في خطة المستقبل بحيث يسمح هذا القدر باجراء التعديلات أو الاضافات الي هذه الخطة أثناء المواجهة الميدانية لمشاكل التنفيذ . وأذا كانت هذه العلامة قد ظهرت بوضوح في أسلوب السادات في ادارته لمفاوضات السلام مع الاسرائيليين والامريكيين فان أصولها التى ظهرت في كتاب « البحث عن الذات » تستحق وقفة فحص وتأمل .

يقول أنور السادات في روايته للخطوات الاولى التى تمت في أوائل الاربعينيات تمهيدا للثورة على النظام الملكى القائم حينذاك في مصر وضد الاستعمار البريطاني الجاثم على ارض الوطن « لم ألجأ الى الخلايا السرية للدفع بالثورة المسلحة نحو بلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر ١٩٤٢ ، ففي تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ في الانكسار وبالتالي استعان الانجليز قوتهم في مصر فكان على عبد الناصر أن أن يخطط للمستقبل ، أما أنا فلماذا أخطط لثورة بعيدة ؟.

كانت الأحداث وما أعقبها من ردود فعل ــ أي انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الانجليز المتتالية كنتيجة حتمية لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامي مفتوحا للعمل المباشر ، ففيم الاعداد للمستقبل والفرص متاحة أمامنا وواجبنا أن ننتهزها قبل أن تفوت .. » .

وفي هذا المثال يظهر استعداد السادات لاجراء تعديلات في توقيت التنفيذ وفي ترتيب المراحل التى سبق له تصورها وتخطيطها .

* أما العلامة الثالثة فى منهج الفكر المستقبلى للسادات فهى حرصه على أن تكون حلول المشاكل التى يخطط لها دائمة وجذرية ونرى ذلك بقوله فى كتابه « انا احب ان اغير .. لا أمتص ولا اعالج ، ولا أخدر .. وفى نظر الناس أريد أن يكون كل شىء واضحا كما هو فى نظرى تماما .. وعندما ألجا الى حل بعض المشكلات افعل كل مابوسعى لكى يكون الحل جذريا لا مؤقتا » .

ونستطيع ان نلمح الترجمات العملية لهذا المنهج فى معالجة المشاكل بمتابعة الاهتمامات والاولويات التى وضعها السادات لمواجهة مشكلات عضال ، كالانفجار السكانى او نقص الغذاء .. فقد اختار فى كلا المشكلتين حلولا جذرية وعميقة التغيير .

فمنهج غزو الصحراء والبدء فى انشاء مجتمعات جديدة قد يبدو أنه طموح الى حد بعيد وقد يبدو أنه يتعارض مع الطبائع الشعبية الشائعة عن المصريين ، الا أنه – بالتحليل العلمى – يعد أكثر المناهج فعالية فى مواجهة المشكلة المستفحلة فى التزايد السكانى على المدى البعيد ، وقد كان سهلا على السادات أن يختار طريقا أكثر أمانا – من الناحية الشعبية – فيلجأ مثلا الى توجيه بعض الموارد الاضافية أو القروض الخارجية الى شراء المستهلكات اللازمة لحياة الشعب خلال سنوات محدودة ، الا انه وكما اكد فى كتابه لم يكن يفضل منهج امتصاص المطالب ولا منهج التخدير ولا منهج « احيينى النهاردة وموتنى بكره » .

وتتضح دقة السادات فى روايته عن منهجه فى مواجهة المشاكل فهو يقول : « افعل كل مابوسعى لكى يكون الحل جذريا لا مؤقتا » فهو اذن لم يقل « افعل دائما وبسهولة »

وانما كان يضع أمكاناته وامكانات الحكومة كمناط للقدرة على جذرية الحلول وجذرية التغيير الذى ينشده .

واذا كانت جذرية وديمومة الحلول أهم لدي الرئيس الراحل من مجرد ايجادها فان ذلك لم يكن ليجعل خططه للمستقبل بطيئة بالضرورة ، بل ان العكس هو ما كان يفضله شخصيا ، فأسرع الطرق الى المستقبل تفضلها لدى السادات وهذه هى العلامة الرابعة من علامات منهجه الذاتى فى التعامل مع المستقبل كما تبدو من خلال سيرته الذاتية .

يقول السادات فى كتابه « أنا اقصد « بالسياسة » كيف نوصل مصر من اقصر واسرع طريق الى أمانينا وان نكتب لمصر تاريخا جديدا » .

وننقل الآن الى المجموعة الثالثة من المواد المتصلة برؤية المستقبل فى كتاب « البحث عن الذات » وهى المواد التى تفصح عن مدى الما السادات بالقواعد والمفاهيم المتعارف عليها لدى علماء المستقبلية ورجال التخطيط طويل المدى . وفى هذا نعرض أولاً للتوجيه الصادر منه الى القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول أحمد اسماعيل على - والمؤرخ فى أول اكتوبر ١٩٧٣ ، ففى هذا التوجيه الذى نشر الرئيس السابق نصه كاملا ضمن ملاحق الكتاب - يجدد السادات هدفا استراتيجيا تقوم به القوات المسلحة المصرية ، وهو تحدى نظرية الامن الاسرائيلى وذلك عن طريق القيام بعمل عسكرى يستهدف الحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو . وقد تضمن هذا التوجيه تقديرا من السادات لنتائج النجاح فى هذا العمل ، وذلك على المدى القريب ثم المدى البعيد . وفى تقديره للنتائج المتوقعة على المدى البعيد جاءت اشارة

واضحة الى فكرة تراكم المتغيرات التى تعتمد عليهـا الدراسات المستقبلية الحديثة .
قال السادات « وفى المدى البعيد فان تحدى نظرية الامن الاسرائيلى يمكن أن يحدث تغييرات تؤدى بالتراكم الى تغيير اساسى فى فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية » .
وعصر « التراكم » الذى تؤكد عليه المناهج الحديثة فى تخطيط المستقبل ، نراه مرة اخرى فى ذهن السادات كسبب من أسباب سوء حالة الخدمات فى مصر ابتداء من عام ١٩٦٢ ، فعندما تناول السادات بالتحليل دور حكومة عام ١٩٦٥ قال « مما جعل الحالة تزداد سوءا أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات واسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداء من ١٩٦٢ على اساس حلها بخطط طموحة لم تكن قابلة للتنفيذ مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد اخرى بحيث أصبح من العسير حلها » .
كذلك يمكن أن نستبين فكرة « التمرحل » وحدود وشروط الاخذ بها عندما يقول « انا من المؤمنين بانه لا ينبغى ان نضغط مرحلتين فى مرحلة واحدة » . وكان ذلك فى معرض الحديث عن ضرورة القيام بتحضير دقيق كمرحلة أولى قبل الدخول فى مؤتمر جنيف للسلام وبصرف النظر عما فى اهتمام السادات بفكرة التمهيد والتحضير فى ذاتها من قيمة علمية وعملية ، فان القاعدة النظرية التى كان يؤمن بها الرئيس السابق فى عدم جواز دمج مراحل العمل دمجا تعسفيا ومفتعلا تعتبر متوافقة مع ماتقره مناهج التخطيط والتنبؤ الحديثة من ضرورة البرمجة على مراحل تؤدى كل منها الى الاخرى ، فى

تسلسل منطقي وعملي يلائم التطور الطبيعي للظروف ، ويقيم اعتبارا لما قد يستجد فى المراحل المبكرة من عناصر تدخل كمتغيرات فى المراحل اللاحقة .

على أن ماقد يبدو من تعارض ، بين مبدأ السادات فى عدم دمج مرحلتين فى مرحلة واحدة وبين تفضيله لاقصر الطرق وأسرعها الى تحقيق الاهداف ، ليس الا تعارضا ظاهريا ، وقد اكد السادات فى مواقف كثيرة على مبدأ التوازن بين مقتضيات العلم ومقتضيات العمل ، بل انه وضع حدود هذا التوازن بين واقعية الخطط وسرعة التنفيذ بتفصيل اكثر وضوحا عندما قال فى برنامج العمل الوطنى : « اننا حريصون على الا تجرفنا امواج الاحلام بعيدا عن شاطىء الواقع فنبنى على الماء ، وعلى الاتربطنا حبال الحذر فنبطىء الخطى أو نتوقف والعالم من حولنا يقفز » «(١)» .

٢ - التغيير .. والمستقبل فى منهج الرئيس حسنى مبارك :

جاءت أولى الاشارات المبكرة التى عبر بها الرئيس حسنى مبارك عن افكاره وتصوراته العامة ازاء «التغيير» و« المستقبل » عقب توليه الموقع القيادى الاول فى مصر، وذلك فى بيانه الاول أمام مجلس الشعب يوم ١٤ اكتوبر عام ١٩٨١ حيث ذكر « أن العمل الوطنى فى المرحلة الدقيقة التى نجتازها يجب أن يكون استمرارا ديناميكيا

---

(١) برنامج العمل الوطنى - قدمه الرئيس السادات الى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ .

رشيداً للخط الذى انتهجه الرئيس السادات » (١) ، وقد لاحظ البعض فى حينه أهمية عبارة « فى المرحلة الدقيقة التى نجتازها » ، كما لاحظ البعض أهميـــة الاشارة الى « الديناميكية » و « الترشيد » ، ومـــا تحمله هذه التعبيرات فى سياقها من دلالات ضـــمنية تشير الى وجوب الاعتراف بأثر الظـــروف المتغـــايرة والملابسات المستجدة فى تطوير المواقف تلقائيـــا بعد فترة من الممارسة .

ثم جاءت بعد ذلك اشارات أكثر تفصيلا عن موقف الرئيس مبارك ازاء فكرة « التغيير » و « ظروفها وشروطها وحدودها » ، فنراه فى حديثه الى مجـــلة أكتـــوبر بتاريخ ١-١١-١٩٨١ يؤكد « أن التغيير ليس مطلبا لذاته وانما يتم عندما تقتضى الظروف ذلك » . ثم نراه يوضح فى موضع آخر انه لا يقوم بأى تغيير الا اذا كانت لديه أسباب ومقومات للتغيير ، وأنه ينشد ـ فى الأصـــل ـ الاستقرار ، ولكن ليس معنى ذلك أن التغيير غير وارد ، فالتغيير يتم « عندما أجد أن هناك داعيا للتغيير وأدرسه جيدا وأستقر عليه لانه حينئذ يكون تغييراً للمصـــلحة العامة » (٢) .

ويوضح الرئيس مبارك منهجه فى التغيير فنراه فى حديثه لصحيفة الشعب يقول : « انه لا يقتنع بالتغيير

---

(١) بيان الرئيس حسنى مبارك الى مجلس الشعب بعد توليه الرئاسة . الاهرام ١٥/١٠/١٩٨١ ص ١ .

(٢) حديث الرئيس حسنى مبارك الى الاهرام ١/١/٨٢ ص ١ وانظر ايضا نفس المعنى وقائع اجتماعات الرئيس مبارك بالهيئة البرلمانية للحزب الوطنى بالصعيد ـ الاخبار ١٠/٣/١٩٨٢ ص ١ .

الشامل او المفاجىء مرة واحدة » (١) ، كما يؤكد نفس المعنى حين يذكر لمجلة اجنبية انه « لا يؤمن بمنهـــج الصدمات » (٢) .

واذا كانت هذه هى المواقف والطبائع المبدئية التى تحكم توجه القيادة السياسية لمصر ازاء موضـــــوع « التغيير » بصفة عامة وفى اطاراته المجردة .. فماذا عن التصورات الموضوعية لمستقبل البلاد والتغيرات المطلوبة له فى فكر هذه القيادة ؟.

للاجابة على هذا السؤال يلزم البحث اولا عن أولويات الاهتمام لدى الرئيس حسنى مبارك من واقع بيـاناته وتصريحاته وأعماله خلال الفترة من ١٩٨١ وحتى ١٩٨٤ وفى ذلك يلاحظ البعض انه لم يترك شكا منذ البداية فى أن آهتماماته الاولى ستكون تركيزاً على المشـــكلات الداخلية ـ وبصفة خاصة المشكلة الاقتصادية ـ أكثر من المشكلات الخارجية (٣) .

واذا كانت توجهات الرئيس حسنى مبارك وأولوياته قد اتسعت بعد مضى عام واحد من حكمه لتشمل عددا من المواقف والاهتمامات والتوجهات الجديدة فى مجال

---

(١) حديث الرئيس حسنى مبارك الى جريدة الشعب ١١ ـ ٥ ٨٢ ص ١١ .

(٢) حديث الرئيس حسنى مبارك الى مجلة دير شبيجل الالمانية منشور بالاهرام ٢٤ .. ١ ـ ١٩٨٢ ص ٦ .

(٣) راجع مثلا تصريحات الرئيس حسنى مباركلصحيفة واشنطن بوست ـ الاهرام ١٩٨١/١١/٢ ص ٦ ـ وحديثه لصحيفة السياسة الكويتية الاهرام ٧ ـ ١١ ـ ٨١ ص٣ وحديثه الى ديرشبيجل الالمانية ـ الاهرام فى ٨٢/١/٢٤ ص ٦ .

السياسة الخارجية (١) ، فليس معنى ذلك أن هنـاك تغييرات جذرية تتناقض مع أولويات اهتمامه التي أفصح عنها للصحافة المحلية والعالمية ابان توليه الرئاسة ، ذلك أن هذه التوجهات الجديدة في السياسة الخارجية والتى بدأت تترى خلال عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٤ ، انما تندرج في اطار ما أسماه الرئيس مبارك في بيانه الاول لمجلس الشعب « أكتوبر ١٩٨١ » « الديناميكية الرشـيدة » للمواقف .

والحق أن ماقد يبدو تغييرا في أولويات الرئيس كان موضعا لتوقعات مبـــكرة من جـــانب بعض المحللين السياسيين . فقد كتب احد أساتذة العلوم السياسية في يوليو ١٩٨٢ يقول : « أن أولويات الرئيس حسنى مبارك ـ كما أوضحها ـ ستعمل في اتجاه الاستمرارية على المدى القصير ، أما بالنسبة للمدى المتوسط او الطويل فان احتمال تعثر الصيغ الراهنة لمواجهة المشـــكلة الاقتصادية قد يدفع الى صيغ جديدة تنعكس على شبكة العلاقات المصرية الاقليمية والعالمية (٢) .

ولان دراستنا الراهنة لا تستهدف تتبع التطـورات

---

(١) من امثلة تلك التوجهات الجديدة في السياسة الخارجية اصرار الرئيس حسنى مبارك على عدم زيارة اسرائيل وسـحبه للسفير المصرى في تل ابيب ـ واعادة سفير مصر الى موسكو ، وايقاف الحملات الاعلامية ضد الدول العربية ، وزيارته للاردن عقب اعادة العلاقات ، ثم زيارته لبغداد مع الملك حسين في مارس ١٩٨٥ .

(٢) د . احمد يوسف احمد : (الاستمرارية والتغير في السياسة الخارجية للرئيس حسنى مبارك) .
مقال منشور بالسياسة الدولية عدد ٦٩ ـ يوليـو ١٩٨٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

التي تحدث في المواقف الموضوعية أو السياسية بقدر اهتمامها وتركيزها على منهاجية التعامل عموما مع كل او أى متغير جديد ، لذلك لن نناقش هنا أسباب ودوافع النطورات التى شهدتها سياسة مصر الداخلية او الخارجية خلال الفترة المنقضية من حكم الرئيس حسنى مبارك ، وما اذا كان تعثر الصيغ السابقة لمعالجة المشاكل هو الذى دفع الى « صياغات جديدة » أو « شبكات جديدة لعلاقات مصر الاقليمية أو العالمية » .

وانما يعنينا الآن فى هذا المبحث من الدراسة هو التعرف على « الوسائل » واساليب الاقتراب » التى تعمل بها القيادة السياسية فى تناولها للمشكلات ، ومدى استخدامها لاساليب البحث العلمى فى رصد الابعاد المختلفة لهذه المشكلات والتخطيط لحلها .

وهنا يمكن الاشارة الى أن أول الاعمال العامة التى استهل بها الرئيس حسنى مبارك ولايته ــ بعد مراسم التنصيب وآجراءاتها اللاحقة ــ هو الدعوة الى عقد مؤتمر لرجال الاقتصاد فى مصر بهدف البحث عن اصول المشكلة الاقتصادية واقتراح البدائل المختلفة للخروج من هذه المشكلة ، وقد حرص الرئيس مبارك على استحداث منهج جديد فى تشكيل المؤتمر بحيث جاءت عضويته تعبيرا عن مختلف الاتجاهات والخبرات الاقتصادية المعروفة فى الساحة المصرية مما انعكس بالتالى على طبيعة نتائجه .

ويكاد تشكيل هذا المؤتمر الاقتصادى أن يذكرنا بأحد الاساليب العلمية المعروفة فى عمليات دراسة المستقبل وهو اسلوب « استطلاع المتخصصين » وأن كانت التجربة المصرية قد اسقطت عنه بهذا المؤتمر شرطا اساسيا له

وهو « الاستطلاع » كل على حدة » ، فجاءت النتيجة متأثرة الى حد كبير بعنصر « استحضار الذات » وعنصر « التنافس الايديولوجى » (١) .

وقد تمت مؤخرا محاولة أخرى من القيادة السياسية للعمل وفق مفهوم « الاستطلاع متعدد الاطراف » وذلك حين طرح الرئيس مبارك اقتراحا على مختلف الاحزاب السياسية والمؤسسات الجامعية والعلمية بأن يتقدم كل منها بتصوراته واقتراحاته الخاصة بمشكلة « الدعم الحكومى » فجاءت النتائج ـ برغم محدوديتها وبرغم عدم استكمال مايقتضيه هذا الاسلوب من عمليات لاحقة للفرز والتحليل والتوفيق ـ أكثر اقترابا من الاسلوب الصحيح .

ويستطيع المحلل أن يضع يده على جوهر التجديد الحقيقى الذى استحدثه الرئيس حسنى مبارك بهذه الاساليب أو المحاولات فى النظرة الشائعة تقليديا ومنذ فترة طويلة بين فئات ودوائر كثيرة كانت تصر ـ وحتى وقت قريب ـ على أن التحضير لمشروعات المستقبل والتخطيط الاستراتيجى القومى العام هو اختصاص تنفرد به مؤسسات الدولة الرسمية فقط ولا ينبغى أن

---

(١) راجع توصيات ونتائج اعمال مؤتمر رجال الاقتصاد ـ وقد كانت هناك فكرة لعقد مؤتمر مماثل لبحث المشكلات الاجتماعية والسكانية تحت عنوان « مصر الغد » وان كان قد تاجل لاسباب لم تعلن ، فى تقدير الباحث ان الظلال التى احاطت بطبيعة تشكيل المؤتمر الاقتصادى وأثرها على نتائجه قد انعكست الى حد كبير على جهود التحضير للمؤتمر الاجتماعى الذى كان مقترحا انذاك فى يناير ٨٢ .

يشاركها فيه أفراد أو مؤسسات أخرى . ولقد أفصح الرئيس حسنى مبارك عن هذا التوجه الجديد منذ الايام الاولى لولايته وأكد في أكثر من مناسبة على ايمانه بأسلوب الحوار واستطلاع مختلف الاراء قبل الشروع فى سياسات أو مسارات جديدة وخاصة ما يتصل منها بمستقبل مصر والمصريين ككل .

يقول الرئيس فى حديث له للتليفزيون الايطالى : « ان المعارضة فى مصر شأنها شأن المعارضة فى أى دولة ديمقراطية ، وأنا أستهدف من لقاء المعارضة تغيير الاسلوب الذى كان متبعا فيما مضى وهدفى أن نلتقى جميعا امام نقطة رئيسية وهى مستقبل مصر .. ومصلحة مصر العليا » .. ويستطرد الرئيس حسنى مبارك فيقول « ولان جميع المعارضين فى مصر مصريون حريصون جدا على المصلحة العليا لبلادهم فقد قررت ان تكون جميع النقاط أو المشاكل القومية الكبرى موضع بحث مع أحزاب المعارضة حتى نصل من هذه المباحثات أو هذه المناقشات الى اسلوب أمثل لحل مشكلاتنا فتتبناه جميع القوى والاحزاب (١) .

وجدير بالملاحظة أيضا أن هذا الاسلوب الجديد الذى أفصح عنه الرئيس مبارك وتبناه عملا فى أكثر من مناسبة قد تضمن تطويرا آخر لموقف الدولة المألوف سابقا والذى كان يقضى بحظر تناول بعض قطاعات السياسة الرسمية للدولة « كالسياسة الخارجية » مثلا

---

(١) من حديث الرئيس حسنى مبارك الى التليفزيون الايطالى ـ الاخبار ١٩٨٢/١/٢٩ ص ٥ .

ـ بالنقد أو الاعتراض ـ (١) وقد وجدنا الرئيس مبارك بالفعل يناقش أمورا متعلقة بالسياسة الخارجيـــة مع ممثلى القوى المعارضة ، بل ان بعض لقاءات الرئيس مع قيادات المعارضة الحزبية قد خصصت لهـــــذه الموضوعات فقط (٢) .

المؤسسات العاملة فى رصد وابحاث المستقبل

ليس تجاوزا كبيرا عن الحقيقة أن يقال بأن مراكـز ووحدات البحث العلمى تعمل كلها ـ بطبيعة نشاطها ـ فى نطاق التمهيد للمستقبل . الا أن مايهمنا التركيز عليه وابرازه فى هذا المبحث هى تلك الوحدات والمؤسسات التى يعتبر البحث فى المستقبل صميم مهمتها الاصـلية لا صفة عارضة من صفات أعمالها ، ويمكن حصر هـذه المراكز والمؤسسات فى مصر على النحو التالى :

١ ـ المجالس القومية المتخصصة ـ تتبع السـيد رئيس الجمهورية .

٢ ـ هيئة المعلومات والتقديرات ـ تتبع جهـــاز المخابرات العامة .

٣ ـ معهد التخطيط القومى ـ يتبع السـيد وزير التخطيط .

(١) انظر مثلا خطاب الرئيس السابق محمد انور السادات فى العيد العاشر لثورة التصحيح امام مجلسى الشعب والشورى ١٩٨١/٥/١٤ القاهرة ـ الهيئة العامة للاستعلامات ص ٣٣ .

(٢) حدث ذلك فى لقاء الرئيس مبارك مع قادة الاحزاب المعارضة فى مصر بمناسبة القرار الاسرائيلى بضم الجولان فى ديسمبر ١٩٨١ ، انظر الاهرام ١٩٨١/١٢/١٧ ص ١ ، ٦ .

٤ ــ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا « هيئة مستقلة يشرف عليها نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم العالى والبحث العلمى » .

٥ ــ المركز القومى للبحوث .

٦ ــ الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ــ يتبع رئاسة مجلس الوزراء .

٧ ــ جهاز بحوث تنمية وتعمير سيناء . يتبع أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

٨ ــ مركز بحوث استزراع الصحارى ــ يتبع وزير الزراعة .

٩ ــ مركز بحوث المشروعات الصحراوية ــ يتبع وزارة الرى .

١٠ ــ مركز تطوير تدريس العلوم ــ يتبع جامعة عين شمس .

١١ ــ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ــ يتبع مؤسسة الاهرام .

١٢ ــ مركز بحوث استصلاح الاراضي ــ يتبع وزارة الزراعة .

١٣ ــ معهد بحوث الاحصاء ــ يتبع المركز القومى للبحوث .

١٤ ــ معهد ابحاث البترول ــ يتبع اكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

١٥ ــ مشروع الاستشعار عن بعد ــ يتبع أكاديمية البحث العلمى .

١٦ ــ اكاديمية السادات للعلوم الادارية ــ تتبع وزير الدولة للتنمية الادارية .

١٧ ــ المشروع القومى لتنظيم الاسرة ــ يتبع وزارة

الشئون الاجتماعية .

١٨ ــ المجلس القومى للسكان ــ يتبع رئيس مجلس الوزراء . .

١٩ ــ ادارة نظم المعلومات ــ بالقوات المسلحة .

٢٠ ــ الجمعية المصرية للحساب الآلى « أهلية مهنية متخصصة »

٢١ ــ الجمعية المصرية الاحصائية « أهلية مهنية متخصصة »

٢٢ ــ الجمعية المصرية لتطبيق بحوث العمليات«أهلية مهنية متخصصة » .

وهذه الجمعيات الثلاثة مسجلة بوزارة الشئون الاجتماعية .

٢٣ ــ ادارة البحوث والتخطيط السياسى ــ تتبع وزارة الخارجية

قنوات المشاركة الشعبية فى وضع خطط وتصورات المستقبل :

تفيد تجارب العديد من الدول بأن حجم ونوع التجارب الشعبى مع خطط التنمية القومية يلعب دورا هاما فى تحديد مدى النجاح الفعلى لتلك الخطط بل وفى دقة التوقعات المسبقة عن هذا النجاح . واذا كان بديهيا أن تستهدف أى خطة قومية للتنمية أو التامين صالح المجموع العام فان البديهى أيضا أن يشترك هذا المجموع العام فى وضع تصورات المستقبل والخطوط الرئيسية العريضة لبرامج تحقيق هذه التصورات .

واذا كانت نظم الحكم المعاصرة تقوم على فكرة التمثيل

الشعبى أى الاكتفاء بمشورة الممثلين المنتخبين عن القواعد الشعبية فى صياغة هذه الخطط والاستراتيجيات القومية فالاغلب أن هذه النظم تعتمد على ما يكون لدى قواعدها الشعبية من وعى كاف واستعداد لاستيعاب مفهوم « الخطة المبرمجة » والتجاوب مع ما تقتضيه فكرة « التمرحل » و « الجدولة الزمنية » من سلوكات حضارية معينة مثل « الانتظار المحسوب » و « التضحية المؤقتة على المستوى الفردى » أو « اعادة تحديد الاولويات » ، و « رؤية المصلحة الفردية أو الفئوية من خلال منظور قومى وجماعى اشمل » .

وفى بلاد كبلادنا ـ حيث العهد بعد قريب بالاساليب الديمقراطية والتمثيل الشعبى السليم والفعال ، وحيث تنخفض درجة الوعى على المستوى الشعبى بمفهوم الخطة والسلوكات الاجتماعية والحضارية المرتبطة بهذا المفهوم ـ على نحو ما أوضح الفصل الاول من هذه الدراسة ـ فان الدعوة الى تنشيط دور هذا المستفيد الشرعى من الخطط القومية وتخصيب وعيه وتأهيله للتعامل مع مفهوم التخطيط والنظرة بعيدة المدى تصبح من أسبق الواجبات اللازمة لنشر الوعى المستقبلى وضمان التجاوب الشعبى الحقيقى مع خطط الانماء او التأمين القومية .

ولا ينبغى أن ينصرف هذا التنشيط الى مجرد احكام عملية التمثيل الشعبى فى المؤسسات الوسيطة كالبرلمان أو المجالس البلدية ذات المستوى القومى ، وانما المقصود هنا هو تنشيط الدور المباشر للجماهير فى وضع خطط وحداتها المعيشية والانتاجية الاساسية تمهيداً لمشاركة أوسع فى وضع الخطط القومية وفى صيانة نتائجها

ومتابعة وتقييم الانجازات التى تتحقق منها .

ومثل هذه الدعوة يمكن أن تترجم فى العمل الى منطقتين : ـ

الاولى : تدريب الافراد والعائلات والتجمعات السكانية على أسلوب التخطيط الفردي والفئوى والجماعى .. كل فى وحدته الخاصة وفى اطار حركته اليومية .

الثانية : تنظيم أو دعم قنوات المشاركة الشعبية المباشرة فى وضع خطط التنمية العامة على المستوى القومى .

واذا كانت وسائط التنشئة السابق التعرض لها كالمؤسسات التعليمية أو الاعلامية تقوم ـ أو يمكن أن تقوم ـ بدور هام فى منطقة العمل الاولى فان منطقة العمل الثانية يلزم لها ترتيبات تنظيمية وتشريعية متكاملة تأخذ فيها « الاحزاب السياسية » و « النقابات المهنية » ، ومؤسسات التنشئة الدينية مكانها ودورها الملائم لها الى جانب المجالس الشعبية المعمول بها حاليا على مستوى القرى والمدن والمحافظات . بحيث تصير الخطط القومية افرازاً حقيقيا وطبيعيا وانعكاسا صادقا لمطالب وامكانيات مختلف القوى الشعبية وبحيث يستشعر الجميع مسئولياتهم ويتعرفون على أدوارهم فى صيانة هذه الخطط عند التنفيذ .

مشروع تجريبى لخلق وتنمية الوعى المستقبلى والتخطيطى بالمشاركة الشعبية على المستوى القومى :

فى احدى الدراسات التى قدمهاعام١٩٧٤ البروفسور جون ماكهيل مدير مركز الدراسات المتكاملة بجامعة

نيويورك بمشاركة زوجته السيدة ماجدة ماكهيل طرح الاثنان اقتراحا بأن يقوم معهد الامم المتحدة للتدريب والبحوث « يونيتار » ـ وهو الجهاز الذى بدأ فى تأصيل وتنمية الدراسات المستقبلية داخل مؤسسات الامم المتحدة ـ بتجميع ـ على مستوى العالم ـ لكل الخطط القومية ذات المدى الطويل الموجودة لدى كافة دول العالم سواء المتعلقة بالتنمية الاقتصادية أو بالتنمية الاجتماعية ، ثم تبع ذلك تحليل مقارن لمحتويات هذه الخطط من ناحية وسائل وانماط جمع المعلومات السابقة على وضع الخطط ، والمدى الزمنى الذى تستهدفه تلك الخطط والمشاكل العملية التى تواجهها كل دولة عند تنفيذ خططها ، ونسبة الانجاز المحقق فى كل تجربة انمائية مخططة ، ووسائل المعالجة التى تتم لمشاكل التنفيذ الى غير ذلك من نقاط وبنود تتصل بالتحليل المقارن لخطط الانماء القومية لدى الدول المختلفة .

واذا كان صاحبا الاقتراح يتوجهان فى مشروعهما توجها دراسيا خالصا يهدف الى إفادة الدارسين الاكاديميين لشئون الاقتصاد المقارن أو يهدف فى أحسن الفروض ـ الى افادة الدول النامية بمعلومات وبيانات توفر عليها مغبة التجريب فى مسارات التخطيط غير المجدية أو افادتها بوسائل جديدة لحل مشكلاتها التخطيطية من واقع خبرة غيرها من الدول .

فاننا نستطيع فى حالتنا المصرية ـ وللاغراض التى تستهدفها دراستنا الراهنة ـ الافادة بهيكل الاقتراح المطروح بعد نقل عملية « التجميع » و « المقارنة » من المستوى الدولى الواردة عليه الى المستوى القومى الداخلى .

والمشروع المقترح يتلخص فى أن تقـــــوم احدى المؤسسات الرسمية المسئولة عن دراسة المستقبل المصرى أو التخطيط له كالمجالس القومية المتخصصة او معهد التخطيط القومي ــ بدعوة التجمعات الجماهيرية ــ سواء الحزبية أو النقابية او الاجتماعية ــ للتقدم برؤيتهـــا الخاصة بمستقبل نشاطها وأولويات اهتماماتها ، وبرامج التنفيذ ووسائل التمويل ألتى تحقق لها أهدافهـــا ، ومراحل هذا التنفيذ ــ ان وجدت ــ والتقسيم المتصور للادوار ــ فى ذهنها ــ بين مايوكل للاجهزة الحكومية وما يوكل لغير هذه الاجهزة .

والمتصور أن مثل هذا التجميع للتصورات الحزبيــة والنقابية والجغرافية ــ يلزم له وسائل اســــتبيان متنوعة فى البداية على أن تتوافر فيها أيضا القابليـــة للتنميط والتوحيد القياسى فى مراحل لاحقة .

وقد يتضمن هذا الاستبيان نقاطا كالتالية :ــ

* الإهداف العاجلة « للوحدة » والمدى الزمنى المقدر لتحقيقها .

* الاهداف بعيدة المدى « للوحدة » مع تحديد هذا المدى بقدر الامكان .

* تقدير الاحتياجات المادية اللازمة لتحقيق كل هدف « التمويل ــ العمالة وسائل الانتاج .. »

* تقدير الاحتياجات التشريعية والتنظيمية اللازم اجراؤها لكل هدف .

* تقدير المشكلات المتوقعة اثناء التنفيذ ووســـائل المعالجة لكل منها .

وفى تقدير الباحث ان نجاح مثل هـــذا المشروع

التجريبى الطموح يتوقف الى حد كبير على عـــدد من الشروط : ـ

الاول : مدى المشاركة الفعلية من جانب كل أو معظم الافراد التى تتكون منهم « الوحدة الحزبية » أو «الوحدة النقابية » أو « الوحدة البلدية فى المحليات » .

الثانى : مدى الحياد « السياسى » و « النزاهـــة الاخلاقية » و « النظرة الوطنية الصادقة » التى تتوافر فى جهة التجميع المركزية .

الثالث : مدى التمكن الفنى لدى هذه الجهة المركزية فيما يتعلق بتنميط المواقف وحصر الاتجاهات وتصفية العناصر والأوزان المتداخلة أو المشتركة بين الوحدات المكونة لمجتمع الحصر أو الاستطلاع وفيما يتعلـــق باستخلاص المؤشرات الصحيحة والاوزان الحقيقية التى تتضمنها أو ينتهى اليها هذا التجميع القومى لتصورات المصريين عن المستقبل .

وعلى اية حال فان مثل هذا المشروع القومى الضـخم يمكن أن يتم على مراحل تبدأ الاولى منها فى اطـــار تجريبى محض بحيث لا يعول كثيرا على نتائج تلك المرحلة فى صياغة الخطط القومية الكبرى والهامة . وقد يبدأ مثلا فى حدود « عينات احصائية » ثم يتم التوسع فى مراحل لاحقة وتدريجية الى أن يشمل مسحا كليا .

كذلك قد يمكن تحوير أو تعديل هيـــكل المشروع وترتيب مراحله بحيث يتم البدء باستطلاع مـــوقف الوحدات الجماهيرية المختلفة ازاء سياسة جديدة فى مجال واحد معين أو ازاء تنظيم جديد محـدد الملامح وبحيث يقتصر الراى المطلوب حينئذ على الموضـــوع المطروح وليس على كل التصورات الاجمالية عن صورة

المستقبل عموما . وفي ذلك سوف نلحظ تشابها بين هذا المشروع التجريبي المعدل وبين اسلوب « استطلاع المتخصصين » المعتمد ضمن أساليب المنهاجية المستقبلية .. مع تعديل فى صفة « المتخصصين » ليصبح استطلاعا « لاصحاب المصالح » .

وقد تم بالفعل فى الفترة الاخيرة « أواخر عام ١٩٨٤ وأوائل ١٩٨٥ » تجريب هذا النوع من استطلاع المواقف لدى أصحاب المصالح وذلك حين اقترح رئيس الجمهورية على مختلف الاحزاب السياسية والجامعات والمراكز العلمية أن يتقدم كل منها برؤيته وموقفه ازاء مسألة « الدعم الحكومى » للسلع والخدمات الاساسية وذلك على ضوء التزايد المضطرد سنويا فى الاعباء التى تتحملها كل من الدولة والمواطنين من وراء الدعم بأوضاعه وعيوبه المعروفة واقتراحاتهم فى مواقعهم الحزبية أو التخصصية لتطوير أو استبدال هذا الدعم بوسائل واسالب اخرى .. وبرغم أن نتائج هذا الطرح الجديد لطرق المشاركة فى صنع القرار السياسى لم تستكمل بعد بحيث يمكن الحكم على مدى فعاليتها أو نجاحها ، وحتى بافتراض عدم امكان التوصل الى التحقيق الكامل لمشروع المشاركة الشعبية المقترح فى صدر هذا البحث فان مايتم خلال مراحل التجريب أو خلال المحاولات الحزبية سوف يظل محسوبا فى الرصيد الايجابى لظاهره الاهتمام بالمستقبل فى المجتمع المصرى .

ذلك أن مايمكن الوصول اليه خلال تلك المراحل الاولية من مواد وخبرات سياسية وعملية وفنية لا شك سوف يثرى الكثير من التقاليد والممارسات الديمقراطية ومن أهمها خبرة استطلاع الرأى العام ووسائل قياس

اتجاهاته ، والاحتجاج به حين يلزم .. والاحتجاج عليه حين يلزم أيضا « فى حالة عدم الاقدام على المشاركة من جانب بعض الوحدات الجماهيرية حتى بعد توافر الشروط والظروف الاساسية »

كذلك يشار فى هذا الصدد الى التوجه الهام الذى ساد النظام المصرى منذ عام ١٩٧٧ والذى تعززت فى اطاره « سلطات المحليات » وتعاظم به دورها المشارك فى صياغة الخطط القومية للتنمية والتعمير .. ووفقا لهذا التوجه الجديد تم تقسيم محافظات الجمهورية الى أقاليم اقتصادية متكاملة يتم بينها تخطيط اقليمى متكامل للتنمية ومشروعات الاستثمار والاعمار ثم يتم تجميع هذه الخطط الاقليمية التى تضعها اساسا المحافظات داخليا .. وفيما بينها .. ومن مجموع هذه الخطط الاقليمية تجرى صياغة الخطة الانمائية القومية الشاملة والموحدة ..

وليس من شك أن هذا التوجه الجديد فى نظام التخطيط الاقتصادى القومى لايخلو من عقبات عملية مما يحتاج الى دراسات علمية تستهدف تجاوز تلك العقبات .. وليس ثمة حرج فى الاطلاع على نماذج الدراسات التى اجريت فى بلاد أجنبية حول نفس هذا الموضوع .. ففى السويد مثلا عقدت السكرتارية العامة للدراسات المستقبلية التابعة لرئيس الوزراء ندوة استغرقت ثلاثة أيام فى نوفمبر ١٩٧٣ وقدمت فيها دراسات خاصة حول موضوع « التخطيط ، وهيكل القيم والمشاركة الديمقراطية » .

كذلك عقدت نفس الهيئة حلقة بحث أخرى فى يونيو ١٩٧٤ حول « الحكم الديمقراطى والتخطيط طويل المدى » .

تشجيع مشاركة الشباب
في ابحاث المستقبل

والى جانب المشاركة العامة الواجبة في صياغة الخطط القومية ، فان هناك نوعا آخر من المشاركة المطلوب تشجيعها في مجتمعنا المصرى وهى مشاركة القطاع الشبابى على وجه الخصوص باعتباره صاحب المصلحة الاوفر في حياة الغد .

والملاحظة التى يجمع عليها معظم علماء « المستقبلية » في الخارج ان هذا الحقل من الدراسات يكاد يقتصر حتى الان فى العالم كله على فئات الاعمار الكبيرة فلم يدخل اليه عنصر الشباب ولا عنصر المرأة باعداد كافية ، وهو امر يصعب عند الكثيرين تفسيره فى ضوء مصلحة الاجيال والناموس الطبيعى .

وباستطلاع عاجل لفئات العمر التى يتوزع عليها السادة اعضاء المجالس القومية المتخصصة فى مصر مثلا « وهى كما عرفنا أولى المؤسسات الموكول اليها دراسة المستقبل » يتبين أن متوسط العمر بين الاعضاء هو ٤٨ عاما وأن أربعة فيهم فقط تقع أعمارهم فى فئة ما دون الثامنة والثلاثين .

والمطلوب الان تشجيع منظم الشباب كى يدخل فى هذا الحقل المعرفى الجديد . وهنا قد تفيد بعض الاقتراحات التالية أو كلها « أخذا فى الاعتبار ما قدم من اقتراحات خاصة بتطوير نظام التعليم على النحو المبين فى مبحث السابق » :

ا ــ تقديم منح دراسية ومكافآت تشجيعية لطلاب الدراسات العليا الذين يتخصصون فى مجالات البحوث المستقبلية سواء النظرية أو التطبيقية وقد تكون الامانة

العامة للمجالس القومية المتخصصة من أقدر الجهات وأوفرها حرصا على القيام بهذا الاقتراح .

ب ـ تدعيم نوادى العلوم القائمة حاليا فى مواقع متناثرة بأنحاء الجمهورية وفتح فروع لنا فى أكبر عدد ممكن من المحافظات وذلك لمتابعة الموهوبين والنوابغ من الطلبة أو الشباب عموما فى اطار برنامج قومى يستهدف تشجيعهم واتاحة الفرص امامهم للاحتكاك الدولى باعتبارهم جيل المستقبل من العلميين وأصحاب الافكار الجديدة .

جـ ـ تعزيز الدور الذى تقوم به حاليا شعبة الفضاء الخارجي بنادى الطيران المصرى وتوسيع نطاق الافادة به فى أوساط الشباب والطلبة وذلك مثلا بتنظيم فصول دراسية خاصة بهذا الميدان على غرار المعمول به فى قسم الخدمة العامة بالجامعةالامريكية أو بجامعة عين شمس.

د ـ قيام مؤسسات الدراسات المستقبلية كالمجالس القومية المتخصصة أو اكاديمية البحث العلمى بطبع ونشر الدراسات الفردية المتعلقة بمجالات المستقبل والتى يتقدم بها اصحابها بمبادرات ذاتية « طبعا بافتراض توافر الحد الادنى فيها من الشروط العلمية والموضوعية» والعمل على الترويج بكافة السبل للافكار والمخترعات التى يبتكرها الشباب المصرى .

هـ ـ النظر فى أمكانية انتاج سلسلة من الافلام السينمائية وافلام الرسوم المتحركة للاطفال بما يساعد فى شرح الاساسيات العلمية ونماذج الحياه المتصورة أو المتوقعة فى المستقبل ، مع ضرورة الانتباه عند اعداد هذه الافلام الى خصوصية البيئة المصرية او العربية . كذلك يلزم عند اعدادها الانتباه الى أهمية عدم الايغال

فى تبسيط الحقائق العلمية على نحو يخل بحقائق المستقبل فى ذهن الاطفال أو يبعث على الاستخفاف بها توهما بعدم قدرة الطفل المصرى أو العربى على ادراك الحقائق والتركيبات المعقدة .

الديمقراطية الحزبية .. ودورها فى مستقبل البلاد : *

يمكن أن تلعب تجربة التعدد الحزبى فى مصر دورا محوريا فى تشكيل أو اعادة تشكيل عدد من عناصر واتجاهات الحركة القومية العامة للمجتمع المصرى فى المستقبل ، كتقديم الكوادر والقيادات اللازمة للعمل السياسى والحكومى وضمان الادارة السليمة للصراعات السياسية وأحكام الرقابة على السلطة الحاكمة ، وضمان الحريات الاساسية للمواطنين ، وطرح تصورات وبدائل واضحة ومحددة لعملية التنمية غير أن هذا الدور « لميكانيزم » التعدد الحزبى يتوقف على عدد من الشروط والظروف نجملها فيما يلى : ـ

أ ـ مدى القبول العام الذى تلقاه فكرة التعدد الحزبى ذاتها لدى دوائر النظام السياسى نفسه ومدى استشعار هذه الدوائر ذات التراث الضارب فى أعماق تاريخ الدولة المصرية ـ بضرورة هذا التعدد وأهميته لصالح التقدم العام للبلاد .

---

* كثير من نقاط هذا القسم ورد ذكرها فى الدراسة الممتازة التى أعدها الدكتور اسامة الغزالى حرب بمركز الدراسات السياسية الاستراتيجية والتى نشرت بالاهرام فى ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٨٥ .

والسؤال المطروح هنا : هل يمكن للاحزاب القائمة الآن ان تصبح فى المستقبل جزءا عضويا من النظام السياسي مثلما يحدث فى معظم النظم الديمقراطية ذات التعدد الحزبى أم ان وجود هذه الاحزاب مثل اختفائها ـ لن يؤثر كثيرا فى عمل النظام السياسي واستمرار عجلته فى الدوران اعتمادا على قوة واجهزة اخرى متواجدة فى الدولة قبل ومع هذه الاحزاب .

٢ ـ مدى توافر الجيل التالى من قيادات الاحزاب القائمة ، ونوعية فكرهم وتوجهاتهم واسس حركتهم السياسية والملاحظ حتى الان أن معظم قيادات الاحزاب السياسية الموجودة على الساحة المصرية انما تنتمى فى بداية نشأتها السياسية الى فترة ماقبل ١٩٥٢ وللاسف لم تسنح الفرصة ولا الرغبة خلال السنوات الثلاثين المنقضية بعد هذا التاريخ بافراز قيادات جديدة مؤهلة لتولى العمل الحزبى فيما بعد غياب الرواد المؤسسين .

٣ ـ ويرتبط بالعنصر السابق قضية هامة اخرى هى قدرة الاحزاب على تطوير نفسها كمؤسسات سياسية فعلية وليس كمجموعة افراد تربطهم « علاقات شخصية محدودة » ويعنى ذلك أن مستقبل العمل الحزبى الحقيقى فى مجال التعدد ـ مرتبط الى حد كبير بمدى نجاح الاحزاب فى توسيع رقعة الانتظام العضوى بها ، وتشكيل نظام متماسك ومترابط بين وحداتها التنظيمية المترامية راسيا وافقيا . ومدى قدرتها على استثمار شبكة العضوية ودرجة الحماس الحزبى بها فى خلق قنوات للعطاء الوطنى المتميز استقلالا عن الهدف الطبيعى والمشروع فى الوصول للسلطة التنفيذية .

وهنا قد يشار الى اهمية العمل منذ الان على تقنين

المشروعية . لحركة الاحزاب في تشكيل وانشاء شركات انتاجية ، والمبادرة بمشروعات خدمية تقتصر فى البداية على اعضائها ويتم تمويلها وتنفيذها ذاتيا فى الاطارات الحزبية « مع استبعاد المجالات ذات الحساسية المتفق عليها سياسيا او دينيا » .

٤ ــ تأتى بعد ذلك مسألة مدى تمثيل الاحزاب القائم حاليا لمختلف القوى الاجتماعية والسياسية الموجودة على ارض الواقع المصرى وهنا يلزم الاشارة الى المنهج الجبهوى الذى تميل اليه معظم الاحزاب القائمة . وامكانية استمراره فى المستقبل على ضوء التمايز الاجتماعى والسياسى المتوقع حدوثه طبيعيا بعد فترة من الممارسة الفعلية ، والذى يؤدى ــ بحكم الخبرة التاريخية وطبائع الامور ــ الى ضرورة استقلال كل من الشرائح الاجتماعية باطارها التنظيمى المعبر عن حقيقة مصالحها الخاصة وتوجهاتها الفكرية المتميزة .

كذلك تلزم الاشارة هنا الى خطورة استمرار وجود قوى اجتماعية وسياسية خارج اطار الاحزاب القائمة حيث أن ذلك يمثل أكبر مصدر للخطر على قوة وفاعلية النظام الحزبى . وبقدر ما تتوافر المرونةالكافية لاستيعاب تلك القوى فى أحزاب جديدة أو فى الاحزاب القائمة فان النظام الحزبى يصبح أكثر قدرة على البقاء والفعالية .

الفجوة بين « الوعى » .. « والسعى » !

والآن ...

وبعد أن عرضنا لابعاد وحدود الرؤية المستقبلية فى كثير من قطاعات المجتمع المصرى الشعبى منها والرسمى، وعرفنا كيف أن المستقبل يحمل من الدواعى والمحاذير والأخطار والحتميات ما يستوجب ترشيداً بل تثويرا

لهذه الرؤية المستقبلية وطريقة تعاملنا العربى عموما مع المستقبل .. ثم عرفنا كيف يعالج هذا المستقبل فى البلاد المتقدمة بأساليب علمية فى الرصد والتنبؤ والتخطيط الدقيق .. نبلغ الآن منطقة التساؤل : —

الى متى تستمر الفجوة لدينا بين « العلم » .. « والفعل ؟ وكيف نخلق الظروف والشروط التى ينتقل بها وعندها « الوعى .. الى « سعى » ؟

اننا لا نقصد ارهابا لاحد ولا مضاعفة التشاؤم عند احد حين نذكر مقولة هـ . ج ويلز الشهيرة بأن «المستقبل هو السباق بين « التعلم » .. والكارثة .

ونحمد الله — المحمود على كل حال — اننا لم نبلغ بعد مرحلة لا ينفع فيها الوعى أو السعى .. فرغم كل أطماع الساسة واخطار السياسة التى تحدق بنا فى الحال او الاستقبال ، ورغم كل تحديات البيئة وصعوبات الطبيعة التى بدأت تشهدها حياتنا العربية أو التى يتوقع أن تشهدها خلال السنوات العشرين القادمة ، ورغم كل مشاكل الاجتماع والادارة والاقتصاد والتنظيم التى تكاد تعصف بما بقى لدينا من آثار الحضارة والتحضر على أرض العالم العربى .. رغم كل ذلك فما تزال لدينا ارصدة هامة للمستقبل وفيه . وما تزال لدينا ارادة وثابة وتوق صادق لان يكون لنا أو لاولادنا حظ العيش الكريم مع سائر احياء القرن الحادى والعشرين .

* لقد بدأ علم المستقبل فى العالم العربى عموما — وفى مصر على وجه التخصيص — ينال اهتماما متعاظما بين مجموعات الباحثين وبعض القلائل من رجال الحكم ذوى البصائر والرؤى التاريخية ذات النظر الابعد

والارحب وقامت مؤسسات متخصصة فى دراسة المستقبل تشهد أعمالها الاولى ببشريات طيبة كالمجالس القومية المتخصصة ، ومعهد التخطيط القومى ، ومركز دراسات الوحدة العربية ، واكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

* وظهرت الى جانب ذلك بعض المشاريع العربية والمصرية التى تحاول تطبيق المناهج المستقبلية فى دراسة المستقبل العربى ومستقبل مصر من بينها مشروع « العالم العربى سنة ٢٠٠٠ » الذى يتبناه ويشرف عليه أستاذ التخطيط الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن بالتعاون مع الاتحاد الدولى للدراسات المستقبلية فى روما . ومشروع « صور المستقبل العربى » الذى يقوم به مجموعة علماء عرب برئاسة الاستاذ الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وبالتعاون مع جامعة الامم المتحدة فى طوكيو . ومن بينها ايضا المشروع الذى يقوم به مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ـ وحدة البحوث الاجتماعية ـ باشراف الاستاذ سيد ياسين بهدف صياغة نهج عربى متميز فى دراسات المستقبل يقوم على تنحية الخصائص الايديولوجية الاجنبية الواردة فى معظم الدراسات الغربية او الشرقية عن المستقبل العربى .

* رهناك الى جانب هذه المشروعات النظرية والتأهيلية .. مشروعات اخرى تطبيقية فى مجالات محددة مما سيكون لها تاثير ضخم فى تشكيل او اعادة تشكيل كثير من عناصر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع العربى فى المستقبل ومن بينها :ـ

ـ مشروع أطلاق قمر صناعى عربى تتولاه حاليا مؤسسة « عربسات » بالتعاون مع الخبرة الامريكية والفرنسية لاستخدامه فى مجالات الاتصالات .

ـ مشروعات تصنيع السلاح محليا فى العالم العربى وتتولاه وزارة الدفاع المصرية مع وزارة الانتاج الحربى بالتعاون مع الهيئة العربية للتصنيع ، وحكومات دول الخليج العربى .

ـ اقتراح مشروع الخطة الخمسينية لتنمية وتعمير الصحراء الغربية فى مصر « ١٩٧٥ ـ ٢٠٢٥ » وتتولى متابعته المجالس القومية المتخصصة .

ـ مشروع التنمية المحلية للقرى المصرية ويبلغ عددها ٤٠٠٠ قرية باستخدام المشاركة الاهلية . ويشرف عليها جهاز بناء وتنمية القرية ووزارة الحكم المحلى .

ـ مشروع تخزين الطاقة الشمسية واستخداماتها التطبيقية كبديل للبترول وتقوم المملكة العربيةالسعودية بتمويل الدراسات والتجهيزات الخاصة بهذا المشروع بالتعاون مع بعض المراكز والجامعات والمؤسسات العلمية فى أستراليا والولايات المتحدة .

كما تجرى الجامعة الامريكية بالقاهرة بعضالدراسات التمهيدية لمختلف التطبيقات الممكن ادخالها الى مصر فى هذا المجال .

ـ مشروع « أطلس » لنقل بترول الخليج والسعودية الى المحيط الاطلنطى عبر أنابيب تمر بالبحر الاحمر ثم السودان وبعض الدول الافريقية وحتى موريتانيا «تتبناه حاليا ليبيا مع بعض الشركات الامريكية » .

ـ مشروع استخدام جبال الجليد فى الرى بعد

نقلها من مناطق القطب الشمالى الى مناطق الاحتياج فى العالم العربى « عرض المشروع أحد الامراء السعوديين أمام المؤتمر العالمى لتنمية الصحارى ـ الذى عقد بمدينة ساكرامنتو بالولايات المتحدة الامريكية فى عام ١٩٧٧ ونشر معهد الامم المتحدة للتدريب والبحوث ملخصا له ضمن عرضه لاعمال المؤتمر المذكور » .

ـ مشروعات تحلية المياه المالحة باستخدام الطاقة النووية « تجرى حاليا فى الكويت وقطر والسعودية ومصر والاردن بعض التجارب فى هذا الميدان وقد أنشأت السعودية بالفعل أول وحدة لتحلية المياه فى مدينة جده » .

ـ مشروعات تعمير وتنمية شبه جزيرة سيناء . وتتضمن أفكارا عن انشاء مدن جديدة فى الساحل الشمالى لسيناء ، ومد خطوط أنابيب المياه بامتداد الساحل الغربى لخليج العقبة ، ومشروعات تصنيع الادوية المستخلصة من النباتات الطبية ، ومشروعات القرى السياحية فى طابا ونويبع ودهب وشرم الشيخ وسانت كاترين والطور ومشروع الربط البحرى بين ميناء العقبة ومدينة نويبع .

ـ مشروعات تعدين الذهب فى صحارى مصر الشرقية وسفوح جبال الاوراس فى المغرب . وقد بدأ مؤخرا الاعلان عن ذلك بمعرفة وزارة الصناعة والتعدين المصرية.

* كذلك يلقى الامل فى المستقبل لدينا مبرره فيما نراه من أثر « الشباب » وتأثيره الذى يتنامى فى حياتنا الفكرية والاجتماعية على امتداد العالم العربى . فاذا استثنينا ما سبق الاشارة اليه عن موقع الشباب من اتجاهات الجريمة الجديدة ومظاهر التطرف الدينى فسوف

نجد صورة المستقبل أكثر اشراقا بالشباب وتوجهاتهم الجديدة والجريئة والمفيدة التى بدأت تملأ العيون والقلوب زهوا وأملا . هناك مثلا شجاعة القرار بالهجرة الى الخارج للتعلم أو لتحقيق الذات ورفع مستوى المعيشة ، وهناك مثلا الاتجاهات غير التقليدية فى اختيار التخصصات العلمية كميادين الكومبيوتر ، والهندسة الطبية وعلوم الفضاء ، والطاقة النووية ، والزراعات البحرية ، وتخطيط المدن ، والتعدين — وهناك أيضا بوادر مشجعة للمشاركة الطلابية الرشيدة فى ادارة النشاط الجامعى ، وفى الانتماء الحزبى الواعى ، وهناك جرأة النزوح الى المواقع المترامية بعيدا عن بؤر التكدس السكانى والارتباطات الاسرية والاجتماعية والوظيفية التقليدية ، وهناك ظاهرة الاقبال على العمل اليدوى والعمل التطوعى أثناء العطلات السنوية ، وهناك اتجاهات للتخلص من القوالب والاطارات النمطية والشائعة فى الانتاج الفكرى والادبى بين الشباب ، وهناك تضاعف فى اعداد النوابغ والمتفوقين بين الطلبة ، ويصحب ذلك ارتفاع نسبة الشباب بين أصحاب الابتكارات والاختراعات العلمية حسب ماتشير اليه سجلات وبراءات الاختراع بأكاديمية البحث العلمى ونوادى العلوم التى بدأت تنتشر فى معظم مدن الجمهورية .

* فاذا ما أضفنا الى كل دواعى الامل وارصدة المستقبل المذكورة ذلك الوعى الوحدوى العربى الجديد الذى بدأ يتمكن تدريجيا وبفعل خبرات وتجارب عديدة — من طريقة التفكير العربى ، فان رصيدنا فى المستقبل يصبح أكثر ايجابية .

لقد بدأت تتشكل بهذا الوعى الجديد أنماط ومناهج

جديدة للوحدة العربية تقوم على أســـاس استبعاد الشعارات الرومانسية والاشكال الاندماجية الخادعة ، ليحل محلها توجه عملى ومباشر نحو الوفاء وظيفيا ـ بالمصالح والاحتياجات الموضوعية لاطراف المشــروع الوحدوى وعلى أساس من التكافؤ الفعلى بين مصــالح وقدرات العطاء لدى الاطراف المختلفة لهذا المشروع الوحدوى .

فلم يعد مطلوبا ولا مقبولا أن يفيد احــد اطــراف المشروع بأكثر أو أقل مما تفيد به الاطراف الاخــرى ، ولم يعد واردا فى هذا الفكر الوحدوى المستقبلى الجديد أن تتعجل الاطراف المشتركة انجاز كل المصــالح وكل الاهداف فى طفرة واحدة أو فى ظل حكم معين أو قيادة معينة وانما صار من المهم والحيوى أن تحقــق تلك المصالح وتلك الاهداف بطريقة فعلية وملموسة وبمشاركة حقيقية من كافة القوى ذات المصلحة من خلال تخطيط علمى مخلص ومتجرد ومسئول ، يثقن الاخــذ بمبادىء « التمرحل » و « التدرج » « والتنسيق القطــاعى » ، « وتقسيم الادوار والوظائف » ، سواء داخليا فى مجالات الانماط الاقتصاذى ، أو اقليميا وعالميا فى مجــالات التحرك الدبلوماسى والعلاقات الدولية .

وبعد ...

فقد كانت تلك بعض طموحاتنا للمستقبل وارصدتنا الايجابية فيه .. ذكرناها فى اختتام الدراسة لا لمجرد أن نرفع بها ماقد يكون هناك من ظلال للتشاؤم تقضى بها الاخطار والتحديات الموعودة علينا مستقبلا أو التى تؤدى اليها النظرة الفولكلورية السائدة حاليا عن المستقبل أو حقائق المشاكل التنظيمية والعلمية والسياســية التى

تعطل بعض مسارات البحث العلمى الصحيح والتخطيط العلمى الفعال .. وانما حرصنا على ايراد هذه الدواعى المبررة للامل كي نؤكد على ان المستقبل ليس حقيقـــة ستاتيكية واحدة ومفروضة وانما هو عدد غير محصور من الحقائق المتباينة والمتنوعة . وعلينا نحن أن نختــار افعل الوسائل نحو افضل مستقبل نرغب فى أن نعيشه بحيث يكون فى الوقت ذاته أنسب مستقبل يمكننا ان نصنعه .

« والمستقبلية » بهذا المفهوم هى علم « الحـــكم » « والاعتبار » « والتمييز » « والاختيار » الحكم على الماضى والاعتبار بتجاربه والتمييز بين بدائل الممـــكن والمستحيل فى المستقبل ..

ولا محل بعد ذلك لفنجان القهوة .. ولا لـــكرات العرافين البللورية !

فهـــرس

كتاب الهلال يقدم :

سلام على النبى وصحابته

بقلم :

مصطفى بهجت بدوى

يصدر ٥ مايو سنة ١٩٨٦

رقم الايداع ٢٨١٧ / ٨٦

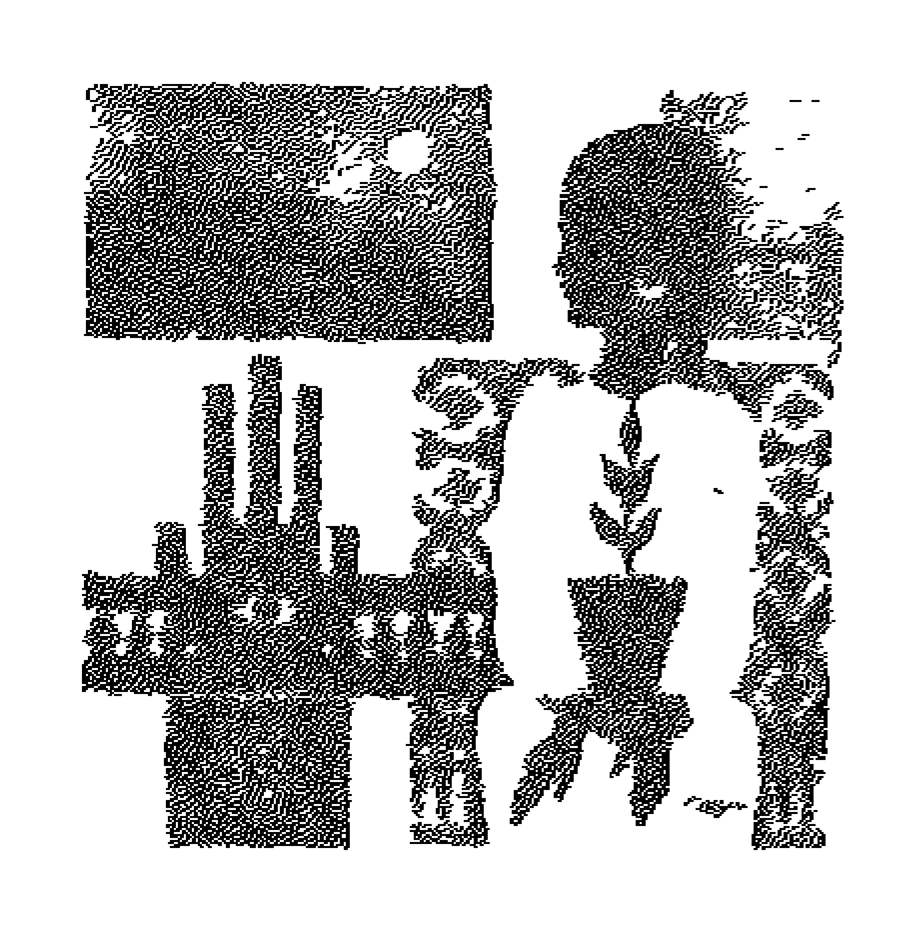
الترقيم الدولى ٥ ـ ٢٢٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع فى الخارج للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :ـ

سوريا ١٤٠٠ ق . س . لبنان ١٤٠٠ ق . ل . الاردن ٦٠٠ فلس . الكويت ٩٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلس . السعودية ٧ ريالات . تونس ١٥٠٠ مليم . الخليج ١٢٠٠ فلس . الصومال ١٣٠ بنى . لاجوس ١٢٠ بنى . عدن ١٤٤ سنتا . لندن ١٥٠ سنتا . اثينا ٢٠٠ دراخمه . كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠ سنت . استراليا ٦٠٠ سنت . السوادن ٢٥٠ ق . سودانى . المغرب ١٥٠٠ فرنك . غزة والضفة ٧٥ سنتا . داكار ١٠٠٠ فرنك . اليمن الشمالية ١٥ ريالا ؛ ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .



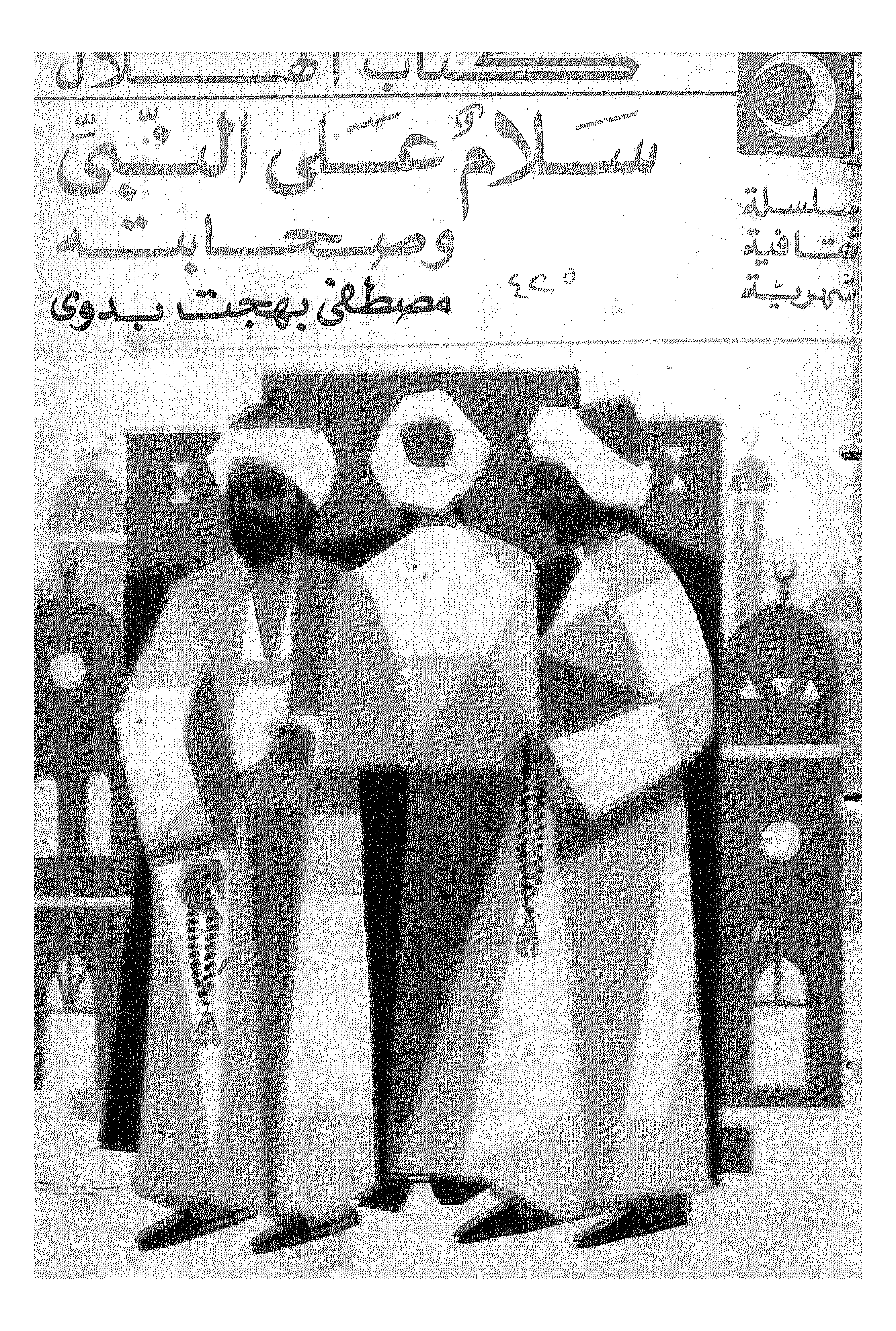
هـذا الكتـاب

يقول المؤلف فى هذا الكتاب : الى متى تستمر الفجوة لدينا بين « العلم » والفعل ..؟ وكيف نخلق الظروف والشروط التى ينتقل بها وعندها الوعى .. الى سعى ..

يعرض هذا الكتاب أبعاد وحدود الرؤية المستقبلية فى كثير من قطاعات المجتمع المصرى الشعبى منها والرسمى ، ويوضح لنا كيف ان المستقبل يحمل من الدواعى والمحاذير والأخطار والحتميات مايستوجب ترشيدا بل تنويرا لهذه الرؤية المستقبلية وطريقة تعاملنا العربى عموما مع المستقبل .. ويوضح لنا كيف يعالج هذا المستقبل فى البلاد المتقدمة بأساليب علمية فى الرصد والتنبؤ والتخطيط الدقيق ..

وقد بدأ علم المستقبل فى العالم العربى عموما ـ وفى مصر على وجه التخصيص ـ ينال اهتماما كبيرا بين مجموعات الباحثين وبعض القلائل من رجال الحكم ذوى البصائر والرؤى التاريخية ذات النظر الأبعد والأرحب ، وقامت مؤسسات متخصصة فى دراسة المستقبل تشهد اعمالها الأولى ببشريات طيبة كالمجالس القومية المتخصصة ومعهد التخطيط القومي ومركز دراسة الوحدة العربية وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ..

٧٥ قرشا


كتاب الهلال
سلام على النبى وصحابته
٤٢٥
مصطفى بهجت بدوى
سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٥ - شعبان ١٤٠٦ - مايو ١٩٨٦

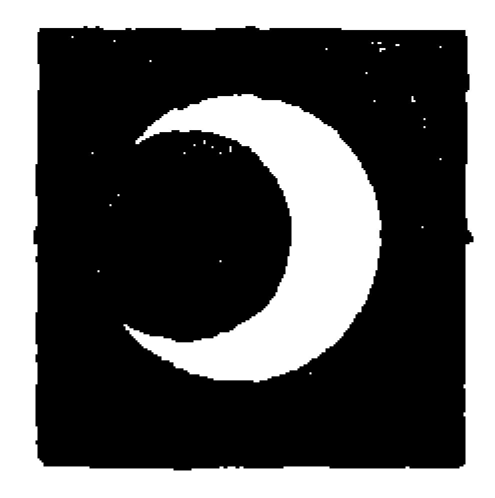
No. 425 May 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
ســـــميحة حســـــنين

سلام على النبي وصحابته

بقلم

مصطفى بهجت بدوي

●

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من البداية أود أن أكون واضحا مصارحا ، فلعل الوضوح والصراحة والبوح الخالص ايسر واقصر السبل لابتغاء واقامة وبسط تلك العلاقة السليمة والصداقة الحميمة بين الكاتب وقارئه ..

ليس هذا كتابا أكاديميا يتناول حياة نبينا الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ مولده أو منذ بعثته حتى أن لحق بالرفيق الاعلى ، ولا هو يؤرخ ويحلل ويصنف شخصيات صحابته تفصيلا . كتب السيرة النبوية قديمها وحديثها انتهجت هذا النهج بأمانة عظيمة مستحبة . ولا أقول انها قطعت السبيل على أية اجتهادات أو اضافات أخرى فى هذا المضمار . فهى ـ على تعددها ورحابتها ودقتها وشمولها ـ لتتسع لمزيد ، ولن تبرح الى أبد الدهر موحية بعديد من التناول والتدارس والعرض والتحليل ، باختلاف طرائق التفكير ومزاجات الشعور وأساليب التعبير . النبع والمادة والسيرة الغنية واحدة ، ولكنها تطوع تشكيلها بشتى الصور القلمية التى تستلهمها ، فيقبل عليها المريدون والقراء ، ويستزيدون ولا يسأمون .

ليس هذا اذن كتابا من كتب السيرة وان يكن تفيىء بظلالها ، ولا هو على نسقها وان بدا أنه تغياه . هذا كتاب مختلف .

انه « بديل » عن ملحمة شعرية طويلة .. أذا صح التعبير ، أو بالاحرى اذا كان الاعتذار عنها على هذا الوجه مقبولا !

كيف ولماذا ؟

اقول .. فما فى قلبى على لسانى وقلمى !

ان القصائد والملاحم التى دبجت فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى التغنى بالسيرة النبوية الشريفة تفوق نجوم السماء عددا . ولعلها تستقل بذاتها كواحدة من اهم وانبل اغراض وأبواب الشعر العربى .

واذا كان من الشعراء من نعموا بحياة وجوار الرسول ولمعوا مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير والخنساء وكعب بن مالك ، فعلى الدرب تسابق من بعدهم مشهورون ومغمورون فى مختلف العصور تيموا به عليه السلام وبآل البيت حبا وشعرا !

مثلا .. ماذا بقى من البوصيرى ألا بردته وهمزيته حتى ان « شوقى » لم يستطع مقاومة اغراء معارضتهما ، ففعل وأبدع وتميز بقصيدتيه الطويلتين الرائعتين نهج البردة « ريم على القاع » والهمزية « ولد الهدى » وتشفع بهما .

ولكم عاش المنشدون على « ملحمة السيرة » التى نظمها عبد الله عفيفى فى أواخر الثلاثينيات فلم يعرف بغيرها !

واعترف امام اكداس هذا التراث العظيم اننى شردت عن الموكب ، وأن نفسى اللوامة ظلت تلتف فى حناياى حتى شكلت لى مايشبه « عقدة الذنب » !

والحكاية اننى وقد تجاوزت اربعين سنة مع الشعر

ووحيه وسبعة دواوين أصدرتها .. لم أكتب ـ وياللعجب ـ سوى قصيدة واحدة قصيرة مشبوبة في أحب خلق الله الى الله والينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وضمها ديواني الاول ! « ارتجلتها » في الطريق الرملي « البدائي » آنذاك بين مكة والمدينة بعد أداء فريضة الحج سنة ١٩٤٥ ، وكأنما استحييت أن أزور مسجد الرسول قبل ان أكون عبرت فعلا بدمعي وشعري عن جياش المحبة ! ورغم النزعة الدينية في الروح وفي عدد كبير من قصائدي فلم اتبعها بمدحة تالية !

ولطالما مناني شعري ومنيته أن أفتح فتحا جديدا في عالم المدائح النبوية ، لا بغية ذيوع الصيت ، بل ترجمة عن عميق انتمائي وولائي وامتناني لرسول الانسانية ! ولكن كلما شرعت .. تهيبت واستعصت الابيات على بناني وان تناثرت في وجداني .

اذن فشيء بالغ الاهمية لا يزال ينقص شعري ودواويني !

ولم اتمن ـ فحسب ـ هذا الحلم الشعري الذائب في حب النبي ، ولكني امسكت بالحلم نفسه لينتظم نبضات وكلمات وابياتا . صحيح أنني ترددت طويلا بين الشكل والنهج ، ولكني توهمت أنني توصلت اليه . واخذت اكتب واعدل ، ثم اعود فأكتب من جديد وأعدل ثم توقفت . ان الشاعرية ـ فيما اتصور وارجو ـ لم تضمر ولم تنضب ، ولكن آه من التهيب ! تخايلني ـ وتتحداني ـ رسالتي المنظومة الى المسيح عليه السلام « رسالة الى المسيح » التي أصدرتها سنة ١٩٧٥ في ديوان عزيز لدي ، وجياش المحبة والبوح . ورغم أننا

« لا نفرق بين أحد من رسله » ورغم أنها كانت بطبيعة الحال رسالة موحدة من نبت ثقافة الاسلام والعقيدة المحمدية ، الا أن توجهها آخر الامر هو الى المسيح عيسى بن مريم حتى ولو كان هدفها « مناشدته » أن ينزل الى الارض ليحل عليها السلام ، وليحكم بشريعة محمد سيد الانبياء والمرسلين . فيتوجب على اذن حين اهمس او اهزج بشعرى الى محمد عليه الصلاة والسلام ان تحاول ابياتى الرقى الى سماء لا تطاولها سماء . وهذا هو المركب الصعب المحير الذى جعلنى فى نهاية او بداية المطاف ـ أجنح الى « تأجيل المشروع » . وخطر لى ـ على البديهة والسجية ـ هذا البديل .. هذا الكتاب .

على اننى شعرت ـ وانا ماض فيما أخط من صفحات هذا الكتاب ـ أن أمتع وأبدع واروع مافى الكتابة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ليس فى مجرد التعبير بكلمات مفعمة بالحب والتقدير نثرا أو شعرا فحسب ، ولكن فى هذا « الاسراء » الروحى والقلبى والفكرى اليه من خلالها ، وتصور صحبته وملازمته !

بحسب عاشق متدله مدنف فى حب رسول الله عليه السلام ان يطل على ملامح لاكرم واوعظ أيام التاريخ .. اعنى سيرته ، وأن يستضىء بأعظم واقوم ما بشرت وخوطبت به الانسانية .. اعنى دعوته ، وأن يستروح ازكى واندى مايضوع فى دنيانا من عبير وشذى ... اعنى بسجاياه ! بحسبه حلاوة هذا « التزامن الخيالى » الذى تسرح به الخواطر ويعرج وجدانها ! بحسبه انه يحلق بجناحين من الشوق والمحبة فيتمثل مايتمثل بل

يكاد يراه راى العين ! بحسبه انه يحلم بأن يغدو أهلا للحديث الشريف « المرء مع من أحب » .

نعم ! ما أكرم صحبة رسول الله رحمته وحلمه وعفوه وكل صفاته الكريمة .

من منا لاتعي ذاكرته ولو بعض عبارات من هذا الدعاء الضارع الخاشع المتدفق شجنا وبلاغة وايمانا والذى توجه به النبى صلى الله عليه وسلم الى ربه .

« اللهم أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ! ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة الا بك » .

وسبحان الله ! من العذاب تفجرت هــذه العذوبة العذبة !

انه دعاء « الطائف » . .

ولقد زرت مدينة الطائف سنة ١٩٧٩ م فبدا لى لحظة دخولها أن هذا الدعاء الخالد يتردد صداه فى أرضها وسمائها فيهز أوتار القلب ! ولما تفرست فى وجــوه أهل الطائف وعايشتهم ألفيتهم فى مثــل لطف جــو الطائف الذى يهرع اليه سكان السعودية يصطافون .

وكان منوطا بابنى المهندس أن يشارك فى بناء ســور مصلى العيد وتعبيد أرضها مع أن ثمة مصلى متسعا آخر لصلاة العيد فى عراء غير بعيد ، فضلا عن عشرات

المساجد ! وقلت : صدق رسول الله ! فدعاؤه الذى ما فتىء يشجينا انما رفع به الاكف بعد أن أساء أهل الطائف استقباله فى بدايات البعثة المحمدية ، وآذوه واعتدى عليه سفهاؤهم ورموه بالحجارة فلم تلن له قناة ، وظل ثابتا على دعوته وعلى قدميه اللتين سالت منهما الدماء الزكية الشريفة ! لم يغضب ، كان فقط يخشى غضب الله ولا أحد سواه . تفوق فى امتحان الصبر عليه السلام ! ثم أعقبه امتحان العفو والرحمة ! وتقول روايات السيرة أن الله عز وجل بعث لمحمد عليه السلام ـ بعد هذه المحنة ـ بملك الجبال يسأله ما اذا كان يرغب فى أن يطبق عليهم جبلى مكة «الخشبين» عقابا لهم على ايذائه وعلى كفرانهم ؟! ولكنه أبى أن يهلك قومه .. هم رموه بالحجارة وبما هو أقسى منها . رموه بالجحود رميا نفسيا ، فى حين أن هدفه ومرامه أن يهدى الله قومه فانهم لا يعلمون ! وأجاب نبى الرحمة ملك الجبال قائلا : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا » .. نبوءة تحققت وشيكا ! واحرز الدرجة النهائية الرفيعة فى الامتحان الثانى مثل الاول . فطوبى للصابر الرءوف الرحيم والصادق الامين صلى الله عليه وسلم .

فليكن كتابى سوانح عن النبى وصحابته . عن محمد رسول الله والذين معه . فيض الخاطر وبجهد المقل . عن مواقف ووصف وصفات وقراءات وحكايات لاحت لى فى السيرة وبغير ترتيب زمنى . واذا كانت مجرد قطرات مطهرة فى بحر طاهر زاخر ، أو كانت لمحات عرضت لى وعرضت لها بين نور باهر غامر ، فانها فى

زماننا العربى الحالى الردىء الحافل بالاحباط هى منتجع الحسن والعزاء والامل .
وانني لادعو الله جل وعلا ان يكون ــ وان يشيع ــ كتابي هذا ايمانا لا يفتر ، ومحبة لاتنفد .
وسلام على النبي وصحابته ..

"وانك لعلى خلق عظيم"

حب النبى عليه الصلاة والسلام ليس الهدف منه بطبيعة الحال هو مجرد التعبير بالقول والمديح . حسبه أن الله جل جلاله أثنى عليه ثناء جميلا شاملا فى قرآنه فقال « وانك لعلى خلق عظيم » ٤ القلم ، ، ونعته بكونه « سراجا منيرا » . كما أنه ـ سبحانه ـ شرفه بقوله « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ٥٦ الاحزاب . عليه افضل الصلاة والسلام . انما الحب هنا فى حقيقته وخصوصيته مرده الى الايمان بمحمد نبيا ورسولا ، واتباعه ، والاقتداء به ، وايثاره . ذلك انها قضية دين أبلغه للناس كافة ، وقد بنى هذا الدين الاسلامى الحنيف أول واحسم واخلد مابنى على شهادة الا اله الا الله وأن محمداً رسول الله .

نعم ! حب هو الايمان والاتباع والاستجابة والطاعة والايثار . فلنقرأ فى القرآن المجيد :

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا » ٨ التغابن « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ٣١ آل عمران . « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ٢٤ الانفال . « من يطع الرسول فقد اطاع الله » ٨٠ النساء . « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ٧ الحشر . « ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » ٣٦ الاحزاب . « لقد كان

لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ٢١ الاحــــزاب .
« النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم » ٦ الاحزاب .
فاية منزلة عالية واية درجة رفيعة حقت لمحمد !
يقول عليه الصلاة والسلام « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .
ويقول « مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وجمله الا موضع لبنة من زاوية مــن زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويقولون : « هــلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة وانا خاتم النبيين » !
ولكنه يحذرنا فيقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » .. مخافة الانسياق الى الشرك بالله ! وكأنما ينبهنا الى الآية « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » ٦ فصلت ! وكانما يذكرنا بقوله تعالى « ليس لك من الامر شيء ، أو يتوب عليهم او يعذبهم » ١٢٨ آل عمران .
فهنا مسألة دقيقة تعارف العلماء على تســـميتها « الشرك الخفى » .
فمن مقتضى الدين أن نحب سيدنا محمداً الحب كله ونؤمن به نبيا ورسولا ونتبعه ونطيعه . أما هؤلاء الذين يغالون فيدعونه كأنما يسألونه الاجابة « يارسول الله أغثنا . أدركنا . أعطنا الخ » أو يتوسلون به الى الله فى دعواتهم .. فليس من الدين فى شيء بل هـــو من المحظورات التى تعد شركا خفيا ! و « الوسيلة » فى الآية « يأيها الذين آمنوا أتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» ٣٥ المائدة ليست توسلا الى الله بالنبى والاوليـــاء الصالحين ، وانما هى ــ لغويا واسلاميا ــ العمل الصالح فحسب !

والدعاء عبادة . وقد بينه الله على وجهه الأوحد فى الآية التى توسطت آيات الصيام ورمضان « واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ١٨٦ البقرة . حتى القسم والحلف بالنبي عليه السلام منهى عنه فيقول نبى الهدى « من كـــان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . ذلك هو الدين القيم !

وقد تعارف الدعاة على كونه « رحمة مهداة » ، والحق انه لكذلك ! انها رحمة مهداة من الرحمن الرحيم الى عبده ورسوله ليصبح رحمة مهداة الى خلق الله ! وكما وهبها عز وجل للنبى عامرة غامرة وثبتها فى فؤاده ، فانه اثبتها له فى قرآنه الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ١٠٧ الانبياء . « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ١٢٨ التوبة . « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهـــم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » ١٥٩ آل عمران .

ذلكم هو النبى الذى ماخير بين أمرين الا واخذ أيسرهما « مالم يكن اثما » تخفيفا على أمته ورحمة بها . سـيرته العطرة التى تفيأ بها أصحابه ومن جاء بعدهم وبعــدهم حتى تقوم الساعة هى كتاب رحمة وسراج منير .

وفى بعض الاحيان تنبىء شفافية واقعة صغيرة عــن معان كبيرة .

وعلى وفرة ما قرات وأقرأ فى الاحاديث والروايات التى يضوع فيها شذا سجاياه ــ عليه الســـلام ــ

فنستعيدها ونستزيدها وندلف الى رياضها بين حين وآخر ، وكأننا لا نبرحها ثم نشغل عنها لكنها لاتفارقنا ، فان هذه الواقعة الصغيرة المؤثرة قد علقت بذاكرتى مذ طالعتها .

اصطف الرجل فى صلاة الجماعة سعيدا ليس فقط لان ثوابها هو نحو نيف وعشرين ضعف صلاته منفردا ، ولكن لان الذى يؤم الصلاة هو رسول الله شخصيا ! وفجأة اثناء الصلاة عطس جار هذا الرجل ، فما كان منه الا أن « جامله » فشمته .. اى قال له : يرحمكم الله ! وما ان انقضت الصلاة بالتسليمتين حتى هب فى وجهه من سمعوه وأوشكوا أن يفتكوا به فتكا بقوارص الكلام لولا ان حال بينه وبينهم رسول الله عليه السلام .

اسمع الرجل يحكى « فوالله مارايت معلما خيرا منه قط . والله مازجرنى ومانهرنى . وانما قال لى ان الصلاة عمل من اعمال الآخرة لا يصلح فيها عمل من اعمال الدنيا » !

لقد كان شافيا وبعيدا وقع هذه التربية المحمدية الشفوقة الرحيمة على الرجل وعلى من زجروه ... وعلى !

حفل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالفرد كما حفل بالجماعة وبالامة رحمة ورعاية وشجاعة .

ذات ليلة هجست خيالات فى اذهان اهل المدينة أنهم سمعوا صوتا ينبعث من مشارف يثرب . ولان قريشا كانت بعد فى عنفوانها ، الامر الذى يجعل احتمالات الغارات على المدينة قائمة ، فقد القي فى روعهم أن الاعداء على الابواب ، وخشوا أن يؤخذوا على غرة ، مما

حدا ببضعة نفر أن ينطلقوا فى اتجاه الصوت .. لكنهم لم يكملوا المشوار ! فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد سبقهم الى مصدر الصوت واقفل راجعا ممتطيـــا صهوة فرس « أبى طلحة » حاملا سيفه وهو يطمأنهـم ويطمئن الجميع أنه لاعدوان ولا عدو ولا يحزنون ! طيب خاطرهم قائلا : لم تراعوا .. لم تراعوا !

ما أحوجنـــا الى أن نتعلم من رحمته .. ومـن شجاعته !

ولله ما أطيب تواضعك يارسول الله !

حين أكرمه الله بالنصر الذى جاهد من أجله ، والفتح الذى سعى وأصحابه اليه ، خفض رأسه تواضعا لله تبارك وتعالى حتى أن ذقنه لتمس ظهر راحلته ! اغرورقت عيناه بدموع الشكر والامل وهو يتلو قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا » ١ ـ ٣ الفتح .

اخ كريم وابن اخ كريم !

اى والله .. واذهبوا فانتم الطلقاء !

هكذا كان أعظم الناس .. وابسط الناس واخلصهم تواضعا !

كان يكره أن يقوم له أحد ، بل نهى عن ذلك وقال « لا تقوموا لى كما يقوم الاعاجم ، يعظم بعضهم بعضا » . فكان اذا اقبل عليهم ظلوا فى مكانهم لم يبرحوه !

من يصدق انه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كـان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى المجلس ـ فتــلك

تعليماته وتعاليمه ـ حتى أن الغريب اذا حضر لزيارته لم يعرفه بين أصحابه فيتساءل : أيكم محمد ؟

وذات يوم دلف رجل فى حاجة ، فلما وقف بين يدى الرسول تهيب واجفل واخذته رعدة ! ففاجاه النبى الكريم و « فوقه » بقوله : هون عليك ! فلست بملك ولا جبار ! انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة » !

فذهب الروع عن الرجل ونطق بحاجته .

ثم والحديد خام قال معلم الانسانية ـ عليه السلام ـ كلمته :

« يأيهـــا الناس انما أوحى الى أن تواضعوآ . ألا فتواضعوا حتى لا يبغى إحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد . وكونوا عباد الله اخوانا » . فما أرقاه وما أصفاه دينا ورسولا !

أين نحن من مكانة رسول الله ؟ ثم أين نحن من تواضع رسول الله ؟ !

ولقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا كما يعيش عباد الله البسطاء يكدحون فى سبيل الفكر والرزق ويرضون بما قسمه الله لهم رضاء المؤمنين السمحاء ، وبين أن يجمع الى سمو رنبالة النبوة والرسالة ابهـــة الملك والسلطان . فلم يتردد فى الاختيار : أن يغدو نبيا عبدا . آثر ان يمشى فى الاسواق ويتاجر التجارة الحلال عن أن يجرى الله معه الجبال ذهبا وفضة ويأتيه رزقه بغير جهد ولا حساب !

وفى المدينة المنورة حيث اقام النبى عليه الصـــلاة

والسلام بعد الهجرة في مرحلة جديدة ايجابية وفعالة وحاسمة كان اول مافعل أن بنى مسجده ، وآخى بين المهاجرين والانصار ، وانهى عصبيات الاوس والخزرج المضللة المشتعلة ، وطمأن اليهود الخائفين على مصالحهم وأسرارهم الى أن يقضي الله امرا كان مفعولا . ثم اخذ يؤسس دعائم المجتمع الذي سوف يشع نوره على العالمين .

وذات يوم تبلبل زيد بن سعفة ـ وكان من كبار احبار يهود المدينة ـ وراح يحدث نفسه . أهو النبى المنتظر حقيقة ؟ لم يبق من علامات النبوة شيء الا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم اكتشفهما بعد : يسبق حلمه غضبه . ولا تزيده شدة الجهل عليه والاجتراء الا حلما !

واراد زيد هذا أن يتبين هاتين العلامتين ليقطع الشك باليقين ! فمضى يتحايل ويتلطف للتواصل مع محمد بصورة مايكون من شانها ان يسبر غور النبى عليه السلام .. حتى ولو كانت صورة فجة ! وهكذا قصد الى النبى يبتاع منه « تمرا » . وعجل له زيد بالثمن على ان يتسلم منه ثمره بعد أجل متفق عليه . اساوب بيع وشراء جرى عليه العرف من قديم الازل ولن تمحى مثل هذه المعاملات ابدا .

وحتى ينفذ خطته المرسومة حضر « الخبيث » زيد الى النبى قبل موعد الاجل بثلاثة ايام فأخذ بمجامع قميص النبى وردائه وساله في استفزاز وغلظة وهو يقول :

الا تقضيني حقى يا محمد ؟ فوالله انكم يابني عبد المطلب « مماطلون » !

واحتقن راس عمر بن الخطاب بالدماء واستشاط غضبا وقال له : ياعدو الله ! اتقول لرسول الله ما اسمع ؟

فوالله لولا ما احاذره لضربت بسيفي راسك !

ولم يناقش النبي زيدا في شان « اجل » خطأ حرف فيه ، ولا الفاظ وقحة خطاءة اقترفها ، وانما ابتسم النبي عليه السلام ناظرا الى عمر في هدوء قائلا :

« أنا وهو كنا احوج الى غير هذا منك ! ان تأمرني بحسن الاداء ، وتامره بحسن التقاضي ! اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما رعته ! »

وامتثل عمر لامر رسول يعرف كيف يجذب الناس بدعوته ، كما يكسبهم بحلمه وصبره .

واختلى زيد بن سعفة بعمر وطيب خاطره قائلا :

ياعمر لقد عثرت على ضالتي المنشودتين بهذا الذي اغضبك في حين ان حلم محمد سبق غضبه ولم تزده شدة جهلي عليه الا حلما . هكذا كملت لمحمد علامات النبوة . اشهدك اني قد رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ! وحسن اسلام زيد .

واكرم به حلما وكياسة ومخاطبة للناس على قدر عقولهم .

ومن العجب أن الصورة « الزيدية » في ظاهرها واولها اجتراء ودهاء ، وفي نتائجها وآخرها يقين وبر امان !

ارهاصات ما قبل البعثة المحمدية

مابين بعثة موسى وبعثة عيسى عليهما السلام قرون ، وما بين ميلاد ابن مريم والبعثة المحمدية ستة قرون وعشر سنين » ٦١٠ » . وكان بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء كلما هلك نبى خلفه نبى كما حدث بذلك رسول الله عليه السلام . وكان المسيح بن مريم هو آخر الرسل الى بنى اسرائيل ، ثم انقطعت رسالة السماء حتى نزل الوحى على محمد الذى لانبى بعده والذى تفرد ايضا بكونه لم يبعث لقومه فحسب بل لجميع الناس الاولين الذين عاصروه والآخرين الذين بلغوا به « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » ١٥٨ الاعراف . وليس فى التبيان والاعلان والاذهان ما هو اصرح ولا اوضح ، ولا ماهو احسم ولا احكم !

وقبيل البعثة المحمدية كان اليهود يعلمون حق العلم أن نبيا عربيا على وشك أن تتنزل عليه الرسالة السماوية فيكون خاتم النبيين « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » ١٥٧ الاعراف . كما كان عدد من النصارى يترقبون مبعثه فقد بشر به ابن

مريم « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .
٦ الصف . ولكن لعنة الله على الكافرين منهم جميعا الذين يكتمون الحق ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وقاتل الله الحسد والكبر والعناد !

انقسم الناس فى الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية الى طوائف شتى ، فالاغلبية مشركون يعبدون أوثانا واصناما تخيروها سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها أو لدى القبائل والمنازل فى كل بقعة بين بلاد العرب . يتخذونها زلفى يتشفعون بها الى الله ، ثم فى غمار هذا يركزون عليها ويرتكزون فاذا هم قد نسوا الله وعبدوها من دونه . والاقلية بين يهود ونصارى . ولكن هل عدمت الجزيرة العربية من انفوا وخرجوا على هؤلاء وهؤلاء ، واقاموا او حاموا حول دين ابراهيم يعبدون ألله وحده لا شريك له بلا حفلات وثنية ولا التواءات يهودية ولا طقوس نصرانية ؟ كلا . ما عدمت الجزيرة العربية أولئك على ندرتهم ، وكانهم باتوا ارهاصات ماقبل البعثة المحمدية .. من روادهم وفى طليعتهم رجل ضمت أسرته — فيما بعد — اثنين من العشرة المبشرين بالجنة ، واثنين من أمراء المؤمنين ، وشهيدا من أشجع وأكرم شهداء صدر الاسلام والعشرات من التابعين الصالحين . ان هذا الرجل « النموذجى » هو زيد بن عمرو بن نفيل الذى مات قبل البعثة المحمدية بنحو خمس سنوات ، وهو ابو الصحابى الجليل سعيد بن زيد المبشر بالجنة . وعم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المبشر بالجنة ، واخيه زيد بن الخطاب « البدرى » الذى حمل راية المهاجرين فى حروب الردة باليمامة وابلى بلاء عظيما ثم استشهد فيها فبكاه عمر

وهو يقولَ : سبقنى الى الحسنيين .. أسلم قبلى ، واستشهد قبلى . وهو « جد » أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « خامس الخلفاء الراشدين » .

ولست أضن على زيد بن عمرو بن نفيل ـ رضى الله عنه ـ بافراد سطور مضيئة عنه وبثناء مستطاب ، وهو الذى ترحم عليه النبى عليه الصلاة والسلام وقال انه يبعث يوم القيامة أمة وحده ويدخل الجنـــة . روى البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتتبعه ، فلقى عالما من اليهود فسأله عــن دينهم لعله أن يدين به ، فقال له اليهودى انكَ لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبكَ من غضب الله . قال زيد وما أفر الا من غضب الله ! ثم انطلق حتى لقى عــالما من النصارى فسأله فقال له لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبكَ من الضلالة ! فقال زيد : من الضــلالة أفر ، فهل تدلنى الى غيره ؟ قال النصرانى : ما أعلمه الا أن تغدو حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قيلَ له : دين ابراهيم لا يعبدَ الا الله . فرفع زيد يديه وقال : اللهم انى اشهدكَ أنى على دين ابراهيم . وكان زيد لا يأكلَ ما يذبح على الأنصاب ، ويقول ان الشاة خلقها الله ، فكيف تذبحونها على غير اسم الله ؟ واعتاد أن يقـــول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها .. أنى أكفبك مؤنتها ! وروى عنه قوله : انا انتظر نبياً من ولد اسماعيل ثم من بنى عبدَ المطلب ، وما أرانى أدركه ، ولكنى أؤمن به وأصدقه !

ومنهم قس بن ساعدة الايادىَ الذىَ عاش في الجاهلية ردحا من الزمان ثم مات قبيلَ البعثة المحمدية بأعوام .

وكان نوارة سوق عكاظ وخطيبها ، بليغ النثر والشعر حتى ذهب مثلا ، فكان العرب كلما أعجبهم قول أحد تمتموا : أبلغ من قس ! وهو القائل : أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه . أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا . ثم أخذ ينشد أبياتا مازالت ترن فى أذنى من محفوظات مرحلة الدراسة الثانوية .

فى الذاهبين الاولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يمضى الأصاغر والأكابر
أيقنت أنى لا محالة ... حيث صار القوم صائر
لا يرجع الماضى الى ... ولا من الباقين غابر

ومنهم زهير بن أبى سلمى أحد شعراء و « حكماء » المعلقات السبع ، وهو القائل

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
فلا تكتمن الله مافى صدوركم
ليخف .. ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

وقد أ له ابنه الشاعر « كعب بن زهير » متأخرا بعد فتح مكة وأنشد بين يدى الرسول قصيدته الذائعة الصيت التى يقول فيها .

أن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ثم .. أمية بن أبى الصلت . وكان شاعرا رصينا يمتلىء شعره بهواتف ايمانية ظاهرة قبيل البعثة

المحمدية . فلما أوحى الى رسول الله كاد أمية أن يسلم ، ولكن غلبت عليه شقوته وأخذته حمية الجاهلية . ولم آسف على عدم اسلام شاعر قدر ما أسفت عليه . فلكم تمنيت لو آمن وامتد به الاجل ، ولكن ليس كل مايتمنى المرء يدركه . كان جديرا أن يحتل مكانة حسان ابن ثابت بين شعراء الاسلام ، فهو أعلى كعبا وأمكن لناصية النظم الجميل والسبك الشعرى المحكم والديباجة المشرقة لولا الغيرة والحسد ، فقد كان يطمع أن يغدو هو الرسول المنتظر .. والله أعلم حيث جعل رسالته . فمثل أمية بشعره البليغ الظاهر الايمان ثم موقفه الحاقد الزائغ المارق كمثل من قال فيه علام الغيوب جل وعلا « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ١٧٥ الاعراف .

عفوك يارب . كيف آسى هذا الاسى على أن ضاق صدر أمية بن أبي الصلت بالاسلام ، وهناك من كان أقرب الناس الى رسول الله عليه السلام .. كفله وحماه وذاد عنه ، ولكنه رغم ذلك كله لم يسلم ؟ أعنى أبا طالب عم النبي الذى ود النبي لو جعله ينطق بشهادة الا اله الا الله حين حضرته الوفاة فلم يفتح الله عليه بها . ونزل فيه قوله تعالى « انك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » ٥٦ القصص . ومن « المقابلة » فان النبي عليه السلام حين كسرت رباعيته في غزوة أحد وشج في وجهه جعل يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى الله ؟ نزل قوله تعالى « ليس لك من الامر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » ١٢٨ آل عمران .

واذا كان « حسن العمل » امرا بالغ الاهميـــة فان « حسن الختام » هو الامر الاكثر اهمية . لا يغيب عن خاطرى ابدا حديث نبوى يعلق الاعمال على خواتيمها فى سياق يحسب له الف حساب . حديث اشفق منه اشفاقا ، وابتهل ابتهالا الى الله فى غير قنوط ، فان رحمته قريب من المحسنين .. يقول عليه الصلاة والسلام « ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى اذا كان بينه وبينها مسيرة ذراع سبق عليه القول فعمل بعمل اهــل النار فدخل النار . وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى اذا كان بينه وبينها مسيرة ذراع سبق عليه القول فعمل بعمل اهل الجنة فدخل الجنة » .

واننى لاوقن ان « القول » المنصوص عنه فى هــذا الحديث الشريف هـــو « العلم .. علم الله » وليس « الجبر » . ففى كل انسان نوازع شر كامنة ونوازع خير كامنة . والا اذا رانت على القلب ، فقد تطفو الاولى « نوازع الشر » على السطح دهرا ثم فى فورة هــدى طارئة موقوتة بزمن معين يصادف آخر العمر يســبق ويبرز الخير ، فى حين يتخلف وينطوى الشر فاذا هو من الخيرين المقبولين . والعكس بالعكس . ومن الطبيعى ومن المؤكد ان هناك من عاشوا بالضلال وانتهوا به ، وهناك من هدوا الى الصراط المستقيم ومضوا عليه حتى الختام .

ليس لرسول الله من الامر شىء — فى معنى الآية السابقة — اللهم الا الشفاعة فى الاخرة لمن ارتضى الله الذى لا يشفع احد عنده الا باذنه ، وقد وعد الله نبيه بهذا المقام المحمود يوم الحساب فهو الشفيع المشفع .

غير ان الله عز وجل قد يطلع رسوله على مصائر عدد او آخر من عباد الله الذين صاحبوا النبى أو عاصروه مثلما انبأ عن « العشرة الكبار » المبشرين بالجنة « ابوبكر وعمر وعثمان وعلى وابو عبيدة وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد .. رضوان الله عليهم » . ومثلما قال قولته المبشرة فى شأن من شهدوا وشاركوا بالقتال فى غزوة بدر من المسلمين « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة » .. ومثل حالات فردية أخرى متناثرة ومتواترة .

ولعلى اضرب مثلين لبيان الوجهين المتقابلين للختام « المفاجىء » .. اعلم الله بهما نبيه ، وكلاهما فى غزوة « أحد » .

يروى ابن اسحق عن ابن قتادة قال : كان فينا رجل اتى « دخيل » لا ندرى من هو ، يقال له قزمان . فكان رسول الله يقول اذا ذكر قزمان « انه لمن أهل النار » . فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالا شديدا حتى لقد قتل هو وحده ثمانية من المشركين . وكان ذا بأس فاثبتته الجراحة فاحتمل الى دار بنى ظفر . فأخذ رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ! قال : ما قاتلت الا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ماقاتلت . فلما اشتدت عليه جراحه اخذ سهما فقتل به نفسه ! وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول « ان الله لا يدخل الجنة الا نفسا مسلمة ، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

كما روى ابن اسحق ــ من جانب آخر ــ ان أبا هريرة

كان يسال الناس وكانه يطرح امامهم احدى « الفوازير »!
حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط صلاة واحدة
فلما عجز الناس سالوه من هو ؟ قال : أصيرم بني
عبد الاشهل عمرو بن ثابت .. كان يابى الاسلام على
قومه ، فلما كان يوم أحد بدا له فاسلم ثم أخذ سيفه فغدا
حتى دخل في عرض الناس فقاتل مع المسلمين حتى
اثبتتهالجراحة . فبينما رجال من بنى عبد الاشهل
يلتمسون قتلاهم فى المعركة اذا هم به فعجبوا وهو الا ى
أبى الاسلام وانكره فسالوه : ماجاء بك ياعمرو ؟ أحدب
على قومك أم رغبة في الاسلام ؟ قال : بل رغبة في
الاسلام . آمنت بالله ورسوله واسلمت ، ثم أخذت
سيفي وغدوت مع رسول الله فقاتلت حتى اصابني
ما أصابني . فلم يلبث أن مات في أيديهم . فذكروه
لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : انه من أهل
الجنة .

فاللهم اختم بالباقيات الصالحات أعمالنا ، واجعل خير
أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك يا أكرم
الاكرمين .

التدرج حتى تمام الرسالة

انزل الله القرآن بلسان عربى مبين « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ٤ ابراهيم . « وكذلك انزلناه قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيـــد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا » ١١٣ طه . نعم قرآن عربى ولكنه للعالمين ، وليكون للذين آمنوا من شتى الامصـــار والاجناس والالسنة فى الحال والاستقبال ذكرا وهدى ونورا « ان هــو الا ذكر للعــالمين » ٢٧ التكوير . « ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقــالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى اذانهم وقر وهو عليهم عمى » ٤٤ فصلت .

نزل القرآن اذن بلغة العرب . بحروفها . حتى لقد ذهب جمهور المفسرين لفواتح بعض السور « الم . كهيعص طسم . حم . عسق . ألر . ص . ق » . الى آخر ماجاء فى أول سور من القرآن المجيد . ذهبوا الى أن هــذه الحروف العربية حجة عليهم ، أى أنه كتاب أنزله الله باللغة ذاتها التى ينطق بها العرب ولكنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لانه من لدن الله الحكيم العليم . تحداهم ان يجيئوا بصورة من مثله ثم جزم بأن ذلك مستحيل عليهم ليس فى مكنتهم أو قدرتهم « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس

والحجارة أعدت للكافرين » ٢٣-٢٤ البقرة . فمعجزة النبي الرسول محمد الخالدة الابدية هي القرآن الكريم . في بلاغته ونسقه ، في أدائه ومعناه ، في احكامه « بكسر الهمزة » وأحكامه « بفتح الهمزة » ، في أنباء الغيب وفي أسرار الخلق ، في الاجمال وفي الدقائق ، في قصار السور وفي طوالها ، في المكية منها وفي المدنية ، في وعده وفي وعيده ، في هديه وفي نوره ، في شفائه وفي رحمته ، في اشاراته البديعة لخفايا العلوم الكونية وفي تشريعاته المحكمة للقيم الروحية .. في .. في كل شيء ..

ان العرب قبل الاسلام كانوا قريبي عهد بجاهلية موغلين فيها . ومن هنا فقد قضت ارادة الله وعلمه وحكمته ان تمتد الرسالة المحمدية ثلاث وعشرين سنة حتى تستقر . تتدرج حتى تتوطد . تناضل حتى تنتصر . ان محو المفاهيم الخاطئة ، ونقل الناس من الظلمات الى النور ، وارساء التشريعات الكاملة ، واتمام نعمة الدين الاسلامي في تلك المرحلة البازغة أمور تتطلب تدرجا وكفاحا ومكابدة ووقتا « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » ١٠٦ الاسراء « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » ٢٤ الانبياء . «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » ٣٢-٣٣ الفرقان .

« التدرج » والتوالى والاضطراد من السمات الملحوظة والقسمات المقدرة للاسلام منذ ان نزل الوحي على النبي الرسول محمد في غار حراء باول الآيات « اقرأ باسم ربك

الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » ١ ــ ٥ العلق، حتى آخر ما انزل من آيات الكتاب الكريم والذكر الحكيم « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ٣ المائدة .

لقد القى الله على نبيه قولا ثقيلا . ثقيلا فى دعوته ومسيرته فليس كل الناس سواء فى التقبل أول الامر ، ثقيلا فى تبعاته ومسئولياته ، ثقيلا فيما سوف يجىء به مما اذا عملت به الناس ثقلت معه موازينهم وعاشوا عيشة راضية فى الدنيا والآخرة .

ولا يتأتى الا أن يبدأ دين التوحيد بما هو خليق ومؤكد أن يبدأ به : بدعوة التوحيد .. الا اله الا الله وحده لا شريك له ، ثم بأن محمدا عبد الله ورسوله . ولكن من التدرج ان ينذر النبى بذلك أهل قرباه ومن حوله « وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم » ٢١٤-٢١٧ الشعراء . آمن بالاسلام أول من آمن خديجة زوج النبى وربيبه زيد بن حارثة وابن عمه على بن أبى طالب وصديقه أبو بكر . ثم فى «السر» وبما يشبه « الهمس » اخذ كل من اسلم يبلغ صاحبه الذى هو موضع ثقته والذى يتوسم فيه قابلية الانبعاث الى الهدى ، فاذا شرح الله صدره للاسلام وجهه الى النبى عليه السلام ليشهده ويسمع منه وليشهد أمامه ويتعهد . وصعد الصادق الامين فوق « الصفا » ، وطفق ينادى على أهل مكة حتى اذا احتشد من احتشد هتف فيهم : «أرأيتم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل أكنتم تصدقون ؟

قالوا : نعم ، انت عندنا غير متهم ، ولا جربنا عليك كذبا قط . قال : فانى نذير بين يدى عذاب شديد . يامعشر قريش ! ان الله امرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة معينا الا ان تقولوا لا اله الا الله » . ووقع هذا القول على «الجماهير» وقع الصاعقة ــ وهو « قارعة » بكل المعايير ــ حتى أن أبا لهب ــ عم النبى ــ قال له : تبا لك ، الهذا جمعتنا ؟ . . فتبت يدا أبى لهب وتب ! هكذا كان يبلغهم النبى وينذرهم ويحذرهم . كقوله تارة اخرى « انما مثلى ومثلكم كمثل رجل أتى قومه فقال لهم انى رأيت العدو بعينى هاتين فالنجاة النجاة ! فصدقه فريق منهم فادلجوا بليـــل فنجوا . وكذبه فريق آخر فصبحهم العدو فأهلكهم » .

الاضطهاد والسخرية والمقاطعة والايذاء تبدأ فيـــه قريش وتزيد . والمسلمون قليل ! ويرخص النبى لجماعات منهم بالهجرة الى الحبشة فرارا من أذى قريش . حتى الهجرة جرى عليها نهج التدرج و « قانون التطور » . الحبشة بادىء ذى بدء لمحض النجاة و « الفـــرار » المرحلى . ثم المدينة المنورة ثانيا للنجاة والفر فالكر حيث تتعزز قوى المهاجرين بالانصار .

ثم درجة حادة أو منفرجة . خطوة متقدمة ومحتمة فى المسيرة وتصريح ربانى للمسلمين الذين بغى عليهم المشركون واعنتوا ، او ظلموا وقاتلوا ، أن يردوا فيقاتلوهم « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنـــا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ،

ولينصرن الله من ينصره ، ان ألله لقوى عزيز » ٣٩ــ٤٠ الحج . وبشارة بنصر بدر « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ٤٥ القمر ، فتذكير للمسلمين بما من الله عليهم به ومع التذكير تحذير « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ١٢٣ آل عمران . وما بين نصر بدر فهزيمة أحد فانحسار الاحزاب فصلح الحديبية لتدرج المراحل وتشتد شوكة المسلمين حتى فتح مكة .

ولا جرم ان الفتح كان ذا اهمية قصوى ، بيد انه لبس خاتمة المطاف ، فالليالي لن تبرح حبالى يغشيها ماغشي ، والامتحانات قائمة « ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » ٢٥ــ٢٧ التوبة .. حتى خطبة الوداع وتمام الرسالة ووفاة النبي .

هكذا اتتبع ــ ببعض النماذج في سطور وباختصار ومن خلال كتاب الله وسنة رسوله وسيرته ــ الدعوة الاسلامية وما واكبها من تدرج ومعارك ، من سر فجهر ، من استهزاء واحتمال ، وهجرة فمنعة ، من تصاعد فاكتمال .

ولنمسك بجانب آخر . الصلاة ــ مثلا ــ بركوعها وسجودها كانت أقرب الى « التطوعية » في بدايتها ركعتين ركعتين الى ان كتب الله على المسلمين الصلوات الخمس المفروضة عندما أسرى بالنبي عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعرج به السماء في

تلك الليلة المشهودة التاريخية المعجزة بلا مراء .. ليلة الاسراء والمعراج : ليلة مباركة من شهور رجب قبل نحو سنة « ١٦ شهرا » من الهجرة النبوية . ليلة اكرم الله فيها النبي وأعز أمة الاسلام وأعلى قدر الصلاة حيث فرضها « مباشرة » من فوق سبع سماواته . ثم أوضح جبريل للنبي كيفية الصلاة تماما وأوقاتها وركعاتها على وجه التحديد والتفصيل . هكذا غدت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا وفرضا وعمادا للدين .

ومن ألتدرج والتطور والتحول .. قبلة المسلمين . كان النبي والمؤمنون يستقبلون في صلاتهم المسجد الاقصى ، وبالنبي حنين كامن جارف الى مكة والكعبة « موطن النبي واول بيت وضع للناس » حتى جاءت السنة الثانية الهجرية بالمدينة فنزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره » ١٤٤ البقرة . ومن ثم تحولت القبلة من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام ، ولله المشرق والمغرب وما كان الله ليضيع على المؤمنين ماصلوه من قبل « وما كان الله ليضيع ايمانكم » ١٤٣ البقرة .

حتى الآذان .. استقر عليه الشرع على مكث . كان المسلمون يجتمعون الى الصلاة حين مواقيتها بغير دعوة . وفي السنة الاولى للهجرة كاد النبي أن يتخذ بوقا كبوق اليهود للدعوة الى الصلاة ، ولكنه كره ذلك وانصرف عنه ولم يعمل به . ثم اتجه الى أن ينبه الناس ويدعو للصلاة على دقات ورنين الناقوس ، ولكنه ايضا عدل عن التشبه بالنصارى . فأوحى الله له ان يرتفع صوت المؤذن بالنداء

الخاشع الجامع ، المعبر المؤثر للدعوة الى الصلاة . وهو الآذان المعروف للآن وللأبد والذى تخير له النبى عليه السلام بلال بن رباح ليرفعه بصوته الندى .

والصيام هو الآخر تدرج من التطوع بصيام أيام متفرقات فى كل شهر واستحباب صوم يوم عاشوراء .. الى ان حانت السنة الثانية الهجرية ففرض الله صيام شهر رمضان « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . اياما معدودات » ١٨٢ ـ ١٨٣ البقرة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ماهداكم ، ولعلكم تشكرون » ١٨٥ البقرة .

وفى السور المكية آيات عديدة تدعو لانفاق الاموال والتصدق والتزكية بها على الفقراء والمساكين والمحتاجين « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا مؤمنون » ١٥٦ الاعراف . « والذين هم للزكاة فاعلون » ٤ المؤمنون . « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ٣٩ الروم . « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » ٢٤ـ٢٥ المعارج . ثم فرضت الزكاة فرضا وتحدد نصابها وأشراطها وانواعها وأوجهها تماما مع السنة الثانية الهجرية . ففى المدينة المنورة أخذت معالم الدولة الاسلامية تتشكل وتتحدد وتتوطد وتوالت التشريعات السماوية للدين والفقه والدنيا

والمعاملات والحكم بما انزل الله ».

ومن الامثلة التي تنطق بسنة التدرج من مرحلة حتى مرحلة ، وهيئت الاذهان تباعا الى أن استقرت على الحكم النهائي فيها .. « الخمر » ، وكأنما الحكم فيهـــا كان « يختمر » حتى قضى الامر ! ففى البداية كان لا تثريب على المسلمين ان هم عاقروها ، وان كان المتمنعون عنهـا تحرجا لدينهم كثر ! وفي المدينة المنورة سألوا عن «وضعها» فنزل قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما اكبر من نفعهما » ٢١٩ البقرة . وتلى ذلك أن حظر الله عليهم أن تجتمع الصلاة مع الخمر وآثارها فانزل قوله سبحانه « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » ٤٣ النساء . فطفق الذين يشربونها لا يتناولونها الا بعد صلاة العشاء « وفى زماننا الحاضر يقف البعض عند هذه الآية ويتأولونها « فيسكرون » بعد العشاء ناسين أن من الايات القرآنية ما ينسخ آيات سبقتها فيؤخذ بالحكم الاخير الناسخ الذى يسرى والذى يفصل والذى يقطع » الفيصل فى هـــذا الشـــأن هو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميســر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل انتم منتهون . واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا » ٩٠-٩٢ المائدة. والمشهور أن عدو الخمر اللدود والذى هيأه الله لان يدعوه بأن يبين للمؤمنين فيها بيانا شافيا هو عمر بن الخطاب ، فتنزلت تلك الآيات من سورة المائدة ، فقال النبى عليه

الصلاة والسلام « حرمت الخمر » . وروى أن أبا عبيدة كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ان نفـــرا مـــن المسلمين أصابوا الشراب ، فلما سئلوا قالوا : خيرنا الله فاخترنا .. قال « فهل أنتم منتهون ؟ » ولم يعزم ! فجمع عمر الناس فأجمعوا على خلاف هؤلاء النفر وأن المعنى في « فهل أنتم منتهون ؟ » أي انتهوا . واجمعوا على جلد شاربي الخمر ثمانين جلدة ، وأن من تأول هذا التأول وأصر عليه فهو مارق ، وأن من أقر بتحريم الخمر وشربها يتعين أن يقام عليه الحد .

تلك أمثلة لألوان من التدرج والتصاعد بالبنـــــاء حتى الذروة لبنة لبنة ..

ولعل مناسك الحج كانت ـ بالضرورة ـ من أواخـــر الشعائر التي فصلت تفصيلا . فقد علمها النبي عليـــه الصلاة والسلام لابي بكر الصديق حين بعث به في السنة التاسعة الهجرية على رأس ثلثمائة مسلم الى مكة ليحج بالناس . وحرم الله ـ مع هذه الحجة ـ مكة على المشركين والكفار « انما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ٢٨ التوبة . ثم أدى النبي فريضـــة الحج بمناسكها كاملة في حجة الوداع ليتعلم النـــاس وليحجوا وفق ما رأوه يحج ، مثلما يصلون كما رأوه يصلي .. وتتواتر السنة الاسلامية المحمدية فعلا وقولا . وفي حجة الوداع نزل الوحي على محمد بآخر مانزل به مـــن القرآن « اليوم اكملت لكم دينكم » . فلا ثمة تدرج بعد ، وقد أوفت الرسالة المحمدية على تمامها . والقى عليـــه الصلاة والسلام في حجة الوداع خطبة الوداع الدائمة

الوافية البليغة المبلغة والتي جاء في ختامها قوله عليه السلام « فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا أمرا بينا : كتاب الله وسنة رسوله » .

اللهم نشهد ان محمدا نبيك المصطفى قد بلغ الرسالة وادى الامانة .

في وصف رسول الله

عمرو بن معد يكرب تنسب اليه حكايات طويلة عجيبة في صدر الاسلام . والذي يعنيني هنا ماينسب اليه من ابيات شعر عامرة ناضرة جاء فيها قوله :

انني بالنبي مؤمنة نفسي وان لم أر النبي عيانا
سيد العالمين طرا وأدناهم الى الله حين بان مكانا
ان نكن لم نر النبي فانا قد تبعنا سبيله ايمانا

وجمال هذه الابيات هو في بساطتها وصدقها . ونفاذها الى الوجدان عائد الى جزالتها وطلاوتها وحلاوتها المعبرة وكأنما لا يفصح الشاعر عن نفسه فحسب بل يعبر عنا جميعا نحن الذين لم نر النبي صلى الله عليه وسلم . فكيف وصف قسمات وجهه وخلقه وسماته وهيئته هؤلاء الذين رأوه فتوارثنا عنهم مجملها وطالعناها على الغيب وعلى التقدير وعلى التصور ، حتى ولو لم يكن الكثيرون قد اطلعوا على دقائق هذا الوصف . أو ليس عامة المسلمين اليوم — وخاصة البائعون الجائلون وغيرهم كثيرون — يرددون بعفوية وتلقائية وعلى البداهة قولهم : اللهم صلى على جمال النبي ؟ أولسنا نؤكد حين يذكر الجمال أنه « ما جميل الا سيدنا محمد » ؟

فلننقب في أوراق من أسهموا وأسهبوا في وصفه عليه السلام .

بين الروايات الطلية عن هجرة النبي وفي صحبته ابوبكر

من مكة الى المدينة ، انهما ومعهما مولى أبى بكر ودليلهم عبد الله بن اريقط مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ قالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى « أى الاستضافة والاطعام »! فنظر رسول الله عليه السلام فاذا شاة فى كسر خيمة أم معبد فسألها عنها فقالت : هى شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال عليه السلام : أتأذنين لى أن أحلبهما ! قالت : أن كان بها حلب فاحلبها ! فدعا النبى بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ، ومسح ضرعها وذكر اسم الله . وطلب آناء كبيرا يشبع الجمع الغفير فحلب فيه حتى ملأه . فسقاها وسقى أصحابه فشربوا حتى اذا رووا شرب هو آخرهم وقال : ساقى القوم آخرهم ! ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء وتركه عندها ، ثم ارتحلوا . فما لبث أن جاء زوج أم معبد يسوق أعنزا عجافا . فلما راى اللبن عجب وقال لزوجته : من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت والشاة عازب ؟! فقالت : لا والله انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . فقال : صفيه لى ، فوالله انى لاراه صاحب قريش الذى تطلب ! فمضت أم معبد تصف رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلة « رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه . لم تعبه ثجلة « أى ضخم البطن » ولم تزريه صعلة « أى صغر رأس » . قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره « منابت أهداب العين » وطف « طول شعر » ، وفى صوته صحل « أى بحة وخشونة يسيرة » . أحور ، أكحل ، أزج « من دقة الحاجب واستقواسه » . أقرن « اتصال الحاجبين » . فى عنقه سطع « امتداد الى

السماء » ، وفى لحيته كثاثة . اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء . حلو المنطق فصل ، لا نزر « لا قليل الكلام » ولا هذر . كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن . ابهى الناس واجمله من بعيد ، واحلاه واحسنه من قريب . ربعة « وسيط القامة » لا تشنؤه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر . له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره . محفود محشود « مخدوم مجتمع عليه » لاعابس ولا معتد» فقال زوجها أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى تطلب . لو صادفته لالتمست أن اصحبه ، ولاجهدن فى ذلك . وقد اسلم الاثنان أبو وأم معبد .

ومن الوصافين المشاهير هند بن أبى هالة ربيب النبى عليه السلام « كانت أمه خديجة بنت خويلد وابوه ابو هالة ثانى زوجيها السابقين قبل زواجها من النبى » . والذى التمس من هند وصف النبى هو قرة عين النبى وحفيده ، وسبطه الحبيب ، الحسن بن على بن أبى طالب . لم يشاهد جده الا طفلا صغيرا لا يحسن — على امتيازه — تمييز وتذكر الملامح جيدا . قال الحسن رضى الله عنه : سألت خالى هند بن أبى هالة — وكان وصافا — عن حلة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانا أشتهى أن يصف لى منها شيئا اتعلق به ! فقال هند : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربوع واقصر من المشذب « الطويل » عظيم الهامة ، رجل الشعر « بين الجعد واللين » ، اذا تفرقت عقيصته « خصلته » فرق ، والا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه ، إذا وفرة . ازهر اللون واسع الجبين ازج

الحواجب سوابغ ، اقنى العرنين « حسن في الانف كله »، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله اشم « مرتفعا » . كث اللحية ، ادعج ، سهل الخدين ، ضبع الفم ، اشنب « ثغره فيه صفاء » مفلج الاسنان . دقيق المسربة « الشعر السائل من الصدر الى مادون ذلك » . كان عنقه جيد دمية في صفاء « يعني الفضة » . معتدل الخلق . بادن « أميل الى البدانة » متماسك سواء البطن أو الصدر . عريض الصدر بعيد مابين المنكبين . طويل الزندين ، رحب الراحة ، سابل الاطراف ، مسيح القدمين . يخطو مكفيا ويمشي هونا ، وربع المشية اذا مشي كأنما ينحط من صبب ، واذا التفت جميعا . خافض الطرف ، نظره الى الارض اطول من نظره الى السماء ، جل نظره اللاحظة ، يسوق اصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

ويسأل الحسن خاله غير الشقيق : صف لي منطقه ! قال هند : كان رسول الله عليه السلام متواصل الاحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه باشداقه . يتكلم بجوامع الكلم . فصل لا تطويل ولا تقصير . دمث ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وأن دقت . لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فاذا تعرض للحق لم يعرف احدا ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . اذا اشار اشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها . واذا تحدث يصل بها . يضرب راحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى . واذا غضب اعرض واشاح ، واذا فرح غض بصره . جل ضحكته التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

ونمضي مع الوصافين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها ـ وهي أحب واقرب الناس للنبي ـ تقول : كان خلقه القرآن . تقول : ماخير رسول الله بين أمرين الا أخذ أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها . وتقول : ماضرب بيده خادما له قط ولا أمراة ، ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد في سبيل الله .

ويقول أبو سعيد الخدري في البخاري : كان النبي أشد حياء من العذراء في خدرها . وصدق أبو سعيد في وصفه فان النبي لا يفعل الا مايقول ولا يقول الا مايفعل . أو ليس مما أثر عنه قوله عليه السلام : الحياء شعبة من الايمان . وكذلك قوله عليه السلام : ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى .. اذا لم تستح فاصنع ماشئت !

ومما يروى عن رسول الله ، وان لم تكن رواية قوية الاسناد ، ولكنها في مضمونها تصدق على شمائله وتتماثل مع فضائله ، انه ـ عليه السلام ـ لقي جارية تبكي في الطريق فسألها مايبكيها ؟ قالت : يارسول الله ... اعطاني أهلي درهمين أشتري بهما دقيقا فهلكا ! فدفع اليها النبي الدرهمين . ثم انقلب وهي تبكي ! فدعاها فقال : ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين ؟ فقالت : أخاف أن يضربوني ! فمشى معها الى أهلها فسلم فعرفوا صوته عليه السلام . ثم عاد فسلم . ثم عاد فسلم .. فردوا ! فقال : أسمعتم أول السلام ؟ قالوا : نعم ، ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام ! فما شخصك « جاء بك » بأبينا

انت وامنا ؟ فقال : أشفقت هذه الجارية ان تضربوها . فقال صاحبها : هي حرة لوجه الله لممشاك معها ! فبشرهم رسول الله بالخير .

وما أكثر وانضر وابلغ واسبغ مايروى عن لطفه وعطفه ورقة نصحه . سطور تملأ مجلدات فتزخر بها .

على أنني اجتزيء بثلاثة أمثلة « شاردة » لا احسبها متداولة بين مايكتب للتدليل في هذا المقام . وقد علقت هذه الامثلة في ذاكرة قراءاتي بين كتب السيرة . وصنفتها - رغم عدم مباشرتها - كنماذج صافية للطفه وعطفه وموضوعيته ودماثة نصحه عليه الصلاة والسلام .

روى ابن اسحق عن أبي أيوب - وفي الصحيحين ما يشابه ذلك - انه كان يصنع للنبي عليه السلام العشاء، ثم يبعث به اليه ، فاذا رد فضله تيمم هو وأم أيوب موضع يد النبي فأكلا منه ابتغاء البركة . حتى بعثا اليه ذات ليلة بعشائه وقد جعلا فيه بصلا أو ثوما . فرد الرسول العشاء ولم يرد ليده فيه أثر . قال ابو ايوب : فجئته فزعا ، فقلت يارسول الله بأبي وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك . فقال عليه السلام : اني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وانا رجل اناجي ، فأما انتم فكلوه ، قال أبو ايوب : فأكلناه ، ولم نضع له تلك الشجرة بعد ذلك .

وفي صحيح البخاري انه لما توجه رسول الله عليه السلام الى خيبر في الغزوة ، واشرف الناس على واد فأخذوا يصيحون : الله أكبر لا اله الا الله . وعلا صوتهم علوا كبيرا . فقال عليه السلام « أربعوا على انفسكم ، فانكم لاتدعون أصم ولا غائبا . انكم تدعون

سميعا قريبا وهو معكم » . نصح جميل رفيق عميق ، خليق بنبى .

وفى غزوة مؤتة غير المتكافئة وكان المسلمون نحو ثلاثة آلاف ، والعدو مائتي الف ، استطاع خالد بن الوليد أن ينجو بجيش المسلمين سالمين ببراعة وبقدر المستطاع ، ولم ينل العدو خيرا ولا نصرا . غير أن المقاتلين المسلمين العائدين الى المدينة كانوا يخشون أن يلقاهم الناس فيصيحون في وجوههم : يافرارون ! وقد فعل بعض الناس ذلك .. فقال عليه الصلاة والسلام : لا ، بل أنتم الكرارون .. ان شاء الله عز وجل .. وقد كان لا تفوته صلى الله عليه وسلم شاردة ولا واردة .

ومرة أخرى اعود الى التفرقة بين الحب والثناء وبين الشطحات والغلواء . اننا نتفهم تماما معنى الآية الكريمة « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » ١١٠ الكهف . فالرسول بشر مثلنا ، وهذه حكمةاللهوآيته لنا حتى لا يشق علينا ، وحتى نتأسى بنبيه . ومن احاديث النبي « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فانما أنا عبد،فقولوا عبدالله ورسوله » رواه مسلم عن عمر بن الخطاب . كذلك قوله عليه السلام « أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله » .

ولكنا نؤمن أن هذا البشر الكريم والرسول الرحيم اصطفاه الله وفضله على خلائقه اجمعين ، وارسله رحمة للعالمين .

نساء النبى أمهات المؤمنين

لان محمدا رسول الله هو بشر مثلنا فان له ـ كسائر البشر ـ « حياته الخاصة » حتي تكمل الصورة البشرية، فياكل الطعام ويمشي في الاسواق ويهجع الى اهل بيته. ولكنها حياة خاصة بالغة الشرف والعفة والنقاء والمثالية لنقبس منها ونتزود فى معايشنا . لم يحل دونها كونه « رجلا عاما » وبأكمل واشمل واقوم واعظم ما تبرزه « العمومية » من جلائل المعاني . فهو صاحب الرسالة الكبرى التى لا ضريب لها فى التاريخ السابق واللاحق ، ومبلغ الدعوة السامية للحياة الدنيا والآخرة بشيرا ونذيرا ، والتى لو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره على أن يتركها حتى يظهرها الله أو يهلك فيها ماتركها . وهو يتحمل أعباء نضال شاق خطير متصل تنوء به شمم الجبال ولا ينوء . وهو الذى يتلقى التشريعات السماوية ويمارسها ويطبقها ويعلمها لمن اتبعه من المؤمنين الذين شغل بهمومهم وتبعاتهم . وهو فى البداية والنهاية مبعوث رب العالمين الى العالمين .

محمد الذى عرف بالتحنف والتبرر والتنسك فى غار حراء قبل أن يوحي اليه ، ومحمد النبى العابد الخاشع المتهجد الذى أمر بقيام الليل « قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا . انا سنلقى عليك قولا ثقيلا . ان ناشئة الليل هى اشد وطئا واقوم قيلا . ان لك فى النهار سبحا طويلا .

واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » ٢ــ٨ المزمل ...
هو الذى نهى عن الرهبانية وقال « لا رهبانية فى الاسلام»
كما قال « أنا أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج
النساء .. فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد تزوج رسول الله عليه الصلاة والسلام النساء ،
وتوفى عن تسع نساء هن عائشة بنت أبى بكر التيمية ،
وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وزينب بنت
جحش الاسدية ، وام حبيبة رملة بنت أبى سفيان
الاموية ، وام سلمة هند بنت أبى أمية المخزومية ،
وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وسودة بنت زمعة
العامرية ، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار
المصطلقية ، وصفية بنت حيى بن أخطب النضرية
الهارونية .. رضى الله عنهن .

ولست أمسك عن الحديث فى زواج النبى بهذا العدد
وغيره من النساء ، ولا أجد أى حرج فى الاقتراب من
غيرتهن من بعضهن البعض ، ولا فيما نشب من «خلاف»
أحيانا بين النبى عليه السلام وبينهن ، ولا أتوانى في دفع
ما تخرص به بعض المستشرقين المغرضين الذين روجوا
و « بلطجوا » والقوا في روع قرائهم أنه كان شديد
الحب للنساء حبا « شهوانيا » ومولعا بهن ولعا ملك
عليه اهتماماته ، وذلك غير صحيح جملة وتفصيلا . انه
تزوج النساء .. نعم ، وكان بينه وبينهن مابين الرجل
والمرأة لكونه بشرا .. نعم ، ولكن زيجاته كانت لها
خصوصية النبى البشر المرسل ، وذات أغراض تهذيبية
سامية حكيمة أساسا .. فزوجاته هن أمهات المؤمنين .
أما اهتماماته أول الأمر وآخر الامر فبالدعوة الاسلامية

التى نيطت به وتخيره الله لها فأداها أحسن واروع واكمل الاداء .

أعظم ما نفتتح به الحديث عن زوجات النبى قول خالق الذكر والانثى رب العالمين سبحانه « يانساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان ألله كان لطيفا خبيرا » ٣٢-٣٤ الاحزاب .

فى شرخ الفتوة ، فى سن الخامسة والعشرين وقبل أن يتنزل عليه الوحى ، فان خديجة بنت خويلد عهدت بتجارتها الى محمد بن عبد الله خير شباب بنى هاشم ، والذى كانت مكة تدعوه « الامين » لما يتصف به من خصال زاخرة .. سخاء نفس ، وأمانة ضمير وقول وفعل ، ورجولة مبكرة باطنة وظاهرة . ولم تلبث خديجة — وقد انست الى محمد واعجبت به أيما اعجاب — أن بعثت اليه بمن يفاتحه فى شأن زواجه بها وهى التى دابت بعد ترملها الاخير على رد وصد كل متقدم اليها مهما عظم قدرهم وانسابهم سواء خالتهم طامعين فى ثروتها المتزايدة ام غير ذلك . ولكن محمدا نسيج وحده وهو الذى تتمنى وتسعى اليه . وتم الزواج برفاء سابغ للاثنين وهناء غامر واستقرار . ورزقهما الله بالابناء .. القاسم « وبه كان النبى عليه السلام يكنى وينادى يا أبا القاسم » والطيب والطاهر وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة .

وقضى الله ان يقبض اليه ارواح الابناء الذكور وان تعيش الاناث ويكبرن ويتزوجن . ثم بعد خمسة عشر عاما من زواج محمد وخديجة نزل الوحى على محمد ليصبح الرسول المبعوث الى امته والى العالمين .. فكانت خديجة — رضى الله عنها — أول من حدثها محمد بذلك فصدقته على الفور وهدأت من مخاوفه وقالت كلماتها الحانية الشافية : ابشر واثبت . والله لا يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ! ولتصبح خديجة أول من أسلم وآمن بالله ورسوله محمد . وقفت الى جانبه قرابة عشر سنين فى مكة وهو يدعو الى الحق ويكابد مايكابد .. تشد أزره وتجيش بالدفء والرعاية كأكرم زوجة لاكرم نبى .

لم يتزوج رسول الله على خديجة طوال حياتهما معا أية امرأة .. على شيوع تعدد الزوجات بين العرب آنذاك . زواج دام ربع قرن من الزمان . أمضى رسول الله زهرة عمره ورجولته حتى بلغ الخمسين ولا زوجة له الا خديجة بنت خويلد ، كما أنه لم يتزوج بعدها لاكثر من ثلاث سنوات .. ثم يقول اعداء الاسلام بين المستشرقين ماقالوا — ويابئس وكذب ماقالوا — عن « شهوانيته » الخارقة المسيطرة المزعومة ! أوليس هذا الاكتفاء — هذا الوفاء الطويل للزوجة الواحدة — أبلغ رد على ما ارجفوا ؟ ذلك الوفاء النادر الذى لازم رسول الله الى آخر العمر حتى ان عائشة كانت تغار من ذكرى خديجة فاذا قالت للنبى : ابدلك الله خيرا منها ! اجابها عليه الصلاة والسلام : ما ابدلنى الله خيرا منها ! آمنت

بى اذ كفر الناس ، وآستنى اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها اذ حرمنى أولاد النساء !

ولنطل سريعا على زيجات النبى بعد خديجة وظروفها واسبابها .

تزوج النبى اول ماتزوج سودة بنت زمعة بن عامر ابن لؤى الارملة المسلمة لاحد المسلمين الاوائل الذين أوذوا فى سبيل الله وهاجروا الى الحبشة ، فحين مات عنها زوجها رغب النبى أن يعولها ويرعاها ، فتزوجها . ولم تكن ذات شباب أو جمال مذكور أو مكانة ملحوظة وانما هو التكريم . وقد جرت عادة الصحابة من بعده أن يتزوجوا أرامل اخوانهم الصحابة الذين استشهدوا او ماتوا وذلك اعرابا عن تقديرهم لمنزلتهن السابقة ورعاية وصونا . انتشر ذلك العرف الحميد وذاع وتكرر لا استثناء له ـ وبحق ـ الا فيما يخص ازواج النبى فهن أمهات المؤمنين . وفى ذلك نص قرآنى قاطع « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما » ٥٣ الاحزاب .

ثم تزوج النبى فى السنة الاولى الهجرية فى المدينة بعائشة ابنة صديقه الصدوق ابى بكر ايثارا واعزازا له ، فكانت عائشة هى البكر الوحيدة التى بنى بها . وكانت على حداثة سنها ذات نضوج مبكر ، المعيبة الذكاء والحافظة حتى انه قال عليه السلام بشأنها « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ، كما أضحت وظلت اقرب وأحب ازواجه اليه ، فنعما هى مودة ورحمة وسكنا .

كما تزوج عليه السلام حفصة ابنة عمر بن الخطاب

القطب الثاني من صحابته ، وكـــانت أرملة خنيس بن حذافة الذي مات عنها مؤمنا . وكان عمر قد ألح الى عثمان بن عفان أن يزوجه ابنته حفصة بعد وفاة زوجها فتراخى عثمان لعلمه أن النبى يرغب فى تشريف عمـر بزواجه من ابنته .. وقد كان . فأبدلها الله خيرا من عثمان كما أبدل عثمان خيرا منها حيث زوجه النبى ابنته أم كلثوم بعد وفاة شقيقتها رقية ، فتزوج عثمان بابنتى النبي على التعاقب وسمى ذا النورين .

وتزوج النبى أيضا زينب بنت خزيمة التى استشهد زوجها عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وكانت طاعنـــة فى السن وافرة الطيبة والاحسان حتى لقبت أم المساكين ، وسرعان ماتوفيت خلال شهور معدودات وفى حياة النبى ثم تزوج عليه السلام « عجوزاً » أخرى كثيرة الأبناء هى أم سلمة التي أصيب زوجها فى « أحد » ومات متأثرا بجراحه . وبعد عدتها عرض عليها النبى الزواج فاشفقت عليه من كثرة عيالها ، ولكنه من أجل هـــذا حرص على زواجها ليرعى أبناءها .

وزوج الله عز وجل النبى من زينب بنت جحش ، وكانت قبله تحت ربيبه وحبيبه زيد بن حارثة فطلقهـــا فأنزل الله قوله تعالى « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » ٣٧ الاحزاب . وهكذا سن الله هذا التشريع بالفعل . وكانت أم المؤمنـــين زينب بنت

جحش تباهى أزواج النبي قائلة « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات » . وهي أول من نزل بعد زواج النبي بها آية الحجاب « واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » ٥٣ الاحزاب . وأول من لحق من أزواج النبي به الى الرفيق الاعلى في السنة العشرين الهجرية . وأول من عمل عليها النعش وشيعت به الى مرقدها الاخير .. فيالهـا من صاحبة أوليات .. رضي الله عنها . وقد شهدت لها عائشة رضى الله عنها - على ماكان بينهما من غيرة - فقالت رضى الله عنها: مارأيت امرأة قط خيرا في الدين ، واتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة من زينب بنت جحش » .

وتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب بن أمية أرملة عبد الله بن جحش وكان قد رحل معها الى الحبشة ومات هناك فبعث اليهما النبي بابن عمها عثمان بن العاص يخطبها له من النجاشي . ورحلت الى النبي وزفت اليه بعد غزوة الاحزاب في السنة الخامسة الهجرية ، فأمست ابنة أبي سفيان بن حرب زعيم المشركين الذين يقاتلون المسلمين بضراوة هي احدى أمهات المؤمنين . ويتنزل في ذلك قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » ٧ الممتحنة . وقد أسلم أبو سفيان فعلا بعد فتح مكة .

وتزوج عليه السلام في سنة ست من الهجرة وبعد غزوة بني المصطلق بجويرية بنت الحارث ابن المصطلق « ملك خزاعة أو كبيرها » . أسلمت وأسلم أبوها ،

وزوجها من رسول الله . وقيل فيها : ما كانت امـرأة اعظم بركة على قومها منها !

ثم بعد غزوة خيبر في السنة السابعة الهجـرية سبيت صفية بنت حيي بن اخطب سيدة قريظة والنضير وكان زوجها اليهودى قد قتل في خيبر . واعزها رسول الله عليه السلام فبدلا من ان تسلك بين السبايا تزوجها النبي وضمها الى نسائه وفرض عليها الحجاب وباتت من المؤمنات العابدات الصالحات ، بل من أمهات المؤمنين .

هذه — في سطور — زيجات النبي بظروفها واسبابها وآثارها .

لم يولد للنبي أبناء من ازواجه سوى من خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعنهن جميعا . وقد ذكرنا ابناءه آنفا . وكانت فاطمة ابنته من خديجة وزوجة على بن ابى طالب احب ابنائه اليه ، كما كان حفيداه منها الحسن والحسين في سويداء قلبه .

على انه صلى الله عليه وسلم اعقب ابنه ابراهيم من مارية القبطية المصرية التى أهداها له مقوقس مصر والتى أسلمت واعتقها النبى ، وان لم تحسب في عداد أمهات المؤمنين . وقد مات ابراهيم في السنة العاشرة الهجرية وهو ابن اربعة عشر شهرا . وقال النبى في وفاة ابراهيم قولته المأثورة « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول الا مايرضى الرب ، وانا عليك ياابراهيم لمحزونون » . واذ تصادف كسوف للشمس مع موت ابراهيم ظن من ظن أن تلك معجزة من معجزات النبى ان تكسف الشمس لموت ابنه ، فتصدى لهم رسول الله الذى لا يشـهد الا بالحق ولا ينطق الا بالصدق ولا يفتنه هوى الناس ، وقال من خلال مدامعه قولته المأثورة الاخرى « ان الشمس

والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احـــد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكـــر الله بالصلاة » . فيأيها النبى العظيم نشهد انك لرسول الله حقا وصدقا .

وقد عدل النبى عليه السلام بين زوجاته ، وان تفوقت السيدة عائشة وظلت أمكنهن من قلبه فكان يردد قوله « اللهم يا مقلب القلوب والابصار ، هذا نصيبى فيما املك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ! » . وعائشة على رجاحة عقلها ومنزلتها الرفيعة عند النبى غير الخافية على الجميع لم تستطع أن تحبس غيرتها حين ولد للنبى ابنه ابراهيم : وكان النبى ـ ببشريته وكأى اب ـ يفيض سعادة وبشرا بابنه وقد راح الطفل ينمو ويشب . وحمله الى عائشة لتتأمل الشبه الكبير بين الاب وابنه . فما كان منها ـ غيرى حانقة ـ الا أن انكرت هذا الشبه ! غير أن المسائل اخذت تتفاقم . وحدث بين زوجات النبى ما يشـــبه « التواطؤ » . واشتعلت الغيرة مع مولد ابراهيم ومع غير ذلك من الاسباب . وكثرت المنازعات ، والنبى الذى شغله الشاغل الدعوة وانتشار الاسلام يحاول أن يهدىء من غلواء ازواجه وغيرتهن وحنق بعضهن على البعض الآخر . وحدث أن مكث النبى فترة أطول من المعتـــاد لدى زوجه زينب بنت جحش مما أوغر صدر عائشـــة « فتآمرت » مع حفصة وانضمت اليهما سودة وصفية على أن يبادرن النبى اذا دخل عليهن بأن يقلن له : انهن يجدن ويشممن ريح » « مغافير » تناولها لدى زينب بنت جحش . والمغافير طعام حلو قد يخلف رائحة كريهة .. والروائح الكريهة من أبغض الاشياء الى رسول الله . فلما اجمع الاربعة على ذلك حرمه النبى على نفسه .

والى جانب الغيرة وما أججته ، نشبت « خلافات » صغيرة اخرى حول النفقة والشئون المعيشية صاحبتها جفوة قصيرة عارضة من النبى لبعض أزواجه ، وهجرهن لأيام قلائل ، واستمر « الحال » على ماهو عليه حتى اعتزل النبي نساءه جميعا شهرا كاملا ، وكان يبيت فى خزانة خشنة . وقلق ابو بكر وعمر — على وجه الخصوص — وانزعجا اشد الانزعاج لما جرى . وشاع أن النبي طلق أزواجه وهو لم يطلقهن . وانما كان « يلقى عليهن درسا » ويعظهن بمسلكه المتباعد عنهن عسى أن يثبن الى رشدهن . وتنزل قوله تعالى « عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » ٥ التحريم . وقوله سبحانه « يأيها النبي قل لازواجك أن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » ٢٨—٢٩ الاحزاب الى آخر الآيات من سورة الاحزاب .

وانتهت « الازمة العابرة » على خير ، وأحدث الدرس اثره ، وحسمت الآيات الكريمات الموقف المتوتر ، ووهبت « سودة » اليوم والليلة المخصصين لها الى عائشة ، وعادت السكينة والطمانينة والوفاق والاستقرار وكل ماهو خليق بأهل بيت النبى الكريم والزوج العظيم الى أهل بيته .. وانما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

فما أطيبه بشرا ، وما اطيبه زوجا ، وما أطيبه أبا ، وما أطيبه نبيا كريما ورسولا معصوما ..

في خدمة رسول الله

اربعون سنة انقضت ومازلت أذكر ذلك اليوم وكأنه جرى بالامس . في سنة ١٩٤٥ وانا بعد في الثالثة والعشرين من عمري ، وفي الطريق الطويل « غير المسفلت آنذاك » وعن يميني بيد وعن يساري صحارى وبين جدة والمدينة ابتغاء الصلاة بمسجد النبي عليه الصلاة والسلام وزيارته ، بتنا ليلتنا في منتصف المسافة ببلدة مساجيد ، وليس في أعماقي الا نفس مفعمة بحب النبي وقلب يخفق بالشوق أليه . فكيف لا تنبعث نفسي لقرض الشعر ؟ وترنمت على السجية بأبيات استهللتها قائلا :

في بلاد الحبيب خير البلاد
أبعث الشعر من دمي وفؤادي
للرسول الكريم ابذل روحي
وأسوى بها رمال البوادي

ولا جناح في [illegible] المتيم ، ولا جنوح لمبالغة شعرية في هذا المعنى الذي أبديت والذي اكرره اليوم بالصدق نفسه ـ علم الله ـ وانما هو ترجمة خالصة عما تجيش به الاحاسيس تجاه الرسول الكريم . تالله انني لابذل له روحي وأسوى بها رمال البوادي . وانني لاتمثل ذلك المؤمن المقاتل الذي قال للنبي ﷺ وهو يسوى الصفوف للقتال : أوجعتني يارسول الله ! فكشف عليه السلام

عن صفوته وقال له : دونك فاقتد مني ! فتقدم الرجل واشبع جسد رسول الله تقبيلا وهو يقول : انما احببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن اقبل بشرتك !

ولكم اغبط هؤلاء الرهط من الصحابة الذين التفوا حول رسول الله يوم أحد ـ حتى ولو كان الله عاصمه من الناس . . وهو يعصمه ـ وقد اشتد الضرب والكرب وحمي الوطيس ، ووقع ماوقع من غلبة المشركين لحين ، هؤلاء النفر من المؤمنين كالسياج حول النبي . منهم من تلقى الطعنات فجرح ، ومنهم من اخترمه الموت فاستشهد ذلكم هو « الحب الغامر الحالم » الذي استشعره نحوه عليه السلام ، وذلك هو الفداء . ولا غرابة في ذلك . فاذا كنت قد احببت ابي طوال حياته حبا جارفا ـ ومازلت أكنه ـ وحرصت على خدمته خدمة العبد للسيد وودت لو افديه بعمري ، واذا كانت الجنة تحت أقدام الامهات ، واذا كان الايثار الفوار يقوم بين الاخ واخوته وبين الصديق واصدقائه ، أو ليس حبيبنا رسول الله له المقام الاول ؟

وهنا نقطة « دقيقة » لا أسام من وضعها تحت الاضواء .. اضواء وجهة نظري . فلربما يلاحظ على كتاباتي أنني استشهد بين الحين والحين باحاديث النبي حول بشريته وضرورة عدم الغلو فيه مؤيدا بحديثه الشريف « لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم ، فانما انا عبد الله ورسوله » . كذلك لا ارى صواب سؤال الله « بجاه النبي » او التوسل اليه عز وجل بالنبي عليه السلام . « فالوسيلة » في قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا الوسيلة » ٣٥ المائدة ، هي

« العمل الصالح » كما اجمع المفسرون . وبالعمل الصالح وحده ينبغي التوسل الى رب العالمين . وبداية الشرك فى القرون الاولى انما نشأت لدى هؤلاء الذين يعبدون مايعبدون من دون الله ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . أما الوسيلة بمعنى الشفاعة فعن النبى عليه السلام قال « سلوا لى الوسيلة — ولم يقل توسلوا بى — فانها منزلة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله وارجو ان أكون انا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » رواه مسلم . لذلك نبين الدعوات الشرعية بعد رفع الآذان قولنا « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته » . كذلك فانني أندد بحلف احد بالنبى صلوات الله عليه وسلامه ، وذلك من منطلق حديثه الشريف « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » .

هذه خطوط فاصلة ، ولكن فى الوقت نفسه فان منزلة محمد رسول الله عندى لا يكفى أن تعد سيدة المنازل مثلما هو سيد ولد آدم ، فهى فوق الوصف والتحديد . ان النبى ليملأ حبه كل خلجة من خلجاتى . والله أعلم بالسرائر ، قلبى ودمى وفكرى وكيانى . وذلك حق وواجب الايمان « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » ٣١-٣٢ آل عمران . وفى الحديث الشريف « لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه » . وانه لكذلك لدينا ، فعسى الله أن يتقبلنا فى عباده

المؤمنين الصالحين المحبين لرسوله والمتبعين له .

نعم .. مني النفس والروح لو كنت في خدمة رسول الله ، في جملة خدامه وقد كان الصحابة جميعا ـ وهم وأهلوهم فداؤه ـ يسارعون الى خدمة النبي عليه السلام والتشرف و « التبرك » بذلك .

أولم يخدمه ابو بكر الصديق ـ اجل الصحابة قدرا ـ طوال رحلة الهجرة وماقبلها ومابعدها ؟

كما أن النبي عليه السلام كان له خدامه المتفرغون لخدمته .

وانني لاعرض هنا لفريق من خدام رسول الله لنتبين علو مكانتهم في الاسلام وبين المسلمين . وكيف اقتربوا منه ـ عليه السلام ـ وتفانوا فيه وسعدوا به وسمعوا منه ورددوا عنه ، وطابت ذكراهم وأمدونا بذخيرة نضيرة من الاحاديث النبوية الشريفة ومن السيرة .

نذكر من بينهم أنس بن مالك الانصارى الذى خدم النبى ولازمه طوال اقامته بالمدينة ، فما عاتبه النبى على شيء قط . وكان انس يعد أحسن الناس صلاة فى سفره وحضره حتى قيل : ما راينا احدا اشبه صلاة برسول الله من انس بن مالك . وهو من مشاهير وثقاة رواة الاحاديث النبوية الشريفة ، وله فى صحيحى البخارى ومسلم وحدهما ثلثمائة وثمانية عشر حديثا مرجعا شرعيا .

ويروى أن أم انس بن مالك حين عهدت به صغيرا الى رسول الله سالته أن يدعو له فقال عليه السلام « اللهم أكثر ماله وولده ، واطل عمره ، وبارك له » فكانت دعوة مستجابة . أفاء الله عليه بزينة الحياة الدنيا من

وفرة المال والبنين ، وطال عمره حتى قيل انه آخر من مات من الصحابة فى سن تجاوزت التسعين .. رضى الله عنه .

ونذكر من بينهم بلال بن رباح الحبشى « المؤذن الخاص» للنبى .. وهو أول المؤذنين واشهرهم . وقد اعتزل « الآذان » بعد وفاة النبى وتفرغ للجهاد ، وان لم يفته جهاد وغزوات مع النبى عبر حياته .

ونذكر من بينهم عبد الله بن مسعود وهو من ائمة الصحابة . وكان النبى قد اناط بابن مسعود ان يأخذ ويحفظ القرآن عنه ، كما كان يحب عليه السلام أن يقرأ عليه عبد الله ماتيسر من آى الذكر الحكيم لرخامة صوته. وهو ايضا من فطاحل رواة الاحاديث الشريفة ومبلغيها وله فى البخارى ومسلم وحدهما مائة وعشرون حديثا عنه . عن رسول الله عليه السلام .

ومن بين « خدم » رسول الله أيضا المقداد بن الاسود وهو صحابى من السابقين بالاسلام « قيل هو ثامن من أسلموا » ، وشهد « بدرا » ، وكان هو الوحيد فيها الذى يركب فرسا ، وهو القائل للنبى فى هذه المعركة المصيرية القولة الشهيرة « يارسول الله . امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون ! ولكن اذهب انت وربك فقاتلا وانا معكما مقاتلون » .

ونذكر أيضا المغيرة بن شعبة الذى أحصوه بين طليعة دهاة العرب . وكان بمنزلة السلحدار « أى حامل السلاح » بين يدى النبى . وفى يوم الحديبية وقف على رأس رسول الله فى خيمته رافعا السيف مستعدا

ومحذرا . وحين هم عروة بن مسعود ـ سفير قريش فى الحديبية ـ بالامساك بلحية النبى على عادة بعض العرب خلال الحديث ، قرع المغيرة يد عروة بقائمة السيف قائلا : اخر يدك عن لحية رسول الله قبل الا تصل اليك !

ومن بينهم قيس بن سعد الأنصارى وكان مفرط الطول كأنه من باسقات النخيل ! وروى البخارى أن قيسا كان من النبى بمنزلة صاحب الشرط « أى الياور .. بلغتنا » من الامير .

ومنهم ربيعة بن كعب . وفيه جملة قالها النبى عليه السلام أحسبها باتت « متوارثة » اذا سال مسلم مسلما أن يدعو له أو التمس منه أن يذكره بدعاء طيب فوق جبل عرفات . هذه الجملة التى هى من جوامع الكلم والحكم قوله عليه السلام « أعنى على نفسك بكثرة السجود » . ولنسمع « القصة الحلوة » من أولها ومن صاحبها .

يقول ربيعة بن كعب : كنت اخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاري كله حتى يصلى عشاء الآخرة فاجلس ببابه اذا دخل بيته اقول لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة . فما أزال أسمع رسول الله يقول « سبحان الله وبحمده » حتى أمل فأرجع ، أو تغلبني عيناى فأرقد فقال لى يوما ـ لما يرى من خدمتي اياه ـ « يا ربيعة ابن كعب ! سلنى أعطك ! فقلت : أنظر في أمرى « اى افكر » يارسول الله ثم اعلمك ذلك . ومضى ربيعة قائلا : ففكرت فى نفسى فعرفت ان الدنيا منقطعة وزائلة ، وأن لى فيها رزقا يأتينى ويكفينى . فقلت اسأل

رسول الله لآخرتى فانه من الله بالمنزل الذى هــو به . فجئته فقال : ما فعلت ياربيعة ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، اسالك أن تشفع لى الى ربك يوم القيامة فيعتقني من النار . فقال عليه السلام : من امرك بهذا يا ربيعة ؟ قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أمرنى به أحد . ولكنك لما قلت سلنى أعطك وكنت من الله بالمنزل الذى أنت به نظرت من امرى فقلت اسال رسول الله لآخرتى . ثم اردف ربيعة راويا : وصمت رسول الله طويلا ثم قال لى « فاعنى على نفسك بكثرة السجود » !

ومن بينهم « ذو مخمر » الذى بعث به النجـــاشى « المسلم » ملك الحبشة ليخدم النبى محبة فى رســول الله واكبارا ، فقد كان ذو مخمر ابن اخ النجاشى وقد اسلم معه . ولذى مخمر حكاية طريفة اتوقف معهــا هنيهة لازجى السكينة والطمانينة فى قلوب من تفوتهم صلاة الفجر شريطة الا ياتى هذا الفوات عن سبق الاصرار والترصد ، والكسل المتعمد !

يقول ذو مخمر انهم كانوا مع النبى فى سفر فاسرع السير ـ لقلة الزاد ـ فقال له قائل : يارسول الله لقد انقطع الناس ! فجلس عليه السلام وجلس الناس معه حتى تكاملوا ، فقال قائل : هل لكم أن نهجع هجعة ؟ فوافق النبى وسال عليه السلام : من يكلؤنا الليلة ؟ « اى يحرسنا ويوقظنا لصلاة الفجر » . فقال ذو مخمر : أنا جعلنى الله فداك . فأعطاه النبى خطام ناقته وقال : هاك ، ولا تكونن لكعا ! فاخذ ذو مخمر بخطام ناقــة النبى وخطام ناقته غير بعيد ، وخلى سبيلهما ترعيان . وانه لكذلك ينظر اليها اذ أخذه النوم فلم يشعر بشىء

حتى وجد حر الشمس على وجهه ! فاستيقظ واستعاد الناقتين . حتى أتى أقرب الناس اليه فأيقظه فسأله : أصليت ؟ قال ذو مخمر : لا ! فأيقظ الناس بعضهم بعضا حتى استيقظ رسول الله عليه السلام ، وتوضأ ، وأمر بلالا فأذن ثم قام عليه السلام فصلى ركعتى السنة قبل الصبح فى غير عجلة . ثم أمر بلالا فاقام الصلاة فصلى عليه السلام فى غير عجلة . وبعد أن قضيت الصلاة سأله سائل : يارسول الله أفرطنا ؟ قال عليه السلام : لا ! قبض الله أرواحنا وردها الينا ، وقد صلينا !

هؤلاء بعض من أحبوا رسول الله وخدموه فى حياته . وكل الصحابة فعلوا مثلهم .

فهل بقى لنا فى كأس خدمته بعض الثمالة ؟

ان الكأس المطهرة مليئة تبقى وتتجدد ، وينابيعها تفيض وتخلد ولا تنفد !

نحن فى خدمة رسول الله ــ بل فى خدمة أنفسنا ــ بحبه ذلك الحب الذى ينعش شغاف القلب بغير مزاحم، وبالصلاة والسلام عليه ما ارتفع صوت باسمه وما استرجعنا مواقفه ومنزلته وذكراه وذكره فى خاطرنا . نحن فى خدمته باتباعه والحرص على سنته الشريفة .

ونحن فى خدمته ــ أساسا وكما يحب ربنا ويرضى ــ بنصرة دينه الحق الذى بعثه به ربه وربنا ورب العالمين لخير الدنيا والآخرة ، بالعلم والعمل ، بالتوادد والتراحم والتكافل ، بالتعاون على البر والتقوى لا الاثم والعدوان. فلا نغدو بعده أعداء يضرب بعضنا رءوس بعض ، ولا

مستضعفين نستخذى الى « الدنيــــة » فى ديننـــا ومعاشنا .(*)

وودت أن نأسو جراحنا النجلاء لا أن ننكأها ، وأن نرتفع فوق اليأس وأن نعبر الاحزان « ولا أكتمها فالنفس مفعمة بها ولا أزيد » لكى نجتمع على كلمــة سواء وأعمال سوية .. فهل نحن فاعلون ؟

ولكم قيل اننا محتاجون الى « زعقة نبى » حتى لتحقق « المعجزة » . ووالله ان سيد الانبياء والمرسلين «ليزعق» فينا بهديه ودينه القويم وسبيله المنجى والمؤدى — اذا غيرنا ما بأنفسنا من وهن — الى العزة المنشودة .. فهل نلبى ؟

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنـــافقين لا يعلمون » ٨ المنافقون .

وقانا الله شر النفاق والشقاق وسيىء الاخلاق وسوء المنظر والمنقلب . وقيض لنا من البصــــيرة والفطنــة والايجابية مايسدد خطانا .

من هم الصحابة ؟!

لكم أغبط صحابة النبى صلى الله عليه وسلم واعرف قدرهم وفضلهم . انهم همزة الوصل الينا . هم تربوا فى جامعة النبى ونبتوا فى روضته . تنزل الوحى وهم شخوص آية بعد آية وسورة عبر اخرى وهم فى منزل الوحى يؤمنون ويتعبدون بما يتنزل ، يخاطبون فنخاطب نحن من خلالهم . ويتساءلون فيجيب الله ـ سبحانه ـ فى قرآنه بالاحكام الشرعية الفاصلة . ان جهادهم فى سبيل الله انما نهضوا به تحت قيادة النبى عليه السلام . وان التوجه بالامر والنهى صدر منه اليهم ، والحوار جرى بينه وبينهم ، والاحاديث الشريفة هم سامعوها منه وحافظوها ورواتها الينا . هم عزوة الاسلام وهم نواته ولولاهم ماانتشر فى العالمين . الم يدع النبى ربه : اللهم أن تهلك هذه العصابة فلا تعبد فى الارض ؟ الم يطالبهم أن يبلغ الحاضر منهم الغائب . وكنا نحن الغائبين فى أرحام الغيب . وأشهد انه صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ ، وانهم رضوان الله عليهم قد أوصلوا البلاغ وقد عزروه وناصروه ، ولنفعل مثلما فعلوا . حتى ضعفهم الانسانى الذى كان يعفو عنه عليه السلام قد « يؤنس » ضعفنا ويواسيه فنتوب عنه كما تابوا ، عسى الله أن يعفو عنا !

ومن القراءات فى السيرة النبوية المطهرة ، وفى عدد

من كتب التراث ومن نهج نهجها أو أستلهمها أو أوضحها برؤية مستنيرة ، وفى كتب أكثر تخصصا عن الصحابة والطبقات الكبرى الخ وجدتنى مشدودا الى هـــذه النخبة التى أرست قواعد المجتمع الاسلامى فى مطلعه والفيتنى حين أطالع عنه عليه السلام اطلع عليهم ، وحين اقلب صفحاتهم انعم بفصول نسجها القرب والحب للنبى عليه الصلاة والسلام .

« محمد رسول الله والذين معه اشداء على الـكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السـجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما » ٢٩ الفتح .

ولقد كرم الله صحابة النبى بذكرهم فى مواضع شتى من القرآن الكريم .

منها قوله سبحانه « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضـــاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجا من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم . يايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ١١٧-١١٩ التوبة .

ومنها « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم

وانفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » ٧٢ الانفال .

ومنها « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » ١٠٠ التوبة .

ومنها « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ٨-٩ الحشر .

ومنها « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيما » ٢٣-٢٤ الاحزاب .

فمن هم الصحابة ؟

هل هم - كما يعرفهم البخارى - « كل من صحب النبى عليه السلام أو رآه ولو مرة واحدة » ؟

ويلوح أن هذا التعميم الواسع يأخذ أو يركز على العامل الزمنى .. اى المعاصرة . ولست أجسر على اتهام هذا التعريف بالتسطيح ، ففى الحق أن كل مسلم حسن اسلامه وأولى شرف رؤية النبى عليه السلام ولو بعض ساعة قد يستحق فى زمانه هذا التشريف وهذه المكانة .

ولكن العامل الآخر الاقوى الذى هو ادنى الى الدقة والصحة هو طول الصحبة وتكرار المجالسة سواء روى عن النبى عليه السلام كثيرا أو قليلا ام لم يحدث عنه حديثا واحدا ، وذلك كله مع بديهية حسن الاسلام والاستقامة والتمسك بكرامة الصحبة والدين والسنة حتى النهاية .

والصحابة طبقات واقدمية ـ ولا مندوحة من الطبقات ـ وفقا للسبق ، حيث يتقدمهم الذين اسلموا بمكة كالخلفاء الراشدين الاربعة ، واصحاب دار الندوة . فمهاجروا الحبشة ، فأصحاب العقبة الاولى ثم الثانية، والمهاجرون الأولون الذين ادركوا النبى عليه السلام فى « قباء » قبل دخوله المدينة المنورة ، فاهل بدر ، فالمهاجرون بين بدر والحديبية ، فأهل بيعة الرضوان ، فالمهاجرون بين الحديبية وفتح مكة ، فالذين اسلموا مع الفتح ، فالصبيان والاطفال الذين رأوا رسول الله فى فتح مكة وحجة الوداع . وقد يتأتى أن يشارك عدد من هؤلاء فى هذه المواقع جميعها او بعضها . ولا تلت احدا منهم من عمله شيئا !

وقيل ان افضل الصحابة العشرة المبشرون بالجنة ويتصدرهم الخلفاء الراشدون الاربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. والستة الباقون أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسعيد ابن زيد وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . ثم أهل بدر .. اى المسلمون الذين شهدوا غزوة بدر ، ثم غزوة احد ، ثم الذين بايعوا النبى فى بيعة الرضوان . ويستدل على منزلة أهل بدر فيما يروى عن أن عمر بن الخطاب

غضب من موقف يستحق الغضب ارتكبه حاطب بن أبى بلتعه ـ وكان من أهل بدر ـ حين أبلغ قريشا أن الفتح وشيك ، وعفا عنه النبى عليه السلام اذ قدر موقفه وحسن نيته فى حين ثار عمر وقال : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ! فابتسم عليه السلام لحماسة عمر وقال له : وما يدريك ياعمر .. لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم !!

حتى تفضيل المهاجرين على الانصار رغم سبق الاولين وكون ذكرهم يتقدم فى القرآن الكريم هو تفضيل « نظرى » فأمر الجميع موكول لله عز وجل . والاولى هو المؤاخاة بين المهاجرين والانصار كما قضت حنكة النبى عليه السلام .

ومن المشاهد الخالدة المؤثرة فى أعقاب فتح مكة وبعد تصفية جيب حنين وحصار الطائف هذا الحوار الحكيم البليغ الذى دار بين رسول الله وبين الانصار الذين أوجدهم وأحزنهم توزيع الفيىء والغنائم .

يقول النبى : يامعشر الانصار ما الذى بلغنى عنكم وماذا وجدتموه فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قال الانصار : بلى ! الله ورسوله أمن وافضل ! فيعود النبى يسألهم الا تجيبونى يامعشر الانصار ؟ قال الانصار: بماذا نجيبك يارسول الله ولرسوله المن والفضل ؟

ثم بعد هذه المقدمة النبوية الذكية يصل عليه السلام الى اللب المستهدف ليطيب خاطرهم ويثلج صدرهم ويؤكد اعتزازه بهم فيرد عنهم ويقول عليه

السلام : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! أوجدتم «أحسستم بمضض» في لعاعة « شيء يسير » من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟! الا ترضون يا معشر الانصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرءا من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار !

ويبكي الانصار ويتهدجون : رضينا برسول الله قسما وحظا !

حوار يهزنا هزا . ومعالجة عظيمة شافية بأسلوب خارق ، وأمانة والهام نبى !

ولقد أضيف الى ماهو وارد فى طبقات الصحابة التى أسلفت الاشارة اليها ـ أضيف تقسيما بينهم يتعلق بنهاية آجالهم . فثمة قسم من الصحابة اما أستشهد أو قضى نحبه خلال حياة النبى عليه السلام . وقسم ثان عاشوا من بعده وحضروا عهد أبى بكر ... وكان من أستشهد منهم فى حروب الردة واليمامة عدد كبير ، أو امتد بهم الاجل فاستشهدوا فى فتوحات عمر بن الخطاب ، أو عاشوا حتى خلافة عثمان ولقوا وجه ربهم خلالها . أما القسم الثالث فأولئك الذين عاصروا الايام الاخيرة للفتنة الكبرى وحصار عثمان بن عفان قبل مقتله، ثم خلافة على بن أبى طالب .. هؤلاء هم المبتلون

والممتحنون حقا بسؤال صعب : أين موقعهم على خريطة الخلافات ؟ بعضهم حارب مع علي بن أبى طـــالب كرم الله وجهه ، والبعض الآخر طالب بالثأر لدم عثمان فكان من حيث يريد أو لا يريد فى صف معاوية وفى مواجهة على . أما الفريق الثالث من هؤلاء المبتلين فقد نأى بنفسه عن النزاعات التى شقت عليه . ربما راقبها ، ولكن لم يشارك فيها ، وآثر أن يتفرغ للعبادة ! رحم الله الجميع ورضى عنهم وغفر لهم .

ابو بكر الصديق

« الصحبة يارسول الله » ، لم تكن مجرد كلمات مبتهلة مستجابة . بل كانت بالفعل مفتاح شخصيته مثلما هي منتهى امله ! نعم ، فبهذه الكلمات ، بالصحبة التي كرس لها حياته اخذ أبو بكر الصديق يناشد رسول الله عليه الصلاة والسلام اذ أسر اليه بعزمه على بدء هجرته من مكة الى المدينة . وحقق ـ عليه السلام ـ امنيته ، ووعده بها ! بل ان النبي قد واقع الامر ما نوى وما اراد أن يحظى بصحبته في الهجرة أحد سوى أبي بكر . واذ راح النبي يرسم الخطة ويلهمه الله بأن يجعل عليا يبيت في فراشه لخداع المشركين المتآمرين ، مضى أبو بكر بعد « الترتيبات الادارية » فابتاع راحلتين واحـــدة للحبيب المصطفى والثانية له . وكانت « الوثبة الاولى » الى غار ثور القريب للاختباء به معا عن عيون القوم . وقد وجه أبو بكر أبنه عبد الله لتزويدهما بالأنبـــاء ، وابنته أسماء ذات النطاقين لحمل الطعام اليهما . كان أيمان أبي بكر وموهبته وأسرته لتوثب جميعهـــا لاتصال الصحبة . صحبة لا يبقى أن يسعد ويشرف بها فحسب بل هي تنبعث من اجل خدمة وتأمين الرسول والرسالة ، فروحه لهما فداء ! وهو يبدي من ضروب الشـــجاعة والتعلق ، وحميد الاشفاق والقلق ، ماينزل الله فيـــه قرآنا يتلى أبد الآبدين ، ويشهد الله سبحانه لأبي بكر بالصحبة ! وكفى بالله شهيدا ! « الا تنصروه فقـــد

نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . حتى أنه مما قد يذكر في هذا المقام أنه بعد وفاة النبي عليه السلام توجه البعض الى أبي عبيدة بن الجراح وكانت انفسهم تحدثهم بمبايعته للخلافة . فقال لهم : أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة ؟ قيل : وما ثالث ثلاثة ؟ قال : الم تروا الى الآية « اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا » . ٤ التوبة مشيرا الى آن ابا بكر قال للنبي وهما في الغار والمشركون محيطون به : لو أن أحدهم ينظر الى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ! فأجاب النبي : وما ظنك باثنين ... الله ثالثهما ؟

ويشهد الله والمؤمنون والتاريخ أن أبا بكر منذ أن دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فكان أول من أسلم من الرجال وأول من صلى ، وهو أقرب الناس اليه وأغزرهم حبا وأشدهم ولاء وأصدقهم وفاء وأحرصهم صحبة . كان كلفا برسول الله بغير أي تكلف .

ولكونه حتى في جاهليته صدف عن عبادة الاصنام والحفاوة بالاوثان ، وازورت نفسه عن أن ينساق مع جهالات المشركين ، ولانه عرف محمدا قبل البعثة ولمس الى أي حد هو الصادق الامين بحق ، فقد بدأ ابو بكر مهيأ من السماء لان يستجيب على الفور لرسالة السماء التي نزلت على محمد . فلا غرابة اذن أن يقول النبي عليه السلام « ما دعوت أحدا الى الاسلام ألا كانت عنده فيه كبوة

ونظر وتردد الا ماكان من أبى بكر بن أبى قحافة ماعكم « انتظر » حين ذكرته وما تردد فيه .

انسان مفطور على السماحة والوداعة ورجاحة العقل والجود ورقة الطبع . يقول عنه النبى عليه السلام : ارحم امتى بامتى ابو بكر ! ولكنه ما كان يترخص قدر شعرة فى حق أو امر أو حكم لله ولرسوله . انه جمع بين بشاشة الايمان وحرارته وصلابته !

ثلاث عشرة سنة قضاها فى مكة جنبا الى جنب مع رسول الله يدعو لدين الله ويتحمل الاذى والمكاره ويصد عن المسلمين القلائل عدوانية المشركين . كان قبل اسلامه ذا تجارة واسعة رابحة وبلغت مدخراته اربعين الف درهم ، وظل من ناحيته يستثمر تجارته التى تعود عليه بالربح الوفير ، ومن ناحية أخرى يبذل ماله فى سبيل الله والدعوة . ولكم انفق وهو يفتدى ارقاء أسلموا فعذبوا فهب يعتقهم ويحررهم ، وكان من اشهرهم بلال ابن رباح مؤذن رسول الله عليه السلام . فماذا بقى له بعد هذا كله حين هاجر الى المدينة مع رسول الله ؟ بقى له من ماله خمسة آلاف درهم ! ولم يخسر مافقده ، بل ظفر برضاء الله ورسوله ... وانهـا لتجارة لا تبور !

ولعله من طريف ما استطرد اليه فى هذا السياق أن أبا بكر الصديق فى أول عهده بالخلافة اصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته اثواب يتجر بها ، فلقيه عمر ابن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق ! قالا : تصنع ماذا وقد وليت امر المسلمين ؟ قال : فمن اين اطعم

عيالى ؟ قالا : انطلق حتى نفرض لك شيئا ! فانطلق معهما فجعلوا له من بيت المال ستة آلاف درهم في السنة وقال ابو بكر : قد علم قومى أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وساحترف للمسلمين فى مالهم ، وسيأكل آل ابي بكر من هذا المال ! فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فانى لا أصيب من هذا المال شيئا ! وأن أرضى التى بمكان كذا وكذا هي للمسلمين بما أصبت من اموالهم .

فقال عمر : لقد أتعب من بعده ! ونقول نحن : أين في الناس والحكام مثل ابى بكر الصديق .. رضى الله عنه .

ولكم اتصلت مواقف عديدة استحق معها أبو بكر أن يلقب أبا بكر « الصديق » . غير أن هذه التسمية أطلقت عليه ، ومن ثم حملها مدى الدهر ، منذ مرحلة مبكرة وموقف مشهود .

ففى ذات يوم خطير ذى شأن سرى نبأ فى مكة جعلها تعج بسخرية بالغة بين المشركين وبلبلة راجعة بين المسلمين ، بل أخذت تنكب وتتنكب بارتداد عدد من المسلمين عن دينهم ! وجاء النبأ الى أبى بكر . قيل له أن صاحبك يزعم انه أسرى به الى بيت المقدس ثم عاد الى مكة فى ليلة واحدة ! فماذا كان رد الفعل «الغيابى» لدى أبى بكر وانطباعه الفورى قبل أن يستوثق من نسبة هذا القول الى النبى عليه السلام ؟ قال ابو بكر : انكم تكذبون عليه ! قالوا : بلى هاهو ذاك فى المسجد يحدث الناس بذلك ! قال أبو بكر وقد لاحظ أصرارهم وتأكيدهم :

والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! انه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الارض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ! وهرع أبو بكر الى المسجد وانصت الى النبي وهو يصف بيت المقدس الذي كان أبو بكر قد زاره وعرفه . فما أن فرغ النبي من وصفه لبيت المقدس ومن حديثه عن الاسراء حتى قال أبو بكر : صدقت يارسول الله ! هكذا بلا أدنى تردد ولا ارتياب .

وكما يؤيد الله رسوله بنصره وملائكته أيده ـ سبحانه ـ بأبي بكر الذي حسم الموقف وأعاد اليقين الى المهتزين فزادهم الله تثبيتا .

هكذا مكانة أبي بكر في الاسلام وفي الصحبة ... صديقا وناصرا وثقلا كبيرا !

أنني لست اتناول هنا تفاصيل حياة أبي بكر ولا اؤرخ له . انما احاول بجهد المقل وبشغف المحب أن ألثم يده واقبلها تقبيلا ! أن أقول كلمة حب فيه وامتنان له . أن أقف على بعض من أسرار هذه الطاقة العظمى المثالية التي تجيش بالتفاني في حب رسول الله عليه الصلاة والسلام عسى أن نتعلم منها بعض الشيء . عسى أن تجذبني الى مجالها المغناطيسي الفذ فاسبح في فلك ذرة صغيرة !

ربع قرن من الزمان وهو يلازم النبي . ثلاث عشر سنة في مكة ، ثم ليالي في الهجرة ثم عشر سنين في المدينة المنورة . ثم نحو سنتين واربعة اشهر وهو خليفة رسول الله ، وكأنما هو خلالها لم يفارقه أيضا !

ومالي اقصرها على ربع قرن وهي باقية مابقي الزمان

او لم يقل فيه رسول الله عليه السلام « اني لا اعلم احدا في الصحبة يدانيه . واني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة واخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده » !

وفي المدينة المنورة يتصل بينهما النسب .. واي نسب ! ابنة أبي بكر البكر عائشة تزف الي رسول الله عليه السلام ، فتصبح أم المؤمنين ، وافقه النساء على الاطلاق واحب أزواج النبي اليه . روت عن النبي عددا هائلا من الاحاديث ، ولها في الصحيحين ثلثمائة وستة عشر حديثا .

وفي الحقبة الحاسمة بالمدينة المنورة هل كان يمكن وابو بكر من هو ايمانا وجهادا وبذلا وقربا الا أن يغدو في طليعة من يشارك ويشهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ؟ ولازال يتردد في سمع الزمان ابتهال النبي ودعواته لرب العالمين في بدر يوم التقى الجمعان « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ! ويلح في الدعاء حتى يسقط عنه رداؤه ، ويرد أبو بكر رداء النبي على منكبيه ويهتف به هتافا لازال هو الآخر يرن كصدى الصوت الذي يفيض ايمانا بالله وجزعا على رسوله « يانبي الله ! بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ماوعدك ! » .

وفي الحديبية لزم أبو بكر الصديق — بتسليم ورجاحة عقله — حكمة رسول الله في العهد الذي أبرمه مع قريش ولم يرحب به كثيرون — ومنهم عمر بن الخطاب — حتى نزلت سورة الفتح بأن عهد الحديبية صنو وسبيل الفتح المبين ، وهو ماتم بالفعل ..

ويجيىء عام الفتح ويتيسر الحج الى بيت الله الحرام وكما يقول ابن عمر : استعمل النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر على الحج وامره « بتشديد الميم » فى أول حجة كانت فى الاسلام ، ثم حج رسول الله فى السنة التالية حجة الوداع .

وعندما مرض النبى عليه السلام فى العام العاشر للهجرة واشتد وجعه قال : مروا ابا بكر فليصل بالناس . ولما ثقل عليه المرض أكثر وأكثر قال : ائتونى فاملى كتابا لابى بكر حتى لا يختلف عليه ! على انه مالبث ان عدل عليه السلام واجلس من هم بأن يأتى بالكتاب الذى سيمليه وقال : اجلس ! ابى الله والمؤمنون أن يختلف على أبى بكر !

وعندى أنه على وفرة الكلمات الحميمة التى أثنى بها النبى على أبى بكر فان هذه الشهادة هى فصل الخطاب ومسك الختام فى اعزاز وتأكيد قدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وكما لم يصدق أول الامر بعض المسلمين فى حياة النبى ماحدث به عن اسرائه الى بيت المقدس فى حين صدقه أبو بكر على الفور وقطع دابر البلبلة ، فمرة أخرى لم يصدق بعض المسلمين أن النبى عليه السلام قد مات . وشبت البلبلة الكبرى والفتنة حتى تصدى — كالعادة — أبو بكر الصديق فقال كلمته الشهيرة : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ! وتلى قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » ١٤٤ آل عمران فخشعت

الاعتراضات والقلوب فلا تسمع آلا تسليما ينشج بالبكاء وكان عمر بن الخطاب أقوى المعترضين وغير المصدقين بوفاة النبى ، فما لبث أن امتثل وبات أشد الباكين .

وعلى قصر الفترة التى قضاها أبو بكر فى خلافته فقد كانت جد حافلة . هو ـ كما أذاع وعاهد فى خطبة الخلافة ـ متبع لرسول الله وليس بمبتدع . أقوى الناس عنده الضعيف حتى يأخذ له بحقه . وأضعفهم عنده القوى حتى يأخذ منه الحق ! غير أن قصارى ما استخلف من أجله وتبتل فيه هو الالتزام بأحكام كتاب الله وسنة رسوله .

ومنتهى العدالة ومنتهى الرحمة ومنتهى الزهد والورع ، ولكن منتهى الصرامة والغيرة فى الحفاظ على دين الله .

خلافة تاريخية فى فترة انتقالية حرجة ومصيرية ، واذا كان بعض المتربصين والذين فى قلوبهم مرض ومن فى الفتنة سقطوا قد شرعوا يشيعون التوتر والاضرابات والقلاقل فان أبا بكر كان لها بعزمه ومسئوليته وبراعته وعبقريته فنهض وتصدى بكل قوة وحسم وايمان الصديقين الابرار .

يكفى أن التاريخ الاسلامى يسجل لهشجاعتهوحصافته وتصميمه وانتصاراته على المرتدين ومانعى الزكاة وقضائه على المتنمرين والمنشقين والطامعين قضاء مبرما فى حروب الردة التى استمرت فى عديد من اركان الجزيرة العربية حتى رد كيدهم فى نحورهم . فما هدأ وقر عينا حتى استقرت الامور وتثبتت دعائم دين الله فى جميع الارجاء ثم مهد بفتوحاته للامبراطورية الاسلامية .

ولانه موعود « بالاولوية » دائما ، فهو أولَ من صلي في الاسلام واول من اقام للناس حجهم في حيـــاة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، واول خليفـــــة للمسلمين ، وأولَ وأولَ .. فهو أيضا أول من جمـــع القرآن الكريم من صدور القراء عندما خيف عليهم مع تناقص عددهم أذ استشـهد منهم من أستشـهد في حروب الردة . وهل هناكَ ماهو اعظم جـــــــلالا من جمـع القرآن ؟!

وفي مثل سن النبي عليه الصلاة والسلام « ٦٣ سنة » عندما لحق بالرفيق الاعلى ، يحتضر أبو بــكر الصديق . وتقف عائشة الى جواره فتتمتم ببيت شعر باكَ من مأثورات حاتم الطائي :

لعمرك ما يغني الثـــراء عـــن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فينظر اليها الصديق بين الحنان والغضب ويقول : يابنية ! ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن قولي « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد . » ١٩ ق .

حتى وهو يحتضر فان « الصحبة » حاضرة لا تغيب عن خاطره ، وطفق يوصي عائشة أن يدفن الى جنب رسول الله عليه الصلاة والسلام . فلما توفي الصديق حفر له وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ، والصق اللحد بقبر الرسول عليه السلام فقبر هناكَ .

وبعد

فعندما قبض ألنبي صلى الله عليه وسلم قصد ابوبكر الى بيت عائشة فاستأذن ليدخل ، والفى النبى مسجى في ناحية من البيت ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ،

ثم انحنى يقبله وقال : ما اطيبك حيا ، وما أطيبك ميتا !

ومنذ ذلك الحين فلكم استعيرت هذه العبارة ورددت في رثاء الراحلين وما فتأت تقال وتكتب . والصديق قائلها هو أولى الناس بها بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

نعم يا أبا بكر ! ما اطيبك حيا ، وما اطيبكَ ميتا ! وجزاكَ الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء !

عمر بن الخطاب

المسجد الذى اختلف اليه بحكم المتاخمة كان الأذان فيه يرفع من الحجرة المجاورة حيثما احل فى بيتى ، او كان المؤذن يقيم الحجة على هل البى سرعة الصوت والضوء بسرعة الاستجابة والسعى !.. هذا المسجد الذى اختلف اليه يحمل اسمه .. عمر بن الخطاب ! ولست أعتقد أن احدا من المسلمين او غير المسلمين يختلف على عمر بن الخطاب وعلى شخصيته الفذة ومكانته البارزة حتى أن العالم المؤرخ ليتل هارت عندما اصدر منذ أعوام كتابه الشهير عن الخالدين المائة فى تاريخ البشرية وكان على رأسهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يذكر من العرب والمسلمين بين المائة احدا آخر سوى عمر بن الخطاب الذى جاء ترتيبه الحادى والخمسين فيما يرى هو !

واذا كنت اشعر بالامتنان للموقع العمرانى الذى جمعنى بمسجد عمر بن الخطاب ، فأى امتنان عظيم هذا الذى يحمله المسلمون جميعا لموقع عمر نفسه واثره فى دين الله ؟! لا جرم أن دعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام التى فتحت لها أبواب السماء والتى هيأت لها الاسباب والاجابة كانت « منعطفا تاريخيا » فى السنة السادسة للبعثة المحمدية ، وكانت الدعوة « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب » !

كان عمر بن الخطاب ذا حمية وشكيمة وقوة فى الجاهلية يهابه الناس ويحسبون حسابه ، وكان مكابرا ومتحازا مع قومه ضد دعوة النبى عليه السلام حتى أنه كاد يبطش بأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد اذ فوجىء باسلامهما وبصحيفة فى ايديهما يبغى انتزاعها فما مكناه منها الا أن يغتسل ، فقد كان مخطوطا بها آيات كريمة من سورة طه . وانصاع الجبار واغتسل وتطهر لا ليشفي حب استطلاعه فحسب ولكن بالدرجة الإولى لان الله سبحانه وتعالى الذى ادخره لمنزلة سامية يبلغها أراد أن يشفي صدره ويغسل روحه ويخلقه خلقا جديدا ! وطفق يقرأ السورة حتى اذا بلغ قوله تعالى « انني أنا الله لا اله الا انا فاعبدني » ١٤ طه تمت كلمة الله وانقشعت الغشاوة وتحرك الايمان الكامن ورق القلب الذى انفتح وانشرح للاسلام . وهكذا ذهب الى النبى يشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ! وهلل المسلمون فقد أجيب الدعاء النبوى وأعز الله الاسلام بعمر بن الخطاب . وقد قيل انه نزل فى اسلام عمر قوله تبارك وتعالى « يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

أما أن اسلام عمر — كما قال عبد الله بن مسعود — كان فتحا ، فهذا ترجمة لواقع الحال . فقد أمكن بعد اسلامه — والمسلمون بعد حفنة قليلون — أن تنتقل الدعوة من السر الى الجهر . وبعد أن كان يحال بين المسلمين وبين الصلاة بالبيت العتيق ، فما أن أسلم عمر الا وقد شاحن المعترضين وقاتلهم وأرهبهم حتى خلوا بين المسلمين وبين صلاتهم فى البيت الحرام . ويضيف

صهيب الرومى انه « لما اسلم عمر ظهر الاسلام ودعى اليه علانية ، وجلسنا حول البيت جمعا ، وطفنـــا به ، وانتصفنا من غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به » ! .

ونشأت الصحبة وتوثقت أواصر المحبة والقرب بين المسلم ألوافد وبين نبى الاسلام عليه السلام حتى أهله ايمانه وشجاعته وشدته فى الحـــق وشخصـــيته واستبساله فى الدفاع عن دين الله ورسوله وفى تحمل اذى المشركين الى أن غدا بين صحابة النبى عليه السلام فى المرتبة التالية بعد أبى بكر الصديق مباشرة ، وحتى قال عنه عليه السلام « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » .

ومن منطلق الايمان الذى زينه الله فى قلبه ، ومـن الصراحة التى نشأ عليها ، ومن الاحسـاس بذاته التى كانت نسيج وحدها ، ومن رجاحة فكره التى حباه الله بها ، ومن الشورى التى رباه الاسلام وشجعه الرسول عليها ، ومن زهده وعدالته وفقهه .. من كل الخصـــائص العمرية المتألقة نقف مشدوهين أمام ماجاء فى مســند أحمد أن النبى عليه السلام قال « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » !

ولقد شهد عمر المشاهد والغزوات بدءاً من بدر ، ولم يتخلف عن واحدة منها ، وكان كأخيه ابى بــكر ــ وقد آخى النبى بينهما بالفعل ــ ألى جوار رســول الله .

وثمة مسالة تبدو دقيقة ..

فاذا كان ابو بكر قد آمن بالله ايمانا ثابتا كالجبـــال

الراسيات الرواسخ وافنى ذاته فى حب رسول الله واضحت الصحبة عنده اغلى واعز ما يملك ويحرص عليه فان هذه الصفات بعينها كانت من سمات عمر بن الخطاب لولا ماكان يغلب على كل من الصاحبين .. ربما بحكم النسيج النفسى أو فارق السن . فأبو بكر يتسم بالهدوء والتسليم وهو أميل الى الاخذ بالعفو والتسامح ، وعمر مفطور على العنفوان والاندفاع والتشدد مع أن جوانحه تطوى نفسا رحيمة غاية الرحمة بريئة براءة الطفــل الوديع ! وبعبارة اخرى فهذان الصاحبان ــ رجــلا الاقدار وعناية السماء ــ كانا الى جانب رسول الله يكملان بعضهما البعض . وكان هذا الاختــلاف فى التناول يتضح عندما يطرح الرسول عليه السلام مسألة للرأى يستشيرهما فيها . ومن أقوال النبى عليه السلام: أن مثل ابى بكر كمثل عيسى عليه السلام أذ يقــول « أن تعذبهم فانهم عبادك ، وأن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » ١١٨ المائدة ، وأن عمرا مثله كمثل نوح عليــه السلام اذ يقول « رب لا تذر على الارض من الــكافرين ديارا » ! ٢٦ نوح وعلى سبيل المثال ــ وما أوفر الأمثلة ــ ففى أسرى بدر أشار أبو بكر بقبول الفداء منهم فى حين أشار عمر بضرب اعناقهم !

وقبيل أن تحسم قضايا طرحت للرأى ربما خالف عمر النبى عليه السلام . حدث ذلك غير مرة ، ثم يتنزل الوحى بالقول الفصل وقد أيد رأى عمر فى أشياء وخالفه فى أخرى . وكان مايصدر عن عمر يصدر من فــرط حماسه وغيرته على دين الله وحبه لرسول الله عليه السلام . فمن مشهورات حماسة عمر أنه اعترض على

صلح الحديبية وتساءل : السنا على الحق ؟ لماذا نرضى الدنية فى ديننا ؟ حتى نزلت سورة الفتح واعتبرت صلح الحديبية سبيل الفتح . ومن ماثور مواقف الحماسة العمرية أيضا أنه كراهية فى الخمر واحتساء المسلمين لها واتلافها صلاتهم ، مابرح يدعو الله سبحانه: اللهم أنزل لنا فى الخمر بيانا شافيا ! حتى نزل قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ٩٠ المائدة . أنه حقا كما وصفه النبى عليه السلام « أشد امتى فى أمر الله عمر » .

على أن الاختلاف والمشورة انما يردان ويصحان قبل ان يتنزل القول الفصل بوحى السماء وبآيات من القرآن الكريم ، فاذا قضى الله فان عمرا كان أعرف الناس ، وأسرعهم امتثالا لقوله تعالى « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ٣٦ الاحزاب .

ان الذى يمكن ان يكتب عن صحبة عمر للنبى من الوفرة بحيث لا تسعه هذه السطور عن صحابة رسول الله عليه السلام ، أما الذى يروى ويسجل عن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد صدرت ولن تفتأ تصدر فيه مئات الكتب والمجلدات ، وحرى بى أن اتطرق الى طرف منها بوصفها امتداد للصحبة ومن غرسها وتربيتها .

سعد عمر بصحبة النبى أيما سعادة ، وهنا برايه فيه كان يردد « قال النبى صلى الله عليه وسلم كلمة ما احب ان لى بها الدنيا ! » ذلك انه حين استأذنه

عمر في العمرة قال له عليه السلام « لا تنسانا يا أخى من دعائك » !

ولحق نبى الله بالرفيق الاعلى ، وكان أحزن الصحابة عليه احبهما اليه وأخلصهما حبا له وهما أبو بكر وعمر ، ولكن كل بأسلوبه وبطريقته .

وظل عمر الذراع اليمنى لابى بكر فى خلافته ومستشاره الاول . واعتل ابو بكر بمرض المنية فصح عزمه — دون تردد — على أن يستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب بوصية مكتوبة . وسمع البعض بما انتواه ابو بكر فقال نفر منهم : ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر ؟! فقال ابو بكر : أجلسونى ! أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت عليهم خير أهلك !

اى والله ، فان دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يعز الله الاسلام بعمر بن الخطاب كانت بحق دعوة نبى أو كما نقول فى زماننا « زعقة نبى » عندما تظلم الدنيا فى أعيننا ونتلمس مخرجا أو ننشد معجزة نحتاجها . فقد عز الاسلام بالفعل منذ أن أسلم عمر ، ثم كتب الله لهذا الصحابى « الاسطورى » الذى عرض حياته للموت والاستشهاد فى عديد من الغزوات والمواقف أن يسلم ويمتد به الاجل لمواعيد عظيمة مع القــــدر فيتولى أمر المسلمين كأفضل ما تكون عليه الخلافة والحكم ، وينهض الى مهام واعمال مجيدة خالدة عبر عشر سنين بلغت فيها العزة الاسلامية ذروتها دينا ودولة . وكمـا كان ابو بكر الصديق هو الخليفة المناسب فى المرحلة المناسبة ، اعقبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكـ

انسب المؤمنين قاطبة للمرحلة قيادة وسياسة وبسطا لدين الله طولا وعرضا وعمقا وازدهارا بتدبير وارادة من لدن حكيم خبير عز وجل وصدق الله « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » ٥١ غافر .

سبعة كتب على الاقل عن عمر بن الخطاب أعدت قراءتها بينما أعد للكتابة عن عمر بن الخطاب . وبأمانة وصدق فان ثمة بضعة سطور بليغة موجزة وواضحة متبلورة ذكرت عن عمر فى كتاب الدكتور محمد حسين هيكل « الفاروق عمر » ولا استطيع مقاومة اغراء تضمينها هنا :

« فاذا ذكر الناس الزهد فى الدنيا مع القدرة على النهل من نعمها ذكروا زهد عمر . واذا ذكروا العدل المطلق وغير المشوب بشائبة ذكروا عمر . واذا ذكروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس اليه وابعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر . واذا ذكروا العلم والفقه فى الدين ذكروا عمر ودينه .. وقامت الامبراطورية الاسلامية فى عهده .. فقد خلف عمر ابا بكر على امارة المؤمنين حين فرغ أبو بكر من حروب الردة وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام فلما قبض عمر كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت العراق والشام جميعا وقد تخطتهما فاشتملت فارس ومصر . وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وافريقيا من الغرب وبحر قزوين من الشمال والسودان من الجنوب . وقيام هذه الامبراطورية العظيمة فى عشر سنوات معجزة بلا ريب . والمعجزة اعظم قدرا بعد أن تحطمت فارس والروم الامبراطوريتان صاحبتا السلطان

على عالم يومئـذ . وتحطمتا بأيدى العـــرب الذين كانوا الى سنوات قبلها قبائل متنافرة لا تهدأ منازعاتها . ولم تكن الامبراطورية الاسلامية وليدة عبقرية حربيـــة فتبقى الامبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها ، بل كانت قائمة على اساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الاساس » .

وفى الحق اننى حرت ماذا التقط وماذا أدع من قصة واحداث وانتصارات وحكايات خلافة عمر الخصـــيبة المشرقة ، والكثير منها معروف ومتواتر ومتداول ابتداء من قولته « اصابت امراة واخطأ عمر » الى جراته فى عزل خالد بن الوليد وهو فى أوج انتصاره ليدلل عمر على أن النصر ليس رهينا ولا حكرا لفرد أو آخر وانما هو من عند الله وجزاء حسن نوايا واداء المؤمنين .

ومن المفهوم اننى لست أكتب مؤلفا تفصيليا لا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن بعض صحابته رضوان الله عليهم ، والا لما كانت آلاف الصفحات تكفى لذلك . انما اعرض لهم فى سطور قليلة تنسجها المحبة والتقدير والتحية والسلام أكثر مما يتناولها التاريخ والتحليـــل والتعليق .

ولقد ارى أن سر قوة عمر بن الخطاب ربما يكمن فى أن الدنيا كلما اقبلت عليه وفتحت له آفاقها وخيراتها كلما اعرض وزهد فيها وتوجه الى العلى القدير . هذا مكمن القوة فى شخصية عمر . كان متجرداً يخاف الله ويتقيه أشد التقوى فى السر والعلن ، وكان حب رسول الله وصحبته نور ذاكرته وأشواقه ، ومؤنس ضـــميره واعماقه .

قالَ عمر لبعض أصحابه : أيها القوم انى والله أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامى ! وانى والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأرفعكم عيشا ! ولكنى سمعت الله جل ثناؤه عير قوما بأمر فعلوه فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ! ٢٠ الاحقاف .

مرة واحدة أصيب بعير من بيت المال فنحره عمر وارسل الى أزواج النبى منه ، وصنع مابقى فدعا اليه من المسلمين من دعا ياكلون معه . فقيل له يا أمير المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا فاكلنا عندك وتحدثنا ؟! ويتذكر عمر ما كان من أمر رسول الله وتقشفه وما اثر من زهد أبى بكر فيقول عمر : والله لا اعود لمثلها ! انه مضى صاحبان لى « يعنى النبى عليه السلام وابا بكر » عملاً عملا وسلكا طريقا واننى ان عملت بغير عملهما سلك بى طريق غير طريقهما !

راغب هو عن زخرف الحياة التى ازدهرت للمسلمين فى عهده ، وراغب فى أن يأتى الله بقلب سليم . وهو يقول : لولا أن اسير فى سبيل الله ، أو أضع جبينى لله فى التراب ، أو أجالس قوما يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لاحببت أن اكون قد لحقت بالله !

وتقبل عليه ابنته حفصة زوج النبى وأم المؤمنين فتسمعه يتضرع : اللهم ارزقنى قتلا فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيك !

هذا الخليفة الذى كان أعدل وازهد وافقه أهل الارض والذى تمنى الشهادة واللحاق بقرب رسول الله كان ابر على الله من أن يقتله احد المسلمين الذين نعموا وعزوا بفيىء خلافته واتساع وازدهار رقعتها

شرقا وغربا لتمسي اكمل وانقى مجتمع اســلامى فى التاريخ ، ما نبرح نتطلع نحن اليــه بعد أربعــة عشر قرنا . .

انما الذى اغتاله فى السنة العاشرة من خلافته فارسى مجوسي حاقد موتور كان خادما للمغيرة بن شعبة .

ففى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاثة وعشرين للهجرة وبينما أمير المؤمنين عمر يوشك أن يؤم المسلمين فى صلاة الفجر ، وقبل تكبيرة الاحرام ، مرق أبو لؤلؤة المجوسى من بين الصفوف فطعن أمير المؤمنين عمر ثلاث طعنات غائرة بخنجر له نصلان حادان كــان يخفيه تحت ردائه ، فخــر عمــر مضرجا بدمــائه ، واستبد الجزع والاضطراب بالمؤمنين ، فحمل البعض أميرهم فى حين تعقب الاخرون القاتل الذى فر واختبأ فى ركن بالمسجد ، فلما أدركوه طعن نفسه بخنجــره وانتحر .

وحين أفاق عمر من غشيته وهو يكابد جراحه وأوجاعه كان أول ما سأل عنه : هل صلى الناس ؟! فلما أجيب بالايجاب قال أمير المؤمنين داعية الاسلام حتى النفس الاخير : لا اسلام لمن ترك الصلاة . . ثم سأل عن قاتله ، فلما علم بهويته اطمأن وشكر الله وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط: ما كانت العرب لتقتلنى !

ماذا بقى من امنيات لهذا الصحابى والخليفة العظيم المبشر بالجنة ؟

كان عمر بن الخطاب أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولكنه كان أكثر الناس خشية من يوم الحساب رغم هذه

البشرى ، ورغم كل فضائله وأفضاله ، ورغم كراماته وانجازاته . فأخذ يتمتم وقد حضرته المنية : لو أن لى مافى الارض من شىء لافتديت به من هول المطلع ! لم تكن له من امنية الا أن يغفر الله له . على أن نفسه كانت نزاعة الى شىء آخر فى شهوره الاخيرة ، وهو أن يدفن الى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبى بكر ، فاستأذن أم المؤمنين عائشة فى ذلك فاذنت له . لكن عمر هو عمر أبيا نائيا بنفسه عن شبهات استغلال النفوذ وحتى الرمق الاخير . اذ أنه ــ والطبيب يداوى جراحه بغير جدوى ــ بعث بابنه عبد الله الى السيدة عائشة مرة أخرى يستأذنها « فان أذنت فادفنونى الى جوارهما، والا فدعوها وادفنونى فى البقيع ، فانى أخشى أن تكون قد أذنت لى من قبل لسلطانى » ! فلما مات رضوان الله عليه أذنت عائشة ودفن الى جوار صاحبيه .

لقد أعز الله عمر بن الخطاب فى حياته وفى استشهاده وفى ذكراه .. واكرمه بابنه عبد الله بن عمر الذى عرف عنه أنه من أوعى شباب الصحابة ومن حفظة ورواة احاديث النبى عليه السلام . كما حبى الله عمر وخصه بحفيد من أحفاده سار على دربه ونهجه وتولى الخلافة فكان من أزهد واعدل الناس طرا .. الا وهو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « الاموى » الذى ينعته التاريخ والمسلمون بأنه خامس الخلفاء الراشدين !

عثمان بن عفان

في سنة ١٩٣٩ وكنت بعد في مطلع فتوتي وصباي ، وعاطفتي الدينية مشبوبة ، و « مصروفي » مبذول لاقتناء الكتب الدينية عن طيب خاطر أعب منها عبا ، فما عجزت عن شرائه استعرته لأشبع نهمي ، في ذلك الحين أعارني المرحوم الشيخ محمد علي أمين بواب المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية سفرا ضخما متعدد الاجزاء هو « البداية والنهاية » في التاريخ الاسلامي لابن كثير . ولم يكن تحديا كبيرا أن آتي عليه كله في وقت وجيز ، فالتاريخ الاسلامي الذي يدرس لنا حتى المرحلة الثانوية مجرد سطور وقشور ، والروح ظامئة راغبة في أن تنهل بأسرع ما تستطيع ، وارادة الثقافة الدينية في عنفوانها ، ولكن شيئا لا أنساه وقع لي آنذاك بل عصف بي اذ بلغت تاريخ خلافة عثمان ابن عفان وكيف جاءت نهايته . انخرطت في بكاء محموم كأنما أتلقى نبأ مصرعه تلك الساعة ، أو كأنني المقتول والقاتل معا ! وطويت الكتاب كما طويت رأسي مقيما بين الضلوع ! ثم عدت أستأنف القراءة مهموما كأنني وضعت يدي على مكان وزمان انحسار المد الاسلامي الحقيقي ، ورحت أتحسر عليه . كانت عبراتي أسفا على أمير المؤمنين عثمان بن عفان ونهايته المأساوية تسيل مدرارا ، أما دموعي حزنا على بداية انبعاث تلك الفتنة التي

فرقت المسلمين منذ ذلك الحين فقد فاضت انهاراً . وفي كل مرة يطالعني كتاب وأطالعه وهو يتناول تلك المرحلة كتبه أقدمون أو محدثون يغشاني مايغشاني وتذهب نفسي حسرات ، واتقلب على جمر الفتنة الكبرى ! ولم أستطع أن اقطع برأى فى عثمان بن عفان ، أو لم أرد ذلك ، كأنى لا أود حتى الاحتفاظ بهذا الراى لنفسى !

ولكن هاناذا اليوم والسياق يطالبني بالافصاح وبالكتابة عنه ، فهل هو امتحان شاق وعسير ؟ ! من الواضح أن نهجي فيما أعرضه عبر هذه الحلقات عن صحابة النبى عليه الصلاة والسلام قد اختلف فى هذه الحلقة . فلقد انتويت واتبعت التركيز على الصحبة ! فاذا استرسلت وتعديتها فليشغلني فى المقام الاول اثر الصحبة على الصحابى فى المرحلة التالية لوفاة النبي عليه السلام . غير اننى مع عثمان بن عفان أبدأ القصة من ختامها اى من نهايات خلافته . لعل الذى حدا بى الى ذلك هو هذا الاثر العميق الذي خلفته فى اغوارى ماساته ومأساة المسلمين ، فكأنه برز الى السطح وشدنى شدا لمواجهته . لعلى وجدتنى منساقا الى تصفية وحسم مسألة «معلقة» قبل أن أتريض فى سيرته . أترانى أبغى تحديد مسئوليته فيما دهاه ودهانا ؟ ! وكيف اصل الى بغيتى والعناصر مختلطة متضاربة وربما غير متكاملة ؟ ثم من اكون ـ وانا العبد الضعيف على هامش الهامش ـ حتى أتحمل مسئولية الحكم على مسئولية أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟ انما أجتهد ، وعزائى أنها محاولة اجتهاد من موقع الحب ، وفرق بين الحب والتعصب المنحاز ، واشهد الله انني احب الصحابى الجليل عثمان بن عفان

حبا صادقا راصيلا لولا أن فى النفس غمامة تساؤل ربما آن الاوان أن أهزها فتنقشع !

لم يكن عمر بن الخطاب صورة طبق الاصل من أبى بكر الصديق ، وبالتالي فليس متصورا ولا مطلوبا أن يبيت عثمان بن عفان صورة من أبى بكر وعمر . الذى يجمع بينهم على سبيل اليقين هو خشية الله ومحبة رسوله ، والذي « يفرق » بينهم اختلاف الطبائع فضلا عـــن اختلاف الظروف والمناخ . ثم ان الحاكم ــ أى حاكم ــ ليس ملاكا ، ولا « تقييمه » يجرى بمقاييس الملائكة !

ما الذى قد يؤخذ على عثمان بن عفان وقد دامــت خلافته اثنتى عشرة سنة لان للناس فيها ووصلهم كثيرا حتى بدا كأنه نقيض عمر بن الخطاب ؟ قيل انه فى الست الاواخر من سنى خلافته استعمل بعض أقربائه فى الولايات ، وهذه وجهة نظر على أى حال فيمن يطمـئن اليهم من « أهل الثقة » على الا يخونوا اماناتهـــم أو يفسدوا فى الأرض ، فان فعلوا فهو قمين بتغييرهم .. بالشورى وبالحسنى . واذا كان عمر قد قال « أحب الناس الى من رفع عيوبى الى » فما احسب ان عثمان رغم « تأولاته » كان ليصد عن النصح أو النقد .

وعثمان واقف على المنبر ابتدره عمرو بن العـــاص قائلا : ياعثمان انك ركبت بهذه الامة نهابير « مهالك » من الامر فتب وليتوبوا معك ! فحول عثمان وجهه الى القبلة ورفع يديه وقال : اللهم انى أســـتغفرك وأتوب اليك ! ورفع الناس أيديهم . وقال عثمان فى مناسبة اخرى : ان وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى قيود فضعوها !

وعثمان كان اشد الناس حياء ، وكان أوابا رقيقا ، بكاء « بتشديد الكاف » من كتاب الله .

والفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ! ولم يكن عثمان بالتأكيد من أيقظها ، فقد قامت الدلائل على أن أيدي خفية مغرضة وراء اشعال الفتنة ، فمتى اتقد أوارها ، ومن اختفى وراءها ؟

حين اقبل « المصريون » الى المدينة يريدون أن يعزل عثمان بن عفان والى مصر عبد الله بن سعد بن ابى السرح استجاب لهم عثمان ، وولى عليهم محمد بن أبى بكر الصديق . وبينما هم فى طريق عودتهم مطمئنين شاكرين، اختلقت اليد الخفية — يد الفتنة — مشهدا مدبرا ... رسمت « السيناريو » باحكام خبيث ، وخططت — بخداع وتزوير آثمين — لمسرح الاحداث . اذ ألقت فى طريق « المصريين » العائدين بغلام كشفوا أنه يحمل كتابا بختم عثمان الى عبد الله بن سعد يثبته واليا ويحرضه على قتل فلان والتنكيل بعلان ! وثارت ثائرة « المصريين » وعادوا أدراجهم الى المدينة يحاصرون دار عثمان بن عفان ، ويستعدون الامصار ضده من كل مكان قرابة شهر من الزمان ! وانكر عثمان — وهو الصادق التقى الذى لم يرتكب فاحشة فى جاهلية أو اسلام — انكر ان الكتاب صدر عنه . وأكد على ابن أبى طالب للمتخرصين أن عثمان لا يشهد الا بالحق . فعاد « المصريون » الثائرون يطالبون بتسليمهم مروان ابن الحكم فهم يتهمونه بالكيد لهم ، وكان مروان مع أمير المؤمنين فى داره . وابت نخوة عثمان وعروبته الا ان يجير مروان فلا يسلمه اليهم ليقتلوه . ولم تكن هذه

الواقعة المفتعلة هي التزوير الوحيد في سبيل الاثارة والتهييج والافتيات على عثمان . فقد نسبوا الى أم المؤمنين عائشة أنها كتبت الى الناس تؤلبهم ضد عثمان . وقد نفت عائشة هذا الكتاب الخسيس المدسوس فقالت وهي تنعى عثمان بعد مقتله : تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كما تذبح الشاه ! والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت الى أحد عن عثمان بسوء !

وكان في مكنة عثمان ان يقاتل هؤلاء المتمردين قبل أن يتكاثروا فيدحرهم ويصد عن داره وخلافته غوغائية التمرد . كان في داره سبعمائة من الرجال الاشداء ، كما جاءه زيد بن ثابت يقول : هذه الانصار بالباب يقولون ان شئت كنا أنصار الله مرتين ! لكن عثمان أبى أن يهرق دماء المسلمين فشكره ورده : أما القتال فلا !

وكما رفض مقاتلتهم رفض كذلك مطلبهم بأن يخلع نفسه من الخلافة . وسانده في ذلك عبد الله بن عمر وناشده : لا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام ، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه ! ثم أضاف مشيرا الى حديث شريف « ونبوءة » لرسول الله عليه السلام : لا تخلع قميصا قمصكه الله !

ولم يستطع علي بن ابي طالب ان ينفذ الى دار عثمان ليحميه . منعته الدهماء فصاح : اللهم لا أرضى قتله ولا آمر به !

وأشرف عثمان على محاصريه والقى خطبته الاخيرة المؤثرة : ياقوم لا تقتلوني ! اني وال واخ مسلم ، فوالله

ان أردت الا الاصلاح مااستطعت ، أصبت واخطأت ، وانكم أن تقتلونى لا تصلوا جميعا ابدآ ، ولا تغزوا جميعا أبدا ، ولا يقسم فيؤكم بينكم ! انشدكم الله هل دعوتم عند وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما دعوتم به وأمركم جميعا لم يتفرق وانتم أهل دينه وحقه فتقولون أن الله لم يجب دعوتكم ؟ ! أم تقولون هان الدين على الله ؟ أم تقولون انى اخذت هذا الامر بالسيف والغلبة ولم آخذه عن مشورة من المسلمين ؟ أم تقولون ان الله لم يعلم من أول أمرى شيئا لم يعلمه من آخره ؟!

غير أن العقل والايمان كانا فى غيبوبة ، وحل مكانهما الهوى والكفر والفسوق والعصيان بتحريك من اعـداء الدين وأن تزيوا بزى المسلمين ! وطفقوا يتدافعون الى دار عثمان فامسكوا به وهو يتلو فى المصحف « مصحف عثمان الاشهر » فقتلوه وأراقوا دمه بسيل فوق كتاب الله ، ليمسى مقتله الفتنة التى لم تتوقف ..

ولولا أن « لو » كما جاء فى الحديث « تفتح عمـل الشيطان » لاثرت الف لو ولو ، ولكن قدر الله وماشاء فعل ، ولله حكمة فيما اقترفه أعداؤه ليبلونا .

ألغمامة انقشعت وصفيت تماما من نفسى . وأن عثمان لبرىء .. وانا لنبرأ الى الله من دمه .

شفت كتابة هذه السطور نفسى . حفظت لها حبها لعثمان وزادت عليه ، وبددت « غمامة التساؤل » ، وان كنت لم أفعل سوى أعادة ترتيب وتبسيط الاحداث من موقع محبة عثمان بن عفان .. رضى الله عنه .

نعم .. والله لا أقولن فى عثمان بن عفان ولا انقلن عنه الا خيرآ ، ولا أجدن الا برا ! كان من السابقين الاولين

توسم فيه أبو بكر حميد الخصال وحسن الفطرة وسخاء النفس وكرم المحتد ، فحدثه عن دين الله وجادله بالتى هى أحسن حتى تفتحت الروح وتهيأت . فجاء به الى رسول الله عليه الصلاة والسلام — ولم يكن قد دخل الاسلام الا نيف وثلاثون رجلا — فخاطبه النبى عليه السلام « يا عثمان أجب الله الى جنته ، فانى رسول الله اليك والى خلقه » فأسلم عثمان واسلم معه بعض اخوته ذكورا واناثا . وشق على كبراء قريش اسلام عثمان وهو من عمدهم ، فعهدوا الى عمه الحكم بن أمية أن « يردعه » ، فأوثقه رباطا حتى يدع اسلامه « المحدث » ! لكن عثمان لم يأبه لتعذير أو تعذيب وقال « والله لا أدع هذا الدين أبدا ولا أفارقه » . وايأست صلابة عثمان وتمسكه بدينه عمه الحكم فحل وثاقه وتركه !

وأى شرف لعثمان أعظم من أن يقربه نبى الله صاحبا ثم يقربه صهرا ويزوجه ابنته رقية ، ثم تموت فيزوجه عليه السلام ابنته الثانية أم كلثوم ، فيمتاز وحده بتوكيد مصاهرة رسول الله مرتين ، ويسميه الصحابة بحق « ذا النورين » ؟ ! وأى شهادة أسمى من شهادة النبى فى غمرة أحزانه على وفاة ابنته الثانية أم كلثوم اذ يقول لهذا الصحابى الاثير « والذى نفسى بيده لو كان عندى ثالثة لزوجتكها ياعثمان » ؟!

وعثمان الصحابى الوقور الحيى الذى قيل ان الملائكة تستحى منه ، والذى بارك الله له فيما امتهنه من تجارة برع فيها واثرى منها ، يتحمل فى صبر وجلد وايمان اذى قريش واضطهادها وتضييقها الخناق عليه ، ثم ما أن يحث النبى عليه السلام بعض صحابته على الهجرة

الى الحبشة حتى يترك عثمان تجارته مضحيا بها مفوضا أمره الى الله ، ويمسى أول المهاجرين الى هـذا البلد البعيد ومعه زوجه رقية ابنة رسول الله . ثم لا يلبث بعد شهور أن يبرح به الشوق الى نبيه وصاحبه وحبيبه وصهره عليه السلام ، فيعود الى مكة عسى ان يكون الحال قد تبدل غير الحال . بيد أن قريشا هى هى ما برحت ممعنة فى استعلائها وكفرانها وأذاها . وأن هى الا فترة وجيزة حتى تكون الخيوط قد تجمعت والاسباب توفرت لتحل اللحظة الموعودة المصيرية التى غيرت التاريخ ، فيأذن الله سبحانه بالهجرة من مكة الى المدينة و « اذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . وتستقبل المدينة النبى استقبالا كريما منقطع النظير هو من صـــنع الله .. استقبال الحائرين الذين طلع عليهم الهدى لا البـدر وحده ! ويلحق بالنبى الى المدينة عشرات المسلمين كمـا قد سبقه عشرات . وكان عثمان بن عفان ممن ظفـروا بالهجرتين الى الحبشة ثم المدينة . وحين اقطع النبى عليه السلام الدور بالمدينة خط لعثمان داره الى جواره. ويعود عثمان الى تجارته وأمواله ، لكنها لاتحول بينه وبين أن يظل بين كتاب وحى النبى ثقة فيه وايثاراً ، فلكم نزل جبريل عليه السلام بآيات القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فيستدعى عثمان امامه ويقول له : أكتب ياعثيم ! ثم اننا سوف نرى بعد قليل كيف أدت أموال عثمان دورا بارزا فى نصرة دين الله وقد كـــان جوادا بها فطنا لاثرها وثوابها « ان الله اشـترى مـن المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . « الذين

آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله ، واولئك هم الفائزون » ٢٠ التوبة .

وعثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة . وجاءت بشرى النبى لعثمان بالجنة مقترنة بمحنة تسبقها كما أخبر بها عليه السلام وتنبأ ، حيث روى أبو موسى الاشعرى أنه حين اقبل عثمان على دار النبى قال عليه السلام لابى موسى : افتح الباب للقادم ، وبشره بالجنة على بلوى تكون ! ودخل عثمان فلما علم بقول النبى تمتم عثمان : الله المستعان !

وقد شهد عثمان المشاهد والغزوات كلها فيما عدا غزوة بدر التى اذن له النبى بالتخلف عنها لتمريض زوجه رقية ابنة رسول الله وكانت توشك على الموت . واثبت النبى لعثمان أسهم البدريين واجرهم .

وما اظن ان احدا من الصحابة انفق على الدعوة وعلى الغزوات وعلى المسلمين قدر ما انفقه عثمان بن عفان ابتغاء وجه الله وجنته .

فى اولَ الهجرة آلى المدينة المنورة لم يرقَ للمهاجرين ماؤها الذى يستقى منه أهلها عادة ، ولكن طاب لهم ماء بئر « رومة » وهو مكلف غير ميسور . فأرسلَ النبى الى صاحبُ البئر أن يبيعها له وثمنها عين من عيون الجنة يعده بها . ولعلَ مثل هذه الصفقة الرابحة والتى مؤداها بيع عرض زائل فى الدنيا بمقابل أخروى هو خير وابقى ، لعلها ماكانت لتغرى صاحب البئر الذى تحجج بكون رزق عياله معقوداً على مايبيعه من مائها .

ولكن الذى يتوقَ ويسارع آلي صفقة كهذه صحابى

كعثمان بن عفان ، فاشترى البئر من صاحبها بخمسة وثلاثين الف درهم ووهبها للمسلمين .

وكانت غزوة تبوك هي خاتمة غزوات النبي عليه السلام وواحدة من أشق الغزوات ، اذ أنها اقتضت تجهيزا ضخما وأموالا كثيرة في حين أنها صادفت أياما ذات عسر وضيق بالغين . وبقدر ما كشفت غزوة تبوك المنافقين بقدر ماتوهج فيها المعدن الطيب السخي للمؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم يتسابقون في ذلك ويتنافسون لم يدخر أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ولفيف من الصحابة وسعا في انفاق ما يستطيعون وأكثر مما يستطيعون من أموالهم . غير أن عثمان بن عفان كان له القدح المعلى ! اذ جهز ثلثي الجيش بالبعير والافراس ثم زاد عليها الف دينار وضعها في خشوع وفي رضا بين يدي رسول الله ، فدعا له عليه السلام : اللهم أرض عن عثمان ! وهل جزاء الاحسان آلا الاحسان ؟! وتغلبت غزوة تبوك على العسرة وعلى أعداء المسلمين معا وحققت أهدافها ! وتنزل قوله تعالى « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، أنه بهم رءوف رحيم » ١١٧ التوبة .

والحياة بطبيعتها مد وجزر ، ويسر وعسر ، الذي يهم الا نبطر النعمة ساعة اليسر ، وأن نصبر ونتكافل ساعة العسر . ثم الا يراد بالبذل الرياء أو المباهاة ، وانما وجه الله الذي نخشاه بالغيب .

وهذا هو بالدقة ماكان يشغل بال وضمير عثمان بن عفان .. أن يؤتي الناس من مال الله الذي آتاه ، وأن

يفرج كربتهم ، كما فعل فى خلافة أبى بكر — ومع عسرة وقحط طارئين — فتبرع عثمان للمسلمين باطايب الزاد والطعام التى حملتها له قافلة تجارية ، وقد تصادف أن وصلت اليه حينذاك على ظهور ألف بعير !

ماذا بقى من الثناء على عثمان بن عفان ، وهو خليق به وهيهات أن نحصيه عددا ومواقف !

هل نذكر له يوم الحديبية حين أوفده رسولُ الله عليه السلام سفيرا يفاوض قريشا باسمه ، وغاب فى مكة أياما قلقة ، ثم قبل أن يعود رؤى أن يبايع المسلمون رسول الله « بيعة الرضوان » فلم ينسه نبى الله ، وانما ضرب عليه السلام شماله على يمينه قائلا : هذه يد عثمان! وهل منزلة غالية كهذه يمكن أن تغفلَ ؟!

كان عثمان بن عفان « قرآنيا » بمعنى الكلمة ! فقد تقدم أن النبى اختاره بين كتاب وحيه . ثم انه عاش من آداب الناس على قيام الليل الذين يتهجدون « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . وتواتر الرواة على أن عثمان بن عفان كان أولَ من قرأ كتاب الله كله فى ركعة واحدة .. تصوروا ! كما قيل انه نزل فيه وبسببه آيات من كتاب الله .

وحسب عثمان بن عفان فضلا ابديا جمعه للقرآن وتوحيده المصاحف ضبطا وهجاء فيما عرف بمصحف عثمان ..

وبقتل عثمان وهو يتلو فى مصحفه ، ويخر براسه ودمائه بين صفحاته الشريفة .. واللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

على بن ابى طالب

ذات سنة قبيل البعثة المحمدية بقليل نزلت بقريش أزمة طاحنة أصابت الكثيرين فى معايشهم ، واضحت أشد وطأة على كاهل ابى طالب بن عبد المطلب لكثرة ابنائه . ولان محمد بن عبد الله مفطور على حسن النظر فى الامور ومعالجتها ، ولان نفسه نزاعة لصلة الرحم ولرد الجميل وللمروءة والتكافل ، فقد صح عزمه على أن يأخذ المبادرة . ذهب الى عمه الميسور العباس واتفق معه على المشاركة فى مواجهة الموقف للتخفيف عن أبى طالب . فليتكفل كل منهما بابن من ابناء ابى طالب وليكن جعفر من نصيب العباس ، وعلى من نصيب محمد !

وهكذا جاء على بن ابى طالب صبيا صغيراً واقام ببيت ابن عمه ، وأنزله هو وزوجه خديجة منزلة الولد . انها فرصة عمر — فى باكورة العمر — قد اعطيها على ليحظى بالمكان ثم بالزمان ، فينجذب بالسمع والبصر والفؤاد ويذوب بالروح والجنان . « وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » ٣٥ فصلت .

ففجاة يجرى من حول على بن ابى طالب فى هذا البيت شأن .. اى شأن ! وهو لصغر سنه لا يلحظ اول الامر بداياته ذات الرهبة والجلال ، وان كان حسبه أن امسى يعيش تلك الساعة اقرب مايكون الى مايضطرم ويتألق تحت هذا السقف المبارك .

تنزل ألوحي على محمد فتلقاه أول الامر بقلب واجف ونفس مضطربة . ومن البداهة ومن البشرية أن يرتاع محمد وقد ألقى الله عليه قولا ثقيلا ، وتأذن عز وجل أن يتم اتصال السماء والارض في شخص محمد الذى اصطفاه ربه نبيا ورسولا . وهرع محمد الى زوجه خديجة وحدثها بما رأى وسمع ، وهي بما تعهد فيه من خلق عظيم فريد وبما تحمله له من اكبار ومحبة وحنان تصدقه وتطمأنه وتقول له « أبشر يابن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الامة . والله لا يخزيك الله أبداً . انكَ لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ويذهب الروع عن محمد ، ويتصلّ الوحى !

وعلى بن أبى طالب لايدرى شيئا عما يدور !

وتمضى الايام ، حتى كان ذات يوم دخل على بن أبى طالب على محمد وخديجة فشاهدهما يركعان ويسجدان ويرتلان بعض آيات مما أوحى الى محمد . فدهش الصبى — وكان فى العاشرة من عمره ، ولكن فطنته وبصيرته مبكرتان — وسأل ابن عمه : يامحمد . . ماهذا ؟ قال عليه السلام : دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والى عبادته ، والى أن تكفر باللات والعزى ! فقال على : هذا امر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب ! فكره رسول الله عليه السلام ان يفشى على سره قبل أن يستعلن أمره فقال له « ياعلى ! اذا لم تسلم فاكتم ! » فمكث على تلكَ الليلة حتى انشرح

صدره للاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا الى مشاورته لاعبد الله ؟! »
وأسلم علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فكان أول صبي أسلم ، والثاني اسلاما بعد السيدة خديجة رضى الله عنها .

وانما استطردت بعض الشيء فيما تقدم شغفا به لذاته من ناحية ، ومن ناحية أخرى لبيان منزلة على بن ابي طالب . فهو ليس مجرد صحابى من خيرة وطليعة الصحابة ، ولكنه على وجه الخصوص نشأ فى بيت النبوة وجمعته برسول الله عليه السلام وشائج الدم وصلة القربي والمصاهرة . حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما نزل قوله تعالي « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » ٣٣ الاحزاب دعى النبى عليا وزوجته فاطمة وابنيهما الحسن والحسين وجللهم بكساء وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

ولست اجد ابلغ فى التشبيه ـ والدقة ايضا ـ من راقعة اخرى جديرة بأن تروى هنا لبيان مكانة على بن أبى طالب ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذ أنه عليه السلام لما غزا غزوة تبوك وخلف عليا فى أهله قال بعض الناس : مامنعه أن يخرج به الا أنه كره صحبته فبلغ ذلك القول عليا فذكره للنبى فقال له : يا رسول الله خرجت وخلفتنى ! فأجابه النبى عليه السلام : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسي .. الا انه لا نبى بعدى ؟!

والى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام فى مكة ، وسنة بعد أخرى ، ينضج على بن أبى طالب ويشتد عوده ، ويراقب ويتعلم ، ويقبس من نور رسول الله ، ويمتلأ علما وحلما ، ويتصدر شباب المسلمين شجاعة وفروسية ، ورجاحة عقل ، وبلاغة وقوة حافظه ، وجرأة فى الحق والدعوة . فلا عجب أن اكتسب وزن كبار الصحابة وهو بعد لم يكمل العشرين من عمره .

وعندما خطط النبى للهجرة من مكة الى المدينة ـ وعلى بن أبى طالب كان قد أتم الثالثة والعشرين من عمره ـ لم يأمن رسول الله ويطمأن قدر ما أمن واطمأن لشجاعة ومحبة رجلين : أبى بكر الصديق ليصحبه فى رحلته ، وعلى بن أبى طالب ليتسجى برده الحضرمى الاخضر وينام فى فراشه أثنـاء تلك الليلة الموعودة ، والمتآمرون يتلصصون من فرجة الى مكان نوم النبى فيرون هذا المسجى فى الفراش فيحسبونه النبى فيقرون عينا أنهم سوف يصبحونه بسيوفهم مثلما تواعدوا بينهم . فلما طلع عليهم الصبح ـ والله خير الماكرين ـ فاجأتهم خدعة نوم على بن أبى طالب فى الفراش النبوى ، فكلت سيوفهم ونبت عن على بن أبى طالب لم تمس شعرة من رأسه . وعادوا يجرون أذيال الفشل فى حين كان النبى وصاحبه قد اختبئا فى غار ثور !

ولم يتريث على بن أبى طالب ولم يلبث فى مكة الا ريثما ينفذ ما عهد به اليه النبى من أداء الودائع التى عليه للناس . وبادر على الى الهجرة ، فكان أول من هاجر بعد النبى عليه السلام وأبى بكر الصديق .

وهناك فى المدينة المنورة ، وقد بدأت الدعوة عهدا

جديدا تشريعيا ونضاليا وسياسيا واجتماعيا ، واخذت تنطلق أعظم الانطلاق في جميع مناحي الحياة ، استهل النبي هذا العهد الجديد الواعد الموعود بالمآخـــاة بين أصحابه اثنين اثنين وبين المهاجرين والانصار . واختص النبي عليه السلام عليا بن أبي طالب بنفسه وقال له « أنت أخي في الدنيا والآخرة » . وعلى بن ابي طالب يلازم نبيه وأخاه في كل موقف مبهورا مؤمنا طائعا حبا في الله ورسوله ، فلا اغلى عنده من كتاب الله وسنة رسوله .

وقد شهد علي بن أبي طالب المشاهد والغزوات كلها بدءا من غزوة بدر فيما عدا غزوة تبوك التي تقدم ذكرها وكم ابلى أحسن البلاء ببسالة منقطعة النظير ، ولا غرو فقد كان لواء النبي عليه السلام مع علي بن أبي طـالب عادة . وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وتأتي السنة العاشرة للهجرة وقد أكمل الله دينه واتم نعمته وتأذن رحيل خاتم النبيين الى الخالق البارىء الذي بعثه بالحق .

ويحم النبي حمى شديدة فيهتز مجتمـــع المدينة ، وتتعلق برسول الله عيون وقلوب المســلمين . كــان وجدانهم وقفا عليه . فاذا خرج اليهم ليصلى بهم هللوا وبرقت آمالهم بنور رؤيته « وكان يخرج مستندا الى علي بن أبي طالب عن يمينه والعباس عن يساره » . واذا احتجب عنهم عليه السلام ينهارون قلقا وجزعا ، حتى حم القضاء ولحق النبي بالرفيق الاعلى فــكانت القارعة التي عصفت بالجميع وزلزلتهم ، وكان ما كان من موقف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق مما فصلناه من

قبل ، ثم التفكير فيمن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله عليه السلام .

اين كان على بن ابى طالب يوم الخطب الافدح والفزع الاكبر والحزن الاوجع فى تاريخ البشرية ؟ ثم ترى هل حدثته نفسه بانه الاحق والاجدر بأن يبايعه الصحابة والمهاجرون والانصار خليفة لرسول الله ؟!

ولست والله قادرا ولا راغبا فى تصوير الوداع الحزين الرهيب الذى هو حريق فى القلب وغصة فى الحلق ، يكسر البال والقلم . كلما كتبت سطورا تستعيد هذا المشهد المهيب القاصم الذى انقطع معه وحى السماء — مشهد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم — طويت السطور ومزقتها مثلما يمزقنى الاسى والعجز . فكيف بمن احاط به من اهله واهل المدينة فى تلك الساعة .. عليه السلام ؟ كيف كان حال على بن ابى طالب والتياعه وقد غاب عنه رسول الله ، وابن عمه وصهره ، وكل شىء وخير فى حياته وصحبته ، وعماد اهل البيت الذى اظله ، وطهره الله تطهيرا ؟

ولكن رغم ذلك كان على على بن ابى طالب أن يتجلد ، وأن يتولى — مع العباس — غسل النبى عليه السلام ودفن جثمان سيد الخلق .

ثم كان عليه ايضا ان يتجلد ، وأن يتأمل الموقف والمصير . فهل حدثته نفسه بان يغدو هو اول خليفة لرسول الله ؟ احسب ان « حيثياته » — وهى قوية وموفورة — كانت حديث نفسه اليه ، وانها شدته الى هذا المنحى فى التفكير حول الخلافة ، لا طمعا ولا حتى طموحا ، ولكن تقديرا منه لقدرته على نيل هذا الشرف

وحمل هذه المسئولية . غير أنه تعين عليه في الوقت نفسه أن يضع في حسابه ثلاثة اعتبارات متصلة ببعضها البعض هي أحرى بالتعويل عليها وباحترامها والالتزام بها . هذه الاعتبارات هي مكانته ومكانة الآخرين من أصحاب رسول الله ، واتجاه « الرأى العام » في الموازنة والبيعة ، ثم ضرورة وحدة كلمة المؤمنين والمجتمع الاسلامي .

ان عليا بن أبي طالب يعبر عما ساوره وعما سلكه لا في هذا الموقف الحساس وحده بل عبر قضية الخلافة كلها ، وقد جاء تعبيره وافيا شافيا ، صريحا فصيحا . يشبع على بن أبي طالب فضول من سألوه يوما عن خفايا هذا المسلسل الذى تعاقب في خلافة رسول الله وموقعه منه ، فيقول باسهاب أورده كاملا لاهميته ، فهو كأنما ينهض « مذكرة ايضاحية » !

« أما أن يكون عندى عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم في ذلك فلا . والله لئن كنت اول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ! ولو كان عندى عهد من النبي في ذلك ماتركت أخا بنى تيم بن مره « أبو بكر الصديق » وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدى ولو لم أجد الا بردتي هذه ! ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة ، فمكث في مرضه اياما وليالى .. يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر ابا بكر فيصلى بالناس ، وهو يرى مكاني . ولقد أرادت امرأة من نسائه « السيدةعائشة» لصرفه عن ابى بكر فأبى وغضب وقال « انكن صواحب يوسف ! مروا ابا بكر فليصل بالناس ! » فلما قبض الله نبيه عليه السلام نظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من

رضيه عليه السلام لدنينا . ولان الصلاة أعظم شعار فى الاسلام وقوام الدين ، بايعنا أبا بكر ، فكان أهلا لذلك . لم يختلف عليه منا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، ولم نقطع البراءة . فأديت الى ابى بكر حقه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه فى جنوده . وكنت آخذ اذا اعطانى ، واغزو اذا أغزانى . واضرب بين يديه الحدود بسوطى . فلما قبض ولاها عمر بن الخطاب ، فأخذ بسنة صاحبه وما تفرق من أمره . فبايعنا عمر ، لم يختلف عليه منا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، فلم نقطع البراءة . فأديت الى عمر حقه ، وعرفت له طاعتـه ، وغزوت معه فى جنوده ، وكنت آخذ اذا اعطانى . واغزو اذا اغزانى ، واضرب بين يديه الحدود بسوطى . فلما قبض ذكرت فى نفسى قرابتى وسابقتى وفضلى . وأنا اظن انه لم يعدل بى ، ولكن خشى الا يعمل الخليفة بعده ذنبا الا لحقه فى قبره ، فاخرج منها نفسه وولده ! ولو كانت محاباة منه لآثر ولده . وانما برئ منها الى رهط من قريش ستة انا أحدهم . فلما اجتمع الرهط تذكرت فى نفسى قرابتى وسابقتى وانا اظن أن لن يعدلوا بى . فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله عز وجل أمرنا . ثم ضرب يده على يد عثمان ! فنظرت فى أمرى فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى ، واذا ميثاقى قد اخذ لغيرى ! فبايعنا عثمان . وأديت الى عثمان حقه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه فى جيوشه ، فكنت آخذ اذا اعطانى واغزو اذا اغزانى ، واضرب بين يديه الحدود بسوطى . فلما اصيب عثمان نظرت فى أمرى : فاذا الخليفتان اللذان

أخذاها بعهد رسول الله اليهما فى الصلاة قد مضيا ، وهذا الذى اخذ له ميثاقنا قد أصيب ، فبايعنى أهل هذين المصرين » !

روددت أن اقف عند حدود هذه الكلمات النيرة المعبرة الصادرة عن على بن ابى طالب ، فلا أتعداها ولا استطرد بعدها . بل تمنيت أصلا — وما كل مايتمنى المرء يدركه — ان لو كانت فترة خلافة على بن ابى طالب كرم الله وجهه واحدة من أزهى عهود الخلافة الراشدة وأكثرها استقرارا ، وهو خليق بتحقيق ذلك فى ظروف غير تلك الظروف . ولكن خلافته — للاسف الشديد — قامت والفتنة منطلقة من عقالها ، وورثت تركة التوتر والقلاقل التى خلفتها السنوات والشهور الاخيرة من خـــلافة عثمان ، وسيقت الى ممارسات ماكان يبغيها على بن أبى طالب أو يرتضى تصعيدها .. بل ان المواجهات المسلحة قد تفجرت على أوسع وأوجع مدى . ولبست الاطماع والمتاجرة والاحقاد « قميص عثمان » تلوح به بغيـــــة الاستغلال واثارة الخواطر المبلبلة ، وبقصد تحويل قطرات الدماء الى أنهار من الدماء . لقد ظلموا عثمان بن عفان عشر مرات ، ثم ظلموا قميص عثمان مائة مرة .. فرحم الله عثمان ، وعفا الله عن قميص عثمان !

عهد خلافة على بن ابى طالب الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، والمغرضون بحسنى النية ، والعصبية القبائلية بالشهامة العربية والدينية . وكأنما — استغفر الله — خفيت المواقع السوية الصائبة عن عيون العديدين من خيرة المسلمين أو شبهت لهم !

أوليس مما يثير العجب والذهول وتعض عليه الاصابع

أسفا ومرارة أن طلحة والزبير – وهمــــا من العشرة المبشرين بالجنة – بعد أن كانا من أقرب الناس الي علي ابن ابي طالب وفي طليعة من بايعوه بالخلافة .. ينقلبون طلبا للثار من دم عثمان ؟! فيمسون من حيث لا يدرون « عزوة » المعسكر المضاد لامير المؤمنين علي بن أبي طالب، حتى اذا التقى الجمعان « يوم الجمل » وقعت الواقعة .. وواحر قلباه من يوم الجمل ، وياحسرة على العباد !

وكان زهير بن أبي سلمى في جاهليته استشف بالذات من ضمير الغيب هذه الحرب الذميمة غير المفهـــومة التي « تحمل فتتئم » وتأتي « بغلمان اشأم كلهم » فوصفها في معلقته الشهيرة أدق وصف .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمـــو
وما هو عنهـــا بالحديث المرجم
متى تبعثـــــوها تبعثـوها ذميمة
فتضرى اذا ضريتموها فتضرم

ويروى أن عليا لما سمع بمسير طلحة والزبير وعائشة وكتائبهم لحربه قال : والله ما انكروا على شيئا منكرا ، ولا استأثرت بمال ، ولا قلت بهوى . بايعوني فنكثوا بيعتي قبل أن يعلموا جوري من عدلي . واني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم . ومع هذا فاني معـــذر اليهم وداع لهم فان قبلوا فالتوبة مقبولة ، والحـــق اولى » .

ولما علم علي بن أبي طالب بمقتل طلحة والزبير في المعركة بكاهما وقال : اني لارجو ان أكون أنا وعثمـــان وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى فيهم « ونزعنا مافي صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » ٤٧ الحجر .

ويروى أن قاتل الزبير بعث بسيف الزبير الى علي فقال علي : ان هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله . ثم أضاف بشروا قاتل ابن صفية « الزبير » بالنار !

ولم تكن واقعة يوم الجمل آخر المآسي بل انتقلت المآسي من العراق الى الشام حيث كان معاوية بن أبي سفيان يؤسس بالتمرد والعصيان اللبنات الاولى لملك يحلم به . فاشتعلت معركة مروعة في صفين بين علي ومعاوية . وكان عمار بن ياسر يقاتل في صف علي بن أبي طالب فقتله جنود معاوية . ويحبس التاريخ أنفاسه فقد « وقع المحظور » وتبين الرشد من الغي في أحد أشهر نبوءات متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم حين خاطب عمارا قائلا له « ويح ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

ولما طالت المعركة رفع أهل الشام المصاحف وتداعوا الى الصلح . دعوا الى تحكيم استعد له معاوية بمكره وخداعه ومؤامرته . خلال « الهدنة » التي وافق علي عليها ، اختار أبا موسى الاشعري حكما ، كما اختار معاوية عمرو بن العاص . واتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية ! تقدم أبو موسى فخلع عليا ، واعقبه عمرو فنكث وبايع معاوية !

على أن كارثة التحكيم لم تتجسد في هذه الخدعة وحدها بل فيما هو أشد ، اذ أن فريقا من اتباع علي لم يرضوا عن مبدأ التحكيم ، ونادوا بأن « لا حكم الا لله » وخرجوا على علي بن أبي طالب وتألبوا عليه ، وهم هؤلاء الذين عرفوا باسم « الخوارج » فباتوا الد الاعداء ،

يتربصون بعلى الدوائر ويدبرون لقتله ، حتى أن هموم على بن أبى طالب وغثيانه واشجانه أطبقت عليه فقال « اللهم قد سئمتهم وسئموني ، فارحمهم منى وارحمني منهم » ! وكأنما يتعجل ويتقبل بالرضاء مارُوى عن رسول الله عليه السلام من انه قال : ياعلى ! من أشقى الاولين والآخرين ؟ قال على : الله ورسوله أعلم ! قال عليه السلام : اشقى الاولين عاقر الناقة ، واشقى الاخرين الذى يطعنك باعلى ! .. وأشار الى جبهته ..

تربص به عدو الله عبد الرحمن بن ملجم ــ احد اقطاب الخوارج ــ فضرب عليا بالسيف فى وجهه فأصاب وجهه وجبهته . وتوفى ــ كرم الله وجهه ــ فى التاسع عشر من رمضان فى سنة اربعين هجرية ، توفى فى مثل السن التى قبض فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام وابو بكر وعمر رضى الله عنهما : ٦٣ سنة !

رضى الله عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب آخر الخلفاء الراشدين . بقدر ما كان حظه من الاسلام مبكرا ومديدا وجليلا بقدر ما كان حظه من الخلافة متأخرا وقليلا !

الزبير وطلحة

ولماذا لا اجمع بينهما فى هذه السطور ، وأكتب عنهما معا ؟ أو لم يسلما معا فى عمر متقارب ، وكان أحدهما خامس من أسلم ، وثانيهما ثامن المسلمين ؟! الم يهاجرا معا الى المدينة المنورة ، وحالما بلغاها آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهما اخوان بالاســـلام والهجرة ؟ الم يقاتلا معا والى جوار رسول الله كـل الغزوات فكانا لفرط ايمانهما وشجاعتهما معـــا محـل ثقة واعجاب النبى عليه السلام ؟ الم « يكن » النبى أحدهما فى غزوة ، و « كنى » اخاه فى غزوة تالية ، فسمى الاول « الحوارى » وسمى الآخر « الفياض » ؟ الم يكن الزبير وطلحة ـ او طلحة والزبير ـ بين الذين نزل فيهم قوله تعالى « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » وقوله عز وجل « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون » وقوله ســـبحانه « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ؟ الم يجتمع اسمهما معا فى اعز قوائم البشرى والخلود ، فكانا من العشرة المبشرين بالجنة ؟ ثم كانا معا بين الستة اصحاب الشورى الذين سماهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما حضرته المنية ، اذ طالبه من حوله بأن يستخلف من يراه احرى واوجب بالاستخلاف اميرا على المؤمنين مثلما فعل ابو بكر فى استخلاف عمر ، فابى

رضي الله عنه وقال : لا أتحملها حيا وميتا ! ثم ارتأى الحل البديل فى أن يجعل الامر شورى فى ستة هم على وعثمان وطلحة والزبير وعبـــد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص يرشحون ويختارون من بينهم أمير المؤمنين الذى يجمعون عليه ، فكان أن فوضــــوا عبد الرحمن بن عوف فزكى عثمان بن عفان اميرا للمؤمنين ثم الم يكونا معا من أقرب الصحابة الى على بن أبى طالب ثم فجأة انشقا عليه معا ولزما ركب السيدة عائشة ، وقد شق رغم عليهم دم عثمان ؟! ثم أخيرا ألم يقتلا معا ، وذهبا كأكرم شهيدين يوم الجمل بالبصرة ، اذ اختلطت وتردت المسائل وبلغت القلوب الحناجر ، وعــرف على ابن أبى طالب سبقهما وقدرهما وقال ماقال مما سلفت الاشارة اليه ؟ .

وبعد ..

فأما الزبير بن العوام فهو من أمجد الصحابة حسبا ونسبا ، وكان من اعظم بواعث اعتزازه قرابته الوثيقة برسول الله عليه الصلاة والسلام . ولا يخفى أن العرب درجوا وولعوا برواية وتتبع ما نسميه الآن « شــجرة العائلة » . قال الزبير يوما لابنه عبد الله « يابنى ! كانت عندى امك « أسماء ابنة أبى بكر » وعند رســـول الله عليــه الصــلاة والسلام خالتــك « السيدة عائشة » . وبينى وبينه من القرابة ماعلمت . عمة أبى أم حبيبة بنت أسد جدته . وامى « صفية بنت عبد المطلب » عمته . وام آمنة بنت وهب بن عبد مناف وجدتى هالة بنت وهب بن عبد مناف . وزوجته خديجة بنت خويلد عمتى » .

يقول الله سبحانه في كتابه العزيز « واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبـــات لعلـكم تشكرون » ٢٦ الانفال .

ففي أول البعثة الاســـلامية كان المسلمون قليلين مستضعفين في مكة ، تحملوا العذاب والعنــت والاذى وصبروا ، وماشهر احد منهم سيفا الا الزبير بن العوام فقد كان أول من سل سيفا في سبيل الله آنذاك . سمع « شائعة » بأن النبى قد احتجزه المشركون ، فســل الزبير سيفه ومضى ليذود عن النبى ، فطمانه عليه السلام ودعا له ولسيفه .

مثل هذا الصحابى المقدام ماكانت لتفوته غزوة فى سبيل الله . شهد بدرا ونهض بواجبه في كل الغزوات . وكان يوم الاحزاب يومه الاغر ، ففيه اسبغ عليه رسول الله عليه السلام شرف الصفة التى وصفه بها . ذلك أنه عليه السلام نادى أصحابه ثلاثا فلا يجيبه في الثلاث كلها غير الزبير ، فقال عليه السلام : ان لكل نبى حواريا، وحوارى الزبير » .

ويوم فتح مكة جعل النبى عليه السلام الزبير بن العوام على الجناح الايسر لجيشه ، وخالد بن الوليد على الجناح الايمن ، وامر بدخول مكة دون سفك دماء ، فقد اضحت مكة كالتفاحة التى نضجت ، واذنت لربها وحقت . وتم نصر الله والفتح .

فاما « توامه » طلحة بن عبيد الله فقد كان قرين الزبير في الشجاعة والاقدام والغيرة على دين الله والذود عنه . واذا كانت غزوة بدر وحدها قد فاتته لكون النبي عليه

السلام أوفده هو وسعيد بن زيد عيونا يتحسسان قبيلها الانباء « وهى مهمة قتالية فى كل الخطط والمعايير القديمة والحديثة » واثبت عليه السلام أجرهما وسهمهما ، وعدا من البدريين ، فان يوم غزوة أحد كان — على حد تعبير أبى بكر الصديق — يوما كله لطلحة ابن عبيد الله ! وفى جملة كتب السيرة أن « طلحة رفع النبى عليه الصلاة والسلام يومئذ وقد وقع فى حفرة ، وبرك له وحمله على ظهره بسلاحه حتى صعد به الى الصخرة ، كما قاتل دونه ووقاه بيده ، وأصاب طلحة يوم أحد بضع وثلاثون أو بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية » .

وسماه النبى عليه السلام « طلحة الجود » و « طلحة الخير » و « طلحة الفياض » .

كان من خطباء الصحابة وأثريائهم وكرمائهم .

وروايات كرمه وجوده وسخائه تفوق الوصف ، ومحصلتها أنه عاش أكثر خلق الله عطاء من جزيل ماله .

كان برا بأهله من بنى تيم وبالناس جميعا ، حتى لقد روى أنه باع أرضا له بسبعمائة الف درهم ، فلما حملوا اليه هذه الاموال قال : ان رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى مايطرقه من أمر الله ، فبات ورسله تختلف بها وتنفقها على فقراء الاسر فى المدينة فما بقى عنده منها درهم ! هكذا .. وطوبى له !

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام : طلحة الجود .. الفياض !

وفى كل ما قرأت عن القرينين الزبير بن العوام وطلحة

ابن عبيد الله وجدت تشابها اغراني بذكرهما معا هنا . تشابها فى العديد من السجايا ، بل كادت تتشابه صفحات قضائهما وقدرهما ..

لم يختلفا الا اختلافا واحدا طريفا .

كان للاثنين أبناء كثيرون ، فما وجه الاختلاف اذن ؟

قال الزبير بن العوام : ان طلحة بن عبيد الله التيمي يسمي بنيه بأسماء الانبياء « محمد « السجاد » وعمران ، وموسى ، ويعقوب ، واسماعيل ، واسحاق ، وزكريا ، ويوسف ، وعيسى ، ويحيى ، وصالح » وقد علم أن لانبي بعد محمد . وانى أسمي بنيي بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا !

فقد سمى الزبير بن العوام من ابنائه عبد الله « تيمنا » بالشهيد عبد الله بن جحش ، والمنذر بالمنذر بن عمرو : وعروة بعروة بن مسعود ، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بجعفر بن أبى طالب ، ومصعبا بمصعب بن عمير ، وعبيدة بعبيدة بن الحارث ، وخالد بخالد بن سعيد ، وعمرا بعمرو بن سعيد بن العاص !

ورضي الله عن الاخوين اللذين هما على سرر متقابلين .. الحواري والفياض !

ابو عبيدة بن الجراح

المسافات البعيدة التى قطعها أبو عبيدة بن الجراح جهادا فى سبيل الله قد لاتعد أطول ما قطع صحابى من مسافات ، ولكن لست أدرى لماذا استرعت انتباهى واستلفتت نظرى معه هو بالتخصيص ، وشهدت فيهما قدرة له خارقة مميزة ، ودأبا لا يلوى على شىء ، وقوة تحمل وصبر ، وسجايا تحلت بها هذه الشخصية العذبة المحببة المحتسبة ؟! وأوشكت أن أقيس وأحصى — لدى الاطلس والخرائط والآلة الحاسبة — المئات من الاميال التى ذرعها أبو عبيدة لايكل ولا يمل . فهو يهاجر مع من هاجر من مكة الى الحبشة لفترة يعود بعدها مع العائدين . ثم يهاجر من مكة الى المدينة . ثم يشارك فى الغزوات من بدر حتى تبوك . ثم هو فى طليعة من كان يبعث بهم النبى عليه الصلاة والسلام على رأس السرايا يدعو الى الله « ويمشط » الفلول . ثم يؤمره أبو بكر الصديق على الجيوش لفتح الشام ومقاتلة الروم فيستجيب هذا الصحابى الرقيق القلب المرهف الحس القوى الايمان الشديد العزم ويبلى أحسن البلاء . ثم يتبادل وخالد ابن الوليد امارة الجيش وامارة اللواء خلال الفترة الاخيرة من خلافة أبى بكر والفترة الاولى من خلافة عمر . وينهض بالاعباء فيسير من بلد الى بلد وينتقل من نصر الى نصر . يمضى الى اليرموك فلا تستعصى عليه وعلى جيش الاسلام

والايمان . ويحاصر ثم يقتحم دمشق العاصمة الحصينة ثم حمص ثم حلب ثم انطاكية فشمال الشام وجنوب قلقية وسورية حتى يحاط بهرقل وجنوده من كل مكان فيحمل تاجه المهترىء المهيض ويلوذ بالفرار الى القسطنطينية ، وقد دانت سوريا كلها لجيوش المسلمين ودخلت فى دين الله افواجا .

نعم ، لست أدرى لماذا لفتتنى « مسافات » أبى عبيدة وكانت المدخل فى تناوله مع أنها ليست حكرا عليه ، ولا كانت اسطع مافى خصاله الباهرة ؟ ربما سبقت الى قلمى لانه كان أول كبار الفاتحين المسلمين المبعوثين الى ابعد نقطة من حدود الجزيرة العربيسة فى السنوات الاولى للهجرة ، ربما لاننى اذ رحت اقرأ عنه وأتتبعه خطوة خطوة لهثت وراءه بأنفاس تضطرم تقديرا واعجابا أو لعل الارجح أن تسليط الاضواء على حكاية المسافات وما حولها جاء عفويا ومن قضاء الله وقدره ، فانا اكتبه وأبدأ به لانه مكتوب على أن افعل وان تكون هذه الشخصية المثالية « المتطرفة » فى التسليم بقضاء الله والخضوع المطلق لقدره هى التى قدر لى معها ان أنتبه الى هذه التحديات التى قامت بين الاولين وبين المسافات والتى كانت الغلبة فيها للاولين !

كيف كان هؤلاء الابطال المغاوير من الرعيل الاسلامى الاول ؟ اى نوعية شامخة من الرجال مثلوا ، ومن أى معدن كريم سووا بشرا ؟ أين فى الناس مثل هذا الايمان المرهف الملهم المتدفق ، وتلك الارادة التى صيغت من العزم والتوكل فاضحت حديدية ؟ كيف الى هذا المدى نذروا انفسهم وجهادهم وخطاهم لله رب العالمين ،

لا يبالون بأى عناء وفي أى زمن يقطعون المسافات ؟ يقطعونها في أيام أو في شهور ، ولكنهم يصلون وباصرار !

هل نقارن بين مسافاتهم ومسافاتنا ، وأن بينهما لمساحات ومسافات حقا ! أم بين وسائلهم ووسائلنا ، فهم ينحملونها على الاقدام أو فوق ظهور البعير أو صهوات الجياد ، ونحن بالسيارات المكيفة والطائرات النفاثة وكل ما تشمله الاشارة القرآنية المعجزة «ويخلق ما لا تعلمون » ؟ أم بين أسبابهم فيها ـ كمثل أبى عبيدة ـ وأسبابنا حيث نطير ابتغاء متعة وترويح وترفيه ، أو لعرض زائل وتنمية ثروة وعقد صفقة ، أو للتراشق بالمعارك الكلامية والقاء خطب لا تصد ولا ترد !

صحيح أن لهم زمانهم ولنا زماننا ، وصحيح أن هذه ليست مناسبة للحط من شأننا والزراية بحالنا فقد توفر لنا المعاذير أو لاتوفر .. نسأل الله أن يكلأنا بمغفرته ورحمته . صحيح « لكل زمان دولة ورجال » ولكن صحيح أيضا أن مايمثله هؤلاء الرجال الافذاذ الميامين من صحابة النبى عليه السلام شيء كندى الفجر براءة وطهرا ، وكفلق الاصباح نضارة ونورا ، وكالجبال الراسيات رسوخا وثباتا ، وكالرياح المرسلة قوة وانطلاقا ، وكاسمى ماخلق له الانسان من فضائل ونبالة ..

ثم ماذا تقول فى أبى عبيدة بن الجراح الذى كان رجلا اى رجل ؟

اى ثناء أبلغ من ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

عندما جاء اهل بحران وسألوا النبى عليه السلام أن يبعث معهم أمينه قال عن ابى عبيدة كلمة لا تعد لها كنوز الارض . قال « سابعث عليكم امينا حق امين » . وكانت جموع الصحابة حاضرة فتمنى كل أمرىء منهم أن تصيبه هذه الكلمة ، وان يقع عليه الاختيار . واختار النبى . بعث معهم ابا عبيدة ، وقال عليه السلام « لكل أمة أمين ، وأميننا أيتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » .

ثم ماذا ؟

سئلت عائشة رضى الله عنها اى اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كان أحب اليه ؟ قالت : ابو بكر قيل : ثم من ؟ قالت : ابو عبيدة !

ومن هنا وبعد ان مات رسول الله عليه السلام وقبل ان يبايع المهاجرون والانصار ابا بكر بالخلافة قال الصديق لاصحابه : قد رضيت لكم احد الرجلين عمر بن الخطاب وابا عبيدة ! ..

ومن هنا أيضا كان هو المرشح الاول والاوحد لامير المؤمنين عمر بن الخطاب لو مات عمر فى حياة أبى عبيدة ، ولكن أمين هذه الامة مات فى حياة عمر وخلافته الذى كانت امنية من اعز امنياته ـ كما عبر عن ذلك صراحة ـ ان تمتلأ الامة برجال من امثال أبى عبيدة ! .. وياليتها تمتلأ !

ولان المعايير فى ذلك الزمن الصبوح الامثل أن الرجل تزينه اعماله ومواقفه وليس اى شىء آخر ، فقد قيل عن ابى عبيدة انه « مارؤى اهتم احسن واصبح منه » . ولم يكن ابو عبيدة أهتم فى صباه ولا شبابه ، ولا كان ثمة علة فى اسنانه حتى تسقط بعضها وهو ابن نيف

واربعين سنة . انما فقدها آنذاك في موقف فداء وحب لنبي الامة ورسول العالمين ، اذ انتزع يوم غزوة أحد من جبهته الشريفة حلقتي المغفر بثنيتيه « سنتيه » فسقطتا بينما يرتفع هو بحق الى طبقة العشرة المبشرين بالجنة .

والجنة ـ نعمت الجنة ـ تحت ظلال السيوف وفي حومة الجهاد في سبيل الله . وقد كان أبو عبيدة ـ كما تقدم القول ـ في طليعة المجاهدين بل أمير أمـــراء الفتوح . ولانه كان من المؤمنين العابدين المستغفرين الذين لهم قدم صدق عند ربهم ودودا وداعية الى الله بليغا ، فقد أثر عنه أنه كان يسير في عساكره ويقول : ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه ! ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهيض ! بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ، فلو ان أحدكم عمل من السيئات مابينه وبين السماء ثم تاب وعمل حسنة لعلت فوق ذلك كله !

وكان حيبا حصيفا . ورد كتاب عمر بن الخطاب الى ابى عبيدة بعزل خالد بن الوليد وتوليته هو امارة الجيوش وهم يحاصرون دمشق فأخفاه عنه وكتمه حتى فتحت دمشق ثم اعلمه به بعدها بأيام ! وينقل ابن كـثير في « البداية والنهاية » تحوار بينهما ساعة العلم . فيقول خالد « يرحمك الله ! مامنعك من أن تعلمني حين جاءك ؟ » ويجيبه أبو عبيدة « انى كرهت أن أكسر عليك حربك ! وما سلطان الدنيا اريد ولا للدنيا اعمل . وما ترى سيصير الى زوال وانقطاع . وانما نحن اخوان . وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه » وهكذا ..

فى كل عبارة راس حكمة ، وعفة نفس ، وسمو خلق !

ولقد المحت في البداية الى « تطرف » أبي عبيدة فى التسليم بقضاء الله وقدره والخضوع له ، وتجلت هذه الصفة تماما فى خاتمة حياته . فلقد انتشر الطاعون بين قرية عمواس حيث كان يعسكر جند أبى عبيدة بين الرملة وبيت المقدس فى فلسطين . فلما أبى عمر بن الخطاب أن يحل على قرية عمواس قال ابو عبيدة بصراحته وتلقائيته : أفرار من قدر الله ياعمر ؟ فأجابه عمر « لو قالها غيرك يا أبا عبيدة ؟! نعم ! فرارا من قدر الله الى قدر الله » ! وأفتى عبد الرحمن بن عوف بحديث سمعه من رسول الله عليه السلام قال فيه « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه » .. وكما نرى فهذا الحديث الشريف آية فى أصول الحجر الصحى . بل ان عمرا عندما رغب فى أن يدع ابو عبيدة قرية عمواس وشأنها تذرع بحاجته اليه وكتب يستدعيه . بيد أن أبا عبيدة القابض على قدر الله برضاء وخشوع حتى ولو بدا كأنه يقبض على الجمر اجاب عمر بن الخطاب قائلا : « انى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره وقضائه ؛ فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى »!

هنا فقط لم يشأ ابو عبيدة ان يقطع المسافات .. وما تشاءون الا أن يشاء الله ! وطالع عمر هذا الرد والدموع تطفر من عينيه كأنه يطلع على المنية تنشب

اظفارها فى ابى عبيدة . وان هى الا أيام قلائل حتى كان طاعون عمواس بفلسطين قد قضي على أبى عبيدة وخمسة وعشرين الفا ماتوا معه شهداء .

ترى كم بلغ عــدد شهداء فلســـطين للآن ؟ وكيف لا يتوسدون قلوبنا ويستثيرون ارواحنا وفيهم امين هذه الامة ؟!

سعد بن ابى وقاص

كان له من اسمه نصيب وأى نصيب . هو سعد ، وهو على موعد متصل مع السعد ومع السبق ! واذا كان الصحابة قد عرفوا بالشجاعة وتحلوا بها وابدوا من ضروبها ماتيسر لهم ، فهذا الصحابى صنعته الشجاعة مبكرا وخرطته وانضجته . كأنها اختارته واختارت له ، واهلته وكان اهلا لها . ولانها شجاعة ملهمة بالسجية ، زاخرة مطهرة بالايمان ، محظوظة بنجمه السعيد ، فقد نما وعلا بها سعد بن أبى وقاص كأنما كتبت له قدره وتاريخه ومجده .

فى سن جد مناسبة للتفتح ولنضارة وحماسة الاستهلال هى سن السابعة عشر ، أوعده السعد ان يغدو احد السبعة السابقين بالاسلام ، واحد العشرة المبشرين بالجنة . ان الله جلت مشيئته اراد له الخير وهو بعد غض الاهاب يوشك أن يستطلع فجر الشباب ، ثم اراد به الخير حين أقترن اسمه بواحدة من اهم واشهر المعارك والانتصارات الفاصلة فى تاريخ ومصير الاسلام ، وسعد فى أوج الرجولة .

فى أية مرحلة أطلق على هذا الصحابى الجسور لقب « فارس الاسلام » ؟ لست ادرى على وجه التحقيق ولا المراجع تحدد تماما . بيد أن جسارته وفروسيته كانتا باكرتين بالفعل وبحساب الزمن . ذلك انه مجمع على كونه

اول من رمى سهما واسال دما فى الاسلام قبل أن يكتب على المسلمين القتال ، وقبل المواجهات المسلحة والشاملة قبل غزوة بدر . فقد اختير سعد بن أبى وقاص فارسا شابا بين سرية برأسها عبيدة بن الحارث بعث بها رسول الله عليه الصلاة والسلام الى ماء بالحجاز فى وادى رابغ . وهناك التقوا بجماعة من قريش يقودها « شيطان المشركين » آنذاك أبو سفيان بشحمه ولحمه وبحقده ولدده . ورغم ذلك فيلوح أن كلا من الجمعين تجنب الاخر ، وانسحبا دون قتال أو رمية رمح الا ماكان من عنفوان سعد بن أبى وقاص الذى لم يتمالك نفسه ولم يحجم اربه فاطلق سهمه الذى جرح من جرح دون أن « يتدهور » الموقف الى أكثر من ذلك ، وليظل موضع اعتزازه قوله « أنى لاول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله » .

ثم كانت « بدر » وما أدراك ماصولة وروعة بدر ونضالها وأبطالها ، وكان سعد فى مقعد صدق منها . ثم كانت غزوة أحد وثبات المؤمنين الراسخين حول رسول الله عليه الصلاة والسلام وما قيل لسعد يومئذ وممن ؟ من رسول الله عليه السلام « ارم فداك أبى وامى أيها الغلام الحزور . اللهم سدد رميته واجب دعوته » ! وكأنما كان سعد من أرضى الناس واسعدهم بصفقة العمر الباقية « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله » ١١١ التوبة و « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » ٣٩ الحج . وكأنما كانت لاحاديث النبى عليه السلام حول الجهاد في سبيل الله

مذاق خاص فى نفس سعد المؤمنة المتوثبة الباسلة . وهو يرنو الى هذه الكلمات الشريفة ويتفيأ رياضها ويستن بها « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . والروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها » . « ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » . « سئل رسول الله عليه السلام أى العمل افضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله . قيل ثم ماذا ؟ قال . الجهاد فى سبيل الله » « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » .

ومن المقاتلين الكماة الرماة من لا شبهة فى تفوقه القتالى ، ولكن عندما يجد الجد ويحزب الامر ويجتمع اهل الرأى والشورى من اجل تزكية من يزكون لقيادة الرجال ولحمل المسئولية فى مهمة قتالية فانه لا يرد على خاطرهم ولا يطوف اسمه ببالهم ، لا انتقاصا من شجاعته بل لان الشجاعة واحدة من صفات عديدة قد لا يتوفر بعضها فيه . فالقائد لابد له من الشجاعة والاستقامة ، والشخصية ، والثقة بالنفس ، وحدة الذكاء ، ومعرفة وتقدير الرجال ، واتخاذ القرارات ، وفى كلمة واحدة . . موهبة القيادة . وقد اجتمعت هذه الصفات لسعد بن ابى وقاص .

ومن هنا فعندما صح عزم امير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ على قتال الفرس وكانوا يحتلون العراق ويختالون فيها ، ويحشدون جيوشهم ، ورأى عمر الا مندوحة من المواجهة واقسم « والله

لاضربن ملوك العجم بملوك العرب » وأعد الجيش العربى الاسلامى الذى سيسيره الى هذه المهمة المقدسة ، وبقى قرار اختيار الرجل الذى يؤمره على رأس جيش المسلمين لتأديب الفرس وفتح العراق ، فان أهل الحل والعقد والرأى الذين شاورهم عمر هتفوا باسم القائد فى نفس واحد : « سعد بن مالك بن ابى وقاص ! انه الاسد فى براثنه ! » وكان نعم الرأى الصائب .

نعم ، فمثلما قيل بحق أنه فى الليلة الظلماء يفتقد البدر ويطلب ، ففى الحرب وقراع القنا والرماح والسيوف والهول وعظائم الامور والمصير يلتمس القائد ويندب . ولم يتردد عمر بن الخطاب فهو يعرف قدر سعد ، فانه خير من ينوب عن أمير المؤمنين فى قيادة هذا الجيش وحمل امانة هذه المهمة الجسيمة ، فعهد اليه بها على الفور واوصاه .

وكانت « القادسية » هى الهدف الاول لسعد وجيوشه التى سار بها من المدينة المنورة وهى قرابة اربعة آلاف جندى ، ثم بلغت عشرة أضعافها « اربعين الفا تقريبا » بانضمام من لحقوا بها من المدينة والجزيرة العربية ومن قوات المسلمين بالشام .

شهور طويلة من التأهب والاستعداد على مشارف القادسية ، وجولات عديدة لوفود المبعوثين بالرسائل والحوار بين الفرس والعرب . فمن ناحية يقف كسرى الفرس يزدجرد وقائده المهيب رستم الذى لم يهزم قط ومعهما قوات تربو على مائة وعشرين الفا ، ولا تعدو رسائلهم الى العرب المسلمين من أن تكون تحذيرا وترهيبا ووعيدا ، أو اغراء ووعودا بقوت وكساء ! ومن ناحية

اخرى يقف سعد بن ابى وقاص وجنوده اقل من ثلث جنود العدو ، ولا تتعدى ولا تتحول رسائله مع مبعوثيه الى كسرى وحاشيته وبلاده عن الدعوة الى الاسلام « فان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله واقمناكم عليه ، على أن تحكموا باحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم .. وان اتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم » .

غير أن كل طرف بقى متمسكا بموقفه لا يحيد .

فكان لابد مما ليس منه بد ، وكانت القارعة ! ودخلت معركة القادسية التاريخ الاسلامى من أوسع ابوابه !

أين لى بوصفها ، ولا تكفى صفحات وصفحات لو رحت الخص كيف دان النصر لسعد بن أبى وقاص وقواد وجنود المسلمين فى هذه الموقعة غير المتكافئة عددا وعدة ؟ كيف واجهوا الافيال والاهوال ، والفرسان والاستبسال باستبسال اشد ؟ كيف كروا وفروا وكروا ؟. كيف قاتلوا القائد الاسطورة رستم وعشرات الالاف من جنوده الفارسيين كيف فعل هتاف « الله أكبر » فعل السحر ؟! كيف تألقت فى المعمعة أسماء وبطولات قادة ألوية اسلامية من أمثال القعقاع بن عمرو وهاشم بن عتبة وعاصم بن عمرو وطليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب وغيرهم بصورة منقطعة النظير . كيف أتى جيش المسلمين بخوارق مذهلة دحرت الفرس والحقت بهم هزيمة بالغة .

ويتلقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انباء نصر القادسية بسعادة غامرة وشكران لله العزيز الحميد ، وسجود للعلي القدير بالك محمود . الم يكن عمر هو من

فكر فيها ، وأعد لها وامر وبعث بها ، وتابعها بتوجيهاته ورسائله التي لم تنقطع وكأنه يشـــهدها علي بعـــد المسافات ؟

ان القادسية لم تكن سعدا على سعد بن أبى وقاص وجيشه فحسب ، بل بالدرجة الاولي على الاســـلام والمسلمين .

على أن معركة القادسية الرائعة المظفرة الشهيرة التي تعتبر من أهم واحسم الاحداث فى انتشار الدعـــوة المحمدية وامتداد الامبراطورية الاسلامية ، ما كانت لتفي باغراضها السامية ـ بعد ان لاذ كسري وفلوله بالفـــرار الي عاصمة ملكه « المدائن» يتحصن بها ويحلم ويعـــد بالثار ـ لولا ان الله تبارك وتعالى الهم عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص أن يعزز النصر بتطبيق مبدأ من مبادىء الحرب هو « استغلال النجاح » وتطويره وملاحقة العدو والحفاظ على عنصر المبادءة . وهكذا وبعد فترة وجيزة نسبيا تم لسعد بن أبى وقاص وجيشه فتـــح « المدائن » بعد أن عبروا نهر دجلة بخيولهم وخاضوا بها معركة اغرب من الخيال تزخر بالبطولات والمعجزات حتى دخلوا ايوان كسري ولبسوا تاجه وافاء الله عليهم باموال وكنوز وتحف ونفائس تجل عن الوصف وتتعذر على العد والتقييم .

وهكذا سار « فارس الاسلام » سعد بن أبى وقاص من بدر الى القادسية الى ايوان كسرى فى المدائن واستقر ، وبنى الكوفة ووليها .

وكان سعد بن أبى وقاص ممن أعتزلوا « الحيـــاة العامة » بعد الفتنة ومصرع عثمان ، واعتكف فى بيتـــه

قرب المدينة المنورة مع عباداته وذكرياته .

على أن هذه « الامجاد » الخالدة ماكانت لتعدل عنده « بدريته » . فانه حين حضرته الوفاة أعطى أهله جبة من صوف وقال لهم : كفنوني بها ، فاني كنت البسها يوم بدر ، وكنت أخبأها لهذه المناسبة لالقى الله بها !

نعم الايمان ونعمت صحبة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

عبد الرحمن بن عوف

حكمة الله ومشيئته ورحمته أن يبعث في النـــاس محمدا خاتم النبيين بشرا ورسـولا منا ليبلغ رسالات ربه الى العالمين « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليــه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ١٢٨ التوبة .

وحكمته ـ عز وجل ـ ومشيئته ورحمته أن يمكث الرسـول الداعية الاعظم ثلاث وعشرين سنة كاملة حافلة « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلنـــاه تنزيلا » . فشريعة التوحيد والحنيفية السمحاء تتنزل على محمد عليه السلام ، وفرائض مطهرة يأمر بها الله من فوق سبع سماواته . وصحابة تستجيب وتتزايد تترى وتتحول نواتها الى شجرة طيبة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وسلوك يسن ، وأسوة حســنة تضرب ، ومواقف تواجه ، وقرارات مصيرية تتخذ ، ومؤمنون يدخلون في دين الله أفواجا .

وفي أحكام الله تبارك وتعالى وفيما يوحى لرسوله به من قول أو فعل من الدين القيم فانه « ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ٧ الحشر . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يـكون لهم الخيرة من امرهم » ٣٦ الاحزاب .

ولكن من أحكام الله ايضا أن « وشاورهم في الامر » ١٥٩ آل عمران .

« وامرهم شورى بينهم » ٣٨ الشورى . فمبدأ الشورى في غير ما امر الله به وقضى ، أو اوحى الى رسوله .. مندوب اليه منصوح به . والشورى في القرآن والاسلام تجيء لاهى جامدة ولا محددة بتفصيلات وجزئيات واجراءات ، وانما اطارا واسعا ، وهذا بالتأكيد مما يتفق ويتجانس مع شريعة من طبيعتها الخلود ومن خصائصها في المعاني العامة المجردة أن تتسع لتتلائم مع كل بيئة وكل زمان .

فالشوري واردة في تكتيك القتال ومقتضياته سواء طلبها النبي عليه السلام او تطوع احد الصحابة . والامر كذلك يحتمل الشورى في الشئون المعاشية أو في مواقف يستطلع فيها النبي عليه السلام آراء صحابته المقربين ويستشيرهم ، الا ان يفصل في الامر بتوجيه رباني يوحي به اليه عليه السلام أو بقرآن يتنزل عليه حيث الآراء تناقش فيهدى الى الحق .

ولعلنا نذكر واقعة شهيرة في غزوة بدر حين نزل النبي بموقع ارتآه مناسبا للقتال فسأله الحباب بن المنذر ـ وكان له علم وخبرة وأسعان بتضاريس المنطقة ـ قائلا « يارسول الله ! ارايت هذا المنزل .. امنزلا انزلكه الله فليس لنا ان نتقدمه ولانتاخر عنه أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟ » فقال عليه السلام « بل هو الراى والحرب والمكيدة » فاجابه بن المنذر « يارسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تاتى ادنى ماء من القوم فتنزل ثم تغور ما وراءه من البئر ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون»! « وانشرح صدر النبي لصواب ما اشار به الحباب وأخذ

به واكد لاصحابه جدوى الشورى والا يحبس الراى !

وحكاية « تأبير النخل » هى الاخرى معروفة ، وقوله بعدها للناس : أنتم أعلم بشئون دنياكم .

كذلك استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعله بالاسرى وفى صلح الحديبية وفى غير ذلك ، الا ان يقضى الله فى الامر الذى فيه يستفتى . وكان عليه السلام يحاور ويناقش ويفسح صدره ويربى فى أصحابه هذه الروح ويستنهض الملكات ويجلوها ويصقلها ، لان الشورى أصل من الاصول ، ولانه سوف يأتى زمان يحتاجونها ورسول الله قد رحل عنهم وانقطع وحى السماء . فحيث لا نصوص قاطعة فاصلة فى القرآن والسنة فان الشورى هى من كتاب الله وسنة رسوله ، وهى منهاج يلجأ اليه من بعده ويتوخاها حيث يقتضى الحال أن يستشار صحابته كالنجوم الهادية !

وهذا ما التزم به الخلفاء الراشدون ..

لماذا قدمت بهذه السطور المضيئة التى اشرقت بالآيات القرآنية وعمرت بالسيرة النبوية ، وانا بصدد الحديث عن صحابى جليل من العشرة المبشرين بالجنة هو عبد الرحمن بن عوف ؟!

ذلك أن كل امرىء ميسر لما خلق له . فاذا كان من صحابة النبى خلفاء راشدون أربعة ، وقواد عظام واصحاب ملاحم ، وولاة ، فليس بالضرورة أن يبيت كل السابقين الاولين من صحابة النبى من هذه « النوعيات » المشار اليها آنفا . فمن المعتاد أن الميزة الكبرى او بالاحرى « مفتاح الشخصية » لاى صحابى أو اى انسان هى التى تتقدم على ماسواها وترسم له

خط سيره وتحدد مصيره . وقد كان عبد الرحمن بن عوف بحكم موقعه وصحبته وموهبته البارزة مرجعا وناصحا ذا حصافة وتدبر ودقة يصيب في فتواه ويجتهد في رأيه اذا سئل عنه . وفي الجملة كان مؤهلا ليمسي احد كبار المستشارين ان لم يكن كبير المستشارين بالفعل للخلفاء الراشدين .

فمن هو عبد الرحمن بن عوف ؟

هو احد اسبق ثمانية الى الاسلام - وله من العمر يوم اسلم ثلاثون سنة اذ ولد بعد عام الفيل بعشر سنين - ولزم صحبة رسول الله منذ الايام الاولى يتحمل مايتحمل ويصمد ويتصدى يدعو بما علمه صاحبه عليه الصلاة والسلام . وكان تاجرا ماهرا محظوظا مجدودا حتى لقد روى على لسانه قوله « لقد رأيتني لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب ذهبا وفضة » .

ثم خلف ثروته وراءه مضطرا وهاجر مع أوائل من هاجروا من مكة الى المدينة وهو خالى الوفاض متوكلا على الله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وفي المدينة ووفقا لسنة رسول الله في المآخاة بين المهاجرين وبعضهم البعض ، بين المهاجرين والانصار ، فقد جاء من نصيب عبد الرحمن بن عوف أن آخى النبي بينه وبين عثمان بن عفان « وكانا معا ممن أسلموا على يد أبي بكر الصديق » ، كما آخى بين ابن عوف وبين سعد بن الربيع الانصاري . فاسمع واقرأ هذا الحوار المدهش القمة في البذل والتعفف الذى جرى بين الاثنين مما نكاد بضعهما على الخريطة الملائكية ! يقول سعد ابن الربيع لعبد الرحمن بن عوف : اى اخى ! انا اكثر

اهل المدينة مالا فانظر شطر « اى نصف » مالى فخذه !
وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب اليك حتى اطلقها !
فيجيب ابن عوف على الفور : بارك الله لك فى اهلك
ومالك ! دلونى على السوق ! ولما دلوه ذهب واشترى
وباع وربح . ولم يلبث هذا المجدود الذى يتحول التراب
بين يديه الى ذهب أن أثرى ثراء مباركا عوضه الله به
أضعاف مافقده فى مكة !

صحابى بهذا السبق والثقل والقرب من رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان حتما أن يشهد غزوة بدر وان
يثبت فى غزوة احد ـ على ما أصابه فيها . . وانه لجسيم
ـ وأن « يمول » غزوة تبوك بما أنعم الله عليه به
حتى ليلتبس الامر على المؤرخين ايهما كان اشد عطاء
وسخاء فيها هو أم عثمان بن عفان ؟!

واذا كان الذين استشهدوا فى غزوة احد من
المسلمين كثارا فان الذين اصيبوا بطعنات وجراح وبرأوا
منها هم اكثر فيما عدا عبد الرحمن بن عوف . فكان
من آثار اصاباته العشرين فيها أن خلفت له عاهة
مستديمة ، وبات يعرج ماتبقى من عمره . ولعل هذا
العرج اشتد عليه بعد وفاة النبى عليه السلام ، فهو ان
لم تكن قد فاتته غزوات النبى جميعها بعد غزوة احد
وحتى تبوك ، فانه لم يعد يشارك فى بعوث الشام
والعراق وغيرهما ايام الخلفاء الراشدين ، وقنع بصفة
« كبير المستشارين » . وانه « لمنصب » لو تعلمون
عظيم .

وكأنما وهو ينهى صلته العملية بالقتال فى تبوك ـ آخر
غزوات النبى ـ ابى الا ان يظفر بشهادة نبوية شريفة

خصته بها السعادة والحظ ! ذلك انه حينما حضرت الصلاة في غزوة تبوك وافتقد الناس النبي بينهم ساعتئذ قدموا عبد الرحمن بن عوف ليصلي بهم اماما ففعل . غير أن النبي عليه السلام حضر بعد ان صلوا الركعة الاولى فصلي معهم مؤتما بابن عوف وادرك احدى الركعتين . وما أن انتهى المسلمون من صلاتهم حتى أفزعهم هذا الموقف الطارىء عليهم . فلما انتهى عليه السلام من الصلاة قال لهم « ما قبض نبي حتى يصلى خلف رجل صالح من امته ! وقد أصبتم لو احسنتم الصلاة ! .

ولقد استرعى انتباهي خلال قراءاتي عن أبي بكر الصديق خليفة رسول الله وعن امير المؤمنين عمر ابن الخطاب أنه ماس موقف لهما يقتضي الراى والشورى واتخاذ القرار الا وكان عبد الرحمن بن عوف « أول من يستشار » في الفتح وتيسير الجيوش ، في توزيع الفيء في الأزمات والملمات . وكان يبدى رايه بشجاعة وافاضة وبلاغة ، ولا يهم بعد ذلك أن تتفق معه اغلبية الآراء فيؤخذ به أو لا تتفق ؛ انما المهم أن يفصح عن وجهة نظره وبامانة وبالحيثيات ! وكانوا يسألونه في الفتاوى أو يتطوع بها ، وكيف يتوانى وقد كان من المفتين في عهد رسول الله بكتاب الله وسنة رسوله . وقد مر بنا في « تاريخي » لأبي عبيدة بن الجراح كيف أفتى بن عوف براى رسول الله فيما يسلكه الناس اذا نزل الطاعون ببلد من البلدان .

وقد تقدم بنا كيف أن عبد الرحمن بن عوف كان احد الستة اهل الشورى اللذين أوصى امير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن يتشاوروا فيما بينهم ويختاروا احدهم اميرا

للمؤمنين . والتفاصيل يرويها البخاري وتحس معها أن ابن عوف لفداحة التبعة التي تحملها لم يكن ينام . فلا هو كف عن القلق والهواجس ، ولا انقطع عن المشاورات المكثفة ، ولاكل أو ون في استخارة الله والابتهالات والتضرعات له سبحانه أن يهديه سواء السبيل ، فما كان يريد الا الاصلاح والتوفيق ما استطاع . يقول البخارى عن المسور بن مخرمة « ان الرهط الذين ولاهم عمر رضى الله عنهم اجتمعوا فتشاوروا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف : لست بالذى انافسكم على هذا الامر ، ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم . فجعلوا ذلك الى عبد الرحمن . فمال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى ، حتى اذا كانت الليلة التى أصبحنا منها فبايعنا عثمان رضى الله عنه ـ يقول المسور ـ طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال : اراك نائما ، فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بنوم ! انطلق فادع الزبير وسعدا ! فدعوتهما له فشاورهما . ثم دعاني فقال : أدع عليا ! فدعوته . فناجاه حتى ابهار الليل « وكان طلحة غائبا عن المدينة » ثم طلب عثمان بن عفان فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح . فلما صلى الناس واجتمع أولئك الرهط عند المنبر ارسل عبد الرحمن الى المهاجرين والانصار وامراء الاجناد ، فلما تجمعوا لم أرهم يعدلون بعثمان ، فبايع عبد الرحمن وبايع المهاجرون والانصار عثمان بن عفان وقال : ابايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين . ثم نظر الى على بن ابى طالب وقال : أما بعد ياعلى .. انى قد نظرت فى امر الناس بنحو .. اى هكذا ! .

ويروى أن عبد الرحمن بن عوف علم أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان حين مرض قبل مصرعه بنحو عامين كتب لعبد الرحمن بن عوف بالخلافة ، فشق ذلك على بن‌عوف فما كان ليرضى بها أو يتحملها ابتداء وانتهاء ، ودعـــا الله أن يميته قبل عثمان ! ولما كان عبد الرحمن بن‌عوف « اميرا فى الارض اميرا فى السماء » ــ كما وصفه النبى عليه السلام ــ فقد استجابت السماء لدعائه ومات بعد ستة اشهر من دعوته وفى خلافة عثمان .

وقبل وفاته شاور « كبير المستشارين » أم المؤمنين ام سلمة وقال لها : لقد خفت ان يهلكنى كثرة مالى ! فقالت : يابنى انفق ! فبسط يديه ــ وهما اصـــلا مبسوطتان كل البسط ــ واعتق ابن عوف فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، وأوصى لامهات المؤمنين بحديقة بيعـــت باربعمائة الف ، وأوصى للمائة الباقين من البـدريين باربعمائة دينار لكل واحد منهم ، وأوصى بخمسين الف دينار فى سبيل الله !

وراح وهو من اندى العالمين بطون راح !

سعد بن معاذ

ما أشبه دعوته تلك بدعوتي التى أثخنتني وبرحتني ! حتى ولو لم اعد اهتف بها ، حتى ولو قد ماتت على شفتي ، فانها مابرحت وجيب القلب ـ علم الله ـ وصريخ الدماء المكتوم المكلوم ! حتى ولو كانت ظلمات اليـــاس تغشاني سنة بعد اخرى ، وهزيمة بعد نكسة ، وضياعا بعد عجز ، وتهـوى بى الى قرار ســحيق .. تلك الكوارث الماضية الممضة ، والجديدة الممتدة ، فانني أخبيء هذه الدعوة في حنايا الصدر أو أخفيها فى فلذات الكبد واوجاعه ، وكأنما اتوقع ان تحين الفرصة والمعجزة بين عشية وضحاها !

نعم ، ما أشبه دعوة سعد بن معاذ المستجابة : اللهم لا تمتنى حتى تشفينى من بنى قريظة ! ما اشـــبهها بدعوتى التى حرت بها وحارت بى : اللهم لا تمتنى حتى تشفي غليلي من اسرائيل وبنى اسرائيل ! على العكس ، اسرائيل تقوى وتتوسع وتهيمن ، فى حين أقبع فى دارى كسيف البال مكسور الخاطر والوجدان . فلا أنا شفي غليلى ، ولا أنا مت ولا حييت ! اللهم لا لوم ولا اعتراض! القضية التى كرست لها عمرى وأملى شطبت ! عبر دواوين سبعة مضيت أبثها شعرا وهى تلقمنى حجراً !

شيء واحد ـ أو نصف شيء ـ مشترك بيننا هو هذا. الدعاء ! هو حاره ، وانا كأنما دنياى حرام فـــكيف يستجاب لى ؟!

ولكن ما أبعد الفرق بينه رضى الله عنه وبينى ...
عفا الله عنى !

هو من قمم النضال ومن أهل الجنة ، وانا لاادرى مكانى فى الدنيا وفى الآخرة !

هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كوكبة صلبة طاهرة شريفة تؤمن وتعمل بما تقـــول ، ونحن من أصحاب الهوى والتبرير والتمرير ! نخسر فنعج ونجعجع ، ونهون فنتدرع بالاحباط ، ونستنيم وكأننا فى الاجداث أو خرجنا منها اعجاز نخل خاوية !

هو واترابه يتحركون باندفاع الرواد الابطال وبحلاوة الايمان وحرارته نحو النصر ، ونحن لانكاد نحرك اصبعا من اجل الاحتجاج علي مايحاق بنا فكيف برفعه !

هو قريب من « صيحة النبى » تأتى بالخوارق المعنوية والمادية ، ونحن يكاد الشيطان يتخبطنا من المس والعجز ونتسلى بخوارق التلفزيون والفيديو حتى ولو كـــانا يعرضان هزيمتنا وخيبتنا !

فمن هو سعد بن معاذ الذى قلبت دعوته « المواجع وحركت الاشجان » ؟!

حياة قصيرة ربما ، ولكن « سيناريو » حقيقى باذخ العطاء والبر ، بالغ الصدق والاثر ، بديع المعـــانى والعبر .

سيناريو حقيقى ، فى كل لقطة منه ــ على محدوديتها ــ آفاق مضيئة لا نهائية .

اللقطة الاولى

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاقت عليه مكة بما رحبت من جراء مالقي دعوته من عنت وافقيات

المشركين وعتلات قريش . لكن دعوته ـ رغم ذلك ـ كانت قد شقت الحجب ، وقطعت الفيافي والوديان ، وبلغت المدينة المنورة ، وان لم يؤمن بها الا عدد يجاوز أصابع اليدين بقليل رحلوا الي مكة يودون أن يقبسوا من نوره عليه الصلاة والسلام شخصيا ، فقرت أعينهم ورسخ يقينهم وبايعوه عليه السلام بيعة العقبة الاولي . وعادوا الي يثرب وقد انفذ معهم مصعب بن عمير معلما وداعيا وقارئا لكتاب الله .

وهناك في يثرب كان سعد بن معاذ سيدا من سادات الاوس ، وقد ضاق ذرعا بعداء تقليدي وبقتال غبي متكرر بين قبيلتي الاوس والخزرج لا يفيد منه الا يهود يثرب وجاليتهم الانتهازية الاستغلالية المتحصنة فيما يشبه « الجيتو » ، المنتشرة فيما يشبه السرطان ! ولعلهم هم الذين أوقدوا نار الفتنة والعداء بين الاوس والخزرج !

وان هي الا جلسة بين مصعب بن عمير وسعد بن معاذ حتي شرح الله صدر سعد للاسلام باشعاع خالص متوهج عذب غلاب . وبلغ من قوة نفاذ الاشعاع ومن شدة نفوذ سعد بن معاذ بين قومه بني عبد الاشهل أن لم يتخلف منهم أحد .. اسلموا جميعا ! ينادي فيهم : يابني عبد الاشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وافضلنا رأيا وايمننا نقيبة ! قال : فان كلام نسائكم ورجالكم حرام علي ، أن لم تؤمنوا بالله ورسوله !

.. وآمنوا

اللقطة الثانية

سحب غزوة بدر الكبري تتجمع ، والنبي عليه السلام

وصحابته من المهاجرين والانصار فى المدينة يتأهبون ، وقد أخذت قريش فى زحفها نحو المدينة تستثير المشاعر وتلهب التحديات . وتوالى الاعداد للمعركة بين الحق والباطل . والمشاورات جارية بين النبى وصحابته من المهاجرين . ثم التفت النبى عليه الصلاة والسلام ناحية الانصار وكأنما يختبرهم — وان كان يثق بهم — وقال : أشيروا على أيها الناس !

وتقدم سعد بن معاذ قائلا : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟! قال : أجل ! عندئذ أجاب سعد بن معاذ بعبارات لا أخال أحدا من المسلمين عبر أربعة عشر قرنا الا رقرأها او سمع بها أو حفظ بعض كلماتها التى تهز الوجدان هزا . قال سعد بن معاذ : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا . أنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله !

عندئذ تهلل وجه النبى عليه الصلاة والسلام وقال : سيروا وابشروا فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين . والله لكأنما أنظر الى مصارع القوم !

ثم ماذا أيضا لسعد بن معاذ فى بدر من أيمان عملى برسول الله وحرص عليه ؟

اذ يحتل المسلمون مواقعهم للقتال يقول معاذ للنبى عليه السلام .

« يانبى الله ! نبنى لك عريشا تكون فيه ، وتعد عندك ركائبك ثم نلقي عدونا . فان أعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » .

بارك الله لك ياسعد بن معاذ فى نبالة حسك وسلامة قصدك وعذوبة قولك وتوهج فكرك ، وفزت برضى الله وثناء رسوله .

اللقطة الثالثة

تحالف المشركون من مكة مع يهود بنى قريظة الذى نقضوا العهد فى المدينة فكانت غزوتا الخندق «الاحزاب» وبنى قريظة .

وبينما سعد بن معاذ يقاتل المشركين فى معركة الاحزاب أصاب سهم اكحله . وكانت عينه على الخونة المخربين من اليهود الذين نقضوا العهود وتربصوا بالمسلمين الدوائر ، فهتف وهو يقاوم الجراح ويدافع الالام : اللهم لا تمتنى حتى تشفينى من بنى قريظة !

ويمد الله فى أجل سعد بن معاذ أياما حتى استسلمت قلاع يهود بنى قريظة ، فقال له النبى عليه السلام : احكم فيهم ! قال سعد : انى لاخشى يارسول الله الا أصيب فيهم حكم الله ! فاكد عليه النبى أن يحكم فيهم . فكان حكمه الذى جاء جزاء وفاقا . فقال عليه الصلاة والسلام : أصبت فيهم حكم الله .

هنا كان قد شفى سعد بن معاذ صدره وادى ماعليه

فخلت به جراحه النجلاء واخذ يلفظ انفاسه الاخـــيرة هانيء البال مرتاح الضمير وآخر مايسمع هو دعــاء رسول الله حوله « اللهم ان سعدا قد جاهد فى سبيلك ، وصدق رسولك ، وقضى الذى عليه ، فتقبل روحـــه بخير ماتقبلت به روحا » .

وبعد ان حمل المسلمون جثمان سعد الى مثواه الاخير عادوا للنبى عليه السلام يقولون : يارسول الله ! ماحملنا ميتا اخف علينا من سعد ! فقال عليه السلام : مايمنعكم من ان يخف عليكم وقد هبط من الملائكة عدد لم يهبطوا قبل يومهم قد حملوه معكم !

وبكته امه واهله والمسلمون فاطنبت الام مديحا ورثاء وبكاء ، فعقب رسول الله قائلا : « كل البواكى يكذبن الا ام سعد ! لقد اهتز العرش لموت سعد ! » .

ودهش المسلمون يوما اذ رأوا جبة من ديباج منسوج بالذهب وجلسوا يتأملونها ويمسحونها فقال النبى عليه الصلاة والسلام : والله لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة احسن مما ترون !.

استشهد سعد بن معاذ فى شرخ الرجولة وقد اجاب الله دعوته ثم تقبله فى عباده الصالحين ، وهانحن هؤلاء قد بلغنا الكهولة وبيننا وبين اجابة دعوتنا بعد المشرقين .. او مسيرة ذراع ، الله اعلم .

ونعيب زماننا والعيب فينا ! اصلح الله بالنا وحالنا ..

معاذ بن جبل

لاول وهلة يبدو كأنني انما تذكرته وتخيرته في هذا النسق لكونه وصاحبه سعد بن معاذ ـ الذي عرضت لحياته واستشهاده آنفا ـ يشتركان في الاسم والبلد ، فكلاهما معاذ وكلاهما من أكرم الانصار بالمدينة المنورة .

ولكن ليس الامر كذلك تماما ، فما كان يمكن أن أنسى « معاذ بن جبل » فيما أكتب عن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم .

هل أحكي كيف ولماذا هو بالذات في هذا النطاق كأنما يمثل حبي الاول والذي لم يتحول ؟!

باختصار كان الراوي الاصل لاول حديث نبوي شريف سمعته هو معاذ بن جبل ، وكان الراوي الذي ألقاه على مسمعي هو ذلك الذي شاء الله تبارك وتعالى بفضله العظيم ان التقي به في مطلع الصبا وأن يتبين لي على يديه صراط الهدى والسنة المحمدية .. المرحوم الشيخ اسماعيل السيد اسماعيل .

عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وشدتني عبارة « اتق الله حيثما كنت » التي صافحت أذني ، وهمت بها حبا ومحاولة حرص عليها ، حتى أنني والآن حيثما كنت وكان مكتبي في أية مؤسسة صحفية

« وقد اختلفت الى معظمها وتعاقبت عليها سنين متعاقبة»
فان « اتق الله حيثما كنت » شعار مكتوب موضوع أمامى يذكرني، .. لعل وعسى ان افعل .

ولفتني معاذ بن جبل ، وشعرت كأنه يخصني ! وحين عززت ـ بعد أسابيع ـ مرحلة الانصات الى استاذى بمرحلة الإطلاع والتزود بينابيع المعرفة والسيرة والسنة رحت انقب في بطون الكتب عن تلك الشخصية التى احببتها سماعا فأقرأ عنه واتمثله أمامي بوسامته وشبابه واشراق طلعته ، بتقاه وقنوته ، بعلمه وفقهه ، في أحكام الدين حتى لقد قال عنه النبى عليه السلام « أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل » اتمثله بجهاده واجتهاده بعفة نفسه وحسن سريرته وبصيرته .. فيتسع حبى له ويتعمق .

ووجدتنى ـ أو تمنيتنى ـ اشبه بهذا الرجل الذى حكى قصته معه لابعد الزمان بزمان مثلما أحكى ، وانما على الطبيعة وعلى الفور فيقول « دخلت مسجد دمشق ، فاذا فتى براق الثنايا واذا لناس معه اذا اختلفوا في شيء اسندوه اليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه فقالوا : هذا معاذ بن جبل ! فلما كان من الغد بكرت فالفيته قد سبقني بالتبكير وكان يصلى . فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته فسلمت عليه وقلت : والله انى لاحبك لله ! فقال : الله ؟ قلت : الله ! فقال : الله ؟ فقلت : الله ! فأخذ معاذ بجبوة ردائي . فجذبني اليه وقال : أبشر ! اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله سبحانه وتعالى وجبت رحمتي للمتحابين في والمتباذلين في والمتزاورين في » .

ثم اكتشفت أن رسول الله نفسه قالها له ذات يوم ، فقد أخذ بيده وقال : يامعاذ ! والله اني لاحبك ! وشفع هذا الحب الكريم الذى شرفه به بهدية غالية ونصيحة سامية فأضاف عليه السلام قوله : فلا تنسى أن تقول عقب كل صلاة .. اللهم اعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

اذن فقد اضحى حبى « الفطرى » لمعاذ بن جبل هو دون أن أدرى « تأسيا » برسول الله ، وسنة نبوية !

ولقد اسلم معاذ بن جبل الخزرجي المدني وهو ابن ثماني عشرة سنة .. ولم يكن بعد قد رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واني لاتخيل معاذا فى هذه السن الباكرة بحماسه الايماني ، وبقوة حافظته ، وتفتح ذهنه وتوقده ، قد حفظ وتفهم ماحمله مصعب بن عمير من قرآن وسنة الى المدينة ، وقد انبعثت نفسه للعلم والتفقه فى الدين ، وقد عصف به الحنين لمشاهدة رسول الله ولقائه . حتى اذا كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة والنبى مازال يعانى مايعانى فى دعوته بمكة انطلق معاذ من المدينة الى مكة مع نيف وسبعين رجلا وامرأة ليحجوا وليلقوا رسول الله ، وليبايعوه بيعة العقبة الثانية التى كان لها شأنها ومعنوياتها وقراراتها . ففى أعقابها مباشرة عزم رسول الله وتوكل على الله الذي ألهمه أنه قد آن الاوان ليسير الى دار هجرته .. ليهاجر الى يثرب حيث المسلمون فيها من أمثال معاذ وأقرانه عديدون على أهبة الاستعداد والترحيب ، وحيث قاعدة الانطلاق لبنساء الدولة الجديدة الابدية قد استقامت وتهيأت .

وقد شهد معاذ غزوة بدر ومابعدها . يقاتل

فيستبسل ، وينعم بصحبة النبي عليه السلام الذى كان يردفه معه فى الاسفار فيتعلم منه ويجود ويذكى ملكاته وفهمه وتأملاته وقنوته لله عز وجل حتى أن ابن مسعود قال عن معاذ : كنا نشبهه بابراهيم عليه الصلاة والسلام .. كان أمة قانتا لله حنيفا ! ومضى النبى عليه الصلاة والسلام يعلم معاذا ويوصيه ويرعاه ويوفده حيث يتطلب الامر ايفاد أهل الثقة والخبرة وأهل الذكر وأهل التقوى كان يحبه !

بعد فتح مكة ونصر الله العظيم اعتمر رسول الله عليه السلام ، فلما قضى عمرته وقبل عودته للمدينة المنورة استخلف على مكة الصحابي عتاب بن أسيد كما جعل مساعده معاذ بن جبل ليفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن الكريم .

ومرة أخرى واثر انتشار الاسلام فى ربوع اليمن كان معاذ بن جبل هو الرجل المناسب والمختار من قبل النبى . نهض رسولا لرسول الله عليه السلام الى اهل اليمن يعلمهم ويفقههم ويقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله . فان لم يجد ؟ هكذا سأله رسول الله عليه السلام ، قال معاذ : اجتهد رأيى ولا آلو ! « فطبطب » النبى على صدر معاذ وحياه ورضي عنه ودعا له ! ثم أوصاه وصيته الأخيرة التى لم يلقه بعدها أبدا ، فقد مات عليه الصلاة والسلام ومعاذ فى اليمن ، وان بقى دائما فى قلبه وفى ضميره . قال له عليه الصلاة والسلام « يسر ولا تعسر ، بشر ولا تنفر . وانك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة الا اله الا الله وحده لا شريك له . »

ونجح معاذ في مهمته أيما نجاح ، وحسن اسلام أهل اليمن . وتشاء المقادير أن تكون وفود اليمن هي آخر ما استقبل النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة قبل انتقاله الى رحاب الله ، فيسر بهم ويطمأن ويموت عليه السلام وهو راض عن معاذ !

نجابة معاذ بن جبل ، وشبابه المتفتح ، وتعلقه بالنبي، وقربه منه ، وعشقه للفقه ، وأخرويته .. كل ذلك طوع له أن يسأل النبي كثيراً ليسعد ويستنير ويعمل .

سأله ذات صباح : يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال عليه السلام : لقد سألت عن عظيم ، وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ! ثم استطرد عليه السلام قائلا : الا أدلك على أبواب الخير ؟ قال : بلى يارسول الله ! قال عليه السلام : الصوم جنة . والصدقة تطفيء الخطيئة كما تطفيء الماء النار . وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ « جزاء بما كانوا يعملون » . ثم التفت النبي الى معاذ وقال : الا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه ؟ قال معاذ : بلى يارسول الله ! قال عليه السلام : راس الامر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ! ومضى النبي عليه السلام في تعليمه يسأله : الا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال معاذ : بلى يارسول الله . فأخذ النبي بلسان معاذ وقال : كف عليك هذا ! قال معاذ : يانبي الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال عليه السلام : وهل

يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد السنتهم ؟
أرأيت كم ترغيب وترهيب ، كم حكمة وموعظة ساقت لنا بهذا الحوار !!

ثم في زهرة العمر ، في نحو الخامسة والثلاثين ، وفي « فلسطين » أيضا .. تأتي النهاية عاجلة الى معاذ ابن جبل « فقيه هذه الامة » بعد أيام من نهاية ابي عبيدة « أمين هذه الامة » ! .

فقد كان معاذ أميرا من امراء جيش ابي عبيدة بن الجراح ، وكانا معا في بلدة عمواس التي دهمها الطاعون فلما أصيب أبو عبيدة به كما تقدم في الحديث عنه وقبل مماته سلم معاذ بن جبل القيادة من بعده ، ولكنه هو الآخر مالبث ان شمله وباء الطاعون . فما ذعر وما أشفق على نفسه من الموت ؛ بل استلقى كواحد من صفوة أولياء الله الصالحين يرحب بلقاء ربه .. وقال رضي الله عنه وهو في النزع الاخير : رب اخنق خنقك ، فوعزتك اني لاحبك !

يا الهي ! ما أعظم هذا الشلال الهادر الحاني من الحب الذي كان يبثه معاذ بن جبل ، فيحب النبي ويحبه النبي ، ويحب الناس ويحبه الناس حتى اليوم ، وبالدرجة الاولى يتفانى في حب الله الذي عاش ومات عليه !

وباتت فجيعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في رحيل الاثنين ـ أبي عبيدة فمعاذ ـ قاسية ، وامست أحزانه عليهما مروعة . فلكم كانا جديرين بحبه الشديد واعجابه ، ولكم أضمر ان يستخلف من بعده أبا عبيدة او معاذ بن جبل ..

ولم يذهب سدى كل هذا الفقه .. والحب !

سعيد بن زيد

آباء الصحابة هم في الاغلب وجدوا أهلهم على أمة من الشرك فباتوا على آثارهم مقتفين وبأوثانهم مكتفين ، فنشأ أبناؤهم على نشأتهم ، وحين آمن الابناء «الصحابة» واسلموا استكبر الاحياء من آبائهم وعادوهم بل قاتلوهم واضحى الآباء فريقا من ثلاثة . أما ماتوا على عنادهم في فراشهم ، أو قتلوا على شركهم في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أسلموا قبل أو بعد الفتح لما تبين لهم دين الحق وأدركوا أن أبناءهم سبقوا اليه .

غير أن الصحابي سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان من الحالات الاستثنائية . نشأة ووجهة لهما طابع خاص من جراء كون وضع أبيه زيد بن عمرو بن نفيل يختلف اختلافا كبيرا عن سائر المحيطين به . كان للاب تأملاته المتمردة الرافضة لجاهلية الجاهلين .

ومن أشهر عرب الجاهلية في هذا المجال اثنان ، أحدهما ورقة بن نوفل والثاني زيد بن عمرو بن نفيل .

لم يرض ورقة بن نوفل عن الشرك وعبادة الاوثان فتهود ثم تنصر . وعندما هرعت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد زوجة محمد بن عبد الله تنبأه بنزول الوحي على زوجها محمد قال ورقة « والذي نفسي بيده لئن كنت قد صدقتني ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى . وانه لنبي هذه الامة ، فقولي له فليثبت » ! ولم يلبث ورقة أن التقى بمحمد وعلم منه

المزيد فعاد يؤكد « والذى نفسي بيده انك لنبى هذه الامة فقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى . ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ! ولئن ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصرا يعلمه » ! ولكن ورقة مات قبل ادراك هذا اليوم .. ولم يعقب !

اما زيد بن عمرو بن نفيل رفيق ورقة بن نوفل فى ابائه الشرك ورفضه عبادة الاصنام ، فهو لارضى باليهودية ولا اتبع النصرانية . ثم لقيه رجل من النصارى حاوره وسبر غوره وفهمه فقال له « انت تلتمس دين ابراهيم » فسأله زيد « وما دين ابراهيم ؟ » قال « كان حنيفة لا يعبد الا الله وحده » فقال زيد « وهذا الذى اعرف ! وانا على هذا الدين . ولعلى انتظر نبيا يبعث فأؤمن به وأصدقه ، فهل ترانى ادركه ؟! » ولكن هذا الموحد بالله والذى آمن بمحمد من قبل نبوته ورسالته لم يدركه ، ومات قبل البعثة بخمس سنين .

من هنا كان اسلام سعيد بن زيد بن عمرو اقرب الى أن يعتبر ممهدا ميسورا ، وهو باسلامه كأنما لا يسمو بروحه فحسب وانما يبر أباه كذلك !

مع السابقين الاولين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب « ابنة عمه وشقيقة عمر بن الخطاب » وأحسسنا نذكر الواقعة الشهيرة التى تقدم ذكرها فى اسلام عمر حين علم بأن أخته فاطمة وزوجها سعيدا قد أسلما فجاءهما غاضبا ، وكاد يبطش بهما . ثم أخذ يقرأ الصحيفة التى كانت فى أيديهما تحمل آيات مباركات من سورة طه ، فلم يلبثا ان رأيا « الجبل » عمر خاشعا متداعيا من خشية الله ! وقصد عمر لتوه رسول الله

صلى الله عليه وسلم لا لينضم الى قافلة المؤمنين فحسب وانما في نهاية المطاف ليعز الله به الاسلام أيما عزة !

وهكذا كان اسلام سعيد بن زيد بن عم عمــر بن الخطاب فالا حسنا مباركا ـ واية بركة ـ على مسيرة دين الله .

ولقد اسلمت مع سعيد ايضا اخته عاتكة بنت زيد التي جمعت الى دينها براعة الحسن حتى لقد عدت من أجمل جميلات العرب . غير ان هذا الحسن البارع الخارق لم يكن ـ فيما تعاقب عليها من زيجات وفيما افصحت عنه آخر الامر ـ فالا حسنا ! فلقد تزوجت عاتكة عبد الله بن ابى بكر ، وكان رهيفا شغف بها حبا وشغلته عن الجهاد مما حدا بابيه الصديق ان يامره بطلاقها فصدع للامر . ولكنه لما طلقها ذبل حبا وحنينا ووجدا ، وذوى حسرة على فراقها ، فاشفق عليه ابوه وخلى بينه وبينها فعاد اليها . ولكنه لم يلبث ان أصيب في معارك الطائف بجراح مافتئت تتحرك وتعاوده فمات عن « حسناء العرب » عاتكة بنت زيد في خلافة أبيه ! ثم بعد عبد الله بن أبي بكر تزوجت عاتكة ابن عمها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومات عنها حين اغتيل رضي الله عنه . ثم تزوجها الزبير بن العوام ـ وكان زواج الصحابة بأرامل الصحابة ضربا من ضروب التكريم ـ فقتل الزبير ، وترملت عاتكة للمرة الثالثة . فلما بعث على بن أبى طالب يطلبها للزواج قالت : انى أضن بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتل !

وفيما عدا غزوة بدر فقد شهد الصحابى الاصيل سعيد بن زيد كل الغزوات . اما فى أولاها فكان النبى

عليه الصلاة والسلام قد اوفده هو وطلحة بن عبيد الله في مهمة استطلاعية قبيل أيام من غزوة بدر فلم يشهداها واثبت عليه السلام لهما سهمهما وأجرهما فيها مثلهما مثل من شارك تماما .

وسعيد بن زيد بن عمرو هو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

ذات صباح صعد النبى صلى الله عليه وسلم الى غار حراء ومعه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مـــالك ابن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد « وهم العشرة المبشرون بالجنة » فتحرك حراء حــراكا يشبه مقدمات الزلزلة . فقال النبى عليه السلام : اثبت حراء ! فانه ليس عليك الا نبى أو صديق أو شهيد ..

وعاش سعيد بن زيد زاهدا في كل شيء الا في ذكر الله والجهاد فى سبيله .

وناضل في هدوء وتعفف وانــكار ذات كاصغر جندى ابتغاء مرضاة الله .

ولكم كان هذا الصحابي الكبير عازفا عن المنــاصب الكبيرة .

ولعلنا نذكر هذا الجيش المظفر الذى بعث به ابو بكر الصديق فعمر بن الخطاب لفتح الشام بقيادة أمين هذه الامة أبى عبيدة بن الجراح وسيف الله المسلول خالد بن الوليد . لقد كان سعيد بن زيد مع عدد مثالى من الصحابة بين جنوده .

وحين تم لابي عبيدة فتح دمشق ولى عليها سعيد بن

زيد ، ومضى فى زحفه . فما كان من سعيد الا ان كتب اليه : أما بعد ، فاني ماكنت لاوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسى وعلى مايدنينى من مرضاة ربى . واذا جاءك كتابى فابعث الى عملك من هو أرغب اليه منى ! فانى قادم عليك وشيكا ان شاء الله ..

ولقد عز على سعيد بن زيد أن تفترى عليه امرأة فى أخريات ايامه حين شكته أروى بنت أوس الى مروان ابن الحكم وادعت عليه أنه غصب شيئا من حدود دارها . واستجار سعيد بن زيد بالله عز وجل : اللهم انهـا قد زعمت انى ظلمتها ، فاللهم أظهر من حقى نورا يبين للمسلمين انى لم اظلمها !

وأمطرت السماء سيولا كشفت عن الحد الذى كـانا يختلفان عليه ، فاذا سعيد قد كان فى ذلك صادقا ، وكفاه الله شر الكاذبين ، واحسن العزيز الرحيم ختامه كما أحسن بدايته .

وطوبى للابن البار والصحابى المختار سعيد بن زيد أن كان أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وطوبى لابيه الصالح زيد بن عمرو بن نفيل دعوة النبى صلى الله عليه وسلم : غفر الله لزيد بن عمرو ورحمه ، فانه مات على دين ابراهيم ..

عثمان بن مظعون

لعل من المفيد أن نعرض لفضائل مختلفة من الصحابة نعم ، انها تتشابه فى الكثير ايمانا واحتسابا ، وعلما وجهادا ، ولكنها آخر الامر تمثل نماذج ونوعيات وأبعادا شتى .. وكل نموذج بمذاق وبصيرة !

والصحابى الذى نصحبه هنا اسمه عثمان بن مظعون .

هذا الصحابى أنسان شديد الزهد بطبيعته الى درجة التطرف فوق التطرف .. كما سيجيىء .

وانسان عدو الخمر الى درجة التحريم قبل التحريم ، حتى لقد روى عنه أنه قال فى جاهليته : انى لا اشرب شيئا يذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى من لا أريد !! فلما أسلم ، ولما نزلت آية سورة المائدة فى الخمر قيل له : حرمت الخمر ! وتليت عليه الآية ! فقال : تبا للخمر ، قد كان بصرى فيها ثابتا !

وانسان جم الحياء الى درجة المبالغة . حتى لقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ! انى لا أحب أن ترى امرأتى عريتى ! فسأله عليه السلام : ولم ؟ قال : أستحى من ذلك وأكرهه ! فقال الذى بعثه الله بشرا رسولا : ان الله جعلها لك لباسا وجعلك لها لباسا . واهلى يرون عريتى ، وانا ارى ذلك منهم ! قال : انت

تفعل ذلك يارسول الله ؟ قال نعم !! قال : فمن بعدك ؟!
فلما انصرف عنه عثمان بن مظعون قال عليه السلام : ان ابن مظعون لحيي ستير !

وعثمان بن مظعون من اوائل من اسلموا . هو من « دفعة » عبد الرحمن بن عوف وابي عبيدة بن الجراح. وامسى ـ لسبقه وصلاحه وانطوائيته ـ محترما من الجميع . ومما يستلفت النظر أن الذين دخلوا مبكرين في دين الله من آل مظعون كثار ، حتى لتذكر كتب السيرة أن من هاجر منهم باسلامه الى أرض الحبشة عثمان بن مظعون وابنه السائب بن عثمان ، ثم شقيقا عثمان .. عبد الله بن مظعون وقدامة بن مظعون . الاربعة من الصحابة ، والاربعة هاجروا الى الحبشة ثم هاجروا الى المدينة ولم يبق في مكة من اهلهم احد رجال ونساء الا ديار مغلقة ! والاربعة شهدوا غزوة بدر ، فما أوعاها اسرة وما أزكاها صحبة ! قاتلوا في بدر فما وهنوا في ابتغاء القوم . وتعرضوا للموت في ساحة الوغى فما ماتوا . غير أنه لم يمض الا قليل على شهود عثمان بن مظعون غزوة بدر مع صحابة النبي ومع آل مظعون حتى كان اول الراحلين ، فمات في الشهر الثلاثين للهجرة ـ قبل غزوة أحد ـ وكان أول من دفن في أرض المقابر « البقيع » التي اختارها رسول الله عليه السلام لهذا الغرض ، في ضواحي المدينة المنورة .

وبكاه النبي عليه الصلاة والسلام ، وراح يقبل وجهه وهو مسجى أمامه حتى سالت دمعه على خد عثمان ابن مظعون . ولما شيعت جنازته اطرق النبي عليه السلام ثم قال : ذهبت ياعثمان ولم تلبس منها « من الدنيا » بشيء !

حتى هنا تنتهي حياة قصيرة أمضاها عثمان بن مظعون في عالم الصحبة وفي صفحات التاريخ . الا أن ثمة دروسا هامة واعظة في حياته الخاطفة المخطوفة تستأهل التأمل .

أولا : لا رهبانية في الاسلام

ذلك أن عثمان بن مظعون اتخذ بيتا فقعد يتعبد فيه . فلما علم النبي بذلك قطع عليه عبادته تلك وقال له : يا عثمان ! ان الله لم يبعثني بالرهبانية ! « كررها عليه السلام ثلاث مرات » وان خير الدين عند الله الحنيفية السمحاء .

ثم ان زوجة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبي عليه السلام ذات يوم فرأينها سيئة الهيئة . فقلن لها : مالك ؟ وان زوجك لمن أغنياء قريش ؟ قالت : مالنا منه شيء ! اما ليله فقائم ، وأما نهاره فصائم ! وحين أقبل النبي على أزواجه ذكرن له ذلك ! فلقيه عليه السلام فقال : يا عثمان بن مظعون ! أمالك بي أسوة ؟ فقال : بأبي وأمي ، وما ذاك ؟ قال : أأنت تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : اني لأفعل ! قال عليه السلام : لا تفعل ! واني لآتي النساء ، وآكل اللحم ، وأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام !

وأصاخ عثمان بن مظعون لتوجيهات نبي الله عليه الصلاة والسلام . وظهر رد الفعل ! الزوجة نفسها — زوجة بن مظعون — التي زارت أزواج النبي على هيئتها السيئة تلك ، عادت أليهن بعدها كأنها عروس ! فقلن لها : مه ؟ « أي ايه الحكاية » ؟ ! قالت : أصابنا ما أصاب الناس !

وقريب من هذا ماروى من أن الصحابى بن حنظلة بن الربيع رآه ابو بكر باكيا فسأله الصديق : مابك ياحنظلة ؟ فقال : نافق حنظلة يا أبا بكر ! نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة فكأننا نراهما راى العين ، فاذا رجعنا عافسنا الازواج والضـــيعة ، ونسينا كثيرا ! فلما بلغ رسول الله ماكان من أمر حنظلة قال عليه السلام : لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالســـكم وفى طرقكم ! ولكن ياحنظلة .. ساعة فساعة !

ثانيا : القطع بدخول الجنة ؟!

حتى العشرة الذين بشرهم النبى عليه السلام بالجنة لم يستنيموا الى هذه البشرى ! بل عملوا لها وجدوا حتى آخر لحظة ، وكانوا يخشون عذاب الله أشد خشية . امير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو المبشر المظفر ، الحاكم العادل ، العابد الزاهد روى عنه قوله : ولو قيـل أن الناس جميعا دخلوا الجنة سوى واحد لخشيت أن أكون انا هذا الواحد !

ومع حزن النبى على موت عثمان بن مظعون وبـكائه عليه فقد سمع امرأته تتصايح أمام جثمانه : هنيئا لك الجنة ياعثمان بن مظعون ! فنظر اليها رسول الله عليه السلام نظرة عتاب وقال لها : وما يدريك ؟ ! قالت : يارسول الله فارسك وصاحبك ! قال : والله أنى لرسول الله ، فما أدرى مايفعل بى ولا به ! ولقد جزع بعض الذين حضروا هذا الموقف وهالهم « اعتراض » رســول الله صلى الله عليه وسلم على « القطع بالجنة » لعثمان ابن مظعون الذى هو من أفضلهم ، وكأنما يخافون على

أنفسهم ضمنا . ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعلمهم الا يتصور احد أن اللوح المحفوظ ملك يمينه يقرأ فيه مايشاء ! وقال عليه السلام : بحسبكم أن تقولوا انه رحمه الله كان يحب الله ورسوله . ثم حين مات « الطفل » ابراهيم ابن النبي قال عليه السلام : ادفنوه الى جنب فرطنا وسلفنا الخير عثمان بن مظعون .

الدعاء للنفس أو للغير بدخول الجنة مشروع ومطلوب بالتأكيد ، أما القطع بأن فلانا من أهل الجنة ، فمسألة فيها نظر وعليها تحفظات !

أذكر أنني كنت بين جموع ركاب الباخرة « قندالا » المبحرة الى الحج سنة ١٩٤٥ م ، وكان يخطب فينا فوق متنها المرحوم الشيخ حسن البنا خطابا رصينا عظيما . ولم أنخرط في عضوية الاخوان المسلمين ، ولكنني كنت معجبا ببراعة الشيخ حسن البنا . وحين انتهى من خطابه سمعت جاري يصيح : الله يامولانا ! والله لا يوجد لك مثيل ولا في الجنة ! وفي هدوء قلت له : يا أخي أن حبي للشيخ حسن البنا قد لايقل عن حبك له ، ولكن فلنترك أهل الجنة في حالهم ولندع الله أن يحسن ختامنا ويكتب لنا الجنة . فأشاح صاحبنا وجهه عني مغضبا وهو يقول : ناس لا عندها نظر ولا سمع سامحه الله وسامحنا .

ثالثا : البكاء على الميت

في مسألة كون الميت يعذب ببكاء الحي عليه ، لعل كانت لي اجتهادات حولها ترجح أن المقصود هو اشفاق الميت على الحي وليس العذاب بالمعنى المتعارف عليه . وهذه المسألة تتجدد هنا ، بل اكتشف أنها تكاد تحسم !

ذلك ان النساء حين بكين عثمان بن مظعون عنفهن عمر بن الخطاب . ويقول ابن عباس أن ألنبى عليه الصلاة والسلام اخذ بيد عمر وقال : مهلا ياعمر ! ثم التفت اليهن وقال : ابكين ، واياكن ونعيق الشيطان ! وأضاف قوله عليه السلام : انه ماكان من العين والقلب فمن الله ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان !

رابعا : الموت والاستشهاد

تعالوا نقرأ هذا « النقد الذاتي » الذى يروى عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب .. وما اثرى الذى بزودنا به عمر دائما من دروس وعبر . قال « انه لما مات عثمان ابن مظعون وفاة ولم يقتل هبط من نفسي هبطة ضخمة ؛ فقلت انظروا الى هذا الذى كان أشدنا تخليا عن الدنيا ثم مات ولم يقتل ! فلم يزل عثمان بتلك المنزلة من نفسي حتى توفى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقلت ويك ! ان خيارنا يموتون ! ثم توفى أبو بكر فقلت ويك ! ان خيارنا يموتون ! فرجع عثمان بن مظعون الى المنزلة التى كان بها قبل ذلك !

هكذا ، فلنفوض الامر لله يقضى مايشاء .

ولله الامر من قبل ومن بعد « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » ١٤٥ آل عمران . «من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا » ٢٣ ألاحزاب .

القضية فى هذا الشأن هى كيف يكون المنتهى ، رزقنا الله واياكم حسن الختام ..

ابو ذر الغفارى

ملايين الملايين من الدنانير ! الذهب بالأطنان مشغولا وغير مشغول ! سبائك الفضة ومصنوعات الفضة تسد عين الشمس ! تيجان مرصعة بالدر والطنافس ! لآلىء وياقوت وزمرد وزبرجد وجواهر شتى وترى !

نفائس وتحف وديباج وترف امبراطورية فارسية تداعت واستسلمت !

ذلكم بعض فيء وغنائم معركة المدائن التى تخر فيها ايوان كسرى ساجدا لقبضة ودعوة المسلمين العرب ! ذلكم مابعث به القائد المنتصر سعد بن ابى وقاص الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب !

وعمر ينظر الى هذا الفيء الكثير النفيس المترف المطرح امامه ويبكى ، وينشج بالبكاء !

ويدهش « كبير المستشارين » عبد الرحمن بن عوف لبكاء عمر . ما يبكيك يا امير المؤمنين ؟ فوالله ان هذا لموطن شكر !

بيد أن عمر غلبته فراسته ، وحاسته السادسة ، وتخوفاته من قابل الايام ، فما استطاع أن يغالب دموعه ! رمق عبد الرحمن بن عوف بنظرة ود واشفاق ، واجابه على سؤاله :

« والله ماهذا يبكينى ! وتالله ما اعطى الله قوما هذا الا تحاسدوا وتباغضوا ! وما تحاسد قوم الا القى باسهم بينهم » !

عبارة مؤثرة ، نافذة الذكاء والحكمة كأنها تستشف المستقبل ، وهي غنية عن اى تعليق !

وانما استعرت هذا المشهد التاريخي الاريب مدخلا للحديث عن صحابي اشتهر بالمواقف الحادة . بالتمرد والمعارضة والمقاومة .. وبالذات في مجال تكديس الاموال وكنز الذهب والفضة دون انفاق بالعدل ، لاقدم للصحابي جندب ابن جنادة ابن كعيب الذي عرف بكنيته وثورته .. اعنى ابا ذر الغفاري !

ولقد كان الصدام الظاهر الحاد الذي سلكه ابو ذر هو صدامه الشهير مع معاوية بن ابي سفيان حـــاكم الشام في خلافة امير المؤمنين عثمان بن عفان . والخــلاف قام حول تفسير وتطبيق آية من كتاب الله . اى في المجالين الحيويين من اهتماماته ، واولهما التمســـك بكتاب الله وسنة رسوله حتى لا يعبأ بسواهما ، والثاني حب المساكين حتى يمكن « للتقريب » أن يقال ان نوازعه « اشتراكية » !

اختلف مع معاوية في هذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشـــرهم بعذاب اليم » ٣٤ التوبة .

قال معاوية : نزلت الآية في أهل الكتاب .

وقال ابو ذر : نزلت فينا وفيهم ! ومافتىء ابو ذر يردد : ان خليلي « رسول الله عليه الصلاة والسلام » عهد الي أن اى مال ذهب او فضة هو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله !

وشكا معاوية ابا ذر الي عثمان . وقال أن ابا ذر قد افسد الناس في الشام ! ودرءاً للنزاع ، وبالحســنى

والتفاهم ، حدد عثمان اقامة ابى ذر ، فأصاخ له حتى حين !
على ان أبا ذر ظل مقيما أبدا على مبادئه فى التعاطف مع الفقراء والايمان بالعدالة الاجتماعية .
وفى الحق أن تاريخ أبي ذر من بدايته لنهايته كـان عجيبا عنيدا « مشاغبا » !
حتى قصية اسلامه .. لا تخلو من « شغب » !
كان قومه « غفار » يقطعون الطريق ويحلون الشـهر الحرام ، ولكنه هو على وجه الخصوص كان يمقـت الاصنام ويشهد الا اله الا الله .
وبعد فترة وجيزة جدا من بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن قد أسلم الا عدد لا يجاوز أصابع اليد الواحدة ، بلغت الانباء أبا ذر ، وقيل له ان رجلا بمكة يقول مثلما تقول لا اله الا الله ويزعم انه نبى ! فسأل : من هو ؟ قيل : من قريش واسمه محمد ! فقدم مـكة ليستقصى حتى دله على النبى رجل من بنى هاشم فتوجه اليه عليه السلام وحياه وقال : انعم صباحا ! فقـال : وعليك السلام ! قال له أبو ذر : انشدنى ما تقول ! قال : ما أقول الشعر ، ولكنه القرآن . وما أنا قلته ولكن ألله قاله . قال اقرأ علي ! فقرأ عليه سورة من القرآن الكريم . فقال ابو ذر : اشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمـدا رسوله . ولما علم النبى أن أبا ذر من غفار التى اشتهرت بقطع الطريق تفرس فى وجهه متعجبا ثم قال عليـه السلام : ان الله يهدى من يشاء !!
وبدأ ابو ذر « الشغب » !
خرج الى البيت الحرام ، فراى امرأة تطوف بالبيت

وتدعو وتلظ في الدعاء : اعطني كذا ، وافعل بي كذا !
ثم بدلا من أن تتمتم بدعواتها بأن تقول يارب ، قالت
يا أساف ويانائلة « أرباب وثنية من دون الله » ! فلم
يستطع ابو ذر كتمان تعليقه « وكأن القافية تعذر ! »
فقال : انكحي احدهما صاحبه !

وفي حنق مستفز أمسكت به وصرخت : هذا صابيء !
وتجمع على صراخها فتية من قريش فأوسعوه ضربا !
وعاد أبو ذر للنبي عليه السلام يقول : يارسول الله ،
أما قريش فلا أدعهم حتى أثار منهم .. ضربوني ! واخذ
يمارس هوايته « الغفارية » ! ممسكا بيده « قرن غزال »
راح يهاجم عير قريش فتنفر وتلقى بأحمالها من
الحنطة . واذ يبدأ أصحاب العير في جمع الحنطة
يتهددهم ابو ذر : لا يمس احد حبة حتى تقولوا لا اله
الا الله .. فيرضخون !

وبعد أن « ثار » عاد الى رسول الله وسأله : يانبى
الله بماذا تأمرني ؟ قال عليه السلام : ترجع الى قومك
حتى يبلغك أمري ! قال ابو ذر : والله لا ارجع حتى أصرخ
بالاسلام في الكعبة ! فدخل اليها ونادى بأعلى صوته :
اشهد الا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! فقام
اليه المشركون فضربوه حتى أغمى عليه . ومارجعوا عنه
الا بعد أن حذرهم العباس من أن أبا ذر من غفار
قاطعة الطريق ، وهم تجار ! والعجيب أن الشيء نفسه
« وبالضبط » عاد اليه وفعله ابو ذر في اليوم التالي
مباشرة بعناده وشغبه . هتف فضرب فأغمى عليه
فأنقذه العباس من مشركين تجار آخرين !

بعد هذه « المشاغبات » الطريفة التي احدثها ابو ذر

فى مكة رجع الى بلاده فاقام بها . ما سمع بغزوة بدر او احد او الخندق . ثم اخيرا رحل الى المدينة ، وشارك في سائر الغزوات ، ولزم صحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام فلا يكاد يفارقه ، وكأنما أحس بندم شديد على ماضاع من أيامه بعيدا عن النبى فتفانى فى « تعويض » تلك الايام . يسمع عن النبى ويحفظ . ولمس عليه السلام صدق هذا الرجل مع نفسه ومع الناس ورغبته فى أن تشيع العدالة والمساواة بين عباد الله ، مع زهد فطرى فى دنيا الناس ، ومع سريرة نقية غير قابلة للفساد أو التغيير ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما اظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق من ابى ذر ! ومن سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى ابى ذر » !

كانت تلك اجمل واخصب واهدأ سنى حياة ابى ذر ، وابعدها أعتراضا وعجبا وشغبا .

كرس حياته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكما تروى أسماء بنت ابى بكر « ان ابا ذر كان يخدم رسول الله ، فاذا فرغ من خدمته آوى الى المسجد .. وكان هو بيته » !

صحابى « متفرغ » لصحبة رسول الله وخدمته والانصات اليه . فبم أوصاه عليه الصلاة والسلام ؟

يقول ابو ذر « أوصانى خليلى بسبع . امرنى بحب المساكين والدنو منهم . وأن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر الى من هو فوقى ، والا أسأل احدا شيئا ، وأن أصل الرحم وان ادبرت ، وأن أقول الحق ولو كان مرا ، والا اخاف فى الله لومة لائم ، وأن اكثر من لا حول ولا

قوة الا بالله فانهن من كنز تحت العرش » .

على ان « المحنة » النفسية التى اعترت ابا ذر واعترضت طبيعته نستشفها فى هذا الحوار الذي جرى بين رسول الله وبينه . سألنى النبى : كيف انت يا اباذر اذا كانت عليك امراء يستاثرون بالفيء ؟ قال : اذن والذي بعثك بالحق اضرب بسيفى حتى الحق به ! فقال عليه السلام : افلا ادلك على ماهو خير من ذلك اصبر حتى تلقانى ! وواضح انه حوار يتعلق بالمستقبل بعد رحيل النبي عنهم . كما ان الصبر فى هذه الامور قد لا يتفق مع طبيعة ابى ذر التصادمية والمشاغبة . ومن هنا فان « ضبط النفس » المؤقت قد يكون مالوفا من الناس ، اما من ابى ذر فيلوح عجيبة من عجائبه ! ولكن ابا ذر على اى حال نسيج وحده غير الناس . الم يقل عنه نبى الله عليه الصلاة والسلام « رحم الله ابا ذر . يمشى وحده ! يموت وحده ! ويبعث وحده ! »

وبعد هذه السنوات « الهادئة » مع رسول الله ، تتحرك « المشاغبة الذرية » فى خلافة عثمان رضى الله عنه . وابو ذر مشغول بهموم الفقراء وبملاحظة « المتغيرات » . لقى الصحابى ابو موسى الاشعرى ابا ذر فحياه مرحبا : يا اخى ! ورد ابو ذر فى حدة واعتراض : لست باخيك ! انما كنت اخاك قبل ان تستعمل « اى تعمل للحكام » ! فى حين انه لما لقى ابو ذر ابا هريرة واطمان الى انه لم يتطاول فى البناء او يقتنى الضياع رحب به وقال : انت اخى !

وكان حتما ان يموت ابو ذر كما تنبأ له النبى عليه السلام .. وحده ، وما ترك شيئا مذكورا ، ولكنه خلف

ثروة من الاحاديث الشريفة والقدسية التي رواها ، كما خلفت حياته العنيدة المشاغبة بذور ثورة اجتماعيـــة اقتصادية تتنازع عليها حتى الآن . فمن قائل انه داعية الاشتراكية بل « الشيوعية » !! ومن قائل انه داعيــة الزهد والسمع والطاعة ولو لامير عبد حبشي ! وواقع الحال أن أبا ذر الغفاري حمل من غفار الحدة والتحدى ، واكتسب من الاسلام التعاطف مع الفقراء ، وتعلم من صحبة النبي الزهد والورع . وكان صادقا فى كل ذلك كما وصفه النبى عليه السلام .

فلينم ابو ذر الغفارى ملء جفونه عن شوارده ـ اسوة ببيت شاعرنا ابى الطيب ـ وليســهر الخلق جراها ويختصم !

زيد واسامة

نقول الصدر والقلب ، ونعنى الراس والعقل « المخ » .. سيان ! نحن لا نبحث في علم وظائف الاعضاء ، وانما ننوه .ـ على المشهور ـ بمشاعر الاحباء ! نحن لا نناقش قضية طبية ، بل نتفيىء أحاسيس وجدانية عاطفيـــة دينية ، سواء صدرت عن نبضات القلب أم ومضـــات اللب !

واشهد اننى أسبح فى لجج من المحبة لا تبارى . وانما تشخص أمامي وتتماوج وتغمرنى اذ أنتقل بين عشرات بل مئات الصحابة . واذا كان حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام على أساس عقائدي وشخصي ـ تعرفه الاديان والانسانية ـ حبا يصدر عن ايمان واعجاب ، واحترام وتقدير ، وامتثال لاوامره واجتناب لنواهيه ، واعتزازا بالصحبة ، فذلك كله مفهـــوم . أما الحب المعجزة حقا فذلك الذى كان يكنه ويعبر عنه ويفيض به رسول الله على مئات المئات من أصحابه بل نحو الانسـانية جمعاء .

فبما رحمة من الله جعل سبحانه هذا القلب النبوى الكبير أوسع القلوب طرا . يسع حبه صحابته جميعـــا وكأن كل واحد منهم الاحب اليه ! يغدق عليهم كلهم من خلجاته الحميمة وكلماته الكريمة . بل يسع أمتـــه الانسانية بحبه الي مدى الدهر . ويمتد هذا الحب الى

الآخرة فهو الشافع المشفع فيها يوم يبعثه الله عز وجل المقام المحمود الذي وعده .

فاذا كان الصحابيان اللذان اتحدث عنهما هنا قد اشتهر كل واحد منهما - الاب والابن - بانه حب « حبيب » رسول الله وكأنه « حب بالوراثة » ، فان هذا الحب - فيما قرات وفيما اثر - قد شمل جميع الصحابة .. وهو مهما تفاوت فقد بلغ الذروة أو تعداها !

أما الاول « الاب » فما كان يمكن أن تخلو منه هذه اللمحات عن الصحابة - سلام عليهم ورضوان الله عنهم - رغم أنها بالضرورة عاجزة عن أن تحيط بالصحابة الاجلاء جميعا ، وذلك من غير انتقاص « لقدر أى » من المتروكين . فانهم على العين والرأس ، وأن لهم اعتذارى واكبارى !

نعم ، ما أحسبني اتخطى زيد بن حارثة وهو « أول » من أسلم ، وهو الصحابى الوحيد المذكور بالاسم فى القرآن الكريم « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » ٣٧ الاحزاب ، ثم هو من هو فى قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

البداية أن زيد بن حارثة ضل عن ركب أبيه وأسر ، فكان هذا الضلال أو الاسر طريقه الى الهدى .. الى بيت خديجة بنت خويلد حيث وهبه لها ابن أخيها .
وفرحت بزيد خديجة وزوجها محمد بن عبد الله واعتقاه . بل نسبه محمد الى نفسه - وكان عليه السلام يكبره بعشر سنين - واعلن أنه يورثه ، فبات يدعى زيد ابن محمد حتى نزل قوله تعالى « ادعوهم لآبائهم »

و « ماكان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فعاد له اسمه زيد بن حارثة . ولـكنه ابدا لم يعد لابيه حارثة حتى بعد أن وجده وطلبه ، اذ ابى زيد ، وآثر بيت محمد على بيت أبيه ، فرضي الاب واطمأن الى قول ابنه :

فاني بحمد الله فى خير اسـرة
كرام معد كابرا بعد كابر !

وكان لزيد سنوات وهو مقيم فى البيت الشريف حينما عاد محمد من غار حراء ينادى زوجه خديجة « زملونى » ويقص عليها قصة الوحي ، فتؤمن بنبوته وتسلم . ويعقبها زيد فيغدو هو الآخر أول من اسلم من الموالى ، ثم على ابن أبى طالب فيصبح أول صبى اسلم ، ثم أبو بكر أول من أسلم من الرجال .

وبقدر حب زيد للنبى عليه السلام وتفانيه فى خدمته، كان حب رسول الله لزيد واهتمامه بشئونه وبتزويجه وبتأميره فى سرايا القتال . ان اصالة الاخـلاص لله ورسوله ، وشهامة البسالة ، وبراعة الرماية .. صنعت من زيد مقاتلا جسورا وقائدا يعتد به ويعتمد عليه . حتى أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : مابعث رسول الله عليه السلام زيد بن حارثة فى جيش قط الا أمره عليهم !

حتى اذا كانت « مؤتة » فى السنة الثامنة للهجرة عقد النبى أمارتها لزيد بن حارثة ، فاذا أصيب فجعفـر ابن أبى طالب من بعده ، فاذا أصيب فعبد الله بن رواحة وكانت معركة ثقيلة حامية الوطيس . والقـادة فى المقدمة يحملون اللواء ، وهم على أرجلهم ولا يألون قتالا ،

وكأنما ينشدون الاستشهاد في سبيل الله . وبالفعل قتل الابطال الثلاثة تباعا « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، الا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » ١٦٩-١٧١ آل عمران .

ويبتهل رسول الله الى المولى عز وجل ، ويدعو للشهداء الثلاثة العظام . ثم يتناهى الى سمع النبى بكاء أجهشت به بنت زيد بن حارثة أسفا على أبيها ، فيبكى عليه السلام بل ينتحب ، فيسأله سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فيجيبه : هذا شوق الحبيب الى حبيبه !

وهذا الشبل من ذاك الاسد !

ومن شابه أباه فى منزلة الحب فما ظلم !

كذلك كان موقع أسامة بن زيد بن حارثة من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أبيه زيد ..

كان عليه السلام يضع حفيده الحسن بن على بن أبى طالب على فخذه ، وأسامة بن زيد على فخذه الاخرى ، ويقول : اللهم انى أحبهما .. فأحبهما !

ونشأ أسامة فتى موهوبا مقداما يسبق عمره فراسة وفروسية ، ورجاحة عقل وشجاعة قلب .

وأخذ يتدرب على القتال ويتفوق فيه .

فلما استشهد أبوه زيد ، وتوسم النبى فى أسامة ماتوسم ، أرسل النبى احدى السرايا المقاتلة وجعل أسامة أميرا عليها . وبلغ النبى أن أناسا يطعنون فى امارة أسامة ، فقال لهم عليه السلام : الا انكم تعيبون

أسامة وتطعنون فى أمارته . وقد فعلتم ذلك بأبيه من قبل . وان كان لخليقا للامارة ، وان كان من أحب الناس الى ، وان ابنه هذا من بعده لمن أحب الناس الى ، وانى لارجو أن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيرا !

وثمة ثلاثة مواقف هامة فى حياة أسامة ، ومن المفيد أن تروى لما فيها من دروس وعبر .

أما الاول ، ففى بدايات تجربة المقاتل أسامة بعثه النبى على جيش ، وعاد منتصرا الى رسول الله الذى استقبله متهلل الوجه وادناه منه ثم قال له : حدثنى ويقول اسامة : « واخذت احدث رسول الله عليه السلام ، ثم قلت له فلما انهزم القوم ادركت رجلا واهويت « أشهرت » عليه بالرمح ، فقال الرجل لا أله الا الله .. فطعنته فقتلته ! فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا اله الا الله ؟ فلم يزل يرددها حتى وددت أنى لو انسلخت من كل عمل عملته واستقبلت الاسلام يومئذ من جديد ! فلا والله لا أقاتل أحدا قال لا اله الا الله بعد ماسمعت رسول الله » .

فلا ينبغى ابدا أن نجترأ ونتعدى فنحكم ــ مهما كان ــ بكفر احد شهد الا اله الا الله ، فضلا اننا أصلا لا نملك صكوك غفران او حرمان !

أما الموقف الثانى فقد « تسبب » فى اهدائنا حديثا نبويا مبينا شهيرا زاد من وضع النقط فوق الحروف ، ومن تأكيد معنى المساواة التامة أمام القانون أو بالاحرى أمام شريعة الله .

وربما لهذا الموقع اللصيق الوثيق برسول الله ومن

« العشم » كان أسامة يأتى النبى فى الشىء « اليسير الجائز » لعله يشفع فيه . وذات مرة سرقت امرأة من قريش فقالوا : ومن يجترىء فيكلم رسول الله فيها الا أسامة بن يزيد حبيب النبى . واستجاب لهم اسامة وكلم النبي بشأنها فعنفه : كيف تشفع في حدود الله ؟ ثم قام عليه السلام فخطب فى الناس : انما هلك الذين من قبلكم أنهم اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها !

ومن « التجربة والخطأ » نضج اسامة كأكمل مايكون النضج فى جامعة رسول الله فهما لدين الله وذودا عن حياته .

ونأتى الى ثالث وآخر المواقف ..

عزم نبى الله على تسيير جيش لجب أعده من خيرة المسلمين المقاتلين لتامين تخوم شبه الجزيرة العربية من بلاد الروم المجاورة ، فى اتجاه « مؤتة » و « تبوك » . وعهد عليه السلام الى أسامة بن زيد بقيادة هذا الجيش ليكمل مهمة ابيه الذى استشهد مع العديد من الصحابة في حدود الروم .

غير أن أجل رسول الله كان قد اقترب ومرض مرضه الاخير . فكان كلما أفاق من الحمى نادى في أصحابه انفذوا جيش اسامة ! انفذوا جيش اسامة ! لكن اسامة كان قد علم بثقل المرض على رسول الله فتريث . فلما مات النبى عليه السلام عاد أسامة الى خليفة رسول الله ابي بكر الصديق يراجعه ربما عدل عن انفاذه .. وخاصة ان بعض الناس كانوا يستصغرون سنه ويتذمرون من

امارته للجيش . بيد أن أبا بكر صمم بغير تردد : ليتم بعث أسامة ! والله لو ظننت أن الطير تتخطفني لانفذت بعث اسامة كما امر به رسول الله ! ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته !

وادى أسامة وجيشه المهمة على الوجه الامثل الذي اراده رسول الله ومن بعده خليفته الذى لا يعصى له امرا . عاد اسامة بعد قرابة شهرين ظافرا شاكرا ، سالما غانما من بعثته التي اختلجت بنصرها قلوب أهل المدينة المنورة فرحا واعتزازا واستبشارا .

ثم انضم أسامة بجيشه الى كتائب المسلمين في قتال مانعي الزكاة وفي حروب الردة فيحق الله الحق بكلماته وبجنوده .

ولم يكن « الصحابي الصغير » أسامة بعد ذلك كله قد اتم اثنتين وعشرين سنة من عمره .

سال عبد الله بن عمر بن الخطاب اباه أمير المؤمنين لماذا فضل عليه في العطاء أسامة بن زيد ؟ فأجابه عمر بصراحته ورضاء نفسه : فعلت ذلك لان زيد بن حارثة كان أحب الى رسول الله من عمر ، وأسامة بن زيد كان احب الى رسول الله من عبد الله بن عمر !

وكانما لا نكاد نتحدث عن صحابي حتى نجد أنفسنا نقف مشدوهين امام تلك « المؤسسة الاسلامية الكبرى » .. امام عظمة وجلال وتواضع عمر بن الخطاب !

عمار بن ياسر

الصحابة المكرمون هم جميعا في غنى عن كلماتي وكلمات غيري . نحن الذين نشرف بالحديث عنهم . ولكن حتى متى اتخلى عن هذا الصحابي او اؤخره ؟

بعد ان كتبت عن الامام على بن ابي طالب امير المؤمنين ما كتبته هنا ، لم تبرح « صورة » عمار بن ياسر تعاودني مرات ومرات وقد قاسمتها في خاطري الهموم والاحزان فأدعو لصاحبها بالرحمة والرضوان ، وأمسك عن سائر الكلام ! ثم انتهيت الى انه لا يستقيم لي ولا يليق التخلي عن عمار بن ياسر بدعوى الاشفاق على نفسي ، فلكم اشفقت فكتبت ! انني ــ بالقطع ــ قديم الصلة بعمار ابن ياسر عظيم اللهفة عليه ، منذ ان طالعت السيرة النبوية ، و « شاهدت » مرور النبي على تلك الاسرة المعذبة ، و « سمعت » قوله عليه السلام « صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة » ، وبكيت لاستشهاد سمية أم عمار ــ من شدة التعذيب ــ وهي مكتوفة ترزح تحت براثن وطعنات ابي جهل ، وتفيض روحها لتمسى أول شهيدة في الاسلام .

انها تلك الشهور والسنوات الاولى عندما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة لدين الله في مكة فأسلم بضعة نفر ، ولاقى هؤلاء ــ وخاصة المستضعفين بينهم ــ من جبروت واضطهاد وتنكيل قريش بهم ماهو فوق التصور وفوق الاحتمال .

فأما اسرة ياسر التي بدت « عاثرة الحظ » فقدواجهت بالجملة انكالا وجحيما وعذابا مقيما ، ووحشية ضارية رهيبة . الاب ياسر مضطهد معذب فيريحه الله من وجوه المشركين ويختاره الى جواره ، والام سمية تعذب حتى الموت أمام أعين ابنها عمار . وهاهو ذا عمار يعاني عذابا نفسيا فوق العذاب البدني . يحرقه عتاة قريش بالنار كيما يقدح في رسول الله ويذكر آلهتهم بخير ، فيضطر الى أن يفعل ذلك والدنيا تميد به ! عندئذ فقط يسمح له المشركون الجبابرة بفسحة من الوقت دون عنت ، ويفرجون عنه مؤقتا ، فيلقى رسول الله عليه السلام فيسأله : ماوراءك ياعمار ! فيقول : شر يارسول الله ! والله ماتركت حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير ! فيقول له عليه السلام : فكيف تجد قلبك ؟ فيقول عمار : مؤمنا ! فتطيب نفس الرسول ويعزيه فيقول : فان عادوا فعد ! وتتنزل في عمار بن ياسر « آية استثناء» في قوله تعالى : « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » ١٠٦ النحل . فسبحان عالم الاسرار والسرائر ، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ وهكذا فحينما قيل للنبي ان عمارا أكره على الكفر فكفر ، قال عليه السلام : كلا والله ان عمارا ملىء ايمانا من قرنه الى مشاشه ! هكذا تعاطف معه النبي بل أحبه كأنه بعض منه وقال عليه السلام : عمار جلدة مابين عيني وأنفي !

ولله در عمار ! جسمه مثخن بالخروق وآثار الجراح ، وأذنه مقطوعة من التعذيب ، في حين أن قلبه معلق بالمساجد ! كان أول من اتخذ في بيته مسجدا يصلي فيه المسلمون ! ثم في المدينة المنورة يروى أبو سعيد

الخدرى أنه « لما أخذ النبى عليه السلام فى بناء المسجد جعلنا نحمل لبنة لبنة ، وجعل عمار يحمل لبنتين لبنتين ! فجئت فحدثنى أصحابى أن النبى صلى الله عليه وسلم راح ينفض التراب عن رأس عمار ويقول : « ويح ابن سمية .. تقتلك الفئة الباغية » !

هذه « النبوءة » التى هى أشهر مافى تاريخ عمار ابن ياسر وأكثرها بعثا للشجن ظلت نبوءة معلقة لا يعرف أحد متى وكيف تجيىء !

يقاتل عمار المشركين البغاة فى بدر فلا تقتله الفئة الباغية !

يقاتل الكفار فى « أحد » وفى الخندق وفى كل غزوات النبى فلا تحل نهايته !

ويخوض الحرب الضروس ضد المرتدين فى اليمامة خلال خلافة أبى بكر الصديق ، ويقاتلهم أشد قتال ، ويتعرض للموت اياما وأسابيع ، فيظفر بهم ولا يظفرون ، ويحيا ويموتون !

ويشارك عمار فى طول المعارك الاسلامية وعرضها ، ويبلغ مع من بلغ الكوفة فلا يصرع هناك ، وانما يعينه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واليا عليها !

وعمار العابد الزاهد البسيط بين المستضعفين فى مكة أول الاسلام هو نفسه عمار العابد الزاهد البسيط وهو أمير الكوفة !

اذن متى وأين وكيف تجىء النهاية المأساوية ؟ متى تتحقق النبوءة ، فتقتل عمار « الفئة الباغية » ؟!

يحدث هذا حين يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض، رغم التحذير الذى وجهه النبى لهم وأشهد الله عليهم فى هذا .. اللهم فاشهد !

يجرى هذا الهول مع انطلاق الفتنة من عقالها بعد مقتل عثمان وخلافة على بن أبى طالب ، وبعد بث المغرضين الفرقة والاضطراب وقعقعة الاسلحة متاجرين بقميص عثمان والثأر لعثمان . وينساق الى الثأر ابرياء ، وينتظر الغنيمة من فى قلوبهم مرض من الخبثاء !

وها أنا ذا أعود بقدمى وبقلمى الى مسرح الاحداث مرة أخرى ، الى واحدة من أشق المراحل الاسلامية وأوجعها، وكأننى أكرهت الى فتح صفحات الفتنة التعسة النكراء وقلبى مطمئن الى استنكارها !

ولم يكن على بن أبى طالب بقبوله المواجهة راغبا فى ان يدافع عن كرامة الخلافة الاسلامية التى تولاها بقدر ما كان يود أن يدفع الفتنة عن الامة الاسلامية .

ولكن الظاهر والقدر أنه كان لابد مما ليس منه بد !

ويعث على بن أبى طالب بابنه الحسن الى المدينة المنورة يستنفر الناس — ومن بينهم عمار بن ياسر — ضد الفتنة القائمة القاتمة ، ويستنهضهم لمناهضتها . وكانت أم المؤمنين عائشة قد رحلت من المدينة الى العراق مع طلحة والزبير متأثرين بمقتل عثمان . . وقد شهرت الرماح والاسنة .

وقبل أن يتوجه ليلحق بعلى فى صفين خطب عمار بن ياسر فى الناس فى المدينة المنورة قائلا : « والله انى لاعلم أنها « اى السيدة عائشة » زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بهــــا ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها » !

وليس بكاف أن يصف عمارا من وصفه من معاصريه بأنه كان رجلا طويلا بعيد ما بين المنكبين . لابد أن عمارا

كان صاحب بنية قوية ، وعافية ماضية غير عادية تتحدي الزمن والشيخوخة . ذلك وحده يفسر لنا كيف أنه وهو قد تعدى الثمانين من عمره لم يهجع الى داره حيث منتجع المسنين بل مضى يقاتل وكأنما يحتفظ بعنفوان الشباب ! فنحن نعلم بالتجربة ماذا تكون عليه ـ عادة ـ الطاقة والخلايا الحيوية لابناء مافوق الستين والسبعين في زماننا وربما في زمانهم . يلوح أن « النبوءة » أمدت عمار بن ياسر بحوافز معنوية وبدنية في ارتقاب تحقيقها .

وقد رأوا عمارا يوم صفين شيخا وفي احدى يديه حربة ترعد ، وفي الاخرى راية ، وهو يصيح « ان هذه الراية قد قاتلت بها بين يدي رسول الله عليه السلام ثلاث مرات ، وهذه هي الرابعة .. وان لم تكن أبرهن ولا انقاهن ! والله لو ضربونا وهزمونا حتى يبلغونا لعرفت أننا على الحق وانهم على ضلال ! الجنة تحت البارقة ! اليوم ألقى الاحبة .. محمدا وحزبه ! اللهم اني لا أقاتل الا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبني وأنا أريد وجهك ! ائتوني بشربة لبن فان رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لي ان آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن » !

وتناول عمار اللبن ـ أو الكفن ـ وتقدم في مواجهة جنود معاوية فأصابوه برمح قاتل كان هو فصل الخطاب !

أما علي بن ابي طالب الذي كان عمار يقاتل في صفه حين صرع ، فما التبس عليه الامر وما تأول ، وانما قال كرم الله وجهه : ان امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر لغير رشيد ، وان عمارا ليدور مع الحق اينما دار .

أما المعسكر الآخر فقد ارتعد وارتجف خوفا من النبوءة الشهيرة التى وقعت عليهم وغشيتهم ودمغتهم بالبغى ، فأخذوا يتأولون فيها .

أما عمرو بن العاص فقد تمنى فى قرارة نفسه أمنيــة لم يكتمها : والله لوددت انى مت قبل هــــذه بعشرين سنة !

أما الداهية معاوية بن ابى سفيان فقد سمع عبد الله ابن عمرو بن العاص يخاطب أباه : يا ابتى ! الم تســـمع رسول الله عليه السلام يقول لعمار ويحك يابن ســمية تقتلك الفئة الباغية ؟ فأحال عمرو ابنه الى معاوية يرد عليه فقال معاوية : انحن قتلناه ؟ انما قتله الذين جاءوا به ! !

وفى مجلس آخر بين ثلاثتهم جاءهم رجلان من جنود معاوية يتباهى كل منهما بانه قتل عمارا . فقــال عبد الله ابن عمرو بن العاص : ليطيب أحدكما نفسا لصاحبه فانى لاعلم أن النبى قال له تقتلك الفئة الباغية ! فاغتـــاظ معاوية وقال لعمرو بن العاص : الا تغنى عنا مجنـونك هذا ياعمرو ؟ ! ثم التفت الى عبد الله بن عمرو وسأله : فما شأنك معنا ؟ قال عبد الله : ان ابى شكانى الى رسول الله ، فقال عليه السلام : أطع اباك حيا ولا تعصه ، فانا معكم ولست اقاتل !

وهكذا يدور الحوار بين التأول والتنصل ، وبين الاحكام والافحام !

وويح ابن سمية .. وويحنا !

صهيب الرومي

فارق كبير بين أن يسخر قوم من قوم ، وبين أن يداعب الناس بعضهم بعضا ويتلطفوا . السخريه من السير استعلاء مكروه منكور ، والدعابة ترويح حميد مشكور . الاولى تنوشها سحابات سوداء ، والثانية تشيع بأجواء وردية صحية مرحة ، بواحدة قد تخسر الصداقات قواعدها ، وبأخرى تطيب وتحلو المجالس .

ثم ان طبيعة التجهم والتوكر والصرامة تضيق بهـا الحياة ولا تتحملها ، واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لحنظلة ـ كما تقدم ـ ساعة فساعة ، فان التجهم غير مطلوب له ساعة ولا نصف ساعة ، وانما المقصود ساعة في ذكر الله والعلم والتعبد ـ وذلك كله له قداسته وبشاشته ـ وساعة في شئون الاسرة !

وقد كان عليه الصلاة والسلام يداعب أصحابه ويسعد بالمداعبة . ربما لم يؤثر عنه الكثير في ذلك ، لان الاهتمامات الكبرى هي بالضرورة مركزة في الرسالة والدعوة ، ولكن القليل الذي يروى يكشف عن هذا الجانب المتكامل في شخصية البشر الرسول عليه السلام .

يروى ربيعة بن عثمان أن اعرابيا أتى رسول الله عليه السلام فدخل المسجد وأناخ بناقته في فنائه . وبدا الصحابة يدبرون مايمكن أن يعد واحدا من « المقالب الطريفة » ! قالوا لزميلهم نعيمان بن عمرو : لو نحرت الناقة فأكلناها ، فانا قد اشتهينا اللحم ، ثم نغرم رسول الله ثمنها !!

ونحر نعيمان الناقة ! ولما انتهى الاعرابى من لقـــاء النبى عاد الى ناقته فوجدها قد نحرت ، فأخذ يتصايح: واعقراه يامحمد ! فخرج النبى على صياحه ، وسأل : من فعل هذا ؟ قالوا : نعيمان ! وكان نعيمان قد استخفى فعثر عليه النبى وسأله ماحملك على هذا ؟ قال : الذين ذكروا اسمى، امامك يارسول الله هم الذين امـــرونى ! وببساطة ، وباستملاح للمفارقة ، جعل النبى يمسح وجه نعيمان ويضحك ! ثم غرم النبى بالفعل ثمن هذه المأدبة الشهية !

بل ان النبى عليه الصلاة والسلام فعل مانفعله نحـــن احيانا على سبيل المزاح ، وهو أن نحتضن احد الناس من خلفه ونعصب عينيه بأيدينا « ليحزر » من الذى امسك به ! فعل النبى ذلك مع رجل من اهل البادية كان عليه السلام يحبه . فقال الرجل : من هذا ؟ دعنى ياهذا .. من انت ؟! ! فلما التفت الرجل وعرف النبى عليـــه السلام أخذ « يتمسح » فى النبى ويتبرك به ! واسترسل عليه السلام فى المزاح قائلا وهو ممسك بالرجل : من يشترى العبد ؟!! فقال الرجل : يارسول الله .. اذن والله تجدنى كاسدا ! فطيب النبى خاطره وقال له : بل انت عبد الله غال .

ثم ذلك الحوار الطريف المعروف بين عجوز أتت النبى تقول : يارسول الله : ادع الله أن يدخلنى الجنة قال : يا أمى .. ان الجنة لا تدخلها عجوز ! فــولت المـــرأة تبكى : وابتسم عليه السلام وقال : لا تدخلين الجنة وانت عجوز . الم تر أن الله يقول « انا انشأناهن انشـــاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا اترابا » ؟!

كان ــ عليه السلام ــ يمزح ولا يقول الا حقا ..
وانما تطرقت الى هذه الزاوية ــ زاوية المزاح والدعابة ــ لان الصحابى صهيب بن سنان « الرومى » قد عرف بالدعابة والمزاح وخفة الظل . وقبل أن أستطرد فينبغى القول أن بديهته الحاضرة والفكهة لم تكن لتصرفه عن جديته ، أو تقلل من تعبده وجهاده . انما أمثال هؤلاء فضلا عن موهبتهم فى ارتجال « النكتة » ــ كارتجال الشعر على السليقة ــ فانهم عادة يتخذون من الدعابات سبيلا للترويح عن النفس ولتحمل أعباء الحياة .

ولنتمثل بموقفين أو ثلاثة كان يبعث فيها صهيب هذه الروح المرحة ، ثم نمضى الى مواقفه الجادة .

أصيب صهيب ذات مرة برمد فى عينيه ، وبينما هو فى طريقه مر بالنبى عليه السلام وكان نازلا القباء ومعه بعض الصحابة وفى أيديهم رطب وتمر يأكلونه ، فجلس صهيب وأخذ يأكل . فقال له النبى عليه السلام : أتأكل التمر وأنت أرمد ياصهيب ؟ فقال صهيب : انا آكل بشق عينى الصحيحة ! فضحك النبى حتى بدت نواجذه ... أعجبته النكتة !

وكان عمر بن الخطاب من أقرب الناس الى صهيب ، يحب مجالسته .. ومشاكسته ! قال له عمر يوما : اى رجل انت ياصهيب لولا خصال ثلاث فيك ! قال : وما هى ؟ « وكأنما يعنى أن يقول لعمر يافتاح ياعليم ... ابتدئنا ! » قال عمر : أنت اكتنيت ابا يحيى وليس لك ولد ! وانتميت الى العرب وانت من الروم ، تتكلم بلسانهم « كان فيه لكنة » . والثالثة أن فيك سرفا فى الطعام . فقال صهيب : أما الكنية فان رسول الله عليه السلام

هو الذى كناني أبا يحيى ! وأما النسب فاني من النمر ابن قاسط سبتني الروم من الموصل وانا غلام ، وقد عرفت نسبى ! وأما سرف الطعام فاني قد سمعت رسول الله يقول : خياركم من اطعم الطعام !

ويبدو أنه كان أخصائيا فى الطعام ..

روى انه صنع طعاما لرسول الله وأتى له به وهو جالس بين نفر من الناس ، فأومأ صهيب اليه « أى أن طعامك جاهز يارسول الله » فأشار اليه النبي وكأنما يسأل عن نصيب هؤلاء من الطعام ! ويقول صهيب « فهممت اليه ان هؤلاء ليسوا فى حسابى » فسكت رسول الله ولم يسأل عنى ! وتكرر هذا مرتين أو ثلاثا واخيرا استسلم صهيب وجازف ، وتقدم بالطعام اليسير الذي صنعه لرسول الله فوضعه أمامه وأمام النفر الجالسين . ومن العجب ـ والبركة ـ أنهم اكلوا جميعا .. الطعام كفى وفاض !

فى سن البلوغ فر صهيب بن سنان من الروم الذين اسروه . وساقته مقاديره الى مكة حيث حالف عبد الله ابن جدعان ، وأقام معه حتى مات ابن جدعان .

وعاش صهيب من بعده بين المستضعفين فى مكة . والطيور على أشكالها تقع أو بالاحرى تحلق ! فلقد التقى صهيب بمستضعف آخر هو عمار بن ياسر على باب دار الارقم ورسول الله فيها ، فسأله عمار : ماتريد ؟ فأجابه صهيب بطريقته : اذا قلت لى ماذا تريد أنت ، قلت لك ماذا أريد أنا ! قال عمار : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه . قال صهيب : كأنك تقرأ مافى نفسى ! ودخلا معا فأسلما معا .. والمسلمون آنذاك لا يتجاوزون نيفا وثلاثين رجلا .

ولانهما من المستضعفين ، ولانهما أسلما ، فقد تفننت قريش فى تعذيبهما .. وان جاء عذاب عمار اشد .

ولما اراد صهيب الهجرة الى المدينة قال له اهل مكة : أتيتنا هاهنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت مابلغت ، ثم تنطلق بنفسك ومالك ؟! قال : ارأيتم ان تركت مالى تخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! فخلع عليهم ماله كله وخرج مهاجرا . وفى المدينة ومع وصول صهيب علم رسول الله بما جرى بينه وبين قريش فحياه قائلا : ربح البيع ياصهيب ! ربح البيع يا ابا يحيى ! ونزلت فى صهيب الآية الكريمة « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » ٢٠٧ البقرة .

ولم تكن هذه الاية وحدها ماتنزل حول صهيب من قرآن كريم . بل ثمة موقف آخر عاتب الله نبيه فيه ، وكان صهيب مع عمار وبلال وخباب بن الارت ـ وهم من ضعفاء المسلمين ـ سبب هذا العتاب . ذلك أن هؤلاء كانوا يجلسون فى حضرة وحمى وصحبة النبى عليه السلام حين مر بالنبى ملأ من قريش قالوا له : يامحمد .. أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ افنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ، فلعلك ان طردتهم اتبعناك ! فوقع فى نفس النبى من ذلك شيء حدث به نفسه فأنزل عز وجل قوله « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ماعليك من حسابهم من شيء ، ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله بأعلم بالشاكرين » ٥٢ـ٥٣ الانعام .

ولقد شهد صهيب بن سنان الرومى بدرا واحد والخندق والمشاهد كلها مع النبى ، وكان عليه السلام يقول عنه : صهيب سابق الروم .

وما كانت « لكنة » صهيب في العربية معيبة بل محببة ، خفيفة .. فيها من خفة روحه وظرفه . ولكم صلى صهيب بالناس اماما يتلو آيات الله « بلسان عربى مبين » . ثم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمن طعن امر ان يؤم صهيب الناس في صلاتهم ثلاثة ايام ، راوصى ان يصلى صهيب عليه يوم تفيض روحه .

وصلى صهيب يومها صلاة الجنازة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وظل صهيب ما بقى من أيام عمره وهو يتحدث ويروى عن صاحبه وحبيبه عمر ، ويثرى كتب التراث بالحكايات واللقطات .

سلمان الفارسى

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض ، وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الافلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » . ٧٥\٧٩ الانعام .

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شىء شهيد » ١٧ الحج .

صدق الله العظيم .

حكاية المجوسى النصرانى المسلم الصحابى الذى نعرض له هنا واحدة من عجائب الحكايات فى البحث عن الذات التى فى أعماق صاحبها ، بل فى البحث عن الذات العلية الالهية .. تباركت وتعالت .

اسم صاحب الحكاية وراويها « سلمان » . والمولد والنشأة بلاد فارس ، فغلبت فى لقبه نسبته الى موطنه الاصلى لانسبته الى أبيه الذى كان سيد قرية من قرى أصبهان ، ومن هنا بات اسم الفتى سلمان الفارسى . والسنوات التى عمرها « هذا الفتى » فى الدنيا كانت طويلة .. وطويلة جدا جاوزت المائة بكثير !

وكان الاب مفتونا بابنه سلمان ومشغولا به ، حتى لقد حبسه فى البيت خادما للمجوسية ، مجتهدا فيها ، يلزم النار الموقدة . يغذيها فلا تخبو ألسنتها ، وتغذيه طقوسها فلا يألو فى عبادتها ! ثم طرأ ما حدا بأبيه أن يبعث به الى ضيعة له حتى حين . وبينما سلمان فى طريقه للضيعة صادفته كنيسة نصارى سمع صلاتهم فيها فراقت له وأعجبته فأنسته البيت والضيعة واحتجزته ليلة أو اثنتين . ثم سأل رهبانها عن السبيل للوصول الى هذا الدين المسيحى من منابعه ، فقيل له بالشام . والتحق فى الشام بأسقف كنيسة يصلى معه ويخدمه ويتعلم منه المسيحية التى رغب فيها . غير أن الاسقف كان سيئا فى طويته يسرق أموال الصدقات ويكنزها لنفسها حتى مات عليها فكشف سلمان سره . ولم تكن فجيعة الناس فيه أقل من فجيعة سلمان ، بل استشاطوا غضبا حتى أنهم صلبوا جثمان الاسقفاللص ورجموه بالحجارة . وجاءوا بخلف صالح بالفعل زاهد راغب فى الاخرة أحبه سلمان وأنزله منزلة الوالد . فلما حضرته الوفاة دل سلمان على راهب صالح مثله فى الموصل . وهكذا سنوات متصلة وسلمان ينتقل من كنيسة بلد الى كنيسة بلد اخر ، حتى انتهى به المطاف عند رجل شديد الصلاح فى عموريه من أرض الروم أقام معه يفلح الارض ويقتنى الدواب . وحين احتضر الراعى الصالح سأله سلمان كعادته الى أين يتجه ؟ فقال له : والله ياسلمان ما أعلم انه أصبح فى الارض أحد على ماكنا عليه آمرك أن تأتيه . ولكنه قد أظلك زمان نبى يبعث بدين ابراهيم الحنيفية . يخرج من ارض مهاجرة

ذات نخل . فان استطعت ان تخلص اليه فاخلص ! وان
به آيات لاتخفى . انه لايأكل الصدقة وهو يأكل الهدية.
وان بين كتفيه خاتم النبوة ، فاذا رأيته عرفته . وسافر
سلمان مع ركب مقابل ماكان يملك من الدواب . وساروا
به الى وادى القرى فظلموه وباعوه لرجل يهودى اشتراه
منه يهودى آخر من بنى قريظة خرج بسلمان حتى بلغ
يثرب . فأحس سلمان بل أيقن أنها البلدة التى أشار
اليها صالح عموريه والتى تشهد أنوار النبوة والحنيفية.
لكن « العبد » سلمان غرق فى « أشغاله الشاقة » لدى
يهودى بنى قريظة فلم تترام الى سمعه البعثة المحمدية
حتى كان ذات يوم واذ به يسمع حوارا صاخبا بين
اليهودى الذى اقتناه وجار له حول هذا الذى « يزعم »
أنه نبى وقد جاء الى قباء بالمدينة . ولما اراد سلمان
استقصاء الخبر عاجله سيده بلكمة طرحته أرضا .
وحذره من السؤال وأمره أن يهتم بما هو مسخر
له من عمل فحسب ! بيد أن سلمان غافل اليهودى
وانفلت حتى بلغ رسول الله عليه السلام ليتحقق من
الدلالات الثلاث على نبوءته والتى أخبره بها صالح
عموريه ، فلما تبين له بكى سلمان . واعتنق الاسلام
بعد النصرانية والمجوسية من قبل . غير أن الرق ظل
يقيد عنقه ويقيد حركته ففاتته بدر واحد . ثم ذهب
الى رسول الله يشكو حاله . فمازال به عليه السلام
يوجهه حتى تجمع لسلمان من بركات النبى واعانات
الصحابة ما وفى قيمته مقابل العتق ، فاعتق اليهودى
به سلمان . وعاد الذى كان سيدا فى قومه سيدا فى
الاسلام . بل ان المهاجرين والانصار عندما تنازعوا على
سلمان ، هؤلاء يقولون سلمان منا ، وهؤلاء كذلك ،

حسم النبي عليه السلام الامر فقال : سلمان منا أهل البيت ! وأخذ نجم سلمان يعلو فى الاسلام والصحبة حتى قال فيه على بن ابى طالب : سلمان علم الاول والاخر ، وهو بحر لاينضب !

فاتت سلمان ـ كما تقدم ـ غزوة بدر وأحد . ولكنه ابتداء من الغزوة التالية حتى آخر الغزوات شارك وعوض مافاته . بحسبه أنه « مهندس » غزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة . وهو الذى أشار بحفر الخندق من حصيلة تجاربه الفارسية الماضية . وكما قال عليه السلام ان « صهيب سابق الروم » قال « سلمان سابق الفرس » .

وكان « خندق سلمان » الذى حفره المسلمون فى ستة أيام حول المدينة المنورة لغزوة الخندق (الاحزاب) وشارك النبى فى حفره وفى تحصين المدينة ، كان هذا الخندق مفاجأة غير متوقعة أربكت قريشا رغم جيوشها الجرارة ، وغيرت مصير المعركة « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديرا » ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ الاحزاب .

ولان النبى عليه السلام آخى بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء ، فقد اتصل الحوار بينهما ، شاهد سلمان أبا الدرداء ، وقد قام ليلة الجمعة وصام يوم الجمعة ، فقال له : كل ! فقال : انى صائم ! فلم يزل يدفعه للافطار حتى أفطر ، ولم يكمل صيامه . واحتكما الى

النبى فقال عليه السلام لابى الدرداء : عويمر سلمان اعلم منك ! لاتخص ليلة الجمعة بقيام بين الليالى ولا تخص يوم الجمعة بصيام بين الايام !

وبعد سنوات طويلة اقام سلمان فى العراق كما اقام أبو الدرداء فى الشام فكتب الثانى الى الاول يقول : ان الله رزقنى بعدك مالا وولدا ، ونزلت الأرض المقدسة! فرد عليه سلمان : أعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يكثر حلمك وأن ينفعك الله بعلمك . ثم أن الارض المقدسة لا تقدس أحدا ! فاعمل كانك ترى ، واعدد نفسك فى الموتى !

وكان سلمان الفارسى من أزهد الناس طرا ، وكان لسان هذا المعمر هو مانظمه أمير الشعراء أحمد شوقى:

فمن يغتـــر بالدنيـــا فانـى
لبست بهـــا فابليت الثيـــابا !
فلم أر غـير حكم الله حـــكما
ولم أر دون باب اللـــه بـابـا
وان البر خـير فى حيـــــاة
وأبقى بعـــد صاحبــــه ثوابا

كان الخلفاء الراشـدون يجلونه ويبجلونه . وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم . الا ان سلمان كان يتصدق بها ويفرقها كلها ، ويأكل من عمل يديه فى صنع الخوص . عاد الى المدائن ـــ فى فارس (العراق) ـــ بعد الفتح الاسلامى لها وولى اميرا عليها ، فما احس الناس انه أمير المدائن من شدة تواضعه ومن بساطة مسكنه وردائه وطعامه .

وعندما نزل الموت بهذا الصحابى « الاسطورة » قيل له : مايبكيك ، وان رسول الله عليه السلام توفى وهو

عنك راض ، ولسوف تلاقى أصحابك ، وترد عليه الحوض باذن الله ؟ قال سلمان : أما والله ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا . ولكن أبكى لامر عهده الينا رسول الله فأخشى الا نكون حفظنا وصيته بيننا اذ قال عليه السلام ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب !

رحلة طويلة عجيبة قطعها سلمان من فارس الى المدينة ثم الى فارس فى خاتمة المطاف حيث مات فى المدائن . كان سلمان يبحث عن ذاته وعن الذات الالهية ، خلال تلك الرحلة المعمرة . تخلى عن المجوسية والنصرانية ، واعتنق الاسلام والحنيفية ، وصحب نبى الله ، فهدات ذاته وذابت فى الذات الالهية .

بعد أن مات سلمان الفارسى يقول عبد الله بن سلام انه رآه فى المنام فسأله : كيف أنت ياسلمان ؟ قال : بخير حال ! فسأله أى الاعمال وجدتها أفضل ؟ قال سلمان العجيب : وجدت التوكل شيئا عجيبا !

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، عليه توكلنا واليه ننيب.

جعفر بن ابى طالب

الثلاثة من احب الخلق الى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

والثلاثة ماتوا شهداء ، بل ان اثنين منهم استشهدوا على التعاقب فى معركة واحدة .

والثلاثة « الشهداء » تنازعوا على ابنة شهيد .. ايهم يكفلها ، وعلا صوتهم حتى أن النبى عليه السلام كان نائما على مقربة منهم فاستيقظ ، وخرج اليهم ليقضى بينهم .

أما الثلاثة فهم : على بن ابى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب .

كان على قد عثر فجأة على ابنة سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب هائمة فى الطريق تبدو وقد ضاقت بنمط واسلوب معيشتها حيث كانت ، فحملها على الفور الى بيته حيث زوجته فاطمة ابنة النبى . وعلم زيد بن حارثة بذلك فابى الا أن يضمها اليه . كما عز على جعفر بن أبى طالب الا يكون هو الفائز بها الكافل لها . فاختلف الثلاثة حولها وتحاوروا وتشاحنوا وتمسك كل بأحقيته حتى طلع عليهم الذى حكم بينهم بالعدل عليه السلام .

قال على بن أبى طالب : انني من وجدها ، وهى ابنة عمى .. وانا أولى برعايتها .

وقال زيد بن حارثة : هى ابنة « أخى » ، وهى فى منزلة ابنتى بين أبنائى .

وقال جعفر بن أبى طالب : ان ابنة حمزة هى ابنة عمى ، ثم ان زوجتى خالتها ، فبيتى بيتها .

ورنا النبى الى الثلاثة وطيب خاطرهم بكلماته الودودة الرشيدة ، وحيا مروءتهم ، وأثنى عليهم بما هم أهل له وبما هو ماثور عنه نحوهم ، وأكد ماليس خافيا من اعزازه الكبير للثلاثة . ثم رأى بعد أن سمع حججهم فى الفوز بابنة حمزة أن يقضى بها لجعفر بن أبى طالب بحيثية انسانية محكمة (بضم الميم) من كلمتين : الخالة والدة !

وما أن سمع جعفر بحكم رسول الله حتى ازدهاه الفرح والطرب ، واخذ يدور حول النبى فيما يشبه « الرقص » فتعجب عليه السلام وسأله ماهذا ياجعفر ؟ فتوقف جعفر وخشع وقال فى استحياء : شىء رأيت أهل الحبشة يحيون به ملوكهم !

ولقد أسلفنا الحديث عن على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ، ويبقى جعفر بن أبى طالب .

وكان جعفر قد عاد الى المدينة قبيل تلك الحكاية . من هجرته الطويلة بالحبشة ، وصادف يوم عودته يوم فتح خيبر . فلما رآه النبى أمامه بعد طول غياب ، وكأنما طويت المسافات او انشقت الارض عنه فجأة هرول اليه وعانقه واخذ يقبل مابين عينيه ويقول : ماأدرى بأيهما أفرح .. بقدوم جعفر أو بفتح خيبر ؟

ولقد تقول الامثال «البعيد عن العين بعيد عن القلب» غير أن هذا ليس صحيحا على اطلاقه وخاصة مع خير الانام الذى هو صاحب انبل قلب . ان السيدة خديجة ظلت بعد احتجابها بالموت لسنوات امتدت حتى لحق بها زوجها عليه السلام حاضرة فى وجدانه انسا وحنينا

وتقدما فى الحب على سائر الزوجات الاحياء .. وأن جعفر بن ابى طالب هو الاخر ظل ماثلا فى قلب النبى لم يتحول عنه مع تحوله بهجرته الى الحبشة الى أن عاد بعد قرابة خمس عشرة سنة فى العـام الهجـرى السابع .

اسلم جعفر بن ابى طالب ـ ابن عم النبى ـ فى مرحلة جد مبكرة قبل دخول النبى دار الارقم بمكـة ودعوته فيها . ومع الفيض الايمانى التوحيدى الاسلامي الذى تشربه جعفر ومع نصـيحة النبى له بأن يتفادى أذى المشركين المتصاعد وأن « يجرب حظه » فى ارض الله الواسعة هاجر جعفر مع من هاجر الي الحبشة فيالهجرة الثانية اليها . وقد اطمأن النبى واطمأنوا الى سـماحة نجاشي الحبشة وحسن سـمعته وضيافته وكونه بنصرانيته الصافية أقرب مودة بالفعـل الى الذين آمنوا .

ولم يترك المشركون المسلمين فى الحبشة على حالهم ، بل تعقبوهم يبغون الوقيعة بينهم وبين النجاشي . ودار حوار بين الجانبين أمام النجاشي حول الاسـلام والمسيحية ومحمد وعيسى . وكان قطب المشركين آنذاك عمرو بن العاص ، وتصدى له من جانب المسلمين جعفر ابن أبى طالب فأفحمه .. وبهر النجاشي !

انني أجتزىء من الحوار بهذه الكلمات الرصينة التي القاها جعفر بين يدى النجاشي .

« أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطـع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفافه . فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان . وأمرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحرم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه واتبعناه على ماجاء به من الله . فعدا علينا قومنا فعذبونا . فتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك . ورغبنا فى جوارك ، ورجونا الا نظلم عندك » !

ورجع عمرو بن العاص ومن معه خائبين بخفى حنين ..

وبقى جعفر ومن معه فى كنف النجاشى وبلاده .

ولقد اجتهد فافسر سر مقام جعفر بن ابى طالب اقامة رحبة فى الحبشة سنين وسنين حتى لكانه استوطنها ، بأنه ربما تطلع الى أن تنتشر دعوة الاسلام فيها بسلوكه وسلوك المسلمين وقدوتهم الحسنة فيكسب لهذا الدين الجديد رافدا فى قلب القارة الافريقية . وقد كان جعفر داعية جذابا بطبيعته وخلقه . فلعله كان يدعو هناك بحساب ، واضعا فى اعتباره الا يخدش مشاعر النجاشى الذى اكرم وفادتهم وآمنهم على انفسهم ودينهم . فلما بعدت الشقة والسنوات وتجمدت الامنيات لم يجد جعفر مفرا من السفر الى المدينة المنورة خاصة وقد شده الحنين الى رسول الله وقومه .

ولنعد الى بداية الحكاية ..

لم تكن ابنة حمزة هى « الجائزة » الوحيدة التى حصل ليها جعفر من رسول الله عند الاحتكام اليه ، بل انه ـلى بجائزة أخرى ما منحها النبى ـ على وفرة منحه الكزيمة ـ لأحد سواه . نظر عليه السلام الى وجه جعفر ابن أبى طالب وتأمل طبعه وأخلاقه ثم قال له : اشبهت خلقى (بفتح الخاء) وخلقى (بضم الخاء) فانت منى من شجرتى !

وبقدر ماكان مقام جعفر طويلا فى الحبشة بقدر مابات قصيرا فى المدينة وفى الدنيا كلها ، وكأنما عاد طلبـــــا للشهادة !

قبل أن ينصرم العام على جعفر فى المدينة وفى السنة الثامنة للهجرة كانت غزوة مؤتة فى طريق الشام ردا على « تحرشات » هرقل واعتداءاته على حـــدود الجزيرة العربية .

كانت مؤتة غزوة شجاعة بالدرجة الاولى ، فشتان بين عدد الجيشـــين . الكثرة الكاثرة لجيش هرقل ، والبسالة الكاسرة لجيش محمد عليه السلام .

بحسبنا أن ندلل على تلك البسالة الخارقة بالمشهد الختامى فى حياة جعفر .. فى استشهاده ..

حمل جعفر اللواء بعد استشهاد زيد بن حارثة ، فجعفر القائد بعده كما أمر النبى عليه السلام . واندفع جعفر كالسيل العرم بين صفوف العدو يحصدها بسيفه حصدا ، فى حرص بالغ على أن يظل اللواء مرفوعا وقد حمله بيمينه . فلما أصيبت يمينه وقطعتها ســـيوف الأعداء حمل اللواء بشماله ورفعهـــا حرصا على رفع معنويات جنوده . فلما أصيبت شماله احتضن اللواء

بعضديه غير عابيء بما قطع من اعضائه وما نزف من دمائه حتى مات شهيدا ، وحمل اللواء من بعده القائد الثالث عبد الله بن رواحه .

ذلكم هو جعفر بن ابى طالب الذى كان الصحابى الراوية الاشهر ابو هريرة يقول عنه : كان جعفر أبر الناس بالمساكين ، وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا لبس الكور (العمامة) بعد رسول الله افضل من جعفر .

اولم يشبه خلقه .. وخلقه !!

بلال وابن ام مكتوم

« الصوت » لا ينفك يميز بلال بن رباح ويلازمه ، ويترجم عما في فؤاده ، يبثه بثا ، ويثيبه ثوابا !

هكذا يتميز صوته عندما كانوا يطرحونه ارضـــا ويضعون حجارة الرمضاء حول صدره . كان التعذيب ـ أهول التعذيب ـ يلهمه بكلمة التوحيد ، لا يحول عنها ولا يحيد .

وهكذا يتميز صوته عندما كان يقف وكأن في حنجرته مزامير داود وقناطير عذوبة يرفع آذان التوحيد ، دعوة صلاة للحميد المجيد .

وهكذا يتميز صوت مشيته ونعليه فلا يخطاه سمع رسول الله اذ يتبين ـ مقدما ـ صوت خطاه في دار النعيم التي أعدت للمؤمنين الموحدين الصـــابرين المجاهدين .

كان بلال « سابق الحبشة » مثل صهيب « سابق الروم » من السابقين بالاسلام ومن المستضعفين في الارض الذين عذبوا استخفافا بقدرهم ، وان كان قدرهم عند الله عظيما . غير أن بين مجموعة المستضعفين المعذبين كان تعذيب قريش ـ وخاصة أمية بن خلف ـ لبلال بن رباح هو الاشد اجحافا واسرافا ولكن بلا نتيجـة أو جدوى . فكان بلال كلما تصايحوا فيه : ربك اللات والعزى ! جلجل بكلمة واحدة لايفتأ يتمسك بها : أحد ! أحد ! فاذا استشاطوا غضبا وامعنوا في تعذيبه كانت

أنفاسه الخافتة تزفر : أحد ! أحد !

هذا « العبد » الحبشي يساوى مائة ألف « حر » من كفار قريش . وهو يغيظهم بصلابته . فلا تمكنوا من ان يخلصوا منه بالفعل ، ولا استطاعوا أن يردوه عن دينه ولو ظاهريا او مسايرة او توقيا للعذاب . شيء ازخر بأعاجيب الايمان وقدراته التي تفوق الحسبان. ثم يأتي أبو بكر الصديق فينقذه من قريش وينقذ قريشا منه اذ يشتريه بسبع أواق ويعتقه . ويتأذن الله لهذا الصوت الذى هتف باسمه أحدا لا شريك له بين يدى المشركين ، أن يقوم بين يدى رسول الله والمسلمين ويغدو أعظم المؤذنين واعذبهم صوتا واشهرهم طرا .

ولان الاسلام هو دين الحق والعدالة والمساواة ونصرة الضعفاء ، والا فرق بين عربى وعجمى وحبشى الا بالتقوى ، والا عبودية لغير الله ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، فلا يلبث بلال بن رباح أن تتبلور منزلته بعد أن اختبرتها المحن فرفعتها ، حتى أن عمر بن الخطاب من عمق وصدق اعجابه به يقول « أبو بكر سيدنا ، واعتق سيدنا » .. يعنى بلالا .

ويلزم بلال صحبة رسول الله مؤذنا فى الحضر والسفر و « ياورا » فى الحل والترحال ، ومقاتلا فى كل الغزوات.

ومن شدة تعلقه برسول الله شخصا ورسالة فانه لما توفى عليه السلام ولم يكن قد دفن بعد واخذ بلال يؤذن للصلاة ، فعندما بلغ قوله اشهد أن محمدا رسول الله.. اعتصرته احزان الناعى فبكى بلال وانتحب الناس فى المسجد . فى تلك الساعة اتخذ بلال قرارين . أولهما : الا يؤذن لاحد بعد النبى عليه السلام .. وقد احترم قراره ابو بكر ثم عمر . والقرار الثانى : أن يقضى مابقى

له من حياة غازيا فى سبيل الله . وقد لبى الخليفتان رغبته فى ذلك ايضا ، فخرج بين بعوث الشام حتى مات فى دمشق سنة عشرين هجرية فى خلافة عمر .

عاش بلال ماعاش لا بطرته النعمة ، ولا نسى أو تعالى على أصله . كان اذا جاءه قوم يذكرون فضله وما قسم الله له من الخير يقاطعهم بقوله : انما انا حبشى كنت بالامس عبدا ..

وما كان بلال عبدا لاحد ، انما ظل عبد الاحد .. الاحد الذى لاشريك له .. الاحد الذى كلنا عبيده على حد سواء .

ولكم دلف بلال الى معاركه في سبيل الله وصوت خطاه المميز يصحبه . انه علامة مميزة حتى أن النبى عليه السلام قال : دخلت الجنة فسمعت حشف نعليك بين يدى يابلال !

ترى هل كان بلال هو المؤذن الاوحد لرسول الله ؟

الواقع انه كان المؤذن الاول والاشهر والارخم صوتا ، ولكن كان ثمة اثنان آخران هما عمرو بن أم مكتوم وابو محذوه .

لم يكن لعمرو بن أم مكتوم ما لبلال من صيت وصوت فى الاذان ، الا ان بلالا كان كثيرا ما يؤذن ثم يقيم الصلاة ابن أم مكتوم ، أو يؤذن ابن أم مكتوم ويقيم الصلاة بلال .

وكان عمرو بن أم مكتوم مكفوف البصر ورغم ذلك فقدرته فائقة فى توخى الفجر . كان لا يخطأه قط فيؤذن للفجر . وروى عن النبى أنه كان يقول فى شهر رمضان : ان بلالا يؤذن بليل وكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم!

اسلم عمرو بن أم مكتوم فى السنوات الاولى للبعثة المحمدية . وتختلف الروايات فيم اذا كان قد هاجر

الى المدينة بعد بدر أم انه سبق بالهجرة اليها مع مصعب ابن عمير يقرئان الناس القرآن الكريم قبل الهجرة النبوية الشريفة .

على أن الصحابى ابن ام مكتوم اشتهر بشيء غير رفع الآذان . شيء آخر مسجل له .. واين ؟ فى كتاب الله العزيز .

كان بعض وجهاء قريش وعظمائها — ومنهم عتبة بن أبى ربيعة — يجلسون الى النبى ، وهو عليه السلام يدعوهم ويحاول أن يكسبهم ويطمع فى اسلامهم . وأثناء تلك اللحظات والنبى جالس مع هؤلاء اقبل ابن ام مكتوم الاعمى يسأل النبى عن بعض أشياء، فأعرض عنه النبى. لم يلتفت اليه ومضى يخاطب وجهاء قريش .

وتنزلت فى ذلك آيات من العتاب الالهى لنبيه . نزلت سورة عبس .

« عبس وتولى . أن جاءه الاعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك الا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى . كلا انها تذكرة » .

الدعوة كما أرادها الله هى للناس كافة ، للغنى والفقير ، للاعمى والبصير ، للشريف والضعيف ، لكل زمان ومكان .

وبعد نزول هذه السورة دعا النبى ابن أم مكتوم فأكرمه . وكان اذ يراه يبسط له رداءه ويحييه قائلا : اهلا بمن عاتبنى فيه ربى ! واستخلفه النبى على المدينة المنورة فى عدد من المرات التى كان عليه السلام يخرج فيها من المدينة غازيا .

ذلك الاعمى .. ابن أم مكتوم عوضته بصيرته عن بصره .

بل كم ألحت عليه « حاسته السادسة » أن تقوم مقام النظر فيشارك المبصرين مايظنونه وقفا عليهم .. شاركهم حتى الغزو فى سبيل الله الذى هو معفى منه لكونه من أولى الضرر وذوى العاهات .

وبالفعل راح يغزو مع الغزاة ! وكان يقول : ادفعوا الى باللواء وأقيمونى بين الصفين ، وانى أعمى لااستطيع أن أفر !!

ورحل ابن ام مكتوم حتى القادسية ، فيروى انس ابن مالك ان ابن أم مكتوم كانت معه راية سوداء يوم القادسية وعليه درع سابغة !

أى صحابة كان هؤلاء جميعا ؟ اسبغ الله عليهم رحمته .

سعد بن الربيع
واوس بن الصامت

اريحية حتى الشمالة .. حتى النفس الاخير ! وايمان يجرى فى الدم ، فى خلايا المخ وشعيراته ، فى شغاف القلب ونبضاته ، وفى خفقات الروح ومسراها داخل كيانه . حتى اذا بلغ « السر الالهى » الحلقوم ، وتهيأت الروح لنظرة وداع تلقيها على دنيا البشر فاضت تلك النظرة ايمانا واسلاما وحبا لله ورسوله !

ذلكم هو الصحابى الانصارى الجليل سعد بن الربيع ، وتلكم كانت خاتمة مشاهده قبيل اسدال الستار على دنياه !

اذ ران الصمت فلا صليل سيوف ولا قراع اسنة ورماح ، واذ انقشع نقع المعركة ولم يعد فى ساحتها الا القتلى والجرحى ، كان صاحبنا ـ سعد بن الربيع ـ مطرحا مع سكرات الموت . ومن عجب انه لا السكرات توجعه ، ولا الجراحات تؤلمه ، ولا الحرص على الدنيا يشغله . انما همه كله فى الحرص على دين الله ورسول الله . ثم ان رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام كان جد مهموم بقتلى وجرحى غزوة أحد . انه عليه السلام يعلم أن الله تبارك وتعالى لن يتخلى عنه ، وأن هزيمة لحقت بالمسلمين فى تلك الساعة بين جبل أحد هى مجرد محنة عارضة واعظة . كان النبى اذن فور انتهاء المعركة مشغولا فى المقام الاول بالجرحى والقتلى من المسلمين . وبعث عليه السلام ـ بين مابعث ـ رجلا يفتش عن سعد بن الربيع ويستقصى عنه ويطمان عليه . ولقيه

الرجل على حالته تلك في الساحة فأنبأه أن رسول الله يسأل عنه . فقال سعد : اذهب اليه فأقرئه مني السلام واخبره اني قد طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وان قد انفذت مقاتلى ، واخبر قومك انه لا عذر لهم عند الله ان قتل رسول الله واحد منهم حي !! ثم لم يلبث هذا الصحابى المبرور أن أسلم الروح .

انظر فيم كان يفكر ، وعلى اى كلمات مات !

حقيقة اريحية حتى الثمالة .. حتى النفس الاخير !

ولعلنا نتذكر كيف التقينا بأريحية له من قبل وبدت بعيدة عن التصديق ـ وان كانت حقا وصدقا ـ وانها طالعتنا وأدهشتنا فى سطور سابقة اذ آخى النبى بين المهاجر عبد الرحمن بن عوف وبين الانصارى سعد بن الربيع . فقال هذا الاريحى السخى لابن عوف : اى أخى! انا أكثر أهل المدينة مالا ، فاليك نصف مالى فخذه ! ولكن ابن عوف تعفف وشكر واعتذر وآثر أن يعرق فى السوق ليخلف الله عليه برزقه .

وقبل أن يغمض سعد بن الربيع عينيه للمرة الاخيرة اخذ يستعيد فى مخيلته ذكرى أول لقاء له بالنبى عليه السلام عندما رحل سعد بن الربيع مع نيف وسبعين نفرا من أهل المدينة الذين أسلموا قاصدين الحج ، والتقوا بالنبى فى منى وبايعوه بيعة العقبة فقال لهم عليه السلام : أخرجوا لى اثنى عشر نقيبا عنكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم . فاختاروا اثنى عشر رجلا كان سعد بن الربيع أحدهم . وبارك عليه السلام هذا الاختيار وقال لوفد الانصار : تبايعونى على أن تشهدوا ألا اله الا الله وانى رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة . تبايعونى على السمع والطاعة ولا تنازعوا

الامر أهله ، وتمنعونى مما تمنعون منه انفسكم واهليكم .
قالوا نعم . قال : فلكم الجنة والنصر .
ولقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه وما بايعوا عليـــــه رسوله . وها هوذا نقيب منهم منع رسول الله مايمنع منه نفسه واهله فى بدر فكان له النصر ، ثم فعل الشيء نفسه فى أحد فكانت له الشهادة والجنة !
ولقد قسم الله وقضى أن يمسى استشهاد سعد بن الربيع وما ترك من ذرية سببا من اسباب نزول القرآن باحكام الميراث .
ذلك أن سعد بن الربيع عندما استشهد ترك زوجة وابنتين لم ينجب غيرهما ، وكان أهل الجاهلية يجعلون جميع الميراث للذكر دون الاناث . فجاءت زوجة سعد الى رسول الله وقالت : « يارسول الله ! هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد شهيدا . وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . والله لاتنكحان الا ولهما مال » ! فقال عليه السلام : « يقضى الله فى ذلك » . فأنزل الله عليه آية الميراث « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حـــظ الانثيين » الى آخر الاية « ١١ النساء » . ودعاعليهالسلام عمهما وقال : اعط ابنتى سعد « الثلثين » و « اعط امهما الثمن والك مابقى » .
زوجة صحابى انصارى آخر قضى الله أن تكون سببا من أسباب نزول القرآن بحكم آخر فى مسألة « المظاهرة »
الصحابى الانصارى هو أوس بن الصـــامت وهو من « البدريين » وممن شهدوا وشاركوا فى كل غزوات النبى .
تلاحى وتنازع أوس مع زوجته خوله بنت ثعلبة فى شأن من الشئون فقال : انت على كظهر امى ! ثم ندم على ملاحاته وغضبته واوجس مما بادرها به وقال : ما اراك

الا قد حرمت على ! قالت : ولكنك ماذكرت طلاقا ! فلم يعرف ماذا يفعل . غير أن خوله بنت ثعلبة أتت النبى فأخبرته بما كان بينها وبين زوجها أوس وأخذت تجادل رسول الله فى هذا الامر . ثم نزل الوحى على النبى الكريم بالحكم . واستدعى النبى خوله بنت ثعلبة وقال لها قد أنزل الله فيك وفيه قرآنا .

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ، ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم ، وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وان الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » . (١ ، ٤ المجادلة) .

وقال النبى لخوله زوجة أوس : مريه أن يعتق رقبة . قالت : وانى له ؟ قال : فمريه أن يصوم شهرين متتابعين . قالت : لا يطيق ذلك . قال : فمريه فليطعم ستين مسكينا . قالت : وانى له ؟ قال : فمريه فليأت أم المنذر بنت قويس فليأخذ منها شطر وسق تمر فليتصدق به على ستين مسكينا . فرجعت الى أوس فسألها : ماوراءك؟ قالت : خير .. وانت ذميم !! ثم اخبرته فذهب الى أم المنذر وفعل ما أمر به الرسول عليه السلام . وتاب أوس وضاعف من عباداته ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

ان الاحكام مقدرة فى علم الله ومفروضة من قبل أن يبرأ سبحانه الارض وما عليها ، غير أنه عز وجل قضى أن يجعل لكل شيء سببا . والرسول المبلغ الامين قد بعثه الله فى مجتمع البشر الذى له قضاياه ومشكلاته المتصارعة صغرت أم كبرت ليأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم . «فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول» (٥٩ النساء) .

ثم ان الله جلت حكمته قضى أن يجعل بين أسباب نزول القرآن هذه المعايشة اليومية بين النبى وصحابته وجمهور المسلمين وتلك الاسئلة التى يوجهونها . فهم يسألونه عن الاهلة ، ويسألونه عن الخمر والميسر ، ويسألونه عن الانفال ، ويسألونه ماذا ينفقون ، ويسألونه عن الروح الخ الخ ..

عبر ثلاث وعشرين سنة من البعثة المحمدية تنزل القرآن الحكيم على الرسول الكريم هدى للناس وتشريعاً وشفاء ونورا ورحمة وتبيانا لكل شيء « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » حتى تأذن الله بتمام رسالة النبى محمد المبعوث للناس كافة « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وصدق الله جل وعلا وتباركت آياته « وما فرطنا فى الكتاب من شيء » ٣٨ الانعام .

ابو دجانة

غالبا ما التقط واقعة واقترب منها سواء تخففت أو توسطت أو توغلت فى الرؤية والحوار ، ثم اخال أن الواقعة التى التقطتها قد استوفت حقهـــا فى التقديم الشخصية محل التصوير ، فانتقل بالفكر والقـــلم و « العدسات والسماعات » الى مشاهد أخرى سابقة عليها أو لاحقة فى حياة هذا الصحابى أو ذاك وبزوايا مختلفة لعلها تقترب وتتوجه الى « بانوراما » ورحاب السيرة النبوية الشريفة . نعم ، فلعلى أشعر انه على تشابه الزمان والمكان فى كثير مما تقدم من تقديم لبعض الصحابة ، فان تكرار واختلاف زوايا الاقتراب ، وتنوع اللقطات متجاورة أو غير متجاورة انما هى محـــاولة « تعايش » مع تلك المرحلة الطاهرة الناضرة الباهرة فى صدر الاسلام والبعثة المحمدية . ثم ان هذه المحاولة لاتعنى أبدا أنها لاتكترث بحاضرنا ، بل ان اكتراثهـــا بالحاضر هو فى الظاهر والباطن قوى وبديهى ، حتى ولو ببضعة سطور قليلة ، أو بايماءة أو علامة اســـتفهام وتعجب ! بل ان مجرد تكثيف الدروس والعبر والعظات بينها – فيما أرجو – ليدلل بذاته و « بمفهوم المخالفة » أيضا أن الحاضر هو فى بؤرة الاهتمام ، فنحن لانستطيع أن ننسلخ لا من جلودنا ولا من عصرنا !

وكثيرة هى المرات التى اقتربت فيها بين صفحات هذا الكتاب من غزوة أحد والتقطت منها ما التقطته .

ولكونها مؤثرة وحافلة فلا زال ثمة مزيد وجديد .
ولقد يكون ذلك الصحابى الانصارى الخزرجي المدنى الذى اسمه سماك بن خرشة والذى شـــهرته « أبو دجانة » .. قد يكون عرف أول ماعرف بعصابته الحمراء التى كان يلف بها رأسه حين يقاتل أعداء الله فى غزوة بدر وينتصر مع المنتصرين . غير أن أعظم ماحببني فيه موقفه الصامد الفدائى بعد أن مال ميزان غزوة احـد من نصرة للمسلمين الى ارتباك بينهم وتفرق صـفوف وتمزق وهلع مما أغرى قريشا بتشديد هجومها المضاد الكاسح الذى يستهدف رسول الله بالدرجة الاولى بغية قتله . هنالك امتحن المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . هنالك يثبت الرجال ولا هم لهم الا أن ينافحوا عن حياة رسول الله ، وذلك هو عين الذود عن دين الله . وكان أبو دجانة أحد أقرب الصحابة الذين استماتوا فى الدفاع وفى حماية النبى الذى يحميه الله من قبل ومن بعد . جعل أبو دجانة من جسمه متراسا حول رسول الله . أحنى ظهره ومده كأنه الدرع تستقبل النبال دون رسول الله . وكل دقيقة تمر يحمى القتال أكثر ويزداد شراسة ولكن أبا دجانة وأصحابه من حول النبى يزدادون ثباتا واستبسالا . فلما ظن المشركون أن النبى قد قتل فرحوا واقفلوا راجعين من حيث أتوا . ونجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما الفضل لله الذى يعصمه .. ثم للجنود المجهولين والصـــحابة المؤمنين من أمثال أبى دجانة .

هكذا انتقل ابو دجانة فى غزوة احد من الهجوم الى الدفاع ، فرجحت كفة دفاعه المجيد كفة هجومه الذى صال وجال وشن ورن ! ذلك ان أبا دجانة كان قـد

تعصب كعادته بالعصابة الحمراء واتجه مع المسـلمين صوب رسول الله لدى التجمع التمهيدى واحتشـاد المقاتلين قبيل ساعات من غزوة أحد . وكان النبى عليه السلام يمسك بيده سيفا وينادى على المسلمين : من يأخذ هذا السيف ؟ فتدافع الجميع يود كل واحد منهم أن يظفر بهذا السيف . الا أن النبى وضع شرطا ضمنيا ومنطقيا للحصول عليه فقال : من يأخذه بحقه ؟ هنـا أحجم من أحجم الا أبو دجانة قال : انا آخذه بحقه ، فأفلق به هام المشركين ، وحصل أبو دجانة بالفعل على السيف فاستخفه الطرب والجزل يرتجل الرجز

أنا الذى عاهـدنى خليلـى
بالشعب ذى السفح لدى النخيـل
الا اكون آخـر الافـول
أضرب بسيف الله والرسـول

ومشى أبو دجانة يتبختر ويختال بسيفه بين الصفوف فقال عليه السلام : انها مشية يبغضها الله الا فى هـذا الموطن .

والذى فعله أبو دجانة مهاجما بهذا السيف فى غزوة أحد هو منتهى البسالة ، فكان يشق صفوف المشركين شقا ، ويفلق بسيفه ــ كما تعهد ــ العشرات من هامات المشركين . اخذ كلما حمل بسيفه على أحد قتله الا عندما سمع ولوله تبين له أن صاحبتها هند بنت عتبة (آكلة الاكباد) ، فتعفف أبو دجانة ولم يمسها بسوء .. فليس من تكريم سيف رسول الله أن ينال من امرأة !

ظل أبو دجانة بعصابة الموت الحمراء فوق راسـه ينشر الموت بين الأعداء حتى وقع المحظور وترك بعض المسـلمين مواقعهم التى أمرهم النبى أن يلزموها ،

واندفعوا الى الغنائم ، وشغلوا « بالنهب » عن الحــرب فانكشفت خطوطهم ووقعت بينهم الفوضى التى استغلتها قريش وقلبت الموازين وأدارت الدوائر على المســـلمين لحكمة أراد بها الله أن يتلقوا بها درسا بليغا ، وأن يعلم الصابرين .

ومن هنا فان الاعجاب والتقدير والامتنان لابى دجانة فى شجاعته الدفاعية التى أوضحتها يتفوق على شجاعته الهجومية .

كان أبو دجانة صحابيا بسيطا عفويا سخى النفس بقدر ماهو مقاتل شجاع القلب .

مرض أبو دجانة ذات مرة فاقبل عليه عواده وقـــد وجدوا وجهه مشرقا كان ليس يشـــكو من أية علة . فسألوه : ما لوجهك يتهلل ؟! فقال : مامن عملى شىء أوثق عندى من اثنتين : أما احداهما فكنت لا اتكلم فيما لا يعنينى (الحديث : من حسن اســـلام المرء تركه ما لايعنيه) ، واما الأخرى فكان قلبى للمسلمين سليما !

الله . . ! ما أجمل وما اجل ! ما أصفى وما اشفى !

ولست أدرى ما اذا كان هو ذاته سيف رسول الله الذى قاتل به أبو دجانة فى غزوة احد أم هو سيف آخر ذلك الذى قاتل به أبو دجانة وشفى صدور قوم مؤمنين ابان خلافة أبى بكر الصديق ؟!

فلقد عاد أبو دجانة ليطل بوجهه فى صفحات التاريخ هناك فى اليمامة حيث جرت معركة من اخطر واحسم المعارك فى تاريخ ديننا الحنيف بين جيوش المســـلمين بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد وبين مسيلمة الكذاب مدعى النبوة واتباعه المضللين الذين تكاثروا . غير أن الايمان الصادق كان الاغلب والاشجع ، فاكتسح

مسيلمة فيمن فروا ، لكن سيف ابي دجانة كان وراءه بالمرصاد . أسرع أبو دجانة الى مسيلمة الكذاب فضربه بسيفه وقتله .

ومن « سخرية القدر » او من المفارقات حقا أن غزوة احد كان يقاتل فيها حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة جنبا الى جنب قتال الاسود حتى اســتطاع تابع من المشركين اسمه « وحشى » أن « يغتال » ـ بتحريض من هند امرأة ابى سفيان ـ أسد الله حمزة فى غزوة احد . ثم ان هذا الوحشى الحبشي اسلم بعد فتح مكة ـ والاسلام يجب ويغفر ماقبله ـ وامسى في عداد المسلمين ، وتدور الايام فاذا بوحشى المسلم يقاتل جنبا الى جنب مع ابى دجانة فى اليمامة ضد المرتدين عن الاسلام .. وليس هذا فحسب ، بل ان « وحشى » كان هــــو من رمى مسيلمة الكذاب برمحه فاصابه ثم اتبعه ابو دجانة فعاجل مسيلمة بضربة سيفه وقضى على الكذاب مدعى النبوة .

عاش أبو دجانة عمره بقلب كان للمسلمين سليما ، ثم اتى الله مستشهدا بقلب سليم .

عبدالله بن مسعود
وأبـي بن كعـب

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ١٨٥ البقرة .

فى تلك الليلة المباركة من هذا الشـهر المبارك كانت البداية اذ تنزل فى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر. بالحق أنزله الله على محمد ، وبالحق نزل . فتبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .

ان شهر رمضان هو شهر القرآن نزولا وتلاوة .

فحرى بنا فى شهر القرآن أن نعكف على قراءته وتلاوته وتدبر آياته أكثر مما كنا نعكف فى أيام أخر .

وحرى بى أيضا ــ وقد تعددت النماذج من الصحابة وما ترمز اليه ــ أن اطل على اثنين من الصحابة الاجلاء بينهما وبين الايات القرآنية الكريمة صلة حميمة ، فكانا من أشهر قارئيها ولمن ؟ لمن نزلت عليه .. لرسول الله صلى الله عليه وسلم . هما اذن فى طليعة حملة القرآن او كتبته . والقسمة عادلة بينهما ، فأحدهما من المهاجرين والاخر من الانصار ، ويبدو أن تشابههما فى هذا القرب من كتاب الله حدا بالنبى أن يؤاخى بينهما .

من السابقين ، بل من بين العشرة الاوائل الذين أسلموا، كان الصحابى عبد الله بن مسعود . وهو لم يصـاحب النبى فحسب ، بل لازمه ملازمة خدمة وجهاد . ان من بعض الصحابة من تصور أن ابن مسعود وأمه « أمابن عبد وبنت ود) هما من أهل بيت النبى عليه السلام لما يرون

من كثرة دخولهما على الرسول ولزومهما له . أما الجهاد فلا مشهد أو غزوة من غزوات النبى فاتت ابن مسعود على الاطلاق . ومن الواضح أن المشاهد والغزوات كانت مسألة بالغة الاهمية فى تقييم الرجال والحكم عليهم ، وكانما الجهاد هو فى مقدمة المعايير التى تفرق بين الصالح والطالح .

على أن ماجعل عبد الله بن مسعود واحدا من أكرم النجباء بين أصحاب النبى جملة اشياء أخرى ، منها صوته الرخيم وهو يتلو القرآن الكريم ، واهتماماته العلمية بكتاب الله سورة سورة حيث نزلت وآية آية وفيما أنزلت ، وروايات لاحاديث شتى عن النبى عليه السلام (فى الصحيحين وحدهما روى مائة وعشرين حديثا) . ولطالما تذاكر التابعون والمؤرخون عبد الله ابن مسعود ، بل بلغ من الصدارة انهم اذا قالوا «عبدالله» مجردا من اية افاضة ودون أن ينسبوه الى ابيه فانما يعنون عبد الله بن مسعود لا سواه !

كان النبى عليه السلام قد عهد الى ابن مسعود أن يأخذ ويحفظ القرآن عنه ، وهى منزلة ثقة وتكريم .

وذات يوم طلب النبى من عبد الله بن مسعود ان يقرأ عليه ماتيسر من القرآن فقال ابن مسعود :

يارسول الله ! اقرأ عليك ، وعليك انزل ؟! فقال عليه السلام : انى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأ ابن مسعود على النبى سورة النساء حتى انتهى الى هذه « الاية » « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ٤١ النساء قال عليه السلام : حسبك الان ! فالتفت ابن مسعود الى النبى ، فاذا عيناه تذرفان . .

ونتيجة لهذه الصحبة الخاصة التى يغبط عليها عبد الله بن مسعود ، كان من أعلم الناس بمعانى القرآن .

وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يمر بقوم من المسلمين فيهم عبد الله بن مسعود . فاخذ عمر يسال القوم : اى القرآن أعظم ؟ قال ابن مسعود : « الله لا اله الا هو الحى القيوم » ٢٥٥ البقرة قال عمر : فاى القرآن احكم ؟ قال عبد الله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان » ٩٠ النحل . قال : فاي القرآن أجمع ؟ قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . ٧ ، ٨ الزلزلة . قال : فاى القرآن اخوف ؟ قال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به » ١٢٣ النساء . قال : فاى القرآن ارجى ؟ قال : « ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ٥٣ الزمر . قال عمر : حقا ان فيكم ابن مسعود !

ومن هنا فقد كتب عمر الى اهل الكوفة انه يبعث اليهم عمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وطلب أن يقتدى أهل الكوفة بهما . واضاف فى كتابه قوله : وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى !

وانا لنقف احيانا حيارى أمام مانطالعه ويطالعنا من انباء هؤلاء الاولين وما يروى عنهم وما سجله بلسانهم المؤرخون وأشباههم ونتساءل : أكانوا حقا على هذا القدر من الحكمة والبراعة والبلاغة والرصانة ؟ أو لم يكن لهم من هم الا ان يحسنوا الالفاظ والمعانى فى حياتهم اليومية ؟ والرد على ذلك انهم بالتأكيد لا هم تكلفوا او تقعروا او اوعوا ، فتلك هى بيئتهم وموهبتهم ولغتهم وقد صقلتها التربية الاسلامية . ثم أن هذه ليست محض حياتهم

اليومية ، بل هي أضواء على مواقف منها جديرة بالرواية والعناية !

مثلا .. راقب موسيقى الالفاظ وطلاوة المعانى وخرير الحكمة فى هذا المشهد الذى يروى عن ابن مسعود . مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان فسأله : ماتشتكى ؟ قال : ذنوبى ! قال : ماتشتهى ؟ قال : رحمة الله ! قال : أو آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضنى ! قال : الا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه ! قال : يكون لبناتك .. قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ انى أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة . وانى سمعت رسول الله عليه السلام يقول من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا !

لله دره من قارىء يوصى بالقراءة !

فاما الصحابى الاخر الانصارى الكاتب القارىء فهو ابى بن كعب . مقاتل مع المقاتلين فى جميع غزوات النبى ، غير أنه ينفرد مع قليلين بأنه كان ممن يكتبون فى الجاهلية قبل الاسلام ، ثم مع اسلامه واطمئنان النبى اليه كان يكتب للنبى مايوحى اليه من قرآن . ورفعه النبى مكانا عليا اذ قال عنه : أقرأ أمتى ابى بن كعب ..

ذات مساء دعا النبى عليه السلام ابى بن كعب فقال له: ان الله تبارك وتعالى امرنى أن اقرأ عليك ! قال ابن كعب: الله سمانى لك يارسول الله ؟ قال : الله سماك لى ! فأخذت الرجفة أبى بن كعب وكاد أن يشرق بدموعه وتخنقه العمرات رهبا واهتزازا وخشوعا . وقرأ النبى عليه سورة البينة « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

من هذا المنطلق ومن تلك الحافظة الواعية المدربة كان لزاما أن يغدو أبي بن كعب أحد الاثنى عشر رجلا من المهاجرين والانصار الذين عهد اليهم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان أن يجمعوا القرآن لكتابته وتدوينه فى المصحف .

كان أبى بن كعب شيخا مهيبا ، ابيض شعر الرأس واللحية ، كثير العبادة قليل الكلام . أحب كتاب الله وعكف عليه !

وصدق الله سبحانه وتعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ٢٣ الزمر. وقد كان أبى بن كعب فى طليعة هذا الرعيل من الذاكرين ، فضلا عن كونه يشعر بتبعة الحفاظ على كتاب الله . فأخذ كلما ختم القرآن تلاوة فى ثمانى ليالى عاد يتلوه ويختمه وهكذا . أولم يصفه النبى عليه السلام بأنه اقرأ أمة محمد .

وذات مرة كان ابن كعب يجلس فى منتدى أمير المؤمنين عمر وجاء رجل اسمه جوبير يطلب حاجة من أمير المؤمنين. وقبل أن يجيب عمر الرجل الى حاجته تحدث أبى بن كعب فقال : ان الدنيا فيها بلاغنا وزادنا الى الاخرة ، وفيها أعمالنا ألتى نجازى بها فى الاخرة . فدهش جوبير وقال: من هذا باأمير المؤمنين ؟ فقال عمر : هذا سيد المسلمين أبى بن كعب !

على انه رغم عزوف أبى بن كعب عن « السلطة » وربما عن الدنيا كلها ، الا انه أراد أن يستوضح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد رآه يؤمر هذا ويوفد ذلك من كبار الصحابة فسأل ابن كعب عمرا : مالك لاتستعملني ؟! فقال

الخليفة الخبير الحصيف : أكره أن يدنس دينك !

وفى يوم عاصف شديد الريح والغبرة كان الناس يموج بعضهم فى بعض بالمدينة ، واقبل رجل يتساءل عن الخبر . . ماذا جرى حتى يتزاحم أهل المدينة ويخرجوا فى هـذا الجو الكفير ، فقيل له : اما انت من أهل هذا البلد ؟ قال : لا ! قالوا له : مات اليوم سيد المسلمين أبى بن كعب !

كعب بن مالك

الثلاثة الذين وصفوا بأنهم شعراء النبى صلى الله عليه وسلم هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . كانوا ينشدون القصائد بين يديه عليه السلام ، فيمدحونه ويسهبون فى ذكر المشاهد والغزوات ، أو يهجون قريشا ويندودن بأعداء الله ، او يبكون فى مراثيهم الشهداء الغوالى من المسلمين . كأنما لاتمر مناسبة من المناسبات دون أن تستجيب لها شهيتهم الشعرية الفصيحة المفتوحة ! حسان بن ثابت بين الثلاثة اغزرهم وأشهرهم ، وكعب بن مالك أفطنهم وأوزنهم ، وعبد الله ابن رواحة أرجزهم وأوجزهم ! وكان الشعراء حول النبى عليه السلام كثيرين ، بل أحسب أن معظم العرب فى تلك الحقبة من الزمن فطروا على قرض الشعر وارتجاله . ومن هنا فان ثمة آخرين شاركوا الشعراء الثلاثة وانشدوا فى تلك الاغراض ولكن لماما وعرضا ، اما لانهم مقلون بطبيعهم ، وأما لأن ! قضية الشعر » كانت قلقة وغائمة قد يرى البعض فيه كراهة . نظراً لما جاء فى سورة الشعراء من أنهم يتبعهم الغاوون ، وانهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لايفعلون ، مع أن الاستثناء الذى انتهت اليه الايات بعد ذلك وخصت به الذين آمنوا (من الشعراء) وعملوا الصالحات يرفع الشبهات والحرج ، ويبرأ ساحة الشعر الطيب ، تماما كما جاء فى سورة العصر من ان الانسان (على اطلاقه) لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .. فأمر الجزء (الشعراء) كأمر الكل (بنى الانسان) !

وكما اختلف قدر الثلاثة ـ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ـ فى الشعر اختلف فى الشجاعة . كان عبد الله بن رواحة أشجعهم وأقدرهم على القتال والقيادة ، وهو الذى عينه النبى عليه السلام قائدا بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤتة فلقى وجه ربه شهيدا بعد صاحبيه زيد فجعفر . وشاعرنا الثانى كعب بن مالك مقاتل جيد ، ولقد ثبت فى غزوة أحد وجرح أحد عشر جرحا . أما حسان بن ثابت فكان يخشى القتال ويتجنبه حتى تفكهوا « بجبنه » وتقبلوه كأمر واقع لاسبيل الى تغييره وزرع قلب أسد مكانه !

والذى أفردته ونوهت به كتب السيرة النبوية من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة قصائد عديدة . وأبيات فياضة ، ومع ذلك فربما كانت أشهر القصائد التى ألقيت فى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام هى لواحد آخر تأخر اسلامه الى مابعد فتح مكة ، وهو كعب بن زهير ابن أبى سلمى فى قصيدته الشهيرة فى مدح النبى والتى استهلها بقوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكهول

وفيها قوله :

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ولقد خلع النبى بردته على كعب بن زهير بعد أن ألقى قصيدته تلك ، ومن هنا جاءت بردة البوصيرى ونهج البردة لشوقى .

انني قدمت بحديث الشعر واستطردت فيه اذ أوحى به الصحابى الشاعر كعب بن مالك .

قدمت بكليمات عن الشـعر لأعرب - ولو فى لحن القول - عن بعض الوفاء لهذا الفن الجميل المنغم المعبر .

على أننى ماعمدت الى الحديث عن الصحابى كعب ابن مالك لكونه واحدا من هؤلاء الشعراء الثلاثة بل بوصفه واحدا من ثلاثة آخرين اعتبر حكايتهم - وحكايته هـو بينهم على وجه الخصوص - واحدة من أعذب وأوعظ الحكايات التى ذهبت مثلا على حسن عاقبة الصـدق فى القول وفى الحياة ، وعلى كمال وجلال التوبة ، حتى أن الله عز وجل انزل توبة هؤلاء الثلاثة فى سورة التوبة ، وباتت قرآنا يتلى وذكرى تنفع المؤمنين .

واعترف أننى وقعت فى غرام هذه الحكاية الى الدرجة التى جعلتنى تناولتها كثيرا فى محاضرات ومقالات من زوايا مختلفة . وأحببت هنا والحديث موصول عن صـحابة النبى الذين تعددت نوازعهم وفضائلهم الا تخلو هـذه المجموعة من ذكر كعب بن مالك ، وذلك بأن أعود الى تأمل وعرض حكايته مع الصدق والتوبة . وفى رايى ان ماروواه كعب بن مالك فى تلك الحكاية هو احلى قصائده .. وان جاءت نثرا لا شعرا .

والصحابى كعب بن مالك هو من الانصار الذين قطعوا المسافات للقاء النبى عليه الصلاة والسلام ومبايعته فى العقبة قبل هجرته عليه السلام الى المدينة . وكعب يعتز أيما أعتزاز بهذه البيعة التى لاتعدلها عنده - وبأسلوب الشعر - غزوة بدر التى فاتته . ان كعب بن مالك لم يتخلف عن بدر بالمعنى الصحيح للتخلف ، وانمـا بدر نشأت - كما يفسر هو بمنطقه - « بأن رسول الله انما

خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد » . وباستثناء بدر فقد شهد كعب كل غزوات النبى وشارك فيها ، وقد تقدم بنا انه جرح فى غزوة أحد جراحا نجلاء متناثرة . إما الغزوة التى تخلف عنها كعب بالفعل والتى هى أصل ولب الحكاية فهى غزوة تبوك .

وباختصار وبشىء من التنسـيق فى العرض والطول نمضى مع كلمات كعب بن مالك :

« تجهز رسول الله وتجهز معه المسلمون لتبوك ، وجعلت اغدو لاتجهز معهم فارجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى نفسي : أنا قادر على ذلك اذا أردت ! فلم يزل ذلـك يتمادي بى حتى شمر الناس الجد ، فأصبح النبى غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ! فقلـت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم الحق بهم . وهكذا حتى اسرعوا وسبقنى الغزو ، فهممت أن ارتحل فادركهم فلم أفعل .. ويالبتنى فعلت ! ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك فسأل : مافعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله حبسه براده والنظر فى عطفيه ! فقال معـاذ بن جبل : بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا منه الا خيرا . فلما بلغنى أن النبى عليه السلام قـد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى وحزنى ! فجعلت أتذكر الكذب ، واقول بماذا أخرج من سخط رسول الله غدا ؟ فلما قيل ان رسول الله قـد اظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت انى لا أنجو منه الا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه . وجلس عليه السلام فى المسجد ، فجـاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فيقبل علانيتهم وايمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم الى الله تعالى . حتى جئت فسلمت عليه فقال

لى : ماخلفك ؟ قلت : لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى فيوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد (تغضب) على فيه انى لارجو عقباى فيه من الله ! ولا والله ماكان لى عذر ! والله ماكنت أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! فقال رسول الله عليه السلام : أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك ! وعلمت أن رجلين صالحين هما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية قد تخلفا وقالا للنبى مثل مقالتى . ونهى النبى عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى نفسى . فلبثت على ذلك خمسين ليلة . وخلالها اعتكف صاحباى فى بيتهما ، وكنت أشب منهما وأجلد فطفقت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالاسواق .. ولا يكلمنى أحد ! وفى صبح اليوم الخمسين كنت أصلى اذ سمعت صوت صارخ يقول : ياكعب بن مالك .. أبشر ! فخررت ساجدا وعرفت ان قد جاء الفرج ! ثم انطلقت أتيمم رسول الله . وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة ، حتى دخلت المسجد ، فلما سلمت على رسول الله عليه السلام قال لى ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ! قلت : أمن عندك يارسول الله ؟ قال : بل من عند الله ! فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتى الى الله عز وجل ان انخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله . فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : يارسول الله ! ان الله قد نجانى بالصدق ، وان من توبتى الى الله الا أحدث الا صدقا ماحييت !

أنزل الله آياته

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم ، انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الااليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، أن الله هو التواب الرحيم . ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين » ١١٧ / ١١٩ التوبة .

حقيقة ان الصدق منجى ، وان الجزاء عليه أوفى .
ويتوب الله على التائبين الصادقين ..

العبادلـــة

الحديث ـ فى خاتمة المطاف ـ يتم بأربعة دفعة واحدة من شباب الصحابة . لعله يوجز عن ثلاثة منهم ويتعدى الايجاز قليلا فيما يخص أحدهم . الحديث هو عن الاربعة « العبادلة » وهم صحابة فتيان أو صبيان ، أبناء صحابة من عمد الصحابة ومن « المعهم » وأعظمهم قدرا وأثرا .

« العبادلة » يحمل كل منهم اسم عبد الله ، ولهذا يشار اليهم فى التاريخ الاسلامى بالجمع « عبادلة » وكأنما اجتمعوا فى طاقة أو صحبة زهور وورود واحدة .

انهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام . منهم من اسلم مع أبيه كابن عمر ، ومنهم من أسلم قبل أبيه كابن عمرو ، ومنهم من ولد قبل الهجرة بثلاث سنين فقط مثل ابن العباس ، ومنهم من كان أول المواليد بعد الهجرة مثل ابن الزبير . وكانت لولادته رنة أفراح غامرة حيث كان قد اشيع أن اليهود فى المدينة قد استخدموا السحر ليحولوا بين المسلمين والانجاب !

عبد الله بن الزبير بن العوام هو هذا « الصحابى » الصغير الذى لم يعاصر النبى عليه الصلاة والسلام الا أقل من عشر سنين ، ومع هذا فقد كان منذ أن تنفس الحياة جد قريب من رســـول الله بحكم مكانة ابيــه

الزبير ، وبحكم القرابة الوثيقة والجدود المشتركة بينه وبين النبى عليه السلام ، وبحكم أن خالته السيدة عائشة هي شقيقة أسماء أم عبد الله بن الزبير . ويروى البخارى أن عبد الله بن الزبير - بتوجيه من أبيه - جاء وهو ابن ثمان سنين الى النبى يبايعه فابتسم له عليه السلام ثم بايعه ! ومن هذه النشأة وتلك المبايعة ومن مواهبه المتدفقة اكتسب عبد الله بن الزبير ما اكتسب فى عبادته التى لا تلوى على شيء الا مخافة الله ، وفى شجاعته التى لا تبالى حين يقتل وهو مؤمن على اى جنب كان فى الله مصرعه ، وفى فطنته المبكرة وسعة احاطته بما يدور حوله حتى انه حفظ عن النبى وروى عنه فى الصحيحين . وقد اشترك عبد الله بن الزبير مع أبيه فى واقعة الجمل ، ولما استشهد أبوه فيها لم يعتزل عبد الله « السياسة » ولم يسع للانتقام . بل شارك فى الغزوات الاسلامية وكان له نصيب ملحوظ فى فتح شمال افريقيا مع القائد عبد الله بن أبى السرح . وربما يخفى على كثيرين ممن لم يقرءوا تاريخ تلك الرحلة ان هذا المولود الاول فى الهجرة قدر له أن يغدو أميرا للمؤمنين! فبعد موت معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وستين هجرية طفق عبد الله بن الزبير ينظر فى الامر ويشاور من حوله ، فاجتمع رأيه مع رأيهم على كونه أجدر بالخلافة من يزيد بن معاوية . وعملها ابن الزبير بالفعل ! بقى يزيد على ملكه فى الشام فى حين بايع الناس عبد الله ابن الزبير أميرا للمؤمنين واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، وحج بالمسلمين ثمانى حجج . فلما جاءت السنة الثامنة من خلافته أى فى سنة اثنتين وسبعين هجرية ، لم تتحمل الدولة

الاموية مزيدا من السكوت ، فسيرت اليه جيشا هائلا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى فحاصره فى مكة وشدد عليه النكير ستة أشهر . ولما راى عبد الله بن الزبير أن يستسلم قالت له امه كلمتها البليغة الشهيرة : لان تموت كلما (أى بالجـــراح) أحب الى من أن تموت سلما ! فقال : أخشى أن يمثلوا بى وبجثمانى قالت : ان الشاة لا تألم بالسلخ ! فقاتل حتى اســـتشهد ، وانتهت الخلافة « المجزوءة » لامير المؤمنين عبد الله ابن الزبير بن العوام .

أما عبد الله بن عباس فهو أحد « ملوك » الفقه والافتاء ورواية الاحاديث عن النبى عليه الصلاة والسلام . حتى أن له فى الصحيحين (البخارى ومسلم) مائتين واربعة وثلاثين حديثا . ولان العرب مولعون بالتشبيه فقـــد كانوا يشبهونه بالبحر لسعة علمه ، كما شبهوه بالقمــر لوسامته وجماله ، فكانوا يقولون مارأينا القمر ليلة أربع عشر الا وذكرنا وجه عبد الله بن العباس !

وقد استجيبت فيه دعوة النبى عليه السلام ، فعندما توسم فى عبد الله بن عباس نجابة وقوة حافظة وهو بعد صبى صغير .. دعا له : اللهم بارك فيه ، وفقهه فى الدين ، وعلمه الحكمة والتأويل ! فلا غرابة ــ على صغر سنه ــ أن يرجع اليه أمير المؤمنين عمر فى بعض الفتاوى بين الحين والحين .

واذا كان عبد الله بن الزبير قد رشح نفسه للخلافة وحازها من حيث اعرض عنها عبد الله بن عباس ، فان من نسل ابن عباس من اقاموا وتولوا اطول خلافة فى تاريخ الامة الاسلامية .. خلافة وحكم العباســـيين الذين اعقبوا الدولة الاموية !

فأما عبد الله بن عمرو بن العاص الذى أسلم قبل أبيه ، فقد كان على حداثة سنه من فضلاء الصحابة ومن الزهاد المتعبدين المجتهدين . قال له النبي عليه السلام حين لقيه ذات يوم : بلغنى انك تقول لأقومن الليل وأصومن النهار ماعشت ! فقال ابن عمرو : قد قلت ذلك يارسول الله ! فقال عليه السلام : لاتفعل ! وصم وافطر وقم ونم ! ولكم تكرر نصح النبى عليه السلام فى هذا الشأن ، مرة مع عثمان بن مظعون كما تقدم بنا ، ومرة مع عبد الله بن عمرو ، ومع غيرهما . ذلك أنه بقدر ماكان يدعو النبى الى عبادة الله مافتىء يحذر من المغالاة ويؤكد أن الدين يسر لا عسر وألا رهبانية فى الاسلام . ومن الطريف أن هذا الشاب المتحمس (عبد الله بن عمرو) عندما راح النبى يحاوره فى شأن صيامه وقيامه وانتهى الى تقويمه على حد يطيق الدوام عليه ، كان عبد الله يود لو تركه يزيد على ذلك . غير أن هذا الشاب عندما كبر وضعف تمنى لو كان تقبل رخصة التخفف من الصيام والقيام ، ولكنه كره أن يترك فى شيخوخته شيئا فارقه عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

ويروى أن أبا هريرة قال : ماكان احد اكثر حديثا عن رسول الله منى الا عبد الله بن عمرو ، فقد كان يكتب وكنت لا أكتب .

وقد كانت المحنة الحقيقية لعبد الله بن عمرو بن العاص انه ابن عمرو بن العاص الذى ناصر معاوية ضد الامام على بن ابى طالب ! وقد مر بنا ماكان يدور بينه وبين أبيه من حوار ومن عتاب على خذلان على بن ابى طالب ، وكيف أن معاوية ضاق به ذرعا ، وسأله ما الذى يبقيه

معهم فقال : لقد شكانى أبى الى رسول الله فقال لى عليه السلام اطع أباك حيا ولا تعصه ! لذلك أنا معكم ، ولست اقاتل ! أما فى الفتوحات فلقد قاتل عبد الله بن عمرو كانت معه الراية فى فتح اليرموك .

وعندى أنه من أحكم مأثوراته قوله « ان خيرا أعمله اليوم أحب الى من مثيله مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . وذلك اننا كنا فى زمن الرسول يهمنا الاخرة ولا تهمنا الدنيا ، ونحن اليوم مالت بنا الدنيا » !

اما عبد الله بن عمر بن الخطاب فذلكم — على فتوته فى زمن النبى عليه السلام — صحابى جليل بمعنى الكلمة ابن صحابى جليل بمعنى الكلمة !

أسلم عبد الله وهو صبى مع أبيه . وهاجـــر الى المدينة . وعندما شرع النبى يتجهز لغزوة بدر كانت سن عبد الله بن عمــر ثلاث عشرة ســـنة ، وعـــرض أن يشارك ولكن النبى رده لصغره ، ثم رده مرة أخرى فى غزوة احد ، ثم قبله فى غزوة الخندق حيث كان قد بلغ ست عشرة سنة ، ومن ثم لم تفته كل الغزوات التالية.

على أن عبد الله بن عمر ورث عن أبيه ابن الخطاب الكثير من صفاته ، وعرف أكثر ماعرف بالصلاح ، وشهد له النبى بذلك فقال « ان عبد الله بن عمر رجل صالح » .

وروى عبد الله بن عمر عن النبى فى الصحيحين مائتين وثمانين حديثا ، وكان كلما ذكر النبى عليه الســــلام دمعت عيناه حبا واتباعا وشوقا ! ورغم أن الدنيا كانت تسعى اليه فانه كان يعرض عنها . رشح للخلافة يوم التحكيم فازور عنها ونأى بجانبه . وسمعوه يلهج فى سجود له بالكعبة بتسبيح لله ويتمتم : يارب انك لتعلم أنه مايمنعنى من مزاحمة قريش على هـــذه الدنيا الا

خوفك ! وكان عدد من الصحابة والتابعين يجمعون على قولهم : ما منا احد الا مالت به الدنيا ومال بها الا عبد الله بن عمر ، لم يفتن ولم يتغير !

والذي يروى عن عبد الله بن عمر في كتب السيرة والتاريخ الاسلامي كثير كثير ، حتى لكانه يرث أيضا عن ابيه عمر بن الخطاب بعض ذلك « الحضور التاريخي » !

اراد امير المؤمنين عثمان بن عفان أن يستعمل عبد الله ابن عمر وأن يوليه سلطة فقال له ابن عمر : اما سمعت النبي يقول من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ ؟ فقال عثمان : بلي ! قال ابن عمر : فاني أعوذ بالله أن تستعملني ! ومثلما أعرض ابن عمر عن السلطة فقد اعرض عن الفتن واعتزلها عندما تضاربت وادلهمت الاهواء ودبت الخلافات ، فلم يناصر احدا على أحد ، وفرغ لعلمه وفقهه وعبادته . وقال لمن ساله في ذلك : أنا قاتلت حتى كان الدين لله ولم تكن فتنة ، وانكم قاتلتم حتى كان الدين لغير الله وحتى كانت فتنة ! وبعد مقتل عثمان ابن عفان قيل لعبد الله بن عمر : انك سيد الناس وابن سيد الناس ، فاخرج نبايع لك الناس ! فقال : والله اني آبى أن يراق من أجلي محجمة دماء ! وخوفوه وطمعوه فما تزحزح حتى آخر عمره .

وكانت له فلسفته ووجهة نظره . وهذه هي امثلة من فلسفته الخاصة وسلوكه .

قيل لابن عمر في زمن الفتن والخوارج والظلمات التي بعضها فوق بعض : اتصلى مع هؤلاء ومع هؤلاء .. وبعضهم يقتل بعضا ؟! فقال : من قال حي على الصلاة اجبته ، ومن قال حي على الفلاح اجبته ، ومن قال حي

على قتل اخيك المسلم وأخذ ماله قلت لا !

وكان يقبل عطاء الخلفاء ، ويقول لا أسأل أحـــدا شيئا ، ولا أرد مارزقني الله به !

وكان يحب الطعام ولكنه يصبر في غيابه ، فلربما مر عليه شهر وهو يبيت طاويا راضيا ! بل انه كثيرا ما كان يشتهي الطعام الجيد ومع ذلك يجود به . طلب من أهله أن يشتروا له عنبا ، فجاءوا له بعنقود من عنب طيب ، ولما هم أن يفطر عليه مر سائل بالباب فقال لأهله ناولوا هذا العنقود لهذا السائل ! فقيل له ســبحان الله ! شيئا اشتهيته ، فهل لنا أن نعطى السائل غيره ؟! فقال اعطوه العنقود ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممــا تحبون !

ودخل الحجاج بن يوسف الثقفي المسجد يخطب الناس ، وكان عبد الله بن عمر جالسا بالمسجد فأطال الحجاج في خطبته ، فناداه ابن عمر : أيها الرجل حانت الصلاة فاقعد ! ولم يزل الحجاج يخطب وابن عمر يأمره بأن يكف ثلاث مرات . فلما لم يستجب قال ابن عمر للناس : « أرأيتم ان نهضت للصلاة أتنهضون ؟ قالوا : نعم ! فنهض ونزل الحجاج وصلى الناس ! فلما انتهوا من الصلاة سأل الحجاج ابن عمر عما حمله على ذلك . قال : انما نجيء للصلاة ، فاذا حضرت الصلاة فليصل الناس ، ثم بقبق بعد ذلك بما شئت من بقبقة !

وعلى اختلاف في التفاصيل فان خاتمة عبد الله بن‌عمر كادت تتشابه وخاتمة أبيه عمر بن الخطاب الذى طعنه المجوسى بخنجره وهو فى المسجد . فقد كان عبد الله ابن عمر يصلى بالحرم الشريف فأصابه رمح رجل من أصحاب الحجاج فجرحه . واعتل ورقد فى بيته ، فجاء

الحجاج يعوده فسأله : من الذى أصابك ؟ قال ابن عمر : أنت قتلتنى ، حملت السلاح فى حرم الله فأصابنى بعض أصحابك !

وأوصى ابن عمر ان يدفن ليلا حتى لايعلم الحجاج فيصلى عليه !

وطويت صفحة واحد من أكرم شباب الصحابة وشيوخها . ولكن هل طويت صفحته حقا ؟ أبدا انها لمنشورة مأجورة .. وفى عليين !

ان هؤلاء الصحابة ممن ذكرت وممن لم أذكر خالدة صفحاتهم مطيبة مطهرة .

ان كلا منهم قيثارة تعزف بين « سمفونية » لا ضريب لها فى سمع الدهر ولا أقوى ولا أعذب !

فمتى يارب نسمع ؟ ومتى يارب نفيق ؟ متى نهب من مرقدنا ومن كوابيسنا ؟ متى نجاهد حقا فى سبيل الله ومن أجل عروبتنا وحريتنا ورخائنا وعزتنا ! متى نسير على درب محمد رسول الله والذين معه ؟

لعلنا نفعل ذلك بنقاء وذكاء الوعى ، وباستجابة وصلابة الارادة ، وبأن نعلم أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

وسلام على النبى وصحابته .

فهـــرس

صفحـة

رقم الايداع ٣٤٠٩ ـ ٨٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ٢٣٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش :ـ

سوريا ٢٢٠٠ ق . س ، لبنان ٢٢٠٠ ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠ فلس ، العراق ٢٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢٠٠٠ مليم ، الخليج ١٥٠٠ فلس ، الصومال ١٥٠ بنى ، لاجوس ١٥٠ بنى ، عدن ٢٠٠٠ سنت ، لندن ٢٥٠ سنتا ، اثينا ٢٥٠ دراخمة ، كندا ٦٠٠ سنت ، البرازيل ٧٠٠ سنت ، استراليا ٧٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سودانى ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، غزة والضفة ١١٠ سنت ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشماليه ٢٠ ريالا ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

هـذا الكتاب

بسياق القصة التاريخية فى طلاوتها وتشويقها ، وباسلوب الشعر فى حرارته وصدقه .. صنف الكاتب الشاعر مصطفى بهجت بدوى هذا الكتاب الذى يعتز " كتاب الهلال " بموضوعه مع مطلع شهر رمضان المبارك فهو المناسب له ولكل الشهور !

واذا كان للمحبة منحى خاص فى التعبير فيمكن القول انها هى التى خطت سطور " سلام على النبى وصحابته " محبة متاصلة لنبى الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وايمان عاطفى وعقلانى برسالته ، واعجاب بشخصه متدفق لاينفد ، ومحاولة للتواصل بين الماضى والحاضر .

وفى الكتاب فصول عن النبى . عن خلقه العظيم ، وعن ارهاصات الرسالة المحمدية وتدرجها .. وقطوف من السيرة النبوية ، وأخرى فى وصفه ، وفى خدمته وفى ازواجه امهات المؤمنين .

حتى القسم الثانى من الكتاب والذى تناول فيه حياة الصحابة لم يخرج عن كونه حديثا متصلا عن محمد رسول الله .. فالذين معه ذابوا فيه جزءا لايتجزأ منه ، وآزروه فنصروا دين الله وهكذا توطدت بالنبى وصحابته دعائم الاسلام وارتفعت راياته فى مشارق الارض ومغاربها كأسمى واكمل شريعة لخير الانسانية والدنيا والآخرة ..

ومتعة تتجدد ولاتنضب ابدا ان نكتب او نتأمل او نقرأ - بطرائق شتى - حياة الخلفاء الراشدين الاربعة ابى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى .. ومعهم نماذج من نضال عدد من الصحابة الكرام الكبار بين مهاجرين وانصار ، وهم هنا نحو نيف وثلاثين صحابيا رضوان الله عليهم جميعا .

عدد خاص ١٠٠ قرش

